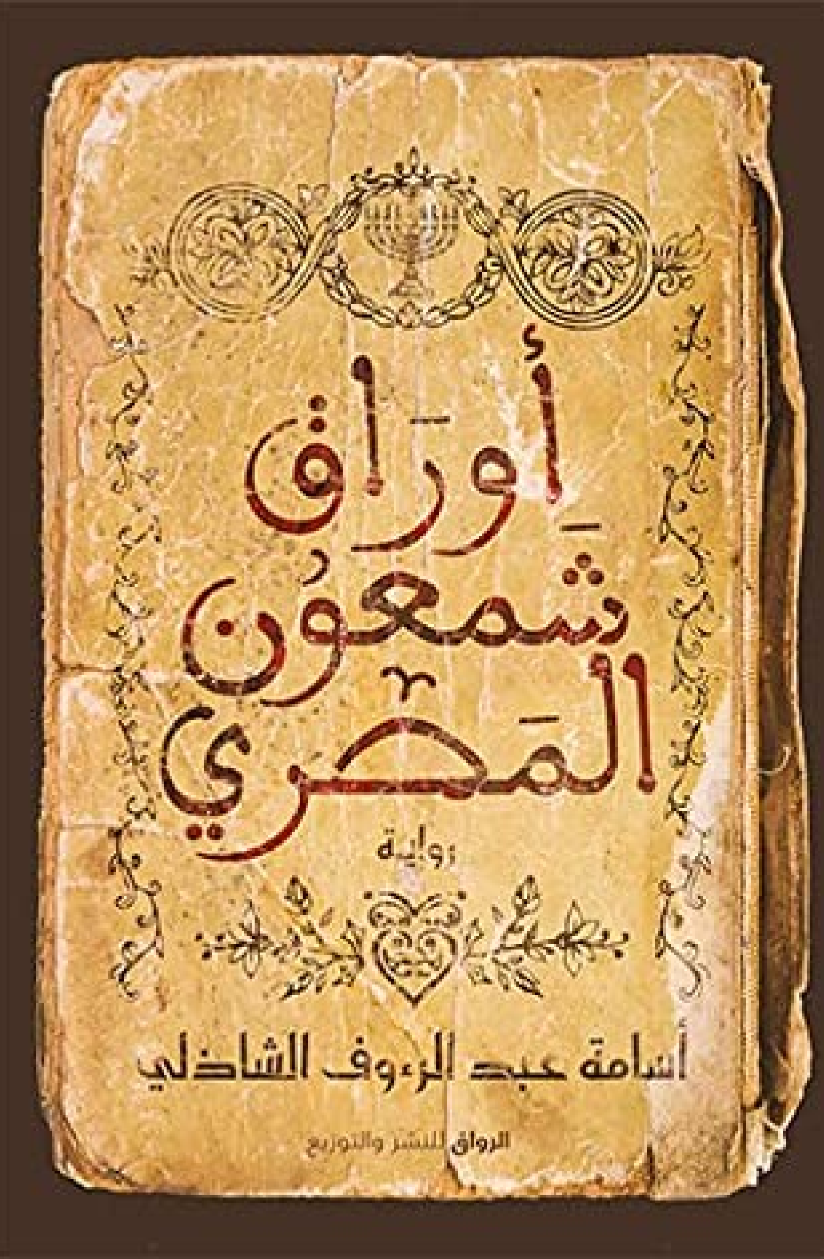
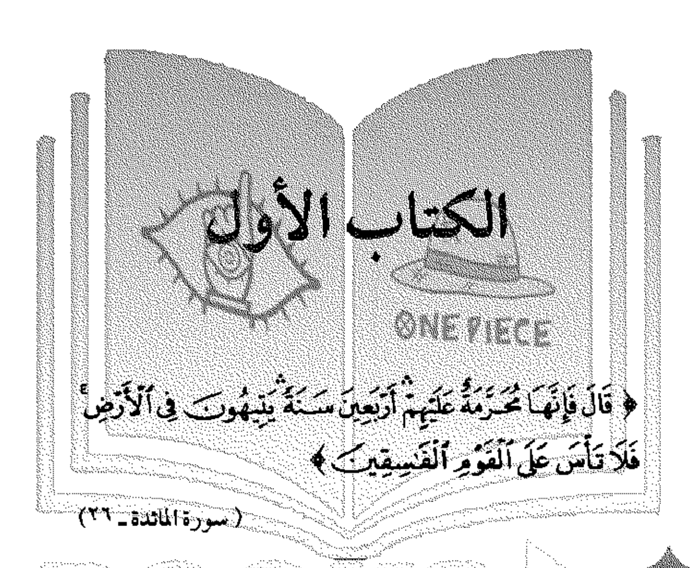


أوراق
شمعون
المصري
رواية
أسامة عبد الرءوف الشاذلي
الرواق للنشر والتوزيع

أوراق شمعون المصري



الرواق للنشر والتوزيع



الكتاب الأول

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

(سورة المائدة ـ ٢٦)

«أَنا الرَّبُّ قَدْ تَكَلَّمْتُ. لأَفْعَلَنَّ هذا بِكُلِّ هذِهِ الجَماعَةِ الشِّرِّيرَةِ المُتَّفِقَةِ عَلَيَّ. فِي هذا القَفْرِ يَفْنَوْنَ، وَفِيهِ يَمُوتُونَ».

(سفر العدد: ١٤)

الورقة الأولى

رددت جنبات الوادي أصوات الأبواق التي انطلقت من خيمة الاجتماع فوق جبل «نبو»، تدعو الناس لاستئناف الرحيل، مضت سويعات قليلة، تحركت بعدها جموع الشعب لتقطع الشوط الأخير في الرحلة إلى الأرض المقدسة، الرحلة التي استغرقت ما يقرب من خمسين عامًا، ولم يتبق منها سوى بضعة أيام يعبرون بعدها نهر الأردن إلى أرض الميعاد، حمل زعيم كل سبط من الأسباط رايته وساروا في ترتيبهم المعهود، تقدم بنو (هارون) الركب يحملون تابوت العهد على الأكتاف وينفخون الأبواق بين الفينة والفينة، وقد انسل من ورائهم مئات الألوف من شعب بني إسرائيل، يثيرون خلفهم سحابة من الرمال هي كل ما تبقى من ذكريات عاشوها فوق جبل الأحزان، اختلط حنين النوق وخوار الأبقار ببكاء الرجال والنساء، فلأول مرة يتحرك الركب دون المعلم والمخلص، فقد مات النبي (موسى)؛ مات بعد أن أراه الله الأرض المقدسة أمام عينيه من فوق الجبل الأحمر ثم قبضه إليه، تاركًا الشعب الذي أخفق كثيرًا من قبل وحده، أمام الاختبار الأعظم والامتحان الأهم، لم يدر بخلدهم قط أنه مفارق، ولشد ما جزعهم أن يغادروا منازلهم دون أن يلقوا على نبيهم النظرة الأخيرة، ودون أن يعلموا موضع دفنه، فقد أمر خليفته «يوشع بن نون» بألا يعلمَ أحدٌ موضعَ قبرِهِ، وألَّا يوضعَ على قبره شاهد.

ذابت سحابة الرمال تحت طيات الغمام المتراكبة أسفل السفح، وتبددت

أصوات الجموع أمام صفير الرياح المتسارعة فوق الجبل الموحش، ولم تمض دقائق حتى مالت الشمس إلى الغروب، توكأ على عصاه ثم قام من جلسته واتجه إلى باب الغار الذي آوى إليه طوال شهر مضى منذ وفاة النبي، سار في وهن بظهرٍ أحنته السنون إلى خارج الغار، حمل بيديه المعرقتين كومة من الحطب، أشعلها بصعوبة، ثم جلس يستضيء بنورها ويستدفئ بنارها، امتدت يده إلى صُرَّة من القماش، فتحها ليخرج منها أنيسيه في عمره الذي مضى: الدواة والقلم، تناول لفائفه المصنوعة من أوراق البردي بجهد يشي بحجمها الضخم، تحسست يداه السجل الذي أفنى عقوداً من عمره في كتابته في حنان، ثم فتحه برفق على صفحته الأخيرة، غمس قلمه في الدواة وشرع يكتب بيد أرعشتها سنوات العمر وبرودة الجو:

«وبعد، فهذا ختام ما كتبه (شمعون بن زخاري)، والملقب بشمعون المصري، عن أخبار بني إسرائيل في أرض سيناء، وما كان من أمرهم منذ عبور البحر وحتى وفاة نبي الله (موسى) بن عمران، وأعلم أني ما كتبت في هذا الرقاع إلا أَحَدَ أمرين؛ أمرًا شهدته بعيني أو أمرًا سمعته من رجل من الرجال الثقات، وأُشهِد الرب (إيل) أني ما بغيت بهذا الكتاب مجدًا ولا شرفًا، وإنما إظهار شهادتي على جيل من شعب بني إسرائيل، اصطفاه الله وأنجاه بمعجزة من عدوه، ثم غضب عليه وأهلكه في تلك البرية القفراء بعد أن أذاقه شقاء الارتحال ومرارة التيه، هذا كتاب لا أدري من سيكون قارئه، فأيًّا من تكن أرجو أن تتذكر كاتب هذه الأبواب بالرحمة وأن تدعو له بالغفران».

شمعون بن زخاري بن رأوبين الملقب بشمعون المصري.

تم في الليلة الأخيرة من الشهر الثامن لسنة ستين بعد الخروج

* * *

الورقة الثانية

لم أكن قد جاوزت السابعة من عمري يوم أن حدث العبور، ومع ذلك ما زلت أذكر بعض أحداث ذلك اليوم بوضوح وكأني حديث العهد بها، ولعل كثرة الترانيم التي تغنينا بها منذ الصغر تمجيدًا للرب على النجاة من فرعون هي التي جعلت ذكريات تلك الأيام راسخة في وجداني منذ ذلك العهد البعيد، وسأقص ما التصق بذاكرتي عن هذا اليوم، بعيدًا عن ترانيم الصلاة وأناشيد بيت العبادة، فمهما قرأت أنت في صلاتك، فلن تتخيل مشاعر طفل صغير عاش معجزة لم تحدث سوى مرة واحدة على هذه الأرض، إن أول ما أتذكره عن ذلك اليوم هو ذلك الزحام الشديد من الناس الذي جاوز عشرات الآلاف من البشر، أتذكر أيضًا أبي الذي كان يتصبب عرقًا وهو يسحب الحمار الذي يحملني ويحمل أمي بإحدى يديه، وبيده الأخرى يسحب شاة نحيفة هي كل ما استطاع أن يحصل عليه من منزلنا السابق بأرض الجوشن، كان الجو حارًّا قائظًا في ذلك اليوم من أيام الصيف، ولولا غمامة من السحاب ظللت الجموع ورافقتنا طوال الرحلة لهلكنا، كنت أشعر بضمة أمي إلى صدرها وكأنها تحميني من عدو ترقبه، وبين الفينة والفينة كنت أشعر بقطرات دموعها تتساقط على رأسي، فجأة اشتد الهرج بالجموع حينما علا صوت رؤساء العشائر يأمرون الناس بالإسراع نحو البحيرة التي تقع عند موضع عند البحر يقال له «فم الحيروث»، رأيت الناس يلقون بأجولة الطحين وأمتعتهم إلى الطريق،

حتى يتسنى لهم الإسراع في السير، أما أبي الذي احتاط لذلك الموقف فقد شق الصفوف بحمولته اليسيرة حتى يكون على مقربة من الصف الذي يسير فيه النبي.

سألته أمي في وجل:

ـ هل سيتبعنا فرعون؟

لم يلتفت إليها وظل مهرولًا في سيره، وقال:

ـ يقولون إنه قد خرج بمركباته من حامية (إيثام).

اشتدت ضمة أمي لي إلى صدرها، وتلاحقت أنفاسها ودموعها وهي تلهج للرب بالدعاء.

اقتربت الجموع من الموضع الذي أمر به النبي، وبدت بحيرة الماء الهادئة وسط الصحراء كمرآة من الفضة تعكس أشعة الشمس. هدأ السير، وتقاربت الصفوف مع اقتراب الجموع من مياه البحيرة، وتعالت صيحات استنكار من بعض الناس:

ـ كيف سنعبر البحيرة؟ هل ستسبح النساء والأطفال والمواشي؟

رأيت الحيرة والقلق على وجه أبي الذي لاذ بالصمت انتظارًا لما سيأمر به النبي، وفجأة علا صراخ في الصفوف الخليفة، نظر الجميع إلى الخلف فرأوا سحابة من الرمال قد غطت السماء، وبدا أن جنود فرعون قد اقتربوا بمركباتهم، علا صراخ النساء، فبكى الأطفال، واشتدت صيحات الرجال:

ـ هيا يا (موسى)! افعل شيئًا، سيدركنا جيش الفرعون!

تطور الأمر إلى لوم وتقريع، وأتت صيحات من بين الصفوف تستنكر الوضع الذي آلوا إليه:

ـ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟

ـ ألم يكن بمصر قبور حتى ندفن بها؟

ـ ألم يكن خير لنا أن نخدم المصريين بدلًا من أن نموت في البرية؟

تزايدت سحابة الرمال وحمل الهواء أصوات سنابك الخيل وصرير العجلات، امتقعت الوجوه، وماتت القلوب بين الضلوع، فجأة جاء صوت الكليم الجهوري يملأ جنبات الصحراء وهو يقول:

ـ كلا.

ثم لم نلبث أن رأينا العصا تشق الهواء ثم تهبط في سرعة لترتطم بسطح البحيرة، أي معجزة تلك التي لم ير البشر مثلها؟! لم تكد تمس العصا سطح البحيرة الساكن، حتى تقلب ماؤها كقدر يغلي على النار، هبّت ريح عاتية فاشتد المد على جانبي البحيرة، ثم علا الموج وانفرق الماء إلى فرقَين عظيمين على جانبيها، بدا الطين اللزج في قعر البحيرة أمام أعيننا كطريقٍ مُعبَّد للمرور، وصرخ رؤساء العشائر في الجموع ليسرعوا بالمرور، تدافع القوم مهرولين خشية أن يرتد المد عليهم، أفلت أبي الشاة الوحيدة التي خرج بها من مصر وجذب الحمار الذي يحملنا بقوةٍ كادت أن تَزْلُقَهُ على الطين اللازب عدة مرات، ملأ رذاذ الماء المالح وجهي وأنفي، وشعرت بقوة الريح تكاد أن تقذف بي من فوق الحمار، فتشبثت برداء أمي التي كانت تصرخ فزعًا وهلعًا وأنا أبكي لبكائها، وصل الناس تباعًا إلى الشاطئ الآخر، تساقط الشيوخ من الإجهاد والتعب، وعاون الشباب النساء والأطفال والدواب في الوصول إلى بر الأمان، اقتربت سحابة الرمال بشدة، وصارت المركبات الحربية على مرمى البصر والطريق لا يزال مفتوحًا، رأيت بعيني الجنود فوق العربات يحملون الرماح والأتراس، ويتأهبون للعبور للفتك بنا، تعالت صرخات الشعب الموشك على الهلاك يرجون من نبي الله أن يعيد البحر كما كان، أغمضت أمي عينيّ بعصابة شعرها حتى لا أرى ما سيحدث، ثم أحاطتني بذراعيها، وأدارت ظهرها للبحر وقد استسلمت للموت من قبل أن يأتينا، فجأة سمعنا صوت ارتطام الماء كرعدٍ هزَّ جنبات الصحراء، اشتدت ضمة أمي لي حتى كادت أن تحطم ضلوعي، بكيت من خوف ورعب لما أشعر بهما من قبل، ولكني توقفت حينما سمعت

التمجيد والتهليل من شعب بني إسرائيل، استدارت أمي ورفعت العصابة عن عيني، فرأينا البحر المتلاطم الذي أطبق على جيش الفرعون، وقد طافت على سطحه عربات الجيش المحطمة، وأتراس الجند الغرقى، لم تترك الأمواج منهم أحدًا، حتى الخيل والبغال، هلكت مع الجنود والفرسان.

وبينما كان الناس يتعانقون فرحًا، ألقت الأمواج بقبعة أحد الفرسان إلى الشاطئ، فقمت من مجلسي مسرعًا، وذهبت نحو القبعة فالتقطها ثم ارتديتها، غاصت رأسي في القبعة، حتى أخفت عيني، ضحك أبي وأمي، وانتزعها أحد أقراني من فوق رأسي، فهرولت خلفه وانتزعتها منه، ولقد ظلت تلك القبعة رفيقتي لسنوات بعد ذلك، ولعلها كانت سببًا في أن يطلق عليّ أقراني في الصبا لقب «شمعون المصري» كلما رأوها معي. فضلًا عن أنني كنت الطفل الوحيد من بني إسرائيل الذي حظِيَ بأم مصرية.

* * *



الورقة الثالثة

الليلة هي الليلة الثالثة بعد الخروج وهي ليلة الاحتفال والشكر، كان القمر بدرًا منيرًا، والسماء الصافية تتلألأ بالنجوم، وكأنما انقشعت غيومها، وسكنت ريحها خشوعًا لأصوات الترانيم التي شقت هدوء الليل في تلك البقعة المباركة من صحراء سيناء، أضيئت وجوه القوم بالحبور والفرح، ولم تجد مريم أخت (هارون) حرجًا في أن تمسك الدف وتنقر عليه بيدها نقرات أيقظت الفرح في القلوب وهي تقول:

ـ انشدوا للرب، افرحوا وارقصوا، اجعلوا الوحوش في البرية تعلم أن الرب إله إسرائيل قد قضى على فرعون إله المصريين!

تبارى الغلمان والفتيان في النقر على الدف وضرب الصنوج، وأنشدت بعض الفتيات أناشيد أثارت البهجة في النفوس، ثم وزعت صحاف الطعام، وأكل الشعب من الخبز ولحوم الذبائح التي أعدت من قرابين الاحتفال بالخروج، فقد قَدّم كلُّ سبط من الأسباط في صباح ذلك اليوم قربانًا للشكر؛ كبشًا أَقْرَنَ، وصحنين كبيرين أحدهما مملوء بالدقيق، والآخر مملوء بالزيت، وعشرة أعواد من البخور، ذُبِحت الأكباش على مذبحٍ من الحجر، وصُنِع الخبز من عجين غير مُخمّر من الدقيق والزيت، ثم أقيمت المأدبة على رائحة البخور المباركة، فأكل الناس، وامتلأت البطون بعد الجوع، وسكنت النفوس بعد القلق.

أما اليومان التاليان فقد قضاهما الشعب في جهد وتعب، فقد حصرت كل

قبيلة ما لديها من أغنام وأبقار وحبوب وطحين، ثم قُسِّم المجموع بالتساوي على القبائل الاثنتي عشرة، ثم لم يلبث الرجال أن خرجوا للبحث عن المياه، وبعد جهد مضنٍ لم يجدوا سوى بئر ماء وحيدة كانت مصدر الحياة لآلاف الأنفس منهم الشيوخ والنساء والأطفال.

واحتمل الناس نقص الطعام ولكنهم لم يصبروا على شح الماء، تزاحموا على البئر ونشبت بينهم المشاحنات والمعارك، وأسفر الزحام عن بغضٍ، نال أمي نصيب منه.

استيقظت ذات صباح على صوت بكائها، وانتبهتُ من نعاسي على كلماتها التي اضطربت حروفها من الغضب وهي تقول لأبي:

ـ أُهِينَتْ زوجُك على مرأى ومسمع من الناس ولم ترد عنها، كان أكرم لي أن أظل بين أهلي في مصر.

أمسك بيديها وقال مهدئًا من روعها:

ـ بل أنتِ بين أهلكِ وقومكِ.

اشتد بكاؤها وقالت:

ـ غادرت جنات مصر إلى تلك الصحراء القاحلة، وكدت أموت أنا وطفلي غرقًا فداء لديني، وفي النهاية أُردُّ عن البئر، ثم تُعيّرني تلك الأفعى (تقصد عمتي باتشيفا) بأنني مصرية! ما الذي يجعلها أفضل مني عند الرب؟!

ضمها أبي إليه فألقت برأسها على كتفه باكية، مسح على رأسها في رفق وقال:

ـ والله إنك أفضل منها عند الرب، ألم يقل نبي الله (موسى) أن كل من آمن بالرب، وجاء بقلب نقي يكن الرب حليفه؟! وهل هناك من هو أنقى منك قلبًا يا (رومانا)؟! دعي أمر (باتشيفا)، ولا تلتفتي إلى حديثها، فإن (باتشيفا) إن لم تجد من تكرهه كرهت نفسها!

والحقيقة أن حديث البئر هذا جعلني أدرك منذ الصغر أني مختلف عن الآخرين، وجعلني أدرك كذلك أن كثرة الخضوع والمذلة لا يورثان قلب المرء

شفقة وعطفًا، وإنما يملأن قلبه غلظة وقسوة، واستكبارًا على من هم دونه. ومهما يكن من شيء فإن قصة أبي وأمي كانت ترنيمة حُبٍّ تناقلها الناس لعقود حتى بعد وفاتهما، فمن ذا الذي لا يعلم بقصة الحب التي جمعت بين «زخاري» النجار والجارية المصرية «رومانا»؟

اسمها يرادف في قلبي الحب والعطاء، ويعني في لغة قومها «المرأة المُحِبّة»، كانت جارية في منزل السيد النبيل (بينو) في مدينة لا يفصلها عن قرية أبي سوى يَمٍّ صغيرٍ يتفرع عن نهر أعظم يشق أرض مصر اسمه النيل، ورغم قرب المسافة بين المكانين إلا أن الفارق بينهما كان شاسعًا، فشتان ما بين الحي الفقير ذي المنازل الخربة الذي كان يقيم فيه أبي شرقي اليمِّ، وبين المدينة الثرية التي تقيم بها أمي غربي اليمِّ، كان أبي يعبر اليمَّ يوميًّا مع أقرانه من بني إسرائيل بالمراكب، فيعملون في أعمال البناء مع شروق الشمس ثم يعودون إلى قريتهم قبيل الغروب مقابل الطعام، كان آنذاك شابًّا قويًّا في العشرين من عمره، يتقن عمله كنجار، ويبدع فيه كفنان، حتى طلبه النبلاء والأغنياء لصنع أثاث منازلهم من الآرائك وصناديق الملابس، وذات يوم أمره ملاحظ العمال بأن يصنع أثاثًا لمنزل السيد النبيل (بينو) في المدينة الجديدة، كان السيد (بينو) رجلًا طاعنًا في السن، لم يرزق بالأولاد، ويحيا مع زوجته العجوز في منزلها الفسيح، وعلى غير عادة النبلاء في ذلك الوقت كان الرجل كريمًا عطوفًا، لا يكره بني إسرائيل، ولا يقسو عليهم، فكان يجذل العطاء لأبي ويستدعيه يوميًّا للعمل في المنزل، بعيدًا عن أعين ملاحظ العمال البغيض الذي يكره بني إسرائيل.

ويشاء الرب أن يجتمع القلبان النقيان على الحب، فأحب الشاب العبراني «زخاري» الفتاة المصرية الغيداء «رومانا»، واحتضن منزل السيد (بينو) ذلك الحب حتى نما وترعرع وصار عشقًا بين القلبين اليافعين، وشعر جدي لأمي، والذي كان يعمل كبيرًا للخدم بمنزل السيد (بينو) بما تشي به الخلجات والنظرات بين الشابين العاشقين، فخشي أن تتزوج ابنته بالشاب القادم من وراء اليمِّ، وذات صباح طرق أبي الباب للدخول، فطالعه وجه جدي من خلف الباب قائلًا:

ـ قد أتانا ملاحظ العمال بنجار جديد، فعُد من حيث أتيت!

ومَزّق الشوق قلب أبي، اعتكف في داره أيامًا لا يريد أن يخرج، وزهد في الطعام والشراب، وتمنى لو يخرج من أرض مصر، تلك الأرض التي لم ير فيها سوى الذل والخضوع وفراق المحبوب، ولم يدم الأمر طويلًا، فقد سرت الأنباء بأن (موسى) بن عمران من سبط لاوي قد عاد إلى مصر بعد أن هرب منها لسنوات وأنه قد بُعِث نبيًّا إلى بني إسرائيل، وأن الرب قد أرسله وأخاه (هارون) إلى فرعون ليرسل معهما بني إسرائيل، وتبدل الحال في بر مصر، وجرى على ألسنة الناس أن ساحرًا من العبيد العبرانيين يتحدى الفرعون، وأن يوم الاحتفال بالجلوس على العرش سيكون يومًا فارقًا في حياة هؤلاء العبيد. فإما أن يأذن لهم الفرعون بالخروج، وإما يبيدهم عن آخرهم.

وتحدثني أمي عن ذلك اليوم فتقول:

ـ خرجت من منزل السيد (بينو) عند الضحى، شققت طريقي بين صفوف الجماهير التي احتشدت منذ الصباح الباكر لرؤية السحرة، فقد كان همّهم أن يروا لمن ستكون الغلبة، أما أنا فقد كان همّي أن أرى (زخاري) للمرة الأخيرة، فقد كنت أشعر بأني لن أراه مرة أخرى في جميع الأحوال، فلو أذن الفرعون لبني إسرائيل بالخروج فلن أراه، ولو هُزِمَ (موسى) أمام السحرة فلن أراه، وصلت إلى مقدمة الصفوف بعد جهد مضنٍ، ورأيته يقف مع شعب بني إسرائيل على الجانب الآخر، رآه قلبي قبل أن تراه عيناي، وشعرت برهبة ذلك اليوم العظيم من نظرات عينيه الشاخصة إلى السماء، لم أفق من هيامي إلا مع صراخ الناس حينما رأوا عَصِيّ السحرة وهي تتلوى كالثعابين، وكدت أسقط فاقدة النطق، حينما رأيت عصا (موسى) وهي تلقف ما صنعوا، ساعتها أدركت أن (موسى) هو نبي الله، وساعتها دعوت رب بني إسرائيل أن يجمعني بمن أحببت.

وظل الفراق قائمًا بينهما إلى أن جاء يوم حملت فيه الرياح الغربية المحملة بالرمال أصوات النواح والبكاء إلى أرض الجوشن، فقد انتشر داء الدمامل والبثور بين الناس ولم يعرف الكهنة له دواءً، كان لا يمر اليوم حتى يعلو العويل

في بيت من البيوت، ثم تبحر المراكب إلى البر الغربي من النيل حاملة جثامين الموتى معها إلى مستقرها الأبدي، واستبد القلق بأبي، وانفطر قلبه خشية أن يكون الداء قد أصاب (رومانا)، ولم يهدأ له بال حتى عبر النهر ويمم شطر منزل السيد (بينو)، وهناك اشتم رائحة الموت حول المكان، طرق الباب بأصابع مرتجفة، ففتحت له (رومانا) وهي باكية ثم قالت:

ـ خطف الموت السيد (بينو)، قل لنبي الله (موسى) أن يدعو الرب أن يرفع عنا البلاء.

فأطمأن أبي، وإن اشتدت لوعة قلبه عليها بعد أن علم بإيمانها، ورآه جدي فنهره عن العودة، قال له أبي صادقًا: ستموت كل بكر في المدينة، وترجاه أن يزوجه من أمي، قبل أن يحل العقاب! لكنه لم يجد من الرجل العنيد آذان صاغية، وعاد أبي إلى قريته كسير النفس محطم الفؤاد، وفي مساء اليوم التالي علا الصراخ في البر الغربي وبدا أن الوعيد قد تحقق، وبكى أبي بكاء مرًّا، وقد أيقن أنه قد فقد حبيبته لا محالة، انتبه من بكائه على صوت طرقات على باب داره، مسح دموعه ثم فتح الباب، فإذا بجدي واقفًا بالباب ومعه أمي تحمل صرة من قماش بها بعض الملابس، قال له جدي:

ـ لا أخشى وعيد الساحر، ولكني أراك صادقًا في حب ابنتي.

وهكذا تزوج (زخاري) النجار من (رومانا) المصرية في السنة الثامنة قبل الخروج.

* * *

الورقة الرابعة

استمعت اليوم إلى صوت البوق للمرة الأولى في حياتي، تردد صداه في أرجاء النزل بشدة، فهرولت إلى خارج الخيمة، لأجد أطفال العشائر وقد وقفوا ينظرون بدهشة إلى تلك الآلة العجيبة المصنوعة من قرن ثور، والتي يخرج منها الصوت هادرًا قويًا وكأنه صرخة مارد تملأ الفضاء، تعلَّمت يومها أن صوت البوق يعني الاستعداد للرحيل إلى مكان آخر.

تحرك الركب من (إيليم) قبل زوال الشمس، عَبرت القافلة كثبان الصحراء من جهة الجنوب، لم نسلك الطريق المعتاد للقوافل في الشمال؛ خوفًا من حاميات الفرعون القائمة هناك، فلا شك أن وعورة الطريق أهون علينا من الوقوع في أسر المصريين مرة أخرى.

آه يا «بَرية سين»! كم طوينا في ثراك من ذكريات من الأمل والألم؟ سألت أمي ذات يوم لماذا يسمونها «برية سين» فأجابتني بأنها أرض الإله «سين» إله القمر، وإنما سميت بهذا الاسم تيمنًا بهذا الإله الذي عبده بدو الصحراء لينير لهم الطريق في تلك الصحراء المخيفة، وليكون لهم أنيسًا في لياليها المظلمة.

كانت كل أسرة تسير تحت لواء السبط الذي تنتمي إليه، كنت أنا وأبي وأمي والعمة (باتشيفا) نسير خلف راية سبط (رأوبين)، أما زوج عمتي (باتشيفا) فرغم أنه من قبيلة (شمرون) فإنه فَضَّل أن يسير معنا خلف راية رأوبين، وكان الناس من عشيرتنا يمازحونه قائلين:

ـ ما خطبك يا (شامري)؟ زوجناك من عشيرتنا أملًا في أن ترحل عنا (باتشيفا)، فإذا بها تزرعك بيننا، وتنزعك عن (شمرون) انتزاعًا!

فكان لا يبادلهم المزاح، بل يكتفي بالرد عليهم بابتسامةٍ هي أقرب إلى الامتعاض يعزوه صَلفٌ في طبعه، واعتدادٌ بنفسه أمام الآخرين، وكنت لا أعرف لزوج عمتي هذا اسمًا سوى لقبه (الشامري) نسبة إلى سبطه شمرون، ولعل بني رأوبين كان ينادونه بذلك اللقب ليذكروه دائمًا بأنه دخيل عليهم، وعلمت من أمي أنه كان أحد الكارهين للخروج من مصر، فقد كان نحاتًا ثريًا في مدينة «فيثوم»، ينحت من أحجارها تماثيل العجل «أبيس»، فتحملها المراكب عبر النيل إلى المعابد في طول مصر وعرضها.

أسلمتنا شمس المغيب إلى قمر البرية الذي انعكس نوره على رمال الصحراء، فبدت حبات الرمال كأحجار الفيروز المتلألئة، كان الخريف قد انتصف، ونسمات الليل الباردة تجبر الناس على إشعال النيران في الليل من أجل التدفئة، وفي تلك الليلة جلس أبي وزوج عمتي أمام خيمتنا ومعهما بعض الرجال من بني إسرائيل، وقد التفوا حول جمرات النار المشتعلة، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها (قورح)، و(قورح) هذا هو ابن عم نبي الله (موسى)، رجل مهيب الطلعة، أنيق الثياب، وأحد الأثرياء الذين ذاقوا رغد العيش في مصر، ومثله مثل (الشامري) كان من الكارهين للخروج، رغم قرابته لنبي الله (موسى).

أثارت النسمات الهادئة وطقطقات الجمرات ذكريات ليست بعيدة عليهم، فكم من مرة تجمعت فيها تلك الصحبة ـ دون والدي ـ في منزل (قورح) المقام على شاطئ البيلوز في مصر، تحدث رجل اسمه (داثان) فأثارت كلماته مشاعرًا كانت قد استقرت في خبيئة أنفسهم منذ أن خرجوا من أرض الجوشن، فكشفوا عنها الغطاء ولم يجدوا غضاضة في أن يبوحوا بها أمام والدي، الذي كان حتى هذه اللحظة غريبًا عنهم، قال (داثان) وهو يفرك يديه فوق كومة الجمرات:

ـ أشتاق إلى منزلي في أوفاريوس، تداعب أنفي رائحة أشجار الليمون والبرتقال في ليالي تموز.

تنهد (قورح) وقال في حنين:

ـ ومَنْ مِنَّا لم يترك قطعة من قلبه في مصر.

قال رجل بدين اسمه (أبيرام):

ـ أما أنا فأشتاق إلى طعامها، فقد سئمت معدتي اللحم واللبن! أين رائحة الخبز؟ أين قدور العدس الساخنة مع قضمات البصل اللاذعة؟

ضحك الرجال، ونظروا إلى (الشامري) وكأنما قد حان دوره ليبوح بسره في لعبة الذكريات، صمت الرجل لحظات ثم قال:

ـ أما أنا فأشتاق إلى (أبيس)!!

ألجمت كلماته الألسنة، ورأيت الاستنكار على وجه أبي. ولكن الرجل تابع حديثه في هيام العاشق:

ـ كم تشتاق يداي إلى أن يصوغا من الطين نصبًا له، أو أن ينحتا من الحجر رسمًا له، كم أشتاق إلى نظرات الإعجاب في عيون أهل مصر الذين لم يصدقوا أن رجلًا من بني إسرائيل قد فاقهم إبداعًا.

تنهد ثم قال وكأنه يحدث نفسه، ويجيب أسئلة تدور في رءوسهم:

ـ كنت أنتشي حين أرى الجباه تنحني أمامه، لم أكن أرى في سجودهم عبادةً له، وإنما احترامًا وتبجيلًا لصنعةِ يدي.

لم يُعقِّب أحدٌ على ما قاله في حين نظر (داثان) إلى أبي وقال له:

ـ وأنت أيها الشاب، ما الذي تفتقده في مصر؟

رأيت الجِدَّ على وجه أبي وهو يقول:

ـ لم أترك فيها ما أَحِنُّ إليه، فقد خرجت منها بمن أحب: (زوجتي) و(ابني)، ولا أتذكر فيها إلا فقْرًا عِشته، أو ذلًّا عانيته.

لم ترق حماسته إلى (أبيرام) البدين فقال ساخرًا:

ـ ما زلتَ يافعًا أيها الشاب، وعذرك أنك لم تعش في مصر أيامًا كان أهل مصر يقتسمون فيها طعامهم مع جيرانهم من بني إسرائيل.

رد أبي مدافعًا:

ـ رأيت من عطف السيد (بينو) ومن زوجتي المصرية (رومانا) ما يشفع لي حداثة سني، وما كُره المصريين أشكو، بل أتحدث عن إذلال الفرعون لنا، فأي عار قد لحق بنا وقد كنا نبني لهم المعابد ونصنع لهم تماثيل الآلهة! ونحن أحفاد (إبرام) و(إسحق) و(يعقوب)!

عبس وجه (الشامري)، في حين لاذ (داثان) وأخوه بالصمت، ومضت لحظات من الصمت قطعها (قورح) بقوله:

ـ قل لي أيها النجار الشاب؛ لأي شيء تركت صنعتك وبيتك؟

أجابه أبي:

ـ لأمر الرب.

قال (قورح):

ـ بل قل لأمر (موسى)! فقد عاش آباؤنا في تلك الأرض منذ أن هاجروا إليها مع يوسف وأخوته، ولم يأمرهم الرب بالخروج.

قال أبي:

ـ هكذا قال السيد الرب: ندخل الأرض المقدسة، ونرث الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا.

ضحك (قورح) ساخرًا ثم قال:

ـ اللبن والعسل!! هذا ما غرّ به (موسى) أمثالكم ليصنع لنفسه ملكًا.

ثم أردف:

ـ لعلك تعلم أيها النجار بالمَثَلِ القائل «لا تعد بصنع الصندوق قبل أن

تقطع الخشب من الشجرة». وهذا ما فعله (موسى) بكم، وعدكم بالأرض المقدسة التي تفيض لبنًا وعسلًا وهو لا يعلم الطريق إليها.

ثم قام واقفًا وقال:

- لو أن هناك أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا فهي تلك الأرض القابعة خلف ذلك البحر، وسيأتي يوم يندم فيه بنو إسرائيل أن تركوها في سبيل أمل كاذب!

رد عليه أبي وهو يقوم من مجلسه أيضًا ويستعد للانصراف:

- لو ملأ الإيمان قلوبكم لرأيتموه كما أراه، فبحق الرب إيل، إني لأرى الأرض المقدسة بقلبي قبل أن أراها بعيني!

ثم انصرفوا كلٌّ من طريق، وقد تركوا في نفسي سؤالًا ظل يحيرني بعدها لسنوات: لماذا هذا الصراع الدائم ما بين العقل والإيمان؟

* * *

قطعنا اليومين التاليين في صعوبة بالغة، فقد كانت الأرض قاحلة لا ينبت فيها إلا بعض الكلأ والعشب الذي يكفي بالكاد لإطعام الأغنام والماشية، كادت حصص الماء أن تنفد، ولم تعد ألبان الماشية التي جفت ضروعها وهزلت شحومها من قلة المرعى وشح المياه قادرة على سد الجوع، وريّ الظمأ، توقفنا عند «دفقة» ثم «ألوش» وفي كل مرة كان بعض الرجال يتفرقون في الصحراء ينَقِّلون أبصارهَم ما بين السماء والأرض، عَلَّهم يبصرون سحابة حبلى بالغيث، أو عينَ ماءٍ تروي ظمأ الشعب المجهد من الارتحال.

وفي اليوم الثالث وبينما كان العطش يبلغ ببعض الناس مبلغه لمح أحدهم صومعة فوق إحدى قمم الجبال يحيط بها بضعة منازل خشبية، ويقبع على مقربة منها بيتٌ من الحجر، توقف المسير، وصعدت مجموعة من الرجال إلى صومعة الجبل لعلهم يجدون فيها من يرشدهم إلى عين ماء قريبة، كانت الصومعة خالية من البشر، ويبدا أنها مخزن لأحجار الفيروز، وأن المنازل المحيطة بها هي منازل عمال المناجم بتلك المنطقة، طرق الرجال أبواب المنازل فلم يجدوا أحدًا، يمّموا

شطر البيت الحجري، وهناك وجدوا العمال في صحن البيت وقد عكفوا على صنم هائل على شكل بقرة عظيمة تحمل بين قرنيها كرة من ذهب، وعلى الجدران رُسِمَتْ صور أخرى لامرأة فاتنة لها قرنان، ويبرز من جسدها الأغصان التي تظلل على الناس وتسقي الظمآنين، علمت من أمي فيما بعد أنها كانت الإلهة (حتحور) ربة الحب والحنان، ورمز العطاء والنماء عند أهل مصر.

انتظر الرجال حتى فرغ العمال من صلاتهم، ثم سألوهم عن عين ماء قريبة، فأجابوهم بما زادهم يأسًا:

ـ لم نَزَلْ عاكفين على ربة الحنان منذ شهر، فلم يهبط علينا المطر.

عاد الرجال محملين باليأس والقنوط، وسرعان ما تحول ذلك اليأس إلى تذمر في نفوس الناس بعد أن شعروا بتزايد المحنة دون بارقة أمل، وتساقط البعض في براثن الريبة، قالوا هذه أرض الإله (سين) والآلهة (حتحور)، ولن يسقط المطر إلا برجائهم، لماذا لا يجعل لنا (موسى) آلهة كما لهم آلهة؟ وتهكم الشامتون منهم والكارهون للخروج، قالوا: عشنا أربعين عامًا في مصر، نتقي زخات المطر بسعف النخيل، ونغترف الماء من تحت أقدامنا، وهانحن نموت عطشًا في برية سين.

ووصلت تلك الكلمات إلى أبي، فلم يزد عن قوله:

ـ إنهم قوم يجهلون.

وفي اليوم الرابع كنا قد اقتربنا من وادي رفيديم، كنت أمتطي ظهر الأتان وخلفي أمي تتأرجح على ظهره تكاد تسقط من الإعياء، أما أبي فكان يسير إلى جوارنا يتظاهر بالتماسك، وتفضحه خطواته الثقيلة وجفناه اللذان تهدّلا من شدة التعب والإجهاد، والحق أنهما لم يتذوقا الطعام أو الماء منذ تركنا «إيليم»، فقد كانا يؤثراني بما تجود به الشاة من لبن، وكان نذرًا يسيرًا، وسقطت أمي من فوق ظهر الأتان فتلقفها أبي قبل أن ترتطم بالأرض، وأراح رأسها على الرمال، كان لونها شاحبًا وقد غارت عيناها وتشققت شفتاها، ابتسمت في إعياء وقالت:

ـ يبدو أنها نهاية رحلتي يا (زخاري).

دلك يدها براحتيه وقال لها:

ـ تماسكي يا أم (شمعون) فَهَاقَدْ وصلنا إلى رفيديم.

قالت في وهن:

ـ كم كنت أشتاق إلى رؤية الأرض المقدسة.

قال لها في يقين:

ـ سترينها يا نقية القلب فمن أنجانا من فرعون لن يهلكنا في البرية، ثم عصر على شفتيها بعضًا من لحاء العشب، وأسقاها رشفة من اللبن، ثم حملها مرة أخرى فوق ظهر الأتان.

وصلنا إلى "رفيديم" قبل حلول المساء، نظر الناس إلى الوادي الفسيح فلم يجدوا جدولًا ولا بئرًا، بلغ بهم الغضب مبلغه، علت صرخاتهم على (موسى):

ـ لماذا أتيت بنا إلى ذلك الوادي هل جئت بنا لتهلكنا؟

رأيت الخوف على وجه أبي وسمعته يلهج بالرجاء إلى الرب إيل، وتعلقت عيون الصالحين بالنبي الذي ترك الجمع وصعد باتجاه الجبل، خشعت الأصوات فلا صوت إلا دقات القلوب، وهمس الأنفاس، وتعلقت الأبصار بعصا المعجزات التي حملها النبي في يده عندما ارتفعت العصا في السماء ثم هبطت في قوة فوق الصخرة الصلدة فإذا بالماء ينفجر من بين ثنايا الحجر كالبركان، تتابعت الينابيع الواحدة تلو الأخرى، اثنتا عشرة عينًا يتدفق منهن الماء عذبًا رقراقًا وكأنما يصبه ملك من السماء، قفز الناس في المياه وسبحوا في الينابيع فرحًا، شربوا وارتووا بعد المشقة والحرمان، وبينما كان أبي يصب الماء فوق رأسي فرحًا تذكرت قوله «إن من أنجانا من فرعون لن يهلكنا في البرية»، وأدركت على صغري أن الإيمان والعقل قد لا يجتمعان أحيانًا!

* * *

الورقة الخامسة

«رفيديم» اسمٌ يعني بلغتنا «الراحة»، ولا أدري إن كان هذا الاسم قد أطلق عليها من قبل أن نطأَهَا أم إنه اسم ابتدعه قومي حينها، والحق أن الأيام الأولى التي قضيناها في ذلك الوادي الفسيح هي أسعد الأيام التي قضيناها في سيناء وأكثرها راحة على الإطلاق، في اليوم الأول جمع الرجال الحجارة، ثم قاموا ببناء الآبار وطلوا جدرانها بالطين والجص حتى لا يغيض الماء في الرمال، ورغم ذلك وجد بعض الماء طريقه بين الشقوق فتلقّفته بذورٌ عَطشى اختبأت بين طيات الثرى بمنأى عن أيدي الرياح العابثة فنبتَ العُشب والكلأ ونمت بضع شجيرات من الطلح والأراك ونبات العَوْسَج، وقام بعض الزُّرّاع المهرة بنثر بذور العوسج في الرمال وسقوها بمياه الآبار فلم تمض أسابيع حتى نبتت تلك البذور، ثم استطالت إلى شجيرات بلغ طولها الذراعين، واكتنزت ثمارها الحمراء اليانعة بعصيرٍ حُلو المذاق وكأنه العسل المُصفّى.

ووجد أبي ضالته في شجر الغاب، وصارت بينه وبين أعواد البوص أُلفه، فكان يجوب الواحة في النهار يجمع أغصان البوص الخضراء، ثم ينزع عنها لحاءها ويتركها لتجف في أشعة الشمس، ثم يأخذ العيدان الجافة فيُطوِّعها بيديه ويجدلها معًا ليصنع منها المشاني والصناديق، وبرع أبي في تلك الصنعة وعلمها لي ولأمي، فكنا نقضي الأيام والليالي نجدل الحبائل ونحيك الأغصان معًا، حتى تجمع لدينا الكثير من المشاني والصناديق، حملها أبي إلى سوق النزل

وقايضها بالسمن واللبن، فامتلأت قدورنا بالطعام وتحسنت أحوالنا بعد الفاقة والجوع.

واستطاع أبي أن يصنع لنا كوخًا من أعواد البوص تميز عن باقي الخيام في النزل بالدفء والسعة، وأثثه بسرير من الغاب كنا ننام عليه معًا، وتباهت أمي بمنزلها على نساء السبط، ولم تخف فخرها به أمامهن وبالأخص أمام العمة (باتشيفا)، فالمرأة بفطرتها لا تنسى الكيد لها، حتى وإن كانت تحمل قلبًا عطوفًا مثل (رومانا)، كنت أرى الحب رفيقًا رابعًا لنا في كوخنا الجميل، فقد كان أبي يبذل ما في وسعه لإسعاد أمي، يحوطها بعطفه وحنانه، ويعوضها عن فقدان الأهل بالمودة والتدليل، أحضر ذات يوم عودًا سميكًا من البوص، ثم شَذَّبه وأثْقَبه، وتركه في الشمس حتى يجف، سألتُه حين رأيتُه في يده:

- ما هذا يا أبي؟

قال مبتسمًا في حماس:

- اسمه ناي! ستسعد أمك به.

وحين قدمه إلى (رومانا) بكت من الفرحة، فقد كانت أمي تعشق العزف على الناي مثلها مثل أي جارية مصرية شبَّتْ في منزل أحد النبلاء، أمسكت أمي بالناي وهمست في طرفه بشفتيها ثم داعبت أناملها الثقوب، فإذا بالنغمات تخرج كأنها تسابيح طير، تهب للجماد روحًا وتضفي على حياة الصحراء دفئًا وشجونًا، وحمل النسيم صوت الناي في أرجاء الحي فصارت النساء يفدن إلى منزلنا في كل ليلة، ليسمعن نغمات (رومانا) الساحرة.

وبعيدًا عن الكوخ الذي أظلته الطمأنينة والرضى، وبعيدًا عن أبي الذي كان يستقبل الحياة الجديدة بقلبٍ عامر بالإيمان، كان هناك صنفٌ من بني إسرائيل ينظرون بأسف إلى حياة مضت، يتربصون في قلق لما ستسفر عنه أيام الارتحال ويضجون بالشكوى عند أي حادثة، استيقظتُ ذات صباح على جلبة عالية في ساحة السوق التي تتوسط النزل، امرأةٌ من سبط «أفرايم» كانت تقايض رجلًا

من سبط «زبولون»، صاعًا من الدقيق مقابل قدح من السمن، رأى الرجل صاع الدقيق فسال لعابه، فقد نفد الدقيق من النزل بأكمله منذ أن غادرنا «إيليم»، ومرت شهور بأكملها لم يذق فيها أحد طعم الخبز أو الفطير، تتبع الرجل المرأة إلى حيِّها وتربص بها لحظات غفلت فيها عن الخيمة، ثم دخل وسرق قِدرًا مملوءةً بالدقيق، كان من الممكن ألَّا تعلم المرأة وزوجها هوية السارق لولا أن فضحته رائحة الخبز التي تصاعدت من خيمته في كل ليلة، فجمع زوج المرأة رجالًا من عشيرته وذهب إلى الرجل في حيه يريد أن يسترد دقيقه أو ما يقابله، وكادت معركة أن تنشب بين رجال السبطين في الساحة، واستغل المرجفون والحاقدون تلك الواقعة فنفثوا في نارها ووقف (داثان بن ألياب) بينهم قائلًا:

ـ عَلَامَ تتقاتلون؟ على صاعٍ من دقيق!! لبئس ما غنمتم من خروجكم وراء (موسى).

ثم قال شقيقه (أبيرام) البدين:

ـ لَيتكم مُتم بيد الرب في أرض مصر! إذ كنتم تجلسون على قدور اللحم وأواني الخبز تأكلون منها حتى تشبعون.

نكس الرجال رءوسهم، ثم نفثوا متذمرين وقال أحدهم:

ـ صدقتما فقد أخرجنا (موسى) إلى هذا القَفر كي يميتنا جوعا!

كان (يوشع) فتى (موسى)، يقف غير بعيد يستمع إلى ذلك الحديث ويشعر مثل أبي بأن نارًا توشك أن تندلع وعليه أن يُطفِئَها، لم يجادلْ البدينَ ولا أخاه، بل خاطب الناس بحكمة تفوق عمره، ذكّرهم برحمة الرب التي أحاطت بهم وبالمعجزات التي أجراها الرب على يد نبيه من أجل شعب إسرائيل فقال لهم:

ـ يا قوم! لا تتعجلوا الشكوى والسخط عند أول نازلة تحل قريبًا منكم! وتذكروا أن من أخرج لكم الماء من بين ثنايا الحجر، قادرٌ على أن يطعمكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم.

استخف الناس بكلام الفتى، وقال (داثان) في سخرية:

ـ هَا قَدْ أرسل لنا (موسى) غلامَ سبطِ (لاوي) كي يمن علينا بنعيم سيده الزائف.

ثم صرخ في غضب هادر:

ـ اذهب يا غلام إلى سيدك وقل له إنَّ الناس قد أوشكت أن تأكل الرمال بدلًا من الطحين.

وكأنما جمعت كلماته المتعاركين وألفت بين قلوبهم، فقالوا في صوت واحد:

ـ بل نذهب نحن إليه!

ولم تمض لحظات حتى أحاط المئات بخيمة النبي، تتعالى صيحاتهم الثائرة، غير ناظرين أن يخرج إليهم المشايخ الذين اجتمعوا بموسى وهارون، وبعد وقت طويل، خرج المشايخ من الخيمة صامتين، انتظر الناس أن ينطق أحدهم بما قاله (موسى)، ولكنهم لزموا الصمت إلى أن خرج (يوشع) من الخيمة، وكأنما أمرهم (موسى) بألا يتكلم أحد غيره.

قال يوشع:

ـ يا بني إسرائيل! يقول لكم نبيكم في المساء ستأكلون لحمًا طريًا، وفي الصباح ستشبعون خبزًا حتى تعلموا أن الرب إلهكم يرعاكم.

لم يصدق الرجال ما قيل لهم، ولكنهم لم يجدوا بُدًّا من أن ينتظروا حتى الغروب، فانصرفوا إلى خيامهم، على أن يجتمعوا في الساحة مرة أخرى قبل الغروب.

كانت الشمس قد غابت في الأفق ولم يتبق منها سوى شفقٍ أحمرَ تسلل سناه من فوق رءوس الجبال، فألقى بظلالها على الوادي الفسيح، اكتظت الساحة عن آخرها بأبناء الشعب، ووقف أبي وبعض المؤمنين من الرجال والنساء ليشهدوا آية أخرى من آيات الرب.

كنا في أواخر الخريف ومع ذلك لم تشعرنا الريح الساكنة ببرودة الجو المعتادة

في ليالي شهر آب، ومع اختفاء آخر ضوء للشفق هبت ريحٌ من جهة الشمال، شعرنا معها بالإثارة والترقب، ومع اشتداد الريح سمعنا سجعًا يملأ الفضاء وكأنه زقزقات مئات العصافير، وفجأة هبطت على الساحة مئات الطيور! كانت طيور بُنيّة اللون منقوشة الريش لم ير شعب إسرائيل مثلها من قبل، كان الطائر يحط على الأرض فلا يرتفع حتى يمسك به الرجل من بني إسرائيل، وكأنما بذل الطائر نفسه طاعةً لأمر الرب، وهلل أبناء الشعب ومجدوا الرب الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وبينما كانت اللحوم تنضج في القدور، وسماء النزل تتعبق برائحة المرق ودخان الطهو نادى منادٍ في أرجاء النزل:

ـ يا بني إسرائيل إن نبي الله (موسى) يقول لكم كلوا من سلوى الرب، ولا تدخروا منها لحمًا في بيوتكم، وليأخذ كل إنسان كفاية يومه فإنه آتيكم في كل ليلة، إلا يوم السبت فإنه لا يأتيكم.

وقضى الناس ليلة من الدفء والشبع، نام فيها الجوعى ببطون هانئة، أثقلت رءوسهم فلم يستيقظوا لرؤية الآية الأخرى، أما أنا وأبي وقليل من الناس فقد استيقظنا قبل شروق الشمس كي نشهد الآية التي وعد بها الكليم. سألت أبي:

ـ كيف سيهبط علينا الخبز من السماء؟

فأجابني وهو يشخص ببصره إلى السماء:

ـ إذا تعلق الأمر بالرب فلا تسأل بـ«كيف».

انحسرت دجى الليل أمام أشعة الشمس المنبثقة من خلف الجبل، وتكثفت حبات الندى على أوراق الشجر وعلى الأرض الفسيحة في منتصف النزل، وارتفعت الشمس رويدًا رويدًا ومع ذلك لم نر علامات لنزول خبز الرب، طال الانتظار حتى شعر الناس بالملل وكاد بعضهم أن ينصرف، ولكن فجأة علا هتاف الأطفال وهم يشيرون إلى رقائق بيضاء غطت الأرض والأشجار بعدما تبخرت قطرات الندى، كانت الرقائق تبدو كقطع البَرَد الصغيرة، امتدت

يدي إلى إحداها وتذوقتها فوجدتها كالخبز المحلى بالعسل، فهتفت:

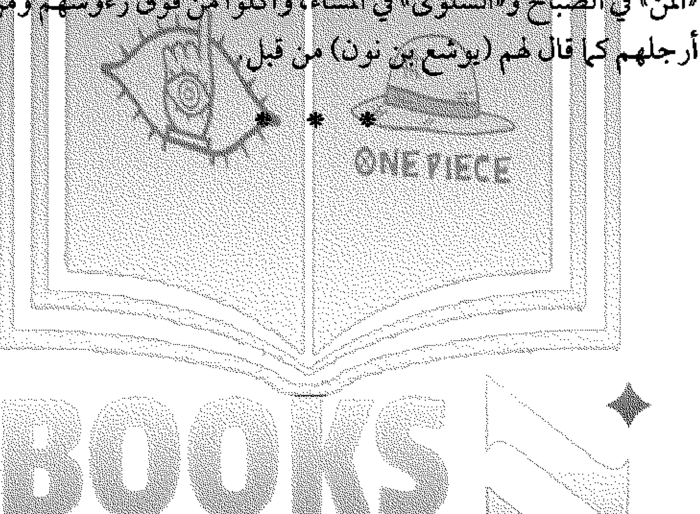
ـ ما أحلى خبز الرب يا أبي!

وتهافت الرجال والنساء على الرقائق، حتى أيقظ ضجيجهم مَن في النزل، فهرول الناس من خيامهم إلى الساحة، وتسابقوا على جمع الرقائق في القدور، فإذا بصوت (يوشع) يرتفع مرة أخرى وهو يقول:

ـ يا بني إسرائيل! يقول لكم نبيكم كلوا مما «مَنَّ» به الرب عليكم، ولا تدخروا منه في قدوركم، فإنه يأتيكم كل صباح إلا يوم السبت فإنه لا يأتيكم.

ولم يشعر بنو إسرائيل من بعد ذلك بالجوع أو العطش فقد كان يأتيهم «المَنّ» في الصباح و«السلوى» في المساء، وأكلوا من فوق رءوسهم ومن تحت أرجلهم كما قال لهم (يوشع بن نون) من قبل.

* * *



الورقة السادسة

الأيام التي لا تنسى كثيرة، ولكن القليل منها يتعلق في ذهن المرء بكل تفاصيلها، وحينما نتذكرها نعش أحداثها مرة أخرى وكأنها حاضرة أمامنا رأي العين، في ذلك الصباح خرج أبي إلى ساحة السوق ليقايض بضاعته بينما استضافت أمي صديقتها المقربة إلى قلبها (سولاف) وابنها الصغير (سيحون) في كوخنا الصغير. جلست (سولاف) على أريكة صنعها أبي من جذوع الأراك وإلى جوارها جلس الطفل (سيحون) الذي يصغرني بسنوات قليلة يعبث في ثمرة عوسج كبيرة، يلطخ بعصيرها وجهه وملابسه، كان الطفل غريبَ الأطوار، كثير الضوضاء، تتشنج أطرافه ويصرخ كلما حاولت والدته أن تأخذ منه ثمرة العوسج أو أن تساعده في أكلها، علمتُ فيما بعد أن (سيحون) هذا هو الطفل الوحيد الذي نجا من الموت في أحشائها، فقد كانت الأجنة تموت في رحمها قبل أن تلدهم.

رأيت في عيني والدته نظرات الاعتذار والأسى وهي تقول لأمي:

ـ لم يفلح معه التداوي ولا القرابين، وقد سَئِمَ أبوه الحياةَ معنا.

قدمت إليها أمي قدحًا من المنِّ المذاب في اللبن الساخن، وكانت تلك الوجبة إحدى أفكار أمي المتعددة في الطعام، ثم قالت لها:

ـ وما ذنبك أنت في ذلك يا (سولاف) حتى يسأم (أشكول) من الحياة معكما؟ إنه عطية الرب لكما.

قالت حزينة:

ـ ليتني لم أتزوج (أشكول) يا (رومانا)، أجبرتني أمي على الزواج به إرضاءً لشقيقتها وهي تعلم أن أخاه كان مصابًا بذات الداء ومات صغيرًا في مهده.

واستها أمي قائلة:

ـ تلك مشيئة الرب يا (سولاف)، ولا تسيئي الظن يا صديقتي، فقد كان (أشكول) متيمًا بك.

قالت متهكمة:

ـ صدقتِ «كان» متيمًا بي! أما الآن فلم يعد كذلك.

ثم حبست دمعتها وهي تقول:

ـ تدفعه أمه للزواج من أخرى، وقد أخبرتني إحداهن أنه دائم التردد على منزل في سبط دان.

ربتت أمي على كتفها وقالت:

ـ لا تحزني يا (سولاف) سيجعل الرب لك فرجًا.

ثم قالت ملطفة:

ـ ألن تتذوقي هذا المزيج الذي صنعته، لقد كاد اللبن أن يبرد؟!

رشفت (سولاف) منه رشفات فاستطابت طعمه، ثم قالت ممتنة:

ـ ما أروعك يا (رومانا)! لم أجد في بنات إسرائيل من تحمل قلبًا رقيقًا مثل قلبك، وما زلتِ تبدعين في العزف والطعام حتى غارت منك نساء النزل أجمعين.

ضَحِكتا من القلب، واستأنفتا الحديث لبعض الوقت، ثم أستاذنت (سولاف) للانصراف، فقد كانت خيمتها في طرف النزل من جهة الجبل، ولعلها اختارت ذاك المكان حتى تنأى بطفلها الدائم الصراخ عن باقي سكان النزل.

وفي المساء أيقظنا صوتٌ ينادي علينا من وراء الكوخ:

ـ يا أهل الدار! يا أهل بيت زخاري النجار!

استيقظ أبي من نومه، ثم استيقظتُ أنا وأمي، خرج أبي من الكوخ ليستطلع الأمر، فإذا به (أشكول) زوج (سولاف) يقف مرتعشًا من البرد ويبدو عليه القلق، دعاه أبي للدخول من البرد، ولكنه اعتذر شاكرًا وقال له:

ـ معذرة يا رب الدار، ولكني أتساءل: هل تبيت عندكم زوجتي (سولاف) وولدي (سيحون)؟!

انقبض قلب أمي وقالت ملتاعة:

ـ لقد انصرفا منذ الصباح.

بان اليأس والحزن على وجهه فقال:

ـ لم أجد لهما أثرًا في النزل كله، وكنتم أنتم الأمل الأخير.

وفي الصباح شاع خبر الاختفاء في النزل، وخرج بعض الرجال للبحث عن المفقودَيْن، فسارت مجموعة منهم في اتجاه الوادي، بينما صعد أبي و(أشكول) وبعض قصاصي الأثر إلى الجبل، وقبل أن ينتصف النهار عاد الرجال من الجبل محملين بنبأ عظيم أضج مضجعنا وزلزل الحياة في «رفيديم»، فقد خطف «العماليق» (سولاف) وذبحوا ولدها (سيحون).

* * *

كان يومًا عصيبًا اختلط فيه الحزن بالألم، في الصباح شُيِّعت جنازة الطفل (سيحون) ثم دفن في الصحراء في حفرة في الرمال، وحسبما أذكر فإن (سيحون) كان أول قتيل لبني إسرائيل أسمع عنه، وكانت جنازته أول جنازة أراها أيضًا، فأنا لم أشهد جنازة أخرى قبل ذلك اليوم، ولم تكفَّ أمي عن البكاء على صديقتها (سولاف) طيلة ذلك اليوم، وتمزق قلبها حزنًا على ولدها المسكين، أما أبي فقد مكث اليوم بأكمله في منزل العم (أشكول) يتلقى العزاء معه في الولد الفقيد، ويشارك باقي الرجال في أداء الصلوات والتسابيح، ورغم الحزن والبكاء والانهماك في الصلاة والدعاء، وجد الرجال متسعًا من الوقت للحديث عن ذلك الخطر القابع خلف الجبل، ودارت بينهم أحاديث ملأت القلوب هلعًا

من هؤلاء العماليق، كان العماليق شعبًا بدويًّا، يتجول في الصحراء ويسكن الجبال والوديان، يمتهنون الصيد والحرب، ولا يتورعون عن قطع الطريق وسلب الغنائم والقوافل، استفاض الشيوخ في ذكر مثالبهم، ومزجوا الحقيقة بالخيال والروايات الصادقة بالأساطير، فقالوا إن الواحد منهم يناهز طوله شجرة الأرز، وإنهم يأكلون أكباد أعدائهم حتى تمكن الرعب من القلوب وشعر الناس بِنذْرِ شرٍّ يقترب، وبدا أنه لا سبيل إلى النجاة منه إلا بمعجزة يجريها الرب على يد نبيه كما أجرى الكثير من المعجزات على يديه من قبل.

وقبل المساء عاد أبي إلى الكوخ وفي صحبته العمة (باتشيفا)، كانت الصرامة بادية على وجه العمة العجوز، ويبدو أنها قد بدأت حديثًا مع أبي بالخارج وأرادت أن تكمله داخل المنزل، ألقت بجسدها المترهل فوق أريكة الأرك التي أنَّت عيدانُها تحت وطأة الجسد المهول، رمقت أمي الباكية بناظريها ولم تُلق عليها تحية المساء، ولم تكن أمي في حال يسمح لها بتحمل غلظة عمتي وفظاظتها، فجففت دموعها وتركت الكوخ دون استئذان أو تحية.

رمقتها عمتي بغير اكتراث ثم قالت لأبي:

ـ قد حل شؤمها على كل من عرفها، حتى صاحبتها المقربة لم تنج من فألها السيئ.

بان الغضب على وجه أبي، ولكنه لم يفصح عنه، خشية لسان عمتي السليط، واكتفى بقوله متبرمًا:

ـ دعي عنكِ أمر (رومانا) يا (باتشيفا)، فيكفيها ما في قلبها من أحزان، أنبئيني بما عزم عليه الرجال في «رأوبين».

قالت:

ـ أما سمعت بما يدور في النزل؟ قد تربص بنا الشرّ خلف ذلك الجبل، وقريبًا يُغير علينا شعب عماليق لا محالة.

قال أبي في غير اكتراث:

ـ علمت بالأمر، ونبي الله بين أظهرنا، ولن يضيعنا الرب.

قالت مقاطعة ـ تريد أن تفاجئه:

ـ لن يكون بين أظهركم، فقد عهد (موسى) لفتاه (يوشع) بجمع الرجال والخروج لحرب عماليق، وقد أخبر شيوخ الأسباط أنه لن يخرج هو وأخوه (هارون) للحرب.

فوجئ بقولها، فصمت قليلًا ثم قال:

ـ ما دام قد أمر الرب بهذا، فسمعًا له وطاعة.

احتدت قائلة:

ـ أما تدري من هم العماليق؟ لو سمعت ما يقوله الرجال، لامتلأ قلبك بالرعب.

قال أبي متبرمًا:

ـ وماذا تريدين مني يا (باتشيفا)؟

قالت وقد أخفضت صوتها قليلًا:

ـ غدًا قبل شروق الشمس ستخرج عيرٌ من النزل سرًّا. فيها كبراء القوم من «شمرون» و«رأوبين»، وستتجه شمالًا إلى «ألوش»، وسنأخذ معنا ما يكفي من الطعام والشراب فنمكث فيها عدة أيام، فإذا انتصر (يوشع) عدنا إلى النزل، وإن هزمه عماليق هربنا شمالًا إلى «برية سين»، ومنها إلى «إيليم» ثم إلى مصر، ولا تقلق فمعنا دليلٌ يعلمُ الطريق في الصحراء!

فَغَرَ أبي فاه وقال مشدوهًا:

ـ تعودون إلى أرض مصر؟! هل اشتقتم إلى ذل الفرعون وعذابه.

قالت مدافعة:

ـ بل اشتقنا إلى الأمن والطمأنينة! فماذا جنينا من الخروج مع (موسى) سوى أن صرنا مطاردين، يُتخطّف الناس من بيننا، وتذبح نساؤنا وأطفالنا كالخراف، ثم يأمرنا (موسى) بعد ذلك بالقتال!

قال مستنكرًا:

ـ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال يا بني «شمرون» و«رأوبين» ألا تقاتلوا؟

قالت متهكمة:

ـ والله لو نعلم قتالًا لاتبعناه، ولكنّنا قومٌ لا نعرف سوى الزراعة والتجارة ولا قِبلَ لنا بحرب العماليق.

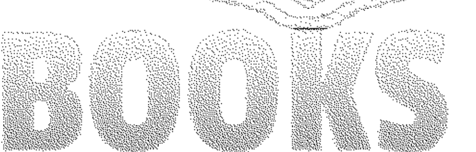
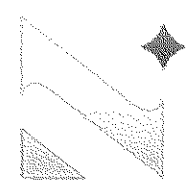
تأفف من حديثها، وقال:

ـ بئس ما تقولين يا (باتشيفا)! رأيتم معجزات الرب بأعينكم، ثم تتولون عنها، وحق الرب إيل إنكم جاحدون!

يئست منه عمتي فقامت في حدة ارتجت معها أجزاؤها، وقالت:

ـ قد أخبرتك يابن أبي بما عزمنا عليه! فإن شئت لحقت بنا عند طرف النزل قبل الشروق، وإن شئت مكثت في حضن جاريتك المصرية، وأرجو ألا يصلني نبأ مصرعكما عما قريب.

* * *

الورقة السابعة

وفي الأيام التالية استعد الشعب لحربه الأولى، جاد كل بيت في النزل بكل ما يصلح أن يكون سلاحًا في الحرب، امتلأت ساحة النزل بالحراب والسهام والسيوف والفئوس والبُلط والسكاكين، وشحذ أبي همته وصنع وحده عشرات الحراب والسهام والأقواس من الأغصان الخشبية، وتعاون مع الحدادين في صنع الأتراس والدروع لتقيهم ضربات العماليق، وأمر نبي الله فتاه (يوشع) بأن يصنع أبواقًا من النحاس كي ينفخ بها الجنود حين يبدأ النزال، حتى يعلم العماليق أن بني إسرائيل أكثرُ قد صار لهم نفير.

ودقت طبول الحرب، وخرج الرجال للاصطفاف في ساحة النزال استعدادًا للمسير، ارتدى أبي سترة من جلد البقر، وتمنْطَقَ بحزام تدلت منه بلطة مشحوذة، وعلّق على كتفه قوسًا وكنانة بها عشرات السهام الخشبية، احتضنته أمي طويلًا، وودت ألا تفارقَ حضنه لولا أن أزاحها برفق وهو يقول:

ـ قد حان وقت الرحيل يا (رومانا)، فإما احتفالٌ بنصر، وإما لقاء في الجنة.

بكت كثيرًا، وبكيت أنا لبكائها، فاحتضنني أبي، وقبلني في رأسي قائلًا:

ـ لا تبك يا فارس «رأوبين»، فالرجال لا يبكون.

تذكرت شيئًا كنت أنوي أن أهديه له، فنزلت أسفل السرير، وأحضرت قبعة الفارس المصري التي قذفتها الأمواج عند العبور، أعطيتها له فارتداها مبتسمًا وقال:

ـ أعدك أن أحافظ عليها حتى أعود.

ثم قبلني وانصرف.

والحق أن ما سأذكره الآن لم أشهده بعيني، ولكنني سمعت أبي يقصُّه على مسامع أمي بكل تفاصيله فشعرت وكأني أرى ساحة الحرب أمامي رأي العين.

خرج الجيش من وادي «رفيديم» وسار الأسباط جميعًا خلف راية واحدة حملها الشاب (كالب بن يفنه) من سبط «يهوذا»، بينما سار في المقدمة قائد الجيش الشاب (يوشع بن نون) من سبط «إفرايم»، جاوز الجيش جبال «رفيديم» قبل حلول المساء، ثم عسكر الجنود في أرض فسيحة لا تبعد كثيرًا عن أرض العماليق حتى انبلج الصباح.

وفي الصباح وصل نبي الله (موسى) وأخوه (هارون) وزوج أخته (حور)، فخطب في القوم، وحثهم على الصبر والجلد، ثم صعد ثلاثتهم إلى رأس التلة، ورفع (موسى) يده بالعصا إلى السماء، فهلل الناس، وصاح (يوشع) في الجنود:

ـ يا بني إسرائيل! هذا نبي الله ينظر إليكم، وهذي عصاه التي أنجاكم بها الرب من فرعون باسقة في السماء حتى تعلموا أن الرب يرعاكم، والله لا تهبطن تلك العصا من يد الكليم إلا وقد هزمنا عماليق وشعبه.

وامتلأت السماء بصوت النفير، ودقت الطبول، وعلت صيحات الرجال، واشتعلت الصحراء بحماس لا مثيل له، ولم تمض لحظات حتى امتلأت السماء بالغبار، وسمع الرجال طرق العماليق لأتراسهم بنصال السيوف، وأصوات أقدامهم التي تزلزل أرض الصحراء، فصاح (يوشع) في جنوده:

ـ اثبتوا أيها الرجال، فأي ما يأتي من خلف تلك الكثبان فنحن قاتلوه بإذن الله.

وانقشعت سحابة الرمال وبان جيش العماليق، وأدرك شباب بني إسرائيل أن شيوخهم قد خدعوهم أعوامًا طويلة، وأن ما رواه الشيوخ عن العماليق كان وهمًا وخيالًا! لم يجدوا مسوخًا تطاول قاماتها أشجار الأرز، ولم يجدوا وحوشًا تأكل لحوم البشر وأكبادها، وجدوا فقط فرسانًا يمتطون الخيول،

ومشاة يترجلون ويحملون السيوف والأتراس، وكان ذلك كفيلًا بأن يستبشر به الرجال من بني إسرائيل، فصرخ (يوشع):

ـ الآن يا بني إسرائيل! رجل برجل، وترس بترس، وسيف بسيف!

والتحم الجيشان كالموج المتلاطم، تكسرت النصال على النصال، واخترقت السهام القلوب والحناجر، شجت الرءوس بالفئوس، وبقرت البطون بالحراب، واختلطت صيحات القتال بصراخ القتلى وأنات المجروحين، كل هذا ورسول الله فوق التلة يشهر عصاه في السماء فيراها كل من بساحة القتال من بني إسرائيل، فتشتعل قلوبهم بالحماسة، ونفوسهم بالثقة في وعد الرب.

ومالت الشمس إلى المغيب، وأدرك شعب عماليق أنهم هالكون لا محالة، فألقوا أسلحتهم وأتراسهم، وفرّت فلولهم هاربة إلى ديارهم، وتتبعتهم جنود (يوشع)، ورأى أبي العم (أشكول) يقفز على صهوة فرس، ويعدو به خلف الفلول الهاربة، فامتطى أبي فرسًا آخر وتبعه. كان (أشكول) يسابق الريح بفرسه، علّه يصل إلى ديار العماليق، فيجد زوجته (سولاف) ما زالت حية.

ودخل جيش (يوشع) ديار العماليق دخول الفاتحين. تساقط أمامهم رجال العماليق كالذباب، وأشعل العماليق النيران بمنازلهم، حتى لا يسكنها بنو إسرائيل، ثم فرت شراذمهم هاربة، تاركة أموالهم وأمتعتهم غنيمة لجيش (يوشع) المنتصر، واقتحم (أشكول) المنازل والدروب كالمجنون، يبحث عن زوجته المخطوفة في كل ركن ودرب، وأخيرًا وجدها تختبئ في ركن آمن بعيدًا عن أعين الفرسان وألسنة النيران، فما أن رآها حتى هرول نحوها، وحملها من مخبئها وضمها إلى صدره في قوة، فاختلطت دموعها ودقات قلبيهما، وقالت وهي تبكي مرتجفة:

ـ قتلوا ولدنا (سيحون)، ذبحوه أمام عيني يا (أشكول).

احتضنها أكثر وقال في صوت يلهج بالبكاء:

ـ حمدًا للرب أنك ما زلتِ حية، حمدًا للرب أنك ما زلتِ حية.

ثم ألقى (أشكول) سيفه وترسه، وحمل زوجته وخرج مبتهجًا وهو يقول:
ـ اشهدوا يا بني إسرائيل، اشهدوا يا شعب إيل، قد حارب (أشكول) العماليق وأعاد زوجته المخطوفة إلى ديارها.

وبينما كان يتغنى فرحًا، انطلقت حربة غادرة شقت طريقها في الهواء في سرعة، ثم شقت صدره، لتقضي على فرحة قلبه المكلوم، وسط صراخ زوجته، وأمام عيني والدي المذهول.

* * *

وعاد المحاربون محملين بالغنائم وفرحة النصر، تعانق الناس، وتغنوا وابتهلوا، اتصلت ترانيمهم بالسماء، وملأت تسابيحهم جنبات الوادي في «رفيديم».

مجدوا الرب في السماء...

مجدوا الشعب في البرية...

هزم (يوشع) عماليق بحد السيف...

وغدًا يهزمهم من دور إلى دور.

وأقام (موسى) مذبحًا للرب في وسط النزل لم نشهد مثله من قبل، وساعد أبي في صنعه من خشب السنط، كان ارتفاعه ثلاث أذرع، وعرضه خمس أذرع، وله غطاء من النحاس، توضع عليه الذبيحة، ثم توقد النار أسفلها حتى ينضج لحمها، ولم تنطفئ نار المذبح لأسابيع عديدة بعد ذلك اليوم كي تُقَدَّمَ القرابينُ شكرًا للرب على ذلك النصر الكبير.

ورغم الفرحة التي كانت تعم أرجاء النزل، كان الحزن يخيم في كوخنا الصغير، فبعد أن عادت (سولاف) من أرض العماليق لم تنزل في حيها، ولا في دار زوجها المقتول، بل طلبت أن تمكث عند صديقتها (رومانا)، فاستضافتها أمي في كوخنا، فكانت تبيت إلى جوار أمي، بينما كنت أبيت أنا وأبي في عريشة صنعها لنا وألحقها بالكوخ.

ومرت الأيام والحزن والسواد لا يفارقان (سولاف)، ذبل جسدها، وشحب

لونها، بعد أن عزفت عن الزاد، وكانت لا تخرج من الكوخ إلا لقضاء الحاجة، وتصوم عن الكلام إلا من همهمات يصدرن عنها من حين إلى آخر ثم يتبعها بكاء حار وكأنها تذكرت ولدها وزوجها القتيلين، فتضمها أمي إلى صدرها، تواسيها وتدعو لها بالصبر والسلوان.

وطال بقاء (سولاف) في بيتنا حتى جاء وقت استشعرت فيه الحرج وطلبت من أمي أن تعود إلى حيها، ولكن أمي رفضت وأصرت على أن تبقى (سولاف) إلى جوارها، ثم أوحت أمي إلى أبي بأن يقيم لـ(سولاف) كوخًا في حينا، تمكث فيه وحدها وتكون تحت رعايتنا، فاستحسن أبي الفكرة، وشرع في بناء الكوخ وتأثيثه وعاد ذات ظهيرة، ليأخذ (سولاف) إلى كوخها الجديد.

واستعادت (سولاف) نبض الحياة في الكوخ الجديد رويدًا رويدًا، وشعرت بالامتنان لصديقتها الوفية، وزوجها المخلص، فقد كان لا يمر اليوم دون أن تمكث أمي معها بعض الوقت، تتحدث إليها في شئون النساء، وتهديها من ثيابها، ومن طعامها، أما أبي فقد كان يرعاها بأكثر مما كان يفعل زوجها الراحل (أشكول)، يحضر لها قدر المَن في كل صباح، ويأتيها بنصيبها من طائر السلوى عند المساء، وقد يمر على كوخها في منتصف النهار ليملأ لها جرار الماء من البئر أو ليعطيها قدحًا من السمن أو اللبن.

ويوم بعد يوم، تبدل الحال بالأرملة الثكلى، فخلعت السواد، وصارت أكثر إشراقًا وإقبالًا على الحياة عن ذي قبل، والحق أن العمة (سولاف) كانت امرأة جميلة، تشع بياضًا، وكأنها سقيت بشرتها بلبن، أما عيناها فكانتا في زرقة البحر قبل الغروب، ويلمع شعرها المتموج فوق رأسها كخيوط من الذهب، تنسدل إلى كتفيها سَلِسَة بغير جدائل ولا تصفيف، كنت أرافق أبي في عمله ذات يوم، وعند الظهيرة حمل جرّتي الماء الفارغتين إلى البئر فملأهما بالماء، ثم خلع قميصه حتى لا يبتل، وحمل الجرتين الثقيلتين على طرفي عصا أسندها على كتفيه العريضين، وسار بهما إلى كوخ العمة (سولاف)، استقبلتنا العمة (سولاف) مرحبة وشاكرة، وخيل إليّ أنها قد أرخت أهدابها فوق لحظيها خجلًا

حين رأت صدر أبي العاري، ولكنها اختلست النظر إلى ظهره حين مال كي يضع الجرتين على الأرض داخل الكوخ، انبعثت داخل الكوخ رائحة طعام شهي، وبدا أن العمة (سولاف) كانت توقد النار على طعام تطهوه، أثارت رائحة الطعام شهيتي، فسألت العمة:

ـ ماذا تطهين؟

ضحكت ضحكة مشرقة أبدت جمال ثنيتيها وقالت:

ـ هل أنت جائع يا (شمعون)؟

قلت مسرعًا:

ـ نعم، إني أتضور جوعًا وأبي يريد أن يعود بي العمل دون غداء.

تحرّج أبي مما قلته فوكزني في مؤخرة رأسي بلطف وقال:

ـ ألم تكبر على ذلك؟ لم يبق أمامنا سوى ساعة من العمل نعودُ بعدها إلى الكوخ.

قلت محتجًا:

ـ إني جوعان، ولا أستطيع العمل دون طعام.

أشفقت عليّ العمة (سولاف) وقالت:

ـ قد فرغت من طهو الطعام يا (زخاري)، أمكثا برهة من الوقت لتأكلا شيئًا.

شكرها أبي ورفض متحرجًا..

ولكنها أصرت قائلة:

ـ إن بيتي أقرب إليكم من بيت (رومانا)، وحرامٌ أن يعمل (شمعون) في الحر وهو جائع.

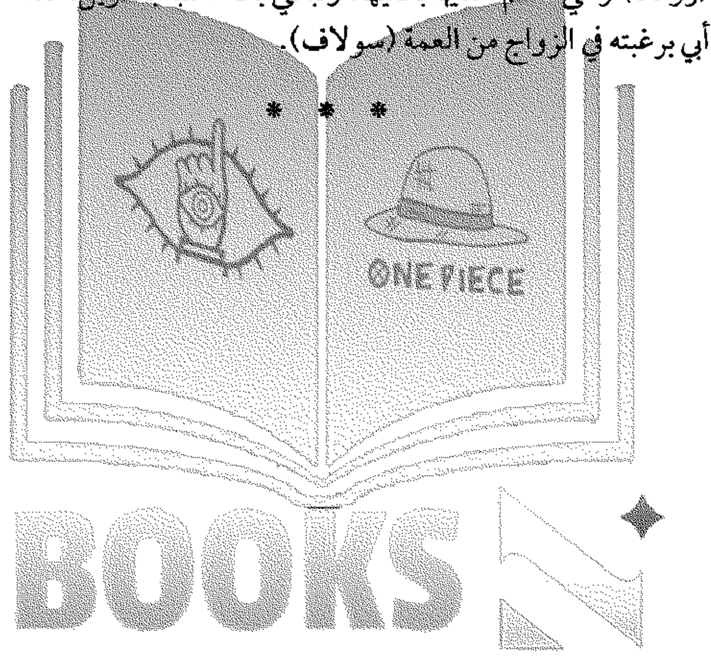
فلم يجد أبي بدًا من أن يرضخ لدعوتها أمام إلحاحي وإصرارها.

وكانت تلك المرة الأولى التي أجتمع فيها أنا وأبي والعمة (سولاف) على مائدة طعام وحدنا، ولكنها لم تكن الأخيرة، فقد تكرر الأمر بعد ذلك أكثر

من مرة، وفي كل مرة كانت العمة (سولاف) تتفنن في إعداد المائدة بأصناف من الطعام تفوق سابقتها، حتى صرت أترقب تلك المرات التي نأكل فيها عند العمة (سولاف)، شيء ما لم أكن أفطن إليه في تلك السن الصغيرة، وهو لماذا تتزين العمة (سولاف) وتبدو أكثر إشراقًا وجمالًا حينما تدعونا إلى الغداء في بيتها، ولا تبدو كذلك حينما تأتي إلى منزلنا؟

وفي ليلة قمرية من ليالي شهر أيَّار، استيقظت فزعًا من نومي على صراخ أمي (رومانا) وهي تلطم خديها بكفيها، وتبكي بكاء أشبه بالعويل، فقد أخبرها أبي برغبته في الزواج من العمة (سولاف).

* * *



الورقة الثامنة

وفي الليلة التي بنى فيها (زخاري) بزوجته الجديدة (سولاف)، كنت أنا وأمي نبيت وحدنا في الكوخ للمرة الأولى منذ الخروج، جلست (رومانا) على أريكة الأراك، وقد أحاطت ركبتيها بذراعيها، انكمشت على نفسها كطفل يرتعد خوفًا من الظلام، حدقت في الفراغ بعينين لا يطرفان وكأنها تتصفح لوحًا سُطِرت عليه ذكريات سنواتها الفائتة، ومَضت أشعة القمر المتسللة عبر فرجات الجدار على دمعة تحجرت على مقلتها لبرهة. ثم انسابت على وجنتها في هدوء يحترم صمتها الحزين. كنت أتظاهر بالنوم وأنا أتطلع إليها مفطور القلب، لم أفهم سبب جُرحها، ولكني كنت أراه يدمي، تسللت من فراشي في هدوء وجلست إلى جوارها مستْ يدي يداها، فوجدتها باردة كالثلج، قبّلت يدها وقلت لها في براءة:

ـ لا تخافي أنا إلى جوارك.

فاحتضنتني، ثم أجهشت ببكاء محموم.

كان الوقت بين عتمة الليل والسحر حينما سمعنا طرقًا خفيفًا على باب الكوخ وجاءنا صوت أبي مناديًا في رفق:

ـ يا أم (شمعون)!

مسحت أمي ـ التي كانت لا تزال متيقظة ـ دموعها على عجل واعتدلت

في جلستها، أما أنا فقد انتبهت من غفوتي على حجرها وقمت مسرعًا لأفتح الباب، تلقفني أبي في حضنه، ودخل بي إلى الكوخ، أضاء شمعة أنارت الظلام. ثم نظر إلى أمي في عطف وإشفاق، أشاحت بوجهها عنه، وارتفع أنفها في شمم ليخفي انكسار عينيها اللتين تورمتا من شدة البكاء، قال أبي في صوت ما بين الخجل والاعتذار:

ـ كيف حالكما؟ لم أحتمل الانتظار حتى بزوغ النهار.

لم ترد عليه، فتقدم منها ثم قبل رأسها في رفق وقال معتذرًا:

ـ سددْتُ بابًا قد دلفني الشيطان منه.

انهالت دموعها غصبًا عنها وقالت:

ـ بل فتحت له بابًا ودَعوْته للدخول.

قال في صدق:

ـ كنت أكرمها لأجلك.

قالت مؤنبة:

ـ وهل تزوجتها لأجلي؟!

همهم في خفوت:

ـ تزوجتها على شريعة الرب.

قالت مستنكرة:

ـ لا يأمر الرب بالخيانة.

قال متعجبًا:

ـ الزواج خيانة؟!

قالت باكية:

ـ وأشد منها الغدر مع الصديقة.

قال متراجعًا أمام دموعها:

ـ أخبرتك قبل أن أتزوج بها!

قالت باكية:

ـ كمن أخبر الذبيح متى يحين موعد ذبحه!

ثم أجهشت في حرقة، فاقترب منها ومسح رأسها في رفق ثم قال:

ـ هوني عليك يا أم (شمعون)، فقد تزوج أبونا (إبرام) من جارية مصرية على أُمِّنا سارة، وتزوج (إسرائيل) من راحيل على أُمِّنا ليا، وتزوج أبي من أمي على أم (باتشيفا).

لم ينقطع بكاؤها فضمها إلى صدره وقال:

ـ لها مني رعايتها كما كنت أرعاها من قبل، أما قلبي فهو لك يا أم (شمعون)، ومن يدري لعل الرب يبدلك بالصديقة أختًا، تكون لك عونًا في يوم من الأيام.

ولم يتخلف أبي عن المبيت في كوخنا منذ تلك الليلة، ومرت الأيام وتعلمت منها أن الأحزان لا تدوم، وأن الجروح مهما غارت لا بد لها من التئام، وأن الهموم التي تولد كالجبال لا تلبث أن تجرفها موجات النسيان، كبحر ينحر في شاطئ من الرمال، فلا يتبقى منه سوى ذرات تعلق في الماء!

فبعد أسابيع أتت العمة (سولاف) لزيارة والدتي فلم تقابلها، ثم عاودت الزيارة ثانية، فقابلتها ولكنها لم تحادثها، ثم كانت الثالثة في وجود أبي فتباكيا وتعاتبا واحتملت زلات أمي الغاضبة ثم افترقا، وقد تجددت بينهما شعرة من الود سرعان ما صارت حبلًا وَصَلَ ما انقطع بينهما من قبل، وأصبح مجلس العمة (سولاف) في دارنا ممتدًا طيلة النهار، تعاون أمي في أعمال البيت وتطهو معها الطعام فإذا انتصف النهار جمعتنا جميعًا مائدة واحدة نأكل عليها ونشرب، ونتبادل الحكايات والضحكات، حتى إذا مالت الشمس إلى المغيب استأذنت هي للعودة إلى كوخها فتبيت فيه وحدها بينما نبيت نحن في كوخنا الدافئ الجميل كما كنا نفعل في الأيام الخوالي.

والحق أن العمة (سولاف) كانت شديدة الامتنان لأمي، وشديدة الرضى

كذلك بحياتها الجديدة معنا، لم يَسُؤْهَا أن تكن حياتها فرعًا لأصل، ولم تَشك يومًا وحشة المبيت في الكوخ وحدها، كان يُرضيها أن تنعم بدفء الحياة بيننا وأن تلقى الرعاية من رجل عطوف كأبي من بعد وفاة زوجها (أشكول)، وظل الأمر كذلك إلى أن جاء يوم تحركت في أحشائها علقةٌ منه، أعادت إلى أذهانها ذكريات من الحزن والألم كانت تتمنى ألا تعيشها مرة أخرى، فقد تذكرت مرات حملها السابقة، وأصابها الهلع من أن يغيض رحمها بمسخ كما كان يحدث من قبل، أو أن يأتي طفلها إلى الدنيا مريضًا كما كان ولدها (سيحون)، ومرت الأيام عليها ثقيلة بطيئة، وأصابها الحمل والهم بالضعف والهزال، فظلت في كوخها بئيسة وحيدة تترقب الأيام كمن يترقب سبيلًا للنجاة.

* * *

وعادت العمة (باتشيفا) وزوجها (الشامري) إلى النزل بعد غياب دام عدة أسابيع، كنا قد ظننا أنهما قد وصلا إلى أرض مصر، لا سيما بعد أن طالت مدة غيابهما، ولكنهما رجعا مرة أخرى إلى النزل محجلين بالخزي والعار ومحاطين بنظرات الشماتة والاستهجان من سكان الحي خاصةً من الشباب الذين شاركوا في الحرب ضد العماليق.

واصطحبني أبي لزيارة العمة (باتشيفا) وزوجها (الشامري)، استقبلتنا العمة بوجه مرهق يعلوه الشقاء وقد بَدَتْ أكبر عمرًا من وجهها الذي خرجت به منذ أشهر، ملأ جسدها ركن الخيمة بينما جلس زوجها في الطرف الآخر، يمسك في يديه قنينة من الزجاج الملُوَّن استقرت بها حفنة من الرمال بمقدار قبضة اليد يقلبها بين يديه في اهتمام ويتأملها في شرود أذهله عنا.

قال أبي بعد لحظات ليقطع الصمت الثقيل:

ـ حمدًا للرب على سلامتكما يا (باتشيفا).

همهمت شاكرة ثم بادرته قائلة:

ـ سمعنا بنبأ زواجك من أرملة (أشكول).

قال مؤكدًا:

ـ هو صحيح.

قالت مستهجنة وقد استدعت روحها الشريرة:

ـ ليس لك حظ في النساء يا (زخاري) جارية مصرية خبيثة ثم أرملة تعيسة تلد مسوخًا ومهابيل.

أراد أبي أن يصرفها عن شأنه فقال:

ـ لا تبك على حظي يا (باتشيفا) فإني سعيد به، وأخبريني، هل ضللتم الطريق إلى مصر؟

عبس وجهها فأضاف إلى عمرها أعوامًا أخرى، وقالت وهي تنظر شذرًا إلى (الشامري):

ـ كلا بل وصلنا إلى فم الحيروث مع القافلة، وكدنا ندور حول البحر ونصل إلى بر مصر، لولا أن تراجع هذا المخبول وأصر على أن يعود بنا إلى «رفيديم».

تطلع أبي بتعجب إلى (الشامري) الذي ظل محدقًا إلى قنينة الرمال دون أن يكترث لحديثها فتابعت العمة (باتشيفا):

ـ لم نكد نصل إلى فم الحيروث حتى أفلت من القافلة وعاد بعد ساعات بتلك القنينة ولا يزال يتطلع إليها كالمسحور منذ ذلك الحين.

بدا الاهتمام على وجه أبي بينما أردفت هي في غيظ:

ـ عَبَرت القافلة إلى مصر من دوننا ودفعنا أموالًا طائلة للدليل حتى يعود بنا إلى «رفيديم».

تعجب أبي من حديثها ثم قال ساخرًا وهو يتطلع إلى (الشامري):

ـ لعله وجد كنزًا من كنوز الفراعين؟

هنا استدار (الشامري) واعتدل في جلسته ليواجه أبي ثم قال:

ـ هي أكبر من ذلك يا نجار بني إسرائيل، بل هي أعظم من عصا نبيك التي تأتيه بالمعجزات.

تهكمت عمتي قائلة:

ـ هذا ما يردده منذ غادرنا فم الحيروث.

ثم تابعت في غضب:

ـ أقسم بالرب إيل إنها لسحر أسود ألقى به أحدهم في الصحراء، ووقع في يد هذا المتعوس ليكدر به حياتنا.

انتابتني القشعريرة من قولها بينما سأله أبي مستفهمًا في صدق:

ـ هل حقًا عدت إلى النزل من أجل تلك الحفنة من الرمال يا (شامري)؟

فاجأه بقوله:

ـ بل خرجت يوم خرجت من أجلها!

ثم أوضح في ثقة أرعبتني:

ـ بصرت يوم الخروج بما لم تبصروا به، رأيت أثره على الرمال، وشعرت به وأنتم عنه غافلون.

سأله أبي مستغربًا:

ـ ما الذي بصرت به؟

لم يتوقف عند سؤاله بل تابع كالمفتون:

ـ كان بيننا لم يفارقنا لحظة، هو الذي عبر بنا وليس (موسى)، كنت أرى جنود الفرعون يتساقطون تحت أقدام فرسه المهول، كنتم تسيرون خلف (موسى)، وكنت أسير أنا وراء آثار أقدامه.

استحوذ على عقولنا فلذنا بالصمت، حتى العمة (باتشيفا) لاذت بالصمت، فتابع مشدوهًا:

ـ كنت أراه في أحلامي وأنتظر اليوم الذي أعود فيه إلى فم الحيروث لأتحقق

مما رأيته، فلما وصلنا إلى هناك وجدت آثاره كما هي لم تمحها ريح ولم تطمسها الرمال وهذه قبضة من أثره.

نظر إليه أبي في إشفاق بينما ندت عن عمتي صرخة استنكار وقالت:

ـ وحق الرب إنك لمجنون أو ربما أصابتك شمس الصحراء بلوثة.

لم يبد عليه الاكتراث لإهانتها. فقال والدي آسفًا:

ـ توليت عن حرب العماليق وعصيت أمر الرب من أجل حفنة من الرمال لا تضر ولا تنفع!

قال (السامري) في شرود كمن يتوعد:

ـ هذا ظنك يا نجار النزل وسيأتي يوم يعلم فيه بنو إسرائيل أنها تضر وتنفع، وستعلم حينها من أشد إعجازًا، أنا أم صاحب العصا!

* * *

وحان وقت الرحيل من «رفيديم»، جلجلت أصوات الأبواق في أرض الواحة وكأنها تنعى ذكريات سيطويها النسيان عما قريب، شعرت بالوجد حينما شرع أبي في حل أعمدة الكوخ، وطيّ جدرانه المصنوعة من الحصير والخوص، تَقّلبت بصري في أركان النزل الذي دخلناه صحراء جرداء وتركناه واحة خضراء تتفجر منها الينابيع والجدوال، فارتسمت في مخيلتي صورة أخيرة للنزل ما زلت أذكرها حتى الآن، وتشكل في وجداني أول إحساس بالحنين إلى المكان، وشعرت وقتها ـ رغم الصغر ـ بقسوة حياة التنقل والترحال، واشتاقت نفسي إلى الاستقرار في أرض الميعاد.

والحق أن الناس من بني إسرائيل قد تثاقلوا في بادئ الأمر عندما جاءهم الأمر بالرحيل، لكنهم أسرعوا في تجهيز متاعهم حينما تردد في النزل أن منزلنا القادم سيكون عند جبل الرب بالوادي المقدس، وحين علموا بأن نبي الله (موسى) على لقاء مع ربه فوق جبل حوريب.

خرجنا من وادي «رفيديم» إلى «البرية» قبل زوال الشمس، كنا هذه المرة

أفضل حالًا، فقد حمل أبي متاعنا كله فوق راحلة كراها من بعض جيران النزل وسار بها في المقدمة، بينما امتطت أمي حمارًا وكذلك العمة (سولاف) التي انتفخت بطنها وبدا عليها وَهنُ الحمل وإرهاقه، أما أنا فقد سرت خلف قطيع من الماعز والأغنام أهش على الشاردة منهم، وأدفعهم دفعًا للسير خلف الركب، وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى أطراف الوادي المقدس، وبدا جبل حوريب أمامنا شاهقًا باسقًا، كان السكون يخيم حول الوادي المقدس، وكانت قلوبنا تزداد رهبةً وسكينة كلما اقتربنا منه، حتى البهائم والنوق كففن عن الخوار والرغاء وكأنما أرهبها الوادي المهيب، أمرنا نبي الله أن نحط الرحال على سهل ضيق على طرف الوادي يقع إلى الشمال من الجبل، وجاء التحذير جليًّا واضحًا:

- كل من تخطو قدمه إلى الوادي المقدس أو تمس يده صخرة من الجبل يقتل قتلًا إنسانًا كان أم بهيمة.

وتحسبًا لذلك الأمر، عكف الرجال منذ اليوم الأول على بناء سور من الحجارة حول النزل حتى لا تشرد بهيمة إلى الوادي أو ينسى أحد من الناس تحذير الكليم. ولم يسمح ضيق النزل الجديد برفاهية التوسع في ضرب الخيام والأكواخ، فنصب أبي كوخًا وحيدًا جمع فيه زوجتيه وألحق به عريشًا كنت أتبادل معه المبيت فيه إلى جوار الماعز والأغنام.

واقترب موعد الميقات، فجمع نبي الله (موسى) الناس في النزل وخطب فيهم وأخبرهم بأن الرب قد وعده بأن يأتيه بكتاب من عنده فيه شريعة بني إسرائيل وأحكام حياتهم، وذكرهم بفضل الرب عليهم، وكيف أنجاهم من عدوهم ورزقهم بأطيب الطعام والشراب وذكرهم بوعد الرب لهم بدخول الأرض المقدسة شريطة أن يطيعوه وأن يكفوا عن التذمر والمعاصي، ثم أخبرهم بأنه سوف يصعد فوق الجبل وسيظل فوقه ثلاثين ليلة يتلقى فيهم الشريعة من الرب ثم يعود إليهم في اليوم الثلاثين، حاملًا معه ألواح الرحمة والهداية، وأوصاهم بأن يطيعوا أخاه الكاهن (هارون) وأوصي أخاه بأن يصلح بيننا وألا ينصاع للمفسدين.

وفي اليوم الموعود أقيمت صلاة جامعة، وأقيم مذبحًا للرب ثم ودعنا نبي الله (موسى) قبل أن يهبط وحده إلى الوادي المقدس ميممًا شطر الجبل العظيم.

ومرت الأيام الأولى وكأن نبي الله بين أظهرنا، نستيقظ في الصباح فنجمع رقائق المن في الأقساط، وفي المساء تأتينا السلوى في ساحة النزل، فيجمع كل فرد منا مقدار حاجته في القدور، إلى أن وقع حدث صبيحة يوم من أيام الآحاد أثارت اللغط في النزل، استيقظنا فوجدنا المن وقد أكلت معظمه الديدان، وتقلصت حوله يرقات مقززة تثير الغثيان، فعافت أنفس الناس عن جمعه ولم يأكلوا المن في ذلك الصباح وانتظروا هبوط السلوى في المساء. فأتى المساء وإذ بطيور السلوي تهبط نافقة وقد أنتنت لحومها وكأنها تقيأتها حِدَئات من السماء، وتعجب الناس مما حدث! وذهبوا إلى الكاهن (هارون) يشكون إليه ما حدث، فجمع الكاهن شيوخ الأسباط، وأخبرهم بأن ما حدث إنما هو عقاب من الرب؛ لأن هناك من بني إسرائيل من جمع أكثر من حاجته من المن والسلوى وخَزّنه في بيته ليوم السبت، ثم أمر بإقامة محرقة وتقديم القرابين والصلوات حتى يُرْفَعَ العقاب ففعلوا مثل ذلك، فرفع العقاب عنا، ورجع نزول المن وطيور السلوى كما كان، وكان ثمة ما يدل على حقد بعض كبراء بني إسرائيل على الكاهن (هارون)، ولربما استضعفه بعضهم ورأى نفسه أحق بالزعامة منه على بني إسرائيل، وكان (قورح بن إليصهار) يتربص بتلك اللحظة فصار يقلب الناس على (هارون)، وكلما اشتبك اثنان في أمر من أمور الدنيا رفعوه إلى (هارون)، فإذا حكم لأحدهما لم يرض الآخر بحكمه، ثم يذهب المحكوم عليه إلى زعيم سبطه فيشكو إليه الغبن الذي أوقعه عليه (هارون)، وهكذا تفشت الفتنة بين الأسباط، وكادت أن تحدث فُرقة بين بني إسرائيل، واتهم بعض المغرضين الكاهن (هارون) بمحاباة أقاربه من سبط لاوي، فجمع (هارون) القوم وخطب فيهم، وأوصاهم بأن يحفظوا العهد وأن يتجنبوا الشقاق حتى يتحقق لهم وعد الله ويعود (موسى) إليهم بالألواح.

ولكن هيهات فقد شرد بنو إسرائيل كالخراف التي رفعت عنها عصا الراعي،

وتجرأ بعض البغاة منهم على يوم السبت، وامتنع الناس عن تقديم الذبائح والقرابين حتى كادت نار المحرقة أن تنطفئ، وتفشت السرقة بين الناس بحجة استرداد الحقوق، وصارت الحياة في النزل من بعد (موسى) كحياة الغاب، فاعتزل الصالحون من بني إسرائيل الفتن، ودعوا الرب بأن يعجل لهم بعودة (موسى) حتى يعيد خراف بني إسرائيل الضالة إلى حظيرة الإيمان.

وكان أبي شديد التعاسة في تلك الأيام، أصابه الغم مما حاق ببني إسرائيل، فكان يمكث في الكوخ حزينًا ويقول لأمي وللعمة (سولاف):

ـ بئس هؤلاء القوم وكأنما أقام لهم (موسى) منزلًا من قش، إن لم تشعله شرارة من نار، ذرته هَبّة من الريح! كيف لم يصبروا على فراقه شهرًا واحدًا؟

وكان يبكي ويقول:

ـ يا لخوفي من أن يحل علينا عقاب الله!

وعلى العكس من أبي، استعاد زوج عمتي (الشامري) نشاطه ودبت فيه الحياة كنبتة غمرتها قطرات المطر بعد طول الجفاف، فصارت خيمته قبلة لكبراء بني إسرائيل وزعمائها الجدد، حتى إن العوام من الناس كانوا يُحكّمونه وصحبه فيما شجر بينهم ويتركون خيمة الكاهن الذي استخلفه نبي الله عليهم، واتفقت تلك الجماعة على أن يراجعوا (موسى) في أمر الكهانة إذا عاد، فهارون ليس أحكمهم، وقد فرّق في حكمه بين بني إسرائيل، ولم يحكم بينهم بالعدل، كما أمره (موسى).

وجاء اليوم الثلاثون، فاستيقظ كل من في النزل قبل شروق الشمس، وامتلأ السفح بالآلاف من بني إسرائيل يجمعهم هدف واحد وقلوب وضمائر شتى، يمموا وجوههم شطر الوادي المقدس، وتوجهت أنظارهم صوب الجبل المهيب والكل في انتظار اللحظة الحاسمة التي يهبط فيها الكليم من فوق الجبل حاملًا معه الألواح التي أنزلها الله رحمة لبني إسرائيل.

* * *

الورقة التاسعة

مرت الساعات ثقيلة بطيئة وكأنما صفدت أقدام الزمن بسلاسل من حديد، وكلما خطا النهار المكبّل بالأمنيات خطوة في طريقه نحو المغيب، كلما ثار القلق في النفوس، وعبست وجوه قوم تلهفوا لرؤية نبيهم عائدًا إليهم بألواح الرحمة والهداية بعد طول الغياب، جلسنا جميعًا على أرض السهل لا نحرك ساكنًا، كتماثيل نصبت على حرف الوادي تنتظر أن تأتيها نفخة الحياة من فوق الجبل المشرف على الوادي الحزين، احتجبت الشمس خلف الجبل، ولملمت ما تبقى من أشعتها في شفق أحمر باهت تآكلت أطرافه بظلمة المساء، ومع اختفاء آخر شعاع للشفق، ارتفع صراخ النسوة في الوادي وانهار ثبات الرجال، وعلا البكاء والنحيب، وثار بعض الشباب وأرادوا أن يتجاوزوا سور النزل إلى أرض الوادي المقدس ليبحثوا عن نبيهم المفقود، ولكن (يوشع) وأصحابه دفعوهم عن ذلك دفعًا وذكروهم بوصية نبيهم وهتف (يوشع) قائلًا:

- اثبتوا يا رجال وتذكروا وصية نبيكم كل من تمس قدمه أرض الوادي فإنه يقتل قتلًا.

ومع هبوط الظلام اشتدت الريح في فضاء النزل، وتكاثفت السحب في السماء، وتساقطت زخات من المطر، سرعان ما تزايدت قوتها، فاحتمي الناس بالخيام، وقد ضاعف الطقس كآبتهم، وقضوا ليلة حزينة ممطرة وكأنما بكت عليهم السماء.

واستيقظنا في الصباح لا ندري ماذا نفعل؟! كان شعورًا لم نختبره من قبل! فقد عشنا قرونًا عبيدًا لفرعون يأمرنا فنطيع، ثم أتانا بعد ذلك نبيٌّ مؤيد بالمعجزات ويتصل بالسماء، فكان أيضًا يأمرنا فنطيع ويحمل عنا مشقة التفكير وتبعة تقرير المصير، ولكن هكذا صارت الأمور! وأصبح لزامًا على الشعب الذي عاش مدللًا في كنف نبيه كالرضيع أن يذوق مرارة الفطام وأن يتحمل تبعة اختياره، ويا لها من تبعة!

تجمع الناس في ساحة النزل التي ركدت فيها مستنقعات صغيرة من مياه أمطار الأمس، وتشبعت رمالها بالماء فتعسر عليهم الجلوس، وقفوا الساعات في انتظار ما يسفر عنه اجتماع المشايخ مع الكاهن (هارون) في خيمة الاجتماع، كنا نقف أنا وأبي والعمة (باتشيفا) على مقربة من الخيمة، بينما جلس (الشامري) على الأرض غير مبالٍ برطوبة الرمال، وقد أمسك في يده اليسرى بصخرة ملساء غسلتها مياه الأمطار، وأمسك في يده اليمنى بشفرة من حديد أخذ ينقش بها على الصخرة رسمًا لم أفهم له معنى.

وبعد أن انتصف النهار خرج (هارون) ومعه المشايخ من خيمة الاجتماع، وقد بدا أن شقاقًا قد وقع بينهم، صعدوا إلى تبة عالية من الرمال، ونادى (يوشع) في القوم، فتجمع الناس ليسمعوا ما يمليه عليهم كاهنهم، قال (هارون):

ـ أيها الناس! قد أظلتنا أيام فتنة وبلاء، ولا نجاة منها إلا بالتوبة والاستغفار، فمن كان منكم على خطيئة فليدعها، لا يَمُدَّن أحدكم عينيه إلى زوجة جاره، ومن اغتصب منكم مالًا فليرده، عسى الرب أن يكشف عنا ذلك البلاء.

لم يكد يكمل كلامه حتى ضج القوم احتجاجًا عليه، وعلا صوت من بين الصفوف ميّزت فيه صوت (جدعون) الحداد، فقد كان صوته أجشَّ كناقة ترغي على وليدها وهو يقول:

ـ دع عنك النصح أيها الكاهن وقل لنا متى يعود (موسى)؟

استنكر (هارون) السؤال فقال:

ـ هل طال عليكم العهد؟!

قال (جدعون):

ـ كلَّا، ولكنا في انتظار الوعد، فاضرب لنا موعدًا يأتينا فيه بالألواح؟

قال (هارون):

ـ العلم عند ربي، وهل عسيتم إن هلك (موسى) في البرية أن تضلوا بعده وتعصوا أمر ربه!

ثار الناس أكثر، وتحدث رجل من سبط زوبلون بفم يفيض قبحًا قائلًا:

ـ بل ضللنا يوم تبعناكم إلى ذلك القفر.

وعقب عليه رجل من سبط يساكر:

ـ صدقتَ! قد أضلانا ابنا عمران، ثم ورَّثنا أحدهما للآخر كما يورث الرجل بعيره.

ثم نادى الرجل في قومه:

ـ يا بني يساكر! قد وعدنا (موسى) فأخلف موعده، ولا طاعة لأخيه علينا حتى يعود بالألواح.

ولاقت دعوته استحسانًا من بعض الناس، وغضبًا من آخرين، وقال (هارون) مستنكرًا:

ـ أتريدون أن تفرقوا بين بني إسرائيل!

قال (عزرا) من سبط جاد:

ـ بل فرقتم أنتم بين بني إسرائيل يوم جعلتم الكهانة في سبط لاوي.

ثم أردف في تهديد:

ـ لكم منا ثلاثة أيام فإن لم يعد (موسى)، أقيمت محرقة للرب وقدم كل سبط قربانه، ومن تأكل النار قربانه تكن له الكهانة على بني إسرائيل.

غضب (هارون) وقال:

ـ كيف تحتكمون إلى الرب وأنتم تعصون أمر نبيه؟ ألم يستخلفني (موسى) عليكم؟ قال (عزرا) في تحدٍّ:

ـ إن الله قد عهد إلينا ألا نؤمن لكاهن ولا رسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار.

رد عليهم:

ـ قد جاءكم (موسى) بأكثر مما قلتم، وهأنتم ترتدون على أعقابكم، وتكفرون بما وعدكم به.

قال الرجل:

ـ أطعنا (موسى) ما دام فينا، أما أنت فلا طاعة لك علينا.

قال (هارون) آسفًا:

ـ قد ضللتم إذن، وحق عليكم البلاء من الرب!

وهنا برز (الشامري) من بين الصفوف، وهرول صاعدًا إلى التبة وهو يهتف:

ـ يا بني إسرائيل! اسمعوا إليّ! اسمعوا إليّ!

تعجب أبي حينما رآه، وشهقت عمتي (باتشيفا) التي كانت تقف إلى جوار أبي وقالت في قلق:

ـ ماذا يفعل هذا البائس؟

صمت الناس استجابة لندائه، فقال:

ـ أتدرون لماذا نسي (موسى) ميقات ربه؟ ولماذا أخلف موعده؟ لأنكم لصوص! ولأن لعنة آلهة المصريين قد حلت عليكم.

استنكر الناس قوله، وضحك بعضهم ساخرًا، وتمتمت عمتي قائلة في خفوت:

ـ حلت عليك اللعنة أيها التعس! فضحتنا أمام القوم!

ولكن (الشامري) بدا أكثر إقناعًا وهو يقول:

ـ قد حملتم أوزارًا من حُليّ جيرانكم المصريين وذهبهم عند الخروج، وما من بيت من بيوت النزل إلا وفيه مالًا اغتصبه أحدكم من جاره المصري، فكيف ترجون من الرب أن ينزّل عليكم ألواحًا من السماء وقد دنستم بيوتكم بذهب مسروق!

صمت الناس ثم نكسوا رءوسهم، فقد صدقهم الرجل القول، فتابع (الشامري) وقد فارت حماسته:

ـ طهروا بيوتكم من الدنس، احرقوا الذهب المسروق واجعلوه قربانًا للرب، من سرق قرطًا أو أسورة فليلق بها إلى النار، ولكم عليّ أن أقيم محرقة لم يشهد بنو إسرائيل مثلها.

استحسن (هارون) ومشايخ الأسباط رأيه بينما نظر إليه أبي متشككًا، وقالت العمة (باتشيفا) في قلق:

ـ يا لخوفي منك يا (شامري)!

وعاود المطر سقوطه فعدنا إلى الكوخ قبل أن يشتد هطولها.

كانت أمي تنتظرنا في قلق، بينما كانت العمة (سولاف) تنام جالسة إلى الحائط، فقد كانت لا تقوى على النوم على ظهرها منذ أن كبرت بطنها وصارت تطبق على صدرها أثناء النوم، بادرها أبي بقوله وهو يخلع رداءه المبتل:

ـ شعب لا يستحق إلا ذل المصريين!

ابتسمت أمي لتخفف عنه عبوسه وقالت وهي تناوله رداءً جافًا:

ـ أهذا ذَمٌّ في قومك أم قدح في قومي؟

قال حانقًا وهو يرتدي الرداء، بينما كانت أمي تبدل ثيابي المبتلة:

ـ يثورون على الحليم (هارون)، ويصمون آذانهم عنه، ثم يستمعون إلى (الشامري)، فيأمرهم بأن يحرقوا ذهب المصريين حتى لا تحل اللعنة عليهم!

قالت متعجبة:

ـ أحقًا قال هذا؟

قال ساخرًا:

ـ نعم، والأدهى أنهم أطاعوه!

رأيت في عينيها تصديقًا وخوفًا ثم قالت مترددة:

ـ قد يكون محقًا!

نهرها غاضبًا:

ـ أي لعنة؟ وأي آلهة؟ إنها أصنام لا تضر ولا تنفع.

قالت متوجسة:

ـ هي لا تضر، ولكن سحر الكهنة قد يضر!

قال مستخفًا:

ـ هراء! قد رأيت بعينيك عجز السحرة أمام آيات الرب إيل.

ثم أردف:

ـ والله ما قال (الشامري) تلك القولة إلا وهو يبغي من ورائها باطلًا.

قالت مُلطِّفة:

ـ هون عليك يا (زخاري) فغدًا نعلم ما يبتغيه.

ثم أردفت باسمة:

ـ وإياك أن تمد يدك على ذهبي، وإلا حلت عليك لعنتي.

جاهد نفسه ليبتسم لكنه لم يستطع، ثم سألها:

ـ هل تملك (سولاف) شيئًا من ذهب المصريين؟

قالت أمي:

ـ كلَّا، فقد تركته كله في دار أم (أشكول).

فقال في وجوم:

ـ حمدًا للرب أن جعل بيتنا محفوظًا من الوزر والخطيئة.

* * *

الورقة العاشرة

وفي الصباح خرج الناس تباعًا إلى الموضع الذي أقام فيه (الشامري) المحرقة، حاملين في أيديهم أقراطًا وأساور وسلاسل من الذهب والفضة، تعجبت كثيرًا من هذا الكم من الجواهر التي أعارها المصريون لجيرانهم من بني إسرائيل عن طيب خاطر ليتزينوا بها في عيدهم، وتردد في رأسي سؤال:

إن كان المصريون بهذا العطف، فلماذا كان يكرهنا الفرعون إلى هذا الحد؟!
صعدنا إلى هضبة فسيحة عالية خارج النزل أقام فيها (الشامري) محرقته، كانت المحرقة في فجوة بين صخرتين عاليتين فوق الهضبة، ملأ (الشامري) الفجوة بالحطب، وبنى سورًا بين الصخرتين من الحجارة، ثم صنع سلمًا يصعد به إلى الفوهة علق في نهايته حلقة تتدلى منها سلسلة إلى داخل المحرقة، فبدت المحرقة كمرجل مهول تتصاعد منه ألسنة اللهب وأعمدة النار والدخان، وقف (الشامري) إلى جوارها يغذي نارها بالزيت والحطب، وقد ثار شعره، وتعفرت لحيته، واحمرت عيناه حتى بدا كشيطانٍ مريع.

متى وكيف أعد (الشامري) تلك المحرقة؟! كانا سؤالين يجولان بخاطر كل من في النزل، ولكن لم يكلف أحد نفسه عناء الجهر بهما، صعد الناس الواحد تلو الآخر إلى سلم المحرقة، يعطون (الشامري) الواقف أعلى الدرج الحلي، فيلقي بها في أتون النار وهو يقول:

ـ طهروا أنفسكم من الخطيئة حتى يأتيكم الرب بوعده.

وظل الناس يتبادلون الصعود حتى كاد النهار أن يزول، وألقى آخر من في النزل بحمله من الذهب في المحرقة فنادى (الشامري) في الناس:

ـ أبشروا أيها الناس غدًا يأتيكم الرب بوعده.

فنادى عليه (جدعون) الحداد بصوته الأجش:

ـ وأنت يا (شامري) ألن تتطهر من خطيئتك؟!

قال (الشامري):

ـ بلى أتطهر منها!

ثم أخرج من جيبه القنينة الملونة، فظنها الناس لؤلؤة من جواهر المصريين، فأمسك بها وقال لـ(هارون):

ـ يا أخا (موسى)! هل ألقي ما في يدي؟

تعجب الناس من سؤاله، فقال (هارون):

ـ نعم، ألقِ.

فتمتم عليها (الشامري) بكلمات لم نسمعها ثم ألقى بها في النار، فهلل الناس ومجدوا الرب، وبات الناس على أمل أن يأتيهم الرب بوعده في الصباح.

وحدها من دون الناس، كانت في حزن وكرب عظيمين، ناء كاهلها بالسر الذي عرفته قبل تلك الأحداث بأيام، وتمنت لو تصرخ كي تحذر الناس منه، لكنها لم تستطع، كانت حزينة لما آل إليه حال زوجها منذ عادا إلى «رفيديم»، أقلقها ولعه بتلك القنينة المسحورة، وذهوله عن كل شيء سواها، ثم ساورها الشك حينما رأته يكثر من الخروج إلى تلك الهضبة التي أقام فيها محرقته، دفعها الفضول إلى أن تتبعه ذات يوم إلى تلك الهضبة، فوجدته يلجأ إلى غار، يمكث فيه طيلة النهار، شعرت بأن سرًّا ينتظرها هناك، تركته نائمًا ذات ظهيرة وذهبت إلى الغار، وحين دخلت شعرت بالعجب والغضب والشفقة في آن واحد، وجدت على الأرض أدوات النحت التي كان يعمل بها في مصر قبل الخروج، الإزميل، البراغي، المطرقة، سبائك النحاس والألوان! تعجبت كيف أخفى

عنها زوجها تلك الأدوات طيلة تلك المدة دون أن تعلم، على جدران الغار وجدت نقشًا ضخمًا للإلهة حتحور وقد طُلِي بألوان بديعة خلابة، وإلى جوار الحائط وجدت عدة أيقونات وتماثيل صغيرة للعجل أبيس منحوتة بإتقان من قطع صغيرة من الحجارة والرخام، ولا تزيد الواحدة منها عن قبضة اليد، ولكن أشد ما أثار دهشتها كان ذلك القالب الأجوف الضخم المصنوع من النحاس والذي سُبِك على شكل تمثال العجل أبيس، أصابها الذهول، ودار في ذهنها سؤال متى صنع زوجها تلك الأشياء؟ والأهم لماذا صنعها؟ إنها على يقين بأن زوجها يعبد الرب إيل، فلماذا يدنس قلبه بهوى ذلك العجل اللعين؟!

عادت إلى المنزل كسيرة النفس حزينة، فوجدته قد استيقظ من نومه، لم تستطع أن تواري عنه ما في نفسها من ثورة فواجهته غاضبة:

ـ ألا يزال قلبك معلق بالعجل يا (شامري)؟

علم أنها فضحت أمره، فقال في حدة:

ـ كلَّا، ولكني أشتاق إلى حجر أنحته.

قالت لائمة:

ـ ولم تجد سوى العجل لتنحته.

قال في حسرة:

ـ لم أنحت غيره منذ كنت في العاشرة من عمري.

أشفقت عليه، فقالت:

ـ احذر يا (شامري)، فلو علم (موسى) بما تفعله لقتلك قتلًا.

قال غير مبال:

ـ صنعت منه في مصر المئات، وكان الناس يسجدون لما أصنع على مرأى ومسمع من (موسى).

صرخت يائسة:

ـ ما لنا والمصريين! تركنا لهم ديارهم وعجولهم.

ثم قالت مستعطفة:

ـ دع عنك أمر الماضي يا (شامري)، انزع من عقلك تلك الأوهام، ويكفينا ما لحقنا من خزي يوم هربنا من النزل قبل حرب العماليق.

رفع يديه أمام وجهه وقال صارخًا:

ـ نزعته من عقلي، ولكني لا أستطيع أن أنزعه من قلبي! هاتان اليدان تموتان إن لم يمسسهما حجر!

ثم انهار جالسًا وهو يقول:

ـ بلغت الستين من عمري، لا شباب ولا مال ولا ولد، حتى قبيلتي (شمرون)، هم أضعف الأسباط وأحقرهم، ثم تقولين دع عنك أمر الماضي وانظر للمستقبل؟!

ثم طفرت الدموع من عينه وقال:

ـ مثلي لا يحيا إلا في الماضي يوم أن كانت لي في مصر مكانة صنعتها بموهبتي، تلك الموهبة التي يحتقرها قومك الآن!

يئست من الكلام معه ووخزتها إشارته لعدم إنجابها، فقالت متبرمة:

ـ عش معزولًا عن الناس، وانتشِ بسكرة الفن حتى يكشف (موسى) أمرك ثم يجعلك عبرة لمن لا يعتبر.

* * *

أما أبي فقد ذكّرته قنينة الرمال التي ألقى بها (الشامري) في المحرقة بحديثه الذي أفصح عنه من قبل، ترددت في ذهنه عبارة (الشامري) «سيأتي يوم يعلم فيه بنو إسرائيل أينا أشد إعجازًا وأقوى، أنا أم صاحب العصا». لم ينم أبي في تلك الليلة، كان يتقلب في فراشه كالمحموم، ترك الفراش واستلقى في العريشة المجاورة للكوخ، خرجت إليه أمي وتبعتها العمة (سولاف)، وقد أقلقهما خروجه في ذلك البرد القارس.

قالت أمي:

ـ ما الذي أضج مضجعك يا (زخاري)؟

قال في اقتضاب:

ـ لا شيء.

جلستا إلى جواره، وقالت العمة (سولاف):

ـ تبدو حزينًا قلقًا منذ عدت مع القوم عند المساء.

زفر في قوة ليزيح عن صدره همًّا كالجبال ثم قال:

ـ لا مقام لنا في هذا النزل حتى يعود إليه (موسى)، أو تنكشف تلك الغمة!

ندّت عن أمي شهقة، وقالت العمة (سولاف):

ـ نترك النزل! لماذا؟

قال أبي:

ـ تحوم الفتنة حول النزل، ولا أدري ما الذي ينتظرنا عند الصباح؟

قالت أمي:

ـ مثلك لا يخشى الفتنة وقد عَمُر قلبه بالإيمان.

قال في صرامة:

ـ بل أفر منها، كما يفر المرء من الأسد.

قالت العمة (سولاف):

ـ وإلى أين نذهب؟

قال أبي:

ـ سمعت عن موضع يقال له «رسّه» يبعد عنا مسيرة بضعة أيام إلى الشمال.

وجمت المرأتان وقد أذهلهما كلام أبي، ثم قالت أمي في شيء من الخوف:

ـ نعيش في الصحراء وحدنا، بلا أهل ولا كاهن يرعانا.

قال أبي:

ـ سنفِرُّ بديننا حتى يعود إلينا (موسى).

قالت (سولاف):

ـ وكيف سنعلم بعودته؟

قال:

ـ أسررت بأمري إلى «إيليا» ابن عمي، وسيأتي إلينا ليخبرنا بعودة (موسى) أو انكشاف الغمة.

ساد الصمت لحظات، ثم قالت أمي:

ـ افعل ما يريح قلبك.

نظر أبي إلى العمة (سولاف) فقالت:

ـ لا يربطني بالنزل شيء سواكم، وأنا معكم أينما كنتم.

تنهد في ارتياح ثم قال:

ـ على بركة الله غدًا نخرج قبل الشروق.

وبينما كان قرص الشمس يتلصص صاعدًا من وراء جبل حوريب، كانت الراحلة تبتعد عن الوادي المقدس إلى قلب الصحراء، استدار أبي وألقى نظرة على جبل حوريب والوادي الساكن أمامه ثم قال:

ـ اللهم عجل لنا بعودة (موسى)، واحفظ بني إسرائيل من فتنة يبغيها (الشامري)!

* * *

الورقة الحادية عشرة

الهروب.

هذا ما فعله أبي في ذلك اليوم الفارق في حياة بني إسرائيل، لم يطق الرجل البقاء في النزل وقد أوشك البلاء على الوقوع، ولم يدفعه إيمانه إلى أن يظن في نفسه المقدرة على التصدي للفتنة حال حدوثها، فجمع زوجتيه وولده وجنينًا في رحم أمه، ثم خرج فارًا بدينه بعيدًا عن أرض النفاق، سارت بنا الراحلة بلا انقطاع بين عواصف الرمال الثائرة كسفينة تتأرجح على أمواج أثارتها لطمات الرياح، وصلنا إلى «رَسّة» قبل حلول مساء اليوم التالي، بلغنا منزلًا يقطن فيه بعض الأعراب، فاستأذنهم أبي للمكوث إلى جوارهم بضعة أيام فأذنوا له، ولعلهم أشفقوا علينا من وعثاء السفر في ذلك اليوم الزمهرير، أناخ أبي الناقة فهبطت من فوقها المرأتان، وقفزت أنا متدثرًا برداءٍ، أحكمت أمي أطرافه حول رأسي، حتى يقيني لفحات الهواء البارده، تخير أبي مكانًا منزويًا خلف تلةٍ بمنأى عن عاصفة الصحراء، ثم شد أطراف الخيمة على أوتاد أحاطها بقطع من الأحجار حتى لا تجرفها رياح الليل المتسارعة، اصطلينا بجذوات من الحطب أشعلها أبي في قصعة وقضينا ليلتنا الأولى في «رَسّة» بين صفير الريح وطقطقات الحطب ولطمات الهواء على جدران الخيمة.

وفي الصباح هدأت العاصفة قليلًا، سمعنا صوتًا ينادي خارج الخيمة، فخرج أبي ليجده ابن شيخ القبيلة، يحمل صحيفة من الطعام، تحدث إليه أبي

قليلًا ثم عاد إلينا حاملًا في يديه صحيفة الطعام، فوضعها بيننا وهو يقول:
ـ هلموا إلى الطعام فقد رزقنا الرب ثريدًا وجيرانًا ذوي قربى.
انهلنا على الطعام في نهم، فقد كنا نشعر بالجوع الشديد، وسألته أمي:
ـ من هؤلاء الأعراب؟
قال أبي:
ـ هم من بني (إسماعيل).
قالت العمة (سولاف):
ـ عجبًا ما الذي أتى بهم إلى هنا! ألا يقطنون في وادٍ بعيد اسمه بكة!
قال أبي:
ـ نعم ولكن بطونهم تنتشر في ربوع الأرض، وهؤلاء القوم من بني يطور بن (إسماعيل). هم يعملون في التجارة والرعي، وينزلون حيث يكون الماء.
سألته أمي متعجبة:
ـ ولماذا يضيفونا؟
قال أبي:
ـ هم أبناء عمومة يا (رومانا)، ويعبدون الرب إيل على ملة أبينا (إبرام).
لم أفهم حينها كيف يُعبَد الرب إيل بدينٍ غير دينِ بني إسرائيل، ولكني استمعت بشغف إلى حديث أبي عن حياة (إسماعيل) و(إبرام)، وشعرت بالإثارة حينما علمت أن أم (إسماعيل) كانت جارية مصرية مثل أمي (رومانا).
وقضينا يومنا الأول ضيوفًا على هؤلاء الأعراب، كانت ساحة نزلهم فسيحة، يتوسطها بئر كبيرة يشرب منها الناس والدواب ويحيط بها بيوت بنيت بالحجر، والحق أننا لمسنا من هؤلاء القوم كرمًا وجودًا، لم نر مثله من بني إسرائيل، دعانا شيخ القبيلة وكان رجلًا حكيمًا يدعى «عابر» إلى داره وقص أبي عليه، ما كان من أمر (موسى) وكيف خرج ببني إسرائيل من مصر حتى وصل بهم إلى

الوادي المقدس، ثم ما كان من صعوده إلى جبل حوريب واختفائه بعد ذلك.

قال الرجل في سكينة:

- لا يضل نبي وهو في حضرة الرب، سيعود إليكم نبيكم.

ثم حكي لنا الرجل أن جده يطور بن (إسماعيل)، قد ترك بكة مع أهله وأتى إلى هذا المكان، وأنه أول من رعى الإبل في ذلك الجبل، حتى إن الأعراب قد أسموه جبل «الطور» نسبة إلى جده، وأن جده هو من قام بغرس أشجار التين والزيتون فوق الجبل حتى يستظل بها الرعاة والأنعام، وحين نضب الماء فوق الجبل، هبط أجداده إلى تلك القرية حيث أقاموا بها وعملوا في التجارة والرعي.

وشعرنا بالألفة مع هؤلاء القوم، وقضينا أيامًا لا تنسى في صحبتهم، وكان للشيخ «عابر» حفيدة تصغرني بسنوات قليلة اسمها (أروى)، سمراء البشرة، جميلة المحيا ونحيفة القوام، سألتها عن معنى اسمها فأجابتني أنها تعني الرشيقة الحركة كأنثى الوعل! والحق أنها كانت في خفة النسيم وسرعة الريح، كنا نلهو ونتسابق إلى الجبل في كل صباح، فتنطلق قبلي إلى أعالي الصخر بينما لا أزال أنا في أسفل السفح تتعثر أقدامي في الرمال! وذات يوم كنا نلهو فوق الجبل، فإذا بالسماء وقد تلبدت بالغيوم، وتكاثفت بها السحب حتى دنت من الرءوس، وبدت بطون المزن حبلى بالمطر، وكان الأعراب يخشون المطر في تلك المنطقة، فقد كانت السيول تجرف كل شيء في طريقها، فلما رأوا المطر وقد أوشك على الهطول جمعوا الخيام المتناثرة ومن بينهم خيمتنا، وساقوا المعز والأغنام إلى ربوة قريبة بمنأى عن مجرى السيل، وظنت أمي أنني ألهو في ساحة النزل مع أبناء الحي، فلما بدأ الجمع في التحرك، فطنوا إلى غيابي وغياب (أروى)، وعلموا من أبناء الحي أننا كنا نلهو فوق الجبل، وفقدت أمي صوابها وظلت تصرخ خوفًا عليّ، وانطلق أبي ومعه والد (أروى) للبحث عنا، ولم تمض لحظات حتى تقاطر الماء من السماء، وغامت الشمس خلف السحب حتى كاد النهار أن يظلم،

شعرت (أروى) بالخوف وقالت:

ـ هيا بنا نعود يا (شمعون).

لم نكد نتحرك بضع خطوات حتى تزايدت حدة المطر، وانزلقت الأرض من تحت أقدامنا، وكدنا نتعثر عدة مرات، بكت (أروى) من الخوف وتمسكت بيدي في قوة حتى لا تنحدر على الأرض الزلقة، رأيت المطر يتزايد، وشعرت أنه من المستحيل أن نصل إلى أسفل الجبل سالمين، وهداني عقلي الصغير إلى أن البقاء على قمة الجبل أكثر أمانًا من النزول إلى السفح المنجرف، أطبقت يدي على يد (أروى) في قوة وسرت بها في حرص على الصخر اللازب حتى بلغنا فجوة بين صخرتين على قمة الجبل، انكمشنا في الفجوة بعيدًا عن الأمطار الجارفة، وألصقت (أروى) نفسها بجسدي وهي تبكي من الذعر، بينما كانت أنفاسي تتلاحق من الخوف والتعب، توقف المطر بعد دقائق، ثم هدأت الرياح وانقشعت الغيوم في بطء، وعادت الشمس للظهور، ونظرت إلى السماء فوجدتها وقد تلونت بقوس قزح وكأنها لم تغضب على أهل الأرض منذ قليل.

هدأ روعنا وقمت لأرى سبيلًا للنزول من الجبل، عثرت على غصن شجرة سميك كسرته الأمطار، فوجدت فيه ضالتي، شذبت الغصن من فروعه بحجر حتى صار كالعصا، طوقت (أروى) بذراعي ثم شرعنا في الهبوط في حرص، كنت أغرس الغصن في الأرض بين الصخور واطمئن لثباته، قبل أن أخطو خطوة جديدة على الطريق المنحدر، مضى وقت طويل حتى وصلنا إلى السفح، تنفسنا الصعداء، وأسرعنا إلى خيمتنا فلم نجدها ولم نجد أحد حولها، شعرنا بالخوف وبكت (أروى) مجددًا ولكن فجأة جاءنا صوت أبي مناديًا من بعيد:

ـ أين أنت يا (شمعون)؟ أين أنتِ يا (أروى)؟

فهرولنا ناحية الصوت، لنجد أبي ووالد (أروى)، وقد ابتلت ملابسهما تماما، ومع ذلك ألقينا بجسدينا أنا وأروى في حضنيهما، قبل أن يعودا بنا إلى النزل.

والحق أن تلك الحادثة ظلت عالقة في ذهني لسنوات بعدها، وكنت بين الفينة والفينة أتذكرها وابتسم وأتساءل في نفسي عما فعلته الأيام بفتاة سمراء

رشيقة الحركة من نسل (إسماعيل) اسمها (أروى)، ربط القدر بين مصيرينا في يوم من الأيام ثم افترق كل منا في طريق.

* * *

ومرت الأيام تلو الأيام دون أن يأتي إلينا خبر من حوريب، كان أبي يحدوه الأمل في كل صباح في أن يرى (إيليا) ابن عمه آتيًا من جهة الصحراء بالبشرى، فيمر النهار دون أن يظهر البشير في الأفق فيزداد أبي بؤسًا وحزنًا، وأشفقت عليه أمي مما يعانيه، كانت تحلب الشاة ذات يوم حينما رأته مهمومًا حزينًا، فقالت:

ـ جسدك في «رسّة» وقلبك في حوريب! إن شئت عدنا إلى حوريب لنقف على حقيقة الأمر.

قال في إصرار:

ـ لا أعود إليهم ونبي الله غائب، ولو عاد (موسى) لأتى إلينا (إيليا) بالخبر.

ومكثنا في «رسّة» قرابة الشهر، علمنا فيه الكثير عن حياة هؤلاء البدو من بني (إسماعيل)، وعرفنا أشياء كثيرة عن ملة (إبرام) التي يتبعونها، فقد كانوا يختتنون مثلنا، ويتجهون في صلاتهم إلى الرب إيل، ويقدمون له الذبائح والقرابين، ولكنهم لا يقدسون يوم السبت مثل بني إسرائيل، ويتحدثون دائمًا عن بيت بناه أبونا (إبرام) وجدهم (إسماعيل) في وادٍ بصحراء فاران، يقدسونه ويرحلون إليه بين آن وآخر للتبرك والتجارة، وكان أبي رغم تعظيمه لكرمهم وسماحتهم، يستاء كثيرًا من عدم تقديسهم ليوم السبت، وحين دعاه شيخ القبيلة لأن يترك خيمته، وأن يمكث في دار حجرية داخل النزل، رفض أبي كي لا تستاء عينه بانتهاكهم ليوم السبت، فكان يمكث في خيمته ويقول:

ـ ألا يخشى هؤلاء القوم أن تحل عليهم اللعنة وهم يعتدون على حرمة السبت.

أما أنا فقد كان يثور في رأسي سؤال آخر لم يُجِبْنِي أبي عليه وهو:

ـ لماذا حرم الرب السبت على بني إسرائيل، ولم يحرمه على باقي بني (إبرام)؟

وفي يوم من الأيام سمعنا صوتًا ينادي على أبي من خارج الخيمة، فإذا به

(إيليا) ابن عمه قد أتى إلينا من حوريب، احتضنه أبي، وتهلل لمقدمه كثيرًا، وقبل أن يدعوه للجلوس سأله في لهفة:

ـ هل عاد نبي الله (موسى)؟

قال (إيليا) واجمًا:

ـ نعم قد عاد إلى النزل منذ قرابة الشهر.

تعجب أبي من ذلك وتوجس شرًّا من الحزن البادي على وجه (إيليا)، فقال له:

ـ ولماذا لم تأت إلينا فورًا كما وعدتنا؟

قال (إيليا) في وجوم:

ـ قد وقعت أحداث جسام في النزل، ولتحمد الرب أن أنجاك منها.

وقع الذعر في قلب أبي، فجلس على صخرة إلى جوار الخيمة وأجلس (إيليا) إلى جواره ثم قال:

ـ قص عليّ يا (إيليا) ما وقع في النزل منذ خرجنا وحتى الآن.

تنهد (إيليا) تنهيدة طويلة كمن يلقي عن صدره حملًا ثقيلًا، ثم قال:

ـ وددت لو نسيت ما حدث!! ولكن ما السبيل إلى نسيانه وقد صار مختومًا في قلبي!

صمت أبي، وأنصت بكل جوارحه إليه، وقص علينا (إيليا) هذا الحديث.

«كان الوقت بين الضحى والظهيرة حينما توافد الناس على الهضبة التي أقام فيها (الشامري) محرقته، كانوا على حال ما بين الشك والفضول، شك فيما وعدهم به (الشامري)، وفضول لمعرفة السر الذي يخفيه، لم يبق أحد في النزل، خرج الجميع إلى الهضبة حتى (هارون) وسبط لاوي خرجوا مع الناس، كان (الشامري) يقف إلى جوار المحرقة مرتديًا حلة تشبه حلة الكهنة المصريين، وقد حلق رأسه بالموسي، وقصر لحيته وشاربه حتى بدا ككاهن من كهنة آمون،

تعجب الناس من هيئته، وسخر البعض منها، ولكن الرجل كان يشرف من مكانه على الناس في خيلاء وتبرق عيناه في ثقة كمن يحمل خبيئة يعلم مقدارها جيدًا، مضي وقت طويل حتى تجمع الناس فهتف أحدهم مضطجرًا:

ـ فيم جمعتنا يا (شامري)؟

تحدث في صلف وغرور:

ـ جمعتكم حتى أهديكم سبيل الرشاد.

قال الرجل مستنكرًا:

ـ لا تتعال علينا يابن راحيل فلست كاهنًا ولا نبيًّا.

ضحك الناس ساخرين فقال:

ـ اضحكوا واسخروا الآن، فغدًا تبكون كما تبكي النساء، وتدعونني فلا أستجيب لكم.

ثم ذهب إلى السلسلة التي تدلت فوق المحرقة، ثم جذبها في قوة أوحت بثقل ما يرفعه، ومع كل جذبة إلى أسفل كانت قلوب الناس ترتفع خفقًا من الإثارة، حتى ظهر لبني إسرائيل ما كان مطمورًا في جوف المحرقة، أخرج لهم (الشامري) عجلًا ذهبيًّا مهولًا يتلألأ جسده الذهبي الأحمر تحت ضوء الشمس وكأنما تسري به دماء الحياة، شهق الناس شهقة عالية جمعت ما بين الذهول والرهبة فقد أذهلتهم مفاجأة (الشامري) التي لم تدر بخلدهم، وأرهبهم أن يخرج إليهم إله المصريين من بين الحلي التي اغتصبوها، وكأنما عاد إليهم العجل من أجل الانتقام، وأدار الهواء الجسد الذهبي المتدلى من السلاسل، وتأرجح فوق الرءوس التي انحنت من الخوف والرهبة، وواجه فمه مهب الريح فصدر منه خوار، زلزل أجساد الناس رعبًا وفرقًا، فخروا له ساجدين، انتشى (الشامري) فوق الصخرة وظل يصرخ في جنون:

ـ اسجدوا له، ابكوا على خطاياكم، هذا إلهكم وإله (موسى)، هذا إلهكم وإله (موسى)!

اشتد الغضب بـ(هارون) وزوج أخته (حور) وصرخ (هارون) قائلًا:

ـ كذبت يا عدو الرب! إنه عجل جسد له خوار!

ثم التفت إلى الناس وصرخ فيهم قائلًا:

ـ يا قوم لا يفتننكم (الشامري) عما جاءكم به (موسى).

لم يستمع إليه أحد، فقد تعلقت أبصار الناس بالإله المتأرجح، وأفسحوا له موضعًا في قلوبهم، وتحمس بعض الشباب من سبط لاوي، وأرادوا أن يصعدوا إلى الصخرة حتى يفتكوا بـ(الشامري)، ولكن حال الدهماء من باقي الأسباط بين الشباب وبين (الشامري)، ووقعت بينهم معركة بالحجارة والعصي حتى أوشك بعضهم على الهلاك، فصرخ (هارون) في الناس:

ـ يا بني إسرائيل! اتقوا الرب، ولا تتفرقوا، ولا يقتلن بعضكم بعضًا.

وتدخل بعض مشايخ الأسباط، وحالوا بين المتقاتلين حتى توقف العراك، وعاد شباب لاوي إلى جوار الكاهن (هارون) وقد سالت دماؤهم، وتقطعت ثيابهم، ووقف (عزرا) من سبط جاد متحديًا، وقال:

ـ إن شئتم قتالًا لقاتلناكم، وأنتم من بدأ بالعداء!

قال (هارون) يائسًا بائسًا:

ـ كفاكم غيًّا يا بني إسرائيل، وحق الرب إيل لقد فتنتم به، وأضلكم (الشامري).

قال (الشامري) مدافعًا:

ـ بل أضلكم (موسى) وأخلف موعده!

ثم انبرى قائلًا:

ـ أليس هذا الإله الذي لبثتم إلى جواره من عمركم سنين؟ أليس هذا الإله الذي كان يمد المصريين ويمدكم بالقوت والرزق في بر مصر؟ ألم تكن لكم آية أن عاد إليكم ليرعاكم في هذا القفر بعد أن خذلكم (موسى) وأضلكم في

الصحراء، استمعوا إليه بقلوبكم وهو يتحدث بخواره إليكم.

هتف (حور) زوج (مريم) غاضبًا:

- كذبت يا مضل!

ثم قال للناس:

- لا يَفْتِنَنَّكم الكذاب به، إنما هو صنم صنعه بيديه كما كان يصنع التماثيل في فيثوم، أفلا ترون أنه لا يرجع القول إليكم!

وعم الصمت على المكان إلا من خوار التمثال الذي كان يعلو كلما هبت الريح، وسكت الشيطان الذي تحدث على لسان (الشامري)، وسكت الحق الذي جرى على لسان (هارون)، وكان على بني إسرائيل أن يختاروا بين حق وباطل، ومرت لحظات كالدهر جاء بعدها صوت (جدعون) الأجش من بين الناس كأقبح ما يكون وهو يقول:

- لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع (موسى)، فلن نحيا في هذا القفر دون إله!

فهلل له الناس مؤيدين، وانفرجت أسارير (الشامري)، بينما نكس (هارون) رأسه وهو يقول:

- أما أنا فأعتزلكم وما تعبدون من دون الله.

ثم انصرف وتبعه الكثير من سبط لاوي والقليل من باقي الأسباط.

* * *

وفي المساء أقيم قداس عظيم للإله أبيس فاق ما كان يصنعه المصريون في الرامسيوم، فقد وضع (الشامري) التمثال فوق بناء من الحجر وواجه به الريح حتى يظل خواره متصلًا أمام الناس، وأتى (الشامري) بجوارٍ من أقاربه كُنَّ من المنشدات في معابد مصر، يُجِدن الرقص والعزف على الكنَّارة والطبول، ووضعت المباخر حول التمثال فتصاعدت منها رائحة الطيب المعطر، ووزِّع شرابٌ من العوسج المخمر في كئوس دارت على كبراء القوم ومشايخهم، لامست الألحان أوتار القلوب، وانتشت العقول بالخمر والطيب، وحركت

الجواري الدماء في العروق، وتسللت الترانيم العذبة إلى النفوس:

شجِّع فؤادَكَ على أن ينسى أحزانَك
ولتُسَرّ باتباعِ رغباتِك
وأنت لا تزال على قيد الحياة
ضَعْ العطور على رأسك
وارتدِ أفضل ملابسك
وضمِّخها بالعطور الجميلة
فتلك أشياء الإله الأصيلة
وزِد كثيرًا فيما يفرحك
ولا تجعلن قلبَك ييئس
اتّبع ما تشتهي وما يطيب لك
حسبما يمليه عليه قلبك
قبل أن يأتي يوم مغيبك
حين لا يسمع صاحب القلب الساكن نَعْيَهم
ولا الذي في القبر يصغى إلى عويلهم
اغتنم التمتع بيومك
ولا تُجهدن نفسك فيه
فلم يأخذ إنسانٌ متاعَه معه
ولم يعد أحد ممن رحلوا إلى دنيانا

ومَسّت كلماتهن شغاف القلوب التي أضناها الشقاء والتعب، فهامت النفوس المشتاقة إلى الراحة في رحاب الإله الذي يدعو للسعادة والمرح، وبكى الناس بكاء الوجْد إلى الرب الأبكم الأصم، الذي يغفر الزلّات، ولا يكلف بالتبعات، فأهرقوا الدماء قربانًا له، وعفّروا الخدود والجباة مذلة لرضاه.

وشهدت الليلة التالية قداسًا أكثر مجونًا مما حدث في الليلة السابقة، امتلأت ساحة النزل بألوان الخمور، من عصير التمر وعصير الشعير وشراب العوسج والنبيذ، واندفع الناس في رقص محموم على إيقاع الطبول والمزامير، تلاحمت الأجساد العارية، وتعالت الصرخات، وانتثرت الأرواح الفانية في النشوة كذرات تسبح في الهواء، وطافت مع أريج البخور في أجواء النزل، وبينما هم كذلك، إذا بالغيوم تتكاثف وإذا بالسماء ترعد، وإذا بنبي الله (موسى) فوق رءوسهم، يقف كالجبل الشامخ، ويطل عليهم في حسرة وغضب، صرخ (موسى) صرخة، زلزلت أرجاء النزل، فتوقفت المعازف، وتجمد الراقصون عرايا، وطارت نشوة الخمر من أذهانهم وتنبهوا من غفلتهم، فتواروا عن عينيه كمن يواري سوءته، ألقى (موسى) لوحين من الجص كانا بحوزته في غضب فتبددا ترابًا، ثم هبط إليهم كالسيل الهادر يشج رءوسهم بعصاه ويركل من تطوله قدماه، والناس تفر من أمامه كما تفر الخراف من راعيها، وجاء (هارون) إلى ساحة النزل حينما علم بعودة (موسى)، حملته قدماه إلى أن يقف أمام أخيه الثائر كالبركان، فامتدت اليد القوية إلى لحيته ورأسه، تنتزعه من الأرض انتزاعًا، وتجره على أرض النزل أمام أعين الناس الذين ارتعدوا خوفًا، ثم صرخ (موسى) كليث يوشك أن يفتك بفريسته:

ـ تركتك خلفًا لي لتمنعهم!

جاء صوت (هارون) باكيًا متألمًا مخنوقًا وهو يرفع يد أخيه عنه قائلًا:

ـ دع لحيتي.

وكأنما أشفق (موسى) على أخيه من الألم فخفف عنه قبضته، وتركه ليدافع عن نفسه، مسح (هارون) التراب عن رأسه وقال كسير النفس حزينًا وهو يجلس على الأرض:

ـ لا تلومني، فلولا خشيتي منك لقاتلتهم.

ثم أشار بيده نحو (الشامري) وقال:

ـ سل ذلك الرجل الذي أضلهم بعجله الذي صنعه بيده.

لم يلتفت (موسى) نحو (الشامري) بل التفت إلى الجموع التي وقفت منكسرة تستر أجسادها العارية بأيديها، ويختبئ السكارى منهم خلف الزحام، ثم قال مذهولًا:

ـ أهذه هي الوصية؟! أهذا هو الوعد؟!

نكسوا رءوسهم، وارتعدت فرائصهم، وتحدث (جدعون) الحداد وقد ارتعش صوته الأجش حتى صار كنباح جرو قائلًا:

ـ وماذا عسانا أن نفعل يا (موسى)؟!

نظر إليه (موسى) غاضبًا، فتراجع (جدعون) خطوة إلى الوراء حتى لا تناله صفعة من اليد الغاضبة، وقال وقد ارتعش صوته أكثر:

ـ وعدتنا بالعودة بعد ثلاثين ليلة، ولم تعد.

قال (موسى) مذهولًا:

ـ عشر ليال! لم تحتملوا الصبر على وعد الرب عشر ليال!

ثم قال حسيرًا كمن بنى بنيانًا من القش، عصفت به الرياح:

ـ بئسما خلفتموني من بعدي!

قال (عزرا)، وكان أحد كبراء سبط رأوبين ويجيد الحديث:

ـ يا (موسى) لقد وقعنا في الفتنة، وأضلنا ذلك (الشامري)، قال إننا قد حملنا خطيئة من ذهب المصريين وأوصانا بالتكفير عنها بحرقها! فإذا به يخرج لنا ذلك العجل من محرقة النار ليسحرنا به، صدقني يا نبي الله لقد أضلنا هذا الرجل وسحرنا بسحر المصريين!

هتف الناس وكأنما وجدوا في إلقاء التبعة على (الشامري) سبيلًا للنجاة:

ـ نعم لقد أضلنا (الشامري)! لقد أضلنا (الشامري)!

كان (الشامري) يقف إلى جوار العجل غير عابئ بهتاف الجماهير، فقال له (موسى):

ـ ما خطبك أيها الرجل؟!

انتبه إلى سؤال (موسى) وكأنما كان في غفلة عن الحديث، فرفع كتفيه ثم قال في اعتداد وكبر:

ـ خطبي أنا؟! لا أظنك تجهلني يا ربيب الفرعون! أنا (الشامري)! فنان فيثوم ومبدعها! أنا من يخلق من الحجارة آيات من الجمال، وأنا من إذا مست يداه التراب صار حيًّا، أتريد أن تعرف ما خطبي؟ قد بصرت بما لم تبصروا به ومست يدي أثر الرسول.

ثم انحنى برأسه نحو (موسى) وقال:

ـ الرسول الذي عبر بنا! وليس أنت يابن عمران.

ثم قبض أصابعه في قوة وهو يقول بصوت عالٍ:

ـ رأيت أثره في الرمال، فقبضت منها قبضة صنعت منها ما لا يقدر بشر على صنعه، حتى أنت يا صاحب العصا.

ذهل الناس مما يقوله (الشامري)، ساورهم الشكُّ في أن يكون الرجل لا يزال يحتفظ بعقله، وتأكد لديهم ذلك حينما تحسس الجسد الذهبي في عطف وحنو، وقال كالمجذوب:

ـ انظروا إلى صنعة يدي! أرأيتم في بر مصر تمثالًا بهذا الجمال ألا يستحق هذا الجمال أن يعبد، ألا يستحق أن يكون إلهك وإله بني إسرائيل.

قال (موسى):

ـ بل انظر أنت إلى إلهك، حين نحرقه أمام عينيك!

صرخ (الشامري) كالمجنون:

ـ لن يمسه أحد، لن يمسه أحد.

قال (موسى):

ـ اصرخ كما شئت.

صرخ (الشامري):

ـ قلت لك لا مساس.

قال (موسى):

ـ رددها حتى تسمعها الوحوش في البرية!

ثم أشار إلى (يوشع)، فانطلق (يوشع) ومعه الرجال من سبط لاوي يحطمون التمثال بالمعاول، و(الشامري) يجري المجنون وهو يقول:

ـ لا مساس! لا مساس!

ثم حمل الرجال حطام التمثال، وأحرقوه في منتصف النزل أمام أعين بني إسرائيل.

وحانت لحظة الحساب اجتمع رءوس الفتنة في حضرة (موسى)، نكسوا رءوسهم وأُسْقِطَ ما في أيديهم، وعلموا أنهم قد ضلوا، قدموا (عزرا) للحديث، ففضلًا عن كونه مفوهًا خطيبًا، كان هو من تزعم الثورة ضد (هارون) من قبل، فوقف أمام (موسى)، وقال في ذلة وانكسار:

ـ يا نبي الله! قد فُتِنّا، وضللنا، وظلمنا أنفسنا بعبادة العجل، فادع لنا ربك يغفر لنا ذنوبنا، فقد اعترفنا بها.

قال (موسى):

ـ نعم قد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل.

قال (عزرا) وقد تهلل وجهه وظن أن (موسى) قد عفا عنه:

ـ إن شئت قدم كل واحد منا قربانًا حتى يغفر الرب لنا، ويتوب علينا.

قال له (موسى):

ـ أتريدون أن تتوبوا إلى بارئكم؟

قال (عزرا):

ـ نعم.

قال (موسى):

ـ اقتلوا أنفسكم!

بهت (عزرا) وقال:

ـ ماذا؟

قال (موسى):

ـ كل من سجد للعجل يقتل، فيتوب الرب عليه وعلى بني إسرائيل!

تراجع عزرا ومن معه مذعورين فوقف (موسى) على باب الخيمة ونادى في الناس:

ـ من كان مخلصًا للرب فليأت إليّ.

فتجمع إليه سبط لاوي، وقد تمنطق بعضهم بالسيوف والخناجر، فقال (موسى):

ـ هكذا قال السيد الرب: لا يحنو أحد منكم على قريب أو بعيد، كل من عبد العجل يقتل فتكن كفارة له ولمن بقي من بني إسرائيل.

وشعر عبدة العجل أنهم هالكون لا محالة، فرفع بعضهم السلاح، بينما فر من كان منهم دون سلاح هاربًا في طرقات النزل، ووقعت مقتلة عظيمة في الساحة، لم ينج فيها رجل أو امرأة ممن عبدوا العجل من القتل، قُطِّعَتِ الرءوس والرقاب، وامتلأت الساحة برائحة الدماء، وقبل أن يحل المساء كانت الجوارح تحلق في سماء النزل، وهي تتطلع بنهم إلى وليمة عظيمة من ثلاثة آلاف قتيل.

ورغم أني لم أر تلك الواقعة، ورغم صغر سني، فإنني شعرت حينها بأن إله بني إسرائيل قد ضاق ذرعًا بشعبه المفضل، وبدا أن الشعب الذي أفسده التدليل، قد حق عليه أن يذوق قسوة العقاب، ويا لها من قسوة!

ولما فرغ (إيليا) من حديثه، بكى أبي بكاءً شديدًا، وسأله:

وماذا حل بـ(الشامري)؟ قال (إيليا):

ـ أصابه داء في جسده، فامتلأ جلده بالبثور، وفقد نور عينيه، وظل يهيم في

الصحراء وهو يقول: لا مساس، لا مساس، حتى فقدنا أثره.

قال أبي متوجعًا:

ـ وكيف حال (باتشيفا)؟

قال (إيليا):

ـ هزلت، وانكسر فؤادها، وقد حلت ضيفة على بيت من بيوت رأوبين.

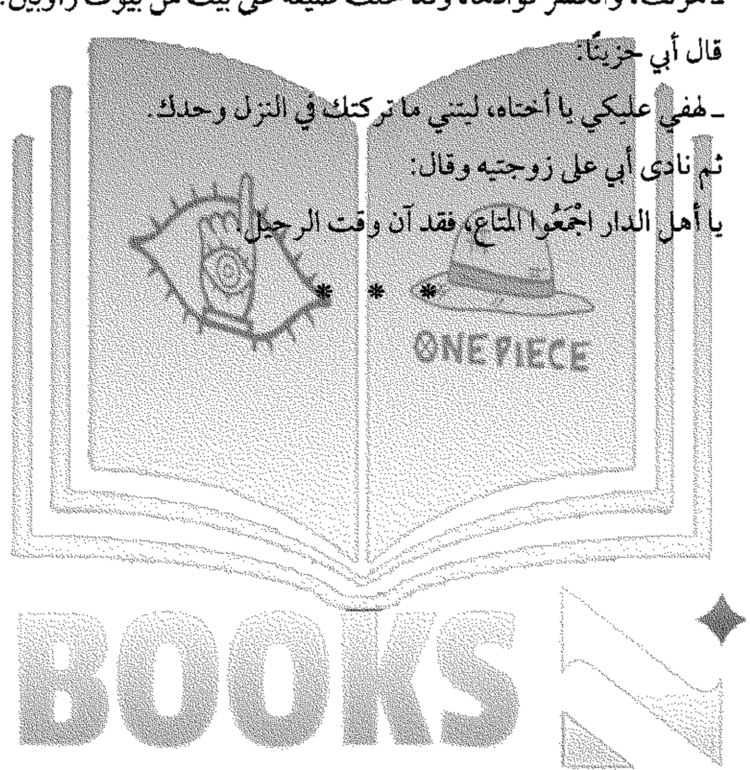
قال أبي حزينًا:

ـ لهفي عليكي يا أختاه، ليتني ما تركتك في النزل وحدك.

ثم نادى أبي على زوجتيه وقال:

يا أهل الدار اجْمَعُوا المتاع، فقد آن وقت الرحيل.

* * *



الورقة الثانية عشرة

عدنا إلى وادي حوريب قبل مساء اليوم الثاني، استقبلتنا وجوه يكسوها الخزي والألم ونفوس ترزح تحت وطأة الذل والانكسار، تكلف الناس الابتسام للترحيب بقدومنا، وأفسحوا الطريق للرجل الوحيد الذي لم تقع عيناه على عجل (الشامري)، أناخ أبي الراحلة إلى جوار الكوخ، ثم أخذني وانطلق إلى دار ابن عمه (ملاخي) التي حلت عليه العمة (باتشيفا) ضيفة بعدما اختفى زوجها (الشامري) في الصحراء، نادى أبي على أهل الدار، فخرجت إليه زوجة (ملاخي) الغريبة الأطوار وقد عصبت رأسها بعصابة سوداء، وتعفر وجهها وجلبابها بنخالة الدقيق، حياها أبي قائلًا:

ـ مرحبًا يا أم (إلياس)، أين (ملاخي)؟

لم ترحب بنا وكأننا لم نفارق الحي شهرًا، وقالت بصوتها الحادِّ:

ـ هل جئت لتبحث عن (باتشيفا)؟

أجابها متلهفًا:

ـ نعم.

أشارت بيدها نحو الصحراء، ثم قالت:

ـ تخرج مع الضحى إلى طرف الصحراء وتعود عند المساء، ما زالت تأمل في عودة زوجها المعتوه، لعنة الرب عليه!

رأيت الألم يعتصر وجه أبي، ثم قال في حزن:

ـ وأين (ملاخي)؟

قالت:

ـ قد ذهب مع الرجال إلى خيمة الكليم، يقولون إن (موسى) سيختار من الأسباط سبعين رجلًا، سيصعد بهم إلى جبل الرب للاعتذار عن عبادة العجل.

تعجب من حديثها وأراد أن يستوضحها أكثر، ولكنها أشارت إلى امرأة ترتدي السواد، دخلت قبالتنا من باب الحي وقالت:

ـ ها قد عادت (باتشيفا).

فألتفتنا ورأيناها، امرأة ترفل في رداء أسود، شديد الاتساخ، وقد انحنى ظهرها، ونحف جسدها، وبدت أكبر من عمرها بعشرات الأعوام، لم أر حزنًا وشفقة على وجه أبي مثلما رأيتهما في تلك اللحظة، سالت دموعه فياضة، حينما رأى أخته الوحيدة، وقد وطئتها أقدام القدر، فتبدل غناها فقرًا، وعزها ذلًّا، وتحطم كبرياؤها على صخرة الفاقة والجوع هرول أبي نحوها وناداها:

ـ لهفي عليكِ يا أختاه، بأبي أنتِ وأمي يا (باتشيفا)!

انتبهت إليه، تمعنت في وجهه لحظات، وكأنها لا تصدق أنها تراه، ثم ألقت بنفسها على صدره باكية، وانتحبت في شجون وهي تقول من بين دموعها:

ـ آه يا (زخاري)، خَسِرتُ أختك زوجها وحياتها، وسئمت العيش، حتى صار الموت أقصى أمانيها.

احتضنها باكيًا وقال:

ـ حفظك الرب يا (باتشيفا)، هوني عليك، فإنما هي الأقدار، ولا يظلم ربنا أحدًا.

قالت مُترجية:

ـ ادْعُ الرب لنا يا (زخاري)، فأنت رجل صالح، ادعُه أن يقضي عليّ وعلى

(الشامري) بالموت، فإنني أموت في اليوم مائة مرة كلما تذكرته هائمًا على وجهه في الصحراء، يفرّ من الناس كلما اقتربوا منه ويقول: لا مساس.

ربت على كتفها وقال:

ـ بل أدعوه أن يغفر لنا جميعًا.

ثم سحبها من يدها قائلًا:

ـ هيا (باتشيفا)، فلا مقام لك إلا في دار أخيك.

ترددت بعض الشيء، فقال مشجعًا:

ـ هيا أختاه، ولا تحملي هم (رومانا)، فإن في قلبها رحمة، لو وزعت على بني إسرائيل لكفتهم!

فتبعته إلى الدار، واجتمع في كوخنا نساءٌ ثلاث، ما كان ليجمعهن على تناقضهن سوى قلب عامر بالصدق، مثل قلب (زخاري)، وامرأة شديدة التسامح مثل (رومانا)!

وفي اليوم التالي اجتمع الشعب في ساحة النزل، فقد اختار (موسى) من بني إسرائيل سبعين رجلًا ومعهم (هارون) وولداه (ناداب) و(أبيهو)، حتى يصعدوا إلى الجبل لطلب المغفرة لبني إسرائيل، والاعتذار عن فتنة العجل، أمرهم (موسى) أن يغتسلوا وأن يطهروا ثيابهم، وأن يصوموا عن الطعام والشراب، وألا يكف لسان الواحد منهم عن التوبة والاستغفار، وودع الشعب البعثة المباركة بالدعاء والأمنيات الطيبة.

ورأيت من بين المختارين للميقات (ملاخي) ابن عم أبي، يسير مختالًا فرحًا، وزوجته غريبة الأطوار أم (إلياس) تودعه بالزغاريد وتقول له:

ـ هنيئًا لك رؤية الرب يا (ملاخي)!! هنيئًا لك يا شيخ رأوبين!!

وتجاوزت بعثة الاستغفار الوادي المقدس ووصلت إلى سفح الجبل، فأوقفهم (موسى) عند سفح الجبل المقدس. وطلب منهم أن يسجدوا للرب، وألا يكفوا عن طلب العفو، والمغفرة مهما حدث ومهما سمعوا، في حين سيصعد

هو إلى قمة الجبل لمناجاة ربه، والاستغفار لهم، ونهاهم عن تتبعه، أو أن يبرح أحد منهم مكانه حتى يأذن الرب له.

يقول (ملاخي):

ـ ففعلنا مثلما أمر (موسى)، وظللنا نلهج بالدعاء والاستغفار، ومرت الساعات حتى جاوزت الشمس سفح الجبل، وبدأ الجو يبرد، والسحاب يتثاقل على قمة الجبل، ولم نلبث أن رأينا بروقًا وسمعنا رعودًا في السماء فخاف الناس وارتعبوا، فقد كانت الصواعق على مقربة منا، وصوت الرعد يزلزل الجبل من أسفلنا، فشدد (هارون) علينا قائلًا:

ـ لا يبرحن أحدكم مكانه، ولا تكفوا عن التسبيح والاستغفار.

فهمس إلى (شافاط بن حوري) من سبط (شمعون) وكان يجاورني في السجود قائلًا:

ـ هل أتى الرب إلى الجبل؟

همست إليه قائلًا:

ـ لا أدري؟

جاء صوت (نحيا) من ورائنا مشاركًا في الحديث الهامس:

ـ لا بد أنه موكب الرب، ألا تسمعون صوت الرعد الذي يشبه صوت الأبواق.

قال (شافاط) متمنيًا:

ـ ليته يتجلى لنا جهرة، إذن لأصابنا فضلٌ لم يناله أحدٌ من بني إسرائيل.

فقلت متشككًا:

ـ قد أتينا للاعتذار وطلب المغفرة، فهل يتجلى الرب على قوم من العصاة؟!

قال (نحِيا):

ـ وما الضرر إذا سألناها كما سألها (موسى)؟! ألم يسأل (موسى) ربه أن يتجلى له؟

قال (شافاط):

ـ بلى! ولكنه لم يقو على رؤيته.

قال (شافاط):

ـ نحن سنراه، فَمَهْمَا كانت قوة (موسى)، فهي لن تبلغ قوة سبعين رجلًا من بني إسرائيل.

جاءنا صوت (مائير) خفيضًا لئيما كالفحيح:

ـ وحينها سنعلم إن كان (موسى) صادقًا، أم كاذبًا.

بهت السامعون من كلام (مائير)، وتلاقت نظراتهم في توجس، وقلت أنا مستنكرًا:

ـ حذارِ يا رجال، نحن في حضرة الرب ولا بد أنه يسمعنا ويرانا.

قال (مائير) في لهجة ذات مغزى:

ـ لا تخف، فالرب يستمع فقط لموسى ويراه!

ثم أردف:

ـ ويوحي إليه بقتل ثلاثة آلاف من رجالنا

أدارت كلماته رءوس الرجال، وألقت في نفوسهم الساكنة بأحجار من الشك. فسكتت همهمات التسابيح والاستغفار، وشعر (هارون) بذلك فنادى على القوم:

ـ اسألوا الرب أن يرفع مقته وغضبه عنا، ولا تغفلوا عن التسبيح والاستغفار.

ولم تمض دقائق حتى سكنت السماء، وانقشعت السحب، وتوقفت الرعود والبروق، وعادت الشمس للظهور، ثم تلتها ساعة أخرى، قبل أن نرى (موسى) هابطًا من فوق قمة الجبل إلى السفح، وقد تهلل وجهه، وبدا عليه الفرح

والحبور، وحينما وصل إلى السفح بادرنا بالبشرى قائلًا:

ـ أبشروا! أبشروا! قد غفر الرب لبني إسرائيل، وتجاوز عن فتنة العجل.

هلل بعض المشايخ فرحين، وكبّر (هارون) وولداه، ثم خرُّوا للرب ساجدين.

وبعد أن هدأت الجلبة، قال (مائير) متخابثًا:

ـ وددنا لو سمعناها بآذاننا كما سمعتها أنت يا نبي الله.

لم يعلق (موسى)، فقال (شافاط):

ـ والله لقد استبشرنا خيرًا حينما رأينا موكب الرب في السماء، وسمعنا أصوات رعده، وأنوار بريقه.

قال (موسى):

ـ ليس هذا بموكب الرب، إنما الرعد والبرق جنديان من جنوده، ولتعلم يا (شافاط) أنه لا يرى موكب الرب إنسان فيعش!

قال (نحيا) في سذاجة:

ـ يا نبي الله قد وعدتنا بالمغفرة من قبل، وأمرتنا بأن يقتل بعضنا بعضًا حتى يتوب الله عليهم، فقتل الأخ أخاه، وقتل الأب ابنه، وظننا أن الله قد غفر لنا ذلك، ثم أمرتنا بالصعود إلى الجبل حتى يتوب الرب علينا، فهلّا أسمعتنا عفو الرب بآذاننا؟

غضب (موسى) وقال:

ـ أتكذبونني فيما أقول؟

قال (شافاط):

ـ حاشا لله أيها الكليم، ولكن لتطمئن قلوبنا، ولا تغضب! فقد سألت أنت ربك ما هو أكبر من ذلك.

ومضت السماء بسنا برق خاطف ثم أرعدت لحظات، ثم قال (موسى) في غضب:

ـ قد سألتها وقلبي عامر بالإيمان، أما أنتم فتسألونها وقلوبكم ملأى بالشك!

قال (مائير) وقد كشف عن وجهه القبيح:

ـ وكيف يؤمن المرء بما تكذبه عيناه!!

قال (موسى) محتدًّا:

ـ وماذا أنكرت عيناك يا (مائير)؟

قال (مائير):

ـ تركتنا عند السفح، وصعدت وحدك إلى الجبل، ثم عدت لتخبرنا أن الرب قد تحدث إليك وغفر لبني إسرائيل، فكيف نشهد على ذلك ونحن لم نسمع له صوتًا، ولم نر له أثرًا.

اشتدت البروق والرعود، وجاء صوت (موسى) هادرًا:

ـ وَيْحكُم!! إنكم سفهاء بلا عقول، أبعد المغفرة تكفرون؟

قال (مائير) متحديًا وقد انعكست على وجهه أنوار البرق التي ملأت السماء:

ـ اسمع يابن عمران قد صدقناك فيما مضى، أما الآن فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، و...

لم يكمل (مائير) حديثه، ولم نشهد نحن ما حدث بعدها، فقد انقضت علينا صاعقة البرق من السماء، انتفض جسدي كله كمن لسعته مئات السياط، وسقطتُ صريعًا ومعي سبعون رجلًا من بني إسرائيل في التو واللحظة. كم مضى علينا من الوقت؟ لم ندرِ، ولكن (هارون) أخبرنا بما حدث أثناء ذلك، فقد أصابه الذهول، وكاد أن يسقط مغشيًّا عليه حينما رأى سبعين رجلًا من شيوخ بني إسرائيل يسقطون صرعى في لمح البصر، أما (موسى) فقد جثى على ركبتيه، وانهار باكيًا، لم يصدق أن يحدث هذا بعد أن نال العفو من الرب على بني إسرائيل، وبدلًا من أن يعود إلى شعبه بالبشرى، سيعود إليهم بجثامين شيوخهم صرعى مرة أخرى، رفع يديه إلى السماء، وعلا صوت تضرعه في السماء حتى فاق صوت الرعد وظل يصرخ في رجاء:

ـ إلهي، رجوتك أن تغفر لهم خطيئتهم وإلا فلتمحني من كتابك الذي كتبت، فغفرت لهم، وقبلتهم كما قبلتهم من قبل.

ألم تنجهم من سنابك الفرعون؟

ألم تنجهم من الغرق في اليم؟

ألم تنجهم من الهلاك في برية سين؟

إن شئت أهلكتهم من قبل وإياي

أتهلكنا الآن بما فعل هؤلاء السفهاء منَّا؟

أليست هي فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء؟

اغفر لنا أيها السيد وارحمنا، اغفر لنا فأنت خير الغافرين.

وظل (موسى) يبكي ويتضرع حتى ارتجفت أجسادنا مرة أخرى، وأفقنا من صرعتنا، وقد علمنا أن الرب إله إسرائيل، قد صار عدله أقرب إلينا من رحمته!

* * *

الورقة الثالثة عشرة

وبدأ العام الثالث من الخروج بحدث مثير في كوخنا الصغير، فقد أنجبت العمة (سولاف) بنتًا جميلة، أسماها أبي (باتيا)، والتي تعني في لغتنا (أمة الله)، كانت (باتيا) فائقة الحسن، مثل أمها (سولاف)، بياضها كفلقة الصبح، وعيناها في زرقة السماء ووجهها لا يكف عن الابتسام، لا تنفر من الغرباء، وتستجيب لكل مداعب بمناغاةٍ وضحكات ترقق القلوب، وتملأ الوجدان فرحًا وبهجة، وأثارت الطفلة الحسناء مشاعر شتى في نفوس نساء الدار، فقد شعرت أمي (رومانا) التي انقطع حملها بعدما أنجبتني بالغيرة والحنين إلى الولد، وازدادت العمة (باتشيفا) حزنًا على حالها وعزلة في الدار، وكانت تبكي على مصيبتها التي أصابتها على الكبر وتركتها بلا زوج ولا ولد، أما (سولاف) فقد أصابتها الفرحة بطفلتها ـ التي جاءت بعد طول اشتياق ـ بهوس الخوف على الرضيعة من كل شيء، فكانت تخشى عليها من البرد والحر والإنسان والحيوان، بل صارت تخشى عليها من نفسها، وتسبب ذلك الخوف في مشاحنات شتى بينها وبين العمة (باتشيفا)، وفتور بينها وبين والدتي (رومانا)، واستبد القلق بها حتى أصابها الشك فيمن حولها بالجنون وسوء الظن، عدنا أنا وأبي ذات ظهيرة إلى الكوخ، فاستقبلَنَا صراخٌ يمتد إلى طرف الحي، وقد تجمهر بعض النسوة أمام الكوخ، دخل أبي فوجد العمة (باتشيفا) تبكي في انهيار، بينما كانت أمي

تحتضنها مواسية، و(سولاف) تصرخ كالنمرة الهائجة، ونساء الحي يمنعنها عن (باتشيفا) في صعوبة، صرخ أبي ناهرًا:

ـ كفي عن ذلك يا (سولاف).

صرخت في هياج:

ـ بل مرها أن تكف عن ابنتي الوحيدة.

قال أبي متبرمًا وقد اعتاد شكها في كل ما تفعله (باتشيفا):

ـ بل كفاكِ أنت سوء ظن فيمن حولك.

قالت مصدومة من قوله:

ـ كذَّبتني قبل أن تسمعني!

ثم انهارت باكية وقالت:

ـ ومن يسمع للمرأة الغريبة في هذه الدار!

أشار أبي للنسوة بالخروج، ثم اقترب من (سولاف) وربت على كتفها قائلًا:

ـ اهدئي يا (سولاف)، فلن يؤذي (باتيا) إلا خوفك عليها.

قالت محتدة:

ـ أريد دارًا أقيم فيها وحدي.

نظر أبي إلى أمي، فأشارت إليه أمي خلسة بالنفي.

فقال أبي:

ـ ومن يرعاك ويرعى (باتيا) يا (سولاف) إذا ما مكثت وحدك.

قالت كمن تتيقن من أمر تشعر به ولا تصدقه:

ـ هل أصابني الجنون يا (زخاري)؟

احتضنها قائلًا:

ـ كلَّا يا أم (باتيا) فقد سألت اليوم الطبيب (يعقوب)، وأخبرني أنه قرأ

في أوراق (احوتب) أن نساءً قد يصيبهن عصابًا بعد الولادة، وأعطاني حنطة وخميرًا، ويوصيك بشربهما في كل صباح.

هدأت ثم استكانت نائمة إلى جوار ابنتها، فقام أبي وأخذ بيد العمة (باتشيفا)، وتبعتهما أمي إلى خارج الكوخ.

قالت (باتشيفا) باكية وهي تدافع عن نفسها:

ـ كانت الطفلة تبكي من شدة الجوع، فهي لم ترضعها منذ الصباح، فأسقيتها رشفات من لبن الماعز ليسد رمقها، فرأتني وظنت أني أضمر الشر للطفلة.

ربت أبي على كتفها وقال:

ـ أعلم يا (باتشيفا) أنك لا تريدين سوى الخير، وحق الرب لولا خشيتي عليها وعلى الطفلة، لأقمت لهما كوخًا في طرف الحي، ولكني لا آمن عليها البقاء وحدها.

قالت أمي:

ـ أحقًا ما ذكره الطبيب (يعقوب)؟

قال:

ـ نعم، كما أخبرني أن أعزلها عن ابنتها حتى لا ينتقل إليها الجنون.

شهقت أمي فزعة، وقالت عمتي (باتشيفا) وقد استعادت شيئًا من طبعها القديم:

ـ ظننا الجنون في (سيحون) عَصبًا لأبيه، فإذا به رَحِمًا لأمه!

لم يعلق أبي وأوصاهما بألّا يغفلا عن الطفلة وأمها حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

واستيقظنا ذات سبت على بكاء الطفلة (باتيا) الذي استمر طويلًا بلا انقطاع، أطلت أمي عليها فوجدتها وحدها ولم تجد (سولاف) في فراشها الذي كان باردًا وكأنها لم تبت فيه، استيقظنا جميعًا على نداء أمي وهي تقول:

ـ أدرك (سولاف) يا (زخاري) فقد خرجت وحدها وتركت الطفلة.

هرولت وراء أبي، ودرنا حول الكوخ لعلنا نعثر عليها فلم نعثر لها على أثر، توجس أبي شرًّا، فعاد وأمر أمي بأن تطعم الطفلة، ثم أخذني معه للبحث عن (سولاف) في النزل، طفنا شوارع النزل الخالية في تلك الساعة المبكرة من يوم الراحة، سألنا أقاربها، وجيرانها القدامى، فلم يدلنا أحد منهم على خبر، خرجنا للبحث عنها خارج النزل، مررنا بدغلٍ قريبٍ به لفيف من الأشجار الصغيرة وقد انبسقت أمامه شجرة ملتفة الأغصان من أشجار الطلح، اقتربنا من الدغل بعدما شعر أبي بأن شيئا يتأرجح بين فروع الشجر، وما إن اقتربنا حتى شهق أبي، وكدت أسقط مغشيًّا عليّ، فقد كانت العمة (سولاف) تتدلى من أفرع الشجرة وقد تعلقت رقبتها برداء من الكتان، ويتأرجح جسدها في الهواء كدمية لا حياة فيها.

* * *

الموت...

كلمة قصيرة الحروف سهلة النطق، ولكنها قادرة على هز الوجدان، وقض المضاجع، تعجبت أننا لا نشعر به ولا نتذكره إلا إذا اختطف عزيزًا لدينا، أو قريبًا كانت بيننا وبينه مشاهدات وحياة.

كانت الفجعية عظيمة، بكى أبي وأمي على وفاة (سولاف) بكاءً صادقًا مرًّا، وشاركتهما عمتي (باتشيفا) الحزن رغم ما كان بينها وبين (سولاف) من نكد ومشاحنات، وشعرتُ رغم صغري أن الأقدار قد تقسو أحيانًا على بعض البشر، فتمنحهم السعادة في وعاء من الكدر، وذلك لعلم نجهله وحكمة لا نستقيها، وكانت (باتيا) الصغيرة هي تلك السعادة التي مُنِحناها من رحم الألم، والمعزي الذي سبق إلينا بالعزاء قبل أن يبدأ الحداد.

ولم تمض سوى بضعة أيام على وفاة (سولاف)، حتى علا صوت البوق في النزل، ولم يكن الوقت وقت ارتحال فعلمنا أن أمرًا جللًا قد وقع، تجمع

الناس في ساحة النزل، ولبثنا ساعة أو بعض ساعة قبل أن يخرج إلينا كليم الله بالبشرى، فقد أوحى الله إليه نسخة من الألواح التي فقدت يوم فتنة (الشامري)، فهلل الناس فرحين بنزول الشريعة، وانهالت دموعهم غبطة حينما سمعوا كلمات الرب في وصاياه العشر لشعب إسرائيل، أحس كل امرئ منهم بأن الرب يخاطبه وحده قائلًا: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمام وجهي»، «أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك»، «لا تقتل»، «لا تزن»، «لا تسرق»، «لا تشهد على قريبك شهادة الزور».

تسامت نفوس القوم وحلت عليهم السكينةُ خشعت قلوبهم، وصغت آذانهم أمام كلمات النور التي هبطت علينا من السماء، وشعرنا لأول مرة بأن الرب قد اختصنا وحدنا بشيء عن العالمين، ثم أخبرنا كليم الله بأن الرب قد أمره بأن يقام له بيتٌ للعبادة في وسط بني إسرائيل.

قال:

ـ لا تَطِئُوا موطئًا ولا تنزلوا منزلًا، إلا وبيت الرب قائم في وسطكم.

ثم دعا كل واحد من بني إسرائيل للجود بما يستطيع من ذهب وفضة ونحاس أو حتى مسحة من دهن أو قنينة من عطر حتى يتسنى بناء بيت الرب الذي أسماه خيمة الاجتماع، فاشتعلت قلوب الناس حماسة، وتسابق الناس في الجود بما يملكون من ذهب وفضة وأحجار كريمة.

وعهد (موسى) إلى رجل صحيح الإيمان، شديد الحنكة، والمهارة اسمه (بصلئيل بن حور) بمهمة بناء خيمة الاجتماع، وكلفه بأن يختار من بني إسرائيل أمهر النجارين والنساجين وصُنّاع الذهب والنقش، ليقوموا ببناء بيت الرب.

كان الوقت وقت ظهيرة حينما جاء (بصلئيل بن حور) إلى كوخنا في حي رأوبين، كانت أمي تُقلِّب الدقيق في الماء المغلي، وقد ارتدت السواد الذي لم يفارقها منذ أن ماتت العمة (سولاف). بينما كانت العمة (باتشيفا) تسقي

(باتيا) الصغيرة رشفات من لبن الناقة، أما أبي فكان يبني جدارًا من الحجر ليحجز وراءه الناقة التي شردت قبل ذلك بيومين في النزل وكادت أن تقتل طفلًا من أبناء الحي، ناولتُ أبي حجرًا انتفخت تحت وطأة ثِقَلِهِ عضلات ساعدي الصغير، فالتقفه أبي في يسر، ثم لطّخه بالطين اللازب، ورصّه فوق البنيان الذي علا حتى حاذى ارتفاع رأسي، ثم قبض قبضة من الطين وسد بها الفرجات من حول الحجر، ومسحها بيديه حتى صار سطح الجدار مستويًا، جاءنا صوت (بصلئيل) من الخلف قائلًا:

ـ هل تركت النّجارة يا (زخاري)، وصرت تعمل في البناء؟

تهلل وجه أبي، وغسل يديه من الطين، ثم هرول مرحبًا بالرجل الجليل، ربت (بصلئيل) على كتفه بينما قال أبي مازحًا:

ـ أصاب البَوار صنعة النجار في صحراء سيناء، ولولا صُنع المثاني والأقفاص لنسي (زخاري) حرفته.

جلسا على صخرة ثم قال (بصلئيل) في بشاشة:

ـ حسنًا، لقد آن الأوان كي يتذكر (زخاري) حرفته!

قال أبي في حبور:

ـ بارك الرب خطواتك يا حكيم، قد استبشرت خيرًا من رؤيتك، ولعلك أتيت لتمنحني شرف المشاركة في بناء بيت الرب.

ضحك (بصلئيل) وقال وهو يضرب على كتف أبي في رفق:

ـ ومن أدراك أنني لم آت إليك فيم هو أكبر؟!

ازداد اهتمام أبي، وقال في صدق:

ـ وهل هناك ما هو أكبر شرفًا من ذلك؟

مال (بصلئيل) نحوه وكأنه يُسِرُّ إليه بمفاجأة:

ـ نعم، فسأعهد إليك بصنع تابوت العهد.

تساءل أبي متعجبًا:

ـ تابوت العهد؟!

قال (بصلئيل) جادًّا:

ـ نعم، تابوت العهد، ستحل عليه سكينة الرب، وستوضع به ألواح الهداية التي أرسلها لبني إسرائيل، وسيحمله بنو إسرائيل معهم أينما ذهبوا، ويتقدم لحمله بنو (هارون) ولا أحد سواهم، هكذا أمر الرب!

لمعت عينا أبي فرحًا وترقرقت فيها الدموع وهو يقول:

ـ أحقًّا يا حكيم بني إسرائيل؟! وحق الرب إيل إنه لشرف ما بعده شرف.

وهوى على يد (بصلئيل) يقبلها، فقال الشيخ صادقًا:

ـ قد أمرني نبي الله (موسى) أن أتخير من نجاري النزل أصلحهم وأمهرهم لتلك المهمة، ولا يوجد في النزل من يكافئك مهارة وصلاحًا يا (زخاري)، ويكفيك أنك الرجل الذي لم تقع عيناه على عجل (الشامري).

ثم قال وهو يستعد للانصراف:

ـ قد جمعنا من الأخشاب أجودها، ومن الزينة أطيبها، وغدًا نبدأ في العمل!

ثم أشار نحوي وقال:

ـ وإن شئت أتيت بهذا الغلام ليعاونك، فلعله يشب على طاعة الرب مثل أبيه.

* * *

الورقة الرابعة عشرة

واكتمل البناء، وبدا بيت الرب كأروع ما يكون من البهاء والفخامة، كان طول الخيمة المباركة ثلاثين ذراعًا، وعرضها خمس عشرة ذراعا، تحملها أربعة أعمدة مطلية بالذهب، وقد صُنِعَتْ جدارنُها من البوص المبروم المطلي بالأرجوان، أما السقف فقد صنع من خشب السنط المُحلَّى بعروق الذهب والفضة وقد غَطّاه من الخارج غِطاءٌ من جلود الكباش والماعز ليقيه حر الصيف وزمهرير الشتاء، وأمر نبي الله بأن تُقسّم الخيمة من الداخل إلى قسمين، فناء خارجي اسمه المقدس، وضعت به منارة من الفضة، ومذبح البخور، ومائدة يوضع عليها الخبز والفطير في أيام السبت، أما القسم الداخلي فكان معزولًا عن المقدس بحجاب من حصير منسوج، لا يدخله أحد إلا نبي الله أو الكاهن الأكبر (هارون)، وكنا نسميه قدس الأقداس، وبه وضع تابوت العهد الذي صنعه أبي، والحق أن التابوت كان آية في الجمال، وما زلت أتذكر شهقة أمي حينما وقع بصرها على التابوت لأول مرة وهي تقول:

ـ وحق الرب إنه لأشد روعة من توابيت الفراعين!!

فتبسم أبي ضاحكًا وقال:

ـ أما رأيت خيرًا من توابيت الفراعين لتشبِّهي تابوت العهد!

تحرجت قليلًا وقالت:

ـ ذَكَّرني غطاؤه المذهب بما كان يصنعه الفراعنة لأنفسهم.

قال أبي ليرفع عنها الحرج:

ـ لن يزيده الذهب بهاءً، ولكنه سيزدان بألواح الرب وكلماته.

وكان القداس الأول بعد بناء الخيمة قداسًا لا ينسى، مسح (موسى) أخاه (هارون) وابنيه بالدهن المقدس، ونَصّبه الكاهن الأكبر لبني إسرائيل، وأعلن الكهانة في أبناء (هارون) ونسلهم إلى يوم الدين، أُضيئت أسراج المنارة بزيت الزيتون وتصاعد عطر البخور الذي صنعه (هارون) من اللبان النقي والدهن المقدس من المذبح، وطاف (هارون) وأبناؤه في أرجاء الخيمة بمجمرة يتصاعد منها الدخان المُعَطِّر، ثم خرج بها إلى الشعب لينالوا نفحات من الأريج المبارك.

كانت سعادة الشعب لا توصف وسعادتي أنا كذلك، فقد شعرت حينها بالفخر رغم صغري، وأن عين الرب قد صارت ترعانا مرة أخرى بعد حادثة العجل، وتوالت الأيام، وتوافد الناس على خيمة الاجتماع ليتعلموا شريعتهم، وليسمعوا عن (موسى) ما جاء به الناموس من عند الرب، ولم يمض وقت طويل حتى تبدل الحال غير الحال، غابت الفرحة من الوجوه وحل مكانها العبوس والوجوم، تضاءل الإحساس بالفخر تحت وطأة التبعات والتكليف، وتساءل الناس لماذا غابت عن شريعتنا الرحمة حتى صارت إصرًا تئن تحته الظهور، وأغلالًا تتكبل بها الحياة؟

وضاق صبر العمة (باتشيفا) ذات يوم بتلك التكاليف، فقالت لأبي متبرمة دونما خجل:

ـ كانت الحياة أيسر من قبل يا (زخاري)، إن إله بني إسرائيل لجبار!

صُدِمَ أبي من كلمتها فقال في ذهول:

ـ استغفري الرب يا (باتشيفا)، بل أرسل شريعته رحمة لنا!

والحق أن الناس لم يروا من الشريعة إلا الزواجر والنواهي، والعقاب الصارم عند اقتراف الخطيئة، واتسعت دائرة الخطايا حتى صار اقتراف إحداها أمرًا

حتميًّا، عدنا ذات ظهيرة فوجدنا أمي تبكي حزينة سألها أبي قلقًا:

ـ خيرًا يا أم (شمعون)؟!

أجابت في حزن وخجل:

ـ غافلني الحيض ولم أعلم به إلا بعد الظهيرة!

ثم أردفت باكية:

ـ مست يدي الأواني والجدران فنجستها، والأسوأ أني أمسكت بمجمرة البخور المقدس!

بانت خيبة الأمل على وجه أبي، فازدادت أمي بكاءً، فقال يريد أن يهون عليها:

ـ لا بأس يا أم (شمعون) لن يمس أحد الجدران أو الأواني حتى المساء، وغدًا أذهب إلى الكاهن (هارون) وأقدم له قربان الخطيئة!

قالت العمة (باتشيفا) محتدة:

ـ يا (زخاري)، أفلا خرج الرجال إلى (موسى) ليخبروه أن الحرام قد صار أكثر من الحلال، وأن حياة الناس لا تستقيم.

قال ناهرًا إياها:

ـ مهلًا يا (باتشيفا)، فوالله ما ضَيّق الرب على بني إسرائيل إلا بظلمهم، ولعله يريد أن يرى منا ما يحب، قبل أن يضع عنا إصرنا.

وشعرت رغم صغري بأن أبي يكاد يكون الوحيد الذي يطبق أحكام الشريعة بحذافيرها على أهل بيته، وأنه يغالي في التضييق علينا مقارنة بأبناء عمومته وأبناء خالاته، كنا في يوم سبت، حينما اصطحبني لزيارة خالته المُسنة (عِليزة)، فقد علم بمرضها من ولدها (مِنواح) قبل ذلك بيومين في السوق، دخلنا إلى منزل (مِنواح) وقد انتصف النهار، فوجدنا المرأة العجوز وقد رقدت في إعياء على حصير، تفوح منها رائحة البول والمرض، وتهذي في غير وعي بهمهمات غير مفهومة، وكأنها تناجي الموت ليُعجّل بها، شعر أبي بالأسى لرؤية خالته على

ذاك الحال، فقد كانت خالته (عِليزة) الأقرب إلى قلبه، ويرى فيها وجه أمه التي فقدها صغيرًا، جلسنا بضع دقائق شعرنا فيها بعدم الألفة وسوء الضيافة من آل البيت، وتعجبنا من أن الحياة كانت تسير في دار (مِنواح) على طبيعتها، وكأن امرأة لا تصارع الموت وراء عتبتها!

كانت زوجة (مِنواح) تجلس على حجر خارج الدار وقد فرجت عن ساقيها وأمسكت بيديها أرنبا بريًّا، تَلوّى بين يديها وهي تمر على رقبته بالسكين، ثم تركته ينزف الدماء، قبل أن تنزع عنه فراءه، وتقطع أواصره بالسكين، وكلب (منواح) الضخم يحوم حولها، ويتلقف منها ما تلقيه إليه من أطراف الأرنب وأحشائه، أما (مِنواح) فقد انشغل بإشعال الموقد بالفتيل وقعس على ركبتيه ينفخ في النار وقد تَعفرت لحيته ورأسه وصار وجهه مسودًا بالسخام.

ضاق أبي ذرعًا بسوء ضيافة (منواح)، واستنكر ما رآه في بيته من انتهاك للشرائع فقال في تعجب واستنكار:

ـ أتشعل نار الموقد في يوم السبت يا (مِنواح)؟!

لم يرفع (منواح) رأسه بل ظل ينفخ في النار، ثم قال مغمغمًا بعد أن اشتدت جذوتها:

ـ إنها باقية من يوم أمس، فقط أنفخها لتزداد سعيرًا.

كان واضحًا أن الرجل يستتر بالكذب، فلم يجادله أبي في أمر النار وأشار إلى الأرنب المسلوخ وقال:

ـ وهل تطلق كلبك للصيد في يوم السبت أيضًا؟

التفت إليه (منواح) هذه المرة ثم قال متبرمًا:

ـ خرج الكلب وحده إلى الصحراء وعاد بهذا الأرنب البري.

هز أبي رأسه آسِفًا من مِراء ابن خالته وقال:

ـ أوما علمت يا (منواح) أن الرب قد حرم أكل الأرانب على بني إسرائيل؟!

توقفت زوجة (منواح) عن تقطيع الأرنب ونقلت ناظريها بين أبي وزوجها،

ثم قال (منواح) بعد هنيهة من الصمت وقد كشف عما بنفسه:

ـ أكلنا الأرانب من قبل يا (زخاري)، وأكلها (موسى) نفسه في أرض مصر، فما الذي جدَّ حتى يحرِّمها (موسى) الآن على بني إسرائيل؟

قال أبي مستنكرًا:

ـ لم يحرمها (موسى) يا (منواح)، بل حرمها الرب على بني إسرائيل.

قال (منواح):

ـ لو كانت حرامًا لحرمها (إبرام) وإسرائيل من قبل!

ثم أشاح بيده في غير اكتراث قائلًا:

ـ لو اتبعنا (موسى) في كل ما يقول، فلن نأكل إلا المن والسلوى!

هب أبي واقفًا وقال وهو يهم بالانصراف غاضبًا:

ـ اتق الرب يا (منواح) ولا تُحِلّ ما حرمه الرب فيحل عليك عقابه.

ثم نظر إلى خالته التي تحتضر وقال:

ـ مسكينة يا أم (منواح)، أسأل الله أن يهون عليك سكرات الموت، وألا يأخذك بجريرة ولدك.

وانصرفنا دون وداع، ورأيت على وجه أبي نظرة الحيرة والتوجس التي رأيتها عليه قبيل فتنة (الشامري)، واستقبلته أمي عند الدار، فأقلقتها ملامحه وسألته:

ـ خيرًا يا أبا (شمعون)، هل ماتت أم (منواح)؟

قال بائسًا:

ـ ستموت وتستريح، أما العذاب فسيبقى لبني إسرائيل!

ضربت صدرها وقالت جزعة:

ـ أي عذاب يا (زخاري)؟

قال (زخاري) حانقًا:

ـ والله لإن لم يتبع بنو إسرائيل شريعة الرب طواعية، ليتبعنها قسرًا.

ثم قال قانطًا مخنوقًا بالبكاء:

ـ هل كتب على بني إسرائيل ألا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؟

ربتت أمي على صدره وقالت:

ـ هون عليك يا أبا (شمعون)، فكل شيء عنه بقدر، والناس تتفاوت في الإيمان.

وصدق حدس أبي فقد تمادى القوم في خرق الناموس، وتهاونوا في التكفير عن الخطايا، ولم يتجنب النواهي إلا القلة من بني إسرائيل، فجمع (موسى) القوم عند خيمة الاجتماع، وحذرهم من غيهم، وأمرهم بالصبر على الشريعة وأن يأخذوها بقوة، فتلك تربية الرب لهم، وحذرهم من أن يأخذوا ببعضها ويتركوا البعض حتى لا ينالهم عذاب الرب، ولكن الشعب الذي جبل على التمرد لم يكف عن الجدال، هتف بعضهم:

ـ كيف تستقيم الحياة والحرام فيها أكثر من الحلال؟!

ـ من أين نأتي بكل هذه القرابين لنكفر عن الخطايا؟

ـ لماذا حرمت علينا ما لم يحرم إسرائيل على نفسه؟

وغضب (موسى) من جدال القوم، فهتف بصوته الجهوري الذي ملأ جنبات الوادي قائلًا:

ـ يا بني إسرائيل! هكذا قال السيد الرب: خذوا ما آتيتكم بقوة، فاسمعوا وأطيعوا، وقولوا سمعنا وأطعنا!

عم السكون على الوادي للحظات، وكف الناس عن الهمهمة، ونظر بعضهم إلى بعض وقد شعروا بأن (موسى) يفرض عليهم الأمر فرضًا، دون أن يدفع الحجة بالحجة، فقطع الصمت صوت رجل من بني يساكر قائلًا:

ـ ما كان هذا ظننا بالألواح يا (موسى)؟! ظنناها رحمة لبني إسرائيل فإذا بها شقاء وتبعة!!

هز الناس رءوسهم مؤيدين، وعلا اللغط بينهم، فاشتعل الغضب بـ(موسى)

وصرخ في بني إسرائيل مرة أخرى:

ـ قولوا سمعنا وأطعنا.

زمجر الناس معترضين، وهتف رجل من سبط نفتالي من بين الصفوف قائلًا:

ـ أتكرهنا على السمع والطاعة يا (موسى)؟

هتف (موسى) وهو يرفع عصاه إلى السماء:

ـ قولوا سمعنا وأطعنا.

رد عليه الرجل هتافًا بهتاف وغضبًا بغضب قائلًا:

ـ ما هكذا تكون الطاعة يا (موسى)، فوالله لا سمعنا ولا أطعنا، بل سمعنا وعصينا!

وكأنما تلقفت السماء كلمات الرجل ثم ردتها على الشعب القابع أسفل الجبل بروقًا ورعودًا! فأضيئت السماء بالبرق، واهتزت جنبات الوادي بأصوات الرعد، وارتجف الجبل ارتجافًا شديدًا انخلعت معه قلوب القوم، واشتد اهتزاز الجبل وكأنما يَنْتِقُهُ مارد من موضعه، وتحركت من فوقه صخرة عظيمة انحدرت نحو السفح، وامتد ظلها حتى ملأ السفح والنزل، وظن الناس أنها واقعة بهم لا محالة، وأنهم هالكون بغير شك، فخروا ساجدين، وهتف أبي من قلبه باكيًا في رجاء:

ـ سمعنا وأطعنا، سمعنا وأطعنا.

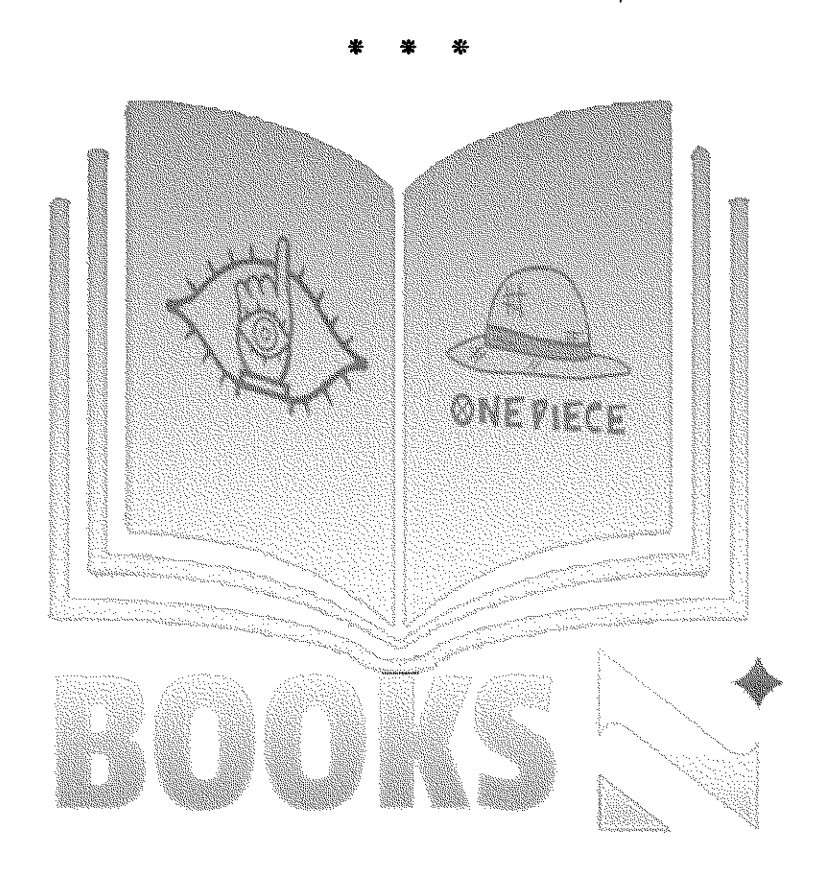
فردد الناس من بعده في بكاء وخوف، حتى امتلأت جنبات الوادي بصوت واحد:

ـ سمعنا وأطعنا، سمعنا وأطعنا.

وتوقفت الصخرة على مقربة من السفح، فرفع الناس رءوسهم من سجودهم يتطلعون إليها في رعب، وقد غشيهم ظلها حتى أحال النهار إلى ظلمة، فلما تيقنوا من أن الصخرة لن تقع بهم، قاموا من سجودهم مرتعدين، وانسل الواحد منهم تلو الآخر إلى داره وهو يقول مرتجفًا: «سمعنا وأطعنا».

وبينما كان أبي يتوكأ على كتفي في طريق عودتنا، استعاد عقلي سؤاله الذي ألقاه على أمي: «لماذا لا يؤمن بنو إسرائيل إلا بعد أن يروا العذاب الأليم؟» كما ثار في نفسي سؤال آخر خشيت أن أسأله لأبي وهو: لماذا يُكرِهنا الربُّ على عبادته ما دام غنيًّا عنا؟

* * *



الورقة الخامسة عشرة

وحان وقت الارتحال من الوادي المقدس، شَعرتُ هذه المرة بالوجْدِ لفراق المحلَّة التي مكثنا فيها قرابة العامين، وشهدنا فيها أحداثًا جسامًا، نُقِشت ذكراها في ثنايا القلب، وتَشكّل في خِضمها الوجدان.

طوى أبي جدران الكوخ وحَزَّمها بأحبال من الليف ووضعها على ظهر الأتان، ثم جمع السلال والقدور وعلقها على أطراف الهودج الضخم، الذي استقرت فيه أمي وعمتي (باتشيفا) ومعهما الطفلة الصغيرة (باتيا)، سحب أبي الناقة وسار في المقدمة، بينما امتطيت أنا الأتان التي تحمل متاعنا وخلفي سارت عنزتان، ونعجةٌ حبلى فقدت كبشها كفارة لخطيئة أمي!

سار ركبنا الصغير في الصحراء المتاخمة للتنزل ليلحق بركب سبط رأوبين، رأيت في عيني أبي الدموع وهو يلقي نظرته الأخيرة على الوادي المقدس، فأثارت دموعه أشجاني وتمثلت الذكريات حية أمامي وأنا أتتبع مواقع نظراته، فهنا أقام (الشامري) محرقته، وفي تلك الصحراء فقدناه، وهناك يرقد جسد العمة (سولاف) تحت التراب، لا يشهد على قبرها سوى حجرٌ صغير، ونبتة عوسج غرسها أبي إلى جواره، وعلى بُعد فراسخ منا قبعت الجبانة الكبرى التي وارت أجساد ثلاثة آلاف من بني إسرائيل ممن عبدوا العجل، وقد طمست شواهد قبورهم تحت كثبان الرمال الزاحفة، ولم يبق من ذكراهم إلا ألمٌ في الصدر ووخزةٌ في الضمير.

وصلنا إلى نقطة الالتقاء، وانضم ركبنا إلى ركب سبط رأوبين كان تنظيم الأسباط هذه المرة سماويًا، فقد أمر الربُّ (موسى) بهذا التنظيم وجعله شريعة لبني إسرائيل في كل ارتحال، ففي مقدمة الركب كان تابوت العهد يحمله بنو (هارون)، وخلفهم سار (موسى) وأخوه (هارون)، ثم سبط يساكر ويهوذا وزبولون يحملون المسكن والخيمة والغِطاء، أما سبط رأوبين وشمعون وجاد فقد ساروا في المنتصف يحملون على رحالهم المذبح والمنارة والمائدة، وخلفهم سار باقي الأسباط يحملون أمتعتهم ويسحبون الدواب والأنعام.

سرنا أيامًا وليالي آمنين، نستريح من السفر ليوم أو بعض يوم، ثم نعاود المسير مرة أخرى إلى وجهة لا يعلمها إلا الرب ونبيه (موسى)، ظللتنا غمامة الرب فلم نشعر بقيظ الشمس في ذلك الوقت من أوائل شهر «أيار» ولم ينقطع عنا المن والسلوى طوال وقت الترحال.

وبعد قرابة الشهر وصل بنا الركب إلى موضع يقال له «حُضيروت»، فانقشعت سحابة الغمام وعلا صوت البوق، وعلمنا أن الرب قد أمر بأن يكون منزلنا في ذلك الموضع، دب النشاط في الناس الذين شعروا بالملل من السفر قرابة الشهر لكثرة الوقوف وبطء المسير، وجمع (موسى) مشايخ الأسباط وأمرهم بأن يخططوا النزل حول خيمة الاجتماع بحسب ما جاء به أمر الرب، فقد كانت «حضيروت» منطقة سهلة فسيحة، ذات هواء رطب، ولا تبعد عن خليج الماء سوى بضع فراسخ، فجاء تخطيط النزل على مساحة شاسعة، قلما رأيناها في المنازل التي نزلناها في برية سين، فأقام (موسى) خيمة الاجتماع في المنتصف، وأحاطها بخيمته وخيمة (هارون) وخيام بني جلدته من اللاويين، ثم أقام أربعة أحياء حول الخيمة، وجعل لكل حيٍّ من الأحياء راية، فكانت راية حيّنا إلى الجنوب من خيمة الاجتماع واجتمع تحت لوائها سبط رأوبين وسبط جاد وسبط (شمعون).

وبعد أن اكتمل بناء النزل، صارت «حضيروت» أشبه بالمدينة أو القرية، وجاءت الشوارع داخل الحي فسيحة واسعة، واتسعت ميادينها لألعاب الصبية،

فصارت بيني وبين فتية من سبط جاد وسبط (شمعون) صداقات وألفة، وكان من بين هؤلاء الصبية فتًى من سبط جاد اسمه (عامير)، يكبرني بأربع سنوات، متين البنيان، أسمر البشرة، جَعِد الشعر، استمد سمات سِحنته من أمه الكُوشيّة (النوبية) التي تزوجها أبوه في أرض مصر قبل سنوات من الخروج.

كان أبو (عامير) يدعى (بِنحاس)، وهو اسم يعني في لغتنا «الداكن البشرة» ولا أدري إن كان هذا اسمه حقيقةً، أم إنها كُنية أطلقت عليه لمعايرته بزوجته الكوشية، فقد كان بنو إسرائيل ينظرون باستعلاء إلى الكوشيين، ولا يحبونهم، ولعل السبب في ذلك أن الجارية المصرية التي تزوجها أبونا (إبرام) على أمنا (سارة) كانت امرأة من كوش.

كان (بنحاس) يعمل منذ صغره بالصيد في أرض الجوشن على ضفاف النهر البيلوزي، يغزل الشباك ويصنع القوارب، ثم يغدو إلى فرع النيل الصغير، فيسوق الرب إليه رزقه في الشباك، ليأكل منه هو وأسرته، ويقايض ما تبقى منه بالشعير والقمح، وأقام لنفسه بيتًا من الطين على ضفاف النهر، عاش فيه مع زوجته الكوشية، وبارك الرب في ذريته، فأنجب عشرة أولاد من الذكور كان أصغرهم (عامير) الذي رأيته لأول مرة في «حضيروت»، فلما كبر الأبناء عملوا مثل أبيهم في الصيد، فتضاعفت مراكبهم، وازداد ثراؤهم وصارت مراكبهم تجوب النيل شمالًا وجنوبًا، وعمل بعضهم في مراكب الفرعون، فجمعوا بين المال والمكانة، وعلا قدرهم بين بني إسرائيل بعدما كانوا يُعَيّرون من قبل بأمهم السوداء.

فلما خرج بنو إسرائيل من مصر، تركت العائلة مراكبها، ولم يجدوا في الصحراء بديلًا لمهنتهم، فضاق بهم الحال، وأذل كبرياءهم الفقر والفاقة، فعمل بعضهم بالرعي، وعاش بعضهم على الصدقات ولحوم القرابين، أما (بنحاس) نفسه فقد أصابه الكبر والوهن، وصار يُحمَل من نزل إلى نزل كما يُحمَل المتاع.

وكانت حضيروت على مقربة من قرية حاضرة البحر اسمها «عصيون جابر» تقع على خليج لحيان، أقام فيها بعض سكان السواحل مرفأً، ترسو به

السفن القادمة إدوم ومصر وكنعان، وجذبت رائحة البحر من كانوا يعملون بالصيد من بني إسرائيل، ومنهم أبناء (بنحاس)، فخرجوا يلبون النداء!

ورأيت السمك في سوق «حضيروت» لأول مرة في حياتي، كان الناس يتهافتون على شرائه، ويتقاتلون عليه حتى صار زنبيل السمك الذي يحوي عشر سمكات يقايض بقدحين من القمح، فقد سئم الناس لحوم السلوى، ووجدوا في لحم البحر الطري فرجًا لهم من الصبر على طعام واحد، لا سيما وأنهم لا يدرون إن كانوا سيصادفون في ترحالهم بحرًا مرة أخرى أم لا، وكان أبي يتعجب من تهافت بني إسرائيل على شراء السمك ويتأفف من رائحته التي ملأت هواء النزل وعلقت بكل شيء حتى الملابس، وكان يقول:

ـ عجبت لأمر بني إسرائيل! يستبدلون الذي هو أدنى، يقصد السمك، بالذي هو خير، يقصد السلوى.

ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يقف أمام إلحاح أمي في طلب السمك، ولم يجد بدًا من الاستجابة لطلبها عندما انضمت إليها العمة (باتشيفا)، فأحضر لها زنبيلًا من السمك، طهت بعضه وخزنت بعضه بطريقة المصريين، فملّحته وخزّنته في أبراش في الشمس، حتى أنتن وتَفسّخ لحمه ثم أخرجته بعد أسابيع لنأكله، وكانت لحظة لا تنسى، كدت أفقد وعيي فيها من الرائحه المنتنة، وعافت نفس أبي من أن ينظر إليه أو أن يتناوله، أما العمة (باتشيفا) فقد انهالت عليه أكلًا في تلذذ، وهي تقول:

ـ ما أطيب طعامكم أيها المصريون! إن لكم في طهو كل صنف من الطعام ألف طريقة!

فقالت لها أمي وهي تنظر بعتاب نحوي ونحو أبي:

ـ هكذا كان يأكله النبلاء يا (باتشيفا) في عيد شِمو!

ابتسم أبي وقال:

ـ ليتنا قلدناهم في أكل أوزة مشوية.

قالت أمي مغتاظة:

ـ آتِنِي بالأوز وأنا أطهوه لك.

أنصفتها عمتي (باتشيفا) على غير عادتها وقالت:

ـ دعكِ من (زخاري) يا (رومانا)، لا يزال يشتهي الطير منذ صغره حتى ظننت أن جسده سيكسوه الريش.

ثم التفتت إلى أبي قائلة وهي تقضم قطعة من السمك في استمتاع:

ـ عش أنت على المن والسلوى، ودعنا نتذكر أياما كنا فيها نتقلب بين أصناف النعيم في مصر.

قال أبي في يقين:

ـ حين تصلون إلى الأرض المقدسة، سترون أصنافا من النعيم لم تروها من قبل.

وقدر الرب لبني (بنحاس) وغيرهم من الصيادين أن يعودوا إلى سابق عهدهم في تلك البقعة من الأرض التي طال بقاؤنا فيها، ففتحت لهم أبواب الرزق مرة أخرى، وعادوا لصنع الشصوص والشباك والمراكب، ولم يبخل عليهم البحر برزقه، فكانت تأتيهم أسماك البحر العظيمة وحيتانها التي لم يروا مثلها في نهر النيل، فيقومون بصيدها وبيعها في الميناء وفي النزل، حتى اجتذبت مهنة الصيد الشباب الطامح في الثراء من بني إسرائيل، فأقام بعضهم في عصيون جابر، وعمل آخرون في مراكب الإدوميين وارتحلوا معهم إلى موانئ بعيدة دون إذن من نبي الله (موسى)، فأرسل إليهم نبي الله يذكرهم بتقصيرهم في حق العبادة والشريعة، وتهاونهم في تقديم القرابين، وخوفهم من عذاب الله.

ودعاني (عامير) ذات يوم لمرافقته في الصيد في عصيون جابر، وأهداني شصًّا من البوص، فاعتذرت له بلطف، فلم يكن أبي ليسمح لي بذلك وهو يراني طفلًا صغيرًا، رغم أنني حينئذ كنت قد جاوزت البلوغ بعامين، وتكررت دعوات (عامير) لي، وشعرت بالخجل أمام أقراني ومن يصغرونني من أبناء

الحي، الذين كانوا يتباهون بالصيد والسباحة في البحر.

وذات يوم قررت أن أكسر الطوق الذي يحوطني به أبي رغم أني قد شببت عنه، خرجت من منزلنا في الصباح الباكر، وأخبرت أمي بأني سأمكث النهار مع أصدقاء لي في حي زوبلون، ثم قابلت (عامير) خارج النزل، وقلبي يقرع في جنبات صدري من شدة الإثارة والرهبة.

سرنا في الصحراء وحدنا في تلك الساعة المبكرة تستقبلنا نسائم الهواء الباردة، التي ازدادت رطوبة ولطفًا كلما اقتربنا من شاطئ عصيون جابر، وهناك وقع بصري لأول مرة على الميناء الفسيح، خفق قلبي رهبة لمرأى البحر الذي اختلطت زرقته بزرقة السماء، وبدا في اتساعه على مرمى البصر وكأنه يلامس أطراف السحاب، وهدير موجاته الصاخبة يطن في أذني كلحن تعزفه السماء، وتترنم به طيور البحر التي حلقت غير بعيد عن شاطئه الذي اكتسي بالأصداف وشقائق النعمان!

مر الوقت سريعًا جميلًا محملًا بالمتعة والإبهار، بين رؤية السفن وضجيج البحارة في الميناء، وبهجة الصيد واللهو مع الأقران، وبعد أن انتصف النهار جمعنا الشصوص وما صدناه من أسماك، وعدنا إلى النزل وقد تلونت السماء بالشفق الأحمر، كنت أحمل في يدي اليمني شصًا، وفي يدي اليسري زنبيلًا به ثلاث سمكات، وقلبي يرقص طربًا، وأنا أتخيل فرحة أمي برؤيتهن، دخلت إلى الطريق الذي يؤدي إلى بيتنا، فوجدت أبي واقفًا في منتصفه، وقد جلست أمي على باب البيت وقد بدا عليهما القلق والغضب، هتفت أمي حين رأتني قائلة:

ـ ها قد عاد (شمعون)!!

ثم قامت مسرعة نحوي وبادرت بلومي وهي تقرص أذني حتى تقيني غضبة أبي وقالت:

ـ ألم آمرك ألا تتأخر في حي زوبلون يا (شمعون)؟!

وبنظرة واحدة على ما أحمله، أدرك أبي سبب غيابي، قال في غضب:

ـ حي زوبلون!

وقبل أن أتفوه بكلمة استقبلتني من يده القوية صفعة أسقطتني أرضًا، وأطاحت بزنبيل الأسماك بعيدًا، وزلزل صوته الغاضب أرجائي وهو يقول:

ـ هذا جزاء الكذب يابن (رومانا)!

ثم التفت إلى أمي وقال ناهرًا:

ـ لا يخرجن من الحي إلا بأمري.

انحنت أمي على الأرض تحتضنني، وكتم الذهول الدموع في عيني، ولكن أبي استمر في ثورته قائلًا:

ـ وأقسم بالرب إيل، لإن عدت إلى الكذب يابن (رومانا) لأخرجنك لجمع الحطب من الجبال في كل صباح.

ثم غادرنا وهو ينفث غضبًا، ويومها رأيت من أبي قسوة جعلتني أتساءل: لماذا لا يرى أبي من الدنيا إلا سخطها؟ ولماذا كتب على نفسه وعلينا ذلك الخوف من البهجة والفرح؟

* * *

وحدثت في الأيام التالية أحداثٌ غريبة، أنذرت بغضب الرب على من سكنوا عصيون جابر، فقد امتنعت الأسماك عن دخول الخليج لثلاثة أيام متتالية، كان الصيادون يجوبون فيها الخليج بالمراكب، فلا يجدون أثرًا لسمكة تهتز لها شباكهم أو شصوصهم، وكأنما اتفقت الأسماك فيما بينها على الرحيل أو الاختباء، وفي صبيحة يوم سبت، امتلأ الخليج بالجلبة، ورأى بنو إسرائيل سكان القرية من الإدوميين يهرولون في الماء بملابسهم، ويمسكون بإيديهم أسماكًا تقافزت على سطحه، وحيتانًا صغيرة تطفو على السطح، وتدخل طواعية بأنفسها في الشباك، فهلل الإدوميون فرحين بذلك الصيد الذي نالته إيديهم في سهولة ويسر، وود نفرٌ من بني إسرائيل لو شرعوا شباكهم لينالوا من هذا الصيد اليسير، ولكن رجالًا بهم بقية من إيمان، ذكّروهم بأن اليوم يوم سبت،

وأن الرب قد حرم عليهم الصيد في ذلك اليوم، وقالوا ليعزوا أنفسهم:

ـ ها قد انكشفت الغمة، وغدًا تعود الحيتان والأسماك، فنصطاد منها كما صادها الإدوميون.

وجاء الغد بما لم يتمنوه، فقد سكنت مياه الخليج مرة أخرى، وبدت كبركة من الماء الآسن لا حياة فيها ولا روح، واختفت الحيتان والأسماك التي كانت تتراقص قبل ذلك بيوم، وعاد الناس أدراجهم في المساء محملين بالخيبة والخسران، وتكرر الأمر طيلة الأسبوع حتى جاء يوم السبت التالي، فإذا بالحيتان والأسماك تعود أدراجها إلى القرية تتقافز على سطح الماء، لتملأ قلوب الإدوميين فرحة وبهجة، وتملأ قلوب بني إسرائيل غيظًا وحسرة.

وتذمر شباب القرية من بني إسرائيل وأقسموا لينشرن شباكهم حتى وإن انتهكوا حرمة السبت، فزجرهم عن ذلك الشيوخ، وقال لهم (بنحاس) في وهن وضعف:

ـ لا تسخطوا الرب عليكم فإنما هي فتنة لينظر ربكم ماذا تفعلون.

فلم يستمع إليه الرجال، وقال شاب في تذمر سافر:

ـ أتعبث بنا السماء؟!

وقال آخر:

ـ لو كان في الأمر حرمة لما جاءت الحيتان شُرَّعًا في يوم السبت، تتلقفها أيادي الأطفال والنساء.

فقال لهم (بنحاس) يحذرهم:

ـ إني أعظكم أن يحل عليكم العذاب الشديد أو الهلاك!

فتحدث (راحوم) ابن (بنحاس) الأكبر وكان ذو مكانة عند الصيادين قائلًا:

ـ يا معشر الصيادين، والله إني لأجد الرأي بين ما ذكرتموه، فليس من الدين أن ننتهك حرمة السبت، وليس من العقل أن نترك صيدًا تناله أيدينا وشباكنا، وإن شئتم ذكرت لكم الرأي الصواب.

فاستحثه القوم قائلين:

ـ هات ما عندك يا (راحوم).

فقال:

ـ تنصبون حبائلكم وشصوصكم قبل يوم السبت، فإذا جاءت الحيتان والأسماك في يوم السبت، تلقفتها الشباك واحتجزتها وراءها، فإذا انقضى السبت، بكّرتم فجمعتم ما احتجزته الشباك من صيدٍ حلال لا شبهة فيه!

ـ همهم الناس مستحسنين الرأي، وقال أخوه (عيلام) مؤيدًا:

ـ نعم الرأي يا (راحوم)، هذا عين الصواب يا شيخ الصيادين!

فبانت الخيبة على وجه (بنحاس) وقال مذممًا:

ـ بئس الرأي رأيك يا (راحوم) أتخادعون الله؟! هلكت يابن (بنحاس) وأهلكت معك بني إسرائيل!

ثم أمر ولده الأصغر (عامير) بأن يحمله على أتان ليعود به إلى حضيروت وقال:

ـ يا (عامير) أخرجني من هذه القرية الظالم أهلها فقد حق عليها العذاب.

ففعل (عامير) ما أمره به أبوه وعادا إلى النزل في حضيروت، يستجيران ببيت الرب، ويدعوانه لكيلَا يأخذ إخوانهم وأبناءهم بالعذاب.

واستيقظنا ذات صباح على جلبة وصراخ في الحي فقد هاجمت بعض القردة المنازل وأرادت أن تدخلها عنوة، وطافت بعض الخنازير في شوارع النزل في مشهد تقشعر له الأبدان، صرخ الأطفال والنساء وظل الرجال يقذفون القردة بالحجارة، ويضربون الخنازير بالعصي، ويدفعونهم دفعًا إلى خارج النزل، فكانت القردة تفر ثم تعود من جديد والخنازير تستميت لدخول البيوت وكأنها تلوذ بسكان الحي من خطر أحدق بها في الصحراء.

وهناك عند بيت (عامير) تسورت قرود تسعة جدران البيت تريد أن تدخله وسمعنا صراخ (عامير)، فهرولنا إليه أنا وأبي، وظللنا نزود عن بيته ونذيق

القرود ضربات موجعة بالحجارة والعصي، حتى أدمينا بعضها وكدنا نقتل البعض.

ولم نسمع في غمرة حماسنا صوت أبيه (بنحاس) يأتي من الداخل في وهن وحزن وهو يقول:

ـ كف عن ضربهم يا (عامير)، فوالله إني لأجد في أحدهم وجه أخيك (راحوم)!

وفرت القردة إلى الصحراء المتاخمة للنزل وفي الصباح خرج بعض الرجال لاستطلاع أمرهم، فوجدوهم وقد نفقوا عن بكرة أبيهم.

وأرسل (بنحاس) ولده (عامير) إلى عصيون جابر، وقال له:

ـ يا بني اذهب فتحسس من أمر إخوتك، فلعل الله قد أنجى بعضهم من العذاب.

فعاد (عامير) وأخبره بأن القرية خاوية على عروشها!

ولم تطل الحياة بالصياد (بنحاس) بعد ذلك، أنهكت الحسرة جسده المريض، فمات وهو يدعو الرب أن يكون عذاب أبنائه في الدنيا كفارة لهم في الآخرة.

وفي تلك الليلة جلست إلى أبي وقد شعرت بالشفقة على (بنحاس) وأولاده، سألته:

ـ هل حقًّا مسخ الرب إخوة (عامير) قرودًا كما يقول الناس؟!

قال آسفًا:

ـ لا أدري يا (شمعون)! ولكن الرب عاقبهم على أية حال!

قلت مرتجفًا:

ـ لماذا يقسو الرب علينا هكذا؟!

نظر إلي مذهولًا وقد أزعجته كلماتي وقال:

ـ هو يقسو على العصاة فقط يا (شمعون)!

قلت:

ـ ألا يستحق العصاة توبة؟!

قال:

ـ التوبة لمن يجهل!

نظرت إليه وقلت:

ـ أبي! هل تحب الرب؟!

قال مؤكدًا:

ـ نعم!

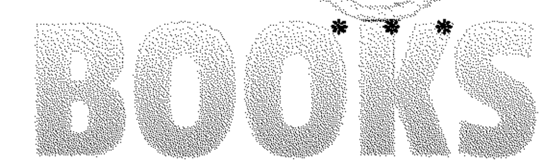
قلت مرتجفًا:

ـ ولكني أخافه!

قال وهو يضم رأسي إلى صدره:

ـ إذا خفت الرب فسوف يحبك، وإذا أحبك فسوف تحبه!

ومهما يكن من شيء فإن قصة (بنحاس) ظلت عالقة بعقلي لسنوات، خاصة بعدما انضم (عامير) الذي فقد أسرته بأكملها إلى دارنا، وصار الصبي الذي صفعني أبي من أجله أخًا لم تلده أمي.



* * *

الورقة السادسة عشرة

ومرت الأيام والشهور، وانقضت أشهر الصيف بقيظها ولهيب شمسها، وبدأت نسائم «تشرين» في الهبوب مؤذنة ببدأ الخريف، ذلك الوقت من العام الذي تجف فيه الأشجار ويشح فيه الكلأ ويطوف الرعاة بأغنامهم في الصحراء بحثًا عن العشب والماء.

وكنت أنا و(عامير) وبعض الصبية نخرج بأغنام الحي إلى الصحراء لنرعى فيما تبقى من الكلأ، الذي جفت أوراقه واحتدّت سيقانه حتى صارت كالشوك، فكانت الأغنام تتحسس بأطراف ألسنتها العشب، تنتقي منه وريقاتٍ تسُد بها جوعها، وتمتص من لحائها ما بقي من رَطْبِها.

وكنت أسعد بتلك «النُّزهات الرَّعْوية» فقد كانت لي بمثابة رَوْحةٌ، أستريح بها من التضييق الذي فرضه عليّ أبي بالبقاء داخل الحي، والمواظبة على زيارة خيمة الاجتماع معه والاستماع إلى تعاليم الدين من نبي الله (موسى) أو الكاهن (هارون)، كما كنت أجد فيها متنفسًا للعب مع الأقران دون لوم من أمي أو تقريعٍ من أبي، وفي تلك الأيام تعلمت من الصبية الذين كانوا يكبرونني سنًّا فنونًا من الألعاب، برعت فيها كثيرًا مثل المبارزة بالعصي والقتال بالأيدي، وكان يعينني على ذلك قوة بنياني التي كانت تكافؤهم رغم صغر سني، ومرونة جسدي في الحركة والاحتيال، وكان وجودي إلى جوار (عامير) في أي فريق من المتعاركين، كفيلًا بأن يُرجِّح كفّة ذلك الفريق، فقد كان لـ(عامير) جسدٌ

صلدٌ، وهبه الرب إياه منذ الرضاع، وصقله الجهدُ والشقاء حتى صار بنيانه المتناسق كتمثال من الحجر الأسود نحتته أيدي فنان من أهل «فيثوم».

ووجد أبي فينا مُعينًا له في أعماله فكنا نجمع له الأخشاب والحطب ونرعى له الأغنام، وأوحت له أمي ببناء بيت لنا من الطين والقّش على غرار ما كان يصنعه المصريون حتى يقينا البرد في الشتاء، فمدينة حضيروت كانت تقع إلى الشمال من جبل حوريب وموقعها بالقرب من الخليج، جعلها أشد بردًا في الليل من أي نزل نزلنا به من قبل، ورغم أننا كنا في بدايات الخريف فإن الرياح كانت تشتد في الليل حتى كادت أن تعصف بالكوخ في ليلة من الليالي الباردة، فاستجاب أبي لطلبها، وصنع قوالب عديدة متماثلة من الخشب كان يضع في كل واحدة منها خلطة من التراب الناعم والماء والقَش الذي جمعناه من سيقان الكلأ الجافة ثم درسناه بالحجر حتى صار كالحصف، ثم تركها لتجف في الشمس ليومين أو ثلاثة، قبل أن ينزع عنها قالبها الخشبي لتصير لَبِناتٍ من القرميد، خفيفة الوزن ولكنها قوية متماسكة كالحجر.

وقام أبي بتخطيط البيت على مساحة واسعة إلى الجنوب من حي رأوبين وجعل فيه حجرة له ولأمي وأخرى لي و(عامير)، وثالثة للعمة (باتشيفا)، ثم رفع له سقفًا من فروع الأثل والسِّدر، وصنع له بابًا منيعًا من البوص المبروم وجعل له نوافذ صغيرة تدخل الهواء والنور إلى داخل الدار، فصار بذلك بيتنا أروع بيوت النزل وأجملها.

ورأي سكان النزل الدار فأعجبتهم، وجاء جيران لنا في الحي يسألوننا قوالب الخشب حتى يبنوا لأنفسهم دارًا مثل دارنا فأعارها لهم أبي، ثم لم يلبث باقي الجيران أن طلبوا منه أن يصنع لهم قوالب أخرى من الخشب مقابل أجر، فصنعها لهم، وصنع كذلك أبوابًا ونوافذ، حتى راجت صنعته، وامتلأ فناء بيتنا الخلفي بجذوع الأشجار، وتراصت في أركانه عشرات الأبواب والصناديق الخشبية.

وزاد حجم العمل عن طاقة أبي ولم نستطع أنا و(عامير) أن نفي بحاجته

وحدنًا، فاكترى نجارًا من سبط بنيامين ليعاونه، كان النجار الجديد شابًّا صغيرًا اسمه (رام)، نحيف الجسد، قصير القامة، ورغم فقره، بدا متأنقًا وسيمًا وقد حف شاربه ولحيته، وهذب شعره الطويل ومسحه بالزيت والطيب لكي يبدو متلألئًا في ضوء الشمس، وحينما رأته أمي تنحت بأبي جانبًا ثم قالت له مستنكرة:

ـ أفلا تكتري رجلًا جَلَدًا ليعينك في أعمالك بدلًا من ذاك المعجب بحُسنهِ كالنساء؟!

فقال لها أبي مؤنبًا:

ـ لا تسيئي الظن به يا (رومانا)، فهو فقير يتيم، وقد أوصاني به (بصلئيل بن حور) خيرًا!

ويبدو أن في النساء مسبارًا يقرأن به ما في جوف الرجال قبل أن تبوح به الأيام، فقد كان (رام) شديد الهدوء والإخلاص في العمل طالما كان أبي موجودًا في فناء الدار، فإذا انصرف أبي لبعض شأنه في الحي، تبدل الحال بالشاب، فيصير أكثر كسلًا في العمل، وتختفي من عينيه نظرة الانكسار وتحل فيهما نظرة جرأة هي أقرب إلى الوقاحة.

كنت أنا و(عامير) نقوم برص قوالب الخشب فوق سقف البيت، أقف أنا فوق الجدار بينما يقف هو على الأرض يقذف لي قوالب الخشب فألتقفها، ثم أضعها فوق الصفوف التي ارتفعت حتى حاذت منكبي، وبينما نحن كذلك أتت إلى الفناء فتاة شابة من عشيرة «قهات»، وهي عشيرة تتميز نساؤها بالملاحة والخلاعة، وكان لأختها عندنا أثاث نصنعه، خطرت الفتاة في مشيتها في الفناء ثم نادتني في شيء من الدلال لكثرة ترددها علينا قائلة:

ـ هل انتهى أبوك من صنع صندوق الملابس يا (شمعون)؟ لقد أوشكت أختي أن تُزَفّ دونه!

كدت أقول لها أن أبي خرج إلى الحي لبعض شأنه، ولكن الشاب (رام)

قطع الحديث قائلًا وهو ينظر إلى عينيها:

ـ الصندوق يحتاج فقط إلى بعض الصقل والتهذيب، امنحيني دقائق وسيكون مُعدًّا.

خضعت الفتاة ببصرها لنظرته الجريئة وقالت:

ـ حسنًا، سأنتظرك هنا.

ثم جلست فوق مقعد في ركن الفناء، تدير وجهها عن موضع (رام)، ولكن عينيها كانت تختلس النظر نحوه بعد أن شمّر عن ساعديه ثم أمسك بالصندوق ووضعه فوق المائدة، وأخذ يهذب ما زاد من حروفه بالإزميل، مقطبًا ما بين حاجبيه حتى يظن من يراه أنه يأتي بصنيع عجيب، يستغلق على الحاذقين صنعه! ثم لم يلبث أن أتى بحفنات من الرمل وضعها فوق الصندوق وفركها بورق البردي ليصقل بها سطح الغطاء، وبينما كانت أوراق البردي تحتك بحبات الرمال وتؤزّها أزًّا، كان الفتى يدندن بصوتٍ نديّ أشعارًا، تعمّد أن تصل أبياتها إلى مسامع الفتاة الغيداء فأخذ يقول:

إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيَّتُهَا الحبيبة

أنكِ الأروع من بَيْنِ النِّساءِ

فَاخْرُجِي عَلَى آثَارِ الْغَنَمِ

وَارْعَيْ وحدك بين الرُّعَاةِ

كَفَرسة جامحة

ستسبقين كل مركبات الفرعون.

مَا أَجْمَلَ خَدَّيْكِ بالجواهر!

وَعُنُقَكِ بِالقَلاَئِدِ!

شَفَتَاكِ تتلألأ بالقرمز،

وَفَمُكِ حُلْوٌ كالشهد

وخَدَّاكِ حمراوان كفِلْقة الرُّمَّان
أتعرفين من أنت؟
أنت كالسَّوسَنة في الحسنِ
حين تنثر عبيرها بَيْنَ الأشواكِ
كذلكِ أنتِ يا صغيرتي بَيْنَ النساء.

رأيت على وجه الفتاة حُمرة الخجل، وإن فضحت خائنةُ عينيها حياءَها المزعوم! انتهى (رام) من صقل الصندوق فحمله وذهب إليها، يقتحم ما بينها وبينه من مسافة حتى صار لا يفصلهما شيء إلا الصندوق ثم قال في حنان مصطنع:

ـ إنه ثقيل، أمَعَكِ دابةٌ تحملينه فوقها؟

اضطربت وقد فاجأها اقتحامه حَرَمِها وقالت:

ـ لا.

فقال في مجون:

ـ إذن فأنا دابتك، أحمله لكِ حتى دارِك، وإن شئت طفت به لك في صحراء النزل!

تَبسّمت في دلال وقالت:

ـ وما المقابل؟

قال في حنانه الكاذب:

ـ يكفي البعير لمسة حانية من سيدته!

أطلقت ضحكة خليعة ثم انصرفت.

وتبعها الفتى الذي غمز بطرف عينه إليّ وقال:

ـ إذا رجع أبوك قبل أن أعود، فقل له خرج (رام) لأجل العروس!

ولم يعد (رام) في ذلك اليوم إلا بعد أن أوشكت الشمس على الزوال،

ولحسن حظه مكث أبي اليوم بطولِه في حي زوبلون، فلم يدر بغيابه طيلة النهار، ومنعني جُبني من أن أشي به لأبي.

وقضيت ليلتي تلك أتقلّب في فراشي كالمحموم، تطالعني خلجات الفتاة، وهي تَتبسّم في دلال ونظرات عينيها وهي تغضُ الطرف في خضوع، تطاردني صفحة وجهها البيضاء في ظلام أحلامي، وتثير في نفسي صخبًا، فاق أشعار (رام) الماجنة التي يرن صداها في أذني، حتى قمت من نومي منتفضًا، ألهث من جفاف حلقي وأشعر بلهيب في جسدي، رغم شدة الريح في تلك الليلة الباردة من ليالي الخريف.

وفي الصباح، بكّر الفتى في المجيء إلى فناء الدار، وكان أبي لا يزال نائمًا، بينما كنت أجلس أنا فوق المائدة في الفناء أعبث بالإزميل على قطعة من الخشب، وأكتب عليها أحرفًا من اللغة المصرية، وقف (رام) إلى جواري وقال متعجبًا:

ـ أتعرف الكتابة باللغة المصرية؟

أومأت قائلًا:

ـ نعم فأمي مصرية!

رفع حاجبيه معجبًا، ثم قال:

ـ محظوظ!

قلت مازحًا:

ـ لأني أعرف الكتابة، أم لأن أمي مصرية؟!

قال في جدية ممزوجة ببعض الأسى:

ـ بل لأن لك أبوين يُعلِّمانك.

تذكرت أنه يتيم الأبوين فشعرت بالأسف من أجله وسألته:

ـ هل فقدت أبويك صغيرًا؟

قال:

ـ لم أر أبي وماتت أمي وأنا أصغر منك بقليل.

أسِفت بحق من أجله وسألته:

ـ ألك إخوة؟

ضحك ساخرًا وقال:

ـ لي عشرة أخوة من الأب، لو استطاعوا أن يرموني في الجُبِّ مثل يوسف لفعلوا!

ثم أردف جادًا:

ـ ولو علموا أن أباك قد اكتراني لأتوا إليه يلعنونني أمامه!

سألته:

ـ وفي أي حي تسكن؟

قال:

ـ أتسكع بين الأحياء، فلا أهل لي ولا زوجة.

فسألته في سذاجة:

ـ ولماذا لم تتزوج؟

قهقه عاليًا وقال:

ـ وَمَنْ يُزَوِّجُ نجّارًا يتيمًا معدمًا ملعونًا حتى من إخوته؟!

ثم قال في شيء من الفخر:

ـ ولكن يكفيني أني أصبت من النساء ما لم يصبه المتزوجون!

وجدت في نفسي رغبة في الاسترسال في ذلك الحديث رغم احمرار وجهي خجلًا، فقلت:

ـ أتقصد فتاة الأمس؟!

قال ضاحكًا:

ـ ليست وحدها فلي في كل حي عشيقة.

ثم قال في خفوت كمن يسر إلي سرًّا:

ـ ومنهن متزوجات، سئمن من أزواجهن!

تبدل شعوري بالإثارة اشمئزازًا، فقلت:

ـ وماذا يجدن فيك ولا يجدنه في أزواجهن؟!

قهقه مرة أخرى وقال:

ـ ما زلتَ صغيرًا على هذا الحديث، ولكني أسر لك بسرٍّ كي تحفظه عني.

انتبهت حواسي، فقال:

ـ لا شيء يفتن النساء قدر قلب حنون! قد تحتمل المرأة فقرك، وقد تحتمل قبحك، ولكنها لا تحتمل قسوتك!

قلت ساخرًا:

ـ وما دمت تعرف هذا، لماذا لم تتزوج؟

قال ضاحكًا:

ـ قلبي لا يسعه امرأة واحدة، وجسدي لا يطيق قيد الزواج!

قلت متعجبًا:

ـ أما تخشى أن يفتضح أمرك؟!

قال في اعتداد:

ـ لن تفضحني إلا معشوقة علمت بخيانتي لها! وأنا أحوط من أن أقع في هذا الخطأ.

سألته في غير تردد:

ـ أما تخشى الرب؟

قطّب جبينه ثم قال في نبرة شعرت فيها بالسخط:

ـ الرب؟

ثم أردف:

ـ لو كان يعلم بحالي لرأف بي من قبل!

قلت مصدومًا:

ـ ألا تؤمن به؟

نظر إليّ في حدة، وكأنما أثاره كلامي ثم قال:

ـ أومن به، ولكنه لا يلتفت إلى حالي.

قلت مشفقًا:

ـ تشعر بالظلم؟

قال موجوعًا:

ـ أشعر بالقهر.

ثم أردف في مرارة:

ـ الحياة ليست عادلة يا غلام، فمثلي يولد يتيمًا، فقيرًا، مكروهًا من إخوته، ومثلك ينعم بين أبوين يعلمانه ويحنوان عليه.

ثم قال وهو ينصرف إلى عمله:

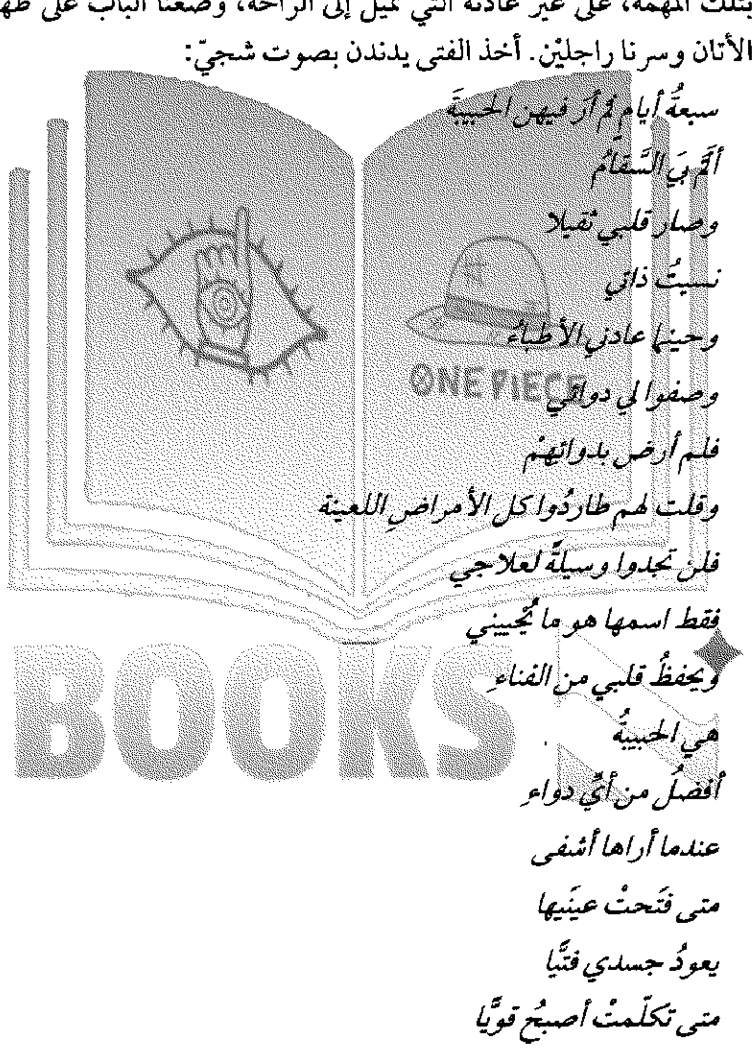
ـ لا تشغل بالك بأمري يا فتى، فهناك أناس في هذه الحياة قد أغفلتهم عين القدر!

ولم يستوعب عقلي مغزى عبارته، ولكن انتابتني منها القشعريرة.

والحق أنني كنت أتذكر دائمًا قصة (رام) على الرغم من كثرة ما مر بنا من أحداث، ليس حنينًا إلى رهق الصبا ولا شوقًا إلى نَزَق الشباب، وإنما لأن قصته جعلتني أتساءل دائمًا عن محبة الرب! فهل يكفي أن نخشى الرب فقط حتى نجتنب نواهيه، أم ينبغي علينا أيضًا أن نحبه؟ والحق أنني شعرت منذ الصغر أن كثيرًا من بني إسرائيل يخشون الرب خشية العبد المُكره على طاعة سيده، تلك

الخشية التي تمتزج بخسة العبد الآبق، الذي يسيء الأدب إذا ما أمن العقاب!

وفي يوم من الأيام، أمر أبي (رام) بأن يحمل بابًا إلى دار في حي يساكر وأن يقوم بتركيبه، وكان ذلك الحي يقع إلى الشمال من النزل بينما كان منزلنا في الجنوب، وأمرني أبي بأن أذهب معه لأعاونه في تركيب الباب، وفرح (رام) بتلك المهمة، على غير عادته التي تميل إلى الراحة، وضعنا الباب على ظهر الأتان وسرنا راجلين. أخذ الفتى يدندن بصوت شجيّ:



سبعةُ أيامٍ لم أرَ فيهن الحبيبةَ
ألمَّ بيَ السَّقامُ
وصار قلبي ثقيلا
نسيتُ ذاتي
وحينما عادني الأطباءُ
وصفوا لي دوائي
فلم أرض بدوائهمْ
وقلتُ لهم طاردُوا كل الأمراضِ اللعينة
فلن تجدوا وسيلةً لعلاجي
فقط اسمها هو ما يُحييني
ويحفظُ قلبي من الفناءِ
هي الحبيبةُ
أفضلُ من أيِّ دواءِ
عندما أراها أشفى
متى فَتحتْ عينَيها
يعودُ جسدي فتيًّا
متى تكلّمتْ أصبحُ قويًّا

متى أضمُّها تطردُ عنّي السّوءَ

ولكنها هجرتني منذ سبعةِ أيامٍ

فدعوني أموت فداء لها

كانت تلك أنشودة حب مصرية يرددها الشباب من بني إسرائيل، وكانت أمي أيضًا تحب أن تترنم بها على أنغام الناي في أوقات فراغها التي تصادف حنينًا إلى الطرب، ولكن إحقاقًا للحق، لم أسمع أحدًا يغنيها بمثل ذلك الصوت الشجي الذي كان يتغنى به (رام).

وصلنا إلى الشرق عند أطراف حي زوبلون، فتوقف (رام) وقال لي:

ـ اسبقني يا (شمعون) إلى حي يساكر وسأتبعك بعد قليل، فإن لي خالة من زوبلون أعطف عليها، وأود أن أعرج على دارها قبل أن أذهب.

قلت له:

ـ هل ستتأخر؟

قال في لهجة لم أصدقها:

ـ كلا سألحق بك سريعا، فقط ضع الباب عند الدار ودُقَّ الأوتاد في الحلق حتى أوافيك.

ثم اتخذ سبيله متسللًا بين ظهور الخيام وكأنه لا يرغب في أن يراه أحد، وسرعان ما اختفى عن ناظري، ترجّلتُ وحدي إلى جوار الأتان في الصحراء حتى جاوزت حي زوبلون، وأنا أردد في صوت خافت «سبعة أيام لم أر فيهن الحبيبة»، محاولًا تقليد صوت (رام) ولكن شتان، فقد كان صوتي يخرج متحشرجًا خشنًا في تلك المرحلة من الصبا وكأنني ضفدع ضل طريقه في الحقل بعدما خرج من النهر.

وبعد أن قطعت شوطًا في الصحراء، تذكرت أنني لا أعلم عن أي البيوت أسأل في حي يساكر؟ ترددت بين خيارين أن أكمل طريقي إلى حي يساكر، أو أن أعود إلى نقطة الافتراق بيني وبين (رام) عند حي زوبلون حتى يسهل علينا

اللقاء مرة أخرى، ففضلت الخيار الثاني، وعدت أدراجي إلى موضع الافتراق، ثم ربطت الأتان إلى جذع نخلة وجلست استظل بظلها حتى يعود (رام).

مر وقت طويل وارتفعت الشمس في السماء، ولم يعد (رام)، انتابني هاجس أن يكون قد خرج من الحي من موضع آخر، أو أن يكون قد سبقني إلى حي يساكر، وأخذ يبحث عني هناك! أضج القلق مجلسي، وقد عصفت بي الظنون، فحسمت أمري ودخلت إلى حي زوبلون أسأل عن دار خالته، كان الوقت وقت ظهيرة، ولم يكن الرجال قد عادوا من أعمالهم بعد، رأيت بعض النسوة يجلسن أمام خيمة من الخيام، فسألتهن عن دار خالة (رام) النجار، فلم يعرفنه، ولم يعرفنها، شعرت بغباء تصرُّفي، فقد كنت كمن يبحث عن المخياط وسط الرمال، وقررت العودة، فسرت في زقاق ضيق بين ظهور الخيام لأصل إلى موضع الأتان، فإذا بي أجد رجلًا من زوبلون قادمًا في مواجهتي، وقد ضاق الزقاق الضيق بجسده الضخم، لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أسأله:

ـ هل تعلم أين دار خالة (رام) النجار؟

وقف الرجل مفكرًا للحظات ثم سألني:

ـ هل هو من سبط زوبلون؟

قلت له:

ـ كلا إنه من بنيامين ولكن خالته من زوبلون!

نظر إليّ الرجل متعجبًا وشعرت دون أن ينطق بسخافة ما أقول فكدت أشكره وأنصرف، لولا أن حدث ما لم أكن أتوقعه ظهر (رام) فجأة وهو يخرج متسللًا من ظهر خيمة من الخيام، ومن فرجة الخيمة وقفت امرأة تودعه بالقبلات فهتفت دون إرادة مني:

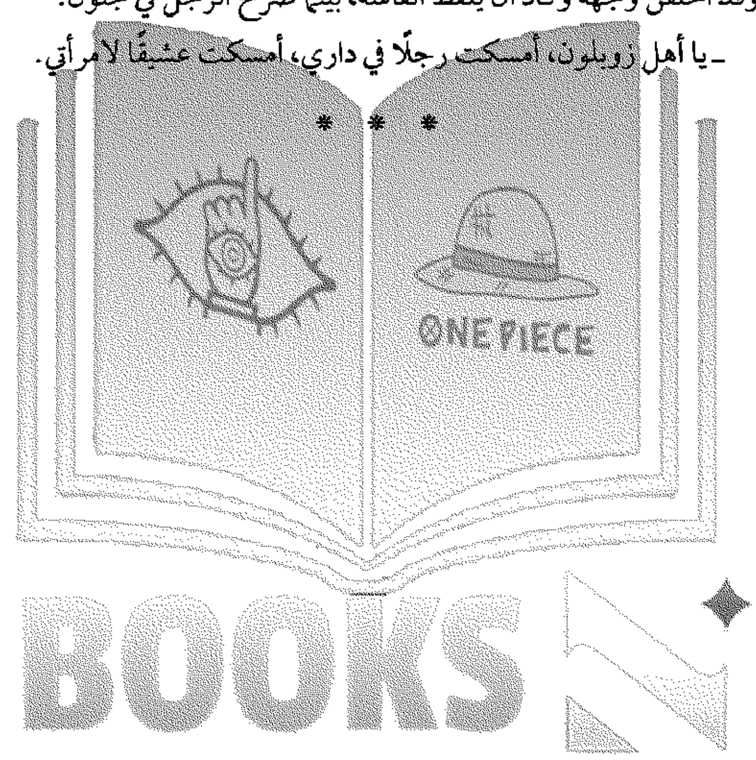
ـ هاهو رام!

صعق (رام) لرؤيتي وقال:

ـ (شمعون)!

ثم وقع بصره على الرجل الضخم، وتجمد بينهما اللَّحظ لثوانٍ، كفأر تعثرت أقدامه في ذيل قط، وقفا يحدقان ببصريهما في بعضهما البعض، وقد أذهلت المصادفة كليهما، وأدرك (رام) حقيقة الموقف، فأراد أن يطلق لساقيه الريح، ولكن ضيق الزقاق لم يسعفه، فكانت يد الرجل الضخم أقرب إلى عنقه، فأحاطه بساعدٍ كالطود، تدلى منه (رام) كالدمية وهو يرفس بقدميه في الهواء، وقد احتقن وجهه وكاد أن يلفظ أنفاسه، بينما صرخ الرجل في جنون:

ـ يا أهل زوبلون، أمسكت رجلًا في داري، أمسكت عشيقًا لامرأتي.



* * *

الورقة السابعة عشرة

كنت أتمنى ألا أستعيد ذكرى ذلك اليوم، ولكن ما الحيلة وقد نقشت أحداثه في عقلي، ولم تفلح السنون في طمسها، وهذا سأرويها لك كما حدثت دون زيادة مني أو نقصان.

أفلح الرجال الذين تجمعوا على صراخ الرجل في تحرير عنق (رام) من قبضته قبل أن يلفظ أنفاسه، وكبلوا يدي (رام) وقدميه وألقوه أرضًا على جانبه كالبعير، وانهالوا عليه بصقًا وصفعا بالنعال، أما المرأة فقد أمسكوا بها ومنعوا عنها زوجها حتى لا يفتك بها.

علم كُل من في النزل بالأمر فأتي الناس من كل حدب وصوب، ووصل الخبر إلى أبي فأتي مهرولًا، وقد أزعجه النبأ المريع وخشي أن يصيبني أذًى في غمرة الزحام والعراك، فلمّا رآني احتضنني، ثم ذهب لكي يلقي نظرة على (رام)، فاستشاط الزوج المخدوع غضبًا وقال:

ـ أليس هذا فتاك يا نجار النزل؟

لم يستطع أبي أن يتكلم، فجاء صوت (بصلئيل بن حور) الحكيم قائلًا:

ـ وما شأن نجار النزل بما فعله فتاه؟!

قال الرجل في جنون:

ـ إذن فلا يدافعن عنه إذا ما ذبحناه في الحي ذبح البعير!

فقال (بصلئيل) في حسم:

- ومن يسمح لك؟!

صمت الناس لحظات احترامًا للشيخ الجليل، فقال (بصلئيل):

- كُفّوا عن أذى الفتى ولا تَمِسّوا المرأة بسوء، فقد اقترفا خطيئة لا يعلم عقوبتها إلا نبي الله، فأتوا بهما إلى خيمة الاجتماع لتسمعوا حكم الرب فيهما.

استحسن الناس كلام (بصلئيل)، وحملوا (رام) الذي انتفخ وجهه، وسالت دماؤه من جراء الضرب والتنكيل، ودفعوه أمامهم مع المرأة التي غطت وجهها بالخمار خزيًا وخجلًا، بينما كان زوجها يرغي ويزبد، ويقول في غضب مجنون:

- وحق الرب لا يهدأ لي بالٌ حتى تُزهق روحاهما، ولإن عفا (موسى) عنهما لقتلتهما بيدي!

وتضاعفت أعداد موكب العار في الطريق إلى خيمة الاجتماع، ورأيت الشماتة في أعين أناسٍ لا يعرفون (رام) ولا المرأة، ولكن جمعهم الفضول والرغبة في معرفة العقاب المرتقب بهذين الخاطئين في أن يخرجوا وراءهما، وأن يصبوا عليهما اللعنات، ويرمونهما بأحط الشتائم، بقلوب قاسية كالحجارة أو هي أشد قسوة.

وتوقف الجمع أمام خيمة الاجتماع، ودخل (بصلئيل) ومعه كبراء القوم من سبط زوبلون وسبط بنيامين إلى الخيمة، بينما مكث إخوة (رام) أمام الخيمة يحقرونه ويلعنونه، ولم ينسوا أن يجددوا براءتهم منه أمام القوم، أما (رام) فقد نكس رأسه أرضًا، وظلت عيناه تدور في محجريهما رعبًا، وبين الفينة والفينة كانت تلتقي نظراتنا فيخفق قلبي هلعًا، وأشعر بالذنب أني قد ساهمت في فضح أمره، ولم يمض وقت طويل حتى خرج علينا (بصلئيل بن حور) بكلام الرب الذي نزل على (موسى)، وتجلى به الوحي على تابوت العهد، قال (بصلئيل):

- اخرجوا بكليهما إلى باب النزل وارجموهما بالحجارة حتى يموتا، تلك

التي زنت في فراش زوجها وهذا الذي وَطِئَ شرف صاحبه، حتى تنزعوا الشرَّ عن بني إسرائيل.

وانهار (رام) باكيًا، وغشي على المرأة، بينما هلل بنو إسرائيل فرحًا، وقال الزوج متشفيًا:

ـ صدق (موسى) فيما جاء به عن ربه.

وحُمِل الاثنان إلى الصحراء، وألقي بهما مُكبَّلَين في حفرة، وتنافس الناس في جمع الحجارة في حماس موصول، وأحاطوا بالحفرة، وأخذوا يتدافعون لرجم المذنبين حتى ينزعوا الشر عن بني إسرائيل، وألقى الرجل الموتور بأول حجر فأصاب رأس (رام) مباشرة وجعله يصرخ متألمًا، ثم توالت الحجارة عليه وعلى المرأة حتى سقطا وقد خمدت أنفاسهما إلا من أنين مكتوم، ولم أحتمل رؤية ما بقي، فقد انهرت باكيًا، وكدت أسقط مغشيًا عليّ فأحاطني أبي بذراعيه، ثم أخذني بعيدًا عن المشهد الدامي ثم أجلسني وأخذ يبكي بحرقة على الفتى المسكين، ورفع يديه إلى السماء وهو يقول:

ـ اللهم اجعل عقابه في الدنيا كفارة له في الآخرة.

* * *

مكثتُ أسابيعَ وشهورًا، ولم يتعافَ جسدي من الهزال الذي ألمَّ به بعدما شاهدت مقتل (رام)، تحيّنت ذكراه الفرصة بعد الأخرى كي تتحرر من خبيئتها في قعر نفسي ثم تطل إلى رأسي في صورة حلمٍ يقض مضجعي، أو شاردة تنزعني من يقظتي أرى فيها (رام) وهو يخوض معي في حديث لوم وعتاب، ينتهي ببكائي بكاءً صامتًا تنسال فيه دموعي، بغير إجهاش ولا نحيب، ونشأ في قلبي خوفٌ من الألم، وخوارٌ من رؤية الدماء حتى وإن كانت لطائر سلوى مذبوح، فكنت إذا رأيت طائرًا يتلوى من الألم وقد انسابت الدماء من عنقه، أتقيأُ ما في جوفي، وتخورُ أوصالي، ويمتقعُ لوني كَمَنْ أشرفَ على الموت.

ورآني أبي على ذلك الحال فوقف ينظر إليّ مشفقًا، بينما كانت أمي ترقُبني

في قلق، أشارت إليه كي يدخل إلى حجرتها وسمعتها تقول:

ـ سأفقد ولدي يا (زخاري).

قال يائسًا:

ـ وماذا عساي أن أفعل يا (رومانا)؟ أتيت له بالصبية، وأمرت (عامير) ألا يفارقه، ولكنه يعزف عن اللهو أو الجلوس معهم.

قالت:

ـ اذهب به إلى خيمة الاجتماع، وقَرِّب من أجله قربانًا، واسأل الكاهن (هارون) أن يدعو له.

فاصطحبني أبي معه في الصباح إلى خيمة الاجتماع وحمل معه قِدْرًا من الزيت، وصاعًا من البُرّ، وسحب خلفه شاةً رمادية اللون، تتقافز في سَيْرها مَرَحًا وهي لا تعلم ما ينتظرها عند المذبح.

استقبلنا كاهنٌ شاب من أبناء (هارون) خارج الفناء، ثم اصطحبنا معه إلى الداخل، قبل أن يتوقف عند مِرْحَضة من النحاس أُقيمت إلى جوار المذبح، وقد امتلأ حوضها بالماء المقدس الذي تتلى عليه الصلوات، خلع الكاهن نعليْه، ثم غسل يديه ورجليه، ومسح على رأسه بالماء، ثم أخذ الزيت والبُرّ من أبي وحملهما إلى داخل المسكن وتركنا للحظات قبل أن يعود وفي يده السكين الذي ستُذبَح به الشاه، ارتجف جسدي لمرأى السكين الذي تلألأ نصله مع ضوء الشمس.

قال الكاهن لأبي:

ـ أهي قُربان للشكر أم للخطيئة؟

قال أبي:

ـ هي رجاء للرب أن يشفي (شمعون) مما أصابه.

قال الكاهن:

ـ ما حلت مصيبة وما ابتُلِيَ إنسانٌ بالمرض إلا بذنب.

ثم دعاني قائلًا:

ـ اقترب يا غلام وضع يدك على رأس الذبيحة واستغفر الرب مما اقترفته يداك.

نظرت إلى أبي، فهز رأسه مشجعًا، فوضعت يدي المرتجفة فوق رأس الشاة التي استلقت على جانبها في هدوء، ثم مَجّدَ الكاهن اسم الرب وابتهل إليه بالغفران، وأنا أردد خلفه ما يقول دون أن أفهم عن أي شيء أطلب الغفران! فالخطيئة، والذنب، وطلب الغفران، كانت كلمات أرددها ولا أفهم معناها، لم أفهم كيف يكون قتل (رام) كفارة له؟ وكيف يكون قتل الشاة قربانًا من أجلي؟

سار الكاهن بالنصل الحاد على عنق الذبيحة، فانبجست الدماء من عروقها، وطال رذاذها وجهي، فلم أشعر إلا والأرض تميد من تحت قدمي، ونور الصباح يستحيل في عيني ظلامًا.

وأفقت من إغمائي لأجدني في حجرتي بالدار وحولي أبي وأمي والعمة (باتشيفا) وصديقي (عامير)، وكانت (باتيا) الصغيرة أول من استقبلته عيناي، فقد كانت تعتلي صدري، وتعبث في أنفي وأذني حتى أفقت، وتعجبت حينما رأيت جدران الحجرة وقد تلطخت بكفوف حمراء من الدماء، وانتثرت في كل ركن من أركانها قطرات من الدماء، وعلمت أن الكاهن قد أمر بذلك حتى يرتفع سخط الرب عن الدار، ففعل أبي ما أُمِر به.

ومكثتُ أيامًا في الحجرة حتى تعافيت، وخرجت من الدار ذات صباح وقد دب في جسدي نشاط، فتناولت صحيفة من صحائف البردي التي كانت تصنعها أمي، وقد اشتاقت نفسي للكتابة، جمعت بعضًا من سخام الحطب وأذبته في الماء ووضعت عليه قطرات من الزيت ومزجته في قارورة، لأصنع منه حبرًا أسودَ كما علمتني أمي، ثم شذبت قلمًا من البوص، غمست طرفه في قارورة الحبر، وكتبت باللغة المصرية على ورقة البردي، وبخط شديد الأناقة «أوراق شمعون المصري»، وكان تلك هي اللفافة الأولى من صفحات السفر الذي تقرءونه بين أيديكم الآن.

* * *

الورقة الثامنة عشرة

وجاء الأمر بالرحيل، فتحرك الركب من حُضَيروت وسرنا في البرية عشر ليال دون توقف، تحُدُّنا من الشرق سلسلة من الجبال والهضاب الشاهقة، حمراء الجُدد، ملساء الصخر، علمنا أن اسمها جبال «سعير»، وهي حقًا أشبه بالسعير، فرغم أن الوقت كان وقت ربيع، ولم يدخل الصيف بعد، فإن قيظ الشمس كان مهولًا، يدنو قرصها من الوادي، ويتلألأ ضوءها على قمم الجبال كلهيبٍ مستعر، ولولا سحابة الغمام التي أظلتنا في ترحالنا، لهلك الناس والأنعام في البرية.

وفي صبيحة اليوم الحادي عشر، أشرقت الشمس على واحة خضراء فسيحة، رأيناها على مرمى البصر كجنة أقيمت فوق ربوة عالية، فطاقت أنفسنا لأن تكون تلك الواحة هي منزلنا التالي في أرض سيناء، ولم يكد الركب يصل إلى أطراف الواحة حتى انقشعت سحابة الغمام التي كانت تظللنا، فعلمنا أن الرب قد اختار لنا تلك الأرض منزلًا.

اسمُها «قادش برنيع» أي «برنيع المقدسة»، وكيف لا توصف بذلك الاسم وقد قدّسها الرب ببركاته، ففجر فيها أربع عيون جارية، يتهادى منهن الماء عذبًا رقراقًا من بين صخور الجبال، ليسير في جداول صغيرة، تخترق جنات من النخيل والأشجار، سمعنا فيها زقزقات العصافير لأول مرة منذ خرجنا إلى سين، سار الركب على أرض الواحة التي اكتست عشبًا، تظللنا أفنان الأشجار المتشابكة، ويحف بنا هدوء الجنة العذراء التي لم تطؤها ـفيها يبدوـ

قدم بشر من قبل، فسار الجمع في خشوع، لا يُسمَع فيه إلا أصوات حوافر الخيل وخِفاف النوق.

أناخ أبي الناقة، فهبطت أمي والعمة (باتشيفا)، ومعهما باتيا الصغيرة، وسِرن إلى جوار أبي في رهبة وانبهار.

قالت أمي مشدوهة وقد أخذها مشهد عصفور ملوّن يضرب بجناحيه في الهواء ويطوف بين أفرع الأشجار:

ـ حقًّا يا (زخاري) إن للجَمال لرهبة!

همس مغتبطًا:

ـ بل هي بشائر الأرض المقدسة تلوح في الأفق يا (رومانا)!

قالت عمتي (باتشيفا) وقد أُخِذت بجلال المشهد:

ـ هل اقتربنا من الأرض المقدسة يا (زخاري)؟

قال أبي:

ـ ليس بعد يا (باتشيفا) ولكنّا تركنا الصحراء إلى الأبد، وعما قريب تطأُ أقدامنا الأرض التي مشى عليها آباؤنا (إبراهيم) و(إسحق) و(يعقوب).

رأيناها تبكي، فربتت أمي على كتفها في إشفاق، فلم تلبث أن مسحت دموعها، والتفتت نحو الصحراء قائلة:

ـ لعنة الله على تلك الصحراء، لم نر فيها خيرًا قط، أخذت منا ولم تعطِ!

ثم أجهشت في البكاء مرة أخرى فاحتضنها أبي وقال:

ـ هوني عليك يا أختاه! فغدًا يذكرنا الناس في صلواتهم، ويقدسنا أحفادنا ويقولون هؤلاء من خرجوا مع نبيهم، ووعدهم ربهم فأوفى بوعده لهم.

سألت أبي:

ـ كيف ترك الناس تلك الواحة بلا سكنى؟!

قال:

ـ لعل الرب أرشد نبيه إلى هذا المنزل كي تشتاق نفوس الناس إلى الأرض المقدسة!

ثم حطت الرحال، وكان أول بيت أقيم في النزل الجديد هو بيت الرب، انهمك الرجال في نصب خيمة الاجتماع والمسكن وإقامة المذبح، وبعد أن صلى بنا نبي الله (موسى) صلاة الشكر، جلس إلى رؤساء العشائر يُقسِّم بينهم أرض الواحة، فجاء نصيب سبط رأوبين إلى جوار عين ماء صافيه اسمها «عين جُديرات»، وجاء نصيب أبي من الأرض مساحة صغيرة لا يزيد طولها وعرضها عن عشر أذرع، تتوسطها شجرة سنط عالية، فقام أبي بمعاونتي ومعاونة (عامير) بقطع شجرة السنط، ثم شرعنا في بناء دار من طابقين يفصلهما سقفٌ من ألواح الخشب، أعددناه من شجرة السنط، ويصل إلى طابقها العلوي سلم خشبي أقامه أبي خارج الجدار، واخترت أن تكون حجرتي مع (عامير) في الطابق العلوي، وكنت كثيرًا ما أجلس في حجرتي المرتفعة، اتطلع من خلال نافذتها إلى ساحة الحي وأرى منها خيمة الرب، فيصفو عقلي لمرآها، وأمكث ساعات أكتب فيها أوراقي، وأدون ذكرياتي عن الخروج.

وأثارت الطبيعة الخصبة حنين أمي إلى النباتات التى كانت تزرعها فى مصر، فأخذت بعض حبات من الفول أحضرتها معها من مصر وكانت تنوي زراعتها فى الأرض المقدسة، فلما رأت خصوبة الأرض حولها، بذرَت بعضًا منها فى حوضٍ من الطين حرثته أمام الدار ثم سوّرته بقطع من الحجارة حتى لا تطأه أقدامنا. وكانت تُحضِر له الماء من البئر لترويه، ولم تمض بضعة أسابيع حتى ارتفعت شجيرات الفول عن الأرض، ثم لم تلبث أن أثمرت قرونا خضراء ذات بهجة بها بذور منتفخة ذات طعم محبب، أكلَت منها العمة (باتشيفا)، فهزت رأسها طربًا وهي تستطيب مذاقها وتقول:

ـ لم أفتقد من مصر سوى عَدَسِها وفولها.

أكملت أمي وهي تنزع بأصابعها القشرة عن حبات الفول وتلقفها في فمها في تلذذ:

-بل فولي وثومها وبصلها وقِثّاؤها، وهل تُخرِج الأرض فى مصر إلا أطيب الطعام؟

ضحك أبي وقال:

أفلا زرعت لنا يا (رومانا) حوضًا من البصل حتى يتقاتل عليه بنو إسرائيل؟

قالت متحسرة:

-ليتني أملك له بذورًا!

ضحكنا وقال أبي مكررًا جملته الأثيرة دون أن يمل:

-حينما تتذوقون عسل الأرض المقدسة ستنسون بصلَ مصر وثومها.

ومرت الشهور، وانحسر نهار الصيف مؤذنًا بقرب الخريف، واستيقظنا ذات صباح على صوت البوق، فارتج الحي لنفيره، وسرعان ما ارتفع صوت الجلبة ودبّ النشاط في النزل، كنت أنام إلى جوار (عامير) حينما طرق مسامعي صوت النفير، فقمت من سريري مسرعًا ونظرت عبر النافذة فرأيت الرجال يتوافدون إلى ساحة الحي، ورأيت أبي يخرج مسرعًا وهو يكمل ارتداء ثوبه في الطريق، ناديته فقال دون أن ينظر نحوي:

-أيقِظ (عامير)، واتْبَعَانِي إلى ساحة النزل، فنبي الله يجمع الرجال والشباب لأمرٍ جلل.

أيقظتُ (عامير) بِدَفعة من قدمي كما اعتدت على ذلك دائمًا، فقد كان نومُه ثقيلًا، فاستيقظ فزعًا غاضبًا، وقبل أن يسُبّني قلت له:

-أسرع فقد دق النفير ونبي الله يجمع الناس لأمر جلل!

فرَكَ عينيه ثم أدخل قدميه في نعل، وهرول خلفي قافزًا درجات السلم الخشبي في خطوتين، ولم تمض لحظات حتى كان بنو إسرائيل يملئون ساحة النزل، وعرقُ الليل لا يزال يختلط بأجسادهم، واحمرار النوم لم يذهب بعد من عيونهم، تساءل الجميع عن سبب الدعوة، ولكن يبدو أن أحدًا منهم لم تكن عنده الإجابة، فتوجهت العيون تلقاء الخيمة في انتظار خروج الكليم.

ومضى وقت قصير قبل أن يخرج الكليم من الخيمة وخلفه سار الشاب (يوشع)، والكاهن الأكبر (هارون)، وبعض الرجال من رؤساء العشائر، صعد (موسى) إلى صخرة عالية حتى يراه الناس، ثم مجّد الرب وقدّس أسماءه، ثم نادى في الناس قائلًا:

ـ أيها الناس! قد وعدكم الرب الأرض المقدسة، وها قد صرتم على أبوابها، لا يفصِلنَّكم عنها إلا قليل، أيُّها الناس قد أمر الرب بأن تصنعوا له جيشًا، تقاتلون لأجله، وتتقدسون باسمه، فيضرب بأيديكم على رقاب أعدائكم، ويكن معكم أينما صعدتم في البرية، حتى يعلم الناس أن الرب إله إسرائيل، قد تمجّد في السماء والأرض، وأنه قد صار له جيشٌ عظيمٌ يُرهِب به ملوك الأرض في كل الممالك.

صمت لحظات وقلوب الناس تقرع في فزع وأعينهم تدور من الخوف ثم قال:

ـ هكذا قال السيد الرب كل من جاوز العشرين من عمره من الرجال يكن جنديًا في جيش الرب، يحمل سيفًا أو ترسًا أو رمحًا، ويقاتل باسم الرب حتى يتمجد اسمه أو يهلك دون ذلك!

عم الصمت بعدما فرغ من حديثه، ورأيت شبح الخوف يطوف على الناس ويمس بأنامله قلوب الرجال، فبُهِتت الوجوه وانعقدت الألسنة، ولم يفق الناس من الصدمة إلا على صوت رجل من سبط يساكر يقول:

ـ وهل نعلم قتالًا يا (موسى)؟!!

قال (موسى)، وقد بدا أنه أعد العدة لهذا السؤال:

ـ غدًا يخرج الذين كُتِب عليهم القتال إلى أطراف الواحة، وليأت كل رجل منهم بفرس أو رمح أو سيف، ومن كانت له فأس أو ترس فليأت بهما، ثم أشار إلى الرجال من خلفه قائلًا:

ـ هؤلاء هم قادة جيش الرب، منهم تتعلمون الرمي والطعن، ويد الرب فوق أيديكم.

وانفض الجمع، وعدنا في اتجاه الدار، وفي الطريق رأيت أبي يخطو في سرعة وقد لمعت عيناه فرحًا، أسرعنا خلفه أنا و(عامير) حتى حاذيناه، ثم قال (عامير) وهو يلهث:

ـ أما يجوز لي يا عماه أن أكون في جيش الرب؟

ابتسم أبي قائلًا:

ـ كم عمرك الآن يا فتى؟

مط شفتيه وقال:

ـ لا أدري لعلي قد اقتربت من العشرين أو أكبر قليلًا؟

نظرت إليه متشككًا وقلت محتجًا:

ـ وهل تكبرني بخمس سنوات؟!

وقد كنت حينها في الخامسة عشرة! لكزني بكوعه في جانبي حتى اصمت، فضحك أبي وقال:

ـ لا تتعجل يا بني، إنما هو أمر الرب، وسيأتي يوم قريب تكونان فيه في جيش الرب.

وعند الظهيرة جمعنا وقت الغداء، كانت أمي تضع أطباق الطعام على الأرض ويبدو على عقلها الشرود، بينما كانت العمة (باتشيفا)، تصفف شعر (باتيا) بشيء من العنف جعل الفتاة تتذمر، وتحاول النهوض المرة بعد الأخرى، ولكنها لم تستطع أن تفلت من يد العمة التي أمسكت بشعرها الطويل في قوة، لاحظ أبي شرود أمي، ويبدو أن العمة (باتشيفا) قد لاحظته أيضًا ولكنها فهمت السر وراءه، فقالت لأبي:

ـ ألم يعدنا (موسى) الأرض دون حرب؟ إذن فلِمَ يدعُو الآن إلى جيش الرب؟

قال أبي:

ـ وهل تُمنَح الجنة بغير ابتلاء يا (باتشيفا)؟!

ألقت بالمشط ثم عقَصت شعر (باتيا) وهي تقول:

ـ وهل بنو إسرائيل رجال حرب يا (زخاري)؟!

تنهد قائلًا:

ـ ما دام الرب معنا فلا خوف علينا يا (باتشيفا)، ألم يحارب بنو إسرائيل العماليق في «رفيديم» وهزموهم بإذن الله؟!

أفلتت (باتيا) من بين يديها بعد أن فرغت من تصفيفها ثم قالت في حدة:

ـ لا تتغابى يا (زخاري)، وهل قتال قطاع الطرق كقتال جيش الكنعانيين؟!

ثم أردفت في مزيد من الحدة:

ـ وهل نسيت ما حدث لـ(أشكول) في «رفيديم»؟

لم تستطع أمي أن تتحمل المزيد من الكلمات التي تفضح ما يحيك في صدرها من خوف، فألقت بالطبق الأخير، وجاشت عيونها بالدمع وهي تهرول خارجة إلى الفناء الخلفي للدار.

وغضب أبي من كلمات عمتي فقال ناهرًا:

ـ ألن تكفي عن ذلك يا (باتشيفا)؟ ماذا عساي أن أفعل؟! هل أهرب بليلٍ من الواحة كما هربت أنت من قبل مع (الشامري) من «رفيديم»؟

صدمتها كلماته، وكانت تلك المرة الوحيدة التي أرى فيها أبي يذكر (الشامري) بسوء منذ فقدناه في حوريب، ولم تجد العمة ردًّا سوى ترك الحجرة وهي تقول باكية:

ـ قطيعة بيني وبينك يا (زخاري)! لا أخاطبك بلساني حتى أموت!

رأيت الغضب والبؤس على وجه أبي، فترك الطعام هو الآخر، ودلف إلى غرفته، وعند المساء كنت أجلس إلى جوار النافذة أخط بقلمي في صفحات السفر الذي تزايدت أوراقه، وقد انعكس ضوء القمر الذي اكتمل بدرًا عليها،

وبينما كنت كذلك سمعت صوت نحيب خافت يأتي من جهة الباب الأمامي للبيت، أطللت برأسي فوجدت أمي تجلس وحدها على عتبة الدار، ثم لم يلبث أبي أن خرج من الباب وجلس إلى جوارها، ربت على كتفها ثم ضمها إلى صدره وهو يقول:

ـ ما ظننتك تفرقين لأمر الحرب هكذا يا أم (شمعون)؟! هوني عليك يا (رومانا)، فلقد وعدنا الرب بالنصر كما وعدنا بالأرض؟

هزت رأسها باكية:

ـ ما خرجت لأجل الأرض يا (زخاري)! بل خرجت لأجلك أنت، فماذا عساي أن أفعل بأرض لست فيها؟!

ضمها إلى صدره أكثر وقال:

ـ تتحدثين وكأنك تنعيني يا (رومانا)!

بكت أكثر وقالت:

ـ حفظك الله لنا ولكني عاتبة على ربي!

نظر إليها معاتبًا، فقالت:

ـ لِمَ كَتَبَ علينا القتال؟! أما آن لنا أن نرتاح مما لاقيناه من شقاء، وننعم قليلًا بعد الجهد.

قال في يقين:

ـ تلك تربية الرب لنا يا (رومانا) حتى تنال جائزته!

ثم ربت على كتفها قائلًا:

ـ استغفري الله يا (رومانا)، وتفاءلي خيرًا بوعده.

نكست رأسها، وهي تمسح دموعها، ثم تمتمت:

ـ أستغفر الله.

فأمسك أبي بيدها ثم دخلا إلى الدار، وسرحت بخيالي في أمر بني إسرائيل،

وتعجبت من كثرة ما يتعرض له ذلك الشعب من بلاء واختبار، وألح في عقلي سؤال، هل كثرة البلاء ستُدخِل الناس إلى حظيرة الإيمان، أم ستخرجهم منها إلى التمرد والعصيان؟

* * *

وأقيم معسكر جيش الرب في الصحراء المتآخمة للواحة، نصبت خيام المعسكر على الجانبين، وتركت الساحة خالية للكر والفر والتدريب على القتال، ارتدى الرجال سترات الحرب وأغطية الرأس، وتمنطقوا بالسيوف التي صنعت في مخيم كبير أقيم في طرف المعسكر، صكت فيه الدروع والسيوف، وسائر سرابيل الحرب.

كنت أخرج في كل صباح مع (عامر)، فنصعد إلى ربوة عالية تشرف على أرض المعسكر، ثم نركن إلى صخرة نستظل بظلها، لنشهد مهارات الرجال في المبارزة وركوب الخيل، وكان (عامر) مفتونًا بقوة نبي الله (موسى)، الذي كان يقف في ساحة المعسكر بلا ترس ولا غطاء رأس، يقاتل بيديه العاريتين العصبة من الرجال فيصرعهم دون مشقة أو عناء، وكان (عامر) يتمتم مذهولًا ويقول:

ـ ليتني حظيت بعُشرِ قوة (موسى)!

فكنت أسخر منه قائلًا:

ـ لن تحظى بِذرَّةٍ منها، فهو نبيٌ مؤيدٌ بقوة السماء.

أما أنا فقد كنت مفتونًا بمهارة (يوشع بن نون)، ذلك الفتى الذي قاد جيش بني إسرائيل من قبل في حرب العماليق، وهاهو يعد جيش الرب للدخول إلى الأرض المقدسة، وكأنه ولد ليكون قائدًا، كان (يوشع) فارع الطول ممشوق القوام تبدو عضلات عضديه وساقيه في ردائه القصير كجدائل قدت من الصخر، ينساب جسده يمنة ويسرة عند القتال في رشاقة الفهد، ثم ينقض في قوة الليث على غريمه فيصرعه في لحظات، وكنت أتعجب حين أراه على صهوة جواده، كيف يطاوعه فرسه فيصنع له ما يشاء؟ حتى ظننت أنه سيحلق

به ذات يوم إلى السماء، إن أمره (يوشع) بذلك!

ومثلما رأيت في (يوشع) البطل الخيالي الذي تهفو إليه قلوب الفتيان في مرحلة الصبا، رأيت في أبي قدوةً تحمل في طياتها كل معاني الرجولة مجتمعة دون خلل أو نقصان، ولعل في حياة كل منا مرحلة تتبدل فيها المشاعر نحو الآباء من النفور والضجر إلى الفخر والإعجاب، وأكاد أجزم أنني قد بدأت تلك المرحلة مبكرًا في تلك الأيام، فقد رأيت النجار (زخاري) وقد تبدل به الحال، وأصبح جنديًّا مطيعًا في جيش الرب يتدرب يوميًّا على القتال، دون كلل أو ملل، يصقل مواهبه في الرمي والتسديد في غير أوقات التدريب، حتى صار أبرع بني إسرائيل في رمي السهام، ورأى (يوشع) بعينيه الخبيرتين تلك المهارة في التسديد التي حَظِيَ بها أبي، فعهد إليه بتدريب فريق من بني إسرائيل على رمي السهام، ثم جعله قائدًا لفرقة الرماة في جيش الرب، وعاد أبي في ذلك اليوم الذي اختاره فيه (يوشع) قائدًا لفرقة الرماة إلى منزلنا وهو يرقص فرحًا، يزف إلى أمي البشرى، فما كان منها إلا أن بكت وهي تقول:

ـ ما وددت أن أراك جنديًّا، فعدت إلي قائدًا لفرقة!

ومرت الأيام والشهور وجيش الرب يزداد يومًا بعد يوم قوة في التسليح، وثقة في النصر، والفضل في ذلك كله كان يرجع إلى الشباب من بني إسرائيل الذين أشعلوا قلوب الناس حماسة، وفتحوا لهم أبواب الأمل على مصراعيها، فكانوا يمشون بين الناس وقد علت وجوههم نضرة الطمأنينة، يتحدثون في يقين عن قرب النصر، والوصول إلى أرض الميعاد.

وفي صبيحة اليوم الثاني من الشهر الثاني للسنة العاشرة من الخروج، جمع (موسى) من كل سبط من الأسباط رجلًا، اختاره بعناية، ثم أمر الرجال بأن يتنكروا في زي تجار من الأعراب، وأن يصعدوا إلى الأرض المقدسة، فيتحسسوا فيها عن كل شيء صغيره وكبيره، وقال لهم:

ـ انظروا إلى أرض كنعان وإلى الشعب الساكن فيها، خذوا من كل مدينة ثمرة، ومن كل أرض حفنة من التراب، حتى يعلم بنو إسرائيل أن الرب قد

وعدهم الجنة في أرضه، لا تغفلوا عن حصن ولا سور، وكل ما ترونه من أهلها فاحفظوه، واعلموا أنكم نقباء الرب ورؤساء بني إسرائيل، قد اختصكم بذلك الفضل وحدكم، أربعون يومًا وليلة، تعودون بعدها إلى الشعب الرابض في قادش، فتنفخون الأبواق، وتدقون الطبول، ثم تسيرون على بركة الله حتى تطأوا أرض آبائكم (إبرام) و(إسحق) و(يعقوب).

وتحرك النقباء الاثنا عشر وقد تنكروا في ملابس بدو من الصحراء، وساروا في قافلة صغيرة بها بعض العير، تحمل بضاعة مزجاة من العوسج والتين وأثواب من قماش الكتان السميك الذي تصنع منه الخيام، وكان في مقدمة القافلة الشاب (يوشع بن نون)، وصديقه (كالب بن يفنه) من سبط يهوذا، وكان من بين الرجال رجل من سبط رأوبين يدعى (شَمّوع بن ذَكّور) كان ممن علّموا أبي القراءة والكتابة، وكان حينها في الستين من عمره، كث الحاجبين، تتدلى شعيرات حاجبيه حتى يوشكن أن يلامسن رموشه، ولكنه رغم ذلك كان صحيح البنيان شديد الجلد، اختاره (موسى) لأنه كثير التأمل والتفكير، لا يكثر الكلام ويقوم بتدوين ما يجول في خاطره أو يراه في رقاع من البردي، ولقد استبشر أبي خيرًا بخروج (شَمّوع) وقال وهو يودعه معانقًا:

ـ استبشرت خيرًا بخروجك يا مُعلمي، فسترى بعينيك ما لا يراه الآخرون!

فارتسمت ابتسامة رائقة على شفتيه، وربت على كتف أبي قائلًا:

ـ وإن منحني الرب عمرًا بعد أن أعود سأكتب ما رأيته، حتى يقرأه ولدك النابغة (شمعون)!

فنظر أبي نحوي مفتخرًا ومسح على رأسي قائلًا:

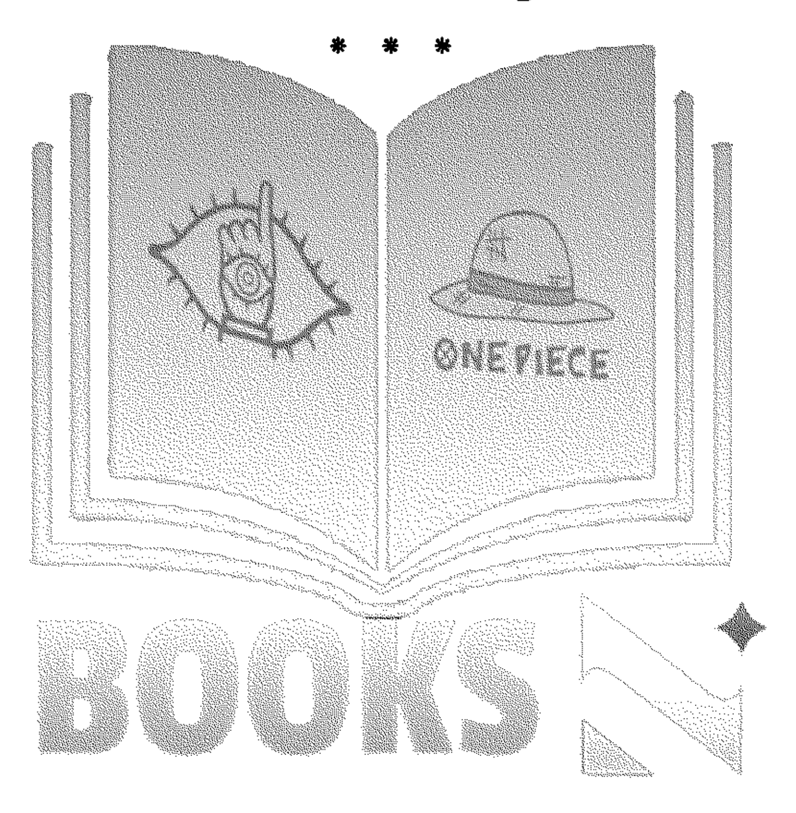
ـ حقٌّ لك أن تفتخر يا ابن (رومانا)! هذه شهادة لك ممن علم أباك القراءة والكتابة.

والحق أن ما سأرويه في السطور القادمة، إنما هي أوراق (شَمّوع بن ذَكّور) التي كتبها في تلك الرحلة، وقد قدر لي أن أطلع عليها في أيام لاحقة، حين تركها لي ومعها رسالة مكتوب فيها:

«تلك هي شهادتي على الرحلة المشئومة، اتركها لـ(شمعون بن زخاري)، كي يرويها على الأجيال القادمة حتى تعلم كيف ضَيّع السفهاءُ من مشايخ بني إسرائيل حلم جيل بأكمله، ظنوا بأنفسهم الحكمة وحسن التدبير، فأورثوا أبناءهم الخزي والعار ومرارة التيه».

وإليك ما كتبه «شَمّوع بن ذَكّور»

* * *



الورقة التاسعة عشرة

«بسم الرب إيل، المتجبر باسمه إلوهيم، واهب الحياة باسمه يهوه»

وبعد فهذا ما كتبه (شموع بن ذكور) عن بعثة النقباء الاثني عشر إلى الأرض المقدسة، التي وقعت في اليوم التاسع من أيار لسنة ثماني من الخروج:

* اليوم الثالث من البعثة:

«تركنا قادش برنيع ثم اجتزنا جزءًا من البرية في يومين، حتى وصلنا إلى «تل عِراد»، التل يشرف على الصحراء من كل جانب، وأقام فوقه الكنعانيون حصنًا هزيلًا لا تقفل أبوابه إلا ليلًا، هنا تلتقي القوافل المتجهة إلى الشرق أو الجنوب، قابلتنا قافلة ضخمة يفوق عدد نوقها الألف ناقة وتسير جنوبًا في اتجاه أرض العرب، علمنا أنها قافلة لقبيلة جُرهم العربية، تحدث (يوشع) إلى قائد القافلة، وسأله عن الطريق إلى مدينة «بيت إيل» فعلم أنها تقع على بعد ثلاثة أيام»

* اليوم السادس من البعثة:

«وصلنا إلى نهاية الطريق الصاعد قبل الغروب، رأينا مدينة «بيت إيل» في الأفق، تتدرج تلالها كالسلالم ويقام على كل تل سور ضخم من الحجارة، جعل المدينة كلها تبدو كقلعة حصينة، وصلنا إلى البوابة الأولى، فخرج إلينا الحراس، وفحصوا متاعنا بدقة، ويبدو من دقة التفتيش أن الكنعانيين لا يثقون

كثيرًا في الأعراب القادمين من الصحراء»

* اليوم التاسع من البعثة:

«تفرقنا بالأمس إلى أربعة مجموعات، أمرنا (يوشع) بأن نتحدث إلى السكان دون أن نكشف عن هويتنا، وأن نشتري ثمارًا من الأسواق نحتفظ بها لحين عودتنا إلى سين، المدينة تبدو غنية، ونظيفة، وتكتظ بالغرباء من اليبوسيين والحيثيين والإدوميين، سألت بائعة فطائر وأنا ابتاع منها شطيرة محلاة بالعسل عن مكان للعبادة، فوصفت لي مكانًا على بعد عدة شوارع، قالت لي إن اسمه «مذبح إبرام»، خفق قلبي للاسم، فقد كنت أعلم أن أبانا (إبرام) أقام مذبحًا للرب في بيت إيل وهو المكان الذي وعده فيه الرب بذرية عظيمة تمتلك الأرض كلها من بعده.

وصلنا إلى المذبح فوجدنا زحامًا شديدًا وأناسًا يقفون في صف طويل، وفي مقدمة الصف كان يقف أحد الكهنة بالموسي، وحين يصل الواقف في أول الصف إلى موضع الكاهن ينحني ويطأطئ رأسه في خضوع أمام الكاهن، فيمر الكاهن على رأسه بالشفرة الحادة ليزيل عنه الشعر من الجذور، تاركًا جلد رأسه أبيض داميًا تتقاطع فيها الجروح والندبات من أثر الموسي.

علمنا أن ذلك الصف هو صف الخطيئة، وأن هؤلاء الناس يكفرون عن خطاياهم بحلق رءوسهم تمامًا، أمرنا أحد الكهنة بأن ننضم إلى الصف، ولكننا شكرناه وانصرفنا، وبينما كنت أستدير مغادرًا رأيت تمثالًا ينتصب فوق سور المذبح ويشرف على الساحة التي أمامه، كان تمثالًا ضخمًا قبيحًا على هيئة إنسان مصنوع من العقيق الأحمر، يتلألأ وجهه بضوء المشاعل من حوله وكأنه شيطان فيثير الرهبة في القلوب، سمعنا بعض الأحباش يهتفون له قائلين:

ـ هو ـ بل! هو ـ بل!

سألني (شافاط):

ـ ماذا يقولون؟

قلت:

ـ يقولون يا بعل، يا بعل.

ثم انصرفنا وأنا أرغب في البكاء بعد أن رأيت مذبح أبينا (إبرام)، وقد دنسه الكنعانيون بالأوثان، وبتمثال الإله بعل»

* اليوم الحادي عشر من البعثة:

«كاد أمرنا أن ينكشف، خالف (فلطي) من سبط بنيامين أوامر (يوشع)، وأفصح عن هويته رغمًا عنه، كان (فلطي) يتجاذب أطراف الحديث مع أحد الرجال مدعيًا أنه تاجر من مصر، وكان الرجل يجيب على أسئلة (فلطي) بأريحية وسعة صدر، ولكنه كان يدس بين عباراته، أسئلة يريد أن يستنبط بها حقيقة (فلطي)، وبينما كان (فلطي) يسير إلى جواره دعاه الرجل إلى مشاركته الاستجمام في مغطس أقيم في منتصف المدينة لراحة الأثرياء، فوافق (فلطي) ونزل إلى المغطس الدافئ عاريًا إلا من إزار يستر عورته، وظل الرجل الثري يتحدث عن كنعان وبيت إيل إلى أن فاجأ (فلطي) بقوله:

ـ هل يختتن الرجال في مصر؟

فأسقط في يد (فلطي) وقد ظن أن الرجل قد كشف عورته فقال مسرعًا:

ـ نعم، نعم، بعضهم يختتنون!

علت وجه الرجل ابتسامة صفراء ماكرة وقال:

ـ عجبًا إن لي جارية مصرية أخبرتني غير ذلك!

فظن (فلطي) أن الرجل قد كشف أمره وقفز مسرعًا من المغطس، ولكن حراسًا أحالوا بينه وبين الخروج، وتبين له حينئذ أن الرجل الثري الذي شاركه المغطس هو صاحب الشرطة في بيت إيل!

وكان صاحب الشرطة يظن أن (فلطي) جاسوس من الموآبيِّين لولا أن أفصح (فلطي) له ببعض الحقيقة وأخبره أنه صعلوك من العبرانيين تنكر في زي تاجر حتى يحظى ببعض القربى والمال من الأثرياء، فصدق صاحب

الشرطة روايته، خصوصًا بعدما أكد له رجاله أن الرجل ليس موآبيًّا، فأمر بمصادرة أموال (فلطي)، وطرده من بيت أيل»

* اليوم الخامس عشر من البعثة:

«وصلنا إلى شكيم، والتي تعني في لغة أهل كنعان المنكب، أقيمت على أرض مرتفعة تفصل بين واديين وكأنها تحمل المدينة وقلعتها على منكبيها، كان سورها الضخم يلقي الرهبة في القلوب، تحدثنا لأول مرة في وجل عن حصون أرض كنعان، وتساءلنا عن كيفية اختراقها إذا ما قامت حرب، فقال (يوشع):

ـ بكثير من الإيمان وقليل من المكر، تسقط أعتى الحصون!

وأمرنا (يوشع) هذه المرة أن ندخل شكيم فرادى، حتى لا نثير الريبة في النفوس، على أن نلتقي عند صباح اليوم التالي خارج أسوار المدينة، وشدد علينا أن نحفظ مداخل المدينة ومخارجها، ومواضع الأبراج والحراس فيها، وقال في حماسة:

ـ إذا سقطت شكيم، سقطت أرض كنعان.

سرت منفردًا في الطرقات، أتطلع بطرف عيني إلى كل حامية، وأكتب عدد الحراس فيها وأرسم مداخلها ومخارجها في ورقة دسستها بين طيات ملابسي حتى لا يراها أحد، فلقد رأيت في شكيم جنودًا أكثر مما رأيت من أهالي البلدة، وظللت على ذلك الحال حتى جن الليل، واكتشفت أنني لم أدبر مكانًا للمبيت، وأن العثور على نزل في المساء سيكون دربًا من المستحيل، فعرجت إلى حانة في زقاق ضيق، سطعت أنفي رائحةُ خمرها قبل أن أرى أنوارها، كانت الحانة شبه فارغة إلا من اثنين من السكارى، لعبت الخمر برأس أحدهما فظل يهذي بصوت مرتفع، بينما قضت على عقل الآخر فألقته في ركن الحانة جثة هامدة إلا من صدر يعلو ويهبط وشخير ترتج له الحانة الخشبية، نظر إليّ صاحب الحانة وكأنه يسألني مطلبي من الخمر، فأشرت إليه شاكرًا، واستأذنته فقط في المبيت مقابل مال، وقبل أن يعترض أخرجت قطعة من الذهب، أدارت

عقله أكثر من رائحة الخمر، فأشار إلى صوان في ركن الحانة وضِع عليه فرش مترب، وقال:

ـ يمكنك المبيت هنا حتى الصباح، ثم التقف مني قطعة الذهب في لهفة.

كان جسدي متعبًا، وتمنيت أن أهنأ بنوم هادئ، ولكن الرجل السكران ظل يهذي بصوت مرتفع وقال موجهًا كلامه نحوي:

ـ اختبئ أيها الغريب، وتدثر بالغطاء جيدًا ولا تمعن النظر في الظلام، حتى لا تخطفك أشباح «بني عناق»!!

ثم ضحك ضحكة مجلجلة كمن يحاكي ضحكات الأشباح، ونشب أصابعه في الهواء كالمخالب.

ورغم علمي أن الرجل ذاهب العقل، وأنه يهذي كالمجنون، فإن رعدة خفيفة سرت في أوصالي ووددت لو سألته عن «بني عناق»، ولكني آثرت النوم فأدرت وجهي نحو الجدار ونمت حتى الصباح!»

* اليوم السادس عشر من البعثة:

«التقينا عند الصباح خارج أسوار شكيم، كان أول من وصل (يوشع بن نون) ثم (كالب بن يفنه) ثم أنا، سألاني بلهفة عما رأيت فأخبرتهم عن كل شيء، أعطيت ليوشع الورقة التي رسمت فيها مداخل ومخارج الحاميات، فقبل رأسي قائلًا:

ـ حمدًا للرب أن خرج معنا رجل مثلك يا فخر رأوبين.

ولم تمض لحظات حتى أتى باقي النقباء معًا، وكأنما التقوا في مكان آخر قبل أن يفدوا إلينا، لم تبد على وجوههم علامات الخير، سألهم (يوشع) عما رأوه، فقال معظمهم:

ـ إن المدينة حصينة لا يمكننا أن نخترق أسوارها، الجنود في الشوارع أكثر من الناس في البيوت، تلك الأرض تأكل أهلها، فكيف تصنع بالغرباء والمعتدين؟

كان كلامهم يبعث على الإحباط، وأراد (يوشع) ألا تسود روح التشاؤم فيما بينهم فقال:

ـ قد حصرنا الأبواب وعدد الجنود، ورسم لنا (شموع) مداخل ومخارج الحاميات، وسندبر مع نبي الله كيفية اقتحام الأسوار.

ولكن محاولته تلك باءت بالفشل أمام كلمات (شافاط بن حوري) التي جاءت كلطمة على وجه الجميع وهو يقول:

ـ وماذا ستفعلون مع بني عناق؟!!

تذكرت كلمات الرجل السكران في الحانة، وانتابتني نفس الرعدة، فسأله (يوشع):

ـ من هؤلاء؟!

قال الرجل في رجفة حقيقية:

ـ هؤلاء هم الجبابرة رأيتهم قبل الغروب عند السور الجنوبي للمدينة، يدلفون من الأبواب الخلفية، رجال طوال ضخام، يبدو الرجل منا إلى جوار الواحد منهم كالجرادة، يرتدون السواد كالأشباح، ويحمل الواحد منهم درعًا كباب الحصن!

ارتجفت قلوب الرجال، واستنكر (يوشع) كلام (شافاط)، فقال معترضًا:

ـ لقد فحصت المدينة شبرًا شبرًا فما رأيت ما تصفه! هل رأيت مثل هذا يا (كالب)؟

فهز (كالب بن يفنه) رأسه نفيًا وقال:

ـ ما رأيت إلا جنودًا من الكنعانيين.

قال (شافاط) ساخطًا:

ـ هل تكذبني؟!

فقال (يوشع) موجها كلامه إلينا جميعًا:

ـ هل رأي أحدكم أو سمع بمثل هذا؟!

صمت الرجال وقد بلغ الرعب منهم مبلغه، ووجدتني مترددًا بين أن أذكر ما قاله السكران وبين أن أصمت حتى لا أزيد من رعب القوم، وندت عني نهنهة دون قصد مني، جمعت الأبصار نحوي، فازدت اضطرابًا وترددًا، ونظر (يوشع) إليّ متشككًا وقال:

ـ هل سمعت بشيء مثل هذا يا سيد (شموع)؟!

ارتجفت شفتي السفلى من التردد وليس من الخوف، وقلت بعد أن حسمت أمري:

ـ قد حذرني رجل سكران في الحانة من أشباح بني عناق!!!

ولم أدر أن جملة نطقت بها ستنسف عزيمة الرجال، وتصيبهم بخوار لازمهم طوال الرحلة».

* اليوم العشرون من البعثة:

«كان الصمت هو رفيقنا طوال الطريق، وصلنا إلى «حاصور» عاصمة الكنعانيين في منتصف النهار، كانت المدينة أقل تحصينًا من شكيم، ولكنها كانت أكثر ثراء وبهجة، تمتد على أطرافها المروج والبساتين التي أنبتت أنواعًا من الفاكهة لم نر مثلها في أي مكان، نسي الرجال وجلهم وخوفهم وانشغلوا في جمع ما يقدرون على حمله من الثمار التي جادت بها الأراضي الخصبة، ويبدو أن الأرض هنا كانت شديدة الكرم على الماشية أيضًا، فقد ترهلت أجساد الماشية باللحم، وفاضت ضروعها بالألبان، ويبع الجبن والسمن بأثمان زهيدة في الأسواق، فأكلنا وشربنا حتى شبعنا ووددنا لو حملنا الألبان معنا إلى سيناء دون أن تتسنه أو يتغير طعمها.

أما الشيء الأكثر وضوحًا في عاصمة الكنعانيين فهو ذلك الفسق والمجون الذي كان عليه أهلها والذي شابه ـ في ظني ـ فسوق سدوم وعمورة اللتين أهلكهما الله في الأزمنة الغابرة.

علمنا أن اليوم هو عيد عشتاروت، إلهة الحب والخصب عند الكنعانيين، رأينا بعض الرجال يلبسون ملابس النساء ويسيرون في الشوارع عراة الأكتاف والصدور، وقد صبغوا وجوههم بالحمرة، وزججوا حواجبهم بالكحل والأصباغ، يحملون الصنوج والدفوف ويتغنون لإلهة الشبق التي يعبدونها، وخلفهم كان يسير فوج هائل من الفتيان والفتيات، يتحلون بأبهى زينة ويسيرون في أزواج تختلط في مجون وتتلامس في خلاعة، ويفصحون عن عواطفهم علانية دون رادع من حياء أو أخلاق، دهمنا طوفان البشر، وتفرقنا وسط الزحام، ووجدتني مدفوعًا رغمًا عني في اتجاه الهيكل الذي أقيم لتلك الربة الماجنة، فجأة وجدتني أقف وجهًا لوجه أمام تمثالها الضخم الذي يفوق العشرين ذراعًا والذي تقف فيه عارية حاملة قوى الطبيعة في يديها، ويقبع تحت قدميها أسدان يقولون إنهما يرمزان إلى الرجل، غضضت بصري عن تمثالها حياءً، ولكني لم أستطع أن أدفع بصري بعيدًا عن كاهنات عشتاروت اللائي خرجن من حجرة في جانب الهيكل، يرقصن في غلالات شفافة، تفضح هبات عشتاروت إليهن، فأثرن الدماء في عروقي وأنا الشيخ الذي أشرف على الستين! ثم صدحت كبيرة الكاهنات تتغنى على لسان ربتها قائلة:

أنا الأول، وأنا الآخر

أنا البغي، وأنا القديسة

أنا الزوجة، وأنا العذراء

أنا الأم، وأنا الابنة

أنا العاقر، وكُثُرٌ هم أبنائي

أنا في عرس كبير ولم أتخذ بعلا

أنا القابلةُ ولم أنجب أحدًا

أنا أم أبي، وأخت زوجي

وكل هذا هو نسلي

وما إن انتهى الطقس حتى فررت من الهيكل، فقد علمت أن تتمة الصلاة تكن باستحمام الرجال مع النساء في ماء اللوز الدافئ المعبق بعصارة الورد والعنبر!»

* اليوم الثاني والعشرون من البعثة:

«اجتزنا اليوم النهر إلى الضفة الشرقية ووصلنا إلى مدينة «رحوب» في أقصي الشمال من أرض كنعان، المدينة رحبة وواسعة وكأنها سميت بذلك الاسم لرحابتها، لم نر فيها سوى حصن وحيد أقيم على حدودها الشمالية حتى يصد عنها غارات جيرانها، أما باقي المدينة فكانت مثل حاصور ـ مروجًا وبساتين، مكثنا فيها لليلة واحدة ثم عدنا أدراجنا جنوبًا».

* اليوم الثلاثون من البعثة:

«وصلنا إلى بيت لحم، المدينة محصنة طبيعيًا فهي تقع فوق سلسلة من الجبال، ويحيط بها الكثير من المنحدرات، ولكن المدينة نفسها تمتلئ بأشجار الزيتون، ويقام فيها معبد كبير للإله «لحمو» إله القوت والطعام لدى الكنعانيين وإليه ينسب اسم المدينة، أمرنا (هوشع) أن نحمل بعض أغصان الزيتون معنا إلى أرض سين».

* اليوم الثالث والثلاثون من البعثة:

«عاد شبح الخوف من بني عناق مرة أخرى، كنا قد وصلنا إلى وادي «حبرون»، فرأى الرجال سرية من الجند تسير في الوادي، على مسافة غير بعيدة، وقد بدا من الظلال الممتدة على الأرض أن هؤلاء الجند يتمتعون بطول فارع وبسطة في الجسم، تفوق أحجام الرجال المتعارف عليها، فارتعد الرجال خوفًا، وقال (شافاط) مدافعًا عن نفسه:

ـ أرأيت يا (يوشع)؟! هؤلاء من أنكرت رؤيتي لهم!

أراد (يوشع) أن يهون من ضخامة الجند، وأن يوضح لهم أن تلك هي أجساد الجند في الجيوش النظامية، ولكنه لم يستطع أن يستأنف حديثه معهم

بعد أن سمع منهم ما هدد وقاره كقائد عليهم، فآثر الصمت وعدم الجدال!

وفي المساء اختلطنا بالسكان، ولم تكن الأخبار سارة بالمرة! علمنا أن هؤلاء الجبابرة هم من الجنود المرتزقة وأنهم آخر من بقي من شعب عناق المنحدر من الشمال، يدفع لهم الكنعانيون أموالًا طائلة مقابل حمايتهم، وكان السكان في حبرون يضربون بهم المثل في البطش والقوة ويقولون: من يستطيع أن يقف في وجه بني عناق؟!

واستاء (يوشع) مما وصله من أخبار، وأسرّ إليّ بمهمة خطيرة، خيرني بين أن أقوم بها أو أن أعتذر عنها، فوافقت على القيام بها! فقد طلب مني أن نتنكر أنا وهو في زي حمّالين من حمّالي الطحين، وأن ندخل إلى الحصن الذي يقيم فيه العناقيون، على أن أرسم بقلمي كل المداخل والمخارج فيه، بينما سيحصي هو أعداد بني عناق المقيمين في الحصن.

وفي الصباح اندسسنا بين زمرة العمال الواقفين أمام أسوار الحصن في انتظار عربات الخيول المحملة بالطحين، أتت العربات، فأسرعت بهمّةٍ وحملت جوالًا صغيرًا من الطحين وقد أخفيت وجهي ورأسي بلثام حتى لا يرى أحد شيبتي! وتقدمت صفوف العمال دون أن أنظر إلى (يوشع) حتى لا يظن أحد أننا رفيقان، فُتِحت أبواب الحصن، فأصدرت تروسها وسلاسلها صريرًا عاليًا ألقى بالرهبة في نفسي، دلفت إلى الساحة وعيني ترصد كل ركن فيها، لم أرفع عيني في وجه الحارس العملاق الذي أمرني بالسير في اتجاه المقصف، ولكن هدير صوته، وضآلة قامتي إلى جواره ألقيا بالرعب في قلبي، سرت في الاتجاه الذي أشار إليه، وأنا أحصي بعيني الأبواب الفارعة التي تقابلني، وفجأة صاح أحدهم فيّ قائلًا:

ـ مِن هنا.

توجهت نحو المقصف، وما إن ألقيت بالجوال في المخزن الملحق به حتى اختبأت في سرعة، وانسللت إلى الفناء الخلفي للمقصف دون أن يلحظني أحد، توقفت لحظات لاهثًا، وأنا أرقب الطريق، وتلبستني روح جرذ وأنا أهرول

مسرعًا بين الأعمدة الشاهقة للحصن، متسترًا خلف أحجارها الضخمة عن أعين الحراس فوق الأبراج، وبين الفينة والفينة كنت أخرج أوراقي من بين طيات ملابسي فأدون رقمًا أو أخط رسمًا، وبينما أنا كذلك رأيت قبوًا على مقربة من الفناء، فشجعني بابه المفتوح والطريق الخالي نحوه على أن أدلف بداخله، رأيت على مدخل القبو رسمًا ضخمًا لطائر عجيب مفرود الجناحين وله رأس ضخم وأنياب، هبطت الدرج في سرعة فأسلمني إلى بهو فسيح ومعتم، إلا من ركن مضيء في نهايته رأيت فيه تمثالًا للطائر ذاته وقد تلألأ جناحيه المذهبين ومخالبه في ضوء المشاعل، التي أنارت حرمه المقدس فأدركت أن هؤلاء القوم يقدسون ذلك الطائر، تقدمت نحو التمثال في حرص، فرأيت نصًا قد كتب تحته يقول:

«تمجدي أيتها العنقاء، واحملي بقايا جسدك على مذبح الشمس، حتى يخرج منك مولود جديد»

كدت أعود أدراجي إلى الفناء قبل أن يلحظني أحد، لولا أن لمحت بابًا صغيرًا يُفتح على الحرم المقدس للتمثال، ويبدو خفيًا في الظلام، تعجبت من حجم الباب الصغير الذي لا يكفي لمرور رجل من بني عناق، وساقني الفضول إلى أن أفتح الباب وأن أدلف منه مطمئنًا إلى أن أحدًا من بني عناق لن يلقاني خلفه، أخذت في يدي شعلة من النار، ثم سرت في سرداب طويل ومظلم تفوح منه رائحة العطن، ولم يمض وقت طويل حتى فقدت الإحساس بالمكان والاتجاه من كثرة ما تلوى من السرداب الطويل كالمتاهة، ثم شعرت ببعض الخوف حينما طال الوقت، ولهثت أنفاسي من الجهد وقلة الهواء وخفتت نار الشعلة ولم يتبق منها سوى ذؤابة أوشكت على الذبول، فكرت في العودة أدراجي حتى لا أسقط من الإعياء، ولكني تنازلت عن تلك الفكرة حينما رأيت شعاعًا من نور يتسلل إلى داخل السرداب المظلم، سرت خلف الشعاع الذي اشتد نوره تدريجيًا، ومعه كانت تشرق نفسي بالأمل إلى أن سطعني ضوء النهار، ووجدتني خارج أسوار الحصن في قلب وادي حبرون صرخت من الفرح

وخر جسدي راكعًا للرب، وحمدته حمدًا كثيرًا على الخروج ناجيًا، ثم جلست بعد أن هدأت ثورة نفسي وأمسكت بالورقة والقلم أدون كل ما قابلني داخل الحصن وأرسم موقع باب السرداب السري الذي يفضي إلى الحرم المقدس.

وفي المساء كنا نجلس أنا و(يوشع) في المنتصف وحولنا النقباء العشرة، أخبرناهم بكل شيء عن بني عناق، وَصْفَهم وعددهم، والنقاط الحصينة، والنقاط الضعيفة، ومدخل السرداب ومخرجه، وانتهينا من كلامنا فوجدنا وجوهًا قد علاها الرعب، وقلوبًا ترجف من الخوف، وأمسك (يوشع) بالرسم، وخط بالقلم دائرة حول باب السرداب السري وقال بصوت عال:

ـ هذا بابٌ فيه رحمة، ومدخلنا إلى النصر بإذن الله!

نظر إليه الرجال في عجب واستغراب، وقال (يجال بن يوسف) من سبط يساكر مستنكرًا:

ـ أي باب! وأي مدخَل؟! إنّا لن ندخلها ما داموا فيها!

نظر (يوشع) إلى (كالب بن يفنه) يستمد منه النصرة، فقال (كالب):

ـ تنسل جيوشنا من ذلك الباب، فإذا دخلنا منه نكن في قلب حصنهم، ويكن النصر حليفنا.

لم يبد عليهم التأثر مما قال، فنظر إليّ (يوشع) وقال:

ـ قل لهم يا شيخ (شموع) إننا إنْ نصعد إلى تلك الأرض فإننا نملكها لأننا قادرون عليها!

حاولت أن أتفوه بما قال، ولكن انعقد لساني ولم أستطع أن أنطق به!

رأيت خيبة الأمل تعلو وجهه ووجه (كالب) فانصرفا آيسين، ولم أدر لماذا انعقد لساني في تلك الليلة؟ هل لأنني في تلك اللحظة كنت أخشى من بني عناق، أم لأن قلبي لم يكن عامرًا باليقين مثل (يوشع) وصديقه (كالب)؟ وجلست وحيدًا بعد أن انصرف الجميع أقلب في الرسم الذي رسمته، وأنا أقول لنفسي: ليتني لم أسمع ولم أرَ!

* اليوم السابع والثلاثون من البعثة:

«وصلنا إلى وادي أشكول، ولأول مرة نرى الجنة على الأرض، ما هذه الأفنان الباسقة، والورود المتفتحة؟ إن عناقيد الكرم لتتدلى حتى تدنو حباتها من أيدي الآكلين دون مشقة أو عناء، حملنا معنا عنقودًا من العنب يصل طوله إلى طول صبي يافع، وجمع الرجال من ثمار التين والرمان ما تكفي الثمرة الواحدة منها العصبة من الناس! وحينما رأى (يوشع) حماس الرجال وانهماكهم في جمع الثمار مال على أذن رفيقه (كالب) قائلًا:

ـ حدسي يقول إنهم يجمعون الثمار للمرة الأخيرة!

فهز رأسه أسفًا وقال:

ـ أرجو أن ينير الرب بصيرتهم وأن ينزع الرعب من قلوبهم».

* اليوم التاسع والثلاثون من البعثة:

«وصلنا إلى بئر سبع وكانت تلك هي المحطة الأخيرة قبل العودة إلى قادش برنيع مرة، الأرض كلها مرعى، تنتشر بها آبار عدة يتوسطها بئر أبينا (إبرام)، علمنا أن أمير تلك الأرض قد حفر تلك البئر إكرامًا لأبينا (إبرام) فأهداه أبونا (إبرام) نعاجًا سبع جزاءً لذلك، فأطلق الناس عليها اسم بئر «سبع»، أراد (يوشع) أن يلقي بسهمه الأخير فجمع النقباء وخطب فيهم واستحث فيهم النخوة والغيرة على مجد الآباء، وأوضح لهم أن الرب قد سألهم السعي نحو النصر بينما تكفل هو بتحقيقه لهم، وحين نظرت إلى وقع الكلمات على وجوه القوم، أدركت أن أمرًا قد حُسِم، وأن (كالب) وصديقه (يوشع) قد صارا في وادٍ بينما صار باقي النقباء في وادٍ آخر، أما أنا فقد كادت الحيرة تقتلني، قلبي كان يقف إلى جوار (يوشع)، ولكن عقلي كان يردد دائمًا المقولة التي سمعناها في حبرون «من يقف في وجه بني عناق؟»»

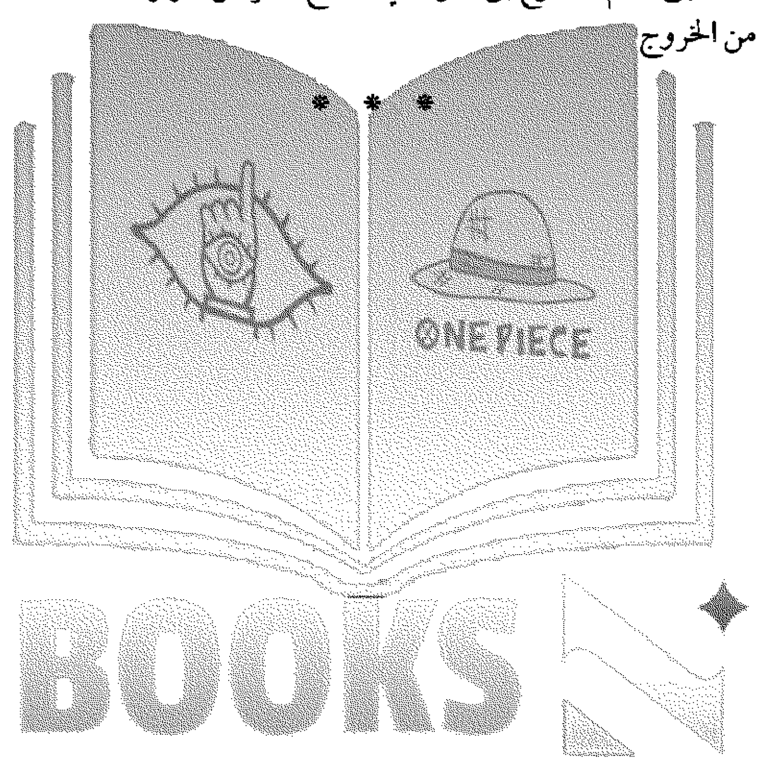
* اليوم الأربعون من البعثة:

أكتب الآن ونحن على مرمى البصر من قادش برنيع أن هداني عقلي إلى

قرار يرتاح إليه ضميري، وهي أن أكون محايدًا! لن أدعو سبط رأوبين إلى صعود الأرض ومحاربة بني عناق، ولن أنهاهم عن ذلك، فما أرسلني نبي الله إلا لأشهد على الأرض، وقد أديت المهمة على خير وجه! فمن شاء فليخرج ومن شاء فليبق، وحسبي أن أتبع نبيّي أينما ذهب!

انتهى كلام «شَمّوع بن ذَكّور» في التاسع عشر من حزيران للسنة الثامنة من الخروج

* * *



الورقة العشرون

كان الوصول إلى الساحة التي استقبلت النقباء الاثني عشر أشبه بالمستحيل، ضاقت الأرض بالجمع الغفير، وأصبح المرور بين فرجات الأجساد المتلاصقة خطرًا قد يؤدي إلى الموت سحقًا تحت الأقدام الغافلة، أو خنقًا برائحة العرق التي أججتها حرارة الجو في حزيران، أمسك (عامير) بكتفي قبل أن أتوه منه وسط الأجساد المتراكبة، وأشار إلى أكَمَة تشرف على الساحة وصاح قائلاً:

ـ (شمعون) إلى هناك.

انفصلنا عن الزحام وهرولنا إلى الأشجار التي ألقت بظلالها على الساحة، تسلقنا شجرة سنط عالية كقردين مُدرَّبيْن واستوينا على أفرُعِها المُنبسِطة، فجاء مَجلسُنا فوق الساحة مباشرة، لا يعوق سمعنا ولا بصرنا شيء.

كان نبي الله (موسى) يجلس بين جذعي نخلة ينوءان بحِملِهما من عراجين التمر، انحنى الجذعان حتى لامست سُعوفُهما الأرض، فَبَدَوَا كذراعي كاهن انبسطا إلى السماء، كان يقف إلى يمينه أخوه (هارون)، وإلى يساره زوج أخته (مريم) (حور)، أما النقباء الاثنا عشر فقد وقفوا في منتصف الساحة، وقد فُرِشت أمامهم حمولة القافلة التي عادت من الأرض المقدسة، بانت البهجة الممزوجة بالدهشة على وجوه الناس الذين لم يتخيلوا أن وفدًا منهم قد رأى الأرض التي سمعوا عنها ولم يروها منذ قرون، أذهلم عنقود العنب الذي عاد به النقباء من وادي أشكول، وسال لعابهم لمرأى جِرار السمن والعسل، أما

ثمار الرمان العملاقة التي تشقق لحاؤها ليكشف عن حباتها اللامعة كاللؤلؤ، فقد جعلت قلوبهم تتحرق شوقًا إلى رؤية تلك الأرض التي فاق كل شيء فيه الخيال.

أشار نبي الله (موسى) إلى الرجال لكي يتحدثوا عما رأَوْه.

نظر النقباء إلى (يجَال بن يوسف) لكي يتحدث، وكان أكبرهم سنًّا، وبدا أنهم قد اتفقوا على ذلك، فقال (يجال) بصوت متردد:

ـ إن الأرض غنية جدًّا جدًّا، الأغنام سمينة اللحم، والأبقار عظيمة الضرع، والأسواق تمتلئ بالثمار والخيرات، وهي حقًّا الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا.

صمت لحظات، ونظر خلفه إلى باقي النقباء، وكأنما يستمد منهم التأييد على ما يقول ثم أردف:

ـ ولكن الأهالي هناك فسقة مردة، يعبدون الأوثان والأصنام، ولقد رأينا مذبح أبينا (إبرام) وقد تحول إلى معبد لإلههم «بعل»، ولا تخلوا مدينة من مدنهم من معبد لربة الفسق والفجور «عشتاروت».!

زمجرت أصوات الجموع غاضبة، وسمعت صوت أبي آتيًا من الصفوف الأمامية وهو يقول:

ـ غدًا نحطم أصنامهم في بيت إيل كما حطم أبونا (إبرام) أصنام أور!

اشتدت حماسة الجماعة لكلمات أبي، فهتف بعض الرجال مؤيدين:

ـ نعم، نعم، غدًا تتحطم تماثيل بعل وعشتاروت، ويتمجد اسم الرب إيل على كل الأرض!

ولكن سرعان ما خبى ذلك الحماس حينما قال (يجال):

ـ ولكن المدن هناك حصينة جدًّا، تحيط بها الأسوار العالية والحاميات المسلحة، وجنود الكنعانيين يجوبون الطرقات ليل نهار، مدججين بالأسلحة والعتاد، يتحسسون عن أخبار الغرباء من اليبوسيين والحيثيين والموابيين!

بانت خيبة الأمل على الوجوه، فتدخل (يوشع) في الحديث مقاطعًا وقال:

ـ ولكننا قادرون على اختراق حصونها فقد حصرنا عدد الأبواب والمنافذ، وعلمنا كذلك أعداد الجند في كل حامية، وصنع لنا (شموع بن ذكور) رسمًا لحصني شكيم وحبرون.

سألهم رجل من المجتمعين:

ـ وهل جنودهم أكثر منا عددًا؟

انبرى (كالب بن يفنه) للحديث فأكد قائلًا:

ـ إن جنودنا ليسوا بقلة ولو أرسلنا الجواسيس ففتحوا لجيوشنا الأبواب لسقطت مدنهم في أيدينا بغير عناء ثم قال في حماس:

ـ أقسم بالرب إيل إن هؤلاء القوم هم خبزنا، ولن يحولوا بيننا وبين الأرض التي كتبها الله لنا!

عاد التفاؤل مرة أخرى إلى النفوس مع كلمات (يوشع) و(كالب)، ولكن (شافاط بن حوري) الذي لم يعجبه تدخلهما في الحديث ـ على غير ما اتفقوا عليه من قبل ـ صرخ قائلًا:

ـ كَذِب!

دوت كلمته في سماء الواحة ورددت الجبال صداها، فصمت الناس وكأن على رءوسهم الطير، واحتبست الأنفس في انتظار ما سيقول، فتقدم (شافاط) وأمسك بكتفي (كالب بن يفنه) وأخذ يهزه في عنف وصرخ قائلًا:

ـ لا تخدعا بني إسرائيل، ولا تهونا عليهم أعداءهم! قولا لهم ماذا رأيتما هناك؟! وأخبروهما عن «بني عناق»!

سرت رعدة في جسدي من الاسم رغم أني لم أسمع عنهم من قبل، ورأيت الخوف في عيون الناس التي تعلقت بـ(يجال بن يوسف) تستحثه على البيان، فقال له (موسى):

ـ تحدث يا (يجال).

فقال (يجال):

ـ يا (موسى) إن فيها قومًا جبارين، هؤلاء هم العمالقة بني عناق، رأينا بعضهم في شكيم، ويقيم أكثرهم في حبرون رجالٌ ضِخامٌ عِظامٌ، يبدو الواحد منا إلى جوار الواحد منهم كالجرادة، يتغنى الناس ببأسهم في الشوارع ويقولون من ذا الذي يقف في وجه بني عناق؟

تصاعدت آهات اللوعة والجزع، وولولت بعض النسوة في فزع، فاكتسى وجه (يوشع) بالغم، وقد أيقن أن عزيمة الشعب قد خارت أمام كلمات (يجال)، فقال راميًا بسهمه الأخير في يأس:

ـ ولكنا قادرون عليهم بإذن الله! صدقوني فالحق أقول: ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون!

طاش سهمه الأخير أمام كلمات (شافاط) الثائرة حينما قال:

ـ أي باب؟! وأي غلبة؟ أما اكتفيت من الخداع؟!

ثم التفت إلى القوم وقال بصوت جهوري سمعه كل من في النزل:

ـ أيها الناس! تلك الأرض تأكل أهلها! ولا سبيل لحرب فيها! فلا تكونوا كسربٍ من النمل أراد أن يقتل فيلًا، فأهلكه بنفخة من خرطومه!

اشتد الصراخ حينها وشارك الرجال النساء في العويل، وقال رجل في جزع:

ـ قد كان خير لنا أن نهلك في مصر من أن نهلك بأيدي بني عناق!

بدا الانزعاج على وجه نبي الله (موسى)، فقام من مجلسه وقال:

ـ أيها الناس ما لي أراكم تجزعون وقد علمتم من ربكم أن الأرض لكم؟

ثم قال يريد أن يثير حماستهم:

ـ هل ظننتم أن حصونهم وجنودهم يمنعونهم من أمر الله؟

قام (قورح) من مجلسه وقال في غضب لم يراعِ مقامَ النبوة:

ـ يا (موسى) ما خرجنا معك لنسقط قتلى بسيف بني عناق! ولا لتُسبى نساؤنا وأطفالنا بأيدي الكنعانيين!

قال (موسى):

ـ ألم يَسْبِ الفرعون نساءكم وأبناءكم من قبل، ثم تكفل الرب بحفظكم وأنجاكم منه!

فقال (قورح) في غضبة أشد من سابقتها:

ـ عاهدناك على الخروج وما عاهدناك على حرب!

قال (موسى) وقد ازداد غضبه:

ـ وماذا لو فرض الرب عليكم الحرب؟!

قال (قورح) في تحدٍّ سافر:

ـ إذن فلتذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون!!

ثم التفت إلى الناس الذين استحسنوا قوله، وصرخ بفم يقطر حقدًا:

ـ أيها الناس قد أَضَلَّنا ابنا عمران، وهاهما يخونان عهدهما، يا بني إسرائيل ما عاد ابنُ عمران مُخلِّصَنا، وخير لكم أن تقيموا رئيسًا لكم يرجع بكم إلى أرض مصر.

رأيت الغضب يرعد في وجه (موسى)، واستل (يوشع) سيفه، وكاد أن يقتل (قورح) الذي دعا إلى الفتنة، لولا أن نبي الله أشار إليه أن يرجع، فأعاد (يوشع) السيف إلى غمده، وسار (موسى) نحو صخرة عالية ثم وقف فوقها، تعلقت الأبصار نحوه حينما رفع عصاه إلى السماء وكأنما ليذكر الناس بما جرى عليها من معجزات، ثم أشار بالعصا نحو الشرق وقال في صوت هادر:

ـ أيها الناس هذه هي الأرض المقدسة التي كتبها الله لكم، تقفون اليوم على أبوابها بعد أن أنجاكم الله من فرعون ومن الهلاك في برية سين، فأجمعوا أمركم وأتوني به عند الصباح، فإما أن تدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لكم، أو ترتدوا على أدباركم خائبين!

صمت الجمع، وعم السكون، وهدأت الريح، وشعرت كأن كل ما في الكون قد توقف ليشهد تلك اللحظة التي تتجلى فيها الحقيقة الأبدية التي لا مراء فيها، حقيقة أن أصعب ما في حياة البشر هي حرية الاختيار، تمنيت لو

ضرب (موسى) بعصاه فخسف بالمعارضين والمُخذلين الأرض، تمنيت لو ساق الناس بعصاه سَوْقًا نحو الشرق، ولكن الرب لم يشأ له أن يأمر بذلك، أراد الرب أن يتخذ الشعب قراره بنفسه، فترك لهم سواد الليل حتى يختلي كل إلى نفسه، ثم يأتي بما أفضى إليه ضميره عند الصباح، وكانت حقًّا ليلة باكية،

بكى النادمون على الخروج، كيف أضَعْنا عُمرَنا؟!

وبكى المتشوقون إلى الدخول، كيف نُضيع حلمنا؟!

وبكى المترددون في قنوط، كيف سيكون مصيرُنا؟!

ولم ينم أبي في تلك الليلة، ظل يتقلب في فراشه كالمحموم، فلما يئس من أن يزور النوم جفنيه قام من فراشه وخرج متحسسًا طريقه إلى الفناء، ثم جلس على عتبة الدار، وزارني شبح القلق في منامي، بعد أن غادر فراش أبي فأيقظني في جوف الليل منقبض القلب، ضيق الصدر، فقمت إلى النافذة أملأ صدري بالهواء في لهفة، حتى هدأت أنفاسي وشعر بي أبي فنادى في صوت خافت:

ـ (شمعون)؟!!

أجهدت بصري في الظلام حتى رأيته، فوجدته متكئًا إلى عتبة الباب، وقد انعكس شعاع القمر الذي صار محاقا على وجهه، فكشف عن عينين مغرورقتين بالدموع قلت:

ـ نعم يا أبي!

ثم نزلت الدرج الخشبي، وجلست إلى جواره.

قبلني برفق على وجنتي وقال في صوت خافت حتى لا يوقظ من في الدار:

ـ ما الذي أيقظك؟

أجبت:

ـ لا أدري، فقد استيقظت بلا سبب!

لم أجد أثرًا للنوم على وجهه فسألته:

ـ يبدو أنك لم تنم يا أبي!

قال معللًا:

ـ نعم، فالجو حار الليلة، وقد خرجت لأتنسم بعض الهواء.

لم تقنعني لهجته ومع ذلك قلت:

ـ نعم نعم، إن الجو حار جدًّا.

ثم وجدتني أسأله:

ـ أبي، هل تخشى بني عناق؟

أجابني في يقين ممزوج بحزن:

ـ كلا، بل بني إسرائيل أخشى!

رأى الدهشة على وجهي، فقال كمن يحادث نفسه:

ـ أتدري يا (شمعون)، لولا أن نبي الله بيننا، لهاجرت بعيدًا عن تلك الجماعة!

لم أقاطعه، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يفضي فيها إليّ أبي بما يهمّه، فتابع متحدثًا إليّ حديث الصديق لصديقه، لا حديث الأب لابنه:

ـ مات أبي وأنا في مثل عمرك، ولم أجد منهم عطفًا ولا عونًا، حتى عمتك (باتشيفا) وزوجها (الشامري) كانت قسوتهما عليّ أقرب إليّ من غيرهما!، ومع ذلك لم أشعر نحوهما بالكراهية، ولم أحمل في قلبي ضغينة لأحد منهما.

صمت لحظات ثم قال:

ـ كنت دائمًا أشعر بأني أختلف عن بني إسرائيل! وحينما أحببت، لم تستهوني فتاة منهم، بل أحببت فتاة مصرية، مما زاد الجفوة والفجوة بيني وبين أهلنا من سبط رأوبين.

ابتسم ساخرًا وقال:

قالوا: سيتزوج (زخاري) بامرأة وَثَنية، فلما آمنت برب (موسى) و(هارون)، قالوا يكفيها عارًا أنها جارية مصرية! ونسوا أن أبانا (إبرام) تزوج من جارية مصرية، وتناسوا أنهم كانوا خدمًا مسخرين في قصور الفرعون!

ثم تابع مقطبًا جبينه:

ـ لم أشعر يومًا بأني بحاجة إليهم بل أكرمني الرب وجعلهم هم بحاجة إليّ، وكان ما يبقيني بينهم هو ذلك الحلم الذي كنت أحيا من أجله، وهو أن أعيش في أرضٍ أشعر فيها بسلام، أرض لنا فيها جذور، نكون فيها أسيادًا لا عبيدًا.

ازدرد لعابه بصعوبة كمن يشعر في حلقه بغصة، ثم قال في مرار:

ـ والآن وقد اقتربت من تحقيق حلمي، أجد شيوخًا من بني إسرائيل قد أُشرِبوا في قلوبهم العجل، وتجرَّعوا الذل في بر مصر، يريدون أن يعبثوا بأحلامي وأحلام جيلي، يستمسكون بماض كريه، ويفرون من مجد ينتظرنا إلى إرث غابر من العار!

لم أر أبي يتحدث بتلك المرارة من قبل، وأشفقت عليه حينما أفلتت من عينيه دمعتان، أخفاهما بطرف قميصه في سرعة حتى لا أراهما، فقلت:

ـ هون عليك يا أبي، فسينجز الله وعده لك وللصالحين من بني إسرائيل!

ابتسم في مرارة وقال:

ـ بل أخشى أن يعاقبنا الرب جميعًا بأفعال تلك الجماعة الشريرة!

قلت كي أعطيه بعض الأمل:

ـ أثق في أن الرب لن يخذلك!

احتضنني، ثم قال:

ـ كل قضاء الله خير يا (شمعون).

ثم تنهد قائلًا:

ـ قم يا (شمعون) ودعنا نسترح فغدًا سنبكر إلى خيمة الاجتماع.

فقمت وقد طار النوم من عيني، وبينما كنت أتمدد في فراشي، محدقًا في الظلام الفارغ من حولي، ألح على عقلي سؤال:

هل يمكن أن يعاقب الرب الصالحين بأفعال العصاة وهو العادل في حكمه؟

* * *

الورقة الحادية والعشرون

توارى القمر في خجل خلف جبال برنيع، في الوقت الذي تشقق فيه ظلام الفجر بأشعة الشمس التي تسللت في بطء من جهة الشرق، ولم تمض لحظات حتى اجتمع قرص الشمس مع محاق القمر في سماء الساحة وكأنما شاء الرب أن يشهدا معًا ميلاد ذلك اليوم الفارق في حياة بني إسرائيل، وفي حياتي أنا أيضًا!

كنت أنا وأبي و(عامير) وثلة من بني إسرائيل أوائل الحضور إلى الساحة الممتدة أمام خيمة الاجتماع، جمعنا الصمت والسكون، وخروج زفرات محملة بالبخار، كَثّفته برودة الجو اللطيفة في تلك الساعة المبكرة من الصباح، لم تمض الساعة الأولى من النهار حتى كانت الساحة تموج بالناس الذين توافدوا من الأحياء يتقدمهم رؤساء العشائر العشرة الذين تجمعوا في حلقة في منتصف الساحة، وجلسوا في مواجهة خيمة الاجتماع في انتظار خروج (موسى) و(هارون)، طالت فترة الانتظار قبل أن يظهر (يوشع بن نون) و(كالب بن يفنه) فأثار ظهورهما جلبة بين الناس، واشتدت الجلبة حينما تجاهل الرجلان اللذان أنعم الله عليهما بنعمة اليقين المجلس الذي ضم رؤساء العشائر، وسارا بين الناس يستحثانهم على عدم التمرد والنزول على أمر الرب، تواضع (يوشع) و(كالب) للبسطاء من الناس، وذكَّراهم بأن الرب ينظر إليهم هم، وليس إلى رؤساء بني إسرائيل، وأنهم هم أحباء الله، ولو رضوا بأمر الرب لرضي الرب عنهم، ولأدخلهم الأرض ولأهلك عدوهم، كما كان معهم منذ أن خرجوا

من أرض مصر، وقال (يوشع) راجيًا:

ـ يا بني إسرائيل اسمعوا لي! اسمعوا إلى (كالب بن يفنه)! قد رأينا الأرض بأعيننا، هي جنة الرب في أرضه، ألم تروا ثمرها؟! ألم تتذوقوا عسلها؟ فلماذا ترتابون؟! صدقوني يا بني إسرائيل صدقوا رجلين من رجالكم، لا تخشوا الشعب الساكن في تلك الأرض ولا تخشوا بني عناق، لقد زال عنهم ظلهم بأمر الرب، ولإن صعدتم إليهم لأكلتموهم كما تأكلون المن في الصباح، فعلى الله توكلوا ولا تتمردوا.

واستفزت كلماته الدموع في عيني أبي، فسقط على وجهه باكيًا، بينما أثارت نفس الكلمات الغضب في قلوب الثائرين، فدفعه رجل في صدره بقوة، وكأنه يريد أن يسكته وقال:

ـ أنصدقكما، ونكذب عشرة من رؤساء عشائرنا؟!

لم يشأ (يوشع) أن يشتبك معه في قتال، فأزاحه بيده وفصل (كالب بن يفنه) بينهما، بينما استمر (يوشع) يقول:

ـ لا تسمعوا لمن أشاعوا مذمة الأرض فيما بينكم، فإنما أعماهم الخوف عن قول الحقيقة.

صرخ (شافاط):

ـ كف عن هذا يا (يوشع)، بل تعمى أنت عن رؤية الحقيقة.

استمر (يوشع) في سيره وكلامه، هو يقول:

ـ صموا آذانكم عن كلام أولئك الذين أنكروا العجل بألسنتهم وقدسته قلوبهم! فهؤلاء يكذبون كما يتنفسون!

أثارت كلماته مزيدًا من الغضب، مما أوصل أحد الرجال الغاضبين إلى درجة الجنون، فأمسك بحجر ورشق به (يوشع) وقال:

ـ بل كذبتم أنتم، وصدق رؤساء عشائرنا، أتريدان أن نصبح خبزًا يلوكه بنو عناق في أفواههم؟!

وانضم إليه آخرون، فرشقوا (يوشع) وصديقه (كالب) بالحجارة، فسقط الشابان أرضًا، دون أن يدافعا عن نفسيهما، وكأنما أزال حزنهما وبؤسهما الشعور بالألم، واشتد الهرج والمرج، واشتبك أبي وبعض المدافعين عن (يوشع) وصديقه مع المعتدين عليهما، وانقلبت الساحة المقدسة إلى ساحة قتال، فشجت الرءوس، وسالت الدماء، واختلط صراخ النساء مع صيحات الرجال المتعاركة، حينها ارتجفت، وشعرت برائحة كريهة تملأ هواء النزل، غامت السماء في عيني، وسمعت وقع خطوات كقرع مئات الطبول، اخترق الصوت رأسي وكاد أن يفتك به، سددت أذني بكفي، ونظرت حولي لأتحقق إن كان أحد غيري يسمعه، ولكن الرجال المتعاركين كانوا في شغل عن أي شيء، حتى (عامر) لم يكن يشعر بما أشعر به، توقف القرع ثم سمعت نغمًا يرهب القلوب وخيل إليّ أنني أرى وجهًا قبيحًا بين الغمام يتطلع إليّ، جاءلي حديثه كهمسات مرعدة، تصب في أذني وحدها:

ـ اطفِئوا النُّورَ بظلامِ القلوب

احرِقوا الأرضَ بحقدِ النُّفوس

الْعنوا مُحبِّيكم

ومَجِّدوا لاعِنيكم

انثُروا بُذورَ الكُره

حتى أراها تُثْمِر

انشُروا عبيرَ الدّم

حتى أراني أثْمَل

أَروني دموع النَّدم

بلا تَوْبة

أَروني صراخ اليَأْسِ

بِلا رَجاء

وخرج (موسى) و(هارون) على أصوات الصراخ، فلم يحتمل قلبه ذلك

المشهد العصيب، وسقط جاثيًا على ركبتيه مذهولًا، وصرخ بصوت زلزل الأرض، وأزال غمام السماء:

ـ كفى!!!

ثم رفع يده إلى السماء، وصرخ في صوت يخنقه البكاء، ويدميه الرجاء:

ـ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، ربنا فافرق بيننا وبين القوم الظالمين!!

فإذا بالأرض ترجف، وسماء النزل تبرق، وإذا بعمود من الدخان يصعد من فوق المسكن في خيمة الاجتماع، فعلم الناس أن مجد الرب قائم، وأن أمرًا قد أتى من السماء! فقام (موسى) من ركوعه وسار إلى خيمة الاجتماع، وسكنت الساحة إلا من أنفاس الرجال اللاهثة، وأنَّات الجرحى المكتومة، وتعلقت الأبصار بالخيمة المقدسة، في انتظار خروج الكليم بأمر السماء.

ومضت دقائق خرج بعدها (موسى) متكئًا على عصاه، عابس الوجه، مفطور القلب، ينظر بأسى إلى الشعب الذي خذله في كل اختبار وقال:

ـ هكذا قال السيد الرب: أربعون سنة تتهيون في الأرض، حتى يهلك ذلك الجيل الذي رأى الآيات كلها ولم يؤمن! كل من جاوز العشرين سنة فإنه لن يدخل الأرض ويموت في تلك الصحراء شريدًا تائهًا، إلا (يوشع) و(كالب بن يفنه)، فإنهما يدخلان إلى الأرض.

عقدت المفاجأة ألسنة القوم، ولم يقطع الصمت سوى صوت (هارون) الذي قال مرتعشًا:

ـ حتى أنت يا (موسى)؟!

قال (موسى) باكيًا:

ـ حتى أنا يا (هارون)!

ثم مسح دموعه وقال موجهًا كلامه للنقباء العشرة:

ـ أما أنتم يا من أشعتم مَذمّة الأرض بين الناس، فكعدد الأيام التي تجسستم فيها الأرض، تحملون ذنوبكم! أربعون يومًا بأربعين سنة، لليوم سنة! بالمرض تحيون، وبالوباء تهلكون!

فإذا بالنحيب يعلو حتى صار صراخًا، وإذا بالناس يحثون على رءوسهم التراب، يشقون جيوبهم في هلع! ويلطمون خدودهم في يأس! وارتجف جسدي من المشهد العظيم، ففاضت عيني بالدمع، وانهرت جالسا دافنًا وجهي بين راحتي، وألقى (عامير) الذي لم يكن أحسن مني حالًا برأسه على كتفي، فامتزجت دموعنا وأخذتنا معًا رجفة البكاء، قمت من جلوسي أبحث بعيني عن أبي، وقبل أن أتحرك، شَقّت سماء النزل صرخةٌ، انقبض لها صدري، ثم تبعها ضجيج وجلبة مَيّزت فيها اسمي يتردد على ألسنة الناس، ووجدت جماعة من الناس يتزاحمون على مقربة منا، وقد اشتد بينهم البكاء والعويل، ولم انتبه إلا ويد (بصلئيل بن حور) فوق كتفي وهو يقول:

ـ أدرك أباك يا (شمعون)! فقد سقط صريعًا!

حملتني ساقان خائرتان، وسرت مرتجفًا بين حلقات الناس التي انفرجت مفسحة الطريق أمامي، وقد غامت في عيني الرؤية إلا من أشباح الرءوس التي تمايلت نحوي، وأصواتها التي تأتي من أعماق سحيقة، بكلمات مبهمة ملأت قلبي خوفًا ورهبة، إلى أن انفرجت الحلقة الأخيرة من الناس، لأجد الجسد القوي ممدًّا أمامي فوق الأرض، وقد اعتصر الألم وجهه، وأمسك بصدره في قوة وكأنما يطبق على قلبه وحش، وقفت أمامه مرتجفًا، أكاد أبول في ثوبي من الخوف، فلما رآني ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة، ورفع يده عن صدره وكأنما استسلم لذلك الوحش الذي ينهش في صدره، ثم قال في جهد مضنٍ:

ـ الحمد لله الذي ترك بِضعة مني سترى الأرض المقدسة.

ثم هدأت ملامحه، وسكنت حركته، واستقرت عيناه على وجهي في اطمئنان، فظننت أن الألم قد زال عنه، ولكني سمعت (بصلئيل بن حور) خلفي يجهش باكيًا وهو يقول في ذهول:

ـ رحماك يا رب العالمين، مات صاحب القلب النقي (زخاري) النجار.

* * *

الورقة الثانية والعشرون

كان حالي في ذلك اليوم كمن يعيش حلمًا باكيًا يتمنى أن يستيقظ منه حتى تنتهي معاناته لكنه لا يستطيع، كنت أقف بين الناس مذهول العقل خالي الفؤاد كصنم أصم، ولولا دموع تنساب على وجنتي في صمت، لظن الناس بي الصبر والجلد، رفع الرجال الجسد الخامد على الأكتاف، وحملوه إلى خيمة تجهيز الموتى، مددت يدًا مرتعشة كي أشارك في رفع الجثمان، ولكن (بصلئيل بن حور) منعني عن ذلك بأن أمسك كتفي في رفق، ثم مال على أذني قائلًا في عطف:

ـ دع عنك هذا يا (شمعون).

تكلمت للمرة الوحيدة في ذلك اليوم، فقلت ودموعي تنساب في غزارة:

ـ ألن نعود به إلى الدار!

ربت على كتفي في رفق، ثم قال باكيًا:

ـ إن في جسد الميت نجاسة ولا يجوز تجهيزه في الدار.

آلمتني كلمته! «نجاسة»!! يا آلله! كيف يوصف هذا الجسد الطيب والقلب النقي بالنجاسة؟! أم تُرى أن طهارته كانت في روحه التي انفصلت عنه إلى مكان مجهول؟!

وكأنما تذكر (بصلئيل) أن في الدار زوجة لا تعلم بوفاة زوجها، فأشار إلى

(عامير) الذي كان أكثر تماسكًا مني وقال:

ـ يا (عامير) اذهب إلى دار أم (شمعون) وأخبرها بمصابها برفق، وقل لها يوصيكي (ابن حور) بعدم الصراخ!

وتوافد الأقارب حول خيمة التجهيز فأتى (ملاخي) ابن عم أبي، و(منواح) ابن خالته، ورجال من سبط رأوبين، وآخرون من سبط شمرون، كنت أتلقى منهم العزاء وقلبي يتألم من المفارقة، أن يكون (زخاري) النجار أول من يذوق الموت في التيه، وكأنما انقضت حياته بانقضاء حلمه!

ودعاني (بصلئيل) إلى الدخول بعدما أتم الكاهن تجهيز الجثمان حتى أتلو صلاة القادش على أبي، دلفت إلى الخيمة الرطبة بقدمين مرتعشتين، وسطعت أنفي رائحة الكافور والصندل، فظننتها رائحة الموت، وظلت تلك الرائحة تذكرني دائمًا بالموت كلما شممتها، وتحوم حول أنفي كلما رأيت جنازة أو سمعت بوفاة شخص ما!

وتطلعت بطرف عيني إلى الجسد المسجى فوق المائدة والملفوف بشال من الكتان إلا من الوجه، ثم تأملت صفحة الوجه الذي غابت عنه النضارة، وانطفأ فيه بريق الحياة، ورددت الصلاة خلف الكاهن بصوت خافت مكلوم، فخرجت الدعوات صادقة من عميق قلبي، وكأنما أهديها لأبي الذي لم أهده شيئًا قط في حياته!

وبعد أن انتهت الصلاة تناول الكاهن قدحًا من الماء المقدس مذابًا به الشمع المعطر، ونضح بيده بضع قطرات على الوجه والجسد، وهو يدعو له بالراحة الأبدية، ودعا الكاهن الرجال لكي يحملوا الجثمان إلى مثواه الأخير.

ـ أبهذه السرعة؟! كيف يكون الإنسان ملء السمع والبصر في الصباح، ثم يغدو محمولًا على الأعناق عند الظهيرة؟!

وخرجنا من الخيمة فإذا بصراخ النسوة من سبط رأوبين يملأ جنبات الواحة، وصراخ العمة (باتشيفا) يفوقهن لوعة ونحيبًا، وبحثت عنها بين النسوة بعينين

متلهفتين، فلم أجدها! وددت لو أتدثر بحضنها الذي كنت أشتاق إليه في تلك اللحظة ولكني لم أجده! أين أنتِ يا (رومانا)؟! لماذا تتركيني وحدي في تلك اللحظات التي يعجز فيها المرء أن يكون وحيدًا؟!

وسار الرجال بالجثمان وأنا خلفهم مع المشيّعين، وفي الصحراء المجاورة للواحة كان كلُّ شيءٍ مُعدًّا، حفر بعض الرجال اللحد، واستعدوا لاستقبال الجسد الخامد بقلوب جامدة، تمرست على تلك الأعمال وصارت بينها وبين الموت ألفة، فتلقفوا الجثمان وأرقدوه وقبل أن يهيلوا عليه التراب سمعنا الكاهن ينادي في الناس قائلًا:

ـ أيها الناس يأمركم نبي الله أن ترقدوا ميتكم في اتجاه الأرض المقدسة.

فخفقت قلوب الناس لهذه البشارة وقال (بصلئيل) باكيًا:

ـ كان قلبه يهفو إليها حيًّا، فصوب الرب جسده نحوها ميتًا.

فأصلح الرجال من وضعه وجعلوا رأسه نحو الأرض المقدسة، ثم أهالوا عليه التراب حتى غاب في بطن الأرض ولم يعد يدل عليه إلا حجر أصم، يسمونه شاهد القبر، ولو كان هذا الحجر يشهد على شيء فإنما يشهد على أن أمواج الأماني مهما علت ستتحطم يومًا على صخرة الموت.

وانتهت مراسم الدفن والعزاء، وشعرت برغبة في الهروب من ذلك الحلم البغيض! وقررت أن أترك ذلك المكان الموحش وهؤلاء الغرباء إلى مكان آلفه، فاستدرت أعدو نحو الدار وسط ذهول الرجال وشفقتهم! ودلفت إلى الدار في سرعة، فوجدتها ساكنة إلا من صرير بابها الخشبي الذي تركته مفتوحًا، كانت عيني تبحث عنها في كل ركن، دلفت إلى حجرتها فلم أجد سوى (باتيا) نائمة وحدها في الفراش، خرجت إلى الفناء وصعدت السلم الخشبي إلى الطابق العلوي فلم أجدها أيضًا في حجرتي، فهبطت الدرج وقلبي ينازعه القلق والخوف أن تكون قد ألحقت بنفسها مكروهًا، وكدت أعود إلى الساحة لولا أن سمعت نحيبًا خافتًا يأتي من الفناء الخلفي للدار، فسرت

وراءه لإجدها جالسة وحدها منكمشة على نفسها كعادتها حينما تحزن، تضم صدرها إلى فخذيها وتدفن رأسها بين ركبتيها، وقد أطبقت بيدها على الناي الخشبي الذي صنعه لها أبي منذ سنوات، اطمأن قلبي لمرآها وسرت إليها خافق القلب دامع العين، ثم رفعت جسدها المتصلب، فطاوعتني بصعوبة ولم أتمالك نفسي حينما رأيت الوجه الشاحب والعيون الذابلة التي تفيض منها الدموع، فأجهشنا ببكاء حار ثم جمعنا عناق أشعرني بأني ما زلت أملك سندًا في الحياة.

* * *

ومرت أيام على وفاة أبي، ولم يألف فؤادي غيابه، كان بداخلي قلب يترقب دخوله إلينا في أي لحظة، وكنت أدلف إلى حجرته أحيانًا متوهمًا نومه ساعة القيلولة، فإذا بالفراش المرتب الذي لم تنم عليه أمي منذ وفاته خاليا، ينبهني خواؤه إلى الفراغ الذي حل بحياتنا، وتذكرني برودته بالدفء الذي رحل عنا.

وكان بعض النسوة من الحي يترددن على البيت لمواساة الأسرة، منهن (آيلا) زوجة (بصلئيل بن حور)، وأم (إياس) زوجة (ملاخي)، و(أدارا) زوجة (منواح)، وكانت جلسات النسوة تطول يومًا بعد يوم، وشجعهن على ذلك استقبال عمتي (باتشيفا) الذي كان لا يخلو من حفاوة مبالغ فيها، فقد وجدت عمتي في تلك اللقاءات متنفسًا لها يشغلها عن الأحزان، وشاركتها (ياتيا) الصغيرة ذلك الشعور فقد كانت تفرح لزيارات هؤلاء الأقارب والجيران لا سيما إذا كان في صحبتهم بعض الأطفال يشاركونها اللهو والمرح اللذين غابا عن دارنا الحزينة.

أما أمي فقد اعتزلت تلك الجلسات، إلا إذا كانت (آيلا) زوجة (بصلئيل) ضمن الحضور، وكانت تعتكف أغلب الأوقات في حجرتي في الطابق العلوي، أو في الفناء الخلفي للدار، تحتضن ذكرياتها وحدها، أو تعيش أوهامًا من نسج خيالها تحادث فيها أبي بصوت خافت ولكنه مسموع، حديث يمتد بهما إلى جوف الليل، ثم تستيقظ قبل الشروق وقد تورمت عيناها وانكسر بصرها من طول الحزن والبكاء.

ولم أستطع أن أمد يد العون لأمي، ولم أجد يدًا تمتد بالعون نحوي، فحتى (عامير) الذي عاش بيننا أعوامًا شعر بغربته في المنزل بعد وفاة أبي، ووجد حرجًا في أن يبيت في حجرتنا التي صارت أمي تقضي أغلب الوقت فيها، فصنع لنفسه عريشًا صغيرًا بالقرب من جدول الماء أقام فيه وحده.

وبت أنظر إلى حياتنا التي تداعت أركانها فجأة لموت أبي وانفرطت حباتها كما تنفرط حبات العقد، فينفطر قلبي حزنًا وتزداد نقمتي على كل شيء، على شعب إسرائيل الذي أضاع حلم أبي، وعلى أبي الذي أضاعنا في سبيل حلمه، وعلى الأقدار التي تغرينا بالأمنيات ثم تضع في طريقنا مئات العثرات لتحول بيننا وبين تحقيقها، وأصبحت أتساءل دائمًا: ما جدوى أن يحيا الإنسان مؤمنًا، إذا كان سيموت كمدًا مثله مثل أشد الجاحدين ظلمًا؟

ووجدتني تائهًا مضطربًا، تعصف بي الأحزان، ويتلاعب بي اليأس والقنوط، يتسع من حولي فراغ الحياة، ويتسلل إلى قلبي رويدًا رويدًا حتى ملأ حياتي، وصرت كذرة من هباء تسبح في فراغ مظلم، تنتثر مع كل حركة في جنون دون أن يشعر بها أحد، وأقصى أمانيها أن يمتد إليها شعاع من نور تتعلق به ولو إلى حين!

والتقى ذلك البحر المتلاطم من الأفكار الثائرة مع ثورة قام بها بعض الرجال من بني إسرائيل رجال أحزنهم ضياع الحلم من بين إيديهم، وأغضبهم أن يشملهم العقاب الإلهي دون ذنب منهم، فقد كان أغلب هؤلاء ممن بذلوا أنفسهم للخدمة في جيش الرب، وكانوا -مثلهم مثل أبي- ينتظرون اليوم الذي تطأ فيه أقدامهم الأرض المقدسة، فلما جاء الأمر بالحرمان، وكُتِب عليهم التيه، ثاروا على ذلك العقاب القاسي، وساروا بين الناس يدعونهم للصعود إلى الأرض المقدسة، ويحثونهم على اختيار الحرب، بعد أن أصبح الخيار بين أمرين لا ثالث لهما، فإما الهلاك المؤكد في الصحراء، وإما المجازفة بدخول الأرض، فلاقت تلك الدعوة استجابة من عدد ليس بالقليل، واجتمع حول قائدهم (عفرة بن إيتام) عدة آلاف من بني إسرائيل، وغضب نبي الله (موسى) من تلك الدعوة

التي تخالف أمر الرب، وأرسل بفتاه (يوشع) إلى قائد الثورة (عفرة بن إيتام)، يحذرهم مما أقدموا عليه، ودار بينهما حديث علمته من جنود عفرة لاحقًا.

قال (يوشع):

ـ لماذا تتجاوزون أمر الرب؟

قال (عفرة):

ـ ألم يكن هذا أمر الرب؟

قال (يوشع):

ـ بلى، ولكن الرب قد نظر إلى قلوب هؤلاء فلم ير فيهم خيرًا، ولو كان فيهم خيرٌ لاستجابوا له قبل أن ينزل عليهم عقابه!

قال (عفرة):

ـ لم يكن في قلبي شر!

قال (يوشع):

ـ أعلم يابن إيتام بأن في قلبك الخير ولهذا أتيتك!

ثم أردف:

ـ ارض بما قسمه الرب لك، ولا تتجاوز أمره، فلو كتب الرب لأحد آخر دخول الأرض، لكان نبي الله (موسى) وأخوه (هارون) أولى الناس بذلك.

قال (عفرة):

ـ خير لنا أن نعجل بالقضاء بدلًا من انتظاره.

قال (يوشع):

ـ بل خير لك الصبر لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا! ويكفيك أن نبي الله (موسى) قد قال: لا تصعدوا لأن الرب لن يكون في وسطكم.

قال (عفرة):

ـ لا حاجة لنا به!

قال (يوشع) مذهولًا:

ـ قد ارتددتم إذن عن ربكم!

قال (عفرة):

ـ بل هو من طردنا من حظيرته!

قال (يوشع):

ـ ستسقطون بسيف الكنعانيين.

قال (عفرة):

ـ في الحرب إما قاتل أو مقتول، أما في التيه فنحن هالكون لا محالة.

قال (يوشع):

ـ أن تهلك في الطاعة، خير لك من أن تُقتل على معصية!

قال (عفرة) منهيًا الحديث:

ـ لن يطولك أذى في كل الأحوال يابن (نون)، فقد استثناك الرب من بيننا.

ثم أردف:

ـ سنصعد إلى الأرض المقدسة على أي حال، شاء نبيك أم لم يشأ.

وعلمت بأمر الجيش فوجدت في نفسي تَوْقًا لأن أتقصى أخبارهم وصرت أتلصص على اجتماعاتهم وأسترق السمع إليهم دون أن أفصح عن نفسي، وكنت كلما استمعت إلى قائدهم (عفرة) وهو يتحدث ازددت إعجابًا به، فقد كان فيه مزيجٌ من شجاعة (يوشع)، وعطف أبي وحنانه، وراودتني فكرة ظلت تنمو بداخلي حتى ملكت وجداني، فلماذا لا أتبع جيش (عفرة) إلى الأرض المقدسة، فأنا لست من المحرومين من دخولها، ولو نزل العقاب بهم فلن يشملني بكل تأكيد، فهم يتحدون أمر الرب، أما أنا فلا، وكنت أستمع إلى صوت يتردد بداخلي ولا أدري ما مصدره يقول لي: لم يحرم الرب عليك دخول الأرض المقدسة فعلام الانتظار أربعين عامًا حتى تحقق حلم أبيك؟!

وتحدثت إلى (عامير) أتحسس منه رأيه في جيش (عفرة)، فقال دون تردد:

ـ هم عصاة!

فوجدتني أغضب منه وأقول:

ـ بل هم أكثر الناس إخلاصًا في بني إسرائيل! ألم يتبعوا (يوشع) من قبل؟ ألم يكن (عفرة) من قادة جيش الرب؟!

قال (عامير):

ـ بلى، ولكنهم يخالفون الآن أمر الرب.

قلت غاضبًا:

ـ إن (عفرة) وجنوده يدافعون عن حلمهم الذي أضاعه تخاذل بني إسرائيل، ويرفضون الموت في التيه كما مات غيرهم!

وشعر (عامير) بما يدور في نفسي من صراع، فقال في إخلاص:

ـ لا تستمع إلى غضبك يا (شمعون)!

ثم قال في عطف:

ـ الحمد لله أننا ممن لم يشملهم الرب بالحرمان، وسيأتي اليوم الذي ندخل فيها الأرض المقدسة معًا.

قلت متهكمًا:

ـ بعد أربعين عامًا؟!

قال مهونًا:

ـ ما أسرع الأيام!

قلت في مرارة:

ـ وما جدوى أن أدخل الأرض وحدي، إذا ما ابتلعت تلك الصحراء أمي كما ابتلعت من قبل أبي!

تنهد ثم ربت على كتفي ثم قال:

ـ هون عليك يا (شمعون)، فأنا سأدخل الأرض بلا أب ولا أم، ولا أخوة ولا عشيرة!

* * *

وقضيت الأيام التالية مشتت الفكر، حيران الفؤاد، أتفكر في أمور الناس من حولي وأتعجب! كيف عاد هؤلاء إلى سالف عهدهم بتلك السرعة، يتهافتون على المن في الصباح، وينتظرون السلوى في المساء، فيأكلون ويشربون وهم يعلمون أنهم هالكون في تلك الصحراء ولو بعد حين؟! كيف يحيا الإنسان هكذا وقد انقطع به الأمل؟ وما الفرق حينئذ بينه وبين الدواب؟ وكلما أمعنت النظر فيمن حولي، ازددت يقينًا بأن (عفرة) وصحبه على صواب، وأن أبي لو كان حيًّا لتبعهم! وحملت همومي إلى (بصلئيل بن حور)، أتلمس منه الرأي مثلما كان يفعل أبي، سألته مباشرة:

ـ كيف تحيا وقد انقطع بك الأمل؟

قال في هدوء:

ـ ومن أخبرك بهذا؟!

قلت متعجبًا:

ـ وهل بقي عندك منه من شيء؟!

قال بلهجة مطمئنة:

ـ نعم فالأمل لا يزال موجودًا فيك وفي أقرانك!

قلت مستنكرًا:

ـ وما جدوى أن يجني غيرك الثمار؟

قال ضاحكًا:

ـ وهل الحياة إلا زرعًا نغرسه فيجني ثماره أبناؤنا وأحفادنا؟!

قلت محاولًا إثارته بسؤال صادم:

ـ أما يحزنك أن يعاقبك الرب بما لم تقترفه يداك؟!

قال:

ـ لا يظلم الرب أحدًا.

قلت:

ـ ولكنه حرمك من دخول الأرض.

قال:

ـ بل رفع عني التكليف وأعفاني من الحرب، وتركها لمن يطيقها!

قلت:

ـ ولكنك مؤمن به وتستحق أن تنال الجائزة، وإلا ما الفرق بينك وبين من امتنع عن الحرب!

قال:

ـ الرب يطلع على القلوب!

قلت:

ـ لا أفهم.

قال:

ـ نظر الرب إلى قلوبنا، فوجدنا لا نستحق الجائزة!

قلت:

ـ هذا خضوع للظلم؟!

قال معاتبًا:

ـ بل رضًى بحكم الرب.

ويوم بعد يوم صارت فكرة الرحيل شبحًا يرافقني في يقظتي ونومي، ولم يكن يحول بيني وبين تنفيذها سوى أمي وأختي الصغيرة (باتيا)، فمن سيقوم على رعايتها إذا ما رحلت ولحق بي أذى؟ والعجيب أن إحساسي بالذنب نحو

أمي وأختي، كان يفوق إحساسي بالذنب لمرافقة العصاة كما كان يحلو لبني إسرائيل أن يسموهم، وكنت أردد بيني وبين نفسي في لا مبالاة، ماذا جنى الطائعون غير الموت كمدًا أو التيه في الصحراء؟!

وفي صبيحة يوم مشهود تجمع الجيش الذي أعده (عفرة بن إيتام) خارج الواحة، ووقف بنو إسرائيل لوداعهم بمشاعر شتى، منهم من كان يمقتهم لمخالفتهم أمر الرب، ومنهم من كان يشعر بالإشفاق عليهم مما سيلاقونه من ويلات ومنهم من كان يودعهم وفي قلبه أمل واهن في أن يكتب لهم النجاح، فيعفو الرب حينئذ عنهم، وينظر في أمر العقوبة من جديد!

أما أنا فقد كنت أكثر اضطرابًا، شعرت أن الوقت قد استل سيفه ووضعه على رقبتي، وأصبح مصيري معلقًا بسرعة قراري، فإما أن أتبع هذا الجيش، أو أن أمكث في هذا القفر أربعين عامًا!

ومكثت النهار في حجرتي أدور جيئة وذهابًا كزنبور محبوس بين جدران أربعة وعيني ترقب قرص الشمس الذي خلع رداءه المتوهج، واكتسى بحلة برتقالية استعدادًا للمغيب، وطرق مسامعي صوت فرخين من السلوى يهدلان في الفناء الخلفي، نظرت من النافذة فرأيت أمي تخرج إلى الفناء وتتلقف الفرخين استعدادًا لذبحهما وطهيهما للعشاء، فشعرت أن الفرخين قد حملا لي رسالة اطمأن بها قلبي على مصير أمي وأختي إن أنا رحلت عن الدار وتركتهما، فهما في رعاية الرب ونبيه.

وانتظرت حتى حل المساء وأرخى الليل سدوله، ثم تسللت من حجرتي حاملًا فوق ظهري متاعًا خفيفًا وقربة من الماء، وصرة من قماش بها أوراقي والدواة والقلم، وأخفيت بين طيات ملابسي خنجرًا كان يمتلكه أبي، آثرت أن أحتفظ به رغم يقيني بأني لن أجرؤ على استخدامه! وأرخيت عقال الأتان فأسلمت لي ظهرها في هدوء، وكأنما أحست بتلصصي فآثرت ألا تصدر صوتًا يفتضح به أمري، وما هي إلا لحظات حتى ابتلعني ظلام الحي، وركبت مبتعدًا عن منزلنا الحبيب، ويممت وجهي شطر عريش (عامير) الذي أقامه عند جدول

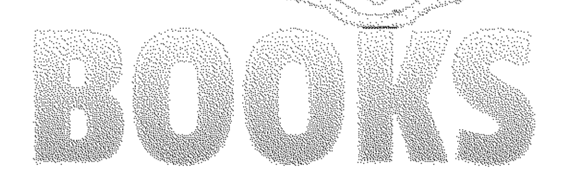
الماء، وبعد أن وصلت إلى العريش، أخرجت رسالة مطوية من ورق البردي، كتبتها في وقت سابق في ذلك النهار، ووضعتها برفق أمام عتبة الكوخ، حتى يراها (عامير) حينما يصحو.

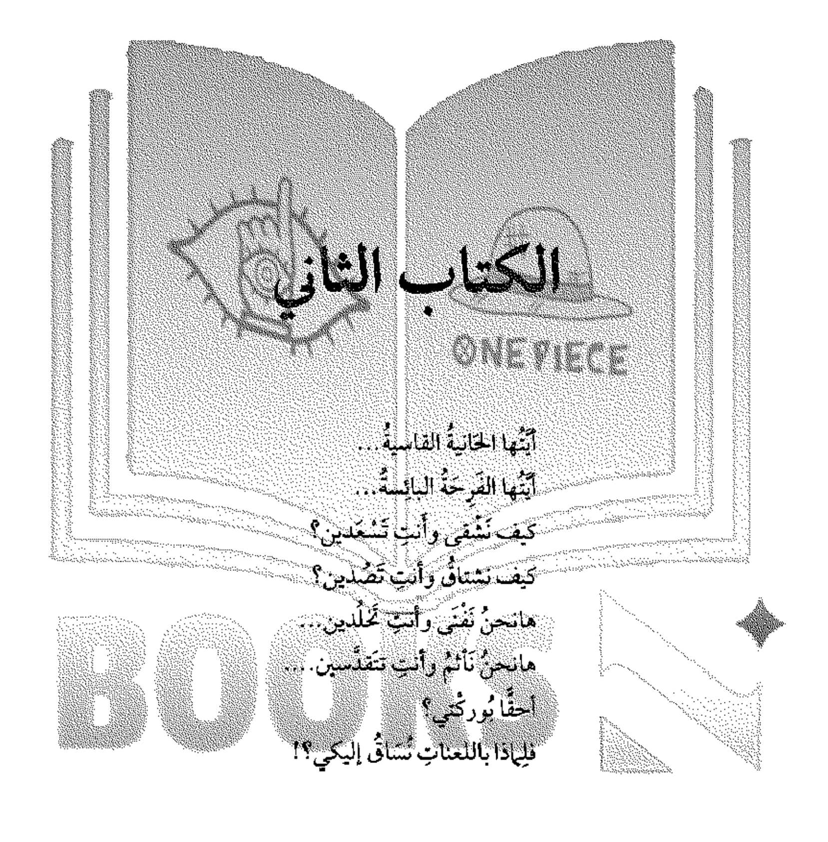
كانت الرسالة من جملة واحدة:

«لن أنتظر أربعين عامًا حتى أحقق حلم أبي، أوصيك بأمي وأختي».

وقضيت أول الليل ممتطيًا أتاني في الصحراء، يخفق قلبي رهبة من ظلام الليل ووحشة البيداء، أشعر بالخوف من مستقبل قريب مجهول، وتتشبث بي الذكريات لتعيدني إلى ماضٍ حزين، فلكزت الأتان في جنبيها حتى تسرع الخطى، وكأنني أفر بها من نفسي قبل أن تنكص على عقبيها، ولم أدر وأنا أهرول مبتعدًا عن الأرض التي كتب فيها التيه على بني إسرائيل أنني قد بدأت رحلة من التيه عشتها وحدي بعيدًا عن أمي وعن بني إسرائيل.







الكتاب الثاني

أَيَّتُها الحَانِيةُ القاسيةُ...

أَيَّتُها الفَرِحَةُ البائِسةُ...

كيفَ نَشْقَى وأَنتِ تَسْعَدين؟

كيفَ نشتاقُ وأنتِ تَصُدين؟

هانحنُ نَفْنَى وأنتِ تَخْلُدين...

هانحنُ نَأْثَمُ وأنتِ تتقدَّسين...

احقًّا بُورِكْتِي؟

فلِماذا باللعناتِ نُساقُ إليكي؟!

الورقة الثالثة والعشرون

غشي الليل السماء بحُلته السمراء القاتمة، التي أخفت في طياتها ومضات النجوم، واحتجب قرص القمر خلف موجات كزبد البحر من السحاب المتراكب، فاكتست أرض البيداء بظلام قاتم، زاد من وحشة تلك الليلة ورهبتها، كنت قد ابتعدت عن الواحة ببضع فراسخ، وقطعت شوطًا في عمق الصحراء ومع ذلك لم تطالعني نيران جيش (عفرة)، وانقضى شطر الليل وأنا على ذلك الحال، وكأني أدور في فلك واهم حول جرم مجهول، حتى دب في قلبي اليأس، وشعرت بالتعب من كثرة التجوال دون هدف، وكدت أدور بالأتان في اتجاه العودة إلى الواحة، لولا أن شق الهواء صوت صهيل فرس طرق أذني هذه المرة بغير لبس ولا أوهام، فقد كانت أصوات الرياح العابثة تتلاعب بي طوال الليل، وتوهمني بأصوات شتى، ولكن الصوت هذه المرة جاء جليًا واضحًا بصورة لا تخطئها الأذن، فأضاء نفسي بالأمل، وحمل إليّ البشرى، فوكزت الأتان في جنبيها ودرت دورة حول كثيب الرمال، فإذا بي أجد مخيمًا تتناثر في أرجائه بعض المشاعل التي خفتت نيرانها وسكنت فيه أصوات النائمين من الناس والخيل إلا من ذلك الفرس الذي أصابه الأرق فوقف على مدخل المخيم يصهل صهيله المحمود، اطمأن قلبي لمرأى المخيم، وهداني ضوء مشاعله إلى الطريق، وحينما وصلت، أوقفني حارس المعسكر، واقترب نحوي حاملًا مشعلًا ثم سألني:

ـ من أنت؟
قلت:
ـ (شمعون بن زخاري) النجار
وكأنما عرفني الرجل، فقال:
ـ ما الذي أتى بك إلى هنا يا غلام؟
فقلت في رجاء:
ـ أريد أن أتبعكم إلى الأرض المقدسة.
قال الرجل:
ـ عد يا غلام من حيث أتيت، فالأمر خطير.
قلت مستعطفًا:
ـ أعلم أنه خطير، ولكنه يستحق، فقد مات من أجله أبي!
تنهد ثم قال في حزن:
ـ تعلمت منه الرمي بالسهم، وكان قلبه معلقًا بالأرض المقدسة.
قلت راجيًا:
ـ فلأجله دعني أرافقكم!
تردد لحظات ثم قال:
ـ حسنًا لا سبيل لرجعوك الآن، فلتبت بالمعسكر وسأخبر (عفرة بن إيتام) بأمرك في الصباح.

وفي الصباح علم (عفرة بن إيتام) بالأمر، وشفع لي الحارس عنده، وأوحى إليه بأنني قد أُعين الجند في بعض أعمال الخدمة، فوافق (عفرة) قائلًا:
ـ حسنًا فليبق في مؤخرة الجيش، وليعمل على سُقيا الخيل حتى نصل إلى الأرض.

وواصل الجيش مسيرته لثلاثة أيام متتالية، أوغلنا فيها في الصحراء إلى أن

وصلنا إلى مكان يسمي «حُرمَة» في برية فاران يبعد مسيرة يوم واحد من تل العراد، فأمر (عفرة) بأن تضرب الخيام في هذا الموضع، استعدادًا للدخول إلى تل العراد.

وكنت أسقي الخيل في الصباح، وأبيت إلى جوارهم في المساء، حتى صارت بيني وبينهم ألفة، عززتها رائحتي التي صارت مزيجًا من العرق ورائحة الروث، فقد كان الماء قليلًا، ولم يُسمح لنا بإنفاقه في الاستحمام إلا فيما ندر، ولم أكن أختلط بالجنود إلا في أوقات الطعام، والعجيب أن الجنود كانوا يسألونني عن اسمي وعن الحي الذي أسكن فيه ومن أي البطون أتيت، ولكن لم يسألني أحدهم لماذا تركت أهلي وتبعت الجيش في الصحراء، ولم يدر بخلد أحدهم أن في قلب هذا الصبي إصرارًا على بلوغ الأرض المقدسة يفوق أحلامهم وآمالهم، وشغلتني تلك الأعمال في أثناء النهار، ولكنها لم تهون عليّ وطأة الوحدة في الليل، فكنت إذا جن الليل، أتقلب في فراش من السهد، وأمسي مؤرق النفس، أتفكر في أمر أمي، وأتساءل هل سيشفع لي عندها تحقيق حلم أبي؟ أم تراها ستظل غاضبة مني لفراقها؟

وفي الليلة الخامسة علمت من الرجال أن الجيش سيقتحم حصن «تل العراد» في صبيحة اليوم التالي، وكان الجنود يتحدثون بثقة مفرطة في النصر، فقد تداولوا ما ذكره النقباء الاثنا عشر من قبل عن ضعف الحصن، وقلة جنوده من الكنعانيين، كما أكد الجواسيس الذين أرسلهم (عفرة) إلى الحصن تلك الأنباء، ورغم ذلك انتابني القلق طوال الليل، وتسرب الخوف إلى نفسي، وأنا أعلم أني سأشهد قتالًا حقيقيًّا في الصباح، حتى وإن كان النصر أقرب إلينا كما يدعي الجنود.

وفي الصباح لجأ (عفرة) إلى الحيلة التي فعلها (موسى) من قبل، فأمر فرقة من الجند أن تتنكر في زي تجار من العبرانيين، وجعل في مقدمتها بضع نوق محملة بهوادج يختبئ في كل واحدة منها عدد من الفرسان، ووصلت الفرقة إلى الحصن، ففتح لها الحراس الأبواب، دون أن ينتبهوا إلى حقيقتها، وفي لمح

البصر قفز الفرسان المدججون بالسلاح من الهوادج، واستل التجار المزيفون سيوفهم، وأعملوا في الحراس الكنعانيين السيوف، وفتحوا أبواب الحصن عنوة، ثم حمل (عفرة) بجيشه حملة عظيمة، لم يقو على ردها جنود الحامية، ولم تمض ساعة من النهار حتى انهزم جند الكنعانيين، وفر من نجا منهم إلى بيت إيل في الشمال، واستولى (عفرة) على الحصن وعلى أسلحة الجند المنهزمة، وجعل منه مركزًا لقيادة الجيش، ونشر جنده على مداخل المدينة ومخارجها، ومكثنا في تل العراد بضعة أسابيع، تجهز فيها (عفرة) ورجاله للمعركة الفاصلة القادمة في بيت إيل.

وطار نبأ استيلاء جيش العبرانيين على حصن العراد إلى حبرون وبئر سبع وبيت إيل، وعلمنا أن فرقة من جيش الكنعانيين تستعد للخروج لاستعادة حصن العراد، ولم يفُتَّ ذلك في عضد (عفرة) الذي خطب في الجند في حماس، وحثهم على الصبر، حتى يتمكنوا من هزيمة الكنعانيين ثم الاستيلاء على بيت إيل.

وقضيت أيامي في تل العراد في جهد لا يعرف الكلل، فقد كنت أخرج إلى البئر في كل صباح، أملأ جرار الماء ثم أنقلها إلى المعسكر كي تشرب منه الفرسان والخيل، ثم أقضي النهار مع الرجال في بناء المتاريس، وترميم أسوار الحصن المتهالك كي تصد عنا هجمات الكنعانيين المتوقعة.

ورغم الجهد والتعب، فإنني كنت سعيدًا باعتماد الرجال عليّ في تلك الأعمال الشاقة، وأكسبتني تلك المشقة سمرة في الوجه وصدرًا قويًا انفتلت عضلاته ثم انبسطت فوق المنكبين العريضين، لتنفض عني ميوعة الصبا ولتمنحني هيئة الشباب.

ورآني (عفرة بن إيتام) وأنا أعمل دون كلل في ترميم باب خشبي من أبواب الحصن، تكسَّر متراسه، وتآكلت زواياه، ونخر النمل أوتاده، فكنت أنزع الأوتاد المتهالكة وأستبدلها بأخرى جديدة صنعتها بنفسي، ثم صنعت له مزلاجين من الصلب ودعمتهما بعدة ألواح من السنط، جعلت من اقتحام

الباب أمرًا عسيرًا، وكنت أفعل ذلك بمهارة، فلما رآني (عفرة) وأنا على ذلك الحال ابتسم وقال:

ـ بوركت يا ابن (زخاري)، لو قدر لنا دخول بيت إيل، لبنيت حصنًا يفوق حصن تل العراد.

وأطلعنا الجواسيس الذين أرسلهم (عفرة) إلى بيت إيل، على أن الكنعانيين قد بدءوا في التحرك، واستبشر الجند خيرًا حينما علموا أن الفرقة لا تزيد عن بضعة مئات من الجند وأنهم من الجنود النظامية ولا أثر بينهم لبني عناق، فباتوا ليلتهم وقد وقع في ظنهم أن مدينة «بيت إيل» ـ أول منازل الأرض المقدسة ـ ستكون من نصيبهم عند الصباح، وأنها حتمًا ستسقط في إيديهم كما سقطت من قبل تل العراد.

وفي تلك الليلة لم تفارق أمي مخيلتي وشعرت بشوق لرؤيتها، وأشفقت عليها مما فعلته بها، ونمت وقلبي معلق بدارنا القابعة خلف الصحراء في قادش برنيع، وحين غلبني النعاس رأيتني أسير في طريق يشبه طريق الواحة، تحف به أشجار ذهبية الأوراق، ينعكس عليها ضوء الشمس، فبدت سماء الواحة متلألئة بالأنوار وكأنها قبة ممردة، ورأيت دارًا تشبه دارنا، ولكنها بيضاء كالثلج، أسرعت نحوها وفي قلبي شوقٌ لأن أرى أمي (رومانا)، لكنني قبل أن أصل إليها، رأيت رجلًا يخرج من باب الدار ويقف حاجزًا بيني وبين الباب، وأشار نحوي بالابتعاد، كان الرجل يشبه أبي، ولكنه كان أكثر طولًا، وأكثر بياضًا، يرتدي زيًا فضفاضًا، يتموج في الهواء، وكأنه جناحا كُرُوبِيِّن، حاولت الدخول مرة أخرى ولكنه دفعني في صدري حتى أبتعد، فوقفت أنظر إليه مترجيًا حزينًا، وانسابت دمعة شعرت بحرارتها على وجنتي، فلما رآني أبكي، أشار إليّ أن أتبعه ثم سار أمامي، فتبعته واجتزنا الطريق عبر الأشجار الذهبية قبل أن يتوقف، لأجد سفحًا ينحدر أمامي، يشبه السفح الذي يطل عليه الحصن في تل العراد، أشار بيده نحو نهاية السفح، فإذا بي أرى مئات الجثث من بني إسرائيل وقد انتثرت فوق الأرض، كانت عيني تطوف على وجوه القتلى التي ملأها الرعب

والفزع، وكأنني طائر يرنو إليها من السماء، ورأيت رءوسًا قد اجْتُثَّتْ من فوق الأعناق، وأُلْقِيَتْ في الصحراء، ثم استقرت عيني على رأس مقطوع، علقت على حربة غرزت في الرمال، فاقتربت منها في سرعة وكأنني أسقط عليها من علٍ، فلما أشرفت على الاصطدام بها استدارت الرأس في مواجهتي لأجدها رأس (عفرة بن إيتام)، فاستيقظت من نومي فزعًا وقد انقبض صدري في قوة، وأخذت ألهث في عنف، وكأنني كنت أعدو لعدة ساعات.

وأيقنت أن ما رأيته لم يكن حلمًا بل طائفًا من الرب حملته إليَّ روح أبي، وأَلْقِيَ في روعي أن أبي ليس عدمًا كما ظننت، بل أن جزءًا منه لا يزال حيًّا، يرنو إليّ من مكان غير بعيد، مكان تتكشف فيه الحجب، وينجلي فيه الغيب.

تناولت قربة الماء، فتجرعت منها رشفات رطبت حلقي الملتهب، ثم قمت من فوري إلى خيمة (عفرة بن إيتام)، واستأذنت للدخول، فأذن لي، وجدته متيقظًا، وقد ارتدى لباس الحرب، وقد بدا عليه العجب من طلبي لمقابلته في تلك الساعة المبكرة قبل الشروق، قال:

ـ هلم يا ساقي الخيل! ما الذي أيقظك في تلك الساعة المبكرة؟!

قلت له مفصحًا عما يقلقني وقد تهدج صوتي من التوتر:

ـ قد رأيت مَصَارِع الجند على أبواب «بيت إيل».

انزعجت أساريره، ثم قال محاولًا طمأنتي:

ـ لعلك رأيت حلمًا قد أزعجك!

قلت مؤكدًا:

ـ بل هو طيف من الرب، حملته إليّ روح أبي الطاهرة!

ابتسم في هدوء، ثم قال لي مهدئًا:

ـ بل هو خوف قد اعتراك أيها الصبي، وباحت به نفسك في نومها، فلا تخش شيئًا، فلن ينقضي النهار إلا وبنو إسرائيل في بيت إيل.

قلت متوسلًا:

ـ صدقني أيها القائد إن أبي لم يكذب قط!

ثم أردفت مبرهنًا على كلامي:

ـ أَوَلَمْ يحذركم (يوشع) من قبل؟

قطب جبينه وبدا أنه قد استاء مما أقول، ثم قال بعد فترة صمت في حسم:

ـ أرى أن الخوف قد بلغ بك مبلغه أيها الفتى، فلتبق في الحصن ولا تغادره، وحذارِ أن تُحدِّث أحدًا في الجيش بما رأيت في نومك.

ثم نادى على حارسه قائلًا:

ـ ضعه في البرج حتى ينقضي اليوم، فقد أصبح كالثمرة الفاسدة التي قد تفسد من يجاورها، وغدًا فراق بيننا وبينه إلى غير رجعة.

ثم أشار إليّ بالانصراف.

تبعت الحارس حاملًا معي أغراضي القليلة، وصعدت إلى برج الحصن المرتفع، ثم ألقيت الأغراض على الأرض ووقفت أتطلع من نافذة الحصن، فانصرف الحارس وهو يحذرني قائلًا:

ـ لا تغادر الحصن يابن (زخاري)، فإنك لا تعلم غضبة (عفرة بن إيتام).

فأومأت له برأسي دون أن أنظر نحوه، وشعرت بالدوار وأنا أتطلع إلى السفح الممتد أسفل تل العراد، والذي ينتهي عند أسوار بيت إيل، وقفزت إلى مخيلتي الرؤيا التي رأيتها أمس من ذلك الارتفاع وأنا أنظر إليه، وتمثلت أمام عيني نهايتها، فخفق قلبي في اضطراب، وتكثفت على جبهتي حبات من العرق البارد لم أدرِ ما مصدرها، ثم طفحت ذاكرتي بمشاهد طالما حبستها قهرًا في خبايا نفسي، فرأيت جسد (سولاف) المتدلي من العنق على فرع الشجرة، ورأيت وجه (الشامري) وقد تقيحت فيه البثور، ووجه (رام) وقد أخفت ملامحه الدماء، ووجه أبي المغطى بالكتان، فشعرت بالخدر يسري في أوصالي واستجار عقلي بإغماءة تحميه من مخاوف اللحظة وقلق الانتظار.

إن كل ما أتذكره بعدما أفقت من إغمائي، هي تلك الصرخات التي ملأت

الوادي والتي أطلقها جنود (عفرة) وهم يُحصدون بسيوف الكنعانيين ورماحهم، ظللت أعدو بكل ما أوتيت من قوة كفرس يقدح رمال الصحراء هربًا من قَسْوَرَةٍ ينهشها الجوع، لم ألتفت خلفي ولو لوهلة، كان يكفيني أصوات الجند التي تحملها الرياح إلى أذني كي تلهب ظهري كسياط تستحثني على الركض أكثر، ابتعدت عن الحصن كثيرًا، وتوغلت في الصحراء على غير هدي، حتى اختفت الأصوات من أذني وإن ظل وقعها على قلبي قويًا صاخبًا، لم أدر كم من الوقت قد مر عليّ وأنا أعدو ولكني حسبته كالدهر، شعرت وكأن لهيب الشمس قد ترك كثبان الصحراء واستقر فوق رأسي، جفَّ حلقي وزاغ بصري وأثقلت الرمال خطواتي حتى صارت الخطوة عبئًا لا يتحمله قلبي، فسقطت جاثيًا على ركبتي، أستعين بهما وبيدي في الزحف لبضعة أذرع أخرى، لعلها تأخذني بعيدًا عن ذلك الرعب القابع في قلب الوادي، ولكنها لم تكن سوى أذرع قليلة قبل أن أسقط مغشيًا عليّ.

* * *

لم أدر مقدار ما مر من الوقت وأنا فاقد الوعي، أيقظتني هزَّة أمالت جسدي جانبًا حتى أوشك على السقوط ثم أعادته إلى وضعه مرة أخرى، اعتدلت في جلستي بصعوبة بفعل الألم وشدة الاهتزاز، وتلفت حولي فأدركت أني محمول على هودج أرخيت سدوله، أصدرت الناقة حنينًا خافتًا وكأنها قد شعرت بعودة دبيب الحياة في راكبها، تحسست جسدي وكأنني أتيقن من أنني ما زلت حيًا سليمًا، ثم تلفت حولي كي أتأكد من موضعي، أسعدني أن وجدت صرة أغراضي إلى جانبي، وإن بدا أن أحدهم قد عبث بها وأخذ منها خنجري، ولحسن الحظ ترك العابث دواتي وقلمي وأوراقي.

أزحت ستار الهودج جهة اليسار مقدار فرجة يسيرة وتلصصت منها ببصري فوجدت إلى يسار الناقة فارسًا يمتطي فرسًا أبيض اللون ويتمنطق بسلاح هو وسط في حجمه بين الخنجر والسيف، أسدلت الستار في بطء حتى لا ألفت إليّ نظره، ثم أزحته جهة اليمين فإذا بي أجد ناقة أخرى تحمل هودجًا تجلس فيه فتاة سمراء البشرة، دقيقة الأنف والفم، طوت أستار هودجها وجلست

تتطلع إلى البيداء في تمعن وكأنها تتحدث إلى الفراغ من حولها في حديث صامت!

أرخيت الستار واستلقيت على ظهري في بطء وقد آثرت أن أخفي استعادتي لوعيي وحدقت في سقف الهودج وفي رأسي تدور عشرات الأسئلة عن هؤلاء الناس الذين حملوني معهم.

مرت سويعات قليلة قبل أن أشعر بالقافلة تتوقف، اعتدلت في جلستي وتشبثت بالرحل بينما كانت الناقة تنوء بجذعها كي تبرك، علت همهمات الرجال، ومرت بضع دقائق قبل أن يأتي أحدهم إلى راحلتي ويرفع أستار الهودج عنها، اطمأن قلبي لنظرة الشاب غير العدائية، أشار إليّ كي أهبط فحملت صرة أغراضي وقفزت من الهودج، قادني الشاب إلى مقدمة الرحل حيث كان الرجال يقومون بتثبيت خيمتين كبيرتين وكأنما قد قرروا المبيت في ذلك المكان.

تحدث الشاب إلى شيخ كبير كان يولينا ظهره، فهمت من كلام الشاب أنه كان يخبره باستعادتي لوعيي، التفت الشيخ نحوي وتلاقت أعيننا، فمست نظرة عينيه موضعًا في ذاكرتي لم تطمسه الأيام رغم مرور السنين، وعرفت فيها نظرة شيخ الأعراب (عابر) الذي استضاف أبي في «رَسَّة» منذ سنين.

وتعجبت من أحوال القدر معي، أردت أن أحقق حلم أبي في دخول الأرض المقدسة فإذا به يأتيني في المنام كي يصرفني عنها، وأردت أن أقِرَّ بنفسي من الهلاك، فإذا بالشيخ الذي أجار أبي في زمن الفتنة يجيرني أنا أيضًا من الهلاك في البرية.

وبعد أن ذكَّرت الشيخ بنفسي، دعاني إلى الخيمة التي انتهى الرجال من نصبها، وجلست إليه كي أقص عليه ما فعلته بي السنون.

وبينما كنت أقص عليه القصص، طاف بعقلي الوجه الأسمر الجميل، منمق الأنف والفم، الذي جاورني في الهودج، فخفق قلبي حين ذكرني بفتاةٍ سمراء، كانت بيني وبينها مغامرة في يوم من أيام الصبا، اسمها (أروى).

* * *

الورقة الرابعة والعشرون

أعادت تلك الليلة إلى قلبي شعورًا بالدفء انقطع منذ خروجي من النزل، تحممت بماء ساخن وارتديت جلبابًا عربيًا أهدانيه أحد أبناء الشيخ، ولففت رأسي بعمامة منحتني وقارًا ومظهرًا يفوق عمري بسنوات، جلس مجموعة من الرجال، هم مشايخ القبيلة وكبراؤها، ملتفين في حلقة، وقد وُضِع أمام كل واحد منهم صحن به رغيف من الخبز، وفي المنتصف، تقلبت شاةٌ مذبوحة معلَّقة من ساقيها على عارضة من الخشب فوق جمر مستعر، تطايرت قطرات الدهن المتساقط من جسد الشاة بعد أن مست الجمر الساخن، فملأت الجو بعبق الشواء الذي داعب أنفي لأول مرة منذ سنوات، سال لعابي وتمنيت لو بادر الطاهي بتوزيع شاتهِ على هذه الحال كي يكفنا عذاب الجوع!

فرغنا من الطعام والشراب، فامتلأت العروق بالدماء، والأوصال بالدفء وقام الرجال الواحد تلو الآخر مستأذنين في الانصراف، كان الواحد منهم ينحني على يد الشيخ (عابر) فيقبلها ثم ينصرف غير مستأنس لحديث، فكنت أتعجب من هذا الإكبار والاحترام الذي يظهره هؤلاء القوم لشيخهم، وأقارنه بسلوك بني إسرائيل مع نبي الله (موسى)!

لم يبق من حلقة الرجال سواي ووَلَدَيْ الشيخ (عابر)؛ (نابت) و(دومة) ـعلمت فيما بعد أن أباهما قد أسماهما على اسم ولَدي (إسماعيل) تيمنًا به، وكانت (أروى) هي ابنة الشيخ (نابت) الصغرى وأصغر أحفاد الشيخ (عابر).

هممت بالانصراف وقمت من مجلسي وأردت أن أنحني كي أقبل يده، ولكنه منعني بأن أمسك كفي وسحبها كي أجلس إلى جواره، فهم (نابت) و(دومة) بأن الشيخ يريد الحديث إليّ فانصرفا بعد أن قبّلا يده.

بادرني الشيخ بقوله:

ـ ما الذي تنوي فعله يا (شمعون)؟

قلت:

ـ أستأذنك سيدي الشيخ في أن أعود إلى قومي في قادش برنيع،

مسح الشيخ لحيته البيضاء الطويلة براحته عدة مرات، وكانت تلك عادة تلازمه عند التفكير، ثم قال:

ـ هل تظن أن قومك لا يزالون في قادش برنيع؟

الحق أن كلماته قد فاجأتني! فقلت وقد ساورني القلق بعض الشيء:

ـ قد كانت قادش آخر منازلنا بعد أن حكم الرب على بني إسرائيل بالتيه، وما أظن نبي الله (موسى) يخالف أمر الرب أو يسير بهم قدمًا إلى الأرض المقدسة.

صمت الرجل لحظات وأغمض عينيه برهة ثم قال متخيرًا من الكلمات أيسرها:

ـ قد مررنا بقادش برنيع منذ عدة أيام ولم نر أثرًا لبني إسرائيل هناك.

خفق قلبي وجلًا، وانتابني شعور بالخوف على أمي وأختي، فقلت ملتمسًا الأمل لدى الشيخ:

ـ لعل نبي الله قد ارتد بهم إلى عصيون جابر؟!

لم يجب، فتابعت مترجيًا:

ـ اجعل لي فرسًا وسوف اقتفي أثرهم إلى هناك!

صمت الشيخ أكثر وطالت فترة صمته، ثم قال:

ـ اسمع يا (شمعون)، قد أتينا من رسّة ثم إلى عصيون جابر ومنها إلى

قادش برنيع، وما رأينا (موسى) وقومه في طريق عودتهم.

قلت في تعجب أقرب إلى الاستنكار:

ـ أيعقل أن يختفي شعب بأكمله في الصحراء؟

قال غير مكترث من تعجبي:

ـ ظني أنهم قد سلكوا طريقًا لا نعرفه!

ثم قال في صوت خافت وكأنه يريد أن يترفق بي:

ـ إن للبرية دروبًا يتوه بها الأدلة يا (شمعون)!

قلت متعجبًا:

ـ أيضلون الطريق في الصحراء ونبي الله بينهم؟!

مسح لحيته مرة أخرى ثم قال في سكون:

ـ أليس هذا ما أمر به السيد الرب كما تقول؟ التيه في البرية!

التيه! لم أشعر بمعنى الكلمة من قبل مثلما شعرت به في تلك اللحظة، حين تركت قادش برنيع كنت أشعر بالخوف والترقب، ولكني كنت على يقين بأني سأعود إليها لأجد أمي وأختي في انتظاري ولو بعد حين، أما وقد علمت بأنهم قد تركوا المحِلَّة إلى مكان في البرية قد لا أصل إليه، فهذا هو التيه بحق، فليس التيه فقدان الأرض بل فقدان الأمل في لقاء الأهل والأحبة.

رأى الشيخ الكآبة والحزن على وجهي، فقال:

ـ اسمع يا (شمعون)، يعلم الله أني قد أحببت أباك ورأيت فيه نقاء القلب وصدق النية، وأنه كان عندي بمنزلة الولد وأنت عندي بمنزلة الحفيد، فإن شئت يا بني أن ترافقنا في رحلتنا فمرحبًا بك، فقد عزمنا السير إلى أرض إدوم ثم إلى وادي بكة.

فغرت فاهي دهشة وأنا أقول:

ـ وادي بكة؟!!

قال الرجل في هدوء:

ـ نعم قد خرجنا لزيارة بيت أبينا (إبرام) في بكة.

قلت:

ـ ومتى العودة؟

قال غير مؤكد:

ـ قد ينقضي العام قبل أن نعود فلنا تجارة نقايضها مع أهل الجنوب ثم نعود بعدها إلى منزلنا في رَسَّة في برية سين.

طافت على شفتي ابتسامة بائسة عبَّرت عما يجيش في نفسي من بؤس! يا لعبث الأقدار معي! أَفْقِدُ أبي بالموت كمدًا، ثم أَفْقِدُ أمي وأختي في التيه، كل هذا من أجل الوصول إلى الأرض المقدسة، ثم ينتهي بي المطاف في وادي بكة!

قلت للشيخ الجليل وأنا أتنهد في عمق:

ـ أشكرك سيدي الشيخ، قد تركت قومي أملًا في الوصول إلى الأرض المقدسة، فأما وقد فقدتهم في الصحراء إلى الأبد، فلا سبيل لدي إلا تحقيق حلمي وحلم أبي!

توقعت أن ينصحني بعدم الذهاب خوفًا عليَّ من بطش الكنعانيين، ولكنه صمت مرة أخرى وطالت فترة صمته وهو مغمض العينين قبل أن يقول:

ـ لماذا تريد الذهاب إلى الأرض المقدسة يا بني؟

قلت:

ـ هي أرض الآباء والأجداد، التي وعدنا الله بحكمها!

قال في هدوء:

ـ أي آباء وأي أجداد يا بني؟ ما كان آباؤنا حكامًا ولا ملوكًا، قد جاء أبونا (إبرام) إلى تلك الأرض لاجئًا من «أور» فارًّا بدينه من ظلم حاكمها وبطشه، فدعا الناس إلى عبادة الرب الواحد الأحد وتَرْك الشرك والمعاصي.

صمت هنيهة ثم تابع:

ـ سلام ربي عليه في كل زمان ومكان! قام وحده بما لم تقم به الأُمَّةُ من الناس، كان ينثر بذور دعوته في كل أرض جرداء تطؤها قدمه لعلها تثمر في يوم من الأيام! ظل مهاجرًا بدعوته من بابل إلى كنعان ثم إلى مصر ثم إلى صحراء فاران، فما ترك أرضًا من الفرات إلى النيل إلا ودعا الناس فيها إلى عبادة الرب.

تذكرت بعضًا مما قاله أبي لي عن وعد الرب لنا بالأرض المقدسة فقلت:

ـ ألم يقل الرب لأبينا (إبرام) «لنسلك أعطِ هذه الأرض»؟

ابتسم فرأيت أسنانه كاملة في ضوء النار رغم عمره الذي جاوز الستين، ثم قال:

ـ نعم يا بني كي يكونوا دعاة للرب، لا ليحكموها! ولقد صدق الله وعده فانتشر نسل أبينا (إبرام) من الفرات إلى النيل! انظر إلى بني (إسماعيل) وقد نموا وكثروا وتشعبت بطونهم في صحراء فاران وتهامة، يدعون الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، انظر إلى أبناء عيسو بن إسحق في موآب وإدوم يدعون الناس بدعوة أبيهم (إبرام) حتى وصلوا بها إلى ضفاف الفرات! انظر إلى يوسف بن يعقوب وقد صار عزيزًا لمصر يدعو الناس إلى عبادة الله ويصل بها إلى ضفاف النيل! أليس هذا كله تحقيقًا للوعد؟

تعجبت من سعة علمه، وسلامة منطقه، فتابع وقد بان على وجهه الأسف:

ـ لولا قومك يا (شمعون) لتحقق وعد الرب كاملًا لأبينا (إبرام)! أرادوا اللبن والعسل وغرتهم أطماع الدنيا والرغبة في الملك ونسوا العهد! ووالله لو وجد الرب في قلوبهم خيرًا لفتحها لهم كي يسكنوها، ولكن حقّ عليهم التيه حتى تتطهر قلوبهم!

شعرت بألم من كلماته بدا أثره على وجهي، فربت على كتفي في عطف كي يزيل ذلك الأثر وقال:

ـ ما كان لـ(موسى) أن ينقض شريعة أبيه (إبرام) يا (شمعون)! وما أظن

أن دعوة (موسى) دعوة إلى مُلك أو حُكم وإنما دعوة لإقامة الدين الحنيف!

تعجبت من كلمته فرددتها مرة أخرى:

ـ الدين الحنيف؟

قال:

ـ نعم، ثم لمعت عيناه في عتمة الليل وهو يقول في وجد:

ـ أن نعبد الله الواحد الخالق السرمدي الذي لا تناله الحواس ولا يفضي إليه مخلوق، الحي في كل شيء والقيوم عليه، الذي يملأ نوره السماوات والأرض وجميع المخلوقات، وأن نسبح له في الليل والنهار وأن ندعو الناس إلى عبادته.

شعرت برعدة من كلماته، وقلت متعجبًا:

ـ أهذه شريعتكم؟

ـ بل شريعة أبينا (إبراهيم) وهذا ما أتى به أيضًا أبونا آدم وشيث وإدريس من قبله!

قلت وما زلت على عجبي وإعجابي بما يقول:

ـ وأين التكليفات والتبعات، وأين الزواجر والنواهي؟

قال في يسر:

ـ كُلِّفنا بأن نفعل الخير أينما كان وكيفما كان، وأن نترك الشر أينما كان وكيفما كان.

كانت كلماته كماء بارد صُبَّ على رأسي في ليلة باردة، فأفقت على حقيقة أذهلتني، وهي أنني قد لبثت عمري كله بين بني إسرائيل وبين أظهرنا نبي مرسل ومع ذلك لم يتسن لي فهم حقيقة عبادتنا، لم تكن الشريعة في نظري سوى تكليفات لا تطاق وزواجر لا تنتهي، لم أر من صفات الله التي عددها هذا الرجل سوى صفة القوة والجبروت، حتى أسماء الله التي كنا ندعوه بها في صلاتنا كانت كلها أسماء توحي بقدرته وقوته فهو «يَهوه» العلي، وهو «إيل» القادر، وهو إلوهيم «المتجبر»، وما علمت له من صفات أخرى! كنت أشعر

دائمًا بأنني أخشى من الرب إلهنا إله بني إسرائيل ولكنني لم أحبه! فما بال هذا الوجل يتحدث بهذا الوجد والحب عن إله، وهو القادر على سحقه وعذابه.

قلت له وقد ارتعش صوتي بعض الشيء:

ـ أما تخشى من إلهك؟

ابتسم فرأيت أسنانه ثانية، ثم قال:

ـ أخشاه، خشية العبد أن يعصي سيده، وأخشاه خشية المحب أن يغضب حبيبه.

لم أطق صبرًا، فقلت:

ـ إن كان هذا هو إله بني إسرائيل أيضًا، فلماذا يتجلى علينا بجبروته ولا يتجلى علينا برحمته؟

صمت برهة ثم قال:

ـ هو يتجلى علينا كيفما نراه! قد عميت أعينكم عن رؤية رحمته حين أنجاكم من فرعون، وحين أنجاكم من الهلاك في البرية، وتكبرتم على أوامره فحق عليكم أن تروا كبرياءه وجبروته كي تذكروا نعمته عليكم.

انقطعت الأسئلة في رأسي وشعرت بأني أريد أن أستعيد كل كلمة قالها الشيخ (عابر) وحدي، وأحس هو بذلك فقال:

ـ حسنا يا (شمعون)، قم يا بني كي تنام، سنمكث هنا بضعة أيام للتزود بالماء والراحة، وسنرحل بعدها إلى موآب، فإن شئت رافقتنا، وإن شئت أهديناك فرسًا وزادًا كي تبحث عن قومك، ولتتخير وجهتك التي كتبها الله عليك!

قمت من مجلسي فقبلت يده قبلة إجلال واحترام، ثم انصرفت إلى خيمتي، وما إن جلست وحدي حتى أخرجت الدواة والقلم وسطرت على صفحة فارغة ثلاث كلمات:

«الله .... الحي ... القيوم»

* * *

الورقة الخامسة والعشرون

أيقظني نور الصباح بعدما ارتفعت الشمس إلى منتصف السماء، لم يسبق لي أن نمت إلى تلك الساعة في يوم من الأيام منذ تركت قادش برنيع، ولعل السبب في ذلك هو أني مكثت إلى ساعة متأخرة في الليل أسترجع حديثي مع الشيخ (عابر) كلمةً كلمةً حتى امتلأت رأسي بأسئلة لا حصر لها، لم أجد لها جوابًا سوى النوم! وساعدني امتلاء بطني بعد ذلك العشاء الدسم على نوم لا تُعكّر صفوه قرصات الجوع أو زنّة الأفكار.

خرجت من الخيمة فلم أجد سوى بضعة حراس من رجال القافلة وكلبين يمرحان في كثيب من الرمل في سعادة، وكأنما علما أن الوقت وقت لهو قبل أن يبدأ الشقاء، طارت فراشة ملونة الأجنحة أمام وجهي فأفزعتني، ثم حطت على الأرض أمامي في سكون وطمأنينة، جثوت على ركبتي أتطلع إلى ألوانها المبهرة وتعجبت كيف جاءت هذه الفراشة إلى الصحراء، حركَتْ جناحيها في الهواء وكأنها تستعد للانطلاق ثم طارت متأرجحة في الهواء واختفت بين الخيام.

تجولت في النزل الساكن إلا من أصوات البعير ونباح الكلبين، وقد شرد خيالي في ذكريات نزلنا المفقود! جلبت الذكريات إلى قلبي وجدًا وحنينًا إلى أمي، ووخزتني بشوكة الندم في صدري، فتنهدت تنهيدةً زفرت معها همومي الجاثمة على صدري، لفتت زفرتي انتباهة أحد الحراس فنظر إليّ، توجهت نحوه ثم سألته:

ـ أين ذهب الجميع؟

أشار إلى كثيب الرمل وقال:

ـ ذهبوا خلف التل! فقد عثر الأدلة على بئرٍ، غار ماؤها، فخرج الرجال لإعادة حفرها وبنائها.

تعجبت مما قال! فما الذي يدفع قوم رحالة إلى حفر بئر في موضع لن تطول أقامتهم به سوى بضعة أيام، ترددت ما بين العودة إلى الخيمة أو السير إلى ما وراء التل لألحق بالرجال، كدت أحسم أمري وأسير إلى جهة التل لولا أن سمعت صوتًا أنثويًّا يأتي من داخل إحدى الخيام يصيح على طفلة خرجت مهرولة من باب الخيمة ويقول:

ـ عُودي يا (تيماء)!

كانت الطفلة حديثة عهد بالجري، تبدو وهي تهرول نحوي في سعادة ككُرةٍ تتدحرج على الأرض، كادت أن تصطدم بي فالتقفتها بيدي قبل أن تتعثر وحملتها إلى صدري، خرجت صاحبة الصوت فوجدتها هي (أروى)!

لم تتوقع أن ترى ضيف النزل في تلك اللحظة فارتَبَكَتْ، كانت في رداء نومها مكشوفة الجيد والرأس، ينسدل شعرها الفاحم على كتفيها وتتراص خصلات شعرها فوق جبهتها في نعومة وكأنها غُرَّة مهرةٍ بديعة، خشع بصرُها خجلًا حينما اصطدم بنظراتي وتخضَّبت وجنتاها بحمرةٍ زادتها ملاحة.

مدَّت يدها كي تلتقط الطفلة فناولتُها إيَّاها، تلامست الأنامل فقدحت شرارة لهبٍ شَعرْتُ حرارتها في يدي، وهمسَتْ بكلمة «شكرًا» فأجَّج صوتُها ذيَّاك اللهيب.

دخلَت خيمتَها، فوقفتُ وحدي يابسًا بائسًا للحظات!

لماذا لم أتكلم؟!

لماذا لم أسألها «كيف حالُك»؟ أو «هل أنتِ (أروى)»؟

كيف أذهلني حضورُها حتى عن الرد على شكرها بكلمة «عفوًا»؟!

انتزعت أقدامي من موضعها وسِرتُ في اتجاه التل، درتُ حول كثيب الرمال فرأيت ظلال الرجال تمتد على رمال الصحراء وهم مُلتفين حول البئر وتتعالى صيحاتهم في همة، على مقربة منهم جلس الشيخ (عابر) على صخرة مسطحة وتحت قدميه جلس ولده الأكبر (نابت).

لم تمض لحظات حتى هلَّلَ الرجال وكبَّروا حينما اندفع الماء من البر، وأخذ بعضهم في دعم جدران البئر بالحجارة حتى لا يغور الماء في الرمال.

ابتسم الشيخ (عابر) لمرآي وقال:

- ظهر الماء بمقدمك.

قبَّلت يده وجلست على الأرض إلى جوار الشيخ (نابت)، ملأ الرجال العديد من الجرار والقِرَب، وكشف بعضهم عن صدورهم وأخذوا يصبون الماء فوق رءوس بعضهم البعض، سألته:

- لمَ البئر إذا كنتم راحلين؟!

قال باسمًا:

- للماء والطهارة شأن عظيم في ديننا يا بني، جعل الله به كل شيء حي، نتَطهر به في يوم مولدنا وفي يوم اختتاننا، كما نتطهر به عند كل صلاة.

ثم تركني وقام فاغتسل هو الآخر، ثم وقفوا جميعًا للصلاة.

والحقيقة أنني لم أشعر برغبة في أن أشاركهم ما يفعلون ولم يطلب مني الشيخ ذلك، فاكتفيت بالجلوس على الصخرة، أرقبهم وهم يتلون التسابيح والصلوات، وكان أكثر ما يبتهلون ويستفتحون به صلاتهم هو اسم الله «الحي»، عجيبٌ هذا الاسم الذي ينادون به الرب! والذي لم أسمعه في شريعتنا من قبل! لماذا يصفونه بما هو معلوم عنه ولا حاجة لإثباته؟

فرغوا من الصلاة، فحمل الرجال الجِرار والقِرَب وشاركتهم حملها ثم عدنا إلى النزل، استقبلتنا النساء والجواري لتناول الجرار ووضْعِها في الخيام، فرأيتها مرة أخرى، لكنها لم تكن مفاجأة لي كسابقتها، فقد كانت عيني تبحث

عنها من بين النساء، وحين التقى ناظرانا، أحسست أنها كانت تبحث عني أنا أيضًا! في هذه المرة أمعنت النظر إليها أكثر! حَمَلَتْ عن أبيها الشيخ (نابت) قِربة الماء، ثم استدارت بها إلى خيمتها، عادت مرة أخرى واتجهت نحوي، ودون أن تنظر إليّ مدَّت يدها كي تحمل عني القربة، ناولتها إياها فعادت بها إلى الخيمة وقلبي يخفق اضطرابًا، لا شك أن الفتاة التي رأيتها في تلك اللحظة لم تعد هي الطفلة (أروى) التي عرفتها منذ سنوات، لقد تفتحت براعمُها، وأزهرَ مبْسمُها، وفاحَ منها رحيقٌ بكرٌ، كنت أتنفَّسه كلما اقتربَتْ مني فيشتعلُ قلبي اضطرابًا.

وحين رأيت الطفلة التي كانت تهرول خلفها في الصباح تلقم ثدي إحدى النساء، شعرت بالراحة وكأنما أسعدتني فكرة أنها ليست ابنتها، استقرَّ الرجال داخل الخيام فخلت ساحة النزل إلا من الحرَّاس مرة أخرى، علمت فيما بعد أنها ساعة القيلولة التي يأوون فيها إلى فراشهم وهي عادة قد ألفوها حتى تساعدهم على السهر مساء في جلسات السمر، دخلت خيمتي فوجدت صحنًا به رغيف خبز وقطعة من الجبن، هكذا كان غداؤهم، أما العَشاء فكان دائمًا ما يكون لحمًا أو ثريدًا، قضيت تلك الساعة في تدوين ما مر بي خلال الأيام السابقة، وقلبي معلق بين أمرين هل أغادر هؤلاء القوم عند رحيلهم وأبدأ رحلتي وحدي حتى أجد قومي، أم أظل معهم حتى يقضي الرب أمرًا كان مفعولًا.

عند الزوال، استيقظ الناس من قيلولتهم وخرجوا من خيامهم، يتقطر الماء من مرافقهم وجباههم! وقفوا فرادى على مسافات متباعدة مستقبلين الشمال، يتلون بعض التسابيح مثلما فعلوا في الصباح، لا يتقدمهم كاهن ولا يشعلون بخورًا ولا زيتًا، فقط يقفون في خشوع مطأطئي الرءوس حفاة الأقدام يرفع الواحد منهم كفَّيه أمام وجهه ويمجِّد خالقه في خفوت.

استوقفتني المفارقة بين صلاتهم البسيطة المتكررة، الأشبه بالدعاء وصلاتنا التي تقام في قداس يحضره جميع من في النزل تفوح منه رائحة البخور وينتهي بقربان يُقدَّم على مذبح الرب، تردد في عقلي سؤال؛ إذا كان ربُّنا وربهم إلهًا

واحدًا، فلماذا أمرَ كل فريق منا بالاتصال به من طريق مختلف؟

فرغوا من صلاتهم ـأو دعائهمـ ثم بدأ شباب القبيلة بتجهيز ساحةٍ إلى جوار النزل، استغرق إعدادها عدة ساعات حتى أوشكت الشمس على المغيب، مكثت أرقبهم وهم يقومون بعملهم في مهارة وكأنهم قد مارسوه من قبل عشرات المرات، مهدوا أرض الساحة بالفئوس ورسموا لها حدودًا بقطع من الحجارة، ثم أقاموا عريشًا في مواجهتها صنعوا له سقفًا من جريد النخل والكتان، قال لي الشيخ (ثابت) حين رآني أنظر إليهم وهم يعملون في جد:

ـ هم يعدون الساحة للسمر.

ثم ضحك قائلًا:

ـ تلك حياة البدوي؛ رَعْيٌ وجدٌ في الصباح وسَمرٌ في المساء.

وجدتني أقول في جد لا يلائم نبرة حديثه المازح:

ـ عشت حياتي كلها في الصحراء ولم أعرف من حياة البدو سوى قسوة الصحراء!

قال:

ـ وما لكم وحياة البدو يا فتى! قد عاش بنو يعقوب مئات السنين في كنف أهل مصر يرتوون بنيلها ويستظلون بأشجارها حتى سكنت قلوبهم!

استوقفني تعبيره فرددته مستوضحًا:

ـ سكنت قلوبهم؟!

أومأ برأسه وقال:

ـ نعم! اطمأنوا إلى النعيم وألفوه!

ثم استطرد موضحًا:

ـ أتدري يا بني؛ إن الحياة في الصحراء هي الفطرة، فالأصل في الحياة هو الحركة والتنقل من مكان إلى مكان، وحينما يُكثِر المرءُ من الترحال لا يتعلق

قلبه بشيء ويدرك أن الحياة في ذاتها رحلة تنتهي، لتبدأ رحلة أخرى في مكان آخر، أما السكون فهو أصل الموت، ولا ينبغي للمرء أن يسكن إلا للراحة بين رحلتين!

أدركت المغزى من كلامه فقلت:

ـ إذن فقد ماتت قلوب بني إسرائيل بسكونها في بر مصر، وحق عليها أنها تعود لفطرتها في الصحراء.

وافق على كلامي بنظرةِ عينيه، فسألته في مرارة:

ـ ولهذا كتب الرب عليهم التيه؟!

لم يجب، ولعله خشي أن يحزنني، فقلت معارضًا:

ـ الأمر بعيد يا سيدي! فشتان بين العيش في الصحراء والتيه في الصحراء! أتدري ما التيه يا شيخ (نابت)؟! إنه الحياة على أمل كاذب، أن تشعر بأنك كلما اقتربت ابتعدت، وكلما دنوت بَنوت، أن يحدوك الأمل ثم تتجرع خيبته مرات ومرات، ذاك هو التيه وتلك هي مرارته يا شيخ (نابت).

ربت على كتفي وقال:

ـ أشعر بحزنك يا غلام ولكن لا تحزن فإن قدر الله كله خير، ولعل الله يكتب لك لقاء الأهل في يوم من الأيام ثم قال مشجعًا:

ـ هيا يا (شمعون)، اذهب وتهيأ للمساء، فقد آن وقت السمر، ولعل الليلة تنسيك بعض ما مر بك من أحزان.

والحق أن حديث الشيخ (نابت) رغم مرارته، قد جعلني أشعر نحوه بمشاعر ودٍّ، ذكرتني بمشاعري نحو أبي.

* * *

الورقة السادسة والعشرون

كانت ليلة لا تنسى، أدركت فيها جانبًا آخر من حياة هؤلاء القوم لم يتضح لي حين عشنا معهم قرابة الشهرين في رَسّة قبل ذلك بسنوات، فعلى الرغم من طول مُكثنا بينهم، فإن أبي كان حريصًا وقتها ألا نختلط بهم في صلاةٍ أو طعامٍ أو سمر، ولعله كان يعتقد في فساد عقيدتهم ومذهبهم، ففضَّل أن نقضي أوقاتَنا كلها في خيمتنا التي اختارها بعيدة عن ساحة النزل تحقيقًا لغرضه.

كان أهل القبيلة كلهم قد خرجوا للساحة من أجل السمر، جلس الشيخ (عابر) في الصف الأول تحت المظلة التي صنعها الشباب من جريد النخل والكتان، بجانبه ولداه الشيخان (نابت) و(دومة)، ثم شيوخ القبيلة ورجالها، أما النساء فقد جلسن في الصفوف الخلفية ومعهن فتيات القبيلة.

وفي الجهة المقابلة جلس الشُّبّان يرتدي الواحد منهم زيًّا كاملًا كأزياء الفرسان، يتكون من إزارٍ أبيض وسروال واسع، يحيطه نطاقٌ عريض يصل إلى أسفل الصدر ويتدلى من النطاق سيفٌ لامع يصل نصله إلى طرف الركبة، وعن يمين الساحة جلس حاملو الدفوف من الرجال والعبيد، أما جهة اليسار فقد جلست الجاريات المنشدات وبضع فتيات أخريات يحملن النايات والمزامير والطنابير، ولقد ذكرني مرأى الناي بأمي (رومانا) كما أثارت نغماته ذاكرتي وشجوني وأحزاني، أما خارج الساحة فقد كان الطهاة يعكفون على شواء عدد لا بأس من الخراف والشياة حتى امتلأت سماء النزل بسحابة حُبلى برائحةِ

اللحم، أمطرَت في جوفنا لُعابًا، سال شوقًا إلى تذوق ما يطهون!

بدأت الليلة بمبارزة بين شابين، أظهر فيها كل شاب مهارته في التلويح بالسيف ورشاقته في تفادي الطعن والضرب، ووددت في تلك اللحظة لو قمت فشاركتهما المبارزة، علمت فيما بعد أن أحد الشابين هو (عمرو بن دَومة) ابن عم (أروى)، أما الآخر فهو (ليث بن نابت) شقيقها الأصغر، ثم قامت مبارزة أخرى بين شابين آخرين في الشعر والقوافي، لم أفهم منها سوى القليل، فقد كانت بلهجة البدو التي لم أكن أتقنها، ثم قام الشباب بالرقص بالسيوف على دقات الطبول وأنغام المزمار والطنبور، والتي أضفت على رقصهم حماسًا جعل الجميع يتمايل مع إيقاعها.

وقامت بالغناء إحدى الجواري حتى أطربت الجالسين بصوتها العذب، وتركتني في حالة من الشجن رغم تعثر فهمي لبعض الكلمات في غنائها، وبعد أن فرغت من الغناء امتد الصمت لحظات، وبدأت حركة الطهاة في التزايد وبدا أن مأدبة الطعام ستمتد، وأن الشيخ سيدعو الناس للطعام، ولكن الشيخ قال وهو ينظر إلى صفوف النساء التي تجلس خلفنا:

ـ أين أنت يا (أروى)؟ ألن تسمعينا عزفًا على الناي الليلة؟!

هدأت حركة الطهاة بعد كلمات الشيخ، أوصلت إحدى الجواري نايًا إلى صفوف النساء الخلفية، وصمت الجميع في انتظار عزف حفيدة الشيخ المدللة.

يالله! أي همس همست به تلك الفتاة في طرف الناي، حتى يخرج من طرفه الآخر تلك النغمات الساحرة التي حملتنا إلى مقامات النشوة ثم هبطت بنا في بحور الشجن، لم أكن جاهلًا بالمعازف والألحان فقد ألفتها أذني منذ أن كنت رضيعًا، ولكن هذه الألحان ليست كالألحان! وشتان بين نغمات (أروى) المفعمة بالحياة ونغمات أمي الجنائزية التي تعلمتها في معابد مصر!

انتهى السمر وقام الطهاة بتوزيع اللحم والثريد، فأكل أهل القبيلة حتى شبعوا ثم انسل كل رجل مع أسرته إلى خيمته، وقمت متجهًا إلى خيمتي بعد

أن شكرت الشيخ (عابر) وولديه (نابت) و(دومة).

في تلك الليلة لم أهنأ بنوم، ظل عقلي متقدًا بالفكر طيلة الليل، تتلاعب به أراجيح الأسئلة التي لا تنتهي ولا تستقر على إجابة واحدة.

شمعون!

ويحك يا (شمعون)!

ما الذي فعلته بنفسك وبأمك أيها التعس؟!

لماذا لم ترض بما قسمه الرب لك؟

ها قد فررت من التيه وأنت في جوار نبي مرسل، فكتب الرب عليك التيه وحدك بعيدًا عن نبيك وقومك وأمك؟

أمي؟!

كيف حالك يا أمي؟

ظني أني قد كسرت ظهرك بعد أن كسر أبي قلبك بموته!

أشتاق إلى ضَمّة من صدرك ودمعة أذرفها بين يديك وأن تسامحيني!

قد خذلتك وخذلت أبي.

أبي؟!

أشعر بالخزي أمامك!

أعلم أنك مطَّلِعٌ عليّ!

وددت أن أحقق حلمك ولكني أضعت كل شيء!

اغفر لي واذكرني عند ربك واشفع لي عنده!

ربِّي؟!

هل طردتني من رحمتك؟

أنا أُومِنُ بك وأعلم أنك عظيم وقادر ولكني أخشاك!

أخشى عذابك وغضبتك وأعجز عن فهم حكمتك!

أخشى أن تهلكني كما أهلكت أبي بذنوب بني إسرائيل.

لماذا لم تتجل على أبي برحمتك كما تجليت على الشيخ (عابر) وقومه؟!

الشيخ (عابر)؟!

عجبًا لأقداري معك أيها الشيخ!

هل أرسلك الله نجاةً لي، أم فتنةً لي وإمعانًا في التيه؟

إن كان الرب راضيًا عن قومك، فلماذا أرسل نبيه إلى بني يعقوب ولم يرسله إلى بني (إسماعيل)؟

أتكون الحقيقة كما تحاول أن توحي إليّ؟

أن الرب يرسل الأنبياء إلى العصاة من عبيده وليس الصالحين!

أصدقك القول أيها الشيخ، إني أمقت تلك الحيرة التي قذفتني إليها، أمقتها رغم امتناني لك، وسعادتي برؤية (أروى)!

أروى؟!

وحين وطأت بطيفها عقلي، هدأت أرجوحة الفكر في رأسي، وطغى صوت نايها على جلبة نفسي فسكنت للتو واللحظة، وتنسمت أنفي رحيقها فسرى خدرًا في أطرافي وغفوت حالمًا حتى الصباح.

* * *

مر اليومان التاليان وأنا ما زلت على حيرتي بين ترك القبيلة والسفر وحدي في طريق مجهول، أو البقاء معهم والبعد عن برية سين لسنوات، وفي اليوم الثالث دعاني الشيخ (عابر) إلى خيمته في وقت القيلولة وكان الناس قد سكنوا في رحالهم.

دخلت إلى الخيمة المعطرة برائحة الصندل، فاستقبلتني فراشة كالتي رأيتها من قبل، دارت الفراشةُ دورة في الهواء ثم وقَفت على عمود الخيمة، تَضُم

جناحيها وتبسطهما في هدوء، وجدْتُ الشيخ جالسًا على الأرض يمدد ساقيه وقد وضع على فخذيه صندوقًا من الخشب ينظر إليه مبتسمًا وفي يده وريقات صغيرة من الشجر، يَفركها بين أصبيعه ثم يلقيها داخل الصندوق.

ألقيت عليه التحية، فرد عليها مبتسمًا ثم قال:

ـ تعال يا (شمعون)! اجلس.

جلست إلى جواره فقال لي وهو يشير إلى الصندوق:

ـ انظر!

نظرت فوجدت فراشات مختلفٌ ألوانها، تقف على جدار الصندوق من الداخل، وفي قاعهِ بضعةُ أعواد من الشجر تتسلقها يرقاتٌ مقزّزة كالديدان، يقضُم بعضها وريقات الشجر التي يلقيها إليهم الشيخ (عابر)، شعرت بالغثيان لمرأى اليرقات، فصرفت نظري عنهن وأشرت إلى الفراشات وقلت للشيخ (عابر):

ـ رأيت إحداهن منذ أيام وتعجبت لوجودها في الصحراء، لم أكن أعلم أنك تطعمهن على تلك الديدان!

ضحك وقال:

ـ أنا لا أطعم الفراشات بل أطعم الديدان!

بان العجب على وجهي، فقال:

ـ إن هذه الدودة المقززة التي تنفر منها يا فتى هي نفسها تلك الفراشة الساحرة التي يعجبك حُسنها!

فغرت فاهي دهشةً، فتابع:

ـ أهداني تاجر حرير من الشام تلك اليرقات منذ أشهر، ومن يومها وأنا أتأمل حياتها وأرى فيها آيةً لحياة الإنسان وموته وبعثه!

سحرني حديثه، كعادته حينما يتكلم، فتابع قائلًا:

ـ انظر إلى هذه الدودة، التي تقضم وريقات الشجر كمخلوق أرضي فانٍ في أحقر صورةٍ من صور الحياة، إن هذه اليرقة سوف تتوقف عن الطعام بعد أسابيع وستشرع في بناء بيتٍ حولها من خيوط الحرير، كهذه اليرقة التي تراها هناك! وحين يكتمل البناء تموت اليرقة ويفنى جسدها داخل شرنقة صلدة كتلك الشرنقة (وأشار إلى أحداهن) وستظل اليرقة بداخلها روحٌ بلا جسد، ثم تبعث الروح فيها مرة أخرى كي تصير فراشة تحلق في الفضاء في أبهى صورة من صور الحياة، أرأيت؟! ألا يشبه ذلك حياة الإنسان، حياة فانية أرضية ثم حياة برزخية فيها روحٌ بلا جسد ثم حياة أخرى بالروح والجسد في أبهى صورةٍ وأسماها بجوار الرحمن!

شعرت برعدة في جسدي وغمرتني كلمات الشيخ بسكينة لم أشعر بمثلها من قبل، وشعرت أنه قد أجاب بكلمات بسيطة عن عشرات الأسئلة التي راودتني منذ وفاة أبي.

ردَّدت كلماته في شرود:

ـ حياة برزخية يعيش الإنسان فيها روحًا بلا جسد! أهذه هي الحياة التي يحياها أبي؟

أومأ برأسه وقال:

ـ ويحياها كل من مات منذ أبينا آدم.

ظللت في شرودي، فاحترم الرجل صمتي، ووضع الصندوق جانبًا في هدوء ثم ثنى ركبتيه وجلس متربعًا وهو ينظر إليّ في عطف، قلت بعد فترة من الصمت:

ـ أتدري يا شيخ (عابر)، في كل مرة أتحدث فيها إليك، أجد عندك إجابات لأسئلة تدور في رأسي تؤرق حياتي وأخشى البوح بها أمام أحد، ثم سَكَتُّ بُرهة قبل أن أقول:

ـ أرجو منك المعذرة يا سيدي!

تقاطع حاجباه الأبيضان في دهشة وقال:

ـ المعذرة على ماذا يا بني؟

قلت في كلمات يعقلها التردد:

ـ قد خطر لعقلي في يوم من الأيام أن عقيدتكم فاسدة، وأن الله قد فضلنا عليكم بأن جعل في بني إسرائيل أنبياء ورسلًا، فجعل فيهم (يعقوب) و(يوسف) وأرسل إليهم (موسى) و(هارون)، ولكني الآن انظر إلى الأمور بعين أخرى، فما كثرة الأنبياء إلا دليل على سوء الطبع.

ابتسم ثم قال:

ـ الأنبياء رحمة لشعوبهم إذا ما تبعوهم، ونقمة عليهم إذا ما عصوهم، فهم مبشرون ومنذرون.

ثم صمت قليلًا قبل أن يقول:

ـ قل لي يا (شمعون)، علام استقر عزمك؟

قلت في حيرة:

ـ لا أدري.

قال لِيُزِيدَ من حيرتي:

ـ غدًا سنرحل إلى إدوم! فهل سترافقنا؟

التزمت الصمت لبرهة قبل أن أقول في صدق:

ـ حقيقة لا أدري يا شيخ (عابر)! أشعر بالألفة بينكم، وأتمنى لو رافقتكم، ولكني أخشى الابتعاد عن برية سين أكثر من ذلك.

صمت قليلًا ثم قال:

ـ وهل تضمن العثور على قومك إذا عدت وحدك؟

تنهدت ثم قلت:

ـ هذا ما أخشاه، كما أني ...

صمتُّ ولم أكمل، فسألني:

ـ كما أنك ماذا؟

قلت:

ـ كما أني أشعر بأني مطرود من رحمة ربي لمعصيتي، وأخشى العودة إلى نزلنا فينالني العقاب.

قال في إشفاق ويقين:

ـ لا تقل هذا يا (شمعون)، لا يطرد الرب عبيده من رحمته حتى وإن عصوه!

ابتسمت في بؤس وأنا أقول:

ـ من رأى خيرٌ ممَّن سمعَ يا سيدي الشيخ!

سكت قليلًا، ثم أطرق مفكرًا قبل أن يقول:

ـ اسمع يا (شمعون)، هناك قافلة تخرج من بكة إلى كنعان في كل عام، لماذا لا ترافقنا إلى بكة حتى يحين موعدها؟ ولتنظر حينها، هل ترغب في العودة معنا إلى رسة في برية سين، أم الصعود إلى كنعان.

قلت له في فرح:

ـ حقًّا! ومتى هذا؟

قال:

ـ بعد أن ينتهي الحج.

شعرت بطول المدة، وعاودني التردد، وكدت أقول له سأتفكر في الأمر، لولا أن دخلت (أروى) في تلك اللحظة ومعها جارية عجوز وهما يحملان طعامًا وقسطًا من الماء، ارتبكت (أروى) حين رأتني، وأطرقت بصرها أرضًا

بينما خفق قلبي في سعادة لرؤيتها المفاجئة، قطع تفكيري صوت الشيخ (عابر) وهو يقول:

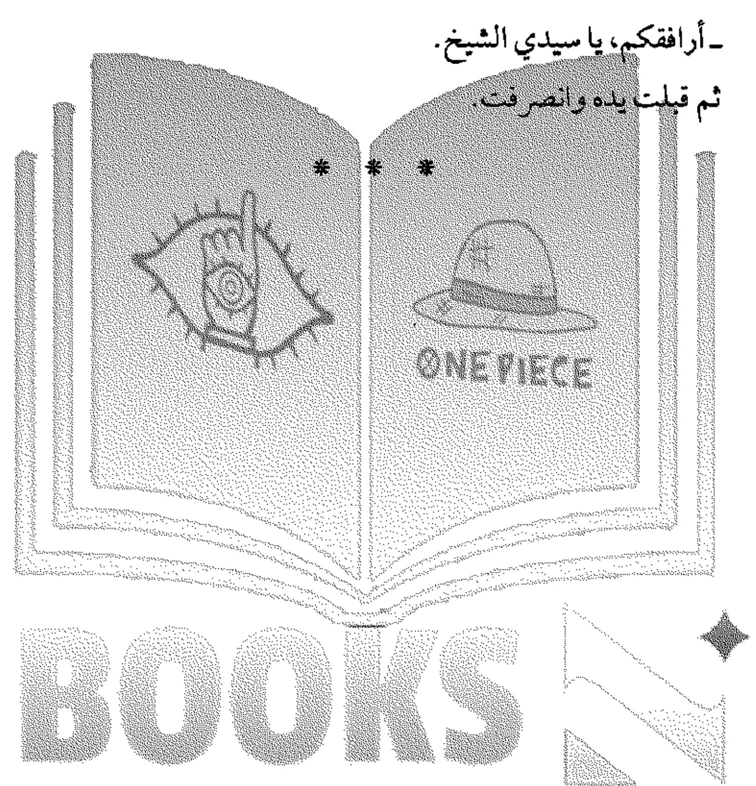
ـ ماذا قلت يا بني؟

فأجبته بغير تردد:

ـ أرافقكم، يا سيدي الشيخ.

ثم قبلت يده وانصرفت.

* * *



الورقة السابعة والعشرون

وصلنا إلى إدوم بعد ثلاث ليال من السير الهادئ، الذي لا يعكر صفوه ريحٌ ولا عطش، ولا أظن أن المرء قد يحتاج إلى دليل في الصحراء كي يعرف أنه قد وصل إلى أرض إدوم، فحينما تتحول الجُدد السمراء في برية سين إلى جبالٍ أرجوانية ملساء تحيطها بحورٌ من الرمال الورديّة البديعة المنظر فأنت في أرض إدوم، لم أر في حياتي مثل هذه التشكيلات الجبليةِ الرائعة التي لوّنها الخالق فأبدع في تصويرها، رغم أني قد مكثت عمري كله في الصحراء، كانت الرمال ناعمة فسارت القافلة في بطء حتى لا تُجهد الدواب في سيرها وكان سيري إلى جوار الشيخ (نابت) وابن أخيه (عمرو بن دومة)، وساعدنا صفاء الجو وبطء المسير على أن نبدأ هذا الحديث.

قلت:

ـ ما أبدع هذا الجمال! كيف تتَلوّن الجبال بهذا اللون الأرجواني البديع!

قال نابت:

ـ هذا خلق الرحمن يا غلام! رأيت في حياتي جبالًا سوداء، وأخرى حمراء وثالثة بيضاء كالثلج، وكلها من خلق الله.

ثم قال:

ـ أتدري ما معنى «إدوم»؟ إنها تعني الأرض الحمراء! ويقولون إن أبانا

«عيسو بن إسحق» هو أول من وطئها بقدمه من أبناء (إبراهيم)!

تعجبت مما قال وقلت:

ـ أبونا عيسو؟!

فتابع:

ـ نعم كان عيسو أخًا ليعقوب ثم هاجر إلى تلك الأرض وعاش بين العربان مع زوجتيه، فلما استقر به المقام هاهنا، تزوج من أمِّنا (مَحَلّة) ابنة أبينا (إسماعيل) وعلى أثر ذلك، هاجر الكثير من ولد (إسماعيل) وعاشوا في تلك الأرض لسنين!

قلت:

ـ وهل يحكمها بنو (إسماعيل) الآن؟

قال نافيًا:

ـ كلا، بل يحكمها ملك من الادوميين، ولكننا ندخلها مطمئنين مُكرَمين فهي أرض أمنا (مَحَلة)!

تحدث (عمرو بن دومة)، وكانت المرة الأولى التي نتحدث فيها معًا، فقال، وكان صوته رخيمًا عميقًا:

ـ كم أتمنى أن أعيش هنا! زرتها منذ ثلاثة أعوام وما زال قلبي مُعلَّقًا بها!

ضحك (نابت) وقال:

ـ إن (عمرو) يهوى المدن والممالك ويكره الصحراء!

فقال (عمرو):

ـ شتَّان يا عماه بين حياة الصحراء وحياة المدن والممالك!

ثم شعرت في صوته نبرة تمرُّد وهو يقول:

ـ هنا يستقر المرء فلا يكون همّه شربة ماء أو كسرة خبز.

ثم أشار بيده نحو الأفق وقال لي في حماس:

ـ عمّا قريب سترى قصورًا وطرقات نُحِتت في الجبال! فحين يكف الإنسان

عن الترحال ينحت الصخر ويذلل الأرض فتصير طوعًا لأمره!

تذكرت حديث عمه معي عن حياة الفطرة في الصحراء، فأدركت أن أفكار الفتى وأفكار عمِّه لا يلتقيان.

توقفنا عن الحديث عندما لاحت لنا منازل حاضرة الإدوميين التي تسمي «بصرى»، كانت المدينة تقع على ربوة عالية تحيط بها الوديان من كل جانب فبدت كقلعة حصينة تربض في الصحراء، سرنا في الوادي المؤدي إلى مدخل المدينة والذي تتكلَّسُ رمال سَفحيْه وتتشكَّل وكأنما نحتها سيْلٌ هادِرٍ في زمنٍ غابر، وقد انعكست عليها أشعة الشمس فبدت في ألوانها الأرجوانية كقطعٍ من الشَّفق تركت مكانها في السماء لتستقر على الأرض، وسحرَ جمالُها أعينَ من كانوا في القافلة فتركت النساء الهوادج وترجل الفرسان عن ظهور الخيل وسار الجميع بعيونٍ شاخصة إلى ذلك الجمال المهيب، وتمتم الشيخ (نابت) قائلًا:

ـ هذا خلق الرحمن! تبارك اسمك يا قدوس!

وقال لي (عمرو بن دومة) حينما رآني أجول ببصري مشدوهًا:

ـ أتدري ماذا يطلق أهل إدوم على هذا الوادي؟ لم ينتظر مني الرد، فأنا بالطبع لا أعرف الإجابة! فأردف قائلًا:

ـ يطلقون عليه وادي (قرقور)!

تعجبت من الاسم فقال:

ـ قرقور هو صدى الصوت! اسمع

ثم هتف بصوت عال:

ـ (شمعوووووون)!

رددت جنبات الوادي الاسم عدة مرات فشعرت بالحرج بينما تعالت ضحكات الجميع، وقبل أن يذهب صدى الصوت هتف (ليث بن نابت) شقيق (أروى) الأصغر وقال:

ـ (ليث) (ليث) (ليث)!

فامتزجت الأحرف الأخيرة من اسمي بأحرف اسمه الأولى وضحك الجميع واتخذها الشباب لعبة فظل كل واحد منهم ينادي على اسم صاحبه حتى ضجَّ الوادي بأصوات مختلطة لم نميز الأسماء فيها من الضحكات.

وأراد الشيخ (نابت) أن يكُفَّهم عن الضوضاء، فهتف بصوت عالٍ:

ـ الله.

فخشعت الأصوات للفظ المهيب، وصمت الجميع وسار الركب في هدوءٍ إلا من همس الأنفاس المنتشية ببديع صنع الله.

حطت القافلة خارج أسوار المدينة، فقد كان هناك منزل مُعَدٌّ للقوافل تحطُّ فيه النوق، ولا يسمح بدخول العير إلى شوارع المدينة التي رصفت بالحجارة، عَقلْنا الخيل والعير، وذهب الشيخ (عابر) ومعه ولداه (نابت) و(دومة) وتحدثوا إلى الحرَّاس، لم يمضِ وقت طويل حتى سمعنا صوتًا يهلِّل لمقدم الشيخ (عابر)، كان صاحب الصوت رجلًا طويلًا أحمرَ الوجه، يرتدي جلبابًا مُزركشًا، فوقه عباءة حمراء، تُزيِّن أصابعه الطويلة خواتم عِدة ويزيِّن صدره قلادة ضخمة من الفضة، علمت فيما بعد أن اسمه (شهبور) وأنه أحد كبار التجار بإدوم، وعلمت أيضًا أن الرجل تربطه علاقة وطيدة بالشيخ (عابر) لم أدر ما نوعها، فُتِحت لنا الأبواب، وجاء بعض الغلمان التابعين للتاجر (شهبور) يجُرُّون عربات خشبية، فوضعوا أمتعتنا وبضاعتنا وجرّوها إلى داخل الأسوار، أذهلني جمال المدينة! فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تطأُ فيها قدمي حاضرة إحدى الممالك، الشوارع متسعة ومرصوفة بحجارةٍ تساوت أطرافها بدقة فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتا! وعلى جانبي الطريق تعاظمت أشجار الزيتون والعرعر حتى أحالت الطريق إلى حديقة غناء.

وصلنا إلى حيٍّ في الجنوب يقال له حي «الزَّغْر»، وعلمت فيما بعد أن «الزَّعر» هذه هي ابنة أبينا (لوط) عليه السلام كما يدّعي أهل الحي ويفتخرون بذلك! فهم يقولون إنها قد سكنت هذا الحي بعد أن تركت «سدوم» مع أبيها قبل أن يهلك الله قوم لوط، كان الحي قديمًا إذا قورن بالأحياء الجديدة التي تقع إلى

الشمال من المدينة والتي تجاور قصر الحاكم، ورغم ذلك كان هذا الحي هو أكثر الأحياء ازدحامًا وحركةً وتجارة، ففي منتصفه يقع سوق «بصرى» وهي كبرى أسواق إدوم وأعظمها! إليها يفد التجار من كل حدب وصوب، يبيعون فيها تجارتهم أو يقايضونها بغيرها، تتراص الحوانيت فيها الواحد تلو الآخر وأمام كل حانوت وُضِعت بضائع من أصناف شتى، هنا يباع الحرير، والأواني النحاسية، والبهارات، وهناك تباع الحبوب والعطور والفخار الإدومي المميز، أما أشد ما جذب نظري فكان ساحة العبيد والجواري التي شهدت زحامًا فاق كل حوانيت السوق، رأيت لأول مرة كيف يُباع الإنسان ويشترى، وشعرت بالغثيان حين رأيت رجلًا يتحسس جسد جارية يروم شراءها، فظل يقلبها بين يديه وكأنها شاة يوشك على ذبحها، والعجيب أن الفتاة استسلمت له في خنوع الشاة التي لا حول لها ولا قوة.

تجاوزنا السوق بضجيجها وصخبها، ووصلنا إلى منازل أقيمت على طرف الحي، بُنيت كلها من طابقٍ واحد من الحجر علمنا أن اسمها «نُزل التجار»، وهي بمثابة بيوت يقيم بها المغتربون من التجار، كل بيت منها يتوسطه فناء واسع تفتح عليه غرف صغيرة مربعة الشكل لها باب قصير من الخشب، ينحني الداخل منه حتى لا ترتطم رأسه بعتبته، ويعلو جدار الغرفة المقابل للباب كوة صغيرة يدخل منها النور والهواء، كانت الغرفة لا تتسع إلا لشخص واحد، وقد فُرِشت أرضها بحصيرٍ لِدِن، وعُلِّق على يمين الداخل من بابها قنديل من الزيت، التصق دخانه الأسود بالحائط.

تركنا التاجر (شهبور) للراحة بعد أن قام غلمانه بتخزين بضاعتنا في مخازن النزل، ووعدنا بأن يعود في الصباح لعرض البضائع في الحوانيت، وُزِّع الناس على الغرف، فدخلت غرفتي وأغلقت الباب ثم وضعت أمتعتي القليلة على الأرض وألقيت بظهري على الحصير اللَّدِن متوسّدًا يديّ اللتين اشتبكتا أسفل رأسي.

ظللت أحدِّق في شعاع النور الذي نفذ من كوة الحائط بينما نفذت الأفكار في

سرعة إلى رأسي وكأنها انفرجت بها كوة أخرى، كان عقلي لا يزال غير مصدق أني تركت أهلي ونبيي في برية سين وجئت مع قوم آخرين إلى تلكم الأرض، وكلما أمعنت في التفكير اضطربت أنفاسي، وألح عليّ وجه أمي (رومانا) أكثر، أدرت وجهي نحو الحائط فرأيت وجهها مرسوم عليه، مددت يدي نحو صفحته وأنا أقول لها سامحيني لأني فطرت قلبك وتركتك وحيدة فاختفت صورتها من أمامي، شعرت بضيق في صدري، فقمت من رقدتي وجلست أتلقف الهواء، تمنيت أن أبكي ولكني أمسكت عن ذلك وبدلًا من ذلك وجدتني ألهج في رجاء وبصوت متتابع قدوس رحيم، قدوس رحيم، لا أذكر كم مرة قلتها ولكني قلتها عشرات المرات إلى أن استكانت نفسي وهدأ اضطرابي، فألقيت بجسدي المتعب من السفر والانفعال على الأرض، ورحت في سبات عميق.

لم أدر كم مر من الوقت وأنا نائم ولكني استيقظت على جلبة شديدة أمام المنزل وسمعت صرخة عالية، ميزت فيها صوت (أروى).

* * *

الورقة الثامنة والعشرون

وصلت إلى الساحة المقابلة للمنزل بصعوبة فقد كان الممر مكتظًّا برجال القافلة ونسائها وآخرين من قوافل أخرى جاءوا ليشاهدوا سبب الجلبة والعراك، وحين وصلت إليها وجدت جنودًا من الإدوميين يقفون حاجزًا بين الناس وبين مجموعة أخرى من الحراس يمتطي أحدهم فرسًا يدور به في توتر ويتكلم في غضب إلى الشيخ (نابت) بلغة ميزت فيها كلمات من السريانية، والتي تشبه لغتنا كثيرًا، هالني أن أرى (عمرو بن دومة) ملقى على الأرض، يمسك ركبتيه في ألم ويحيط به ثُلَّة من الجند استلوا سيوفهم ووجهوا نصالها إلى صدره وكأنما ينتظرون أمرًا من أميرهم الغاضب كي يفتكوا به، كان الأمير يتحدث بغضب شديد إلى الشيخ (نابت) وكلما حاول الشيخ أن يتحدث إليه أو يتقدم نحوه كي يُفهِمه أنهم قوم مسالمون، يدفعه الحراس في صدره كي يحافظوا على المسافة بينه وبين فارسهم، أدركت أن الأمير الغاضب لا يفهم كلام الشيخ (عابر)، فهتفت بلغته وبصوت عال:

ـ إنهم قوم مسالمون.

صمت الجميع واستدار الفارس نحوي، سار بضع خطوات بفرسه، ثم قال بلهجته الغاضبة:

ـ لماذا يتجمعون أمام الساحة؟ ولماذا لم يستجيبوا لنداء الجند بالامتناع عن التجمع بعد انتهاء السوق.

سألت الشيخ (نابت) عن سؤاله فأجاب:

ـ كنا نتلو صلاتنا ونتعبد، وهتف علينا الحراس قبل أن نفرغ منها، وحين اقترب مني بفرسه، دفعه (عمرو) خشية أن يطأني فظن أنه يريد الاعتداء عليه فهجم عليه الحراس وطرحوه أرضًا.

أدركت خطورة الموقف الذي فيه (عمرو)، فتحسست كلماتي وأنا أقول:

ـ إنهم قوم مسالمون، كانوا يتعبدون ولم يسمعوا النداء وحينما اقترب الفرس منهم فزعوا ودفعوه بعيدًا حتى لا يؤذيهم.

لمعت عين الفارس بشدة، وكأنما وقع على خبر كالكنز وقال:

ـ يتعبدون؟! من أين أتيتم وماذا تعبدون؟

قلت وأنا أزدرد ريقي في خوف:

ـ أتينا من برية سين، وهم يعبدون الله!

اتسعت حدقته ثم ابتسم ابتسامة لم يطمئن لها قلبي وقال وهو يستدير بفرسه في حلقة وكأنه يريد أن يُسمِع الجميع ما سيقوله:

ـ لقد خالف هؤلاء الناس قانون مملكة إدوم، فقد أقاموا تجمعًا ـ دون إذن ـ بعد انتهاء السوق، ومارسوا علنًا عبادة غير عبادة آلهة الإدوميين، وحاولوا الاعتداء على حراس المملكة، فعلى هذا وباسم مولانا الملك العظيم (هدَد بن بدَد) نأمر بالقبض عليهم وعرضهم على صاحب الشرطة.

ثم هتف في جدية:

ـ يا حراس! أحضروا هذا وهذا! وأشار إلى الشيخ (نابت) وإلى (عمرو بن دومة).

وقبل أن يتحرك التفت نحوي وأشار قائلًا:

ـ وأحضروا هذا أيضًا!

* * *

ارتج باب المحبس بقوة بعد أن صفقه الحارس خلفنا، ثم أحكم إقفاله جيدًا قبل أن يتركنا ويصعد الدرج المؤدي إلى السجن، كان المحبس أشبه بقبو صغير يغرق في ظلام دامس إلا من شعاع ضوء يتسلل إليه من المشعل المعلق على الحائط المواجه لبابه، كانت الرائحة النتنة تكاد تزهق أنفاسنا وزاد من تأثيرها رطوبة الجو الخانق بها، أسندت ذراع عمرو على كتفي بينما تحسست طريقي بملامسة الجدران ثم عاونته في الجلوس وهو يتأوه من ألم ركبته التي بدا بها جرح غائر أعجزه عن الوقوف عليها، جلس الشيخ (نابت) في ركن الحجرة، فجلست القرفصاء إلى جواره وقد خيم علينا السكون إلا من تمتماتٍ خافتة يقولها الشيخ، ميزت فيها كلمة يا لطيف، كنت لا أزال مذهولًا من تطور الأحداث، فكيف انقلبت الأمور لينتهي يومنا الأول في هذه المملكة، تلك النهاية البائسة؟

قطع ذهولي، تألُّم (عمرو) من ركبته، فقطعتُ خِرقة من طرف ثوبي وضمدت له جُرحه، كما علمتني أمي في صغري، تأوه بشدة أثناء تحريكي له وكان مع كل صرخة، يعلو صوت الشيخ وهو يقول:

ـ يا قدوس.. يا لطيف.. يا رحيم.

هدأت آلامه قليلًا، فسكت عن الصراخ وأسند رأسه على الحائط وهو يتصبب عرقًا، مسح عرقه ثم قال ساخرًا:

ـ في الصباح تمنيت لو أقضي حياتي كلها هنا! ولكني لم أتمن أن أقضِيَها سجينًا!

ابتسمت رغمًا عني وقلت:

ـ ألم يقل لك عمك (نابت) إن حياة الممالك تُميت القلب! يبدو أنها تميت الأنفس أيضًا.

قال وأنفاسه تلهج:

ـ لوهلة ظننت أن الحراس سوف تغرز نصالها في صدري!

ثم ابتسم في صعوبة وقال:

ـ لولاك لكنت قتيلًا!

قلت:

ـ لم أفعل شيئًا، ثم أردفت متعجبًا:

ـ يبدو لي أنهم ليسوا من أهل البلد!

هز رأسه مؤيدًا وكأنما لاحظ هو أيضًا تلك الملاحظة، وجاءنا صوت الشيخ (نابت) من خلفنا:

ـ هؤلاء مرتزقة! ليسوا من أهل إدوم، ولو كانوا من أهلها لعلموا جيدًا مقامنا ومقام بني (إسماعيل)!

ثم أيَّد (عمرو) كلامه بصوت متقطع من الأعياء:

ـ نعم، لم نر مثل هؤلاء الجند من قبل!

قال (نابت) في حزن:

ـ يبدو أن إدوم قد تبدَّل بها الحال بعد أن تولاها هذا الملك الجديد.

تذكرت الاسم الذي نطقه الحارس فقلت في شرود:

ـ (هدَد بن بدَد)! يا له من اسم مثير للرعب وموحي بالدمار!

وانقطع بيننا الكلام، فعاد الشيخ (نابت) إلى تسبيحه الخافت حتى ظننت أنه يسبِّح في نومه! بينما غط (عمرو) في نوم عميق من شدة الإعياء لم يقطعه سوى حشرجة أنفاسه أو صوت تأوهه بين الفينة والفينة، استلقيت على جانبي لسويعات أتفكر في مصير الغد الذي ينتظرنا، إلى أن جذبتني غفوة أسلمتني إلى بدايات اليوم التالي.

استيقظنا على جلبة مزلاج الباب والحارس يفتحه، قمت من نومي مسرعًا ووقفت في منتصف الحجرة، قال الحارس في لهجة آمرة:

ـ هيّا، إنَّ صاحب الشرطة يستدعيكم إلى حجرته.

قام الشيخ (نابت) بصعوبة، وعاونت أنا (عمرو) على الوقوف وهو يتأوَّه

بشدة، وقد بدا أن جسده قد أصابته حُمّى جعلته يتصبب عرقًا.

سرنا خلف الحارس ببطء، صعدنا الدرج الصخري العتيق المؤدي إلى حجرة الفارس الذي أوقفنا أمس، نظر الفارس إلينا نظرة كارهة لا أدري سببًا لها، ثم أشار إلينا بالوقوف في أماكننا، دلف الفارس إلى حجرة أخرى أوسع وأرقى ثم عاد بعد لحظات ليدعونا إلى الدخول، وما أن دخلنا حتى انفرجت أساريرنا جميعًا، فقد وجدنا الشيخ (عابر) ومعه التاجر (شهبور) بالحجرة يقفان إلى جوار صاحب الشرطة، أسرع الشيخ (نابت) فقبل يد والده الشيخ (عابر) دون أن يعير صاحب الشرطة اهتمامًا، مما أثار غيظ الفارس الذي كاد أن يمتعه، لولا أن أشار إليه صاحب الشرطة كي يكف عنه.

قال صاحب الشرطة في لهجة أراد أن يجعلها حازمة ولكني شعرت في طياتها ببعض العطف:

ـ لقد دفع لكم التاجر (شهبور) غرامة المخالفات التي قمتم بها، ولكني أرفق بكم أن تعودوا لمثلها!

شكره الشيخ (نابت)، ثم انصرفنا في فرح يشوبه الكثير من الحيرة والقلق وبعض من الحذر، بعد نصف الساعة، كنا جميعًا في المنزل، استقبلنا أهل المنزل بالفرح والسعادة، ألقت (أروى) بنفسها في حضن أبيها وجثى أخوها الصغير (ليث) على يده يقبلها، ثم التفت نحوي قائلًا:

ـ شكرًا يا (شمعون) أنت نعم الأخ والصديق.

احمرّ وجهي خجلًا، وازدادت حمرته حين نظرت إلى (أروى) بامتنان، فتمتمتُ بكلمات غير مفهومة من الاضطراب، وكأني أقول له (عفوًا).

بعد قليل أتى الطبيب الذي دعاه التاجر (شهبور)، فطهر جرح عمرو بمنقوع الحَرْمَل والقرنفل أولًا ثم وضع عليه الثوم المطحون وطلب مني ألا تُفك الضمادة ثلاثة أيام.

وحينما خرج الطبيب أسرَّ إليَّ وإلى الشيخين (نابت) و(دومة) بحديثه،

ولعله ظن أنني أخو (عمرو) من كثرة ما رأى من اهتمامي، فقال:

ـ إن الجرح غائر وقد بدأ في التقيُّح، وقد تزداد الحمى بعض الشيء، يجب أن يكثر من الراحة وشرب الماء الفاتر، وأكل فصوص الثوم والبصل يوميًّا، وسأعود إليه بعد ثلاثة أيام لتضميد الجُرح.

سأله الشيخ (دومة) في قلق:

ـ كم من الوقت يحتاج للراحة؟

التقى حاجبا الطبيب في جدية، ثم قال بعد تدبر:

ـ إن هدأت الحمى فقد يستغرق الجُرح أربعة أسابيع كي يبرأ.

تنهد الشيخ (نابت) وقال وهو يربت على كتف أخيه:

ـ لله الأمر، ثم شكر الطبيب وانصرفنا من الحجرة، ذهبنا إلى حجرة الشيخ (عابر) فوجدناه يجلس إلى التاجر (شهبور) الذي توقف عن الحديث فجأة حينما رآنا، سألنا الشيخ (عابر) عن حال (عمرو)، فأخبره الشيخ (دومة) بما قاله الطبيب، تنهد الشيخ (عابر) ثم قال:

ـ كل قدر الله خير.

أراد التاجر (شهبور) أن ينصرف، ولكن الشيخ (عابر) قال:

ـ اجلس يا (شهبور) وأكمل ما كنت تقوله عن ملك إدوم.

تردد (شهبور) لحظة ووجدته يَمُدّ الطرف نحوي، فقال الشيخ (عابر):

ـ لا تقلق، إن (شمعون) هو ابن من أبنائي.

فاطمأن الرجل وانفرجت أساريره، ثم انطلق يقص علينا ما كان من خبر ملكٍ بدَّلَ أحوال مملكة إدوم وقلَبها رأسًا على عقب، ملِكٌ اسمُه (هدَدُ بن بدَد).

* * *

الورقة التاسعة والعشرون

قال (شهبور):

ـ كانت أرضنا تنعم بالسلام منذ أن خلقها الله، وكنا نستمع إلى حكايات الأجداد عن القوافل التي كانت تمر عليها من كل حدب وصوب فيتوقفون بها للراحة قبل أن يستأنفوا ارحلاتهم إلى مصر غربًا، أو إلى سبأ جنوبًا، أو إلى عيلام شرقًا، لم يدرك أحد أهمية هذه الأرض سوى أبينا (عيسو) الذي فتنته جبال إدوم بجمالها بعد أن غادر كنعان، فاتخذها محلًّا للإقامة هو وأبناؤه، واشتغلوا بتوفير سبل الراحة للقوافل المارة بها، وتزوج عيسو من (محلة) ابنة أبينا (إسماعيل) فكثر أبناؤه، وامتزجوا بالقوافل الوافدة إلى أرض إدوم، وتزوجوا من نسائها حتى صارت في إدوم عشرات البطون، يحكمها رجل من أبناء (عيسو)، وكان آخرهم الملك المعظم (هوشام).

كان (هوشام) حين تولى الحكم شابًّا طموحًا، وتاجرًا ماهرًا أيضًا، وحين تولى الحكم أراد أن يجعل من إدوم مملكة عظمى، فأقام حاضرتها «بصرى» على غرار حواضر المالك العظمى فمهَّد سبل التجارة بها، وأمّن طرقها ضد العربان وقطاع الطرق، حتى ازدهرت حاضرتنا وصارت أجمل المدائن، وأراد (هوشام) بعد أن ازدهرت البلاد في عهده أن يؤسس لها جيشًا نظاميًّا يحفظ لها هيبتها على غرار جيوش كنعان ومصر وآشور، فعهد بذلك إلى رجل من جبابرة كنعان اسمه (هدد بن بدد).

صمت قليلًا، ثم تلفت حوله وقال بصوت أخفض مما سبق:

كان (هدد) رجلًا شديد اليأس، يجيد البطش بأعدائه والتنكيل بهم، استطاع أن يصنع جيشًا نظاميًّا يرهب به جيران إدوم من الممالك الطامعة بها، ولكنه استطاع أيضًا أن يصنع جيشًا من الشرطة كي يرهب به أهل إدوم وأبناءها! فنشر البصاصين في الأسواق واستجلب مرتزقة من كنعان كي يعملوا معه.

وجدتني رغمًا عني أقاطعه، وأقول مستنكرًا:

ـ وأين كان الملك (هوشام) من كل هذا؟!

قال في يأس وحزن:

ـ كان الملك (هوشام) قد تقدمت به السن آنذاك ودب به الضعف، فضلًا عن أن (هدد بن بدد) قد أحاطه بثلة من الحرّاس عزلته عن الرعية، فلم تصل إليه شكوى ولا مظلمة ولم ترد إليه سوى أنباء جيش (هدد) العظيم!

تنهد وكأنما أثارت الذكريات وجيعته ثم قال:

ـ وفي يوم حزين، مات آخر ملوك الرحمة الملك (هوشام)، حينئذ أعلن (هدد بن بدد) أنه قد تقدم للبيعة كي يكون ملكًا على إدوم!

سأله الشيخ (دومة):

ـ وهل بايعه أبناء عيسو؟!

ابتسم ساخرًا وقال:

ـ لم يجرؤ أحد من بني عيسو على طلب البيعة لنفسه! ولم يجرؤ أحد من الرعية عن التخلف عن البيعة!

ثم أردف في سخرية كالبكاء:

ـ حتى أنا بايعته وأرسلت له ثلاثين ثوبًا من الحرير هدية إلى قصره!

أطرق صامتًا للحظات، وكأنما تجدد الأسى على ما فعله، ثم أردف.

ـ وأراد (هدد) أن يسيطر على البحر كما سيطر على البر، فأنشأ أسطولًا

مهيبًا على شواطئ إدوم، وصار هذا الأسطول يجوب مياه البحر من إدوم وحتى عصيون جابر، يفرض سيطرته على كل مرفأ ويسطو على السفن حتى وإن كانت سفينة صغيرة لمساكين يعملون في البحر!!

سأله الشيخ نابت آسفًا:

ـ ومنذ متى وأنتم تعبدون الله سرًّا في إدوم؟

تنهد (شهبور) ورأيت دمعة في عينيه وهو يقول:

ـ منذ عامين، حينما أعلن (هدد بن بدد) أن الإلهين عشتار وقوس هما إلهَا مملكة إدوم وأنه لا يجوز الجهر بعبادة أخرى غيرهما! ولهذا ألقى الشرطي (كرونوس) القبض عليكم للجهر بالصلاة، ولولا رشوة مقدارها ألف دينار ذَهَبْ لصاحب الشرطة لأرسلكم للمحاكمة.

علمت أن الضابط البغيض اسمه (كرونوس)، وصمت الجميع، ووجدتني أقول دون وعي مني وأنا أتأهب للقيام:

ـ نحمد الرب (إيل) أن نجونا بفضلك يا شيخ (شهبور)! سألقي نظرة على (عمرو)!

وكأنما نطق لساني بشيء أذهله، فقال رافعًا حاجبيه من الدهشة:

ـ الرب (إيل)!! هل أنت من بني إسرائيل يا فتى؟ بان الانزعاج على وجهي وشعرت بالاتهام في طيات كلامه، فقلت مضطربًا:

ـ نعم!

وكأنما ألقيت في وجهه بحجر صلد، فقال:

ـ أرجو ألا يعلم أحد بذلك!! فهو يكره بني إسرائيل الآن، أكثر مما يكره بني (إسماعيل) وعيسو!

سأله الشيخ (عابر) متعجبًا:

ـ لماذا؟

قال:

- قد تزوج (هدد بن بدد) بابنة الفرعون الذي هلك وراء (موسى)، وأظنه لن يجد أثمن من رأس عبرانية يهديها إلى صهره في أرض مصر.

وكأنما ارتفعت بي يدٌ إلى السماء حينما سمعت قوله، ثم ألقت بي في مكان سحيق!

* * *

في اليوم التالي انقسمنا إلى مجموعتين، مجموعة أخذت في عرض البضائع التي أتت بها القافلة من برية سين بعد أن خصص لنا التاجر (شهبور) حانوتين لهذا الغرض، ومجموعة أخرى - وهي الأكبر - طافت في السوق لتشتري بضاعة جديدة كي تحملها القافلة معها عند الرحيل إلى وادي بكة.

خيَّرني الشيخ (نابت) بين البقاء في الحانوت مع ولده الصغير (ليث) أو أن أرافقه إلى السوق للشراء، فاخترت البقاء في الحانوت، فقد كنت أرغب في بعض الراحة لقلة نومي في الليلة السابقة، فضلًا عن علمي بأن (أروى) سترافق أخاها في ذلك اليوم.

كان الجو صحوًا والسوق لم تكتظ بعد بالناس، وضعنا في الحانوت الأول عشرات الجوالق من التمر الجاف والتمر الرطب وجِرار العجوة المطبوخة بالسمن والعسل، علمت من الفتى (ليث) أن قبيلتهم تأتي بها من شمال سيناء، وحكى لي عن أرضٍ هناك تشبه «العريش» من كثافةِ ما ينبت فيها من النخيل حتى إن الرُّطَب تتساقط منها جَنيةً لِمَنْ يرغب في جمعها، وكان الأعراب يَفِدُون إليها من كل مكان كي يجمعوا التمور، فيجففون بعضها، ويبقون بعضها على حاله أو يخزنونها في جرار على شكل عجوة مطبوخة.

سألته:

- ولماذا لا تبيعون التمور في بكة؟

قال:

- في بكة تكثر التمور ويفد إليها أنواع أجود من فاران وحضرموت، فضلًا

عن أن طول المسافة قد يفسد العجوة فنضطر إلى بيعها رخيصة، ولهذا نبيع ما نملكه هنا في إدوم، ثم نشتري منها الأقمشة والفخار وأنواعًا أخرى من الحبوب والطحين لنبيعها في بكة.

أما الحانوت الثاني فكان يقابل حانوت التمر، وقفت فيه (أروى) وكان يُباع فيه بعض المشغولات المصنوعة من جريد النخل وسَعْفِه مِن أقفاصٍ ومشاني وحبال، وكانت هذه المشغولات من صنع نساء القبيلة، يقمن بإعدادها على مدى شهور لبيعها في سوق بصرى، والعجيب أن هذه المصنوعات كانت تلقى رواجًا أكثر من التمور، ولعل السبب في ذلك أن أغلب زبائنها من النساء.

وعند الظهيرة تكاثرت الزبائن في السوق، وصرت أنا و(ليث) لا نهدأ من الكيل والبيع، كان يقوم هو بتعبئة الأكيال وأقوم أنا بمحاسبة المشترين، وبين الفينة والفينة كنا نلقي النظر على (أروى) التي كانت تمارس بيعها في سرعة ومهارة رغم أنها وحيدة، وكانت تنظر إلينا مبتسمة كلما أضافت قطعة نقدية إلى كيس نقودها الذي علقته في رقبتها ثم ترفعه إلينا وهي تغمز بعينها كي تثير غيظنا، وكأنها تتحدانا في أن نحقق ما تحققه هي من أرباح!

وبينما نحن مشغولون بالبيع، إذ حدثت جلبة عند بداية السوق من جهة الشمال ورأينا الزحام يفترق على الجانبين وكأنما يفسح الناس الطريق لموكب قادم، وبالفعل ثار الغبار في السوق ورأينا أربعة فرسان من رجال الشرطة يتقدمهم (كرونوس) يمرون بالطريق المزدحم وقد كادت سنابك خيلهم أن تطأ بعض المارة، علمنا بعد ذلك أن الشرطة كانت تمرُّ مرتين يوميًا، مرة عند الظهيرة، ومرة بعد انتهاء السوق، وكانت دعواهم الظاهرة حفظ النظام والأمن، ومنع المخالفات ولكنّا علمنا بعد ذلك أن فرقة الشرطة هذه تقوم بحصر الحوانيت المفتوحة بالنهار، ثم تمر مرة أخرى قبل المغيب وتتجمع عند الباب الجنوبي للسوق مع أصحاب الحوانيت من تجار إدوم لتجمع منهم مكوسًا وضرائب على البيع والشراء!

مرَّ (كرونوس) من أمامنا فتوترت عضلات وجهي، وتذكرت ما فعله

بالأمس بـ(عمرو بن دومة) فانقبضت عضلات يدي، لمح (ليث) تعبيرات وجهي، فوكزني وقال في صوت خافت:

ـ لا تنظر إليهم.

وكأنما اشتم (كرونوس) رائحة البغض تخرج مع أنفاسي فالتفت نحوي، التقى ناظرانا، وابتلعتني زُرقة عينيه التي بدت كعيني ثعبان، ثبَّت نظراته نحوي بينما دارت رأسه فوق جسده وفرسه لا يزال يتقدم إلى الأمام، شعرت لوهلة أن سيستدير بفرسه ويعود إليّ، فخفق قلبي وتسارعت ضرباته ولكنه استمر في سيره والتفت عني أخيرًا.

لكزني (ليث) في كتفي برفق وقال في مزاح بعد أن انصرف الجند:

ـ ظننتك ستنقض عليه!

قلت صادقًا:

ـ لا أدري، ولكني أشعر بالبغض نحو هذا الرجل.

جاءني صوت (أروى) وهي تقول:

ـ (شمعون)!

نظرت إليها، فأشارت إليّ قائلة:

ـ تعال.

خفق قلبي وتسارعت ضرباته مرة أخرى، ولكنه كان تسارعًا محببًا إلى نفسي، تركت (ليث) وذهبتُ إليها، فأمسكَت يدي ودخلَت بي إلى داخل الحانوت، خلعَت كيس النقود من حول جيدها وقالت:

ـ قف مكاني هنا، سأذهب إلى المنزل لأعد الغداء لأبي ولـ(عمرو) ابن عمي.

حركّت كيس النقود بيدي لأعلى وأسفل وكأنني أزِنه، ثم قلت باسمًا:

ـ تلك ثروة طائلة، أراكِ تثقين بي!

زمَّت شفتيها وقالت في مرح:

ـ ليس تمامًا، ولكني لا أثق في (ليث) أكثر!

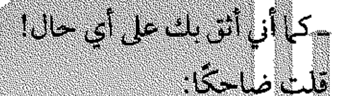
قلت مازحًا:

ـ حقًّا! أعتقد أنك ستكونين مدينة له بالاعتذار في نهاية اليوم!

قطّبت حاجبيها وقالت في تهديد مصطنع وهي تستعد للانصراف:

ـ لن تجرؤ على المساس بنقودي!

ثم استدارت عائدة بعد أن خطت خطوات خارج الحانوت وقالت:



ـ كما أني أثق بك على أي حال!

قلت ضاحكًا:

ـ وما مصدر تلك الثقة؟

قالت:

ـ منذ أنقذتني في حادثة السيل!

فغرت فاهي دهشة وقلت:

ـ أما زلت تذكرين؟

قالت وقد تورد خدّاها خجلًا:

ـ بالطبع، هل نسيت أنت؟!

قلت مضطربًا:

ـ كلا، ولكني أقصد أنك كنت صغيرة.

ابتسمَت وقالت:

ـ وأنت أيضًا كنت صغيرًا، ولكن هناك من الحوادث ما لا ينسى!

لم أجد ما أقوله، وتعثرت الكلمات على شفتي، فاستدارت وهي تقول:

ـ سأعود بعد ساعة بالغداء لك ولأخي (ليث).

وتركتني في حال من الاضطراب والنشوة لم أشعر بهما من قبل في حياتي.

* * *

الورقة الثلاثون

في المساء كان الاجتماع في فناء المنزل الخلفي، الشيخ (عابر) وولداه وأنا، بينما جلس التاجر (شهبور) في المنتصف إلى جوار الشيخ (عابر)، كانت الدهشة بادية على وجه الشيخ (نابت) وهو يتحدث عن أحداث يومه، وعمّا رآه في جولته في السوق أثناء النهار، كان يرى أن البلدة قد عمّها الازدهار ولم يتخيل أنه في فترة وجيزة قد أصبح هناك هذا الكم من البضائع القادمة من الشرق والغرب والجنوب، ولكنه شكا من الغلو الفاحش في الأسعار، والتي تضاعفت مرات عديدة مقارنة بأسعار البلدة قبل ذلك بسنوات ثلاث!

سأله الشيخ (دومة):

ـ هل رأيت سوق السلاح؟

قال الشيخ (نابت) باسمًا:

ـ نعم! وودت لو اشتريت سيفًا وترسًا لكل فرد في القبيلة، ولكني حين علمت أسعارها اكتفيت بشراء بضعة سيوف لحراس القافلة.

قال (شهبور) معقبًا في جدية:

ـ هذه السوق مما أتى به المرتزقة الكنعانيون إلى بلادنا!

ثم أردف ساخرًا:

ـ أدخلوا على أسواقنا سوقًا للسلاح وسوقًا للجواري وسوقًا للخمر!

قال الشيخ (دومة):

ـ نعم رأيت سوقًا للخمر في أطراف البلدة يبيعون فيه أصنافًا شتَّى من النبيذ المعتق، المصنوع من الكرم والتمر.

قال الشيخ (عابر) وكان يستمع إلى الحديث قبل ذلك ولا يعلق:

ـ وهل تلقى الخمور رواجًا في هذا البلد؟!

قال (شهبور) في أسف:

ـ أصبحت شرابًا للعامة يا شيخ (عابر)، وتقام الحانات في أطراف المدينة لشربها.

ثم قال في أسى:

ـ قد أصبحنا كالغرباء في هذا البلد يا شيخ (عابر)، لم يبق من ملامح بصري القديمة الكثير، ويضيّقون على التجار الشرفاء الخناق يومًا بعد يوم بالضرائب والمكوس حتى ينشغل كل واحد منا بقوت يومه، فلا يلتفت إلى شيء آخر! أتدري ما فعله (كرونوس) اللعين اليوم؟!

نظرنا إليه باهتمام، فتابع:

ـ قد فرض عشر فِضّيات زيادة على كل تاجر، لأنه مرَّ بالسوق ووجد رواجًا في البيع والشراء!

بان الأسف على وجوه السامعين، ووجدتني أسأله متعجبًا:

ـ ولماذا يقبل أهل البلدة بالظلم والغلاء؟

نظر إليّ وطالت نظرته، ثم تنهد قائلًا:

ـ في دولة العدل يصير الكل عادلًا، وفي دولة الظلم يصير الكل ظالمًا، فالناس على دين ملوكهم يا غلام!

ثم قال في تهكم:

ـ لم يرُدَّ الناس الظلم على الظالم بل تناقلوه بينهم! حتى أصحاب المروءة

والكرم، تكبّلت أيديهم بالوشاية والفتن حتى أمسك كل ذي فضل عن فضله، أتدرون من الذي أخبر (كرونوس) بأمركم ليلة أمس؟!

نظرنا إليه مندهشين، فقال وهو يزفر في قوة:

ـ تاجرٌ صغير، كان يعمل يومًا ما أجيرًا عندي!

شعرنا بالأسف، وشعر الشيخ (عابر) بأن الهم قد ثقل على قلب (شهبور) فقال وهو يربت على كتفه بالكلمات ليهون عليه بؤسه:

ـ صبرًا يا (شهبور) قد يبدل الله الأمر من حال إلى حال.

قال (شهبور) وقد احتقن وجهه:

ـ نفد الصبر يا شيخ (عابر)، ولم يتبق سوى الرحيل!

رفع الشيخ (عابر) حاجبيه دهشة، وقال:

ـ الرحيل!

صمت (شهبور) قليلًا، ثم قال في صوت خافت تحسبًا لأي أذن تسترق السمع:

ـ نعم، هذا آخر مواسم التجارة لي في إدوم وسوف أرتحل مع جماعة كبيرة من التجار إلى «كوش»!

لم يكن الاسم غريبًا على أذني، فأنا أعرف أن «كوش» مملكة بعيدة تقع إلى الجنوب من أرض مصر، ولكني تعجبت كيف يصل إليها على بُعد المسافة بين المملكتين، وربما هذا ما دار في خلد الشيخ (نابت) فسأله:

ـ وكيف تصل إليها؟

قال بصوت أشد خفوتًا:

ـ عن طريق البحر.

سأله الشيخ (دومة):

ـ ولماذا كوش؟

قال:

ـ هناك يقايض التجار الطحين بأجولة الذهب! كما أن التجارة لا تنقطع بينها وبين بكة.

ضحك (نابت) وقال ممازحًا:

ـ الآن عدت (شهبور) التاجر الذي أعرفه! لوهلة ظننتك مهاجرًا لتفر بدينك، ولكني أراك طامعًا في ذهب الأحباش!

تذكرت ما قاله عن أسطول (هدد بن بدد) فسألته:

ـ ألم تقل أن أسطول (هدد) يطارد السفن، أما تخشى أن يسطو على مالك؟

نظر إليّ نظرة طويلة، وكأنما استحسن ذكائي، وشعرت بذلك في كلماته حين قال:

ـ أعددت العدة لذلك يا فتى بني إسرائيل، ولن نتحرك من إدوم على أي حال وإنما من «مجمع البحرين».

قلت مستفسرًا:

ـ مجمع البحرين؟!

أومأ برأسه وقال:

ـ نعم، إنه مرفأ يقع جنوبي برية سين حيث يلتقي خليج (الحيان) بخليج (القلزم)، ومن هناك سنأخذ سفينة إلى كوش.

كان من الواضح أنه قد أعد العدة لكل شيء، وأنه لا رادَّ لما عزم عليه، فقال الشيخ (عابر) في صدق:

ـ ستُظلِم (بصرى) دونك يا (شهبور) وسنفتقد أخًا عزيزًا بها، ولكنَّا نسأل الله لك السلامة على أي حال.

قال (شهبور):

ـ لا تقلق يا شيخ (عابر)، فسوف تراني في بكة في موسم الحج القادم!

قال الشيخ (عابر):

- إذن نسأل الله أن يجمعنا بك على خير.

وبينما نحن كذلك، إذا بالفتى (ليث بن نابت) يدخل علينا مكفهر الوجه ويبدو عليه الانزعاج، تطلعنا إليه جميعًا، فقال قبل أن نتوجه إليه بالسؤال:

- لقد اشتدت الحمَّى على عمرو ويبدو أنه ليس بخير.

* * *

أسرعنا إلى حجرة عمرو، كان جسده متعرِّقًا وينتفض من الحمَّى، شعرنا بحرارة جسده دون أن نمسَّه وسطعت أنفي رائحة كريهة فأدركت أن التقيُّح قد زاد بجُرحه.

قال (شهبور) وهو ينصرف بسرعة:

- سأبحث عن الطبيب.

شعرت أن وقتًا ثمينًا قد نُهدره حتى يعود (شهبور) بالطبيب، فتذكرت ما فعله الطبيب من قبل، وطلبت من الفتى (ليث) أن يحضر لي إناءين، أحدهما به ماء بارد، والآخر به ماء فاتر، بللت خرقة بالماء البارد ثم وضعتها على رأسه وبللت الأخرى بماء فاتر وطلبت من (ليث) أن يعصرها على شفتيه، تذكرت أن الطبيب طلب مني أن أُغيِّر الضمادة بعد ثلاثة أيام، ولكنَّ ابتلالها بالقيح ورائحتها النتنة، أشعراني بضرورة نزعها.

أدنيتُ المصباح مني وقمت بنزع الضمادة، شعرت بالغثيان من الرائحة الخبيثة ومن رؤية جرحه، أسرعت بتجهيز ماء الحرمل ومنقوع الثوم والقرنفل، وشرعت أغسل جُرحه كما فعل الطبيب، فما أن ضغطت بإصبعي على الجرح، حتى انفجر جيبًا من القيح لوث أرض الحجرة وملابسي، وجعله يصرخ ألمًا، ظللت أضغط مرات متتاليه على الجرح، رغم صراخه، حتى توقف نزيف القيح، فغسلت جرحه مرة أخرى ووضعت عليه فصوص الثوم وضمدته ثانية.

العجيب أن جسده قد هدأ بعد ما فعلت، فلم يعد إلى سابق انتفاضته،

وشعرنا أن الحمى قد هدأت قليلًا.

قال الشيخ (دومة) وقد بان الألم على وجهه وانسالت دموعه على خديه:

ـ بارك الله فيك يا (شمعون).

أومأت برأسي إليه شاكرًا، فربت الشيخ (نابت) على كتفه وقال:

ـ هيا يا (دومة)، لندعه يستريح حتى يأتي (شهبور) بالطبيب، وإن كنت أظن أن (شمعون) قد فعل كل شيء.

فقلت له:

ـ استرح يا عماه، وسأبيت أنا معه الليلة، وليذهب (ليث) إلى مرقده فغدًا يوم عمل طويل.

استحسن الشيخ (نابت) كلامي، فأخذ ولده وأخاه وتركوني مع (عمرو) في حجرته، أعدت المصباح إلى موضعه على الحائط وجلست إلى جوار رأس (عمرو)، أعصر عليها الماء البارد بين الفينة والفينة، وأتمثل أمامي ما كانت تفعله أمي (رومانا) معي في صغري حين تصيبني الحمى.

عجبًا للأقدار!

من كان يتخيل أن تحملني أجنحة القدر إلى بلد غريبة في أرض غريبة مع قوم غرباء، لأجلس هنا كي أداوي شابًّا في مثل عمري لم أعرفه من قبل، ولكني أشعر نحوه بمشاعر الأخ لأخيه؟!

ظلت أحداث اليوم تلاطمني فشرعت أستعيدها حدثًا حدثًا ولحظة بلحظة، ابتداء بأحداث السوق وانتهاء بحديث (شهبور)، مرت ساعات وأنا على هذه الحال حتى كاد الليل أن ينتصف، أدركت أن (شهبور) لن يعود في تلك الليلة بالطبيب، وكان جسد (عمرو) قد هدأ تماما من الحمى، فحمدت الرب أن جعلني سببًا في إنقاذه، فقمت من مجلسي برفق حتى لا أوقظه، فخلعت ثوبي الملوث وألقيته خارج الحجرة ثم ألقيت بجسدي العاري على الحصير إلى جوار عمرو، كان التعب قد استبد بي ومع ذلك ظل عقلي متيقظًا، كنت أشعر بأن

جعبتي قد امتلأت بالحكايات والأحداث وأني بحاجة إلى أن أفرغها كتابة في أقرب وقت، وعاهدت نفسي أن أمكث الليلة القادمة في حجرتي كي أدون أوراقي، وحكاياتي.

وقبل أن أغمض عيني لأبدأ في النوم، سمعت صوت (عمرو) يتمتم بكلماتٍ لم أفهمها، ظننته قد استيقظ فأدنيت أذني منه كي أسمعه، ولكني أدركت أنه يهذي في نومه بكلمات أخرجتها الحمى من خبيئة نفسه، وكان من بينها كلمتان قرعتا أذني في وضوح لا لبس فيه، سمعته يقول: «أحبك... (أروى)».

* * *

في اليوم التالي جاء التاجر (شهبور) ومعه الطبيب والشيخ (دومة)، كان (عمرو) في حال أفضل من ليلة أمس، أثنى الطبيب على فعلي ونصح بأن أكرر تنظيف الجرح كل يوم، ثم وصف له شرب ثمار العوسج المجففة والمضروبة مع بياض البيض لمنع التقيح، ذكرتني رؤية العوسج ببرية سين وعوسجها الذي لم أذق مثله في حلاوته.

قال (عمرو) في ضجرٍ مَرِح:

ـ اللهم صبرًا على آلام المرض، وعذاب البيض!

ابتسم الطبيب، فقال الشيخ (دومة):

ـ إنه يكره البيض!

قال الطبيب باسمًا:

ـ لا بأس يمكنك ضربه مع لبن الشاة المخفف بالماء.

قال (عمرو) ممتنًا:

ـ هذا أفضل بكثير!

انصرف الجميع وتركوني مع (عمرو)، الذي اعتدل جالسًا في صعوبة، ثم تنهد وهو يقول:

ـ شكرًا لك يا (شمعون)، لقد صرت مدينًا لك بالكثير!

قلت صادقًا:

ـ أنا مدين لكم بحياتي، فلولاكم لهلكت في الصحراء!

سألني:

ـ كيف حال السوق؟ أشتاق للخروج إليها!

قلت:

ـ بالأمس كان البيع ممتازًا، يقبل الناس على التمور والعجوة ولكنهم يقبلون على المشاني والأقفاص أكثر.

ضحك وقال:

ـ تلك براعة (أروى) في البيع! كانت تتحدانا أنا و(ليث) في البيع وتتفوق علينا في كل مرة!

أصابني الوجوم برهة، بعدما أدركت أن لحظات الإثارة التي عشتها بالأمس، كانت لحظات مكررة بالنسبة لها، مع اختلاف الأشخاص،

أفقت من وجومي على قوله:

ـ أتدري حين جاءت (أروى) بالغداء أمس، رجوتها أن تعينني في الذهاب معها إلى السوق لكنها ضربتني في صدري واتهمتني بالجنون.

ثم ضحك وقال:

ـ أحمد الله أنها لم توافقني وإلا كنت صريعًا الآن.

أطبقت كلماته على صدري فلم أقو حتى على الابتسام، شعر بوجومي فقال مغيرًا مجرى الحديث:

ـ هل ستذهب إلى الحانوت اليوم؟

هززت رأسي نفيًا وقلت:

ـ كلا، فأنا متعب منذ ليلة أمس، وأريد أن أستريح.

أيد كلامي قائلًا:

ـ نعم، تبدو متعبًا، معذرة لإرهاقي لك.

غمغمت بكلمة «لا بأس» ثم انصرفت وفي قلبي غضب من ذاك الشعور الذي ألم بي.

لم يكن غضبًا من (عمرو) الذي تفضحه كلماته وهنّات أحلامه بعشق (أروى)، ولم يكن غضبًا من (أروى) التي أرخت لجام سحرها حتى وطأ من حولها من الرجال، ولكنه غضب من نفسي المائعة الخانعة، التي تهيم في بحور العشق وهي غرقى في أوحال الواقع! صفقت باب حجرتي خلفي في قوة وانهلت على وجهي صفعًا ولكمًا وأن أقول بصوت هادر يشبه صوت أبي حين صفعني من قبل:

ـ ويحك يابن (رومانا)! ويحك يابن (رومانا)! أما آن لك أن تصير رجلًا، أما آن لك أن تصير رجلًا.

ولم أتوقف عن الصفع واللكم إلا بعد أن انفجرت الدموع من عيني وسال خيط من الدماء من شفتي، ووجدتني أسقط أرضًا وأنا أجهش بالبكاء.

قمت بعدما هدأت نفسي، شعرت بأني بحاجة ملحة لوجود ربي معي في تلك اللحظة، تمنيت أن أقف أمام المذبح ويد الكاهن تمسح رأسي بالماء المقدس ورائحة البخور تطهر أنفاسي الملوثة، وتمنيت لو أمتلك ثمنًا لقربان أقدمه للرب «إيل» لعله يمُن عليّ بالسكينة، ولكن أين أنا من خيمة الاجتماع الآن؟

هداني عقلي إلى أن أغتسل بالماء وأن أتطهر كما يفعل الشيخ (عابر) وقومه، ثم وقفت في حجرتي وحدي، تتساقط من رأسي ومرافقي قطرات الماء وأخذت أتحدث إلى هذا الرب الذي ملأ حضوره الملكوت! كنت على يقين بأنه سيسمعني، ألا يستمع إلى صلوات الكاهن في خيمة الاجتماع فلماذا لا يستمع إلى عبد من عبيده يئن قلبه وجعًا ويرجو السكينة منه؟ تحدثت إليه بكل ما جال على خاطري من كلمات وبكل ما أثقل قلبي من هموم، كلامًا عفويًا لا سجع فيه

ولا ترنيم! العجيب أني شعرت أنه مني قريب، وأن مسًّا من السكينة قد لامس قلبي فهدأت أحزاني وسكنت جوارحي واستلقيت على فراشي اللدن ثم رحت في سبات عميق.

استيقظت بعد الزوال، فوجدت صحنًا به طعام الغداء، خبزًا وقطعتين من اللحم وجرة ماء، أدركت أن أحدهم قد فتح الباب وأنا نائم ووضع لي غدائي، كنت أشعر بالجوع، فطويت رغيف الخبز على قطعتي اللحم والتهمتهما في نهم، وبينما كنت ألتهم طعامي، لاحظت أن صرة أغراضي مفتوحة وقد تبعثرت محتوياتها وكأنما عبث بها شخص ما، أعدت الطعام في الصحن وقمت منزعجًا كي أتحقق مما أراه، وجدت خنجري وملابسي كما هما، ولكني لم أجد أوراقي التي كتبت بها كل ما مر بي خلال السنوات السابقة، وقد بدا أن أحدهم قد سرق الأوراق وترك لي الدواة والقلم!!

* * *

الورقة الحادية والثلاثون

في المساء كانت الحيرة سيدة الموقف، كان الجميع يتفكرون في وجوم وأسف عمن أقدم على تلك السرقة، وكان السؤال الذي يشغل أذهاننا جميعًا هو لماذا اكتفى اللص بأخذ تلك الأوراق دون غيرها من الأمتعة؟

سأل الشيخ (نابت) الخادم الذي قام بوضع الطعام إن كان رآها أو لمح شيئًا مستغربًا حين دخل الحجرة، فأكد الرجل على أنه لم يلبث في الحجرة سوى لحظات وضع فيها الطعام ثم انصرف، وكانت لهجة الرجل الصادقة وتاريخه مع أسرة الشيخ (عابر) ينفيان عنه أي شبهة بالسرقة، كاد الحزن يقتلني على فقدان تلك الأوراق وشعر (شهبور) بذلك، وكان يلتزم الصمت طوال الجلسة فسألني في حذر:

ـ (شمعون)! هل أخبرت أحدًا بأمر تلك الأوراق هنا أو قبل ذلك؟

هززت رأسي نفيًا وقلت له:

ـ لا.

قال:

ـ وما مقدار تلك الأوراق؟

قلت:

ـ عشرات اللفائف مرتبة ومفهرسة بالتاريخ منذ خرجنا مع نبي الله (موسى) وحتى وصولنا إلى إدوم.

قال:

ـ وتقول إن اللص قد ترك المتاع وقطع النقود واكتفى بالأوراق، أليس كذلك؟

قلت:

ـ بلى.

هز رأسه مرتين في تأكيد وكأنه قد وصل إلى حل الأحجية! ثم قال في يقين أثار مخاوفي:

ـ لا بد أن السارق هو أحد البصاصين!

هتف الشيخ (عابر) في استنكار وغضب:

ـ ماذا؟ يقتحمون البيوت وينتهكون حرمتها كاللصوص!

قال (شهبور) في أسف:

ـ تلك طريقتهم يا شيخ (عابر)، يتلصصون على الناس في مخادعهم، لعلهم يجدون صيدًا يقدمونه لسيدهم القابع في «أفيث».

شعرت بالتوتر وانزعج الشيخ (نابت) بشدة ثم قال:

ـ ولماذا يتتبع البصاصون (شمعون)؟

مط (شهبور) شفتيه وقال:

ـ لعل (كرونوس) قد اشتبه في أمره!

ثم قال في صوت خافت:

ـ وقد أخبرتك بأن الملك (هدد بن بدد) لا يرحب بالعبرانيين!

تذكرت نظرة (كرونوس) المريبة لي في السوق، وبدا لي أن كلام (شهبور) أقرب إلى المنطق السليم، فشعرت حينها بقلق بالغ، بان جليًّا أمام الجلوس، فقال الشيخ (عابر) في محاولة لطمأنتي:

ـ ألا يحتمل أن يكون الأمر مجرد سرقة؟

قال (شهبور) وهو يترفق بكلماته على الشيخ (عابر):

ـ في جميع الأحوال يجب أن يأخذ (شمعون) حذره يا شيخ (عابر) وأنصحه بألا يوجد الأيام المقبلة في السوق، ومن الأفضل ألا يظهر مطلقًا هناك حتى تنتهي إقامتكم في بصرى.

غمغم الشيخ (نابت) في أذن الشيخ (عابر) بكلمات وكأنه يتفق معه عما سيتم فعله، فلذت بالصمت وفي قلبي بؤس لو وزع على رجال القبيلة لكفاهم، بلغ بي الحزن مبلغه، وقد شعرت بالأسف لأني قد صرت عبئًا ومصدرًا للمتاعب لهذه القبيلة التي استضافتني.

رأيت الشيخ (عابر) يهز رأسه موافقًا بعدما انتهى الشيخ (نابت) من همسه الخفيض، فقال الشيخ (نابت):

ـ اسمع يا (شهبور)، نريدك أن تخفي (شمعون) بعيدًا عن هذا النزل من الليلة، فنحن لا ندري ما الذي قد يفعله (كرونوس) إذا أصبح الصباح وقرأ ما في الأوراق، فدبر له مبيته وطعامه وسنتكفل نحن بكل شيء إلى أن نغادر بصرى.

اشتد حزني لهذا الكلام، وشعرت بضعف قوتي وقلة حيلتي، وأني لا أملك من أمري شيئًا فظللت على صمتي وهم يقررون مصيري، رحب (شهبور) باقتراحه وقال:

ـ لا بأس من ذلك وإن شئت تركته حتى الصباح، فظني أن (كرونوس) سيستغرق وقتًا طويلًا حتى يترجم ما في الأوراق من العبرانية فهو أجهل من دابة!

ثم ضحك ضحكة قصيرة كي يخفف من وطأة الكآبة التي نشعر بها، ووجدتني أقول له بعفوية:

ـ هي ليست مكتوبة بالعبرانية، بل باللغة المصرية!

اتسعت حدقتا (شهبور) ولمع ضوءُها في العتمة، وكأنها أضاءت في رأسه

فكرة، فأنارت نافذة عينيه ثم قال وكأنما يتحقق مما قلته:

ـ هل كتبتها باللغة المصرية؟

قلت مؤكدًا:

ـ نعم.

قال في أمل:

ـ وهل تتحدث بها؟

قلت:

ـ نعم، فأمي مصرية!

تهللت أسارير وجهه حتى بدت حمرة خدوده كجمرتي نار ثم قال:

ـ يا لسعادتي بك يا غلام! غدًا سوف آتيك بعد شروق الشمس، فلتكن بانتظاري.

وكانت فرحته كفيلة بأن تزيل الهم عن قلبي، وقد شعرت أن سحابة من كرم الرب قد مرت فوق سماء النزل، فأمطرت سكينة في قلبي.

* * *

عند الشروق كان (شهبور) يطرق باب الحجرة، فتحت له متأهبًا للخروج فأوقفني بيده، ثم أعطاني رداءً ونعلين وقال لي:

ـ ارتدِ هذا وهذين!

دخلت الحجرة فخلعت ثيابي وارتديت الرداء الذي أعطانيه، كان رداءً مصريًا من الكتان ذا أكمام قصيرة ويصل طوله إلى ما بعد الركبة بقليل، يتزين جيبه عند الصدر بجلد مزخرف، وفي المتصف حزام من القماش المنقوش، أما النعلان فكانا من جلد التمساح وتعجبت من أين أتى بهما (شهبور).

أضفى عليّ الزي شكل النبلاء المصريين، والحقيقة أنني كنت شديد السعادة بتلك الهيئة، فتحت الباب، فضحك (شهبور) وقال:

ـ مرحبًا صديقي التاجر المصري النبيل!

تبسمت ضاحكًا، وسألته:

ـ من أين حصلت على هذا الزي؟

قال ضاحكًا:

ـ طلبته ليلة أمس من تاجر مصري صديق.

قلت له مازحًا:

ـ حسنًا وإلى أين سنذهب به؟ هل ستعيدني إلى مصر؟!

قال في جدية:

ـ كلا، سنذهب إلى صاحب الشرطة!

توقفت مندهشًا، فقال:

ـ هيا بنا! ولا تتحدث إلا إذا طلب منك ذلك.

بعد ما يقرب من ساعة، كنا نقف في حجرة صاحب الشرطة، ورأيت (شهبور) يتحدث في انفعال، كِدْت أصدِّقه، وقد احمرَّ وجهه وتعرَّق جبينه وهو يقول:

ـ سيدي صاحب الشرطة، لقد بلغت مضايقات (كرونوس) مبلغها ضد صديقي وضيفي التاجر المصري (شمعون)، قل لي بحق ملكنا العظيم (هدد)، كيف يُعامل نبيل مصريّ مثل هذه المعاملة في إدوم، يلقيه في السجن دون ذنب، ثم يطلق عليه البصاصين كي يسرقوا أوراقه وقراطيسه وبها أسرار تجارته، اعلم يا صاحب الشرطة أن صديقي قد طفح به الكيل، ولقد أقسم أن يرسل برسالة إلى مولانا المعظم (هدد بن بدد) في «أفيث» يستنجد به ليرفع عنه الظلم الواقع عليه في «بصرى».

انزعج صاحب الشرطة مما سمعه من (شهبور)، وبان عليه الاضطراب في صوته وهو يقول:

ـ نحن لا نرضى أن تقع مظلمة على السيد (شمعون المصري)، ولا نظن

أن الفارس (كرونوس) قد يفعل هذا مع رجل شريف من مصر!

قال (شهبور) مهاجمًا أكثر، وقد شعر بأن صاحب الشرطة قد اتخذ موقف الدفاع:

ـ فلتأذن لصديقي النبيل باسترداد أوراقه، ولتأمر الفارس (كرونوس) بألا يتعرض له!

اكتفى صاحب الشرطة بإيماءة من رأسه كي يؤكد على موافقته، صاح على الحارس القابع أمام الحجرة وأشار إليه كي يدنو إليه برأسه ثم همس في أذنه ببضع كلمات، انصرف بعدها الحارس من الحجرة، قام من مجلسه واتجه نحو خزانة ضخمة في حجرته وهو يقول:

ـ نحن نحب أهل مصر، ولا تستقيم التجارة في «بصرى» دون مساهمة أمثالكم من النبلاء.

فتح الخزانة وأخرج منها شيئًا لم أتبينه وهو يتابع:

ـ ويسعدنا أن نقدم لكم الهدايا كي تذكرونا بكل خير عند فرعون العظيم وعند مولانا الملك المعظم (هدد بن بدد).

ثم مد يده نحوي بهديته وهو يقول:

ـ أرجو أن تقبل هذه الهدية من صاحب الشرطة في بصرى، وستُدهش أن هذا هو معبودي المفضل في كل مكان أذهب إليه حتى هنا في إدوم.

مددت إليه يدي فإذا بي أجد تمثالًا ذهبيًا صغيرًا للعجل أبيس، اضطربت يَدِي وكأنما مست جمرة من النار، وتفجر في رأسي بركان من الذكريات المقيته شعرت بحممِهِ تنهال على جسدي، حتى تعرق جبيني وكدت أن أسقِط التمثال من يدي.

شعر (شهبور) باضطرابي، فرمقني بنظرة غاضبة، وأمرني بخائنَةِ عينه أن أقبلَ الهدية! تناولت التمثال بيدٍ واهنة، وأنا ألعن في سري ذلك الرجل الذي لم يجد طريقة أخرى يبرهن بها على تسامحه سوى إهداء هذا التمثال الذي لم أبغض

في حياتي مثله، ثم قلت في خفوت باللغة المصرية كي أقنعه بكلام (شهبور):

ـ شكرًا لك يا صاحب الشرطة.

دخل الحارس وفي يده لفائف من الأوراق التي علمت فيها أوراقي، وضعها على المنضدة، وهمس في أذن صاحب الشرطة بكلمات رأيت وجهه ينقبض على أثرها من الغيظ، ولكن صوته خرج هادئًا رغم ذلك وهو يقول:

ـ يبدو أن أحد اللصوص قد سرقها بالأمس وهو يظن بها نفعًا ثم ألقاها وفرَّ هاربًا حين أحس به الحراس.

ابتلعنا كذبته كرْهًا، فالتف حول المنضدة، ثم قام بفتح بعض اللفائف ليتأكد من أنها مكتوبة باللغة المصرية، وقال متظاهرًا بالاهتمام:

ـ يبدو أن اللصَّ قد تركها كاملة ولم يُتلِف منها شيئًا!

تنفست الصّعداء وابتسم (شهبور) في ظفر وقال وهو يقوم بجمع اللفائف في صرة من القماش:

ـ نشكرك أيها السيد على ما قدمته لنا من معروف، ولا أعتقد أن السيد (شمعون) سينسى هذا الكرم.

وقبل أن ننصرف، إذا بنا نجد الفارس (كرونوس) لدى الباب، شعرت بالتوتر ذاته الذي ينتابني كلما رأيته، بينما بانت على وجهه الدهشة من رؤيتنا، وربما أثار مظهري ريبته أكثر.

أنهت كلمات صاحب الشرطة حالة الترقب والتساؤل حينما قال:

ـ حسنًا يا (كرونوس)، لقد أبليت بلاءً حسنًا حينما ألقى رجالك القبض على اللص الذي سرق أوراق السيد النبيل (شمعون).

همّ أن ينطق ولكن صاحب الشرطة أنهى اللقاء ليقطع عليه الحديث قائلًا:

ـ لقد سعدنا بوجودك يا سيد (شمعون).

فحيّاه التاجر (شهبور) وأمسك يدي ثم انصرفنا مسرعين.

* * *

الورقة الثانية والثلاثون

مرت الأيام التالية بهدوء دون أن يعكر صفوها شيء، تعافى جرح (عمرو) وأصبح قادرًا على السير والحركة، مستندًا على عصا أهداها له التاجر (شهبور)، كما راجت تجارة الشيخ (عابر)، وأوشكت بضاعته من التمور والعجوة والمثاني على النفاد.

كنت خلال هذه الأيام أتجنب التواجد في السوق، أظهرت أنني أفعل هذا بناء على نصيحة التاجر (شهبور)، ولكني في الحقيقة كنت أهرب من لقائها! لا سيما بعدما ألح (عمرو) في رغبته في الذهاب إلى السوق بعدما شعر ببعض التعافي.

في تلك الأيام شعرت بغربتي ووحدتي في النزل رغم كل المحبة التي أحاطني بها الجميع، ورغم أني قد حاولت شغل وقتي بالحديث إلى الشيخ (عابر) أو بتدوين أوراقي، فإنني لم أستطع أن أنجو من براثن التفكير بها لا سيما إذا جن الليل واختليت إلى نفسي، كنت في كل ليلة أتمنى لو بكَّرت في الصباح فخرجت معها إلى السوق، فأذني تحن لسماع صوتها وعيني تشتاق لرؤية وجهها، ولكني كنت أعود فأتذكر نظرة الوله في عيني (عمرو) وهو يسير إلى جوارها متكئًا على عصاه فأصرف عن نفسي تلك الأماني الكاذبة.

وثقلت على نفسي الهموم، فخرجت ذات ضحى من النزل، أبغي أن أتجول في المدينة وحدي كي أرى من معالمها ما أسري به عن نفسي، تجاوزت سوق

المدينة واتجهت غربًا، فوصلت إلى منطقة قريبة شديدة الجمال تكسو جبالها الأشجار وتتفجّر من بين شقوقها الينابيع علمت فيما بعد أن اسمها «ضانا»، فذكرتني تلك الواحة اليانعة بواحة قادش برنيع، أبهرني أن أرى قطيعًا من الغزلان الجبلية فوق إحدى الهضاب يرعى بعضها في هدوء ويتناطح البعض الآخر وقد بدا من كثرتهم أنهم قد استوطنوا تلك الربوة منذ أمد بعيد، جذبني جمالها فسرت إليها مشدوهًا بين ظلال الأشجار الوارفة، أتنسم عبيرًا رطبًا، يملأ صدري بنسيم له مذاق! ويغشى سمعي مزيج حلو من صوت خرير المياه بين الصخور وزقزقات مئات العصافير التي تباينت نغماتها ورددت الجبال رنينها فبدت كتسابيح تصل إلى عنان السماء، وكأن الطبيعة تغني إلى بارئها العظيم! وجدتني أقول بلسان لم أعتد عليه ولكني أحسست به: يا ألله! ما أبدعك! شعرت بأن الله قد تجلى بجماله على تلك البقعة من الأرض، وتذكرت ما قاله الشيخ (عابر) لي في أول لقاء بيننا (إن الله يتجلى علينا كيفما نراه)، ولقد رأيت الله جميلًا في تلك اللحظة، فمن يصنع ذاك الجمال لا بد وأن يكون جميلًا!

قادتني قدماي إلى أعلى الربوة، لم أقترب كثيرًا من قطيع الغزلان حتى لا أفزعها، رغم أنها لم تكترث كثيرًا لرؤيتي، نظرت إلى أسفل الربوة فخفق قلبي رهبة في حرم ذلك الجمال! كانت الربوة تنتهي إلى سفح يحده وادٍ أخضر، تتاخمه كثبان من الرمال الأرجوانية والتي تنتهي إلى شاطئ بحرٍ ساكن، شديد الزرقة، علمت فيما بعد أن اسمه (بحر لوط)، وعلمت أيضًا أن الأسماك لا تحيا فيه لشدة ملوحته، ولعل هذا كان من عقاب الرب على قوم لوط.

جلست فوق صخرة ملساء وملأت صدري بشهيق عميق، لو كان لي مطلب واحد في تلك اللحظة، لتمنيت أن تكون أمي (رومانا) إلى جواري!

مددت بصري إلى أقصى مداه وكأنما أبحث عنها في الأفق المفتوح، فتاه البصر في الصحراء كتيهِ أحبابي!

آه من قسوة الأيام!

كم أفتقدك أيتها الغالية!

أتمنى أن تتماسكي حتى أراك! وأعدك ألا أخذلك مرة أخرى.

هبط إلى جواري طائر صغير مزركش، نقر الأرض مرات بمنقاره ثم دار حولي في هدوء، فذكرني هدوءه بطائر السلوى المسخر في نزلنا المفقود.

فجأة طار الطائر وكأنما رأى شيئًا أخافه، نظرت خلفي بسرعة، فوجدتها هي.. (أروى)!

كنت كمن يحلم، فما الذي يأتي بها إلى هنا، قلت مندهشًا:

ـ (أروى)!

قالت وهي تلهج من صعود الربوة:

ـ أتعبتني يا (شمعون)!

ثم ألقت بنفسها على الصخرة إلى جواري وهي تضع يدها على صدرها الذي تلاحقت أنفاسه، سألتها:

ـ كيف أتيتِ إلى هنا؟

قالت بعد أن هدأت أنفاسها:

ـ كنت عائدة إلى السوق بعد أن أعددت الغداء لجدِّي فرأيتك تخرج من النزل، تعجبت أنك تجاوزت السوق وسرت غربًا، فتتبعتك إلى هنا.

ثم تنهدت في زفرة طويلة وقالت:

ـ أحمد الله أني وصلت إليك فقد كدت أفقد أثرك بين الأشجار الوارفة.

قلت مبتسمًا:

ـ ولماذا لم تنادي عليّ؟

أضاقت عينيها وزمَّت شفتيها وقالت في مكرٍ لعوب:

ـ أردت أن أعرف سرَّك! فلك أسبوع لا تأتي إلى السوق وتبدي حججًا واهية.

ثم نظَرَت حولها في انبهار وقالت وهي تشير بيدها إلى الحدائق الغنَّاء حولنا:

ـ إذن فهذه خلوتك التي تتركنا لأجلها!

ثم عقدت شفتيها وهي تهز رأسها مستحسنة وقالت في شغبٍ محبب:

ـ عمومًا هي تستحق! فشتان ما بين غبار السوق وتلك الجنة الغنَّاء.

كنت أحتويها ببصري وقلبي يخفق لكل حركةٍ من يدها أو تقطيبةٍ من حاجبيها أو زمّةٍ من شفتيها، وكنت أتساءل كيف طوَّعت تلك الفتاة ملامح وجهها الرقيق هكذا كي يزداد فتنة مع كل كلمة تنطقها، أدرت بصري بعيدًا عنها ونظرت إلى الأفق هربًا من سحرها واستدعيت كلمات (عمرو) التي باحت بها نفسه في إغماءة كي أتشبث بها قبل الغرق في بحور الوهم.

أحجلها شرودي، وشعرت بالحرج من ردة فعلي، فقالت في جدية حملت في طياتها بعض الحنان:

ـ أراك حزينًا يا (شمعون)! ما بك؟

قلت بعد تنهيدة أزاحت عني ثقل لساني:

ـ أشتاق إلى أمي!

أوجعتها كلماتي، ورأيت الشفقة في عينيها تمتزج بدمعة، فتابعت وكانت المرة الأولى التي أبوح فيها لأحدٍ بمثل هذا الحديث:

ـ أشعر وكأني شجرة غاب اقتلعت من جذورها وأمي هي تلك الجذور، لا أشتاق لقومي ولا لديني، فقد علمت الآن أن العشيرة هي من طابت عشرتهم من الناس، وأن الدين هو الإيمان بذلك الرب العظيم الذي يتجلى بعدله على الجميع، أصدقك القول يا (أروى)، ما شعرت أن الرب حليفي إلا في هذه الأيام، كنت بين بني إسرائيل أشعر أن عقاب الرب أقرب إلينا من رحمته، حتى ونبي الله بيننا لم ينل أبي به الشفاعة! صدقيني لقد سئمت الحياة إلى جانبهم ولا أريد العودة إليهم، فقط أريد تلك المرأة التي تركت وطنها وأهلها من أجل حبها، فإذا بها تفقد الأهل والوطن.

ارتعشت شفتاي وأنا أقول:

ـ إذا قُدِّر لي أن ألقاها سأُقبِّل قدميها كي تسامحني!

ثم انفجرت باكيًا وأنا أقول:

ـ ولكني أخشى أن تموت قبل أن ألقاها ثانية!

لم تحتمل بكائي فانفجرت هي الأخرى باكية واحتضنت رأسي إلى صدرها بقوة وهي تربت على ظهري مرات متتابعة، ثم قالت ودموعها تتساقط حارة غزيرة:

ـ ستعود إليها يا (شمعون)! ستعود إليها لأنك نقي القلب، أقسم لك أني سأدعو لك في كل صلاة حتى تراها، ولكن لا تفطر قلبي ببكائك! لا تفطر قلبي يا (شمعون)!

رفعت رأسي عنها فرأيت وجهها تغطيه الدموع وقد ذبلت عيناها، هالني ما فعلته بوجهها الصبوح المرح الذي كان يفيض بشاشة منذ قليل، مددت يدي إلى وجهها فأحطت خدها الأيمن بكفي ثم مسحت دموعها بإبهامي، هدأ بكاؤها ولكن ظلت أنفاسها تتلاحق، مددت يدي الأخرى ثم مسحت الدموع عن خدها الآخر وظللت أحيط خديها بكفي حتى استكانت أنفاسها، تنهدت ثم أرخت أهدابها وأمالت خدها على كفي للحظات وكأنها تتوسده، ثم أمسكت كفي ورفعتها عن خدها وقبلتني في راحة يدي قبل أن تقول:

ـ هيا يا (شمعون)! سيفتقدنا القوم.

تنهدت أنا الآخر ثم قلت في مرح كي أخفف من وطأة المشاعر:

ـ نعم، ففي آخر مرة اجتمعنا فيها فوق الجبل انهمر السيل وكدنا نغرق معًا.

ضحكت وقالت:

ـ الأهم ألا نجد القبيلة كلها في انتظارنا تحت السفح مرة أخرى!

قمنا من جلستنا ثم هبطنا إلى السفح وقد تشابكت أيدينا كطفلين تشابكت أيديهما وجمعت بينهما الأقدار قبل ذلك بعشر سنوات في برية سين.

* * *

كان اليوم الأخير لنا في السوق، بيعت كل بضاعتنا تقريبًا ولم يتبق سوى بضع مشانٍ في حانوت (أروى) لم تجد من يشتريها لعيوبٍ بها، فأهدتها إلى فتيات السوق، أمرنا الشيخ (نابت) أنا و(ليث) أن نترك السوق وأن نرافق (شهبور) في الصباح الباكر إلى المخازن كي ننقل بضاعتنا الجديدة التي سنبيعها في بكة، بينما ذهب هو مع (عمرو) الذي تعافي من جرحه، إلا من غمزةٍ بسيطة في مشيه، إلى التجار ليسدد ما عليه من نقود آجلة بعد أن باع بضاعته وربح منها.

كان المخزن يبدو كصومعة هائلة تتراص في أحد جانبيه عشرات الجوالق من بخور سبئي وبهارات شرقية وحبوب القمح المصري الذي تتلألأ حباته في ضوء الشمس كحبيبات الذهب، وعلى الجانب الآخر وضعت عشرات الأواني من الفخار الإدومي الملون بالأصفر والأزرق والأحمر والتي لم أر مثيلًا لها في حياتي، وعلمت من (شهبور) أن هذا الفخار يباع لسادة بكة بمبالغ طائلة، ولهذا أمر (شهبور) عماله بأن يقوموا بنقل الجوالق أولًا على العربات الخشبية، وأن يتركوا القدور الفخارية للساعات الأخيرة قبل السفر حتى لا تتعرض للكسر.

كنت كلما حُرِّكَ جوال من أجولة البهارات، أعطس بشدة، ثم يتبعني (ليث) في العطس، فيضحك (شهبور) الذي اعتادت أنفه على تلك الرائحة وصارت لا تؤثر فيه، ويقول:

ـ ماذا ستفعلان حين تفرغان ما بها؟!!

امتلأت العربة الأولى، فعدَّ (شهبور) حمولتها ثم سجَّل العدد في ورقة في يده وقال:

ـ عشرة جوالق.

ثم أعطى (ليث) عشر فضيات في يده وقال:

ـ ادفعهم إلى مُتوَلِّ الحسبة عند البوابة، فضيةً لكل جوَال.

ثم هتف:

ـ هيا انطلقوا!

فدفع الحمَّالون العربة، متجهين بها إلى خارج المخزن يتقدمهم (ليث)، بينما أخذت مجموعة أخرى من العمال في تجهيز العربة الثانية.

لاحظت أن التاجر (شهبور) يُحفِّز عمّاله للعمل في سرعة وكأنه في عجلة من أمره، وفضح قَلَقَه وتوتره احمرار وجهه وانفعاله الشديد على العمال كلما انفتحت أحد الأجولة خطأً، امتلأت العربة الثانية، في اللحظة التي دخل فيها أحد الأشخاص إلى المخزن، أحسست أن توتر (شهبور) قد ازداد حينما رأى ذلك الشخص، أشار إليه كي ينتظر، ثم صاح في عمّاله:

هيا إلى القافلة بسرعة ثم قال لي آمرًا:

ـ تقدمهم يا (شمعون).

خرجنا من المخزن وقطعنا الشارع الجنوبي من السوق في اتجاه الأسوار، ألقيت النظرات الأخيرة على السوق، وفي قلبي إحساس بالحنين كان يرافقني دائمًا كلما آن وقت الرحيل من مكان إلى مكان، فغدا مع شروق الشمس، سنغادر تلك المدينة ولا أدري هل سيُقَدَّر لي أن أراها ثانية أم لا، والحق أنني قد أحببت تلك المدينة رغم الأحداث السيئة التي وقعت في الأيام الأولى، ربما لأنها أول مدينة أراها في حياتي، أو لأنها قد قربتني من (أروى) بشدة!

اقتربنا من بوابات السور الشاهقة فهالني ارتفاعها وتعجبت كيف استطاع هؤلاء القوم بناءها، رأيت الحمالين يقفون في رتلٍ طويلٍ متصل للعبور من البوابة، وذكرني الزحام بأنني لم أعلم من (شهبور) عددَ الأجولة، كما أنه لم يعطني الفضيات التي سأدفعها إلى مُتولِّ الحسبة، قمت بعدِّ الأجولة في سرعة فوجدتها اثني عشر جوالًا، قلت للعمال:

ـ انتظروني لحظات، سأحضر النقود من (شهبور) وأعود.

عدت في خطوات سريعة أقرب إلى العدو حتى لا أتأخر على العمال، وصلت إلى المخزن فوجدت الباب موصدًا، تعجبت وكدت أطرق الباب، ولكني وجدت فُرجةً به فنظرت خلالها، وهالني ما رأيت!

كان (شهبور) يقف مع الرجل الذي وصل إلى المخزن قبل خروجي، ومعه اثنان آخران يجلسان القرفصاء ويوليان ظهرهما للباب فلم أر وجهيهما، كدت أشهق حينما رأيت قطعة من القماش إلى جوارهم عليها تل صغير من النقود الذهبية قد يتجاوز ما به عشرات الآلاف من الدنانير الذهبية، كانوا يغرفون منه بأيديهم حفنات، ثم يضعونها في القدر، وبعد أن تمتلئ القدر إلى منتصفها، يحشون نصفها الباقي بالقش، كي يخفوا ما بها من ذهب، لاحظت أيضًا أنهم يملئون القدور الصفراء فقط بالذهب، أما القدور الزرقاء والحمراء فكانوا يملئونها بحفنات من الحصى ثم يغطونها بالقش! كل هذا كان يحدث في سرعة وفي رِفق، حتى إن جنيهات الذهب لم يكن يسمع لها رنين.

فرغوا من عملهم، فأعادوا القدور إلى وضعها، واستدار الرجلان فكدت أشهق حينما رأيت وجهيهما، فقد كانا الشيخ (نابت) و(عمرو)، يتنكران في زيّ إدومي وقد غطى رأسيهما وشاح أبيض!

تراجعت عن الباب حينما رأيتهم يتقدمون نحوه وسترت جسدي خلف جدار جانبي إلا من طرف عين ظل يتابعهم، خرج الثلاثة من الباب، وتركوا خلفهم (شهبور)، نظروا يمنة ويسرة ثم تلثموا بالوشاح قبل أن ينطلقوا في طريق الشمال، وقد فضحت (عمرو) غمزته في المشي من بينهم!

انتظرت دقائق استجمعت فيها هدوئي، ثم دخلت إلى المخزن في هدوء، فوجئ بي التاجر (شهبور)، فبادرته بالكلام قائلًا:

ـ أنت لم تعطني النقدية، ومُتَوَلِّ الحسبة بانتظارنا.

لا أدري لماذا رأيت في عينيه نظرة شك، رغم أنني حاولت أن أبدو طبيعيًّا، أردفت وقد ارتعش صوتي قليلًا:

ـ لقد عددت الأجولة ووجدتها اثني عشر جوالًا.

اقتحمتني نظراته المتشككة ثم قال في خبث وهو يخرج النقود من نطاقه:

ـ لماذا لم تطرق الباب حين أتيت؟

نكست عيني إلى الأرض حتى لا تفضح كذبي، ورددت على سؤاله:

ـ لم يكن الباب مغلقًا.

تأكد لديه أنني أخفي شيئًا، ولم يكن (شهبور) بالرجل الغرّ ليتلاعب به شاب مثلي تفضحه ملامح وجهه! وضع النقود في يدي ببطء ثم أطبق على أصابعي بقوة، وقال وهو يدنو بوجهه مني:

ـ اسمع يا (شمعون)، لا أخفيك سرًّا أني لا أشعر بالراحة تجاه العبرانيين، ولقد رأيت منهم في حياتي ما يكفيني من الخيانة، ولكني وثقت بك لأجل هذا الشيخ الذي أعتبره أبي.

ثم ازدادت ضمة يده على كفي حتى آلمتني قبضته، وخرجت حروف كلماته حادة مشبعة بأنفاسه وهو يقول:

ـ ولكن وحق الرب، لأقتلنك إن باح لسانك بشيء رأيته خلسة أو صدفة في هذا المكان!

ثم أفلت يدي من يده وقال:

ـ اذهب ولا أريد أن أراك حتى ترحل القافلة من هنا!

* * *



الورقة الثالثة والثلاثون

استيقظت قبل شروق الشمس بساعتين، فارتديت جلبابي ثم جمعت أغراضي البسيطة في صرة من القماش، وضعت لفائف أوراقي أولًا وتعمدت أن أطويها مرات متعددة كي لا تشغل حيزًا كبيرًا من الصرة ثم وضعت رداءً ونعلًا اشتريتهما من السوق وأرفقت بهما الرداء والنعل المصريين الذي أعطانيهما (شهبور) كهدية، عقدت طرفي الصرة في قوة وتركتها إلى جوار الباب، جلست على الأرض في انتظار نداء الرحيل، تذكرت البوق الذي كان ينطلق في سماء نزلنا كلما جاء الإذن بالرحيل لبني إسرائيل من مكان إلى مكان، أما هنا فلا توجد أبواق، فقط كان هناك منادٍ يسير حاملًا دُفًّا صغيرًا ينقر عليه نقرات متتابعة بعصا صغيرة، ثم ينادي على أهل النزل للاستعداد للرحيل، وجدت كسرات من الخبز، وقطعة من الجبن متبقية من ليلة أمس فأكلتها ثم تجرعت بعض الماء من قربتي قبل أن أخرج إلى ساحة النزل.

فوجئت بأن أغلب أهل القافلة قد استيقظوا وأني آخرهم، كان الشباب يعاونون النساء والشيوخ في نقل أغراضهم من الحجرات إلى خارج الأسوار حيث يوجد الركب، رأيت (عمرو بن دومة) وأبيه وعمه الشيخ (نابت) يقفان في وسط الساحة يتابعون انتقال الناس في اهتمام، ويتأكدون من أن أحدًا لم يُفقد، بينما جلس الشيخ (عابر) على حجر مرتفع متكئًا على عصاه، وقد وقفت إلى جواره (أروى) وشقيقها (ليث).

تقدمت إلى الشيخ (عابر) فقبلت يده، ثم ألقيت التحية على ولديه وأحفاده، تعجبت من هيئة الشيخ (نابت) و(دومة) وولديها (عمرو) و(ليث)، فقد كانوا يرتدون زيًّا أشبه بزي الفرسان وقد تمنطق كل منهم بحزام جلدي يتدلى منه سيف جديد، بدا لي أنه من السيوف التي اشتراها الشيخ (نابت) من السوق.

لاحظ الشيخ (نابت) تعجبي، فابتسم وقال:

ـ هكذا نرتدي في رحلة العودة.

ثم انتبه وكأنه قد تذكر شيئًا مهمًا، فقال لي:

ـ (شمعون) هذا لك!

وجدته يقدم لي الخنجر، الذي كان قد أخذ مني يوم وجدوني في الصحراء، فابتسمت حين رأيته وقد شُحِذ نَصله ولُمِّع مقبضه، وشكرته على الحفاظ عليه.

خرجنا جميعًا من الأسوار مع بداية أول شعاع للشمس، كان الجميع قد اتخذ مجلسه إما على صهوة جواد أو على سنام ناقة أو مستترًا بهودج، رأيت حراس القافلة وقد اختلفت هيئتهم أيضًا عما سبق، فكانوا يتمنطقون بالسيوف الجديدة، كما أضافوا إلى ردائهم الأبيض قميصًا أسود تكسوه صديرية من المعدن.

امتطيت صهوة جوادي ثم علقت صرة أغراضي على سرجه، أطلق حادي القافلة صفيرًا طويلًا، فعلِمت النوق أنه قد آن وقت الرحيل، قامت النوق من جلستها تنوء بكَلْكلِها، وترد على صفير الحادي بحنينٍ ملأ جنبات وادي قرقور وكأنها تودع الأرض التي مكثنا فيها قرابة ستين يومًا.

تقدم بعض الحراس الركب وسار بعضهم في المؤخرة، بينما سرت أنا في المنتصف إلى جوار الشيخ (عابر) وأبنائه، لاحظت أن النوق التي تحمل الجوالق، تسير في مؤخرة القافلة، أما النوق التي تحمل القدور فكانت خلفنا مباشرة تليها النوق التي تحمل هوادج النساء، أدركت بسهولة أن (شهبور) قد نقل القدور ليلًا حتى لا ينكشف أمرها، ولم تخطئ عيني تلك الناقة الهائلة التي كانت تسير خلفي ويتدلى من جانبيها عشرات القدور الصُّفر!

كان قرص الشمس قد تسلل إلى الأفق وانعكست أنوار الشفق الأحمر على جبال إدوم الأرجوانية، فتلون كل شيء حولنا باللون البرتقالي، حتى وجوه الناس وظهور الإبل!

امتلأ صدري بنسمات الصباح العليلة ودعوت الرب ألا يقع شيءٌ يعكر صفوها، ثم سألت الشيخ (نابت):

ـ كم تبلغ المسافة إلى بكة!

قال بوجه جامد:

ـ مسيرة شهر.

ثم أردف وكأنما يشغل باله أمرٌ ما:

ـ ولكننا سنتوقف بالحِجر أولًا.

قال عمرو:

ـ هذا الطريق اسمه طريق البخور يا (شمعون)، وقد أسماه التجار بهذا الاسم لأن تجارة البخور والبهارات تسير عليه ما بين سبأ وكنعان ومصر، وتتوقف القوافل في مدن أقيمت على هذا الطريق للراحة والتزود بالماء، وأولى منازلنا هي الحِجر.

سألته:

ـ ولماذا تسمونها الحِجر؟

قال:

ـ لا أدري، ولكنها أرض لا نهوى البقاء بها على أي حال.

سألته مستفهمًا:

ـ ولِمَ؟

قال:

ـ هي أرض (ثمود)، قوم أبينا (صالح)، ويقولون إن الله قد أهلكهم لذنوبهم.

قلت متعجبًا:

ـ أبونا (صالح)؟!! أهو من أبناء أبينا (إبرام)؟!

قال مسرعًا:

ـ كلا، بل سبقه بمئات السنين!

لم أكن قد سمعت عن نبي اسمه (صالح) من قبل، فسألته متعجبًا:

ـ وهل يقطن المدينة الثموديون الآن؟

قال:

ـ القليل ممن بقوا من قوم (صالح)، والكثير من القبائل التي نزحت إليها من الجنوب.

سألته:

ـ ولماذا تكرهون المكوث بها؟

هز كتفيه وقال:

ـ لا أدري!

ثم ابتسم قائلًا وهو ينظر إلى عمِّه:

ـ يقولون إنها أرض ملعونة!

قلت متعجبًا:

ـ ملعونة؟

أجاب الشيخ (ثابت) هذه المرة:

ـ نعم فالناس تخشى العيش في أرض وقع عليها العذاب.

سألته في شغف وقد أسعدني انضمامه للحديث:

ـ ولماذا عاقب الرب ثمودًا وقضى عليهم بالعذاب؟

تنهد ثم قال:

ـ تلك سنة الله في الأمم يا غلام، طغيان، فتحذير، فعصيان، فعقاب!

ثم حكى لي ما كان من أمر ثمود وطغيانهم حتى وقع عليهم العقاب.

استغرقت في الصمت للحظات وأنا أتدبر قصتهم ثم تمتمت في تعجب وأنا أقول:

ـ يالله! أتدري يا شيخ (نابت)، ما الذي أشعر به الآن؟

نظر إلى مستفهمًا، فقلت:

ـ إن الرب كان رحيمًا ببني إسرائيل، وإننا رغم المعاصي لم نر عذاب الله بعد!

هم أن يعلّق على كلامي، ولكن قاطعتنا جلبة في مؤخرة القافلة جعلته يأمر الحادي بالتوقف، نظرنا خلفنا فإذا بحراس القافلة يشيرون إلى سحابة من الغبار، تبدو على مرمى البصر وتقترب منا بسرعة، رأيت القلق على وجه الشيخ (نابت)، فاستدار بفرسه واتجه إلى مؤخرة القافلة، تبعناه أنا و(عمرو) و(ليث)، ولحق حراس المقدمة بنا، مرت لحظات قليلة، قبل أن تنقشع سحابة الغبار، لنرى فرقة من فرسان الإدوميين يمتطون جيادهم ويتقدمون نحونا في سرعة، ولم تمض سوى لحظات أخرى حتى أصبح المشهد جليًا، كان الضابط (كرونوس) يتقدم تلك الفرقة، مشهرًا سيفه في الهواء وفي عينيه شرٌّ عظيم.

توقفت الفرقة التي زادت عن عشرين فارسًا أمامنا، بعد أن أثارت سحابة عظيمة من الرمال ملأت أنوفنا وصدورنا، دار كرونوس بفرسه أمامنا بطريقة أثارت غيظي وغيظ من في القافلة، ثم جذب لجام فرسه بقوة فرفع الفرس ساقيه لأعلى وهبط بهما أمام الشيخ (نابت) كي يرهبه، ولكن الشيخ (نابت) ظل متماسكًا ولم يتحرك وكأنه لا يأبه لحركات (كرونوس) التي تفيض غلًّا.

قال (كرونوس) بلهجة إدومية، خرجت من فمه ركيكة بغيضة، وهو يشير بطرف سيفه إلى الشيخ (نابت):

ـ أنتم لصوص!

رفع الشيخ (نابت) رأسه إليه وقال في كبرياء:

ـ لسنا لصوصًا، نحن تجار شرفاء!

أحاط الفرسان بالقافلة من كل جانب ليمنعوها من المسير، ثم قفز (كرونوس) من فوق صهوة جواده واتجه إلينا، يصاحبه فارس آخر يبدو من لهجته أنه من أهل إدوم، قال الفارس:

ـ لقد خالفتم قانون إدوم، وأخرجتم ذهبًا من أرضها، وتلك سرقة عظيمة عقوبتها القتل!

خفق قلبي بشدة، وأدركت أن واشيًا قد فضح أمر القدور أو لعل أحد البصاصين قد شاهد نقلها في الليل، تقدم الشيخ (عابر) متكئًا على عصاه، وقال في هدوء وثقة للفارس الإدومي:

ـ لقد أتينا هنا للتجارة أيها الشاب، لم نحمل ذهبًا، ولا حاجة لنا فيه، وهذه بضاعتنا أمامكم لا يوجد بها ذهب ولا فضة.

مادت بي الأرض، وقد أدركت أن الشيخ (عابر) لا يعلم ما دبره ولده (نابت) وحفيده (عمرو) مع التاجر (شهبور)، ابتسم (كرونوس) ابتسامة مقيتة، وأزاح بيده الشيخ (عابر) عن طريقه بصفاقةٍ لا تليق بالشيخ الجليل، فأثارت طريقته (عمرو) الذي اشتدت قبضته على مقبض سيفه لولا أن أمسكت بيده حتى لا يرتكب حماقة أخرى، وهذه المرة ستكون العاقبة وخيمة!

سار (كرونوس) في غرور وهو يتفحص مؤخرة القافلة بعينيه بينما سار خلفه الشيخ (نابت) و(عمرو) في تحفز، بقرَ بطرف سيفه جوالًا يتدلى من ظهر ناقة فسال منه الطحين على الأرض، فنظر إليه وتجاوزه دون أن يأبه لما فعله، بان الغيظ على وجه الشيخ (نابت) و(عمرو) ولكنهما تماسكا، استمر في سيره إلى أن وصل إلى هوادج النساء، أشار بيده إلى الفارس الإدومي، وقال:

ـ أنزلوا هؤلاء!

تردد الفارس الإدومي لحظة، وربما كان يعلم أن هذا التصرف غير مقبول عند قبائل الأعراب، ولكنه قال:

ـ أخرجوا النساء من الهوادج.

هتف (عمرو) في غضب نحو (كرونوس) وقال:

ـ يا لك من حقير!

حدق (كرونوس) نحو (عمرو) في تحفز وبدا أنه لم يفهم ما قاله (عمرو)، ولم يترجم الفارس الإدومي ما قاله، فاحتوى الشيخ (عابر) الأمر بسرعة وهتف على الحراس:

ـ أنيخوا الجمال، وأخرجوا النساء من الهوادج.

خرجت النساء مذعورات، ورأيت الخوف في عيني (أروى) وهي تحتضن أمها وتقف بها بعيدًا عن الفرسان، مزق (كرونوس) ستائر الهوادج بسيفه، وأخذ ينظر فيها الواحد تلو الآخر، وكان في كل مرة لا يجد بداخلها شيئًا، يزداد رعونةً وانفعالًا.

وقف يلهث بعد أن انتهى من آخر هودج وقد احتقن وجهه غيظًا، ومسح القافلة بعينه وكأنه يتساءل، أين أخفى هؤلاء الأعراب الذهب.

وقع بصره على قدور الفخار، فتقدم نحوها وقد خفق قلبي بشدة، ضرب بسيفه قدرة زرقاء فتحطمت بددًا وسقط عنها حصاها وقشها، جثى على ركبتيه وأمسك الحصى والقشَّ بيده وقد تعجب، لماذا يحشو هؤلاء الناس القدور بالحصى والقش؟ لمعت عينه واشتعلت حماسته وقد شعر بأنه قد أوشك على الوصول إلى ضالته، ضرب قدرًا ثانيًا ثم ثالثًا ثم رابعًا، وظل يحطم في القدور الزرقاء والحمراء وهو يلهث كالمجنون، وفي كل مرة لا يجد شيئًا سوى القش والحصى!

صرخ في غضب، ثم توجه نحو القدور الصفراء، فتسارعت ضربات قلبي حتى كادت أن توقفه، رفع سيفه عاليًا في الهواء وهم أن يحطمها كما فعل بسابقتها، ولكن نصل سيفه لم يصل إليها فقد تلقاه نصل سيف الشيخ (نابت) وهو يصرخ فيه غضبًا:

- كفى!

اتسعت حدقتا (كرونوس) واحمر وجهه حتى بدا كشيطان رجيم، لم يستوعب كبرياؤه أن ينهره أعرابي من الصحراء أو أن يرد عليه نصلًا بنصل، فرفع سيفه مرة أخرى ودار به دورة في الهواء وهبط به على ذراع الشيخ (نابت) الذي انفصل عنه في الحال، وهو يصرخ صرخة ملأت جنبات الوادي ألما.

وانفجر الوضع كبركان تساقطت حممه على الوادي حتى كادت أن تحرق كل من فيه، ارتعدت الأرض بصراخ النسوة، وصيحات الغضب من رجال القافلة، اشتبك الحراس في بسالة مع فرسان يزيدون عليهم في العدد مرتين، وانقض (عمرو) على (كرونوس) ينهال عليه ضربًا بالسيف يريد أن يقضي عليه، ولكن الفارس المحنك كان يتفادى طعنه، ويرد نصله، متحينًا الفرصة كي يسدد إليه طعنة في مقتل، وبينما كنت أبعد الشيخ (عابر) عن سنابك الخيل الثائرة إذا بـ(عمرو) يسقط أرضًا متألمًا بعد أن أصيبت فخذه بطعنة، ورأيت (كرونوس) اللعين يدور بسيفه في الهواء ويتأهب لسداد طعنة قاتلة له، فأسرعت بالقفز نحوه وسددت له طعنة بخنجري المشحوذ، نفذت في كتفه الأيسر، فصرخ من الألم، ثم استدار نحوي وأطاح بسيفه نحو صدري كالمجنون ولولا رحمة ربي لنفذ النصل بين ضلوعي، أخرج خنجرًا من جانبه وهجم عليّ، يريد أن يفتك بي فشعرت أني هالك لا محالة.

فإذا برحمة ربي تتنزل عليّ مرة أخرى وإذا برمح يشق الهواء في سرعة ويمر إلى جانب أذني، ليستقر في صدر (كرونوس) اللعين، قبل أن يسقط على وجهه القبيح، التفت في سرعة لأرى صاحب الرمح، فإذا بي أرى رجلًا ملثمًا يمتطي جواده، ومعه عصبة من الرجال الملثمين يحملون حملة عظيمة على رجال (كرونوس) وينهالون عليهم طعنًا وضربًا، وأُسقِط في يد الفرسان حينما رأوا المدد قد قلب موازين القتال، لا سيما بعد أن سقط قائدهم (كرونوس) مجندلًا، فنفخ الفارس الإدومي في بوق في يده، وكأنه يدعو جنوده للانضمام

إليه، ثم انسحب بهم في حنكة قبل أن يلقوا مصير قائدهم، تاركين خلفهم سحابة الرمال التي أتوا بها من قبل.

أماط الملثمون اللثام عن وجوههم، فإذا بي أرى الرجل الذي كان مع (شهبور) في اليوم السابق ومعه عصبة من الرجال، بدا عليهم المتانة وقوة البنيان، علمت فيما بعد أن اسمه (دَعْس) وأنهم كانوا يراقبون القافلة من بعيد، تحسبًا لوقوع خيانة، وقد صدق حدسُهم، أسرعنا إلى نجدة المصابين، وعاونت الملثمين في تضميد جراحهم، كان جرح (عمرو) غائرًا ولكنه ليس بقاتل، أما الشيخ (نابت) فقد كانت إصابته بالغة وقد انفصل ساعده ـ أو كاد ـ عن مرفقه، أسرع (دَعس) بكتم النزيف بخرقة من القماش ثم ضمده بطبقات متعددة من الكتان، ثم أسند الساعد والمرفق بجريدة نخل، شدها ولفها بلفائف الكتان، كان الشيخ (عابر) في حال سيئة من الهلع والخوف على ولده وحفيده حتى أشفقت عليه من الحزن، أما (أروى) وباقي النسوة فكن على حال لا ينقطع من العويل والبكاء.

نظرت حولي فوجدت الأمر بائسًا حزينًا، أصيب الرجال، وتحطمت القدور ومزقت الهوادج وسال الطحين على الأرض، أي شر ألحقه بنا ذلك المجنون قبل موته، وبينما كنت أضمد جرحًا لأحد الحراس إذا بسحابة غبار أخرى تعلو في الأفق، هتف الحارس محذرًا وقد ظن أن فرسان الإدوميين قد عادوا مرة أخرى، تأهب الملثمون في مواقعهم، ولكن ما أن تكشفت سحابة الرمال حتى رأينا (شهبور) يمتطي ناقة ومعه بعض الغلمان يمتطون الإبل ويتقدمون نحونا في سرعة.

توقفت الإبل أمامنا وأناخ (شهبور) ناقته ثم قفز مهرولًا بجسده الضخم نحو صديقه المسجى على الأرض وهو يبكي ويقول:

ـ فداك نفسي يا شيخ (نابت)، فداك نفسي يا صديقي الكريم.

قال الشيخ (نابت) في جهد بالغ:

ـ سأكون بخير يا (شهبور).

ثم ابتسم في ضعف وقال:

ـ اطمئن لم يصلوا إلى شيء.

قبّل (شهبور) رأسه باكيًا، ثم قام مسرعًا وقال للشيخ (عابر):

ـ لا يوجد متسع من الوقت يا سيدي، سآخذ الشيخ (نابت) و(عمرو) معي، فلو سارا إلى بكة هلكا في الطريق! قال الشيخ (عابر) مستنكرًا:

ـ تعود بهما إلى بصرى؟!

قال (شهبور):

ـ كلا، بل سنمكث في قرية صغيرة مع صديقنا (دعْس) ورجاله، واطمَئِن فلن يصلوا إليها، أما أنتم فلتضربوا أكباد الإبل ليل نهار حتى تصلوا إلى الحِجر، وهناك سيكون بانتظاركم رجال منا يوردون الخيل والإبل ويصلحون ما أفسده اللعين بالقافلة.

قلت:

ـ وماذا لو عاد الجند مرة أخرى للانتقام لمقتل (كرونوس)؟

هز (شهبور) رأسه نفيا ونظر إلى (دعس) ثم قال:

ـ لن يفعلوا! فالليلة ستكون ليلة حزينة على المرتزقة الكنعانيين في بصرى.

صمت الجميع، في انتظار أمر الشيخ (عابر) الذي نظر في حزن إلى ولده وحفيده، فأومأ الشيخ (نابت) إليه برأسه وكأنه يستحثه على الموافقة، فقال الشيخ (عابر) في صوت واهن:

ـ إن كان هذا قدر الله، فلا راد لقضائه!

ثم قال لولده (دومة):

ـ مُرهم أن يتأهبوا للرحيل!

ارتفع صراخ النسوة وهرولت (أروى) إلى أبيها المسجى فاحتضنته وقبلت

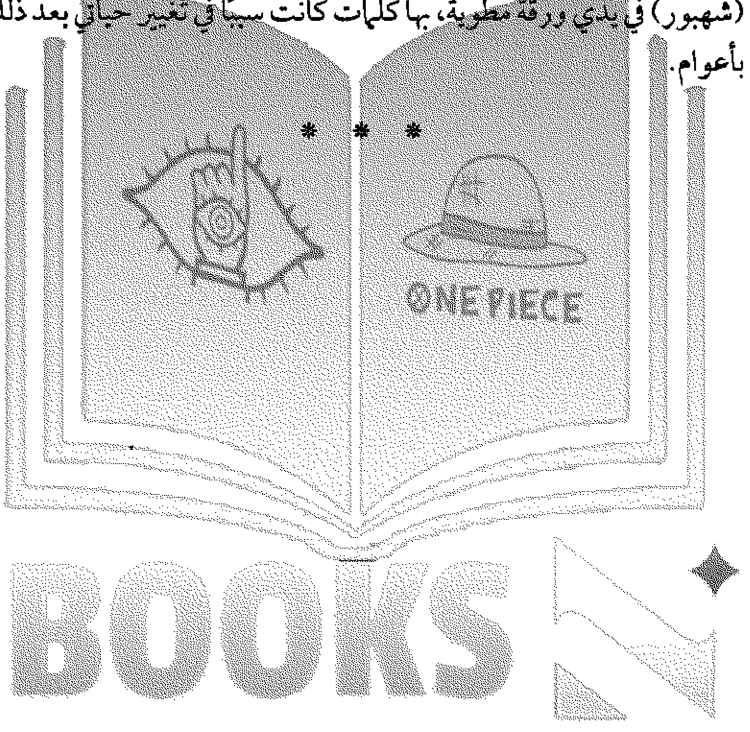
رأسه، طمأنها بصوت خفيض وقال:

ـ لا تقلقي، سأعود إليك!

ثم حمل الرجال، الشيخ (نابت) و(عمرو)، ورأيت (عمرو) يبكي وهو ينظر بطرف عينه إلى (أروى).

وبينما كان الجميع يتأهب لركوب الخيل والاستعداد للانصراف دس التاجر (شهبور) في يدي ورقة مطوية، بها كلمات كانت سببًا في تغيير حياتي بعد ذلك بأعوام.

* * *



الورقة الرابعة والثلاثون

وصلنا إلى وادي (الحِجر) بعد خمس ليال من السفر الدءوب، لم نذق فيها طعم الراحة إلا لشربة ماء أو قضاء حاجة، استقبلتنا صحراءُ شديدةُ الصُّفرة، طغت عليها الشمس بلهيبها، حتى شعرنا بسخونة الحصى من فوق ظهور الخيل، نظرت حولي، وأنا أحجب الشمس عن عيني بيدي، لعلي أرى ظلًّا لشجرٍ أو حجَر، فلم أجد سوى هضابًا باسقة تعلوها صخور مدببة كأسنام الإبل، لا ظل فيها ولا نبات، أشفقت على الشيخ (عابر) وعلى نساء القافلة من هذا الجهد المضني والألم البالغ، الذي أرهق القلوب والأجساد، حتى بدت القافلة عند دخولها إلى وادي الحِجر كقافلةِ أشباحٍ، فقدت أرواحها على أبواب المدينة الملعونة!

كنت بين لحظة وأخرى ألقي نظرة على (أروى) الجالسة في هودجها الممزق، فأرى في عينيها نظرة ذابلة لم تتجاوز محجريها الغائرين من البكاء والتعب، فينفطر قلبي حزنًا عليها، وأتمنى لو تتاح لي الفرصة كي أضمها إلى صدري، لعلها تستمد من فؤادي ما تربط به على قلبها.

أما أنا فلم أكن أشعر بالحزن والألم فحسب، بل كان شعوري بالهم أكبر، وكان همي هو تلك الأمانة التي وضعها (شهبور) حول عنقي، فأي شيء أثقل على النفس من أمانة تحملها لمن لا يثق بك! فإن ضيَّعتها الأيام رغمًا عنك، صدَّقَ ظنَّه فيك، ولم يشفع لك عنده عذرٌ!

تحسَّست يدي رسالته التي قرأتها أكثر من عشر مرات خلال الأيام الخمسة الماضية، أعاد عقلي كلماتها وكأنها أنطقته مسة أناملي للّفافة المطوية في جيب جلبابي.

ـ «ليكن السِّرُّ بينك وبين الشيخ (عابر) حتى أعود، إن هلَكت فالمالُ لكما، وإن عُدت فلكَ الرُّبع ممَّا حفظت!»

وحين أخبرت الشيخ (عابر) بأمر رسالة (شهبور) وأطلعته على السِّر الذي أخفاه عنه ولده وصديقه، بكى واشتد عليه الهم والحزن وقال:

ـ ليتنا فقدنا المال ولم نفقدهم!

قلت له مهونًا:

ـ لم يكن (كرونوس) ليتركهم أحياء في كل الأحوال ياشيخ (عابر)، وحسبنا أن لديهم الآن فرصة في النجاة.

مسح لحيته التي ابتلت بدموعه وقال:

ـ بل حسبنا الله، ولا شيء غيره، فهو أرفق بهم مِنَّا.

وصلنا إلى نهاية الوادي، فوجدنا في استقبالنا ركبٌ من أصدقاء (شهبور) يقفون في منتصف الطريق ويحملون في أيديهم قِرَب الماء البارد، ابتهج قلبي لرؤيتهم، نزلنا من فوق ظهور الدواب ثم ترجلنا جميعا، صافحهم الشيخ (دومة) والشيخ (عابر) وبدا أنهم يعرفون بعضهم من قبل، تناولت قربة من الماء من أحدهم، ثم شربت حتى ارتوى جفاف حلقي، أمسك بعضهم بزمام النوق والخيل المنهكة وساروا بها مع الحراس كي يوردوها إلى مشرب الدواب الموجود خلف الهضبة، بينما صحبنا دليل منهم إلى مساكن القرية بأعلى الهضبة، ورغم إرهاق الصعود إلى الجبل، لم أستطع أن أمنع ذهولي مما رأيت حولي، فلم تكن بيوت الثموديين مباني بنيت بالحجر، بل نحتت نحتًا في الجبال، حتى بدت الجبال من حولي كبيوت نحلٍ تساوت أضلاعُها بدقة وكأنما نحتتها يدُ الجانِّ، وهتفت في نفسي عجبًا حين رأيت صخرة مهولة تحولت إلى قصر مشيد،

نُقِشت واجهته وتزينت بيد ناحتها وكأنها قطعة خشبية، تلقفتها يد نجار ماهر!

أشار الدليل إلى جبل به عشرات البيوت وقال:

ـ هنا إقامة الرجال

ثم أشار إلى جبل أصغر وقال:

ـ وهنا إقامة النساء.

دخلت إلى إحدى الحجرات فتنسمت أنفي لأول مرة نسيمًا رطبًا وهواءً عليلًا لا يقارن بقيظ الوادي، وتعجبت كيف تحتفظ تلك الحجرات الأشبه بالكهوف ببرودتها، نظرت حولي فرأيت الجدران الصخرية وقد استوى سطحها وفتحت بها نوافذ للضوء والهواء، كما نحتت بها مقاعد وأسِرَّة وقنوات تحمل مياه الأمطار من سقف الحجرة إلى حوض داخلها! وتذكرت ما قاله الشيخ (نابت) عن بأس الثموديين وأيقنت حين رأيت ما صنعوه أنهم كانوا أشد بأسًا مما ظننت.

خرجت فوجدت رجال القافلة وقد وقفوا للصلاة في مساحة منبسطة أمام الحجرات وقد يمَّموا وجوههم شطر الشَّمال، تعجبت أن الشيخ (دومة) هو من يقوم بإمامتهم في الصلاة وأن الشيخ (عابر) لم يكن بينهم، جاء في خاطري أنه قد أخلد إلى الراحة بعد مجهود السفر الشديد، فلم أسأل عنه، كما أن ذهني كان مشغولًا بأمر الناقة المحملة بقدور الذهب وكنت قلقًا من كونها بعيدة عن عيني وخشيت من أن تقع مصادفة غير محمودة تزيد الأمر تعقيدًا فنزلت إلى مشرب الدواب كي أرقبها، وصلت إلى ساحة البئر فوجدت حارسًا من القافلة مع أصدقاء (شهبور)، يقفون إلى جوار الناقة، ينتظرون دورهم في السقيا، كان مشرب الدواب متسعًا، يتوسطه بئر ضخم ترفع منه المياه ثم تصب في قنوات على الجانبين تنهل منها صفوف الدواب، وكلما فرغ صف من السقيا، أصدرَه الرعاء كي يحل محله صف آخر، علمت من الحارس أن هذه البئر كانت تشرب منها ناقة صالح، وأن الناس بعد هلاك ثمود لم يعودوا

يشربون منها وجعلوها لسُقيا الدواب فقط تكريمًا للناقة!

انتظرت معهم قليلًا حتى حان دورنا، أراد أحد العمال أن يضع عن الناقة حمولتها قبل أن تشرب، وهم أن يرفع أحد القدور ولكني نهرته عن ذلك، وقلت له محذرًا:

ـ لم تعد لدينا سوى تلك القدور، فحذارِ من أن تتحطم منها واحدة!

ظلت الناقة تنهل من الماء لفترة طويلة، كي تعوض العطش الذي عانت منه خلال الأيام السابقة، وبعد أن فرغت من سقياها سحبتها من لجامها فاستجابت لي وسارت خلفي في خضوع، تعجب الحارس من صنيعي وسألني:

ـ ألن تتركها في مناخ الدواب؟!

قلت له كاذبًا:

ـ أمرني الشيخ (عابر) بأن أعقلها وحدها بعيدًا عن البعير كي لا تتحطم القدور.

صعدت بالناقة حتى وصلت إلى مدخل حجرتي، فأنختها في الساحة المقابلة للحجرة ثم ربطت حبلها حول حجرٍ كبير، كانت الساحة خالية، وقد بدا أن رجال القافلة قد فرغوا من صلاتهم ثم أخلدوا للراحة، قمت بحمل القدور ورصِّها الواحدة تلو الأخرى داخل حجرتي حتى امتلأت الحجرة بالقدور إلا من موضع السرير، نفدت قواي أو كادت بعد هذا الجهد المُتصل، فألقيت بجسدي على السرير المنحوت من الحجر والمفروش بصوف الغنم وقد عزمت أن أنام يومًا أو بعض يوم!

لم أدر كم من الوقت مرَّ، ولكن الوقت كان وقت سحر حينما أيقظتني هزَّةٌ رَفِيقَةٌ في ظلام الليل، فتحت عيني منتفضًا لأجد الشيخ (عابر) يجلس على طرف السرير وفي يده قنديل من الزيت، أشار إليّ بيده كي أهدأ وألا أصدر صوتًا، ثم أشار إلى عبدين أسودين وقفا أمام باب الحجرة فأمرهما بأن ينقلا القدور إلى محفَّةٍ خشبية وضعوها أمام الباب.

قام العبدان بنقل القدور في سرعة، وأنا ما زلت على عجبي وبعد أن فرغا قام الشيخ (عابر) من مجلسه ونادى بصوت خفيض:

ـ (عدنان)!

دخل إلى الحجرة شاب أعرابي، شديد الطول عريض الكتفين حتى أن رأسه كادت أن تلامس سقف الحجرة، قال الشيخ (عابر):

ـ (عدنان) حداد من الجنوب، وبيننا وبينه صهر، قابلته عند الظهيرة، وطلبت منه أن يصهر لنا الذهب في سبائك حتى يتيسر لنا حمله.

استحسنت الفكرة ووجدت فيها حلًّا لمعضلة القدور، فتابع الشيخ (عابر) موجهًا حديثه للحداد:

ـ متى تفرغ من ذلك يا (عدنان)؟

قال (عدنان) بصوت رنان يشبه طرقات المعدن:

ـ لن تزيد عن بضعة أيام يا سيدي الشيخ.

هز الشيخ رأسه وقال:

ـ أحضرها إلى هنا في حجرة (شمعون)، وقت أن تفرغ منها، وحذارِ أن يعلم أحد بالأمر سواك.

قال (عدنان) في ثقة:

ـ سآتي بها إلى هنا، ولن يعلم العبدان بما تحويه القدور.

ثم استأذن (عدنان) في الانصراف.

جلس الشيخ (عابر) على حافة السرير، فضممت ساقي وأفسحت له مكانًا للجلوس، كان الإجهاد يعلو وجهه ويبدو أنه لم ينم نومًا كافيًا، قلت مشفقًا:

ـ ألا تستريح سيدي الشيخ، فقد شق عليك السفر والسهر.

تنهد ثم قال:

ـ يستريح الجسدُ بالنوم ويستريحُ القلبُ بالذكر، وقد مكثتُ أُناجي النورَ في ظلامِ الليل!

نظرت إليه في إشفاق وقلت له معزِّيًا:

ـ سأدعو لهما بالنجاة!

قال في تسليم أعجزني عن الكلام:

ـ تعلَّمنا الشكرَ على النعمةِ والصبر على البلاء وأن نتوكأ على الأعمال الصالحة في أيام الانكسار.

تنهد ثم تابع:

ـ اعلم يا (شمعون) أن قضاء الله ليس بسهمٍ طائشٍ وإنما سهمٌ نافِذ تحكمُه يدُ القدَرِ، فيُصيبُ به مَن يشاء وقتما يشاء لعلمٍ نجهلُه وحِكمةٍ لا نستقيها.

كنت لأول مرة أسمع كلمةَ (القدَر) فقلت له مشدوهًا:

ـ وما القدَر؟

صمت قليلًا ثم قال:

ـ القدَرُ يا بني هو التدبيرُ بميزان الحكمة، واللّطفُ بميزانِ الرحمة، والتقويمُ بميزان العدل، وكل ما يقدِّره الله لنا يكون إما لحكمةٍ يدبِّرها، أو لطفٍ من رحمته، أو تقويمٍ لما أعوجَّ من أمرنا، ولذا وجب علينا الثناء على قدره في كل حال.

نزلت كلماته على قلبي كقطرات الندى فقلت:

ـ ما أصدق كلماتك يا سيدي!

ثم قلت حالمًا وأنا أقيس كلماته على حالي:

ـ قدَّر الله لي أن أفارق أهلي، وأن أمرَّ بتلك الأحداث تقويمًا لمعصيتي، ثم كان لطيفًا بي إذا جمعني بكم، وأشعر أن هذا لم يكن عبثًا، وإنما لحكمة لا أعلمها، وما زلت في انتظار معرفتها.

وضع يده على كتفي ثم قال:

ـ اسمع يا (شمعون) قد صارت لك بيننا مكانة، وصرت عندي بمنزلة الحفيد، ولهذا سأسِرُّ إليك بأمر لم أُخبِره لأحدٍ من قبل.

أومأت برأسي موافقًا دون أن أنطق، فقال:

ـ أشعر بأني لن أقوى على مغادرة بكة بعد أن نصل إليها، ولا رغبة لي في العودة إلى برية سين مرةً أخرى.

فغرت فاهي دهشة، وقد أُسقِط في يدي من الخبر، فتابع قائلًا:

ـ لقد عزمت على أن أترك التجارة وأمر القبيلة إلى (نابت) إذا ردَّه الله سالمًا أو إلى (دومة) إذا قضى الله أمرًا كان مفعولًا! أما أنا فسأبقى إلى جوار البيت فقد تقدم بي العمر وأنهكني السفر والترحال، وأريد أن أقضي ما بقي من حياتي إلى جوار بيت الرب.

قلت في حزن حقيقي:

ـ ولكن صحبتك هي ما تهون عليَّ أمر الدنيا!

ربت على كتفي في عطف وقال:

ـ ولهذا أخبرتك قبل أن أخبر أبنائي.

ثم تابع:

ـ وأرى يا بني أن تظل في صحبتهم إلى أن يشاء الله لك أن تجد قومك في برية سين، وانزع من رأسك فكرة الأرض المقدسة، فالله موجود في كل مكان.

لو كان هذا الحديث قد دار بيني وبين الشيخ (عابر) قبل ذلك بشهور، ما ترددت في رفض طلبه، ولكنني ـ بعد ما مرَّ بي في الأسابيع الماضية ـ وجدتني أقول له في استسلام وقد اغرورقت عيني بالدموع:

ـ لم يعد لي أهل سواكم يا شيخ (عابر)، وحتى يجمع الله بيني وبين أهلي فلن أفارقكم ما حييت.

قبل رأسي في عطف ثم قام من مجلسه، فقمت احترامًا له، حمل مصباحه

في يده ثم خرج من الباب وقبل أن يتصرف قال لي:

ـ لا تترك بابك مفتوحًا أثناء الليل، ففي الحِجر تكثر قطط الصحراء والضباع ليلًا.

* * *

كان اليومان التاليان مليئين بالأحداث، شرعنا في اليوم الأول في إصلاح الهوادج التي حطمها (كرونوس) وجنوده حتى أعدناها كما كانت، كنت سعيدًا بما صنعناه وأعادتني تلك الأعمال إلى ذكريات النجارة في نزلنا السابق، فاستيقظت في صباح اليوم الثاني وقد تلبستني روح أبي (زخاري) النجار وقد تفتق ذهني عن صنع عربة خشبية، تحمل لنا الأجولة وتجرها الأحصنة بدلًا من الرجال، على غرار العربات التي رأيتها في إدوم، قضيت اليوم كله في البحث عن ألواح الخشب الملائمة في سوق (الحِجر)، والتي كانت رغم زحامها، صغيرة الحجم ولا تقارن بسوق (بصرى) المهولة في إدوم، استأذنت الشيخ (دومة) في بعض المال كي أشتري منقابًا ودقماقًا وحجرًا للكشط، وما يلزمني من أحبال ودُسر، فأعطاني إياها، تعاونت مع بعض الرجال في نقل الألواح التي جلبناها إلى ساحة ظليلة خلف التل الذي نقطن به، كي أبدأ العمل بالعربة، قضيت وقت الظهيرة كله في تقطيع الألواح وكشطها بالحجر في حماس حتى مالت الشمس إلى المغيب، اكتشفت أني لم آكل شيئًا في خلال اليوم، وقد شعرت بقرصات الجوع في بطني، ولكنني فضلت أن أتحمم قبل أن آكل، علمت أن هناك حمامًا بالقرب من البئر، يستحم به أهل المدينة، فراقت لي فكرة أن أكافئ نفسي ببعض التدليل بعد هذا اليوم الشاق، نظرت إلى قطعتي النقود اللتين بقيتا معي، فقررت أن أشتري بأحدهما طعامًا، وأن أدفع الأخرى مقابل دخول الحمام.

وصلت إلى الحمام الذي بني بالحجر فوجدته مفتوحًا، وقد جلس على بابه رجل حبشي، مهول الجسد، غليظ الوجه والشفتين، يتشقق خداه بعلامات بَدَتْ كالأخاديد في جلده السميك، دفعت إليه قطعة النقود، فأشار إلى باب جانبي قائلًا:

ـ اذهب إلى المسلخ!

علمت أن المسلخ هو حجرة واسعة مقسمة إلى عيون يدخلها الناس كي يخلعوا فيها ملابسهم، وكان على بابها رجل ـ يبدو أنه من أهل الحِجر ـ يعطي للداخل إزارًا كي يستتر به، خلعت ملابسي على استيحاء ثم استترت بالإزار، وأنا أمسِك عقدته بحرصٍ شديد خشية أن تنفك، رأى الرجل ارتباكي وفهم أنها المرة الأولى لي في الحمام، فأشار إلى حجرة داخلية وقال:

ـ اذهب إلى المغطس.

دخلت إلى حجرة متسعة يتوسطها حوض كبير يتصاعد منه البخار وقد امتلأت أنفي بالبخار الرطب، رأيت عددًا قليلًا من الأشخاص بالمغطس، ويبدو أنها كانت نهاية اليوم بالنسبة للمكان، اخترت ركنًا منزويًا، بعيدًا عن الرجال الذين جلسوا في حوض المغطس وقد غمرتهم المياه إلى أعلى صدورهم، هبطت الدرج، فغمرني الماء الدافئ، وشعرت به يتخلل جسدي، فجلست على كرسي من الحجر وأنا في حال بين الطفو والسكون جعلني أشعر بالنشوة والاسترخاء، غمرت رأسي بالماء ومكثت تحت سطحه بقدر ما سمحت به أنفاسي، فامتلأت أذني بسكون محبب، حجب عن رأسي صخب العالم ونفض عنها زخم الأفكار، أعطاني عامل المغطس، حجرًا للتدليك، فأخذت أمحو به درن الجسد ومتاعب اليوم في سعادة بالغة.

ثم دخل الي حجرة المغطس رجلان، بدا عليهما الوجاهة والأهمية، وأثارا جلبة عند دخولهما، أسرع عامل المغطس بإفساح الطريق لهما، فنزلا إلى المغطس في موضع لا يبتعد عني كثيرًا، كان الأول بدينا تتهدل أثداؤه وتستقر على بطن عظيمة، أما الثاني فكان وسطًا في حجمه، يلمع شعره المصفف بالدهن والزيت وتلمع عينه ذكاء حتى وهو صامت.

ـ كان الرجلان يتحدثان بصوت عال في نقاش بدا أن وجهات النظر تختلف فيه.

قال الرجل البدين وهو يبلل كتفيه وصدره بالماء:

ـ هلك (الحارث) وترك خلفه غلامًا يهيم في بحور الشعر ولا يلتفت لأمر البيت، لو كان (الحارث) حيًّا ما جرؤت قبيلة خزاعة على منازعة (جُرهم) في أمر البيت.

التقطت أذني اسم (جرهم) وتذكرت حديث الشيخ (عابر) معي من قبل عن القبيلة التي تقوم على أمر البيت في بكة، ولكني لم أعرف من هي خزاعة.

قال الرجل ذو الشعر المنمق في حديث محسوب الكلمات:

ـ لقد ولَّى عهدُ (جرهم) وأقبل عهد (خزاعة)

احمر وجه الرجل البدين، وقال في حدة:

ـ أي سفه هذا! ما كان لبني (إسماعيل) وأخوالهم من (جرهم) أن يتركوا أمر البيت لـ(خزاعة)!

قال الرجل في هدوء وهو يمط شفتيه:

ـ لا تضع بني (إسماعيل) و(جرهم) في حلفٍ واحد، فقد سخط بنو (إسماعيل) على (جرهم) بعدما وقع من أمر (إيساف) و(نائلة).

بدا على الرجل أنه لا يعرف شيئًا عن هذا الأمر فقال:

ـ من هما (إيساف) و(نائلة)؟

نظر الرجل حوله وكأنما يتحرج مما سيقوله، فأبعدت بصري عنه حتى لا يعلم أنّي ألقي السمع على حديثهما، ثم قال:

ـ يقال إن رجلًا من (جرهم) اسمه (إيساف)، قد عشق فتاة من الجنوب اسمها (نائلة) وأنهما كانا يتواعدان سرًّا.

استخف الرجل بكلامه وقال:

ـ وماذا في ذلك، إن قصص العشاق تروى ليل نهار في أشعار الماجنين في أسواق بكة.

هز الرجل رأسه وقال:

ـ الأمر مختلف، فالناس تقول إن (إيساف) قد واعد (نائلة) ذات ليلة، واختبأ معها في الكعبة حتى لا يفتضح أمرهما، وبعد أن لعبت الخمر برأسيهما وقع عليها داخل الكعبة وفَجَرَ بها، وبعد أن خرجا من الكعبة، انقضت عليهما صاعقة بين الصفا والمروة، فمسختهما حجرين هناك، والناس يخشون من أن تحل اللعنة على بكة بما فعله رجل من (جرهم).

اتسعت عينا الرجل البدين لحظات، ثم انفجر ضاحكًا وقد ارتجت أثداؤه مع صدى قهقهته وهو يقول:

ـ لعمري إنها لكذبة ابتدعتها خزاعة كي تؤلّب الناس على (جرهم)!

ثم هزَّ رأسه غير مصدق، وقال وهو مستمر في الضحك:

ـ أي شيطان أوحى إليهم بأن يضعوا حجرين بين الصفا والمروة في الليل ثم يأتي أحدهم في الصباح فيروي لهم تلك القصة البلهاء.

ثم علا ضحكه أكثر وهو يقول:

ـ أو لعلهم اتفقوا مع الشاب العاشق على تلك الكذبة كي يفرّ بمحبوبته!

تبرم الرجل المنمق من ضحكه وقال:

ـ أيًا ما يكن، لقد افتتن الناس بالقصة، وسار أتباع (عمرو بن لحي) الخزاعي بين الناس وهم يقولون إن السبب في ذلك هو (عمرو بن الحارث) الجرهمي الذي أذهب عقول الناس بالخمر والشعر، ووجد ابن لحي من بين الناس من يبغي الفتنة وينتظر أن تدور على (جرهم) الدوائر.

صمت الرجل البدين عن ضحكه، ثم عبس وجهه وهو يقول.

ـ أتوقع تلك الخسة منه، فكم كرهت (عمرو بن لحي) لخبثه!

ثم قال في جدية:

ـ اسمع يا (زبيد) لا بد أن نخرج للحج هذا العام، فظني أن (خزاعة) ستتحالف مع باقي العرب لدحر (جرهم) وما ينبغي لنا أن نتيح لهم تلك الفرصة.

قال الرجل المنمق الذي علمت في تلك اللحظة أن اسمه (زبيدًا):

ـ أتنصر (جرهم) على (خزاعة)، وأنت (الغوث) سيد قبيلة (طيئ) وبينك وبين (خزاعة) عهد؟

قال الرجل في حسم:

ـ بل أنصر دين (إبراهيم)! فوالله لو تم الأمر لـ(خزاعة) لبدلوا دين (إبراهيم) حسدًا من عند أنفسهم وحقدًا على بني (إسماعيل)!

مط (زبيد) شفتيه وقال:

ـ الأمر لك يا سيد قبيلة طيئ.

ولم أستطع أن أبقى أكثر من ذلك فخرجت من المغطس ثم جففت جسدي وكلي شوق إلى أن أجلس إلى الشيخ (عابر)، كي أقص عليه هذه القصص.

في المساء كنت أجلس إلى الشيخ (عابر) وولده (دومة) في الساحة المقابلة لحجرة الشيخ (عابر) وقد خيم الوجوم والحزن عليهما، قال الشيخ (عابر):

ـ ظننا أن (الحارث) سيصلح ما أفسدته (جرهم)، ولكن القدر لم يمهله.

قال الشيخ (دومة) في شفقة وغضب:

ـ حزني على ولده (عمرو)! لا يزال فتًى يافعًا، ولن يصمد أمام مكر (عمرو بن لحي)!

ثم أردف في حماس:

ـ يجب أن نجمع بني (إسماعيل) خلف (عمرو بن الحارث) يا أبتاه.

أطرق الشيخ (عابر) صامتًا لحظات ثم قال:

ـ ما كان لبني (إسماعيل) أن يقاتلوا لأمر من أمور الدنيا يا ولدي!

قال (دومة) في دهشة:

ـ ولكنه أمر من أمور الدين يا أبتاه، (جرهم) هم ولاة البيت!

قال الشيخ (عابر):

ـ ولكنهم لم يؤدوا حق البيت!

تنهد (دومة) ثم قال:

ـ أيًّا ما فعلوه يا أبتاه في الماضي، فهو أهون من أن تلي (خزاعة) أمر البيت.

وجدتني أشترك في الحديث فقلت:

ـ لقد سمعت (الغوث) يقول إنهم سيبدلون دين (إبراهيم) إذا ما تولوا أمر البيت، أحق هذا يا شيخ (عابر)؟

تنهد ثم قال:

ـ ذلك رجمٌ بالغيب يا بني، ولا يخلو من حسد بين القبائل.

قال (دومة) مدافعًا:

ـ ولكن العرب تعلم أن (خزاعة) لم تدخل في دين (إبراهيم) إلا من أجل الزعامة!

قال الشيخ (عابر):

ـ وهل تبغي (جرهم) غيرها يا بني؟!

لم أفهم حتى تلك اللحظة، لماذا يرفض الشيخ (عابر) نصرة (جرهم)، بينما يتحمس الشيخ (دومة) لذلك، وبدا لي أن هناك من التفاصيل ما أجهله، ووجدتني أسأل الشيخ (عابر):

ـ هل يمكن أن تقع الحرب في بكة يا سيدي؟!

بان على وجهه الانزعاج، وصمت قليلًا ثم قال:

ـ الحرب فتنة يا غلام، والقتال في البيت الحرام أمر كبير، أسأل الله ألا تراق دماء في بكة.

ويبدو أن سؤالي قد أثار قلقًا لديه فقام واقفًا وقال:

ـ هيا يا (دومة) كي ننام، وغدًا نذهب أنا وأنت إلى بيت (الغوث) ولعلنا نعلم منه ما يخلف سوء ظننا.

* * *

الورقة الخامسة والثلاثون

استيقظتُ مبكرًا في اليوم التالي، وقد عزمت أن أفرغ من صنع العربة، أخذت قربة الماء وفطيرة محلاة بالعسل أبقيتها من طعام الأمس ثم هبطت من التل وذهبت إلى الساحة التي وضعت بها الألواح والأدوات بجوار صخرة كبيرة، كان الجو صحوًا جميلًا وقد زاد من صحوه نسمات الصباح اللطيفة التي هبَّت من جهةِ الشمال، وظلال التلِّ التي امتدت على الساحة أمامي، شمَّرت ساعدي، وحزَّمت جلبابي، وبدأت في العمل في همة وحماس، ثقبت الألواح من أطرافها بالمثقاب والدقماق، وكنت مع كل طرقة أتذكر أبي في مشاهد عدة، تارة وهو يصنع أعمدة خيمة الاجتماع، وتارة وهو ينحت تابوت العهد وثالثة وهو يصنع كوخنا الذي كان عامرًا بالمحبة والود في واحة «رفيديم»، وبعد أن فرغت من ثقب الألواح قمت برصها جنبًا إلى جنب، ثم جمعتها بالأحبال قبل أن أحكمها من زواياها وجوانبها بالدُّسر حتى صارت كمحفة كبيرة متينة، أردت بعد ذلك أن أرفعها كي أضع لها القوائم التي سترتكز على العجلات، فجمعت بعض الأحجار ووضعتها فوق بعض، ثم رفعت المحفة من أحد جانبيها على تلك الأحجار ووضعت جانبها الآخر فوق الصخرة.

وقفت ألهث من المجهود الذي بذلته، فقد كانت الألواح بعد تجميعها ثقيلة، وخطر على بالي طيف (رام) الذي كان يساعد أبي في صنع الصناديق، وشعرت بالفخر أني قد قمت بهذا العمل العظيم وحدي دون مساعدة! فتحت قربة

الماء وشربت دفقتين منها، وما أن وضعتها عن فمي حتى رأيتها تقف أمامي.

كانت شاحبةً واهنة، وقد تضاءل جسدُها عن ذي قبل، تنظر إليَّ بعيونٍ باكية، لا تخلو من اللوم وكأنها تقول لي «كيف انشغلت عني وتركتني في أحزاني؟» ألقيت القربة جانبًا، واندفعت إليها ملهوفًا، احتضنتُها في قوة بلا إحجام ولا تردُّد، ألملِم بين ذراعيّ شتاتَ قلبها المُبعثَر، وأَهِبُ بخفقان قلبي دبيب الحياة لفؤادِها المكسور، تتابعَت أنفاسُها كغريقٍ يتلقَّف أنفاسه بصعوبة، قبل أن تشهق باكيةً بأنفاس محترقة، أحسستُ لهيبَها في صدري، تركتُها تبكي حتى ابتل كتفي بدموعها، ولذتُ بالصمتِ، فقد علَّمتني أوجاعُ الحياة أن للحُزنِ نصيبهُ من البكاء الذي لا تحبسه الكلمات، وأن كلمات التعازي لا تقف أمام طوفان الدموع الهادرة في ذروة الأحزان، وخيرٌ لقائلها أن يبذلَها حين تجِف المآقي، وتنحسر الأمواج.

أجلستها على صخرة إلى جواري، وأخذت أنظر إليها وهي تجفف دموعها براحتيها، نظرة اختلفت عن ذي قبل، لم تعد نظرة الصبي الذي فارق رَهقَ الصبا إلى ثورة الشباب، تضطرب مشاعره لكل خلجةٍ تأتي بها أُنثى، لا سيما إذا كانت تلك الأنثى هي المرأة الوحيدة التي رآها في حياته غير أمه، بل صارت نظرة رجل يرى امرأة يتعلق بها قلبه، أفضَت إليه بمكنون قلبها، فخلعت عنه عباءة الصبا، ووهبته قوامةً لا يحملها إلا رجل!

قسَّمت فطيرة العسل شطرين فمنحتها شطرًا وقلت لها:

ـ تأكلين؟! أنا لم آكل منذ الصباح!

تناولتها متثاقلة وقالت:

ـ وأنا لم آكل منذ أتينا إلى هنا، وما زالت نفسي تَعَافُ الطعام!

قلت لها مشجعًا:

ـ كُلِي! فأنتِ بحاجة إلى القوة كي تتحملي السفر إلى بكة!

سألتني:

ـ ومتى السفر إلى بكة؟

لم أقص عليها بالطبع أمر (عدنان) الحداد ولم أشأ كذلك أن أزعجها بأخبار بكة المحزنة فأجبت:

ـ لا أعلم، ولكني أظن أن إقامتنا هنا ستمتد لأسابيع.

تنهدت، ثم قضمت قضمة بسيطة من شطيرة العسل.

قلت لها:

ـ قد حدثني الشيخ (عابر) عن أمر لم أسمع عنه من قبل اسمه (القدر)، أسمعت عنه يا (أروى)؟

ابتسمت في جهد وقالت:

ـ أسمعه وأراه، وأعيشه يا (شمعون).

قلت لها وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة:

ـ أتدرين يا (أروى) أنكِ ...

ارتجفت شفتاي فصمتُّ ولم أنطق، فنظرت إليّ وقالت:

ـ أنّي ماذا؟

خرج صوتي مرتجفًا خفيضًا وأنا أقول:

ـ أنك قدري.

أغمضت عينيها وكأنها أسكرتها الكلمة، فانحلّت عُقدة لساني وقلت:

ـ نعم، حين أنظر إليك أرى صحيفة أقداري وقد سُطِر فيها اسمُك! ألم تجمعنا الأقدار صغارًا ثم جمعتنا كبارًا؟! ألستِ أنتِ أول من رأيته حين أفقت بعد أن أشرفت على الهلاك في البرية؟! أشعر أحيانًا أن الرب قد أمر أبي بالهجرة إلى (رسَّة)، لا لشيء، إلا كي أراك! وتحدثني نفسي بأنِّي ما تبعت جيش (عفرة) بإرادتي! وإنما كنت أسير على خطى مسحورة كي ألقاك.

ثم قلت وقد اختنق صوتي:

ـ صدقيني أيتها الصغيرة لولا وجودك بحياتي الآن، لَقُضِيَ عليَّ كمدًا وحزنًا على فراق أمي، ولكنها «ألطاف القدر» كما يقول جدك! تلك التي منحتني أسبابًا أخرى كي أتشبث بالحياة.

كانت عيونها تذرف دمعًا صامتًا فقلت لها وأنا أمسح دموعها:

ـ لن أنتظر حتى يعود أبوك، سأتحدث إلى الشيخ (عابر)، وإن شئت تحدثت إلى الشيخ (دومة) أو إلى أخيك (ليث)، فأنا أود أن أخطبك لنفسي يا (أروى).

وضعت يدها على فمي وكأنها تريدني أن أتوقف عن الكلام وقالت حزينة:

ـ كلا يا (شمعون)!

صدمتني كلماتها ومادت بي الأرض لحظة قبل أن أردد كلمتها مذهولًا:

ـ كلا؟!!

ثم قمت من مجلسي وأنا أشعر بالخزي، فأمسكت بيدي وقالت في لهفة:

ـ انتظر يا (شمعون)، أشعر مثلك بكل ما قلت وزيادة، ولكني أستحلفك بالله ألا تتحدث إلى أحد، لا لأخي، ولا لعمي ولا لجدي، لا تخبر أحدًا يا (شمعون)!

كنت أنظر إليها في ذهولِ رجل حالمٍ قد استحال حلمه إلى كابوس، فاستجمعت قواي، وقلت بصوت متهدج خرج مني بصعوبة:

ـ لماذا؟ أهو (عمرو)؟!

انتبهت مذعورة، وقالت مندهشة:

ـ كيف عرفت؟

لم أجبها عن سؤالها، ولكن سألتها:

ـ هل أخبرك بحبه؟!

قالت في بكاء صادق:

ـ لم يخبرني بشيء، ولم أعلم شيئًا، كان (عمرو) أخًا لي منذ الطفولة، وقضيت

عمري وأنا أعتبره أخي الأكبر و(ليث) أخي الأصغر، حتى كان اليوم الأخير لنا في إدوم.

نظرت إليها مستحثًّا، فمسحت دموعها ثم قالت:

ـ في ذلك اليوم تحدث (عمرو) إلى أبي، وأخبره أنه يريد أن يخطبني لنفسه، وكان معهما عمي (دومة)، فأبدى أبي سعادته بذلك ولكنه طلب منه أن يرجئ الحديث إلى جدي الشيخ (عابر) بعد العودة إلى بكة.

صمتت لحظة ثم قالت باكية:

ـ وفي مساء ذلك اليوم جاءتني أمي لتزف إليّ الخبر، ولكنها وجدتني شاردة حزينة، قلت لها إن (عمرو) أخي ولا أشعر برغبة في الزواج منه، فنهرتني وحذرتني من أقول شيئًا من هذا الكلام حتى نعود إلى بكة، وبت ليلتها باكية حزينة، أدعو الله أن يصرف عني هذا الأمر بأي وسيلة، حتى وإن كانت فقداني لحياتي!

ثم دفنت رأسها في راحتيها وقالت منتحبة:

ـ ثم كان هذا الصباح المشئوم، الذي شعرت بأنني السبب فيما حدث فيه، وكأن الله أراد أن يعذبني بدعائي!

ثم قالت وقد زادت وتيرة بكائها:

ـ أشعر أني آثمة يا (شمعون)! أشعر أن الله يعاقبني، وأنه يذيقني العذاب ضعفين على دعائي فأفقدني أبي وابن عمي.

شعرت بقلبي يتمزق، ولكنني وقفت عاجزًا عن الرد، نظرت إليها مشفقًا ولكني كنت شاردًا في حالي أنا أيضًا.

يا رباه! لماذا تسحقني الحياة بضرباتها إلى هذا الحد؟

لماذا أجد نفسي دائمًا في مفترقِ طرق مُخيَّرًا بين أمرين أحلاهما مُرّ؟

لماذا يتلاعب بي ذلك (التيه) اللعين في كل أمر من أمور حياتي؟

يغزِل لي الأمنيات فأهرول إليها مستبشرًا، لأجدها في النهاية حبائل صياد ماكر أوقع فريسته ووقف ينظر إليها في سعادة وهي تتخبط في شرَاكِه!

وشعرت بالغضب على نفسي.

ولعل لحظة الغضب تلك كانت سببًا في أن تنجلي أمام عيني حقيقة حياتي وجوهرها.

فقد أدركت أن الحياة ما هي إلا اختيار!

وأن (التائه) في الحياة هو ذاك العاجز عن الاختيار!

ومهما تكن تبعات ذلك الاختيار فهي خير له من أن يكون لا شيء.

فأقسمت ألا أستسلم لذلك الإحساس البغيض بالعجز والتسليم، وأن أكون فاعلًا متفاعلًا لا مفعولًا به.

فجلست على صخرة، وأمسكت يديها وقلت:

ـ اسمعي يا (أروى)، قد آمنت بأنك قدري، ولن يفرقنا سوى ذلك القدر.

ثم قلت في حسم:

ـ يوم أن نصل إلى بكة سوف أخطبك لنفسي من الشيخ (عابر)، فإما وصال بعدها وإما فراق.

نظرت إليّ في هلع وقالت:

ـ أخشى الفراق يا (شمعون)!

فقلت وأنا أذهب ببصري بعيدًا عنها:

ـ الفراق خير لي من أن أموت كمدًا وأنا أكتم حبكِ في قلبي!

* * *

في المساء كان كبراء القبيلة يجلسون في حلقةٍ بالساحة المقابلة للتل، وقد أُوقِدَتْ نارٌ في المنتصف أضاءت ما حولها ومنحت بعض الدفء في تلك الليلة التي غشيتها بعض البرودة، رغم نهارها القائظ، فقد كنا في ذلك الوقت من

العام نتأرجح بين صيف قائظ في الصباح وشتاء زمهرير في المساء، جلست إلى جوار (ليث) بينما جلس الشيخ (عابر) والشيخ (دومة) في الجهة المقابلة وقد أحاط بهما مشايخ القبيلة ورجالها بعد أن عادا من لقاء (الغوث) محملين ببعض التفاصيل، قال الشيخ (عابر) في أسًى:

ـ تحوم الفتن في سماء بكة وتوشك أن تحط على أرضها والناس في غيِّهم يتبارون!

ثم قال:

ـ لقد جمعت (خزاعة) أمرها واستمالت أبناء عمومتنا من بني (إسماعيل) كي ينزعوا ولاية البيت من (جرهم)، وقد جمعتكم لآخذ منكم الرأي والمشورة.

قال الشيخ (دومة) في لهجة تحمل بعض الغضب:

ـ بل إن (خزاعة) قد تمادت، وساروا خلف كلام (طريفة) العرَّافة وحقّ علينا أنا نردها عن غيها قبل أن تتخضب رمال بكة بالدماء.

علمت بعد ذلك أن (طريفة) هذه كانت عرَّافة من (خزاعة)، ولها مكانة وكلمة مسموعة عند (عمرو بن لحي) سيد (خزاعة) وأنها هي التي أشارت عليه بدخول بكة.

صمت الرجال قليلًا، إلى أن قال أحدهم:

ـ يا شيخ (عابر)، ما نرضى ببغي (خزاعة)، ولكن بغي (جرهم) أكبر! لقد امتلأت السوق بأقاصيص ظلمهم لأهل بكة وحجيجها.

وكأنما أزالت كلماته الحرج عن باقي الناس، فقال رجل آخر:

ـ صدقت! لقد قال لي أحدهم اليوم إنهم استخفوا بحرمة البيت وإنهم يأكلون من المال الذي يهدي إليه سرًّا وعلانيةً، ويفرضون العشر على التجار.

شعرت أن الشيخ (دومة) قد ساءه أن تدور دفة الحديث نحو القدح في (جرهم)، فقال مذكرًا أبناء عمومته:

ـ يا بني يطور، لا تنسوا أن (جرهم) هم أخوالنا، ويجب علينا نصرتهم،

وإن أعوج شيء من أمرهم فنحن أولى بتقويمه.

تساءل أحدهم في مزيج من الرفض والاستنكار:

ـ وكيف نصلح ما أعوج من أمرهم؟!

قال الشيخ (دومة):

ـ بالنصح والإرشاد!

بانت خيبة الأمل على وجه السائل، وقال:

ـ لو كانوا يستمعون للنصح، لاستمعوا لسادة القبائل من قبل!

وقال رجل آخر:

ـ عجبًا لك يا أبا (عمرو)، أتريد من بني (إسماعيل) أن يقاتلوا (خزاعة) كي تلي (جرهم) أمر البيت، أوليس من الأولى نقاتلهم من أجل ولاية البيت التي انتزعتها (جرهم) منا من قبل؟!

قال الشيخ (عابر) في حسم:

ـ لن نقاتل لأجل (جرهم) ولن نقاتل لأجل ولاية البيت، ولن يرفع سيف بني (إسماعيل) إلا في الحق.

ثم أردف:

ـ يا بني يطور، إن الله قد افتدى دماء أبيكم (إسماعيل) ونجّاه من الذبح قربانًا له، فكيف تبذلون دماءكم فيما هو أدنى؟ والله لو كان الوصول إلى ولاية البيت بقطرة دم من بني (إسماعيل) ما سفكناها، فقد أمرنا الله بأن نحفظ دماءنا وألا نؤديها إلا بحقها، فخير لنا ولباقي بطون بني (إسماعيل) أن نعتزل تلك الفتنة وعلى (جرهم) أن تبوء بإثمها، وعلى خزاعة أن تحمل أوزارها، ولنحمدن الله أن نجانا من الإثم وأن عافانا من الوزر.

صمت الجميع أمام كلمات الشيخ الفاصلة، فتابع:

ـ ولقد اتفقت مع (الغوث) سيد قبيلة طيئ أن نعقد مجلسًا من قبائل العرب في أشهر الحج لعلنا ننهي الأمر صلحًا ونحقن الدماء بين القبيلتين.

استجاب الناس لكلام الشيخ فقالوا:

ـ سمعًا وطاعة، بارك الله فيك يا أبا (نابت).

فأشار إليهم الشيخ بالانصراف، فانصرفوا الواحد تلو الآخر، وبقي الشيخ (عابر) والشيخ (دومة) وأنا.

قال الشيخ (دومة) في لومٍ وغيظٍ:

ـ لقد خذلت أخوالنا أمام القوم يا أبتاه.

قال الشيخ (عابر) في هدوء:

ـ لا تجعل الحمية تأخذك إلى طريق الحرب يا (دومة)، فكل الدماء حرام في الأرض الحرام.

قال:

ـ حتى وإن نازعتنا (خزاعة) ملكنا!

قال الشيخ (عابر) متعجبًا:

ـ مُلكنا؟! لسنا ملوكًا بل خدامًا للبيت يا (دومة).

وجدتني أقول في عفوية:

ـ وماذا لو أفسدت (خزاعة) دين (إبراهيم) يا شيخ (عابر)؟

لا أدري لماذا، أثارت كلمتي الشيخ (دومة)، رغم أن عبارتي كانت تؤيد حجته، فوجدته يصب غضبه عليّ ويقول ناهرًا:

ـ كف عن هذا أيها الغلام، ودع أمر بني (إسماعيل) لبني (إسماعيل)! وما دعاك أحد كي تشاركنا ذلك المجلس!

شعرت بالخجل وهممت بالانصراف:

ولكن الشيخ (عابر) قال:

ـ اجلس يا (شمعون).

فازداد ضيق الشيخ (دومة) أكثر، وقام من مجلسه قائلًا:

ـ استأذنك يا أبتاه في الانصراف، فغدًا أبكر إلى السوق، عمت مساء!

ثم قام وانصرف وأنا أشعر بجسدي يذوب خجلًا، انتظر الشيخ (عابر) حتى انصرف، وقال:

ـ لا تحزن يا (شمعون)، فأنا أدرك خوفك ونبل مشاعرك.

قلت في صدق:

ـ أصدقك القول يا شيخ (عابر)، إني أخشى على دين أبينا (إبرام) مثلما أخشى على دين (موسى) وأعلم يقينًا أن النور الذي أتى به (موسى) إنما هو قبس من مشكاة أبينا (إبرام)، ولقد رأيت قومي وقد عبدوا العجل ونبي الله لا يزال بين أظهرهم، وفتنهم الشيطان على سفح جبل تجلى الله على قمته، فورب (إبراهيم) و(موسى) أنا لا أخشى إلا فتنة تأتي بها (خزاعة)، فتُعبد الأوثان في بيت يتجلى ربكم عليكم فيه برحمته.

نظر إليّ مبتسمًا وكأنما أعجبه صدق كلامي، ثم قال:

ـ يعلم الله يا (شمعون) أني أخشى ما تخشاه، ولكنها سنَّة الله في أرضه ولا راد لقضائه، ومنذ علمت بأن الله قد بعث في بني إسرائيل نبيًّا، وأنا أشعر بأن شمس بكة ستغرب ولو إلى حين!

نظرت إليه متعجبًا، فقال:

ـ تولد الأمم ضعيفة، فتتولاها رعاية الله حتى تشب، ثم تنطلق فتية قوية بالسير على خطى الآباء الأولين، ثم تهرم وتضعف وتموت! ثم يستبدلها الله بقوم آخرين!

أثار كلامه تفكيري ووجدتني أسأله سؤالًا ظل يلح على عقلي من وقت لآخر وكنت أخشى أن أسأله لأحد فقلت له:

ـ لماذا لم يخلقنا الله جميعا مؤمنين يا شيخ (عابر)؟!

صمت لحظات، ثم تنهد، وأشار إلى صفحة القمر التي أطلت علينا بدرًا وهو يقول:

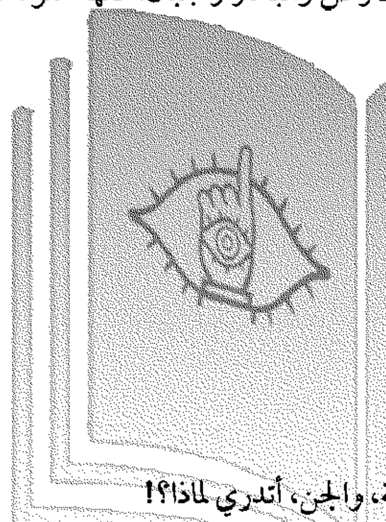
ـ انظر إلى القمر يا (شمعون)، ما رأيك به؟ أليس بخلقٍ عظيم؟

قلت له:

ـ بلى.

قال:

ـ والشمس والنجوم والسماء والأرض والبحار والجبال، كلها مخلوقات الله العظيمة، أليس كذلك؟



قلت:

ـ بلى.

قال:

ـ ولكنك أنت خلق الله الأعظم!

انتابتني رعدة وأنا أردد:

ـ خلق الله الأعظم!!

قال مؤيدًا بإيماءة من رأسه:

ـ نعم، بل أنت أعظم من الملائكة، والجن، أتدري لماذا؟!

هززت رأسي وأنا لا أزال مأخوذًا بكلماته فقال:

ـ لأنك من تحمل الأمانة! أتدري ما الأمانة يا (شمعون)؟!

هززت رأسي نفيًا، فقال:

ـ إنها حرية الاختيار!

ارتطمت كلماته بقاع نفسي فأحدثت صدًى لأفكارٍ كادت تعصف بي منذ يوم سبق وأنا أتحدث إلى (أروى) فنظرت إليه مشدوهًا وقلت:

ـ حرية الاختيار!!

أجاب:

ـ نعم، فالكل مسخرٌ لأمره، إلا أنت! إن شئت آمنت به وإن شئت أنكرته!

لن يمنع نعيمه عنك إن جحدته! ولا يضمن لك نعيم الدنيا إن آمنت به! فالجزاء كله مؤجل للآخرة وهذا أصعب ما في الأمر، فلو كان السفر قريبًا لعلمنا مقصده، ولكن بعدت علينا الرحلة وطُمست عنا نهايتُها!

شعرت برجفة، واغرورقت عيني بالدمع، وقلت:

ـ ولكنها أثقل أمانة يا شيخ (عابر)! أليس ظلمًا على الإنسان الضعيف أن يحمل وحده من بين المخلوقات تبعة اختياره!

ابتسم وقال:

ـ ضعيف! انظر حولك يا (شمعون)، قد سخَّر ذلك الإنسان «الضعيف» الجبال فنحتها بيوتًا، وسخَّر البحار وركب الفلك، وسخَّر الإبل والدواب والأنعام، ونال منها مأكله ومشربه وملبسه، الإنسان ليس بضعيف يا (شمعون)! فقد منحه الله بعضًا من صفاته، ونفخةً من روحه وهبت له أسرار العلم والقدرة على الاختيار.

ثم قال في أسى:

ـ الإنسان ظالمٌ جاهلٌ حين يظن النشأة بلا مُنشِئ، وأن السفرَ بلا مقصد، وأن الرحلة بلا نهاية!!

انسالت الدموع على وجنتي في بطء، فربت على كتفي وقال:

ـ هيا بنا يا بني فقد اشتد البرد.

وحين اختليت بنفسي، فاضت دموعي وبكيت، كما لم أبك من قبل! بكاءً حلوًا نزلت دموعه حارة صافية، فغسلت قلبي ومنحته صفاء لم أشعر به من قبل، وحين مسحتها بيدي شعرت بأنها قد أضاءت وجهي بنورٍ في تلك الليلة المقمرة أضاء كل عتمةٍ صادفتها في حياتي من قبل.

وفي تلك الليلة، أدركت أن الشيخ (عابر) قد عبر بي من منازل التيه التي مررت بها في الأشهر السابقة إلى منزلة من اليقين ما كنت لأصل إليها دونه.

* * *

الورقة السادسة والثلاثون

انتهيت أخيرًا من صنع العربة! كانت فرحتي طاغية حينما علقت قائميها الأمامين على سرج أتانٍ بيضاء تشبه الأتان التي خرجنا عليها أنا وأمي من أرض مصر، وما إن تحركت الأتان وسحبت خلفها العربة، مصدرة صريرًا من عجلاتها الخشبية، حتى رقص قلبي فرِحًا وأنا أهتف من السعادة، قفزت فوق مقعدها الأمامي وأمسكت لجام الأتان ثم جذبته بقوة فانطلقت العربة في سرعة وقد علا صوت عجلاتها حتى لفت أنظار الناس العائدة من السوق في نهاية اليوم، درت بالعربة حول التل والناس ترمقني بإعجاب، ورآني (ليث) الواقف في الساحة فوق التل، فصرخ في سعادة مشجعًا:

ـ رائع يا (شمعون)!

ثم هبط من التل وجرى إلى جوار العربة ثم قفز فوقها في خفة ورشاقة وجلس إلى جواري، وكم كانت سعادتي بالغة حينما رأيت (أروى) تقف فوق تل النساء تنظر إلينا في سعادة، وهي تلوح لنا بيديها كي تلحق بنا.

صعدنا إلى ساحة النزل بقدر ما استطاعت الأتان أن تصعد ثم أوقفت العربة، فهبطت إلينا (أروى) المسافة المتبقية، أمسك (ليث) بيدها، وساعدها في الصعود كي تجلس إلى جوارنا، ثم انطلقنا بالعربة على مهبط التل الذي ساعد انحداره على انطلاقها في سرعة كادت أن تطيح بنا من شدة اندفاع الهواء، وأخذ (ليث) و(أروى) يصرخان من شدة الإثارة والفرح، وأثارت

الجلبة التي صنعناها انتباه الناس في نزل الرجال، ووجدت بعض أفراد القبيلة ينظرون إلينا من فوق التل المقابل وقد علت وجوههم الابتسامة، درنا حول التل دورة كاملة وعزمت على الدوران مرة أخرى، ولكني توقفت فجأة جاذبًا لجام الأتان بأقصى ما أستطيع من قوة، فقد وجدت الشيخ (دومة) يقف في منتصف الطريق أمامنا ويبدو على وجهه الغضب، هبطنا من فوق العربة احترامًا له، نظر إلى (ليث) نظرة غاضبة ثم قال:

ـ أعد أختك إلى النزل!

انصرف (ليث) دون أن ينطق بكلمة، واستدارت (أروى) خلفه مطأطئة رأسها وقد اعتراها بعض الخوف، انتظر حتى ابتعدا عنَّا بمسافة ثم قال لي في حِدَّة لم يتحدث بها معي من قبل:

ـ اسمع يا غلام، إن للقبيلة أعرافًا لا ينبغي أن تتجاوزها!

قلت معتذرًا:

ـ أعتذر يا شيخ (دومة) إن تماديت في فرحي!

لم يلتفت إلى اعتذاري وقال:

ـ أراك لا تدرك أننا في أيام حزن لا وقت فيها لمرح الصبية!

شعرت بمزيج من الخجل والإهانة، فتابع في لهجة أكثر قسوة:

ـ كما أن فتيات القبيلة لا يختلطن بالغرباء، فلا يغرَّنك سماحة الشيخ معك!

لم أجد ما أقوله، وعجز لساني عن النطق، وأزاح عني عبء اللحظة مقدم الشيخ (عابر)، الذي رأى العربة فقال:

ـ بارك الرب فيك يا (شمعون)، ما تخيلت أنك بارع إلى هذا الحد،

زفرت ما في صدري من توتر وأنا أقول:

ـ شكرًا سيدي الشيخ ثم وجهت كلامي للشيخ (دومة) قائلًا:

ـ والشكر للشيخ (دومة)، فهو الذي أقرضني المال ولولاه ما صنعتها.

قال (دومة) في جفاء لم يخف عن الشيخ (عابر):

ـ لم أعطك المال قرضًا يا فتى، بل هو حقك، فنحن لا نبخس الأجير حقه.

شعرت بالخزي من كلمة (الأجير)، وأدركت أن الشيخ (دومة) يريد أن يضع حدًّا لعلاقتي بهم، ابتلعت لعابي وأظهرت في صوتي الامتنان رغم الألم وأنا أقول:

ـ حقي أخذته طعامًا ومأوى وزاد عليه الكرم واللطف منكم سيدي الشيخ، واسمح لي أن أرد إليكم المال في بكة، فقد عزمت أن أعمل في التجارة حين نصل.

شعر الشيخ (عابر) بأن حديثنا غير وديٍّ يجري، فقال مغيرًا الحديث:

ـ نِعمَ العملُ التجارة يا (شمعون)!

ثم أردف:

ـ أتدري أن نبي الله (نوح) كان نجارًا!!

كنت على علم بأمر هذا النبي، فقد أخبرني أبي أن أغلب من في الأرض هم من أبنائه، ولكني لم أعلم أنه كان نجارًا، فقلت له مجاريًا حديثه:

ـ حقًّا!

قال:

ـ نعم، فهو الذي صنع الفلك التي حملت المؤمنين، لو أراد الله أن ينزِّل عليه الفلك لأنزلها كما أخرج ناقة صالح، ولكنه أراد له أن يصنعها بيده! وحمله يقينه إلى أن يصنعها في صحراءَ لا يَمَّ فيها ولا بَحر.

قلت في عفوية:

ـ اليقين يمنح القوة يا سيدي، ويقيني أن الرب لا يخذل أنقياء القلب

شعرت بالرغبة في أن أنصرف، فقلت:

ـ اسمح لي سيدي الشيخ بأن أعيد العربة والأتان إلى مربط الدواب فقد أوشكت الشمس على المغيب.

تركتهما وفي قلبي وخزة، وشعور بالحزن من تغيُّر الشيخ (دومة) الذي لم أعلم له سببًا، درت حول التل واقتربت من مربط الدواب فوجدت الفتى (ليث) بانتظاري، اقترب مني وقال:

ـ لا تحزن، قد سمعت كلامه!

قلت وأنا أتنهد:

ـ لست حزينًا منه، ولكنني حزين من نفسي، فيبدو أني قد أفرطت في القُرب!

هزَّ رأسه نفيًا وقال:

ـ الأمر ليس كذلك يا (شمعون)، فهذا هو المعتاد من عمي (دومة)!

ثم تابع في حزن:

ـ أتمنى ألا تطول غيبة أبي! فإني لن أطيق الحياة في بكة دونه!

شعرت بأن الفتى يحمل في قلبه الكثير من الحزن فقلت مهونًا:

ـ سيعود بمشيئة الرب يا (ليث).

ثم سألته:

ـ ولكني لا أعلم لماذا تغير خاطر الشيخ (دومة) نحوي؟!

تنهد ثم قال:

ـ لم يتغير، فتلك مشاعره دائمًا نحو الغرباء!

ضايقتني كلمته، فقال موضحًا:

ـ إن عمي (دومة) شديد الاعتزاز بقبيلتنا وبقبيلة زوجته (هند) الجرهمية! ويشعر بفضلهما عمن سواهما، وربما قد ساءه أنك تحدثت في أمر بني (إسماعيل) و(جرهم) أمام الناس.

سألته:

ـ وهل أمك من قبيلة الشيخ (عابر)!

هز رأسه نفيًا وقال:

ـ كلا إن أخوالي فرع من قبيلة يقال لها (عُبيل) سكنت في الشمال من بكة في أرض يقال له (يثرب).

ثم أردف في حلم:

ـ أتدري يا (شمعون) أنني أتمنى دائمًا أن أعيش في (يثرب)، لا يزال قلبي معلقًا ببساتينها ونخيلها وهوائها الطيب، وما زلت أذكر ديار أخوالي المحاطة بأشجار الزيتون وكَرمات العنب.

أدركت أن الصبي قد اكتسب رقة القلب، من أمه، والتي اكتسبتها بدورها من الأرض التي نبتت فيها، فقد علمتني الحياة أن الإنسان مثل النبات، يُزهِر بقدرِ ما تمنحه أرضه! فمن ذاق شُحَّ الصحراء، لا يُزهر إلا شوكًا، ومن ذاق نعيمَ المدن، يُزهر ورودًا وياسمين.

ثم قطع تفكيري قائلًا:

ـ العجيب أن (عمرو) لم يرث شيئًا من عمي (دومة)، بل إن الناس كانت تظنه أخي من كثرة قربه لأبي! ثم قال معجبًا:

ـ (عمرو) هو فارس قبيلتنا، وأميرها المرتقب! فقد أخذ من أبيه غيرته على قبيلتنا وحبه لها، وأخذ من أبي الحكمة وحب الناس، أتعلم يا (شمعون)، أني على يقين بأن (عمرو) سيكون سيد بكة في يوم من الأيام.

ارتجف قلبي غيرةً، وحاك في صدري شعورٌ كرهت أن يطلع عليه (ليث)، فوأدتُه في مهده وأنا أقول صادقًا:

ـ نِعمَ الشاب (عمرو)، أسأل الله أن يعيده سالمًا هو ووالدك الشيخ (نابت).

كانت الشمس قد أشرفت على المغيب، فشكرته وانصرفت عائدًا إلى النزل، وبينما كنت أصعد التل لاح لي القمر الذي صار أحدبَ في السماء، يتوارى خلف الغمام في خجل، ويبهت نوره في أولى لحظات الغروب وكأنما ينتظر أن تغيب الشمس كي يحين دوره ويسطع نوره في السماء، فشعرت بأن السماء

تهمس في أذني قائلة: إن في الحياة أقمارًا وشموسًا، وأُذِن للأقمار أن تخبو في حضرة الشموس!

* * *

في الليلة التالية، استيقظت وقت السحر على طرق طفيف على باب حجرتي، قمت وفتحت الباب فوجدت الشيخ (عابر) يحمل قنديل الزيت وخلفه (عدنان) الذي امتد ظله فوق الشيخ (عابر) حتى طغى على ضوء المصباح، وهو يحمل بين ذراعيه شيئًا أخفاه بغطاء من الكتان.

دخلا إلى الحجرة، فأغلق الشيخ (عابر) الباب خلفه وقال في صوت خفيض:

ـ ضعه هنا يا (عدنان).

وضع (عدنان) حِمله على الأرض ورفع عنه غطاء الكتان، فوجدته صندوقًا بديع الصنع، مصنوعًا من خشب الساج المطعم بالنحاس في جوانبه، ذكَّرني بصندوق «العروس» الذي كان يصنعه أبي في حينا لفتيات النزل المقبلات على الزواج، فقلت مبتسمًا:

ـ أهذا صندوق العروس؟!

أومأ (عدنان) برأسه وهو يقول بصوته الرنان الذي يشبه طرقات المعدن:

ـ نعم ولكننا نسميه هنا (صندوق المبيت).

ثم أردف:

ـ ولكن هذا الصندوق ليس صندوقًا عاديًا.

ثم جلس القرفصاء فتساوت رأسه مع كتفي وأشار إلى موضع أربعة مزاليج دقيقة أخفاها بدقة في حواشي الغطاء وهو يقول:

ـ لا ينفتح غطاء الصندوق إلا إذا فتحت مزاليجه الأربعة أولًا!

وبعد أن فتح المزاليج، رفع القفل عن الغطاء، فانفتح غطاء الصندوق وسط دهشتنا بصنيعه.

أشار إلى الشيخ (عابر) كي يدني مصباحه من الصندوق، فأدناه ونظرنا إلى جوف الصندوق فبدا أمام أعيننا فارغًا، ابتسم لدهشتنا، ثم قال بسعادة جعلت صوته أكثر رنينًا:

ـ لو فتح أحدهم الصندوق سيجده فارغًا، ولكنه إذا جذب تلك الذراع الصغيرة هنا سينفتح قاع الصندوق هكذا.

ثم جذب الذراع التي تدلت في خفاء في زاويته، فإذا بقاع الصندوق يدور منقلبًا لأعلى كاشفًا عن حجرة سرية في قاعه تراصت فيها عشرات السبائك من الذهب التي تلألأ بريقها مع ضوء المصباح حتى كاد أن يذهب بالأبصار.

قال (عدنان):

ـ عشرون سبيكة، كل سبيكة بألف دينار.

هتفت في انبهار قائلًا:

ـ يا للروعة! كيف صنعت هذا الصندوق الأعجوبة.

قال:

ـ لم أصنعه ولكن أعطانيه تاجر من (مصر) منذ عشر سنوات كي أصلحه، فلما تأخرت عليه باعه لي مقابل مبلغ زهيد، ثم ضحك قائلًا:

ـ قضيت ثلاثة أعوام كي أتمكن من إصلاحه وفهم طريقة صنعه العجيبه.

ابتسم الشيخ (عابر) وقال:

ـ حقًا إن مثل هذه الأعاجيب لا يأتي بها سوى المصريين.

ثم أردف وهو ينظر إليه شاكرًا:

ـ ولن نجد أفضل من هذا الصندوق كي نحفظ فيه أمانة (شهبور)،

قام (عدنان) من قرفصائه فكادت رأسه أن ترتطم بسقف الحجرة، ثم قال في أدب جم:

ـ أرجو أن تقبله هدية مني يا شيخ (عابر).

ربت الشيخ (عابر) على يده وهو يقول:

ـ هدية مقبولة يا بني.

ثم وضع كيسًا كبيرًا من النقود في يده وهو يقول:

ـ وهذا أجر ما صنعته بالذهب، ونحمد لك أن حفظت أمانتنا وكتمت سرنا.

شكره (عدنان) ثم أخذ غطاء الكتان فأسدله على كتفه وشد طرفه على وجهه قبل أن يخرج من الباب وكأنه يتخفى، رغم أن هيئته لا تخفى على أعشى يقف على التل المقابل في ظلام الليل!

سألت الشيخ (عابر):

ـ أين سنخفي الصندوق؟!

قال:

ـ لن نخفيه! هذا هو صندوق (شمعون) النجار البارع، الذي سُرِقت أوراقه من قبل فصنع هذا الصندوق كي يحفظ فيه أوراقه وأغراضه،

ابتسمت لما قال، وشكرته على ثقته بي قائلًا:

ـ أشكرك يا شيخ (عابر).

أجاب:

ـ الشكر لك يا (شمعون) على حفظ الأمانة، وكتمان السر.

قلت في شيء من الحرص:

ـ أليس من الأفضل أن يعلم الشيخ (دومة) بأمر الذهب؟!

سار خطوات نحو السرير الحجري فوضع القنديل على الأرض ثم جلس على السرير وقال:

ـ نعم! ليس من الأفضل أن يعلم (دومة)، ولا أي شخص آخر في النزل، حتى يعود (نابت) و(عمرو) أو يعود (شهبور)!

جلست على الأرض أمامه والقنديل بيني وبينه ثم قلت وأنا أتحسس كلماتي:

ـ أخشى أن يستاء الشيخ (دومة) في يوم من الأيام من أن شابًّا عبرانيًّا قد علم سرًّا أُخفِي عنه!

قال وقد فهم ما أرمي إليه:

ـ المال ليس مال القبيلة يا بني، وقد عهد إليك صاحبه بحفظه، فأَتِمَّ إليه عهده ولا تلتفت لشيء آخر.

صمتَ لحظات ثم مسح على ذقنه كعادته، ثم تابع:

ـ اسمع يا (شمعون)، لا تبتئس بما قاله (دومة) فكلنا فقراء إلى الله وكلنا أجيرٌ يسأل الله الأجر.

قلت صادقًا:

ـ لست بائسًا ولا حزينًا فلولاكم لهلكت في البرية أو كنت عبدًا يباع ويشترى؟!

ثم أردفت وقد أخذني الحماس:

ـ أتدري يا شيخ (عابر) أن نبينا (موسى) قد عمل أجيرًا عند الكاهن (يثرون) بعد أن تربى في قصر الفرعون في مصر!

نظر إليَّ باهتمام وكأنه لا يعرف بالأمر، فتابعت قائلًا:

ـ كان شابًّا في مثل عمري حين رأى شابًّا عبرانيًّا يقاتل رجلًا مصريًّا، فاستنجد الشاب العبراني بموسى حين أوشك على الهلاك، فدفع (موسى) الشاب المصري عنه فأرداه قتيلًا في الحال!

بان عليه التعجب فقلت:

ـ ولما أحس (موسى) بأن قصر الفرعون قد علم بالأمر هرب إلى (مدين) فقابل هناك الكاهن (يثرون) وتزوج من ابنته (صفورة).

تراقصت ذؤابة الضوء مع زفرة منه وهو يقول:

ـ يا لرحمة الله! ما كان ليبعثه نبيًّا وهو ينعم برغد العيش في قصور مصر! ربَّاه بالمِحَن، ثم أخذه من ضيق الكرب إلى سعة الفَرَج وأعطاه خيرًا مما أخذ منه! وتلك تربية الأنبياء يا بني!

ضممت ساقي وأحطها بذراعي وأنا أقول:

ـ أتدري يا شيخ (عابر) ماذا كان مهر زوجته؟!

هز رأسه نفيا، فأجبت:

ـ أن يعمل أجيرًا عند الكاهن (يثرون) ثمان سنوات يرعى له فيها أغنامه! ولكنه مكث معهم عشرة أعوام حتى أرسله الله إلى فرعون!!

ابتسم وهو يقول:

ـ لا عجب في ذلك يا بني فذلك عزم الأنبياء.

استغرقتنا لحظة من الصمت تلاحقت فيها أنفاسي حتى كادت أن تطفئ المصباح، ثم قلت وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة:

ـ ولكني أملك من العزم يا سيدي الشيخ ما يجعلني أعمل أجيرًا لديك ما بقي من عمري!

رأيت العجب ينعكس على وجهه في ضوء المصباح، فأردفت وقد تهدج صوتي حتى كاد أن يخبو:

ـ وأسألك باسم الله ربي وربك أن تجعل ذلك مهرًا لحفيدتك (أروى)!

صمت، فسكن مع صمته كل شيء حتى ذؤابة الضوء في المصباح وأصوات الرياح خارج الحجرة، لم يقطع الصمت سوى ضربات قلبي المتلاحقة وأنا أتطلع إلى عينيه التي أغمضها، وإلى صفحة وجهه البيضاء التي غشيتها سحابة من الانزعاج.

لم أشأ أن يطول الصمت فقلت مستجمعًا شجاعتي:

ـ أعلمُ أني غريب فقير ولكني لست معدمًا، فالغريب يملك أمله والفقير يملك حلمه، وأملي أن أعود إلى أهلي خيرًا مما خرجت، وحلمي أن تكون (أروى) رفيقتي في ذلك، ليس لي طمع في مال ولا مأوى، ولكني أتوق أن أقضي حياتي زوجًا لتلك الفتاة التي جمعتني بها الأقدار مرتين!

فتح عينه ثم قال متنهدًا:

ـ ما يعيبك الفقر ولا الغربة يا (شمعون)، فلو لا الغُربة ما اكتشف الإنسان ذاته، وما من نبيٍّ إلا وهاجر عن قومه! ولقد رأيت في فقرك عفافًا أعزَّ من قدرك، وجعلك خيرًا من غنيٍّ أذلَّه الشُّح! فزينة الفقر العفَافُ وآفةُ الغِنَى الشُّح!

شعرت بالامتنان لكلماته، ولكنني لم أسرف في الأمل، فالكلمات الرقيقة أحيانًا تمهد لخطوب لاحقة، فانتظرت أن يأتي بالكلمة التي تسحق ما قبلها وأن يقول لي (ولكن)، وبالفعل قال:

ـ ولكن للزواج أعرافًا وتقاليد في قبيلتنا! وللفتاة وليٌّ هو أبوها، ولا يمكنك خطبتها حتى يعود.

ربما كانت هذه ألطف (ولكن) أسمعها في حياتي، وأخفها وطأة على ما قبلها، فقلت وقد داعبني الأمل:

ـ وهل تزكيني يا شيخ (عابر)؟

ابتسم وقال:

ـ الله يزكيك يا بني.

قلت في وجل:

ـ أخشى أن يخطبها خاطب!

قال وهو يقوم من مقامه:

ـ الأمر حينئذ لها!

قمت واقفًا فربت على كتفي وهو يقول:

ـ هيا يا (شمعون)، فغدًا نتأهب للرحيل إلى بكة، ودع الأمر سرًّا حتى يعود أبوها.

ثم انصرف آخذًا معه المصباح، فغابت الحجرة في الظلام، إلا من شعاع أمل ظل يحدوني طيلة الشهور المقبلة.

* * *

الورقة السابعة والثلاثون

«الطريق إلى بكة» ـ هكذا عنونت ذلك الفصل من أوراقي والذي كتبته أثناء رحلتنا من (الحِجر) إلى (بكة).

«اليوم الأول»:

تجمَّعت القبيلة عند مربط الدواب مع بدايات ذلك اليوم الذي احتفظ ببعض النسمات الباردة من الليلة السابقة، امتلأت ساحة المربط بضجيج الرجال المختلطة برغاء الإبل وزفرات الخيول الصاهلة، جلست النساء في هوادجها واستقر الرجال على رواحلهم، بينما جلست أنا على عربتي الخشبية، التي وضعت عليها حمولة من جوالق الطحين وصندوقًا به أغراضي وأوراقي، وسبائك من التبر مخفية في أعماقه، وتعمدت ألا أُظهر الصندوق فوضعت عليه ثوبًا من الكتان كي أحجبه عن الأنظار، ثم أصدر حادي القافلة صفيرًا مُنغَّمًا فتحركت الإبل طوعًا لنداء حاديها.

خرجنا من حدود (الحِجر)، فانتهى الطريق المُعبَّد، واستقبلنا طريقٌ في البيداء تحفُّه الهضاب الصخرية المدببة من الجانبين، كان الطريق ضيقًا ولا يكاد يتسع لعرض راحلتين، تساءلت في نفسي ماذا لو أقبلت قافلة من الجهة المقابلة؟ هل تعود إحداهما أم أن هناك طريقًا آخر للصعود إلى الحِجر؟

علمت من (ليث) أن الطريق إلى بكه قد يستغرق عشرين ليلة، ما لم تهب به العواصف والأتربة، وهو الأمر الذي كان متوقعًا في تلك الأشهر من العام

التي تسبق دخول الشتاء، وعلمت كذلك أننا لن نستريح إلا مع دخول الليل في أماكن محددة يقال له «المُتعشَّى» وهي أماكن متعددة على طول الطريق توجد بها آبار للتزود بالماء وتقوم على خدمة القوافل فيها بعض القبائل الصغيرة التي تقطن حول تلك الآبار مقابل الغلال أو قطع النقود.

كان النهار قد انتصف حينما بدأ الطريق في الاتساع، تحولت الهضاب الصخرية إلى تلال من الرمال الناعمة، شعرت بأن الأتان لا تقوى على جرّ العربة بسهولة فوق الرمال الناعمة فأشفقت عليها وأرحتها في السير، فتأخرت عن عير المقدمة وسرت بحذاء هوادج النساء في الخلف.

لمحتني (أروى) فطوت خمار هودجها، وألقت إليّ بابتسامة عذبة وأنا أختلس النظر إليها، ظللنا نقايض النظر بالابتسامات حتى ارتفع صوت حادي القافلة، وهو يأمرنا بالتوقف ومحاذاة جانب الطريق.

سألت أحدهم عن السبب فقال:

ـ يبدو أن قافلة كبرى قادمة في الطريق.

بالفعل لم يمض سوى وقت قصير حتى رأينا القافلة القادمة يملأ غبارها الأفق، ويجلجل صوت نفيرها في الوادي، حتى نفرت من صوته العير.

وفجأة علا الصياح وفتحت النساء هوادجها ورأيت (ليث) يعدو نحوي، ثم قفز فوق عربتي ووقف عليها وهو يقول:

ـ يا (شمعون)! انظر!

قمت واقفًا إلى جواره فوق العربة فرأيت حيوانًا يتقدم القافلة المقبلة، لم أر مثله من قبل في حياتي، حيوان يصل طوله إلى عشر أذرع ويتدلى من أنفه خرطوم طويل ومن فمه نابان كنصلي السيف، أما الأعجب فكان ذلك الرجل الجالس على عنقه يركل أذنيه المهولتين بقدميه بكل هدوء دون أن يأبه لضخامة ذلك الحيوان الذي قد يفتك به بضربة طفيفة من خرطومه!

علمت من (ليث) أن هذا الحيوان اسمه الفيل، وأن تلك القافلة هي قافلة

(بابلية) تخرج مرة واحدة في العام وتحمل من سبأ الصمغ والبخور وتأتي بذلك الحيوان معها كي تفرض هيبتها على باقي القبائل وعلى قطاع الطرق، ثم قال متعجبًا:

ـ علمت من أبي أن هذا الحيوان يسكن في الأصل إلى جوار الأنهار، وأنه يشرب في اليوم الواحد قدر ما يشربه مائة رجل، وأن قافلة البابليين هذه تنفق الكثير من الأموال كي توفر له الماء في الصحراء.

تعجبت من كلامه، وتعجبت أكثر من قدرة الإنسان على تسخير حيوان بهذا الحجم المهول، وتأكدت لي كلمات الشيخ (عابر) عن ظلم الإنسان وجهله! فيوم أن منحه الله القدرة على تسخير ذلك الحيوان، نزعه من أرضه وأتى به إلى صحراء قاحلة وسقاه من مياه الآبار بدلا من مياه الأنهار!

جاوزتنا القافلة ونحن نتطلع على أعداد فرسانها المدججين بالسيوف والأتراس، وقد تخوذت رءوسهم بخوذات صلبة وكأنما خرجوا للحرب وليس للتجارة، ذكرتني خوذاتهم بخوذة الفارس المصري التي عثرت عليها يوم الخروج، والتي أهديتها إلى أبي يوم حرب العماليق، وتساءلت عن مصيرها، وهل ما زالت تحتفظ بها أمي أم لا؟

جاءنا صوت الحادي يأمرنا باستئناف الرحيل بعد أن مرت القافلة البابلية، أسرعت بالأتان التي ازدادت نفراتها وسرت في المقدمة بجوار الشيخ (عابر) والشيخ (دومة).

حين رآني الشيخ (دومة) قال لي آمرًا:

ـ حين نصل إلى «المُتَعَشَّى» استبدل الأتان ببغلة أخرى تكن أكثر جلدًا على جر العربة.

ثم قال في بعض اللوم:

ـ ستهلك الأتان قبل أن نصل إلى «وادي الجَيْف»!

علمت من الشيخ (عابر) أن وادي الجيف هو مكان فسيح ما بين يثرب

والحِجر على طريق البخور، تكثر فيه السباع والضباع، وأن القوافل التي تمر على ذلك المكان تترك فيه الإبل المريضة أو بعض الخراف الصغيرة طعامًا للسباع، حتى لا تهاجم السباع القوافل أثناء مرورها.

شعرت بالشفقة نحو الأتان وقد فهمت أن الشيخ سيهبها لسباع الصحراء، فقلت مستفسرًا:

ـ أهي مريضة؟!

قال دون أن يلتفت نحوي:

ـ قد أصابها (الخِناق)، أما تراها واهنة يسيل مُخاطُها؟!

لم أكن على دراية بأمراض الخيل والحمير، وكنت أظن وهنها بسبب حمولة العربة، ونعومة الرمال!

نظرت إليها مشفقًا وتمنيت لو أطلقتها في الحال! وشعرت برعدة وأنا أتخيلها فريسة للسباع!

وصلنا إلى «المُتعَشَّى» مع أولى لحظات الغروب، كان المكان متسعًا ومعدًّا للمبيت، ضربت في أرجائه الخيام الفسيحة التي تكفي أعدادًا كبيرة من الناس، ويتوسطه بئر ومشرب للدواب.

ربطنا العير، ورفعت أنا العربة عن الأتان ثم أرحت قائميها على صخرة ترتفع ذراعًا عن الأرض، وتركت عليها جوالق الطحين والصندوق المغطى بثوب الكتان، ثم سحبت الأتان وربطتها إلى جوار الخيل عند مشرب الدواب، تفرق الجمع فذهب بعض الناس لقضاء الحاجة، بينما اغتسل آخرون قبل أن يتجهوا جميعًا إلى الساحة للصلاة.

شعرت بالجوع حين داعبت أنفي رائحة الخبز والثريد المعد للقافلة، ذهبت إلى الطاهي الجالس أمام مستوقد الطعام المستعر من شدة النار الموقدة أسفله، فمنحني صحنًا من الثريد لم أذق أطيب منه، وضع به كسرات من الخبز الطازج ثم أفرغ عليه المرق الساخن وقطعة من لحم الضأن، التي تذوب نعومة في المرق

من حسن طهيها، تلقفت الصحن إلى فمي وشعرت بالمرق الدافئ يرطب جوفي، ثم التهمت الخبز الذي تشرَّب بالمرق واختلط بنتفات اللحم في سعادة بالغة، وبعد أن فرغت رددت إليه الصحن شاكرًا وأنا أغبط هؤلاء القوم على حسن طعامهم.

منحني الطعام دفئًا في الدماء، وفورة جعلتني أطوف حول النزل رغم برودة الجو الآخذة في التزايد، تجاوزت مضرب الخيام وجلست على صخرة أتطلع إلى السماء الصافية التي تتلألأ فيها النجوم في غياب ضوء القمر الذي صار هلالًا، رأيت امرأة عجوزًا تتوكأ على غصن زيتون وتتجه نحو الصحراء، ظننتها متجهة نحو الخلاء ولكنها توقفت أمامي وهي تنظر نحوي، قالت في صوت نحلته الأيام:

ـ الطائر الغريب قد يطير مع السرب ولكنه حين يحط على الأرض يظل وحيدًا منزويًا.

ثم قالت وهي تدنو بوجه تقاطعت عليه التجاعيد حتى بدا كلحاءِ شجرةٍ مُعمِّرة:

ـ أنت رفيق رحلة، ولست من أهل القافلة!

شعرت بالخوف منها لا سيما حين فتحت فمها الذي تعامدت عليه الشقوق وبدا مظلمًا خاليا من الأسنان، غرست غصن الزيتون في الرمال بقوةٍ لا تتناسب مع هيئتها الضعيفة، ثم افترشت الأرض أمامي وفتحت صرة من القماش وجدت بها قدحًا وبعض الأقلام، وحصوات بيضاء بدت كبيوض الوُزّق. قالت:

ـ اجلس أيها الغريب فالليلة تتهتك لك ستائر الحجب، وتتكشف لك خبيئة الأيام.

أدركت أن المرأة «عرَّافة»، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها «عرَّافة»، وإن قابلت بعدها الكثير، فحياة الناس في برية فاران وبكة يديرها

الكهنة والعرافون، حتى إن الرجل كان لا يسمي ولده ولا يخرج للتجارة حتى يسأل كاهنًا أو عرافًا!

وكان هذا الأمر أحد الأمور التي تعجبت لها، ووجدت فيه فرقًا بين بني إسرائيل القابعين في برية سين وهؤلاء الأعراب القاطنين في برية فاران، فلم أر في حياتي السابقة مع بني إسرائيل شغفًا بمعرفة أمور الغيب أو ما تخبئه الأيام، بقدر ما رأيت صراعًا على قوت اليوم وبكاءً على الماضي، أما هنا فكان الخوف من تقلبات الدهر وغدر الأيام يفسد الحاضر ويدفع الناس إلى التمسك بأي نبوءة شاردة تجلب فألًا أو تدفع طيرة، وقد أدركت ذلك الفضل الذي منَّ الرب به على بني إسرائيل بعد أن عشت سنوات في برية فاران، فليس هناك طمأنينة أكبر من طمأنينة تمنحها «النبوة»، ولا ثقة أكبر من شخص يتصل عن حقٍّ بالسماء!

خطَّت المرأة خطوطًا في الرمل بأصبعها، ثم حلقت بينها بعض الحلقات، ألقت بالحصوات البيضاء فسقط بعضها فوق الخطوط وبعضها فوق الحلقات، عبست وقطَّبت حاجبيها ثم تطلعت نحوي بنظرة أرهبتني وقالت:

ـ منبوذٌ أنت في قومك! مرجوٌّ في غيرهم! حاد بك الدرب وتائهٌ بين السبل والشِّعاب!

استحوذت كلماتها على عقلي، وزادت رهبتها في قلبي، رغم أن كلامها حمَّال أوجه، دنت من الرمل ثم تابعت وكأنها تقرأ في لوحٍ مخطوط:

ـ عما قريب ينكسر فؤادك، ويفارقه السند!

عقرتني كلماتها، فشعرت بالألم والغضب، وقلت ساخرًا:

ـ لا أملك نقودًا يا خالة، فلا تسرفي في الرجم بالغيب!

نظرت إليّ ذات النظرة المرهبة وقالت:

ـ كذبت وما أنت بكذوب.

ثم قالت وهي تشير نحو الجنوب:

ـ إذا وقع الخطب هناك فانج بأهلك.

ثم نظرت إليّ قائلة:

ـ كن ابن أبيك، تكن في أمن مما قد يلحق بك!

ثم جمعت حصواتها وطمست خطوط الرمال بيدها، وقامت مستندة على غصن الزيتون وهي تقول:

ـ لا حاجة لي بنقودك الآن، ولكن حين تملك الذهب والفضة وتمر من هنا، تذكَّر «أم إياس» العرافة أيها الغريب.

ثم انصرفت وقد تركت في نفسي مزيجًا من الرهبة والخوف من أيام حبلى بخطوب لا يعلمها إلا الرب.

«اليوم الرابع»

اقتربنا من «وادي الجِيَف»، يستطيع المرء أن يلحظ أسراب الحِدأ تحلق فوق سماء الوادي في انتظار لحظة حاسمة تنقض فيها إحداهن على جرذ بري أو وليمة يتشاركن فيها بقايا جيفة تركتها سباع الصحراء، الطريق يمتلئ بعظام إبل رمَّت، جذبتها الضباع إلى أطراف الوادي فأتت عليها ولم تبق منها سوى عظام لو استطاعت أنيابها طحنها لطحنتها، رائحة الهواء في المكان وكآبة المنظر أظلتني بسحابة من الحزن، زادتها رؤية الأتان تهرول بعيدًا عن كلاب القافلة، التي نبحت عليها، فهربت إلى قلب الوادي، وهي لا تعلم ما ينتظرها هناك!

الحياة غير عادلة أحيانًا، يولد البعض أُتُنًا ويولد البعض سباعًا، وصنف ثالث يولد آكلًا للجِيَف، حقًّا لو كان الجميع أُتُنًا لاستقامت الحياة!

تركنا الوادي وجاوزناه بمسيرة يوم، ثم وصلنا إلى «المتعشى» الذي كان فسيحًا ويبدو كملتقى لقوافل الشرق والشمال والجنوب، في تلك الليلة، وجدنا قافلة أخرى قد أتت من الجنوب وقد استقرت للراحة في المكان الفسيح، رأيت خيمة عظيمة قد رفعت أمامها رايات خُضر، ووقف أمامها ثلاثة من الحراس

الأحباش داكني البشرة، ضخام الأجساد، مما يشي بأن عظيمًا يقبع داخلها.

علمنا من رجال القافلة أن أميرًا من أهل الجنوب اسمه (يثع) يسير في قافلة عظيمة متجهة إلى مصر.

لم تنم في تلك الليلة من شدة الجلبة التي أثارها الجنوبيون ومعهم الأحباش، وبدا أن صلاة يقيمونها في آخر ليلة من ليالي القمر من كل شهر، مكثت على مقربة من ساحتهم التي أضاءتها عشرات المشاعل ونُصِبَ في منتصفها تمثالٌ على شكل تيس عظيم القرنين، علمت أنه إلههم المعبود المسمي «عثتر»، أقيمت مبخرة عظيمة أمام التمثال فاحت منها رائحة البخور السبئي الذي لم تستطَع أنفي رائحة بخور مثله، فعلمت يقينًا أن سبأ هي أرض البخور! فيكفي أن تشتم رائحة البخور حتى تشعر بالخدر في أطرافك، ويرتقي عقلك في منازل النشوة حتى يحلق بك في جنبات الفردوس والنعيم السرمدي! وعلى جانبي التمثال وقفت بعض الحبشيات عاريات النحور والأبدان إلا من إزار شُدَّ عند الصدر ورداءٍ انحسر عن سيقانٍ مكشوفة، دقت الصنوج في إيقاعٍ منظوم، وارتفع معه صوت الكاهن في نغمٍ شجي تمايلت معه رءوس المصلين في خشوع، ثم ازدادت وتيرة الحماس مع ضربات الصنوج الرنانة وتمايل الفتيات العاريات، وابتهل الكاهن في هتاف محموم ذي نشوة، ردده المصلون من خلفه في نفس الحماس:

عثتر شرقن (الشرق) عثتر غربن (الغرب)

عثتر ذو قبضم (القابض)

عثتر سمعم (السميع) عثتر نورن (المنير)

عثتر ذو قهرم (القاهر)

وحينما نطقوا بالاسم الأخير للإله الأعظم خرّوا جميعا ساجدين أمام التمثال في سقوط كالإغماء من فرط النشوة التي وصلوا إليها.

انقضت صلاتهم في وقت متأخر من الليل فعدت إلى عربتي تتمايل رأسي

من أثر البخور ومن شدة رغبتي في النوم، تلحفت بغطاء من وبر الإبل ونمت أسفل عربتي الخشبية، محتضنًا صندوق الذهب، طاف بعقلي تيس أهل الجنوب العظيم وتذكرت عجل بني إسرائيل الذهبي، يبدو أن الصلاة عند بعض الناس طقس لمتعة العابد وليس لإرضاء المعبود! داعبتني السيقان العارية في خيالي فأثارت في دمائي الحنين إلى امرأة، أي امرأة حتى لو كانت حبشية لا يبدو منها في ظلام الليل إلا بياض أسنانها، ضممت ساقي واشتدت ضمتي للصندوق وأسلمت خيالي لألاعيب النفس الطافية بين اليقظة والمنام، فأرجحني على سرير مخملي من النشوة، تزكيه رائحة البخور التي لم تفارق أنفي طيلة الليل.

«اليوم الثامن»:

اليوم كان يومًا سيئًا، أصاب الخناق عددًا كبيرًا من الخيول والحمير في القافلة، وكأنها لعنة الأتان التي ألقيت للسباع قد أصابت بني جلدتها، العجيب أن المرض كان أشد وطأة على الخيول من الحمير، فما أن يبدأ المخاط في السيل من أنف الجواد، حتى تصيبه الحمى وتنتفخ البثور على وجهه ويكف عن الطعام والشراب حتى يصيبه الهزال، أصيبت فرسة الشيخ (دومة) أولًا، ثم فرس الشيخ (عابر)، ثم توالت إصابات الخيل الواحدة تلو الأخرى، ومما زاد الأمر صعوبة، أن الخيل المصابة كانت تحتاج إلى الراحة، والعزل عن باقي الأحصنة، وهو الأمر الذي يتعذر على طريق السفر.

في صباح ذلك اليوم بلغ الهزال مبلغه بفرسة الشيخ (دومة) التي سقطت على جانبها وأصدرت صهيلًا خافتًا كأنه حشرجة الموت، رأيت الدموع في عين الشيخ (دومة)، بينما بكى (ليث) عليها بكاءً صريحًا، فقد كانت تلك الفرسة الأثيرة لديهم منذ كانت مهرة صغيرة، شعرت بالحزن لهم ولها، ووجدت اتهامًا لي في عيني الشيخ (دومة) تحول إلى كلمات غاضبة وهو يقول:

ـ ما كان ينبغي لك أن تربط الأتان في مربط الدواب.

تركنا الفرسة التي نفقت أو تكاد لمصيرها في الصحراء، واستأنفت القافلة مسيرها وكلي أذًى من كلمات الشيخ اللائمة الغاضبة، استبدل الشيخ (دومة)

فرسته بأخرى، بينما فضل الشيخ (عابر) أن يستبدل فرسه ببغلة فتية، بعد أن لاحظنا أن البغال لا تصاب بالمرض، استأذنته في أن أربط الفرس في مؤخرة العربة، فذلك أهون عليه وأدنى ألا يرهقه السير أو أن يصيب باقي الخيل، وحين وصلنا إلى «المتعشى»، راودتني فكرة أن أدواي الفرس كما داويت (عمرو) من قبل، فالحيوان كما الإنسان روح وبدن، وكلاهما يصاب بالعطب والمرض.

ملأت إناء بماء البئر، ثم نقعت به بذور الحرمل الجافة، وأسرفت في القدر الذي وضعته من البذور، ثم طحنت فصوصًا من الثوم ووضعتها فوق البثور المتقيحة على وجه الفرس المصاب، قدمت الماء إلى الفرس الهزيل، فشرب منها قدرًا يسيرًا في بادئ الأمر، قبل أن يأتي على ما في الإناء كله وكأنما راقه طعم منقوع الحرمل، في الصباح كررت ما فعلته بالليل وداومت عليه بين الفينة والفينة طيلة المسير وأنا أتلقى النظرات المتعجبة من الشيخ (عابر) والنظرات الساخرة من الشيخ (دومة)، العجيب أنه بعد انقضاء اليوم التالي، هدأت الحمى التي أصابت الفرس، وأقبل الفرس على الطعام بعد أن كانت تعافه نفسه، وفرح الشيخ (عابر) بتحسن حالة الفرس، فقال حين توقفنا للراحة في المحطة التي تلي ذلك المسير:

ـ ألديك ما يكفي من الحرمل والثوم؟!

هززت رأسي نافيًا، فصمت قليلًا ثم قال للشيخ (دومة):

ـ أرى أن علاج (شمعون) للخيل ناجعٌ، من الخير أن نتوقف بضعة أيام لعلاج باقي الخيل المصابة.

قال الشيخ (دومة):

ـ أين نتوقف؟ لا يتسع المحط للمبيت لأكثر من ليلة أو ليلتين، وأظن أننا لن نجد بذور الحرمل وفصوص الثوم هاهنا!

قال الشيخ (عابر):

ـ نعرج إلى يثرب غدًا، فهي على بعد مسيرة يوم!

وجدت الضيق على وجه الشيخ (دومة) بينما هتف (ليث) في فرح وقال:

ـ حقًّا! لقد اشتقت إلى أخوالي، أشكرك يا جدي، ستفرح أمي بذلك أيما فرح!

غمغم الشيخ (دومة) قائلًا:

ـ أخشى أن تتعطل المسيرة ولكن الأمر لك يا أبي.

وبتنا ليلتنا تلك وأنا على شوق أنا أرى يثرب في اليوم التالي، يكفيني أن نمكث فيها بضعة أيام، أرى فيها (أروى) وأرى فيها الأرض التي نبتت بها أمها.

«اليوم العاشر»:

خرجنا من طريق البخور واتجهنا يمينًا جهة الغرب سالكين الطريق إلى يثرب، الطريق به الكثير من المرتفعات والمنخفضات، والبلدة لا يمكن رؤيتها على مرمى الأفق، فالجبال تحوطها من كل جانب وكأنها عُش صقرٍ أقيم في جوف الجبل، تسارعت الرياح فأثارت الرمال والأتربة، وامتلأت أنفي وعيني بالغبار، تكممت بطَرْف خِمارٍ من الكتان بلَّلته بالماء فحجزَ عني أذى الأتربة، وكففتُ عن السعال الذي انتابني بسببها، دُرنا بالقافلة ثم سلكنا طريقًا منحدرًا بين تَلَّيْن فبدت لنا البلدةُ كواحةٍ بين الجبال، تحيطها أشجار النخيل كالسياج، تمتد في وسطها البساتين، وتنتشر حول آبارها منازل بنيت بالحجر والقرميد، الرياحُ بين الجبال أكثر سكونًا وأشجار النخيل تحجبُ الرمال والأتربة، ونسماتُ النهار المتأخرة تداعبنا وتنعِش صدورنا، حتى تمنيت لو تطول إقامتنا في تلك البلدة طيبة الهواء.

استقبلنا أخوال (أروى) بترحاب كبير، ضُرِبت الخيام على أطراف الواحة، واتَّخذتُ لي خيمة وضعت فيها أغراضي والصندوق، بينما استضاف القوم الشيخ (عابر) وولده (دومة) في منزل من الحجر إكرامًا لهما.

في اليوم التالي أقيمت مأدبة طعام وافرة بأصناف شتى من لحوم الضأن والماعز والإبل، ولكن أكثر ما استطبته كان لحوم الدجاج، كانت المرة الأولى التي أتذوقه فيها وذكرني طعمه بلحم السلوى الذي اشتقت إليه منذ تركت نزلنا

في قادش برنيع، علمت أنهم يربون الدواجن في منازلهم، حين رأيت دجاجة على إحدى النوافذ تقف آمنة وهي تنقر في الخشب إلى أن قفز إلى جوارها ديكٌ جعلها تفر من نقرات الغزل التي أراد أن يتقرب بها إليها، فلم تتقبلها.

عرَّفني (ليث) على خاله (أواس) فوجدته رجلًا مهيبًا قويًا شديد بياض الوجه، ذا شعر أجعد قصير أحمر اللون، وذقن حمراء نحيلة الشعر تنتثر فيها بعض الشعيرات البيضاء، كانت ملامحه تختلف عن هيئة أعراب فاران الذين تميل أبشارهم للسمرة وأجسادهم للنحول، علمت أن قبيلة (عُبيل) التي تنحدر منها عائلة الشيخ (أواس) ليست في الأصل من أهل فاران، ولكنهم نزحوا إلى أرض يثرب من بابل، وأن جدهم الأكبر (يثرب بن عبيل) هو من أقام تلك البلدة، ثم عاشوا بها قرونا إلى أن نازعهم في أرضهم العماليق، فخرجت قبيلة (عبيل) من يثرب ولم يبق من نسلها سوى عائلة الشيخ (أواس).

لاحظت أن ودًّا خفيًّا يربط بين (ليث) وابنة خاله (لامار)، تفضحه خلجات (ليث) المضطربة كلما وقعت عينه على الفتاة البيضاء ذهبية الشعر، وحينما أتت (أروى) كي تخبرنا أن (لامار) سوف تصحبنا في نزهة إلى بساتين الكرم، سمعت خفقات قلب (ليث) وهي ترقص فرحًا.

في بساتين الكرم في يثرب رأيت جنة من جنان الأرض، خففت الوطء حتى لا تؤذي أقدامي أعشابًا لم أر مثلها في خضرتها، لها رائحة رطبة ندية، أظلتنا سقيفة ممتدة تكاثفت فوقها أوراق الكرم وتدلت بين فجواتها العناقيد، بعضها أحمر كالياقوت، وبعضها أخضر كالزبرجد، فتذكرت عنقود العنب الذي عاد به النقباء الاثنا عشر من الأرض المقدسة بحجمه المهول، وحدثتني نفسي إن كانت هذه العناقيد الصغيرة بمثل هذا الجمال، فكيف هي بساتين الكرم في الأرض المقدسة؟

قطفت بضع حبات بيدي، وتذوقت إحداها فذابت حلاوتها في حلقي، فابتسمت الفتاة حين رأت أثر الطعم على وجهي، فقطفت بيدها عنقودًا كاملًا، وأعطته لـ(ليث) أولًا، ثم قطفًا ثانيًا لـ(أروى) وثالثًا لي.

ـ قالت الفتاة وهي تشير إلى صومعة على مقربة من البستان:

ـ هل تريدون رؤية معصرة الخمر؟

قالت (أروى) في تعجب واستنكار:

ـ أتبيعون الخمر في يثرب؟

قالت الفتاة بصوت ينساب هادئًا كشعرها الذهبي المسترسل وقد تحمَّرت وجنتاها:

ـ المحصول وفير، ولا يباع بأكمله، فنعصر بعضه خمرًا ونجفف بعضه زبيبًا.

قالت (أروى):

ـ ومن يشتريها؟

قالت (لامار):

ـ يشتريها الأعراب من غير الأحناف.

لم أشهد أبي يشرب خمرًا من قبل، ولكني علمت أن بني إسرائيل قد شربوها في الليلة الماجنة التي أقاموا فيها قداسًا للعجل الذهبي، بعدها نهرَ (موسى) الناس ومنعهم من شربها، وحذَّر أن يأتي الرجل إلى الصلاة في خيمة الاجتماع مخمورًا، تعجبت من أن أبناء (إسماعيل) أيضًا لا يشربونها، وتساءلت كيف حفظ بنو (إسماعيل) وصايا أبينا (إبرام)، وتناساها بنو إسرائيل بمرور الزمن؟ ألهذا السبب كان لزامًا أن يرسل الرب نبيًّا إلى بني إسرائيل كي يعيدهم إلى ملة أبينا (إبرام)؟!

عادت الفتاة إلى السؤال في براءة:

ـ هل تحبون رؤية المعصرة؟

قال (ليث) مسرعًا:

ـ نعم.

بينما قالت (أروى):

ـ أرغب في البقاء هنا.

فرددت أنا بلا تفكير:

ـ وأنا أيضًا سأظل هنا.

انطلق (ليث) مع الفتاة سعيدًا، بينما جلست أنا و(أروى) على أريكة خشبية موسَّدة بفراء الغنم فبدت وثيرة ناعمة، كانت المرة الأولى التي أقترب منها بهذا القدر منذ كنا في (الحِجر)، تعلَّقت عيناي بوجهها وتشبثت نظراتي بلحظيها لا تريد أن تغادرهما، اضطرَبَتْ، فأحنت رأسها خجلًا وقالت:

ـ لا تنظر إليَّ هكذا يا (شمعون).

تنهدتُ وأنا أقول:

ـ اشتقت إليك!

ازدادت حمرة وجهها فزادتها ملاحة، ثم قالت متلعثمة:

ـ اشتقت إليك أنا أيضًا.

قلت لها فرِحا:

ـ تحدثتُ إلى الشيخ (عابر)، وخطبتك لنفسي منه.

فغرَت فاها مندهشة وهي تقول:

ـ أحقًّا يا (شمعون)! لماذا فعلت؟

تعجبت من سؤالها ودهشتها، فقلت:

ـ ظننتك ستسأليني بماذا أجِبت؟

صمتت، ورأيت الحزن في عينيها، فقلت وقد أصابني بعض الغيظ:

ـ توقعت أن تفرحي، فلماذا الحزن؟

قالت:

ـ أخشى أن يعلم عمِّي (دومة)، وكلَّما تخيلت ردةَ فعلِه ارتجفت، قلبُه مكلومٌ على ولده ولو علِم أنك تبغي خطيبة ابنه سيجن جنونه،

أغاظني أكثر تبريرها، فقلت في غضب:

ـ الخطبة لم تعقد، وأمرها مُرْجَأ حتى يوافق الشيخ (عابر)، وقد خطبتك أنا من الشيخ (عابر) وأَرْجَأها هو حتى يعود الشيخ (نابت)،

ثم قمت من مجلسي على الأريكة وسرت بضع خطوات ثم قلت وأنا أوليها ظهري:

ـ الكفَّتان متساويتان يا (أروى)! والأمر لك!

طال الصمت لحظات ثم سمعت صوت بكائها، رقَّ قلبي لها فعدت إليها جالسًا وقلت:

ـ لماذا تبكين؟

استمرت في البكاء وقد دفنت وجهها في راحتيها، أزحت كفيها عن وجهها برفق، وأدرت وجهها نحوي، فقالت والدموع تغمر وجهها:

ـ ليت الأمر لي يا (شمعون)، أنت لا تدري أعراف قبيلتنا، الكلمةُ عقد، وقد وعد أبي عمي (دومة) ولن ينقض وعده.

شعرت باليأس من كلامها، فقلت في شيء من الغضب:

ـ إذن ما جدوى بقائي؟! حين نصل إلى بكة سوف أعود مع قافلة الشمال.

صدمتها كلماتي وقالت:

ـ تريد أن تقتلني بذهابك، كيف أطيق الحياة بعدك إذا غادرتنا، ما أسهل الفراق عندك يا (شمعون)!

اضطربت مشاعري وامتزج الغضب باليأس والحيرة، ولم أعرف ماذا أقول، قمت ثانية من مجلسي على الأريكة وأسندت كتفي إلى جذع الكرمة، قامت كسيرة النفس ووضعت يدها على كتفي قائلة:

ـ لا تقس عليّ يا (شمعون)! فبي ما يكفيني من الأحزان! فقدت أبي وهو سندي، ولا أريد أن أفقدك! لا أجد من ألجأ إليه سواك، فحتى الدعاء إلى الله

كففت عنه بعد أن عاقبني الله بدعائي.

لم أحتمل انكسار نفسها، فضممتها إلى صدري وأحط رأسها بذراعي، قبّلت شعرها وأنا أقول:

ـ وأنا ليس لي سواك يا (أروى)، لا قبيلة ولا أب ولا أم، أنتِ فقط من تمنحيني الأمل للبقاء، يغضبني أن تسقي هذا الأمل بماء اليأس، إن لم تقو على الدعاء فاطلبي الخير لنا، فأنا على ثقة بأن الرب سيجعل لنا الخير.

هدأت نفسها فرفعت رأسها نحوي وهي لا تزال مستندة إلى كتفي وقالت في صوت عاشق:

ـ كيف تملك هذا اليقين في قلبك؟

قلت:

ـ لا أملك غيره! فمثلي لا يحيا إلا بالأمل، ولو حاد عني لهلكت.

سمعنا صوت ضحكات (ليث) و(لامار)، فابتعدنا وجلست هي على الأريكة، اقتربا منا وهما لا يزالان على ضحك ولاحظت اضطرابًا في مشية (ليث) وكأنه يتحسس خطاه، وكانت الفتاة تبدو خجلى وهي تضحك لضحكاته، تعجبت (أروى) من أخيها فقالت:

ـ ما بك يا (ليث)؟!

صمت فجأة، ثم نظر وهو يكتم ضحكته نحو (لامار) وقال:

ـ لا شيء.

ثم انفجر ضاحكًا مرة أخرى.

قامت (أروى) وهي تقول:

ـ حسنًا هيا بنا فقد تأخرنا.

وبينما كنا نستدير عائدين، أسندت كتف (ليث) بيدي حتى تستقيم مشيته، فقال لي:

ـ لماذا تسندني؟

قلت مبتسمًا:

ـ لا أسندك، بل أتوكأ على أخي الأصغر.

وأدرت وجهي بعيدًا عن رائحة الخمر التي فاحت من فمه.

«اليوم الرابع عشر»:

قضيت اليومين السابقين بين الخيل المصابة في مربطها الخاص بعيدًا عن باقي الدواب، ملأت حوضًا كبيرًا بالماء ووضعت به كمية كبيرة من بذور الحرمل وصرت أسقي الخيل منها ثلاث أو أربع مرات يوميًا، ساعدني الشيخ (أواس) في تطهير البثور باستخدام منقوع الثوم، ونصحني بأن أطهرها أيضًا ببعض النبيذ قائلًا:

ـ نغسل جروحنا بالخمر فتبرأ سريعًا، أظن أنها قد تساعد الخيل على التعافي أيضًا.

وبالفعل كانت الجروح والبثور تسرع في الالتئام كلما مسحناها بالخمر، رغم استيائي من رائحتها التي جعلتني أتعجب كيف يقدم أحدهم على شربها!

في ظهيرة ذلك اليوم كنت أسير حول بساتين الكرم وحدي، أتأمل جمالها وأتفكر بحالي، صفت نفسي للسير وحيدًا رغم عدم صفاء الجو في ذلك الصباح، كانت الرياح تتسارع، تنحني لها سعفات النخيل فوق الجذوع وينتفخ ثوبي بسببها حتى بدوت كخيمة تسير على قدمين، دخلت إلى سقيفة الكرم فقد كانت الرياح بها أهدأ فوجدت الشيخ (عابر) والشيخ (أواس) والشيخ (دومة) يجلسون على ذات الأريكة التي جلست عليها مع (أروى) قبل يومين، يستندون إلى الجدار وصفير الريح المصطدم به يطغي على أصواتهم، ألقيت عليهم التحية وكدت أتركهم ولكن الشيخ (عابر) دعاني للجلوس.

جلست على العشب إلى جوار الأريكة فقدم لي الشيخ (أواس) عنقودًا من العنب، تناولته منه شاكرًا.

قال الشيخ (عابر) مستكملًا حديثًا بدءوه:

ـ حسنًا! نمكث في يثرب حتى جلاء العاصفة.

سألت عن أي عاصفة يتحدثون، فأجابني الشيخ (أواس) بأن رياح السموم قد بدأت من جهة الشمال وأن الرمال الثائرة على الطريق تنذر بقرب وقوع عاصفة على طريق مكة وأنه من الخير الاختباء بين جبال يثرب حتى جلائها.

قال الشيخ (دومة) وهو يكتم حنقه:

ـ لو لم نعرج إلى يثرب لسبقنا العاصفة إلى بكة!

قال الشيخ (أواس) بكلمات مزجت بين الفتور والتهكم وكأن الود بينهما موصول على شعرة:

ـ العاصفة دائمًا أسبق يا شيخ (دومة)! ظني أنك لم تختبر رياح السموم من قبل، ولكني رأيتها وأنا طفل في العاشرة، إنها لا تُبقي ولا تذر، ولولا لجوء آبائنا إلى الجبال حينذاك هلك بنو عبيل!

قال الشيخ (عابر) وهو يومئ برأسه مؤيدًا:

ـ كان ذلك منذ زمن طويل ولقد هلكت فيها كثير من أهل القبائل.

قلت:

ـ ومتى تنجلي العاصفة؟

قال الشيخ (أواس):

ـ لا ندري أحيانا تنجلي في بضعة أيام، وأحيانًا تظل تثور وتهدأ لعدة أسابيع!

قال الشيخ (دومة) ناقمًا:

ـ ما كان ينقصنا إلا مرض الخيل، ورياح السموم، حتى نُبْطِئَ بالسير إلى بكة.

قال الشيخ (عابر):

ـ لماذا العجلة يا بني؟ نحن بأمان الآن ولن يضيرنا الوصول إلى بكة بعد عشرة أيام أو بعد شهر.

قال الشيخ (دومة):

ـ الأمر يزداد خطورة يا أبتاه في بكة، ففي آخر ليلة لنا في المتعشى، أخبرني رجل من قافلة الجنوب أن (خزاعة) لن تنتظر حتى أشهر الحج كي تُغير على (جرهم).

صمت قليلًا ثم تابع في أسف:

ـ أخبرني الرجل أنهم يجمعون المال والسلاح وأن أمر الحرب قد أصبح وشيكًا.

قال الشيخ (أواس):

ـ وإلى أي الجانبين تقفون يا شيخ (دومة)؟!

كنت أتذكر جيدًا ما قاله الشيخ (عابر) من قبل في (الحجر)، من أن بني يطور لن ينصروا أيًا من المُتعارِكيْن، ولكنني فوجئت بالشيخ (دومة) يقول في حدة وكأنما استثاره سؤال الشيخ (أواس):

ـ ماذا تظن يا شيخ (أواس)؟ بيننا وبين (جرهم) صهر وحلف، ولن نقبل أن يضيمهم أحد.

قال (أواس) كالمعتذر أو كالمحاور:

ـ المعذرة يا شيخ (دومة)، ولكني علمت أن باقي بطون بني (إسماعيل) يقفون في صف (خزاعة).

بدا الانزعاج على وجه الشيخ (عابر) بينما بدا الغضب على وجه (دومة) وقال:

ـ سيندم هؤلاء على نصرة الخبيث على الطيب، وستدافع (جرهم) وقيدار ويطور عن حقِّ (جرهم) في ولاية البيت.

رأيت الشيخ (عابر) صامتًا واجمًا، وولده (دومة) يتحدث في قرار الحرب دون اعتبار لكلامه السابق، ورأيت في عينيه نظرة تحيرت في أمرها، أهي نظرة

حزن على ما آلت إليه الأمور في بكة، أم أنها نظرة حزن من ولده الذي يتعجل في خلع عباءة السيادة عنه؟

ويبدو أن الشيخ (أواس) قد استشرف أن الشيخ (عابر) ليس على اتفاق تام مع ما يقال، فقال مهدئًا من وتيرة الحديث:

ـ أسأل الله ألا يتقابل بنو (إسماعيل) بسيوفهم، وأن يحفظ البيت من كل مكروه.

ثم أردف موجهًا كلامه إلى الشيخ (عابر):

ـ معذرة يا شيخ (عابر)، قد طلبت مني شقيقتي أم (ليث) أن تمكث هي وأبناؤها في يثرب حتى يعود الشيخ (ثابت) من (إدوم).

فاجأني حديثه فشعرت بغصة في حلقي! تعلقت عيني بالشيخ (عابر) الذي صمت قليلًا كي يتفكر، ولكن الشيخ (دومة) قال مستنكرًا:

ـ ولماذا تترك بيتها وبيت زوجها في غيابه؟

قال الشيخ (أواس):

ـ المرأة تشعر بإعياء السفر، وترغب في الراحة في ديار أهلها يا شيخ (دومة).

ثم أردف وكأنه يذكره بما قال:

ـ كما أن الحرب على الأبواب في بكة وليس من الحكمة أن تصحب النساء إلى هناك!

قال الشيخ (دومة) في حدة:

ـ النساء يرافقن أزواجهن أينما كانوا يا شيخ (أواس)، وزوجة أخي تظل في كنفنا حتى يعود، وخطيبة ولدي لا تفارق ديارنا حتى يبني بها!

مادت بي الأرض ووجدت الدهشة على وجه الشيخ (عابر) وقال الشيخ (أواس) في تعجب:

ـ أخطب (عمرو) (أروى) لنفسه؟!

قال الشيخ (دومة) والحدة لا تفارق صوته:

ـ نعم خطبها من أبيها في إدوم، ولكنه أرجأ الخطبة حتى نعود إلى بكة!

ارتفع صوت الرياح وصمت الجميع وتوجهت الأنظار إلى الشيخ (عابر)، الذي أسند رأسه إلى يده الممسكة بعصاه وكأن رأسه قد أثقلتها الأفكار، ثم رفع رأسه بعد برهة وهو يقول:

ـ الأصوب ما قاله الشيخ (أواس) تبقى (أروى) وأمها في يثرب ويرافقنا (ليث) إلى بكة.

هم الشيخ (دومة) بأن ينطق، ولكن الشيخ (عابر) وقف قائمًا وقال:

ـ هيا نعود إلى الدور فقد اشتدت الريح وعبثت الرمال.

«اليوم العشرون»:

رأيت غضبة الصحراء وعرفت أن للرمال غدرًا يفوق غدر البحار، ارتعدت جبال يثرب لصفيق الرياح الهادرة وحملت الرياح معها كثبانًا من الرمال دارت في موجات متتابعة التوت لها جذوع النخل حتى لامست سعوفها أرض الوادي، واكتسحت جحافل الرمل بساتين الكروم غير عابئة بسياج الخوص الذي ضربناه حولها، فأحالته خِرَقًا تذروها الرياح، كنا قد رفعنا الخيام من النزل، قبل ذلك بيومين حينما رأينا اشتداد الريح، وأمرنا الشيخ (أواس) بأن نلزم المنازل الحجرية، واستضاف كل بيت من أهل يثرب اثنين أو ثلاثة من قبيلة الشيخ (عابر)، وجاء نصيبي أنا و(ليث) أن نمكث في منزل الشيخ (أواس) نفسه خلال تلك الأيام، ربطنا الدواب والإبل في حظائر آمنة مسيجة بسياج مرتفع من الحجر أقيم في سفح الجبل حتى لا تفر الدواب منه خوفًا من العاصفة، شعرت أن كل شيء كان معدًّا سلفًا وكأن قبيلة الشيخ (أواس) قد اعتادت على عواصف الصحراء، ومع ذلك كانت ذروة العاصفة أمرًا مهيبًا، ظننا معه أن الهلاك قادم لا محالة، ظل الشيخ (أواس) يطوف في البيت كالزنبور، يتلصص من بين فرجات النوافذ وقلبه ملتاع على أهله، وزرعه

ودوابه، يتمنى أن تهدأ العاصفة كي ينظر إلى ما خلفته من دمار، رفقت بنا الأقدار فتحملت أحجار المنازل وطأة الرياح رغم تسلل الرمال داخلها من بين فرجات النوافذ التي تحطم بعضها، طعم التراب ظل في أفواهنا طيلة هذا اليوم وفي الأيام التالية، التصقت الرمال بكل شيء بالمتاع والملابس والماء والطعام وحتى شعيرات أنوفنا حتى صرنا نتنفسها ليل نهار، طمرت الرمال بعض الآبار وأتلفت بعض الزروع وهدمت جزءًا كبيرًا من سقيفة العنب، ولكنها لم تُصِب أحدًا من القبيلتين بأذى، في اليوم التالي للعاصفة، بكّر الشيخ (أواس) في الخروج، بعد أن هدأت الريح كي يتفقد النزل، أحزنه رؤية الدمار الذي لحق بسقيفة العنب، ومعصرة الخمر، وحين تفقد الدواب، لم يجد أثرًا لمهرته الشهباء المقربة إلى قلبه، ويبدو أنها فزعت من الرياح فقفزت من فوق السياج واختفى أثرها في الصحراء، تمتم الشيخ (أواس) ببعض الكلمات، أعقبها بقوله (الحمد لله)، تعجبت من أن يشكر الرجل الرب على مصيبة أحلت به، قد أتفهم أن يجزع الإنسان للمصيبة، أو أن يصبر عليها، أو أن يرضى رضى العاجز الذي لا يملك حيلة لها، ولكن أن يشكر على المصيبة، فذلك مقام لم أره من قبل، فقلت له:

ـ ظننتك ستشكو إلى الله ما نزل بك!

قال وهو لا يزال يتمتم بالحمد:

ـ أشكو إليه صنيع من؟! ذلك صنيعه هو، والحمد لله أن لم يجعلنا غايتها!

أصابتني كلماته بالسكينة، فقلت له وأنا أشد من أزره:

ـ أستطيع أن أصلح لك سقيفة العنب.

قال لي متعجبًا:

ـ أحقًّا تستطيع؟!

قال (ليث) متحمسًا:

ـ (شمعون) هو أفضل نجار رأيته!

قال (أواس):

ـ يكن فضل منك يا (شمعون)، لدينا أخشاب سنط وسرو، ماذا تريد أيضًا؟

قلت:

ـ فقط أحتاج إلى البراغي، ولدي دقماق وأزاميل.

قال:

ـ سآتي لك بها من حداد يثرب.

قضيت هذا اليوم في قص الأخشاب، وتجميعها وساعدني في ذلك (ليث)، ووجدها الفتى فرصة كي يعتذر عما وقع منه يوم أن زار معصرة الخمر، ناولني بعض البراغي في يدي وقال في خجل:

ـ أشكرك أنك لم تفضحني أمام (أروى)! لو علمت أني تذوقتها لفضحتني عند أمي وجدي!

أخذت البراغي منه ثم قلت له مشاكسًا:

ـ ولكني أشك أنك اكتفيت بتذوقها!

ضحك وقال:

ـ نعم، قد تحديت (لامار) بأنني أستطيع أن أشرب قدحين منها دون أن أتأثر!

ثم ضحك أكثر وقال:

ـ ولكني خسرت التحدي.

قلت غامزًا بعد أن أوقفت طرقات الدقماق:

ـ أظن أن ما أسكرك لم تكن نشوة الخمر فحسب! بل نشوة الحب أيضًا.

بان عليه الخجل أكثر وقال:

ـ يبدو أني مفضوح عندك يا (شمعون)!

قلت مازحًا:

ـ ليس عندي فحسب!

ثم أردفت:

ـ أتحبها؟!

قال مضطربًا:

ـ لا أدري! ولكني أتمنى ألا أفارق جوارها في يثرب!

ثم أردف متلعثمًا:

ـ أشعر أن (لامار) لا تنتمي إلى هذه الصحراء، مثلها مثل يثرب، كلاهما استثناء في صحراء فاران البائسة، أحيانًا أتساءل، كيف ضل ذلك الملاك الأبيض ذهبي الشعر طريقه إلى تلك الأرض القاحلة، كلما أتيت إلى يثرب وأراها، أتذكر حكايات أمي عن أجدادنا في بابل وأتخيلها أميرة بابلية وقعت أسيرة في تلك الأرض فهي ليست مثلنا في أي شيء.

توقف عن الكلام، ثم تنهد وكأنه يزيح عن صدره همه الصغير وقال مستفسرًا:

ـ أهذا هو الحب؟

ضحكت قائلًا:

ـ بل هو العشق!

ثم قلت في وجوم وأنا أقارن حالي بحاله:

ـ وما يمنعك أن تخطبها لنفسك بعد أن يعود أبوك، هي ابنة خالك ولن يحول بينكما حائل!

فردَّ في وجوم أكبر:

ـ الأمر ليس بتلك السهولة يا (شمعون)، الحياة في القبيلة وفي بكة أصبح يحكمها الفخر والخيلاء والاستقواء بالنسب والعشائر، أنت لم تر منا سوى جدي الشيخ (عابر) وأبي (نابت)، وهما خير من بقي من ولد (إسماعيل)، أما الباقون فهم على شاكلة عمي (دومة).

ثم أردف في حزن:

ـ أتدري أن زوجة عمي (هند) قد عيَّرت أمي ذات مرة بنسبها الأعجمي، وأن عمي (دومة) يدعو خالي (أواس) بـ«أواس الأبرص» في جلساته الخاصة!

شعرت بالغضب والحزن معًا، وفاجأني أن وجدت العصبية تنخر بين بني (إسماعيل) كما نخرت من قبل بين أسباط بني إسرائيل فقلت:

ـ ولكن جدك (عابر) لا يزال حيًّا وكلمته نافذة حتى الآن!

قال (ليث):

ـ ليس كما تظن! الناس تخضع لصوت القوة، وتستهين بصوت العقل، وعمي (دومة) هو من يحمل لواء القوة الآن.

صمت قليلًا ثم قال في حزن:

ـ كان أبي كالدرع الذي يصد عنا سهام الكره، أما وقد غاب عنا فقد انكشفت صدورنا لكل رامٍ.

شعرت بهموم الفتى وأشفقت عليه، ولكني شعرت بأن معاناته لا تزن تفة من معاناتي المنتظرة، سألته متحسسًا أملًا أتشبث به قبل أن أهوي في بحر اليأس:

ـ قل يا (ليث)، هل يقبل قومك أن تخطب (أروى) لشاب من بني عبيل!

ضحك وقال:

ـ أهون على عمي (دومة) أن تترك (جرهم) أمر البيت لـ(خزاعة) من أن يحدث هذا!

فهويت بالدقماق من الغيظ على رأس البرغي وأنا أتخيل رأس (دومة) بين يدي.

«اليوم الخامس والعشرون»:

كان الوقت مبكرًا حينما علت الجلبة في الحي، سمعنا طرقًا على باب دار الشيخ (أواس)، فاستيقظ كل من في الدار وخرجنا نستطلع الأمر، كان الناس يتجمعون حول فرسة الشيخ (أواس) الشهباء التي حملت على ظهرها رجلًا

يكاد يسقط من الإعياء وهو يستند برأسه على عنقها ولا يمنعه من السقوط سوى تشبث أنامله على لجامها، وكأنه يتشبث بآخر أمل له في الحياة، كان الناس قد رأوا الفرسة تهبط وحدها من فوق الجبل، ثم دخلت إلى الحي وكأنها تعرف الطريق إلى بيت الشيخ (أواس)، فاستوقفوها وهم يتعجبون من حملها.

أسرع الشيخ (أواس) ومجموعة من الرجال إلى حمل الرجل الفاقد الوعي، وبسطوا جسده على الأرض، كانت ملابسه رثَّة ومُتربة، وكأنما طحنتها رحى العاصفة، تحركت أجفان الرجل دون أن يقوى على رفعها، فعلم الناس أنه لا يزال حيًّا، وضع الشيخ (أواس) قطرات من الماء على شفتيه اللتين تشققتا وكأنهما لم يذوقا الماء لفترة طويلة، ابتلت الشفتان بالماء فتوردتا ودبَّ فيهما لون الحياة وتحركت أصابع الرجل وكأنها تتلهف إلى المزيد، رفع الشيخ رأسه ثم أفرغ المزيد من الماء في الجوف المتعطش، فظلت أنفاس الرجل تلهج وهو يعب منها دفقة بدفقة، ولم تهدأ أنفاسه إلا بعدما ارتوى.

أراح الشيخ (أواس) رأس الرجل إلى الأرض، ثم غسل وجهه وشعره بالماء كي يزيل عنها الأتربة وكي يساعده على استعادة وعيه.

وما أن فتح الرجل عينيه، حتى تذكرت ذلك الوجه الذي بدا أشد نحولًا عن ذي قبل، ذكرتني بوجهه تلكما العينان اللتان لا يمكن نسيانهما حتى وإن غارتا في محجريهما، فقد كان هذا الرجل هو (دَعْس)، الذي قتل الضابط (كرونوس) من قبل وحمل معه الشيخ (نابت) و(عمرو بن دومة)!

بعد وقت ليس بقليل كنا نجلس جميعًا في صحن دار الشيخ (أواس)، أنا والشيخ (عابر) و(دومة) ومعنا (ليث)، نتطلع بعيون مترقبة إلى (دعس) الذي تمدد جسده على أريكة في صحن الدار، كان الرجال قد خلعوا عنه ملابسه وحمموه ثم ألبسوه جلباب الشيخ (أواس)، استرد بعضًا من وعيه فجلس على الأريكة التي بسطوا عليها جسده، طاف على الوجوه المتطلعة بنظرات زائغة، وكأنه يتساءل عما أتي به إلى ذلك المكان وحينها وقعت أنظاره على الشيخ (عابر)، اجتهد ليفتح عينه وكأنه يتحقق مما رآه، ثم رفع يده وكأنه غير مصدق

ثم قال في صوت أجهشه البكاء:

ـ أنت الشيخ (عابر)، حمدًا لله، حمدًا لله.

ثم قام بصعوبة فجلس عند قدميه وقبل يده وهو يجهش بالبكاء، مسح الشيخ (عابر) على رأسه، وقال وهو يهدئ من روعه:

ـ حمدًا لله على نجاتك، استرح يا بني فيبدو أنك قد قاسيت الكثير.

هدأ روعه قليلًا، فقال:

ـ رأيت الهلاك بعيني مرات ومرات وظننت أنها النهاية.

أجلسه الشيخ (أواس) على الأريكة، وقدم إليه قدحًا من المرق الدافئ وقال:

ـ كيف أتيت إلى هنا وكيف نجوت من العاصفة؟

رشف رشفة من القدح ثم أتبعها برشفات أخرى وكأنما استطاب طعمه ثم بدأ يتحدث ليحكي لنا عن رحلته التي خاضها حتى وصل إلينا فقال:

ـ كنت قد جاوزت (الحِجر) ببضعة أيام حينما اشتدت الريح القادمة من الشمال، أحسست بأن تلك الرياح الساخنة التي تحمل ذرات الرمال اللاسعة ليست مجرد رياح الهبوب التي تحدث كل عام، توقعت أن تشتد مع الأيام التالية، فقررت أن أنطلق بفرسي بأقصى سرعة لعلي أسبقها إلى ملاذ آمن يقيني شرها، أيقنت بعد أيام أن المنبت لا أرضًا قطعَ ولا ظهرًا أبقى! فقد أُجهِد الفرس وأبطأ في العدو، وأوشك الماء الذي أحمله على النفاد، تحملت العطش وآثرت الفرس على نفسي، حتى لا يهلك فأهلك معه، مررنا على موضع المُتعشَّى، فوجدناه خاويًا على عروشه، قد نزح عنه أصحابه خوفًا من العاصفة ولاذوا بالجبال، ترجلت عن الفرس وبحثت عيني عن البئر أو عن مشرب الدواب، وجدت المشرب وقد بقيت به بعض المياه الراكدة فتركت الفرس يلعق ما به، بينما ذهبت أنا كي أحضر الماء من البئر وكي أملأ قربتي، ألقيت بالدلو داخل البئر وفجأة سمعت صوتها الهادر يملأ الأفق من جهة الشمال، التفت خلفي فرأيتها تعدو نحوي بقوة لم أر مثلها في حياتي، كانت كمئات الأفراس تحمل على ظهورها

ملائكة العذاب، وتسحب خلفها سحابة من الرمال حجبت ضوء الشمس عن الأرض، أدركت أني هالك لا محالة، وكنت لا أزال أمسك بحبل الدلو، فقفزت إلى داخل البئر وأنا أتشبث به، غلفني ظلام البئر ولم أشعر إلا وكثيبًا من الرمل يهوي فوق رأسي ويطمر البئر في طرفة عين، ففقدت وعيي وقد تيبست يدي على حبل النجاة.

صمت لحظات وعيوننا تتعلق به، أمسك بالقدح فرشف منه رشفات أخرى ثم تابع:

ـ لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا على حالي، ولكني شعرت بأنفاسي تزهق تحت الرمال التي طمرتني، انتفض جسدي كله وكأنه يبعث من جديد، ووجدت يدي لا تزال تمسك بالحبل، استجمعت ما بقي لي من قوة ومنحتها لذراعي وقبضت قبضة رفعتني إلى أعلى، وأخرجتني من البئر أشعثَ أغبرَ، أقف مذهولًا بين الحطام الذي خلفته العاصفة، نظرت حولي فلم أجد الفرس! هل طار مع العاصفة أم فر منها لا أدري؟ ولكني في كل الأحوال كنت ممتنًا لأنني ما زلت حيًّا.

رشف رشفة أخرى ثم قال:

ـ انتظرت حتى هدأ صفير الريح وقمت أمشي إلى جهة الجنوب لعلي أرى ناجيًا أو أجد ملجأ آوي إليه، مر يومان وأنا أسير بصعوبة، أحمل قدمي التي تغوص إلى منتصفها في الرمال بجهد بالغ وأستعين بيدي أحيانًا كمن يسير على أربع، فجأة وجدت شيئًا على مرمى البصر بعث في قلبي الأمل، رأيت وكأن حطام هودج تتلاعب به الرياح ويتدحرج في الطريق، دفعت جسدي المنهك بقوة وكأني أسبح في بحر الرمال، وصلت إلى المكان فهالني ما رأيت، عشرات الجثث من الرجال والنساء قد تناثرت في الصحراء، ميزت منها بعض الأحباش والجنوبيين، شعرت بالغثيان حين رأيت كلاب الصحراء وقد بقرت بطن ناقة نافقة، وأخذت تنهش في لحمها وعلى مقربة منها تقف بعض الحِدَأ على جثة رجل حبشي تنقر عينه ورأسه، فرَّت الحِدَأ طائرةً حين رأتني، وراقبتني

الكلاب وهي تنظر إلى جيفتها بإحدى عينيها وتنظر نحوي في حذر بعينها الأخرى، سرت بين الحطام لعلي أجد بعض الطعام أو الماء، وأخيرًا وجدت ضالتي في هودج محطم به خبز وقربة مملوءة بالماء، فجلست على الأرض بين الجيف، غير عابئ بشيء سوى أن أسد جوعي وأروي عطشي.

كان صوته قد تهدج حين وصل إلى هذا الجزء من القصة، فربت الشيخ (أواس) على كتفه ليهدأ من روعه وقال:

ـ وكيف وجدت فرستنا الشهباء؟

قال:

ـ هي التي وجدتني، حملت ما استطعت حمله من الماء والطعام وظللت أسير سبعة أيام حتى نفد مني الطعام، اتجهت إلى سفح جبل وتخيرت موضعًا تستره الصخور وقررت ألا أتحرك منه حتى يحين الأجل، فانتظار الأجل خير من السعي إليه أحيانًا، فجأة وجدتها تخرج من بين ثنايا الجبال، أكانت تستأنس بي من خوفها، أم أن الرب قد أرسلها لي؟ لست أدري! ولكني أدركت أن الرب ينظر إليّ برحمته للمرة الثالثة، وبعد أن امتطيت ظهرها بصعوبة، عقدت لجامها حول يدي وتركتها تطوي أرض الصحراء كما تشاء حتى أتت بي إلى هنا.

صمت وعيوننا تفيض شفقة عليه، تذكرت الشيخ (أواس) حينما قال «نحمد الله أن لم يجعلنا غايتها»، وانتابني الخوف، حينها تخيلت مصيرًا يشبه مصير قافلة الأحباش لو كنا تبعنا رأي الشيخ (دومة) واستأنفنا السير إلى بكة.

أفقنا من صمتنا على سؤال الشيخ (دومة) الذي قال:

ـ حمدًا لله على نجاتك يا شيخ (دعس) ولكنك لم تخبرنا لماذا تبعتنا إلى هنا؟

انتبه (دعس) وكأن أحداث العاصفة قد أغفلته عن السبب الذي كان قد خرج من أجله، صمت قليلًا ثم قال وقد ظهرت على وجهه علامات الحزن وهو يقول:

ـ جئت إليكم برسالة من «إدوم».

خفقت قلوبنا جميعًا وقال الشيخ (دومة) في انفعال:

ـ هات بها يا شيخ.

قال (دعس):

ـ مات الشيخ (نابت) وهرب (عمرو) مع (شهبور) إلى مجمع البحرين.

* * *

أناخ الحزنَ رِحالَه في يثرب، واتخذ من حي بني عُبيل مَربطًا، عمَّ السواد على الدُّور وأنَّت الجدران لصوت النحيب، بكى الجميع حزنًا على الشيخ الجليل الذي ملأ القلوب بهيبته وفضله، كنت أقل الناس صحبةً للشيخ (نابت)، ورغم ذلك انفطر قلبي عليه، وشعرت بذات المرارة التي شعرتُ بها يوم مات أبي، فَلِلْفَقْدِ مرارة لا يتغير طعمها على أي حال، حين نطق (دعس) بالخبر المشئوم، أمسكتُ بيد (ليث) في قوة، وأحطت كتفه بيدي، أعلم جيدًا تلك اللحظة التي يشعر فيها المرء بأنه قد اقتلِع من أرضهِ اليابسة وصار معلقًا في الهواء، لا يحتاج المرء حينها إلا ليدٍ تُمسِك به مثلما أمسكت بي يد (بصلئيل بن حور)، أقيمت صلاةٌ للدعاء للشيخ (نابت)، وجدتني أقف خلف الصفوف أدعو له وأبكي، قد كان أبي أكثر حظًّا منه، مات وهو ينظر إلى ولده، أما هو فقد مات غريبًا وحيدًا متألمًا من جرحه، ما أقسى أن يغادر الإنسان دون وداع من يحب! ما أقساها على التارك والمتروك!

حين فرغ الشيخ (عابر) من الصلاة، رأيته يسير إلى داره مُتكِئًا على عصاه، أشعر بظهره قد انحنى أكثر، أهو الحزن قد أثقل كاهله؟ أم صلبه الذي فقد السند؟ أم هو ذبول النفس حين تفقد زهرتها وتجف ورقتها، كان أكثر تماسكًا حين كان يحدوه الأمل في نجاة ولده، ولكن انتزاع الأمل يُخير القوى، ويوهن القلب، أشفقت عليه من ابتلاء في أواخر سني عمره، وقد أوشكت الرحلة على النهاية والرسالة على التتمة.

كان المصاب كبيرًا على الجميع، كنت أجول في الحي، فأشعر بالحزن في

العيون، انزوت النساء في منازلهن حدادًا، فلم أستطع رؤية (أروى)، حتى الشيخ (دومة)، اعتكف في بيته، وكأنما كسر فؤاده فقدان أخيه وولده، ولم أجد سوى (دَعْس)، الذي استعاد عافيته وبدا قويًا كما كان رفيقًا لي في تلك الأيام، كنت أجلس إليه أسأله عن نفسه وعن تفاصيل تلك الأيام التي تلت عودتهم إلى «إدوم»، حفظت كل شيء عن ظهر قلب ورأيت في قصته ما يستحق أن أكتبه في أوراقي، وهذا ما حكاه لي (دَعْس) في أيامي الأخيرة بيثرب.

«اسمي (دعس)، وهو اسم يعني المكتسح، هكذا أسماني شيخ القبيلة الذي رباني، فأنا لا أعرف لي أبًا سواه، نشأت في قرية اسمها (غرندَل) تقع فوق جبال «إدوم» بالقرب من بصرى وتحيط بها قمم «أدوم» الشاهقة من كل جانب، غرندل ليست قرية عادية، هي أرض الأسود ومملكة الأبطال، لا نخضع لسلطان ولا لحاكم، لا يستطيع الغريب الدخول إلينا ونعرف لها -نحن أهل القرية- ألف مدخل ومخرج، الأمر باختصار كما نقول في قريتنا: «غرندل لمن عاش بها»، قديمًا كانت قبيلتنا تقطع الطرق على القوافل، وتثير الرعب على طريق البخور، حتى جاء الملك (هوشام) ملك «إدوم» وطلب الصعود إلى قريتنا فوق الجبل وجلس إلى شيخها، وعقد معه صلحًا، هل تتخيل؟ ملك «إدوم» يطلب الصلح مع رجال غرندل ويجلس مع شيخ قبيلتها رجلًا لرجل! كان من شروط الصلح أن تكفَّ القبيلة عن تهديد التجارة على طريق البخور، مقابل أموال يرسلها إلينا ملك «إدوم»، وأن يُسمح لأهل غرندل بالتجارة في العاصمة بصرى بلا قيد أو شرط، وظل الأمر كذلك إلى أن جاء الملعون (هدد بن بدد)، فأنكر الصلح الذي عقده (هوشام) وضيق على أهل القرية في التجارة، وفي يوم من الأيام غدر (كرونوس) اللعين بشيخ قبيلتنا وقتل عددًا كبيرًا من خيرة رجاله، وحاول الهجوم على غرندل، ولكن استعصت عليه جبالها وطرقها، يومها أقسمنا ألَّا نترك ثأر قريتنا، ووجدنا من أهل «إدوم» من يشاركنا نفس الرغبة، وكان من بين هؤلاء التاجر (شهبور)، الذي جمعتني به صداقة وطيدة، وكان يمدنا بالمال مقابل أعمال تثير الرعب في قلوب الجنود الكنعانيين المرتزقة، أملًا في أن يدفعهم ذلك إلى ترك الخدمة في جيش الإدوميين».

«في يوم من الأيام أخبرني (شهبور) بأنه على يقين بأن (كرونوس) يشتبه به، وأنه قد قرر الرحيل عن (بصرى)، ولكنه يخشى أن يطارده (كرونوس) وجنوده، وجدتها فرصة لا تعوض للانتقام من (كرونوس)، تربصنا به على طريق الحجر خارج أسوار بصرى، وانتظرنا حتى حانت اللحظة وانتقمنا منه وحدث ما حدث للشيخ (نابت)، و(عمرو بن دومة).

يومها عدنا إلى (غرندل) وأرسلت بعض رجالي لإثارة الفزع في بصرى، حتى لا يفكر جنود الإدوميين في العودة إلى القافلة، حطموا الحوانيت وأشعلوا النيران في بعض المخازن، واعتدوا على بعض التجار حتى تفشى الذعر في السوق وانشغلت الشرطة والجنود المرتزقة بالسيطرة على الفوضى، ليلتها أتينا بالطبيب لعلاج الشيخ (نابت) الذي فقد الكثير من دمائه بعد أن بتر (كرونوس) ذراعه، فصل الطبيب الذراع عن آخرها ثم قام بكيِّ منبت الذراع بسكين ملتهب كالجمر حتى التصق اللحم بالعظم، ومع ذلك ظلت الدماء تقطر ولم تتوقف قرابة الثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أصابت الشيخ حمى، وكان كلما رأى نورًا ينتفض جسده متشنجًا وينقبض فكّاه في قوة حتى نسمع صوت أضراسه وهي تتحطم، ولا نستطيع فعل شيء، ذُعِر (عمرو بن دومة) و(شهبور)، وظنَّا أن شيطانًا قد مسَّ الشيخ (نابت)، أتينا بالطبيب مرة أخرى فنصحنا بأن نعصب عينيه وأن نضعه في ماء مالح في حجرة مظلمة، فالماء المالح يوقف التشنجات، وعصابة عينيه والظلام سيحجبان عنه ما يراه، هدأت التشنجات قليلًا، ولكن الحمى لم تهدأ وبلغ به الوهن مبلغه حتى شعرنا بأن الموت يتشممه ويوشك أن يفتك به، فأعد له (عمرو) قبرًا فوق أعلى ربوة في جبال (غرندل) وَوَضَعَ لَهُ شاهدًا، ويوم دفنَّاه وصلى عليه (عمرو) و(شهبور) وبعض الرجال، أمطرت السماء مطرًا خفيفًا وشعرت بأن سماء (غرندل) فرحى بضم رفات هذا الرجل الصالح».

في اليوم التالي كنا نجلس أنا و(دعس) تحت سقيفة العنب، أمسك دعس يقطف من العنب بيده اليسرى، وأخذ يقضم حباته بفمه كالبعير، بينما أمسك

بيده اليمنى قدحًا مملوءًا بالخمر، تورّد وجهه بعد أيام من مكوثه في يثرب، وبدا في ثياب الشيخ (أواس) كتاجر منعم ثري، شعرت أن الرجل قد بدّل ثياب الشظف وخشونة المحاربين بثياب الرفاهية سريعًا، فكان يسرف في الطعام والشراب، ويقبل على الحياة ببِشرٍ وحبور، رغم الحزن الذي يحيط به في كل مكان، في ذلك اليوم أخبرني بباقي قصته فقال:

«ظللنا في (غرندل) أيامًا، لا يخرج منها أحد، فقد علمنا أن (هدد بن بدد) قد أغضبه ما حدث في بصرى، فعزل قائد الشرطة، وأرسل فرقة كبيرة من الجند بقيادة ضابط جديد كبير اسمه (جندار)، كان الناس يتحدثون عن (جندار) بأنه خليفة (هدد بن بدد) وتلميذه المحبب إليه، وفي اليوم الأول لوصوله، أغلق (جندار) أبواب مدينة بصرى ولم يسمح لأحد بالخروج منها، وقال قولته المشهورة:

«هناك من أهل (بصرى) من يطعم كلاب (غرندل) ولو منع عنهم الطعام، لخرجت الكلاب كي تبحث عنه»، وبالفعل، كان لنا رجال من بصرى يأتون إلينا بالطعام والماء عبر دروب (غرندل) الخفية، فلما أغلق (جندار) الأبواب على بصرى، انقطع عنا الزاد والماء، احتملنا انقطاع الطعام أيامًا، ولكننا لم نحتمل انقطاع المياه، أرسلنا بعض الرجال جهة الشمال ناحية الكرك كي يأتونا بالمؤن فكادوا يقعون أسرى في يد جنود (جندار) وهم على أبوابها، واستيقظنا ذات صباح، على صوت النفير، والحراس يصرخون لقدوم الإدوميين، فقد وشي أحد أعواننا في بصرى ـ بسبب التعذيب ـ بأحد الدروب الخفية إلى غرندل، كان هناك خطة محكمة متفق عليها من قبل للهروب في حالة وقوع هجوم من (جندار) وجنوده، تفرق الرجال في لمح البصر، وهربت كل مجموعة من طريق مختلف، أخذت معي (شهبور) ورجاله و(عمرو بن دومة)، وانطلقنا في طريق يؤدي إلى خليج (الحيان)، كانت خطورة هذه الطريق أنه يمر بواد منخفض ينحدر بشدة حتى يصل إلى الخليج، والوادي مكشوف من جانبيه ويسهل على الرماة قنصنا إن أدركونا، كانت النجاة في أن ننطلق في أقصى سرعة قبل

أن يدركنا الجنود، وبالفعل لم ننقطع عن العدو حتى وصلنا إلى الخليج عند منتصف الليل، وعند الفجر كانت السفينة التي ستقل (شهبور) ورجاله إلى مجمع البحرين تتأهب للرحيل، وقف (عمرو) على الشاطئ أمام سلم الحبال لا يريد أن يركب، ترجاه (شهبور) أن يركب ولكنه أبى قال في حسم:

ـ لن أترك أهلي!

قال (شهبور):

ـ سنلحق بهم لاحقًا، صدقني يا بني! لا أريد أن أفقدك كما فقدت عمك! يكفيني ذنب واحد أمام الشيخ (عابر).

تردد (عمرو) قليلًا، فقلت له محذرا كي أدفعه للرحيل:

ـ هيا يا (عمرو)، إذا انبلج النهار فلن ينجو أحد على الشاطئ! هيا يا بني فهم في أعقابنا الآن.

نظر إلي كالمستغيث فقلت له مشجعًا:

ـ هيا يا بني وسأصعد وراءك.

أمسك بسلم الحبال وصعد في بطء وهو يلقي بنظرة حزن على الشاطئ، وما أن استقر فوق ظهر السفينة، حتى أخرجت سيفي وضربت به سلم الحبال ضربة قطعته، ثم ضربت ضربة أخرى قطعت بها حبل المرساة فانسابت السفينة في مياه البحر.

قال (عمرو) صارخًا:

ـ قد وعدتني يا دعس.

وقال (شهبور) لائمًا:

ـ لماذا فعلت هذا يا دعس؟! ستقتل إن عدت إليهم!

قلت في صوت عال وقد أخذت السفينة في الابتعاد:

ـ لن أترك رجالي، لا تخش عليّ سأبدأ من جديد!

وبينما كان قرص الشمس يعلو في الأفق، كانت السفينة تتضاءل وهي تغيب في عرض البحر»!

انتهى كلام (دعس).

وهذا ما كان من خبر التاجر (شهبور)، و(عمرو بن دومة) في «إدوم» وحتى رحيلهما من غرندل.

* * *

«اليوم الأخير»:

رأيتها تحت سقيفة العنب، لم أتردد هذه المرة في أن أهرول إليها وأن أحتضنها في قوة لدقائق طويلة حتى شعرت بها تفنى بين ذراعي، قبلت شعرها وجبهتها، وتلامس خدانا اللذان غمرتهما الدموع، قالت وهي تدفن رأسها في صدري:

ـ هل كتب عليّ أن أفقدكم جميعًا في وقت واحد؟! أبي وأخي وأنت؟!

اعتصرت جسدها بذراعي وأنا أقول وقلبي ينفطر حزنًا عليها:

ـ لن تفقديني، أقسم لك أني سأعود! وأقسم لك أني سأتزوجك.

قالت وهي تتشبث بأصابعها في كتفي:

ـ أريدك بجواري الآن، لا تفارقني يا (شمعون).

قبَّلت أصابعها وأنا أقول:

ـ أعلم، أعلم يا حبيبة القلب! ولكن هذا أفضل لك! لن تحتملي عناء السفر وسط هذه الأحزان، ولا ندري ما ينتظرنا في بكة!

ثم أجلستها على الأريكة وضممت رأسها إلى صدري بيدي اليسرى، وربت على خدها وأنا أقول:

ـ أفضل لك أن تكوني مع خالك (أواس) من أن تكوني مع عمك (دومة).

ثم أردفت:

ـ سننهي تجارتنا في بكة ثم أعود إليك، سأخطبك من جدك (عابر) مرة

أخرى لنفسي، وإن لم يسمح عمك (دومة) بزواجنا سأهرب بك ومعي من الأموال ما يكفينا!

قالت متعجبة:

ـ أي أموال يا (شمعون)؟!

قلت:

ـ هذا أمر لست في حلٍّ أن أذكره، ولكن ثقي بي يا حبيبتي،

أطمأنت عيناها، ولكن لم يطمئن قلبها تمامًا فقالت:

ـ أخشى عليك يا (شمعون) من الصراع الدائر في بكة!

ضحكت قائلًا:

ـ تلك معركة لا ناقة لي فيها ولا جمل يا (أروى)، ولولا أمانة أحملها في عنقي ما أكملت المسير إلى بكة ولبقيت إلى جوارك هاهنا.

قالت متعجبة مرة أخرى:

ـ لقد عدت إلى الألغاز يا (شمعون)، أمرك عجيب اليوم، عن أي أمانة تتحدث؟

قلت مبتسمًا:

ـ هذا أيضًا أمر لست في حلٍّ أن أذكره.

ابتسمت أخيرًا ثم قالت وهي تحيط وجهي بكفيها الصغيرين:

ـ عدني يا (شمعون) أنك ستعود.

قلت بلا تردد:

ـ أعدك.

قالت:

ـ عدني ألا تتأخر عليّ.

قلت:

ـ أعدك ألَّا أتأخر بعد أن أرد الأمانة إلى صاحبها.

قالت غاضبة:

ـ هذا وعد فيه استثناء!

قلت مبتسمًا:

ـ هذا وعد فيه صدق!

ـ أحبك.

ـ وأنا أذوب فيكِ عشقًا.

وبينما كنا نهم بالقيام سمعنا صوتًا خلف الجدار، فزعت (أروى)، فأسرعت أنا بالدوران خلف الجدار لأستطلع الأمر، فوجدت (دعس) نائمًا على الأرض، يستند برأسه إلى الجدار ترتجف أنفه مع صوت شخيره ويغط في نوم عميق، وفي يده قدح من الخمر انسكب ما به على صدره.

* * *

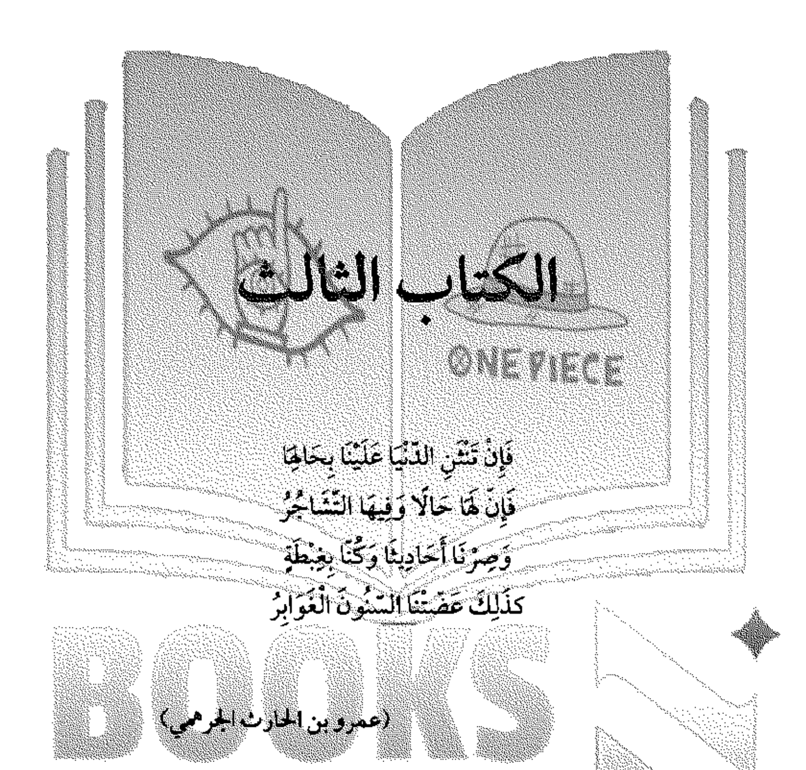
للوداعِ شجنٌ وللفراقِ ألمٌ، فإذا أتْبعَ الوداع فراق صار الشجن والألم رفيقين للمرء في حِلِّه وترحاله، ومع ذلك حين ارتفع صفير الحادي ألقيت إليها بنظرة واثقة تحمل رسالة لو كُتِبت بمداد لكانت من كلمة واحدة هي (سأعود)، لا أدري كيف تماسكتُ، ولا من أين أتيت بتلك الثقة، ولكني كنت أشعر بشعور جديد اسمه (اليقين)، تذكَّرتُ يوم خروجي من قادش برنيع متلصصًا، حينها تركت أمي دون أن ألقي إليها بنظرة وداع، تركت الرسالة لـ(عامر) ولم أترك لها كلمة واحدة، كنت أجبن من أن أواجه نظرة عينيها، أو أتخيلها تقرأ كلماتي وتبكي، آثرت ألم الفراق على أحزان الوداع المتجددة التي تظل ملتصقة بروح الإنسان طيلة حياته.

ما بين خروجي من قادش برنيع قديمًا، وخروجي من يثرب اليوم فارقٌ كبير، لا يقاس بالأيام أو السنين، وإنما بما مرَّ بي من أحداث، كلتا القريتين واحةٌ تتوق النفسُ للعيش بها، وكلتا الرحلتين كانت إلى أرض يتقدس فيها

الرب ويرفع فيها اسمه، ولكن شتان بين (شمعون) «التائه» في قادش وشمعون «المستيقن» في يثرب، عبر بي الشيخ (عابر) من منازل التيه، إلى منازل اليقين، وأدركت من الإيمان حلاوة، لم أذقها ونبي الله بيننا، أصبت الفطرة من الدين بعيدًا عن الزواجر والنواهي وتذمر بني إسرائيل، ورأيت الله يتجلى على عباده بقبسات من صفاته لا لشيء سوى التسليم والخضوع له وحده، أحببت الربَّ قبل أن أخشاه، واشتقت هذه المرة إلى رؤية أرضه المقدسة، لا لأحقق حلم أبي، ولكن لأشعر بقربي منه وطمعًا في أن تتنزل عليّ رحماته.

وحينما أشرفت جبال بكة في الأفق علا صوت الحادي بكلمات ملأت الفضاء من حولنا ومست نغماتها أوتار قلبي، وجدتني أرددها مع جموع القافلة الذين رددوها بحناجر باكية قائلين:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك»



الكتاب الثالث

فَإِنْ تَنْثَنِ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بِحَالِهَا
فَإِنَّ لَهَا حَالًا وَفِيهَا التَّشَاجُرُ
وَصِرْنَا أَحَادِيثًا وَكُنَّا بِغِبْطَةٍ
كَذَلِكَ عَضَّتْنَا السِّنُونَ الْغَوَابِرُ

(عمرو بن الحارث الجرهمي)

الورقة الثامنة والثلاثون

مالت الشمس في السماء ولامسَ قرصها جبال «فاران»، حينما بلغت القافلة حدود «بكة»، استقبلتنا جموعٌ من الأطفال ونساء من الأحباش على أبواب القرية، هرْوَلوا ناحيتنا وهم يقولون في لهجة مستعطفة:

ـ لم تـمُرَّ علينا العاصفة بسلام، لم تـمُرَّ علينا العاصفة بسلام.

كان رُكَّاب القافلة يلقون إليهم ببعض التمرات، فيتصارعون عليها، جرى طفلٌ أسمر اللون، أجعد الشعر إلى جوار عربتي وهو يقول كلمتين بدا لي أنه لا يجيد غيرهما:

ـ طعام سيدي، طعام سيدي.

ألقيت إليه بثمرة رُمَّان أحضرت عددًا منها معي من «يثرب»، فالتقفها في سعادة وهو لا يكاد يصدق، ورآه بعض الأطفال الأكبر سنًّا فجروا تجاهه، فانطلق مهرولًا محاولًا الفرار منهم.

قال (ليث) الجالس إلى جواري حزينًا:

ـ زاد فقراء البلدة، لم نر كل هؤلاء الأحباش قديمًا.

قال (دعس) الذي كان يستلقي بظهره على العربة مسندًا رأسه إلى جوال الطحين:

ـ قلَّت القوافل إلى «بكة» بعد أن سرت أنباء الحرب، كما أن الناس لا تأمن «جرهم» على أموالها.

تعجبت من أن يعرف (دعس) القاطن في «إدوم» أخبار «بكة» الواقعة بين جبال فاران، ولكني تذكرت أنه لا بد وقد جمعته أحاديث مع (عمرو بن دومة) والشيخ (نابت) عن «بكة» وأحوالها.

نظرت إلى الطفل الأسمر الذي أدركه أقرانه فأسقطوه أرضًا وتقاسموا معه ثمرته رغمًا عنه، شعرت بغُصَّة وشفقة عليه، لا يوجد أقسى من رؤية طفل جائع، حقًّا إن الحروب لا تأتي أبدًا بخير، لها لهيب يلفح كل مَنْ حولها، والعجيب أن من يشعلها هم الطامعون ومن يكتوي بنارها هم المساكين!

أدرت بصري إلى جبلٍ تلألأت صخوره تحت بريق الشمس، فذكرتني هيئته بجبل حوريب في برية سين. لمح (ليث) نظراتي فقال:

ـ اسمه (عرفة).

ردَّدت الاسم خلفه:

ـ (عرفة)!

قال (ليث):

ـ نعم! يصعد إليه الحجيج في أشهر الحج، فيناجون الرب ويعترفون بذنوبهم!

عجيب أمر هؤلاء القوم! جعل الرب لهم جبلًا مقدسًا، مثلما جعل لنا جبل حوريب، ثم سمح لهم بأن يناجوه من فوقه دون نبي كليم أو كاهن! ترى كيف يكون البيت الذي أقامه لهم أبونا (إبرام) بين جبال فاران؟! رسمت له صورة في مخيلتي فبدا كأنه خيمة اجتماع عظيمة، لها مذبح فسيح تحيط به المباخر من كل جانب، وفي القلب يقع قدس الأقداس الذي يتجلى فيه الرب على كاهنهم، ثم محوت تلك الصورة، ورسمت صورة أخرى أفخم وأكبر، فرأيته مثل معابد المصريين الضخمة المهيبة التي ملأت أمي رأسي بحكاويها.

قطع تفكيري صوت (دعس) وهو يقول:

ـ جميل هذا الصندوق يا (شمعون)! يبدو لي مثل صناديق الأعراس التي تصنع في مصر!

أسقط في يدي ونظرت خلفي فوجدته وقد أزاح غطاء القماش من فوق الصندوق، وأخذ يتطلع إلى الصندوق بنظرة متفحصة بها قدر لا بأس به من الوقاحة، قلت حاسمًا:

ـ أهدته لي أمي، فأمي مصرية!

رفع حاجبيه وهو يقول:

ـ حقًّا!

أعدت غطاء الكتان فوقه وأنا أقول بلهجة غير ودودة:

ـ أخشى عليه من الأتربة، فهو كل ما بقي لي من ذكرى أمي.

ابتسم ابتسامة مستهينة، ثم استلقى على ظهره مرة أخرى.

بعد وقت غير طويل، ارتفع صفير الحادي فتوقفت القافلة في حي (بني يطور) أول الأحياء في «ايكة» من جهة الشمال؛ الحي فسيح كبير، بُنيت منازله من طابق واحد بلبنات من الحجر، وطليت جدرانه بأصباغ حمراء، ميزته عن باقي الأحياء، قفز (ليث) و(دعس) من فوق العربة بينما بقيت أنا، انتظرت طويلًا في مربط الدواب حتى أناخ الرجال الإبل، وحملوا بضاعتهم إلى الصوامع. ربطت العربة في المربط وحملت صندوق أغراضي، وسرت في طرقات الحي لا أدري أين يكون مبيتي، جاءني صوت (ليث) وهو يقف في نافذة محطمة لأحد المنازل وإلى جواره (دعس):

ـ هيا يا (شمعون)، هنا سيكون مبيتك!

كان المنزل هو منزل الشيخ (نابت)، الذي خلا من ربِّه ونسائه؛ المنزل متسع، به ثلاث حجرات متتالية، لها سقف من جريد النخل، تفتح أبوابها على فناء فسيح به خزانة تخلو من الطعام، وأريكة موسَّدة بجلدٍ وحشوه ليف، وفي منتصف الفناء جُذيل نخلةٍ مبتورة يُحكِّكون بها الخيل المُجربة، بدا المنزل متربًا بفعل العاصفة، ورأيت بعض أجزاء السقف والنوافذ محطمة، قلت وأنا أقف في الفناء حاملًا الصندوق:

ـ يحتاج المنزل إلى تنظيف وإصلاح.

قال (ليث):

ـ ليس الآن، سنذهب الآن لنغتسل من «زمزم» ثم نطوف بالبيت!

قلت في شيء من الفرح، وأنا على شوق لرؤية البيت:

ـ حقًّا!

قال (ليث):

ـ نعم، فهذا أول شيء يفعله القادم إلى «بكة»!

ثم أشار إلى إحدى الحجرات وقال:

ـ ضعْ أغراضك هنا!

وحين دخلت الحجرة شعرت بأنفاس (أروى) تتردد بها، رأيت سريرها المفروش بوبر الإبل ومنضدتها التي لا تزال عليها مكحلة جف كحلها، ومرآة مكسور انعكست عليها ابتسامتي وملامح وجهي المغتبطة!

* * *

لم أجده كخيمة الاجتماع؛ فلا بخور، ولا مذبح، ولا قدس للأقداس، ولم أجده كمعابد المصريين؛ فلا أعمدة، ولا نقوش، ولا نُصب، لم أجد سوى بناء من الحجر تساوت أركانُه، ووضِع في أحدِها حجرٌ أسود؛ بناءٌ فطريًا بسيطًا ببساطة الصحراء من حوله، يتجرَّدُ من كل أبَّهةٍ وزينة تَجَرُّد الطائفين من حولي، غمرتني الصفوف المُترَجِّلة تجاهه بأمواج من التراتيل والتسابيح لم أميِّز منها سوى بعض الكلمات، مثل (للحي أُسبِّح) و(للعظيم أسجد)، وتلبيةً تعلو كل حينٍ حتى تصل إلى عنان السماء فتضيء نفسي بوهج من السلام. حفظتها من أول مرة، وظللت أكررها: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك»، حتى نداؤهم كان بسيطًا مباشرًا يبلغ مقصده دون زخرفة ولا إطناب.

بعد أشواط ثلاثة، كان جسدي يدور في فلك البيت، وروحي تدور في

فلكٍ أعلى وأرقى، شعرت بها تسبح في مراتب من النشوة غير مدركة للأجساد المحيطة بها، نشوة لم أشعر بها من قبل في صلاتي الساكنة، ووصلت ذروتها مع الشوط الأخير. من المؤكد أن للحركة صنيعها في تهيئة النفس للخشوع والاستسلام، تذكَّرت رقصات الأحباش الماجنة في صلاتهم أمام الإله (عثتر) وسقوطهم مغشيًّا عليهم من النشوة والمجون، كلاهما نشوة، ولكن شتان بين نشوة السقوط ونشوة الرقي!

انتهينا من الطواف وأنا أشعر بسَكِينة، لا أدري سببها؛ فأنا ما زلت غير موقن بأن ملاك الرب يتجلى على هذا البيت كما كان يتجلى على نبي الله (موسى) في خيمة الاجتماع، ولكني على الأقل موقن بأن رحمات الله ليست بعيدة عن هذا البيت، أدرك الآن أن لهذا المكان قدسية لم تمنحها له حكايات الناس عنه، وإنما منحتها له تلك السَّكِينة التي تحل على كل بائس، ألقى بهمومه على أعتابه.

أخذني (ليث) من يدي وقال:

ـ (شمعون)! تعالَ! سأريك شيئًا ستحبه.

توجهنا إلى حجرٍ على مقربة من البيت أحاطت به ثلة من الناس، فرغوا لتوهم من الطواف، كان بعضهم يمسحه بيده ثم ينصرف، والبعض الآخر ينحني له ساجدًا على الأرض فيُقَبِّله ثم ينصرف. الحجر صغير أبيض اللون مطمور حتى منتصفه بالرمال، وقفنا قبالته، فأشار (ليث) إلى سطحه وقال:

ـ انظر! هذا أثر قدمي أبينا (إبراهيم)!

مرَّ من أمامي رجلٌ فمسح الحجر بيده ثم انصرف، تطلعت إلى أثر القدمين اللتين بدتا بلا أصابع. وقلت مشدوهًا:

ـ حقًّا!

قال متحمسًا:

ـ نعم، كان يقف هنا على هذا الحجر وهو يبني البيت، فغاصت قدماه في الحجر المبتل وتركت أثرًا لم تمحه السنون.

الحجارة أصدق من الكلمات دائمًا، ونقش مثل هذا يستدعي كل الحكايات التي سمعتها عن بناء البيت ويجعلني أراها بعيني وألمسها بيدي. هوي (ليث) عليه مُقبلًا بينما اكتفيت أنا بمسِّه بأناملي. تذكرت ما قاله (شموع بن ذكور) عن قبر أبينا (إبرام) في الخليل، وعن بيته الذي دنسته الأوثان، وبالأخص تمثال عشتاروت العارية، تُرى هل أمر الرب أبانا (إبرام) بأن يبني له بيتًا في تلك الصحراء لعلمه بما سيحدث لبيته في الأرض المقدسة؟ أثارت رؤية الحجر في نفسي شجونًا، وعاودتني ذكريات لهفة أبي على دخول الأرض المقدسة أرض الآباء والأجداد! وازددت حنقًا على بني إسرائيل الذين تركوا قبر أبينا مدنسًا، بينما يقدِّس (بنو إسماعيل) أثرًا القدمه حين تركنا مقام (إبراهيم)، وجدنا الناس تتزاحم بالقرب من بئر زمزم، ظننت أن الزحام لأجل الماء ولكني وجدت الناس تتجمع في حلقات حول رجل تظهر بالكاد رأسه فوق الجموع المحيطة به، وهو يتحدث بصوت عالٍ، ويشير بأصبعه إلى تمثالين خلفه نحتًا من الحجر نحتًا رديئًا، أحدهما على هيئة رجل والآخر على هيئة امرأة، كان الرجل يتحدث بصوتٍ عالٍ أقرب إلى الصراخ فجمع الناس من حوله:

ـ انظروا يا حجيج بيت الله، انظروا يا عباد الرحمن، انظروا إلى غضب الله وسخطه، هذان مَنْ أتيا بالفاحشة في حجر الكعبة، وظنَّا أنهما بمعزل عن عين الرب، قد جعلهما الرب مسخين يطلان عليكم ليذكراكم بقبيح ما فعلت «جرهم»!

تذكرت ما سمعته من قبل في (الحجر) عن (إيساف) و(نائلة). وتذكرت (الغوث) سيد قبيلة «طيئ» وهو يضحك وجسده يرتج في المغطس قائلًا: «أي شيطان أوحي إليهم بأن يضعوا حجرين بين «الصفا» و«المروة» في الليل، ثم يأتي أحدهم في الصباح فيروي لهم تلك القصة البذيئة». الأسطورة أصبحت الآن خبرًا يُروى يا سيد (غوث)! وحلفاء «خزاعة» يلصقونها بـ«جرهم» أمام سمع وبصر الجميع!

سمعت بين الصفوف صوت الشيخ (دومة) وهو يقول:

ـ كذبت وفسقت يا رجل!

كسر الناس الحلقة ثم أفسحوا طرفيها، حتى أصبح الشيخ (دومة) في منتصفها مواجهًا الرجل الذي فوجئت به شابًا في مقتبل العمر شديد العبوس. قال الشيخ (دومة) في غضبٍ عارمٍ: شعرتُ أن عاقبته قد تكون غير محمودة:

ـ ما كان لسدنة البيت أن يأتوا بقبيح في بيت الله الحرام!

تجمع حول الشاب بعض رفاقه الذين لا يقلون عبوسًا عنه ووقفوا إلى جانبه وكأنهم يظهرون الدعم له. تردد الشاب قليلًا أمام غضبة الشيخ (دومة) قبل أن يقول:

ـ من أنت أيها الغريب؟! وكيف تحكم بما لم ترَ؟!

قال الشيخ (دومة) وهو لا يزال على غضبته:

ـ غريب أنا (دومة بن عابر) سيد قبيلة (يطور بن قيدار بن إسماعيل)، فمن أنت يا وليد الأمس؟!

ارتبك الشاب خصوصًا بعد أن علت همهمات ساخرة بين رجال قبيلة الشيخ (عابر). فقال وهو يزيد من عبوس وجهه كي يخفي ارتباكه:

ـ أنا (إياد بن المنذر) من بني تيماء.

تذكرت أن قبيلة تيماء من (بني إسماعيل)، وأن الشيخ (أواس) قد ذكر أن بعض قبائل (بني إسماعيل) قد أصبحت تدعم خزاعة. فقال الشيخ (دومة):

ـ من «تيماء»! ولا تخجل من أن تقدح في أخوالك؟!

قال الشاب في عنف:

ـ وأقدح في آبائي وأجدادي، إذا أتوا بما يخالف شرع الرب!

ثم قال متجاوزًا مقام الأدب مع الشيخ (دومة):

ـ اسمع يا شيخ بني يطور، لن نبرح البيت حتى نُذكِّر القاصي والداني بما

فعلته «جرهم» بشريعة الرب، ولن يمنعنا مانع من أن نزيل عن هذا البيت ما وقع به من دنس!

قال الشيخ (دومة) في عنف مضاد:

- إن كان هناك من دنس فهما هذان النصبان اللذان ينضحان بهتانًا وإفكًا.

قال الشاب (إياد) في ذهول:

- أتسب آية الرب وتصفها بالدنس؟!

انحنى الشيخ (دومة) والتقط حجرًا من الأرض ثم قذفه تجاه التمثالين، ثم قال وقد أذهب الغضب عقله:

- بل أرجم آية الشيطان، أيها اللعين!

بهت الناس وتراجعوا مذهولين، وكأنما توقعوا أن تسقط عليهم صاعقة من السماء، وانتفخت سواعد الشاب وكأنما راودته نفسه على الانقضاض على الشيخ (دومة)، لولا أن أمسك بعضده زملاؤه. والتقت نظرات شاب ترى الدنيا من خلال ثقب ضيق في ثوب أسود مع نظرات شيخ يرى الدنيا بعين الغضب.

ثم رفع الشاب سبابته وقال وجسده ينتفض غضبًا:

- ستندم أيها الشيخ! ستندم على نُصرة مَنْ دنَّس بيت الله الحرام! وإنَّ غدًا لناظره قريب.

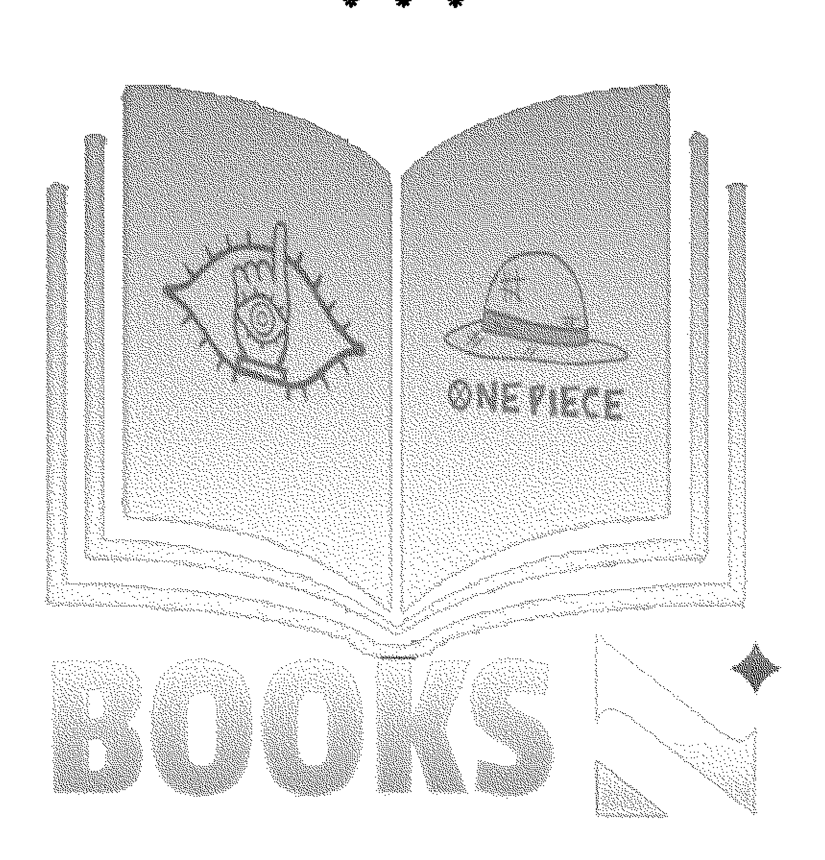
ثم انصرف مع زملائه تاركًا في نفسي سؤالًا: لماذا يكون دائمًا يومنا الأول في أي مدينة هو الأسوأ على الإطلاق؟!

وعدنا أنا و(ليث) إلى المنزل، بينما ذهب الشيخ (دومة) مع بعض الجراهمة لمقابلة (عمرو بن الحارث الجرهمي) في سقيفته.

وحين وصلنا إلى المنزل لم نجد فيه (دعس) ولكني رأيت جرَّةً زرقاء من الجِرار الإدومية مكسورة ومحطمة على عتبة الباب، أزاح (ليث) حطام الجرَّة بقدمه دون أن يعيرها اهتمامًا، ولكنني وقفت أمامها لبرهة أتأملها، أثار حطام

الجرَّة في نفسي ظنونًا ورفع بعضها إلى درجة المخاوف، جريت إلى غرفتي في سرعة وفتحت بابها، توجهت إلى الصندوق وانحنيت أفتحه، كان كل شيء على ما يرام، أغلقت الصندوق وجلست على الفراش وأنا أتنهد، شعرت بلوم على سوء ظني، ولكن هاجسًا ظل ينخسني بأننا نؤوي ذئبًا في دارنا.

* * *



الورقة التاسعة والثلاثون

الأيام التالية كانت هادئة، افترشنا الأرض، ووضعنا بضاعتنا في مكان لا يبعد كثيرًا عن موضع أحداث اليوم الأول، في مواجهتنا نرى البيت الذي لا ينقطع عنه الطائفون والعاكفون وإلى اليسار نرى تمثالي (إيساف) و(نائلة)، اللذين لا ينقطع عنهما الزائرون أيضًا. الناس تنتهي من طوافها ثم تذهب لرؤية آية الرب التي حلت عقابًا على المخطئين، السوق في «بكة» هي المنتهى التي تجمع الجميع، الغريب عن المكان يدرك مع اللحظة الأولى أنه لولا البيت لما كانت «بكة»! لا شيء يغري في هذا الوادي المقفر. لا بد وأن أبانا (إبرام) قد تعجب من اختيار الرب لهذا المكان الموحش المحاط بالجبال كي يبني فيه بيته! أشعر الآن بأن هذا البيت هو خبيئة الرب، التي أمر نبيه بإخفائها في عمق الصحراء بعيدًا عن أعين الممالك، حتى إذا تدنست بيوته الأخرى، وجد المؤمنون لهم بيتًا يعبدونه فيه.

السوق هنا تختلف عن سوق بصرى، لا حوانيت من الحجر، ولا صوامع ضخمة، وإنما خيامٌ تنصب وأمامها تفرش البضائع. وتختلف أحجام الخيام بحجم ثراء صاحب البضاعة؛ خيمة (عمرو بن الحارث الجرهمي) لم تكن بعيدة عنا، الخيمة كبيرة بديعة كمنزل أقيم من القماش، أمامها فرشت بضاعته التي يقوم ببيعها أقاربه وأبناء عمومته، إلى جوار الخيمة ربطت خمس نوق فُقئت عين لكل واحدة منها، علمت أن هذا مقياس لثراء الشخص، كل

عين مفقوءة تعني ألف ناقة! أي أن (عمرو بن الحارث) يمتلك وحده خمسة آلاف ناقة! لم أره في السوق ولا حول البيت في أيامي الأولى في «بكة»، كان لا يغادر سقيفته المعروشة التي أقامها في مكان قريب اسمه «أجياد»، علمت أيضًا أن هذا المكان هو المكان الذي وطئت فيه جياد جده (المضاض) خيل أعدائه، فأسماه الناس «أجياد».

في ذلك الصباح كنت أقف إلى جوار (ليث) أمام خيمتنا في السوق نتطلع إلى باعة القافلة وهم يبيعون بضاعتنا إلى الناس، أعداد المشترين ليست كبيرة، الناس تُقلِّب في أواني الفخار الإدومي وأعينهم تدور عليها ثم يتركونها ويشترون الحنطة والحبوب، تفقد الزينة قيمتها في أوقات الشدة أو ربما تكن هذه هي قيمتها الحقيقية!

قلت لـ(ليث):

ـ نُخفِّض سعرها قليلًا كي تباع.

قال:

ـ لم يرضَ عمي (دومة) بذلك. قال لي: «لا يهان الذهب إذا لم يجد من يشتريه». أعجبتني مقولته، فهي تُلخِّص ما في نفس الرجل من اعتزاز بنفسه وبضاعته!

قلت لـ(ليث):

ـ أريدُ أن أبدأ عملي في النجارة، من أين لي بالأخشاب؟!

فكر قليلًا، ثم قال:

ـ الأخشاب يأتون بها من شعاب «بكة» ومن أحراش تنمو على مجرى الوادي.

جاءتني فكرة أن أخرج بالعربة في الصباح كل يوم، فأجمع الأخشاب ثم أعود قبل أن يحل المساء، هذا أفضل من الجلوس في السوق بلا عمل حقيقي، فأعداد الباعة تفوق أعداد المشترين!

بعد الظهيرة، عرجت إلى منزل الشيخ (عابر) كي أستأذنه في أن أبدأ عملي

منفردًا، ولعلي اتخذتها ذريعة كي أراه، فقد كان الشيخ (عابر) يلزم بيته أغلب الأوقات، وكأنما أراد أن يعتزل الجدل الدائر بين الناس في أمر «خزاعة» و«جرهم». طرقت الباب ففتحت لي خادمته قالت لي:

ـ الشيخ في قيلولته!

قبل أن أنصرف، جاء صوت الشيخ (عابر) من الداخل:

ـ أدخليه يا أم سعد.

دخلت إلى المنزل المرتب النظيف والبسيط أيضًا، بدا لي أنه أصغر من منزل الشيخ (نابت)، فيه حجرتان فقط وفسحة صغيرة بها خزانة للطعام. دخلت إلى حجرة الشيخ فوجدته ممددًا على سرير يرتفع قليلًا عن الأرض، جلست القرفصاء إلى جواره وقبَّلت يده، رفع يده وربت على كتفي قائلًا:

ـ كيف حالك يا (شمعون)؟!

قلت ممتنًا:

ـ بخير حال طالما إلى جوارك يا شيخي الحبيب.

ارتسمت ابتسامة على وجهه الذي بدا لي أكثر نحولًا عن ذي قبل فأعادت إليه ضياءً غاب عنه منذ مات ولده الشيخ (نابت)، ثم قال لي:

ـ هل تعجبك «بكة» أم لا يزال قلبك معلقًا بالأرض المقدسة؟!

ضحكت وأنا أقول:

ـ قلبي أصبح معلقًا بـ«قادش برنيع»، وبالأرض المقدسة، وبـ«يثرب»، وبـ«بكة» أيضًا. ولا أدري كيف سيتسع لكل هؤلاء؟!

قال وقد زادت ابتسامته:

ـ ذلك قلب المؤمن، لا تسعه أرض ويسع الدنيا بحالِها.

استأذنته في العمل بالنجارة كما عزمت، وأن ابني لنفسي بيتًا منفردًا في أطراف «بكة»، فأذن لي بالأولى ولكنه تردد في الثانية قائلًا:

ـ كن بيننا في الحي ذلك أفضل في الأيام القادمة.

ترددت قليلًا قبل أن أميل على أذنه وأهمس له بشكوكي حول (دعس)، بدا على وجهه عدم التصديق، ولربما ظن أن احتفاظي بالذهب سيجعلني أتشكك فيمن حولي، فقال بصوت خفيض:

ـ إن شئت أحضرت الصندوق إلى هنا!

قلت متحيرًا:

ـ فكرت في هذا الأمر أيضًا ولكني أخشى أن أثير شكوكه نحو الصندوق.

صمت قليلًا ثم تنهد قائلًا:

ـ أراك تثقل على نفسك وعلى الرجل بظنونك يا (شمعون)، ما رأينا منه إلا إخلاصًا وودًّا تجاه ولدنا (نابت).

وحين ذكر اسم ولده، رأيت الدموع تطفو إلى مقلتيه، فآثرت ألا أنبش بكلماتي أحزانه وقلت مغيرًا مجرى الحديث:

ـ أتدري يا شيخ (عابر)، تحدثني نفسي بأن أخرج بليلٍ، فآخذ دقماقي وإزميلي وأنسف رأسي (إيساف) و(نائلة)!

ابتسم وقال:

ـ حتى أنت تصدق ما يقولون!

قلت وأنا أهز رأسي نفيًا:

ـ كلا، ولكني أكره قبح التمثالين، كانت أمي تحدثني عن هيبة تماثيل المصريين وجمالها، ورأيت براعة زوج عمتي (الشامري) في النحت، ولكن هذا القبح المجاور للبيت يزيل عن النفس كل صفاء بعد الطواف، ومما يزيد من قبحهما تلك الروايات التي يتداولها أنصار «خزاعة» تحت أقدام التمثالين.

هز رأسه تأسفًا، فتابعت:

ـ أتدري يا شيخ (عابر)، أن أعداد الناس حول التمثالين تفوق أعداد

الطائفين أحيانًا؟! وأكاد أقسم أنني أرى في عيونهم رهبةً وخوفًا أمام التمثالين أكبر من تلك التي أراها على وجوههم أثناء الطواف، ينظرون إليهما على أنهما آية من آيات غضب الرب، ويخشونهما ويقفون أمامهما بخشوع يفوق خشوعهم في الصلاة.

قال في أسف:

ـ شجرة الإفك تترعرع حين تُسقى بماء الكذب، ويمد الشيطان في ظلها!

ثم انقبض وجهه حزنًا وهو يتابع:

ـ لن تنتهي تلك الفتنة على خير!

قلت له:

ـ وما العمل؟

قال:

ـ تُصلح «جرهم» من شأنها، فالناس تميل إلى العدل، فإن لم يجدوه، مالوا إلى القوة أملًا فيه، ولا خير في إذا قدمت القوة على الإصلاح، اسمع يا بني! اجعل نهجك في الحياة الإصلاح ما استطعت؛ فذاك هو نهج الأنبياء.

قلت مترددًا:

ـ وماذا إذا بغى الشر، أما يحتاج الأمر إلى قوة للقضاء عليه؟!

قال:

ـ اجعل قوتك في تقويم المعوج لا في كسره! لو أراد الله لنا حياة بلا شرور لما أتينا إلى هذه الدنيا.

قلت:

ـ النفس تميل إلى النيل ممن ظلمها، ولسنا حجارة بلا أرواح.

قال:

ـ ذلك حديث الشيطان، يغري به صاحبه، كي يبدل عليه غايته. من أراد الخير عفا وأصلح عند المقدرة.

قلت دون قصد:

ـ أراك تميل إلى الصبر على «جرهم»، وتتوجس من أمر «خزاعة»، فلماذا لا تنضم إليهم في (سقيفة عمرو بن الحارث)؟ أرى الشيخ (دومة) يجمع رؤساء القبائل من الحجيج، ويخطب فيهم كي يستميلهم إلى حلف يجابهون به «خزاعة».

شعرت بخطئي حين رأيت على وجهه الغضب لأول مرة منذ رأيته في «رسّه» وأنا طفل صغير، أغمض عينيه، ثم فتحهما وهو يرفع رأسه إلى عريش السقف وكأنه ينفث غضبه في الفضاء، صمت لحظات ثم قال وهو يمسك عصاه المستندة إلى الحائط بجوار سريره:

ـ خذني إلى سقيفة (عمرو بن الحارث) يا (شمعون).

دخلنا إلى سقيفة «أجياد» التي أقامها عمرو بن الحارث، السقيفة أشبه بقاعة حكم يصعد الداخل إليها على درج يقف أمامه عبدان حبشيان منتفخا الصدر مفتولا العضد، سمحا لنا بالدخول فقط حين عرفا مني أن الشيخ (عابر) هو والد الشيخ (دومة)، القاعة من الداخل تتراص على جانبيها الأرائك الخشبية الموسدة بفراء الغنم يجلس عليها بعض الرجال الذين بدوا من هيئتهم وكأنهم من علية القوم. في صدر القاعة كانت هناك أريكة كبيرة يجلس عليها شاب يكبرني بخمس سنوات أو تزيد، بدا لي من فخامة ملبسه أنه (عمرو بن الحارث) الجرهمي، الحجرة مسقوفة بالخشب المعشق، وتتدلى من ألواحها قناديل أربعة، وعلى جدرانها علقت سبعة سيوف لامعة وسبع دروع صلدة، لم أدر ما السر في هذا العدد تحديدًا ولم أتوقف عنده كثيرًا حينما وقع بصري على غزالتين من الذهب وضعتا إلى جوار أريكة عمرو، يخطف بريقهما الأبصار وتتلألأ جوهرتين في موضع العينين منهما.

سكت الجميع لدخول الشيخ (عابر)، وقام (دومة) من مجلسه فقبل يد

أبيه وأجلسه على الأريكة مكانه، بينما وقفت أنا إلى جوار الباب، فلم يدعني أحد للدخول، هممت بالخروج ولكن الشيخ (عابر) قال لي:

ـ انتظر يا (شمعون)، فلن يطول مقامي هنا.

انتظرت وأنا أنظر بطرف عيني إلى نظرات الشيخ (دومة) غير المرحبة.

قال (عمرو بن الحارث) في لهجة مهذبة وصوت رخيم:

ـ يسعدنا طول مقامك معنا يا شيخ (عابر).

قال الشيخ (عابر) بحسم ووضوح:

ـ حقًّا! لو كان في مقامي سعادة لدعيت إلى هذا الجمع من قبل أن يبدأ.

همَّ (عمرو بن الحارث) بالحديث، ولكن الشيخ (دومة) كان أسرع فقال:

ـ الأحداث تتسارع يا أبتاه، ولم يتسع الوقت لإخبارك بالأمر.

طرق الشيخ (عابر) بعصاه على الأرض بقوه وقال:

ـ الأحداث أسرع من أن يحط بها شيخ (بني يطور) أم أن الأمر قد صار بيدك؟!

تراجع (دومة) أمام غضبة أبيه، وأسرع (عمرو بن الحارث) فقال:

ـ معاذ الله يا شيخنا! أنت كبير بني يطور، وما كنا لنقطع أمرًا دون أن نسمع منك الرأي والمشورة.

صمت الشيخ (عابر) لحظات هدأت فيها أنفاسه ثم قال:

ـ وإلامَ انتهي العزم؟!

همَّ الشيخ (دومة) بالحديث ولكن (عمرو بن الحارث) أشار بيده ليسكته وقال في لهجته الودودة التي أطفأت غضب الشيخ (عابر) قليلًا:

ـ هؤلاء هم سادة ورسل «بني لخم» و«جذام» و«طيئ»، وأنتم سادة (بني إسماعيل) من بني قيدار وبني يطور! اتفقنا يا شيخ (عابر) أن نحفظ للبيت حُرمته، وألا نرفع السيف إلا إذا بُغِي علينا.

قال الشيخ (عابر):

ـ وماذا عن باقي قبائل (بني إسماعيل) العشرة؟!

قال (عمرو) وقد تبين لي أنه مُفَوَّه، يجيد الحديث:

ـ هم أصهارنا ودماؤهم حرام علينا إلا إذا لم يراعوا حقها!

قال الشيخ (عابر) لائمًا:

ـ أبعد العهد وولاية البيت، تثيرون الفتنة كي تتمسكوا بملك زائل وتدفعون بفتنتكم (بني إسماعيل) للقتال بسيوفهم؟

شعر (دومة) بالحرج من كلمات أبيه، وصمت (عمرو بن الحارث) قليلًا ثم ابتسم وقال في هدوء:

ـ وهل خُنَّا العهد أو قصَّرنا في الولاية يا شيخ (عابر)؟! ما كان لحيٍّ غيرنا أن يفخر بمثل ما أديناه للبيت من حقوق.

قال الشيخ (عابر) منفعلًا:

ـ هنا مربط الفرس يا (بن الحارث)! إنه الفخر! أنتم تفاخرتم على الناس بولاية البيت ولم تصونوا عهد (قيدار بن نابت) حين عهد بالولاية إلى جدك (المضاض)، فرضتم على الناس العشور والمكوس، واستحللتم أموال البيت لأنفسكم ومنعتوها عن الحجيج.

صمت (ابن الحارث) مبهوتًا، وتابع الشيخ (عابر):

ـ قل لي يا (بن الحارث)، من أين أتيت بتلكما الغزالتين الذهبيتين؟!

ارتبك الشاب قليلًا ثم قال:

ـ أهدتها إلينا قبيلة من الجنوب قربانًا للبيت!

ثم عقب الشيخ (دومة) وقد فهم ما يرمي إليه أبوه:

ـ وضعنا الغزالتين في السقيفة، خشية أن يسرقها أحدهم من البيت.

هزَّ الشيخ رأسه أسفًا ويأسًا وقال:

ـ وما حاجة بيت الرب للذهب والفضة، ومن حوله يطوف الحجيج جوعى ومرضى، أطعموا هؤلاء فهم زينة البيت بحق.

ثم قام الشيخ (عابر) وألقى إليه برداء النصح الأخير ليستر به خجله قائلًا:

ـ اسمع يا بُني، قد كان أبوك رفيقًا لأبنائي، واستبشرت به خيرًا حين تولى ولاية البيت لكن القدَر لم يمهله طويلًا، فعسى أن تقيم العدل بين الناس كما كان يطمح أبوك، واعلم أن لقمة تضعها في فم جائع خير لك من سيف تضعه في يد فارس.

ثم قال وهو ينظر إلى ولده (دومة):

ـ أما أنا فأعتزل بيتي حتى تزول تلك الفتنة، فمن أراد أن يتبع أمري من (بني يطور) فليتبعه، ومن أراد أن يسير في طريق الغي فليسر، فالكل مرهون بما كسب.

ثم أشار إليّ وقال:

ـ هيا يا (شمعون)، خذني إلى داري.

سِرْت إلى جواره، وأنا أسند ساعده إلى ساعدي، ورغم وهنه شعرت بمدد من قوته يتسلل إلى جسدي، فرفعت رأسي في عِزَّة، وخرجت في حال غير الذي دخلت به، وبينما كنت أهبط الدرج ألقيت نظرة على (عمرو بن الحارث) الذي أراح خده إلى قبضته، وقد بدا عليه الوجوم، وتذكرت قول الشيخ (عابر): «اجعل قوتك في تقويم المعوج لا في كسره».

* * *

الورقة الأربعون

في خلال أسابيع قليلة، جمعت قدْرًا لا بأس به من الأخشاب، كنت أخرج كل صباح بعربتي التي تجرُّها بغلة عفية إلى شعاب «بكة»، فأقضي النهار في قطع الجذوع والأفرع، ساعدني في ذلك أن الأشجار في الشعاب صغيرة نحيفة لا تحتاج إلا لفأسٍ ويدٍ تُجيد الضرب في موضع واحد دون خطأ. أكسبتني تلك الحِرْفة قوة في ساعدي وصدْري، ولفحتني الشمس في ذهابي وإيابي فمنحتني سُمْرة، جعلت (ليث) يسخر منها قائلًا:

ـ صِرْت كالعبيد الأحباش في سمرتك وقوة بنيانك، احذر من أن يبيعك عمي (دومة)!

وصنعت لي عريشًا في طرف حي (بني يطور) بعيدًا عن المنازل، وضعت به الأخشاب التي جمعتها على مدار شهر كامل واتخذته مقرًّا لحرفتي، بدأت بصنع الصناديق، فهي بسيطة الصنع وزهيدة الثمن، ودائمًا ما تجد من يبتاعها، كنت أمكث اليوم كله في عريشي، أقطع الألواح، وأجمعها، وكلما فرغت من صندوق صقلته بالرمل حتى ينعم، ثم طليته بالصمغ الأصفر، حتى تجمع لديَّ عشرة صناديق، حملت الصناديق العشرة على عربتي الخشبية وخرجت لبيعها لأول مرة، تجنبت الوقوف في السوق وانتظار المشتري وفضَّلت أن أطوف بها في الطرقات بين الأحياء، فأغلب النساء يحببن الصناديق، والقليل منهن يذهبن إلى السوق، مررت بجمع من النسوة، في حي قيدار، امرأتين وفتاتين،

كن يتحدثن أمام إحدى الدور حين رأين العربة، رفعن خمرهن فوق رءوسهن وهن ينظرن إلى الصناديق بتعجب، رفعت صوتي دون أن أنظر إليهن:

ـ «صندوق العروس، أبيع صندوق العروس».

نادت أكبرهن سنًّا:

ـ بكم تبيعه يا فتى؟

قلت:

ـ بثلاث فِضِّيات يا خالة!

بدا أن السعر قد أغراها، فأشارت إليَّ كي أقف، ثم قامت من جلستها في صعوبة وهي تتوكأ على كتف إحدى الفتاتين، أحطْن بالعربة وأخذْن ينظرن إلى الصناديق بإعجاب، ورأيت الفرحة في عيني إحدى الفتاتين، فخمنت من فرحتها أنها على وشك الزواج. قالت المرأة العجوز:

ـ فضية واحدة تكفي يا ولدي!

قلت مبتسمًا:

ـ قد غبنتِي ولدك يا خالة! أفلا جعلتيها اثنتين؟!

ضحكت قائلة:

ـ وجهك بشوش ولسانك رطب يا بني، أعطيك فضية وقدحًا من بُرٍّ!

لم أستطع أن أجادلها، نزلت من العربة، فحملت الصندوق ووضعته أمام باب الدار، فناولتني الفضية، وقدح البُرّ وهي تدعو لي بالرزق والمحبة بكلمات ما زلت أذكرها:

ـ فتح الله لك أبواب رزقه، وحبَّب فيك القريب والغريب وسائر الطريق!

فرحتي بالفضية وقدح البُرِّ كانت كبيرة، أولى بركات «بكة» عليَّ، أصبحت أطوف كل يوم بين أحياء «بكة» ودروبها، رافقني (ليث) في بعض هذه الجولات وكان يدلني على أيسر الدروب، عرفت أسماء الأحياء والجبال المحيطة بـ«بكة»؛

«قعيقعان» و«أجياد»، و«الحجون»، و«أبي قبيس»، وعرفت لماذا سمي كل منها بهذا الاسم! حقًّا إن هؤلاء القوم يحبون الفخر كما يتنفسون!

عُدْت في أحد الأيام وقد انتهيت من بيع الصناديق كلها، أربط حول وسطي كيس نقود به عشرون فضية، وأحمل على عربتي جرتي عسل وعشر بيضات وقدحًا من تمر حصيلة يوم واحد!

دخلت الحي الخالي بعد الظهيرة، واتجهت إلى المنزل، البيت عادةً ما يكون خاليًا في هذا الوقت، يمكث (ليث) في السوق حتى نهاية اليوم، أما (دعس) فيعود في وقتٍ متأخر من الليل، وأحيانًا لا يعود، وجد (دعس) نفسه في أجواء الحرب المرتقبة، فمحارب قوي مثله يصبح له شأن بارز في أوقات الاضطراب، وتقدر خدماته بأموال ليست بالقليلة.

حين دلفت من الباب وجدتُه يجلس على الأريكة، يرتدي جلبابًا قصيرًا تحته سروال ضيق ويتمنطق بحزام من الجلد يتدلى منه حسام قصير وفي يده خنجر صغير يزيل بطرفه ما تراكم من أوساخ تحت أظافره.

ألقيت التحية، وهممت بالدخول إلى حجرتي، ففُوجئت ببابها مفتوحًا، دلفت مسرعًا وألقيت نظرة على الحجرة، فوجدت أغراضي ملقاة على الأرض وصندوقي مفتوح، ويبدو أنه قد عبث به قبل دخولي.

قبل أن أستدير فوجئت به يدفعني إلى الحائط، ثم يجثم بساعده على صدري، غرز نصل خنجره في عنقي حتى أدماه، ثم اقترب بوجهه مني، وقال بكلمات تفوح منها رائحة الخمر:

ـ أين الذهب؟!

حاولت أن أدفعه ولكنه ضغط بساعده وكوعه أكثر على صدري حتى شعرت بأن ضلوعي تتحطم وغرز النصل أكثر حتى ظننته سيخترق عنقي.

قلت وأنا أتلقف الهواء بصعوبة:

ـ أي ذهب! أنا لا أملك شيئًا.

قال في جنون:

ـ الذهب الذي وضعته بيدي في الجرار مع (شهبور)! من نقلَه وأين ذهب؟!

قلت وأنا بالكاد أستطيع أن أتنفس:

ـ لا أدري عن أي شيء تتحدث!

قال في ترهيب:

ـ حقًّا! لا تدري عن شيء أتحدث! وماذا عن هذه الرسالة.

ثم رفع النصل عن عنقي وأخرج من جيبه رسالة (شهبور) وهو يقول متهكمًا:

«ليكن السر بينك وبين الشيخ (عابر)، إن مت فالمال لكما، وإن عُدتُ فلك الربع مما حفظت»، ثم صرخ في جنون:

ـ أنت كاذب أيها العبراني، أنت لص وكاذب!

ثم طوى الورقة ووضعها في فمي، قاومته ولكنه أطبق على عنقي بيده اليسرى في قوة وظل يدفع بالرسالة في فمي حتى شعرت بالاختناق وهو يصرخ في جنون:

ـ لص وكاذب، وتستحق أن تموت لكذبك.

مادت بي الأرض وشعرت بقرب الهلاك، ومنحتني الرغبة في البقاء قوة جمعتها في ساقي فركلته في بطنه فأطاحت به الركلة خطوات للوراء، وقبل أن يسحب حسامه هويت على رأسه بجرة العسل، فسقط على الأرض تختلط دماؤه بالعسل، وسقطت أنا إلى جواره من الإعياء، تنزف الدماء من عنقي، وأتلقف الهواء بجهد بالغ وضلوعي تكاد أن تنخلع مع السعال.

جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى الحائط، وقد استسلمت لما قد يحدث. العجيب أنه بعد أن اعتدل من ترنحه، لم يُجْهِز عليَّ بل أخذ يحبس دماء رأسه بيده ثم جلس على الأرض وأسند ظهره إلى الحائط المقابل لي تاركًا الخنجر إلى جواره وحسامه في غمده، وكأنما قرر أن يمنحني هدنة، قال وهو يمسح

الدماء والعسل عن وجهه بطرف ثوبه:

ـ لو كان معك سيف لقتلتك الآن، فأنا لا أجهز على رجل أعزل.

قلت في تهكم: وددت لو أتبعه بضحكة ساخرة ولكن حالة ضلوعي لم تسمح لي:

ـ ولكنك تقتله خنقًا.

قال وهو يقطع جزءًا من ثوبه ضغط به على جرح رأسه النازف:

ـ لم أنوِ قتلك، أنا أعاقبك فحسب لأنك كاذب.

قلت في جرأة غير هياب:

ـ وأنت خائن!

رفع حاجبه ونظر إليَّ شذرًا وكأنه يحذرني من التمادي، ولكني لم ألتفت إلى تحذيره وأردفت:

ـ تخون صديقك وتطمع في أمواله، ولا شك عندي في أنك ما تركته إلا لأجل هذه الأموال.

صمت قليلًا ثم قال مستنكرًا:

ـ أخون صديقي!

ثم ضحك ضحكة قصيرة وهو يقول متهكمًا مكررًا عبارته:

ـ أخون صديقي!! اسمع أيها الفتى! تبدو لي مخلصًا شجاعًا ولكنك غرٌّ تحمل في صدرك قلب طفل لم يرَ بعد غدر الأيام ولم يذُق قهر الرجال.

سكت قليلًا ثم قال:

ـ أتدري ماذا فعلت كي أحفظ صديقي الذي تتهمني بخيانته؟ قد تركت بلدتي «غرندل» بسببه للأبد! «غرندل» التي عشت فيها أربعين عامًا من حياتي لا أعرف لي وطنًا سواها! أتدري ماذا فقدت أيضًا بسببه؟ فقدت رجالي وخلعوني من رئاستهم وطردوني من الحِجر! قالوا: إنني أضعت «غرندل» التي استعصت

على الغزاة لعشرات السنين. أتدري ما هي ثالثة الأثافي؟! قد فقدت جاريتي التي أحبها! وقتلتها بيدي حتى لا تقع أسيرة في يد المرتزقة!

صمت قليلًا وكأنما اختنق صوته حين ذكرها ثم قال:

ـ قل لي أيها الغرُّ أي مالٍ يعوض فقدان الوطن والأصدقاء والحبيبة؟!

شعرت بالشفقة عليه، لم أكن أتخيل أن يحمل في قلبه كل هذه الهموم، بل لم أكن أتخيل أن يحمل في صدره قلبًا يشعر ويتألم. عجبًا! حتى قساة القلب تلين قلوبهم أحيانًا تحت وطأة الألم.

قلت رغم ذلك:

ـ وهل يشفع لك ذلك أن تستولي على أموال صديقك؟

لمعت عيناه وكأنما نسي ما به من حزن عند ذكر المال، وقال:

ـ المال سيجعلني أملك الرجال والسلاح، وأعود إلى بلدتي مرة أخرى كي أطرد منها المرتزقة المحتلين.

قلت:

ـ ولكنه ليس ملك لك.

قال في غضب أخافني:

ـ ولن يكون ملك لأحد أيها الغبي! أنا أحق الناس به! أتظن أن (شهبور) وعمرو سيعودان؟!

نظرت إليه مصدومًا، فقال وهو يحرك سبابته في الهواء:

ـ هل تظن أن سفن (هدد بن بدد) لن تلحق بهما؟ لم تنجُ سفينة منه من قبل أيها المعتوه! إن لم يكونا غرقى الآن في خليج لحيان تأكلهما الأسماك، فلا بد أن يكونا أسرى في سجون (هدد بن بدد) يلاقيان أشد العذاب.

انقبض قلبي لكلامه، وقلت في غضب وحزن:

ـ كنت تعلم بذلك ولهذا تركتهم يذهبون وحدهم!

قال:

ـ تركت لهم الفرصة الأكبر في النجاة!

أطرقت حزينًا فقال محاولًا استمالتي:

ـ لو كانا في سجون «إدوم» الآن، فلا سبيل لنجاتهما إلا بأن أعود بالسلاح والرجال، فقط أحتاج المال لذلك.

لم أجبه، فأردف في خسة:

ـ إن لم يكن المال معك فهو مع الشيخ (عابر)، ولا أريد أن ينال الشيخ الجليل أذى!

أصابني تهديده بالخوف، ولكنني تماسكت ولم أظهر له شيئًا منه وأنا أقول:

ـ لن تجد المال مع الشيخ (عابر)! فقد ذهب المال إلى من يقدر على حمل الأمانة!

انتفض جالسًا على ركبتيه وكأنما لدغه عقرب وقال:

ـ مَنْ؟ تكلم؟

قلت في شماتة:

ـ (عمرو بن الحارث الجرهمي)! أعطاه الشيخ (عابر) المال يوم عدنا، قال له: إن عاد (شهبور) رُدَّ إليه ماله، وإن لم يعد فالمال قربان للبيت ينفقه كيف يشاء!

قام من جلسته وانطفأ بريق الأمل في عينه وحلَّت مكانه الخيبة، عض على شفته بغيظ حتى أدماها، ثم بصق بصقة اختلطت فيه دماء شفته ووجهه ثم انصرف.

بعد ساعات عاد (ليث) من السوق، رآني وأنا لا أزال على جلستي يبدو على وجهي الألم، وقد تمزقت ملابسي وآثار الدماء لا تزال عليها، انزعج فهرول تجاهي قائلًا:

ـ ما بك يا (شمعون)؟!

قلت في ألم وأنا على يقين بأن أحد ضلوعي قد تحطم:

ـ هاجمني كلب عقور في الحي الخالي عند الظهيرة!

قال (ليث) منزعجًا وهو يساعدني على النهوض:

ـ حقًّا! وهل لا يزال الكلب طليقًا في الحي؟!

قلت وأنا أستند إلى كتفه:

ـ قد أصبته في مقتل، وأظنه سيفر إلى الصحراء بلا رجعة.

دخلت إلى الحجرة فخلعت ملابسي الملطخة ولففت صدري بثوب عدة مرات فجبر ما به من ألم، شكرت (ليث) واستأذنته في أن يتركني لأستريح، أغلقت باب الحجرة، ثم جثوت على ركبتي متألمًا أمام الصندوق المفتوح، جذبت المقبض السري في زواياه فاستدار قاع الصندوق لأعلى، رأيت سبائك الذهب تتلألأ تحته فحمدت الرب كثيرًا ثم أعدت المقبض إلى موضعه وأغلقت الصندوق، قمت بصعوبة واتجهت إلى سرير (أروى)، ألقيت بجسدي عليه مستنزف القوى، لوهلة شعرت بها إلى جواري تتحسس موضع دائي، أصابني طيفها بالخدر فلا أدري أأدركني النوم من خدر طيفها أم من شدة إعيائي؟!

في اليوم التالي ذهبت إلى منزل الشيخ (عابر) القريب محتملًا آلام صدري، حين رآني تعجب، وسألني عن جرح رقبتي فأخبرته بما حدث، شعر بالحزن والخوف على (شهبور) و(عمرو بن دومة)، واستحسن صنيعي أو كذبتي فقال لي:

ـ أجرى الرب على لسانك ما كنت أنوي فعله بالمال، فقد عزمت أن أحفظه حتى يعود (شهبور)، ونذرت إن لم يعد (شهبور) أن أنفقه على الحجيج.

سألته:

ـ أتحب أن أحمله إلى (عمرو بن الحارث الجرهمي)؟

هز رأسه نفيًا وقال:

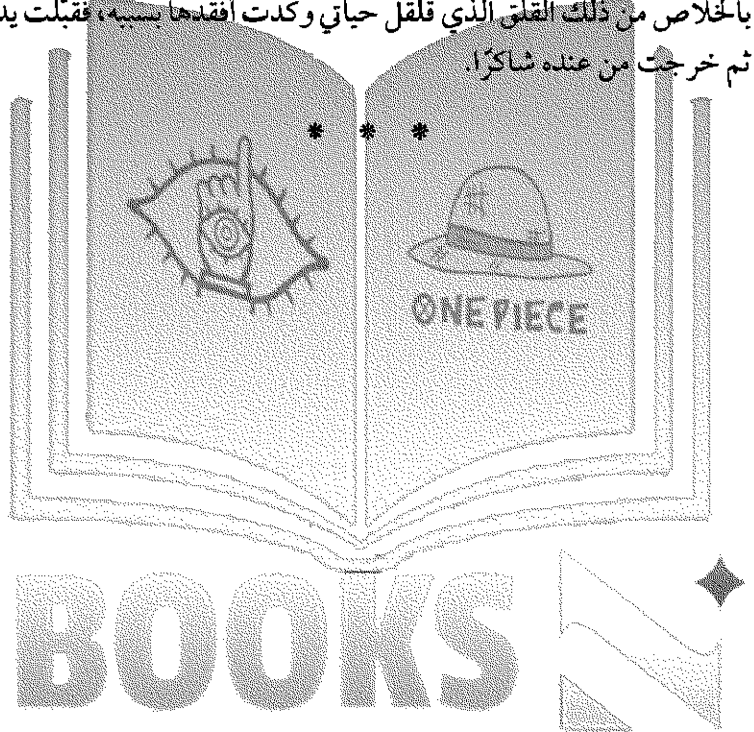
ـ إياك يا (شمعون)!! لو استطاع (عمرو) أن يبدد الغزالتين لينفق بهما على حربه لفعل!

نظرت إليه متحيرًا، وشعر هو بثقل الأمانة التي أحملها وأشفق على منها، فصمت قليلًا مفكرًا ثم قال لي:

ـ اقترب يا (شمعون)!

أدنيت رأسي منه فهمس في أذني بكلمات، لمعت لها عيني، وشعرت فيها بالخلاص من ذلك القلق الذي قلقل حياتي وكدت أفقدها بسببه، فقبَّلت يده ثم خرجت من عنده شاكرًا.

* * *



الورقة الحادية والأربعون

مرَّ أسبوعان تحسنت فيهما آلام صدري ولكن ليس للدرجة التي أستطيع معها قطع الأشجار، اكتفيت في تلك الأيام بالخروج مع (ليث) إلى السوق، وأحيانًا كنت أذهب وحدي للطواف بالبيت، أو الجلوس في حلقات الشعر التي بدأت تتزايد بين «الصفا» و«المروة»، فـ(عمرو بن الحارث الجرهمي) كان شاعرًا مفوهًا، وشجَّع ذلك الشعراء للجلوس في حلقات يتبارون فيها بالكلمات المنظمة التي تنتهي أواخرها بحروف لها رنين كضربات الصنج، استهوتني تلك الحلقات، وكنت أنبهر ببراعة بعض الشعراء وأتمنى لو أحاكيهم، رغم عدم فهمي لبعض الكلمات.

لم أرَ (دعس) في تلك الأيام، فهو لم يعد إلى البيت مرة أخرى، ولم تكن له أغراض بالبيت كي يعود إليها، أخبرني (ليث) أنه يراه دائمًا في حي «أجياد» يحوم حول سقيفة (عمرو بن الحارث)، ولم ينسَ أن يذكر تعجبه من تلك الصداقة التي نشأت بين (دعس) وبين الشيخ (دومة)، حتى صار يرافقه كظله.

وفي صباح أحد الأيام علت في السوق جلبة، ورأيت رجال «جرهم» يتمنطقون بالسيوف، وتكاثفت الحركة عند سقيفة (عمرو بن الحارث)، فقد سرت أنباء أن قافلة لـ«خزاعة» سوف تصل إلى «بكة» في غضون أيام يتقدمها سيد قبيلة «خزاعة» (عمر بن لحي)، وعلمنا أن القافلة تستقر الآن في وادٍ خارج «بكة» اسمه «بطن مرّ». لم ينقطع زيت القناديل عن سقيفة

(عمرو بن الحارث) ثلاثة أيام متتالية، فقد كان رؤساء القبائل يصلون الليل بالنهار للتشاور في أمر القافلة، انقسمت الآراء حول ما يجب عمله؛ رأى سادة «جرهم» ـ ومعهم الشيخ (دومة) ـ أن هذا إعلان للحرب، ورأى آخرون ومنهم «بني قيدار» و«كندة» أن القافلة آتية للتجارة، وأن هذا أمر معتاد في الأشهر التي تسبق الحج مباشرة، وأنه لا ينبغي أن يرفع السلاح حول البيت الآمن، وأن الأمر لا يعدو محاولة من «خزاعة» لإثارة غضب الجرهميين. وقال شيخ قبيلة «كندة لـ (عمرو) محذرًا:

ـ نعينكم على الحرب ولكن لن نرفع سيوفنا على قوم قصدوا منافع البيت في الأشهر الحرم.

واستقر الرأي على أن يُرسل وفد من نقباء القبائل من ذوي الحِكْمة لمقابلة (عمرو بن لحي) لمعرفة نواياه أولًا، ثم محاولة تحذيره من أي صدام في الأشهر الحرم ثانيًا. واختاروا رجلًا من كل قبيلة، وكان مما أثار عجبي وحيرتي أن رأيت (دعس) ضمن النقباء السبعة الذين اختيروا، عجيب أمر هذا الرجل، يتلون كالحرباء في سرعة ويجيد بناء جسور الثقة مع من حوله أسرع من تبديل ملابسه. وخرج النقباء في غرة شهرهم (الأصم) والذي علمت أنهم يسمونه بهذا الاسم؛ لأنه لا تسمع فيه صلصلة السيوف، ومع ذلك لم تتوقف طرقات المطارق على السنادين، تسحق تحتها الحديد المحمي، فتُشكِّله سيوفًا ومتاريس، بأعداد لم أرَ مثلها من قبل وكأن الحرب التي أوشكت نذرها قد صارت أمرًا واقعًا لا محالة.

وأوحيت إلى (ليث) أنه من الضروري أن نقوم بتأمين البيت، فنحن لا ندري ما الذي قد تحمله الأيام القادمة، ومنحتنا أيام الترقب لعودة النقباء فرصة للعمل، فقد كسدت الأسواق، وكنز الناس أموالهم تحسبًا لما قد يحدث فلا بيع ولا شراء، جمعنا الأحجار والأخشاب، وبدأنا في إصلاح البيت وتحصينه، قمنا بتعلية جدار البيت أولًا حتى صار من الصعب أن يتسوره أحدهم، ثم أضفنا ألواحًا من الأخشاب وجريد النخل إلى عريش السقف، بعدها قمت

بإصلاح النوافذ وأبواب الحجرات، وأضفت إليها حشوات من الخشب، ثم صنعت لها المزاليج حتى صارت كأبواب الحصون.

وعاد (ليث) ذات مساء فوجدني قد صنعت حوضًا من الحجر في فناء الدار الداخلي حول جذيل النخلة المبتورة، ملأته بالتراب وغرست به عيدان من الريحان فملأ عبيرها الدار وأضفى عليها بهجة تسُر الناظر إليها.

قال (ليث):

ـ تجيد الزراعة أيضًا يا (شمعون)!

قلت ضاحكًا:

ـ أمي كانت تزرع حيضان الفول في دارنا في «قادش برنيع».

ابتسم قائلًا:

ـ لا تفتأ تذكرها بكل فصل أنت فيه!

قلت في شجن:

ـ أرتدي روحها بحُلَّة جسدي.

قال متأثرًا وكأنما تذكر أباه:

ـ وأبوك؟! ماذا ورثت عنه؟!

عجزت عن الكلام! وصمتُّ حتى طال صمتي.. سرت خطوات ثم جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى الحائط فجلس إلى جواري ونظرتُ إلى العريش وأنا أقول له:

ـ أتدري يا (ليث)؟ أنا لم أشعر بقدر ما صنعه أبي لي في حياتي حين كنا في برية سين، لكنني أشعر به وأعيشه الآن، أرى طيفه يسير أمامي، وتطأ قدمي آثار أقدامه في كل خطوة أخطوها، أصبحت الآن أُشْبهه في كثير من الأمور، ناهزت طوله أو أكثر بقليل، حين أرى وجهي في مرآة (أروى) المكسورة، أظن أنني أراه، نفس الجبهة والأنف والعينان، ولولا لفحات الشمس في برية «فاران»

لظل وجهي حنطيًّا كوجهه.. العجيب أن صوتي أيضًا قد اقترب من صوته، وحديثي صار أشبه بحديثه، وأراني أتمثله في غضبي وفرحي ويأسي وبأسي. أظن يا (ليث) أن صفات الأب لا تورَّث؛ لأنها لا تموت، هي تنتقل بحالها في جسد جديد، ما زلت أذكر لحظة موته، أتدري ماذا قال حينها: «الحمد لله الذي ترك بضعة مني سترى الأرض المقدسة». كان يعلم أنني بضعته، والبضعة إذا كبرت صارت كالأصل، أنا لا أفتقده الآن؛ لأنه معي أينما كنت، وكل ما أخشاه ألا أحقق حلمه؛ لأنه حتمًا سيتألم، هل تفهمني؟

لم أسمع إجابته، بل سمعت صوته ينتحب وقد تذكر أباه، ربَتُّ على كتفه ثم شددت عضده بيدي وأنا أقول:

ـ صدقني يا (ليث)، أنا أيضًا أرى فيك الشيخ (ثابت)، ويوم من الأيام ستكون سيدًا لقومك كأبيك، وستحمل بين ضلوعك قلبًا كقلبه يمتلأ رحمة، وحكمة، وعدلًا.

ثم قلت باسمًا:

ـ ولكنك إياك أن تتحدي (لامار) مرة أخرى وإلا أغضبت روح أبيك!

ابتسم وقال:

ـ (لامار)! ليت شعري كيف حال «يثرب» وأهلها الآن؟ أشتاق إلى أمي و(أروى) كثيرًا!

قلت مؤمِّنًا بغير قصد:

ـ وأنا أيضًا نظر إليَّ مندهشًا

فقلت مسرعًا:

ـ أقصد أني أشتاق إلى «يثرب» وبساتينها!

* * *

أشرفت رءوس الإبل من فوق كثبان الرمال جهة الشرق، وملأ صوت رغاؤها الوادي بين جبلي «قيقعان» و«أبي قبيس»، خرج الناس عن بكرة أبيهم إلى سفوح الجبال تتطلع أعينهم إلى القافلة الأكبر في تاريخ «بكة» منذ وطئت وديانها إبل «جرهم».

تقدم الركب عشرون ناقة مفقوءة العين، تنوب كل واحدة منها عن ألف، خطفت العيون المفقوءة أبصار الناس، وظلوا يتهامسون: كيف يمتلك شخص واحد عشرين ألف ناقة؟! لحظات وكانت خفاف الإبل تعلو فوق الكثبان الناعمة، تتأرجح على أسنامها زنابيل الغلال التي تحمل الخير إلى «بكة».

أصاب المشهدُ رجالَ «جرهم» وحلفاءهم بالذهول، انتحى الفرسان جانبًا، وأعادوا السيوف إلى أغمادها، ثم وقفوا إلى جوار العامة والحجيج يتطلعون إلى القافلة التي يتقدمها (عمرو بن لحي) سيد قبيلة «خزاعة» وولده ثعلبة. اكتملت غرابة المشهد برؤية نقباء «جرهم» السبعة يسيرون جنبًا إلى جنب مع (عمرو بن لحي) في مقدمة الركب، توقفت القافلة بالقرب من المسعى، ظل الجميع في مواضعهم بينما قفز (دعس) من فوق جواده وسار خطوات، قبل أن يعتلي صخرة عند أول «المروة» وقف عليها وقال بصوت عالٍ:

ـ أيها الناس، هذا (عمرو بن لحي الخزاعي)، سيد قبيلة خزاعة، قد جاء إلى البيت آمنًا مطمئنًا لا يحمل سلاحًا، ولا يهتك حُرْمة، حاملًا معه قربانه إلى حجيج بيت الله.

ابتسمت ساخرًا حين رأيت (دعس) يتحدث! ها هو يُبدِّل جلده مرة أخرى! خرج نائبًا عن «جرهم»، فعاد يتحدث بلسان «خزاعة»، دار في عقلي سؤال عما إذا كان باقي النقباء قد حذوا حذوه، وإن تشككت في ذلك حينما رأيت التزامهم الصمت ولمحت الخجل في عيون البعض منهم.

جاءت الإجابة من ناحية «الصفا»، فقد علت جلبة، ثم رأينا أشراف «جرهم» على الطرف الآخر يتقدمهم (عمرو بن الحارث) وإلى جواره الشيخ (دومة) وخلفهم مائتا فارس، يرتدون جميعًا زي الحرب وإن كانت السيوف في أغمادها

والسهام في أكنانها، ثم وقفوا قبالة قافلة «خزاعة» في ثبات لا يفصلهم عنها إلا رمية رمح.

تنقلت الأعين بين «العَمروَيْن»، (عمرو بن الحارث) الشاب الذي يحمل على ظهره تاريخ أسلافه في سدانة البيت لثلاثمائة عام، ويقف أمامه (عمرو بن لحي) الرجل المحنك الذي يتطلع إلى مستقبل قومه في الولاية ويريد أن يؤسس لها.

أناخ النقباء الستة الباقون رواحلهم حين رأوا ركب (عمرو بن الحارث) قادمًا، نزلوا عن ظهورها وساروا تجاهه بينما ظل (دعس) على وضعه فوق الصخرة، قال رسول قبيلة «كندة» وكان أكبرهم سنًّا:

ـ يا سادة «جرهم» و«قيدار»، قد جاء سيد قبيلة «خزاعة» مسالمًا، يبغي البقاء في «بكة» حتى أشهر الحج، وقد أعطى العهد بألا يرفع سيفًا أو يهز رمحًا.

صمت (عمرو بن الحارث) قليلًا، ثم نظر إلى رجاله عن يمينه ويساره ثم قال وكأنما قد اتفقوا على ذلك مسبقًا:

ـ و«جرهم» لا ترفع سيفها إلا على الباغي المعتدي، فمن أتى إلى البيت يسأل الأمان فهو في حمانا إلى أن يرحل!

ابتسم (عمرو بن لحي) باستخفاف أطفأ حالة الفخر التي تحدث بها (ابن الحارث)، ثم قال بصوت عميق ظننته يأتي من بطن الوادي:

ـ لا يسأل أمثالنا الأمان! وحمى «خزاعة» هو الحمى يا (بن الحارث)!

انتفض فرس عمرو بن الحارث، وكأنما أغضبته إهانة سيده، فرفع ساقيه الأمامين في الهواء، ثم دار دورتين حول نفسه قبل أن يستقر على الأرض نافرًا في غضب، ثم قال (عمرو) وهو يلهث منفعلًا:

ـ للبيت سدنة يقومون على فرائضه يا (بن لحي)، وفريضة البيت العُشر مما تحملون!

اتسعت ابتسامة (ابن لحي) أكثر وقال في هدوء رجل ينظر إلى طفل منفعل ولا يأبه بما يقول:

ـ وفيمَ تنفقون العُشر يا فتى «جرهم»؟! على الحجيج أم على أنفسكم أم على السلاح؟!

رفع (عمرو) رأسه في شمم، ثم أشار بيده إلى جبال «الحجون» التي تقع على أطراف «بكة» من جهة الشرق وقال:

ـ سَلِ الناس من «الحجون» إلى «الصفا» عما جادت به أيادي «جرهم» عليهم.

ضحك (عمرو بن لحي) ضحكة أطاحت بهيبة (ابن الحارث)، وأشعلت غيظه ثم قال مخاطبًا الجموع من (بني إسماعيل) والحجيج:

ـ انظروا يا أهل «بكة»! ينفقون قرابين البيت على الحجيج ثم يقولون: هذا ما جادت به يد «جرهم» على أهل «بكة».

ثم صرخ في غضب هادر أرهب القلوب:

ـ الجود بما تملك يا (بن الحارث)، وليس بأموال المؤمنين.

صمت الجميع، فللحقيقة سطوع مثل الشمس يؤذي عيون المتعامين عنها، رأيت غضبًا يكسو وجوه بعض الجموع المتجمهرة ونكوسًا أصاب رءوس البعض، عجبًا لأمر هذا الرجل استطاع بغير سيف ولا رمح أن يصيب غريمه في مقتل!

بات جليًّا أنَّ معركة الكلام خاسرة، ومع ذلك غمغم (عمرو بن الحارث) بكلمات لا معنى لها كي يوقف نزيف كرامته فقال:

ـ قل ما شئت! فلن ينكر عِزَّنا إلا جاحد، ثم أنشد في صوت عالٍ كي يسمعه الجميع:

مَلَكْنَا فَعَزَّزْنَا فَأَعْظِمْ بِمُلْكِنَا   فَلَيْسَ لِحَيٍّ غَيْرِنَا ثَمَّ فَاخِرُ

وكأنما أعطى بأبياته الفرصة لـ(عمرو بن لحي) كي يجهز عليه، فألقى

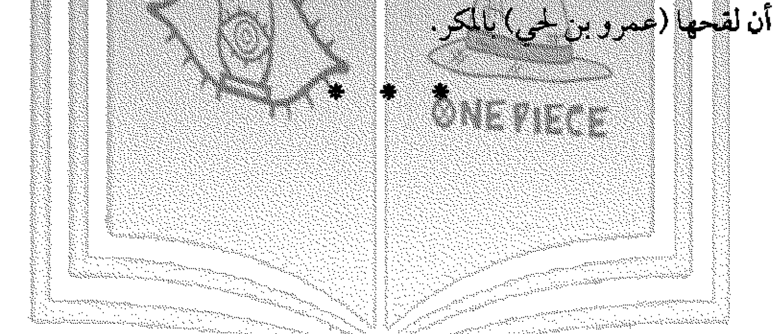
(ابن لحي) بسهمه الأخير قائلًا بصوت فاق صوت عمرو علوًّا:

ـ أيها الناس، ما جئناكم كي نفاخركم بملك أو نمن عليكم بِعز، فلا عز إلا لرب هذا البيت! هذي تجارتنا قد أتينا بها إليكم، لا نقول هذا لنا وهذا لله، بل هي كلها لله، لن يبقي جائع، ولا معتر في «بكة» ولا من حولها، فمن أراد طعامًا أطعمناه، ومن أراد كسوة كسيناه، والفضل لكم ولا منة إلا لله!

ثم هتف في رجاله:

ـ أنيخوا الدواب! فهنا سيكون حي «خزاعة» بإذن الله!

وانطلقت الحناجر الجائعة تهتف لـ(عمرو بن لحي) بالحمد والشكر، وحين أناخ دابته، انطلق الناس إليه يُقَبِّلون رأسه ويده بينما سحب (عمرو بن الحارث) رجاله، يظللهم الوجوم وقد أدركوا أن الأيام المقبلة ستكون حُبْلى بالغدر بعد أن لقحها (عمرو بن لحي) بالمكر.



* * *

الورقة الثانية والأربعون

مرت الشهور، واقتربت أيام الحج في شهر (بُرَك) الذي تبرك فيه الإبل القادمة من كل فج عميق، لتحل معها بركات الحجيج على البلدة التي تهوي إليها الأفئدة، رأيت أصنافًا من البشر لم أرها من قبل واستمعت إلى لهجات شتى لم أفهم معظمها، وعلمت أن بطون العرب من ولد (إسماعيل) أكثر من أن تُحصى، ومع ذلك كان الجميع يطوفون حول بيت واحد، ويلهجون بنداء واحد، ويستترون برداء واحد، ويصعدون إلى جبل واحد، الوحدانية في تلك البقعة كانت هي الشيء الأقدس والأكثر تميزًا، لم يخرق ناموس الوحدانية في ذلك العام شيء سوى الوفادة، فمن قام على وفادة الحجيج في هذا العام كانتا قبيلتين بدلًا من قبيلة واحدة، امتدت خيام «خزاعة»، من نهاية «المروة» وحتى جبل «قعيقعان»، وفيها كان الطعام يعد لإطعام الحجيج، وامتدت خيام «جرهم» من «الصفا» وحتى «بئر زمزم»، ومنها كان الماء يخرج لسقاية زوار البيت.

رغم انشغالي بصنع الصناديق أحيانًا وانشغالي بالبيع بدلًا من (ليث) في السوق أحيانًا أخرى، لم أمنع نفسي من قبسات من النور في تلك الأيام. رافقت الشيخ (عابر) و(ليث) في مواضع شتى حول البيت كانوا يطلقون على كل واحد منها اسم (المَشعَر)، يستحضرون فيها مشاعر تضافرت كأغصان شجرة ملتفة، مزجت بين رحمات تجلت في الماضي ورحمات ترتجي في الحاضر. هنا هرولت الجارية (هاجر) أم (إسماعيل) بين «الصفا» و«المروة»، تبحث عن

الماء لوليدها، تسعى رغم انقطاع الأمل، فيتفجر الماء لسعيها وكأنما ليعلمهم الرب أن السعي معقود على الرجاء، وهناك انتصر أبونا (إبرام) على همسات اليأس ووسوسات التثبيط؛ رجم الشيطان الذي رآه أو استشعره لا أدري، ولكنه انتصر عليه ولم ينثنِ له عزم، وبين هنا وهناك، كان ذلك الجبل الذي يقفون فوقه يعترفون بذنوبهم، ويرجون رحمة ربهم، يتحدثون إليه لا يفصل بينهم وبين أبواب السماء حِجاب.

أما آخر الأيام فكان أعظمها وأجودها، قدمت القرابين إحياءً لذكرى فداء أبيهم (إسماعيل)، امتلأ حرم البيت والأحياء المحيطة به بلحوم القرابين ودمائها، رأيت الأحباش وعبدة الأوثان يأتون من الجنوب، ومن بطون الجبال يرجون أن ينالوا من تلك اللحوم فلم يرُدهم أحد، لم يُسأل أحد عن جنسه، أو قبيلته أو إيمانه، والحق أنني لم أرَ مثل هذا العطاء غير المشروط في برية «سين»، فهنا تتنزل الرحمات بلا شرط ولا انتقاء.

وتنافست «جرهم» و«خزاعة» في الذبائح؛ ذبح (عمرو بن الحارث) في ذلك اليوم خمسين رأس بعير، فرد عليه (عمرو بن لحي) بذبح مائة رأس، فضلًا عن عشرات الذبائح التي قدمتها باقي القبائل قربانًا للبيت، المنافسة بين الأغنياء تعود بالنفع على الفقراء دائمًا حتى ولو كانت رياءً.

كنت أجلس أنا و(ليث) والشيخ (عابر) في خيمة ضمن مخيم أُقيم في وادي بين جبل عرفة وبيت الرب، يستريح به الحجيج بعد يوم عرفة، أعد الطهاة لحم جزور فطعمنا منه وطعمه الفقراء أيضًا. ابتسم (ليث) وقال:

ـ أراك أديت مناسكنا كاملة يا (شمعون)، وكأنك على ملة أبينا (إبراهيم).

لم أتردد في الإجابة، فقلت في غير تردد:

ـ أنا على ملة أبينا (إبرام) يا (ليث)، وظني أنه ما من دعوة تدعو إلى الخير، وتدعو إلى عبادة الرب الواحد إلا وهي دعوة أبينا (إبرام).

رفع (ليث) حاجبيه مندهشًا، بينما انتبه الشيخ (عابر) لكلماتي فقال في حبور:

ـ بارك الربِ فيك يا (شمعون)، أصبت كبد الحقيقة، فإنما هي مشكاة واحدة يقتبس منها الكل نوره.

قلت وقد أمسكت بطرف الخيط من تشبيه الشيخ (عابر):

ـ كنت أنظر إلى النور من قبل من خلال ثقب ضيق يا شيخ (عابر)، أما الآن فالنور يملأ قلبي وبصري.

ثم أردفت:

ـ أتدري يا شيخ (عابر)، لقد رأى أبي ذلك النور رغم الظلام الذي عشناه في برية «سين»، نظر إلى النور من خلال نبي الله (موسى) فملأ الإيمان قلبه، لم يفتح بنو إسرائيل قلوبهم وصدورهم مثله، أوصدوها، فعميت أعينهم عن الرؤية، لو كانوا مثل أبي لكان نور الرب قد ملأ برية سين مثلما يملأ برية فاران الآن.

صمت الشيخ (عابر)، وظل مطرقًا لحظات قبل أن يقول:

ـ من يدري يا (شمعون)، لعل الله يدير مشكاته من «بكة» إلى «سين»!

شعرت بتخوفه مما تحمله الأيام المقبلة فقلت وقد فهمت مغزى كلامه:

ـ أتظن أن «خزاعة» لن ترحل بعد انقضاء الحَج؟

أمال رأسه جانبًا والتفت إلى خيامهم التي ملأت «قيقعان» وقال:

ـ هذه رِحالٌ إذا بركت لم تظعن!

لم أفهم معنى المثل الذي ضربه فأردف مبينًا:

ـ أتى (ابن لحي) بكل ما يملك، وهذا شأن المستقر، وليس المغادر.

قلت:

ـ ولكنه لم يأتِ بفرسان ولا بسلاح.

قال:

ـ ولم يأتِ بولده (ثعلبة).

قلت وقد ساورني القلق:

ـ أتظنه يغير على «بكة» بعد انقضاء الحج؟

باعد بين كفيه قائلًا:

ـ لا أدري، ولكن إن لم يحصل على مراده بالمال، فسيحصل عليه بالسيف.

لذنا بالصمت بُرهة، لا أدري لماذا قفزت إلى مخيلتي صورة العرافة (أم إياس) في تلك اللحظة، تذكرت ما قالته لي في تلك الليلة المظلمة؛ قالت: عما قريب تفقد سندك، وقد تركت (أروى) في «يثرب». ثم قالت: إذا وقع الخطب هناك فانجُ بأهلك. فماذا كانت تقصد بالخطب، أهي تلك الحرب، أم أمر آخر، أم أن الأمر لا يعدو ترهات صادفها واقع يسهل استشرافه؟

انقضت أيام الحج، وقفلت رواحل الحجيج عائدة إلى أوطانها، أدركت وضعًا لم أره من قبل ورأيت حالة بين الناس لم أرها في حياتي في يوم من الأيام، حالة من الرضى والشعور بالربح، فقد ربح الجميع، ربح الناسك، وربح التاجر، وربح الفقير، وربح السادة والأشراف، ربما الوحيد الذي طالته الخسارة كان (عمرو بن الحارث الجرهمي)، لم يخسر مالًا، فما أوتيه من قرابين وهدايا لأجل البيت يفوق قدرة صوامعه على تخزينها، ولكنه خسر مكانة بعد أن بدا جليًا أن (عمرو بن لحي) قد زلزل بجوده وعطائه مكانة «جرهم» في الوفادة.

فرغت «بكة» من ضجيجها وزحامها، وذهبت سحابة الإيمان التي ظللت البيت مع أنفاس البسطاء الذين جاؤه شعثًا غبرًا من كل فج عميق، ولم يبقَ بها إلا سادة العرب الذين اجتمعوا كي يضعوا حدًّا للصراع الدائر على ولاية البيت، جميل أن يكون من بين السادة من يدعو إلى الحكمة، ويهتم لأمر الوحدة، ولكن الخوف من أن تشتري الأنفس بالمال أو أن تمتطي المصلحة جواد الحكمة فتوجهه كيف تشاء!

أقيمت في «قيقعان» سقيفة لـ(عمرو بن لحي)، فاقت سقيفة (عمرو بن الحارث) في «أجياد»، وتردد الوسطاء من ذوي الحكمة بين «قيقعان» و«أجياد» كي يمدوا جسور التواصل بين الزعيمين المتنافرين، وكان من هؤلاء الوسطاء

الشيخ (عابر)، و(الغوث) سيد قبيلة «طيئ». حين رأيت الغوث تذكرت صدره العاري المتهدل في حمام (الحِجر)، وبحثت عيناي عن رفيقه المنمق (زبيد) فوجدته وقد بدا أكثر نحولًا وإن حافظت عيناه على بريق المكر فيهما، أستطيع أن أخمن لماذا وافقت «جرهم» على (الغوث) وسيطًا رغم ما بينه وبين قبيلة «خزاعة» من مصاهرة وعهد. فحديث (الغوث) الذي استمعت إليه في حمام (الحِجر) كان يشي ببغضه لـ(عمرو بن لحي) رغم القرابة بينهما.

اقترح (الغوث) أن تعود «خزاعة» إلى ديارها، وأن تأتي بتجارتها كل عام على أن تعفي من (العشْر) عن دخول «بكة». كان واضحًا أنه يحمل رسالة (عمرو بن الحارث) التي لقنها له. قال (عمرو بن لحي) مؤمنًا:

ـ وكأن غضبة «خزاعة» كانت لمال أو تجارة يا سيد قبيلة «طيئ»!

قال (الغوث) في جدية باطنها التهكم وإن لم يبدُ على وجهه شيء:

ـ وفيم الغضبة إذن يا سيد خزاعة؟

قال (ابن لحي) ململمًا عباءته الحريرية تحت إبطه:

ـ غضبة للبيت الذي انتهكت حُرمته وفجر به الزواني! وغضبة للفقراء الذين يقتص العُشر من أموالهم! وغضبة لأموال البيت وجواهره التي تزين بيوت السادة من «بني جرهم».

قال (الغوث):

ـ وما السبيل لحقن الغضب يا سيد خزاعة؟!

قال (ابن لحي) وهو يلوح بيده في الهواء:

ـ ترحل «جرهم» عن «بكة» ويقوم على أمر البيت من يقدر على خدمته بلا جور ولا ظلم!

ظهر الغضب على وجه (الغوث) وقال:

ـ أمر البيت موكول لـ(بني إسماعيل) منذ أنشأه جدهم يا (بن لحي)، وقد تركوه لأخوالهم من «جرهم» عن طيب خاطر، وإن أُخِذ من «جرهم» لعاد

إليهم، ولا شأن لقبائل العرب بذلك!

قال (ابن لحي):

ـ وماذا لو ترك (بنو إسماعيل) أمر البيت لخزاعة؟!

قال (غوث) في غضب حقيقي هذه المرة:

ـ تكون ألَّبت عليك قبائل العرب يا (بن لحي)! لا فضل لـ«خزاعة» على «كندة»، ولا فضل لـ«كندة» على «طيئ». دع الفتنة نائمة ولا تغتر بشراء الفقراء من (بني إسماعيل) بالمال، فوالله لحجر واحد من البيت أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

تلاقت نظرات الرجلين وتصادم البغض بينهما وقد تكشفت السرائر أمام الجميع، وتحدث الشيخ (عابر)، بعد أن أوشكت شعرة الود على الانقطاع بين الرجلين:

ـ يا سيد «خزاعة»، محمود لك الغيرة على البيت والاهتمام لأمره، ولكن أمر (بني إسماعيل) موكول إليهم كما قال الشيخ (غوث)، ونأبى أن نكون قميصًا تتجاذبه أيدي المتصارعين، وليس لنا في هذا الصراع شأن إلا أمر البيت والحجيج، وحقن الدماء في البلد الحرام، وقد لاقى الحجيج في عامهم هذا من الكرم وحسن الوفادة ما لم يلقوه في أي عام من الأعوام منذ نشأته، فإن شئتم عرضنا عليكم ما ذهب إليه (بنو يطور بن إسماعيل).

استحوذت كلمات الشيخ (عابر) على عقول الحضور، فللحكمة صوت ينصت إليه الجميع، فقال (عمرو بن لحي):

ـ هات ما عندك يا شيخ (عابر).

قال الشيخ (عابر):

ـ ما يُرضِينا أن يطرد أخوالنا من «بكة» أو أن يُنزع عنهم شرَف خدمة البيت وهم من قاموا على أمره ثلاثمائة عام، وإن كنا نلوم عليهم الظلم في فرض العشور على الناس، فإني والله أرى أن يقسم أمر البيت إلى ثلاثة أقسام؛

فتكون الوفادة وإطعام الحجيج لـ«خزاعة»، والسقاية لـ«جرهم»، أما الهدايا والقرابين فيقوم عليها حلف من سادة قبائل العرب ومعهم (بنو إسماعيل)، فينفقون الأموال في أوجه الحق التي فرضها الرب علينا.

لمعت عين (ابن لحي) وكأنما راقه الرأي، وهدأت غضبة (الغوث) ولكن صوت الحمق جاء هذه المرة من الشيخ (دومة) الذي كان يحضر الجلسة نائبًا عن «جرهم» فقال:

ـ نترك بيت أبينا (إسماعيل) لقبائل العرب تتشارك فيه أبناه!

قال الشيخ (عابر) دون أن يلتفت تجاهه:

ـ البيت بيت الرب وليس بيت (إسماعيل)، ويتشارك فيه كل من آمن بالرب.

قال (دومة) حانقًا:

ـ لا تسع «بكة» لـ«خزاعة» و«جرهم»، إما «جرهم» أو «خزاعة».

قال (زبيد) رفيق (الغوث) الذي كان يراقب الحديث بعيني ثعبان طيلة الجلسة دون مشاركة:

ـ صدقت يا شيخ (دومة)، وإن شئت يا سيد (غوث) قدمت الرأي.

أشار إليه الغوث موافقًا، فقال:

ـ تقيم «خزاعة» ببطن المُرّ خارج «بكة» فلا تتجاوزها، فإن كانت أيام الحج أتت بقافلة الوفادة إلى هذا الحي بلا سلاح ولا فرسان.

استحسن (الغوث) الرأي، وتوقعت أن ينبذه (عمرو بن لحي)، ولكنه قال:

ـ لا بأس ولكن بشرط، أن تنزع «جرهم» سلاحها.

قال الشيخ (دومة):

ومن يزود عن البيت ويدفع عنه المعتدين؟!

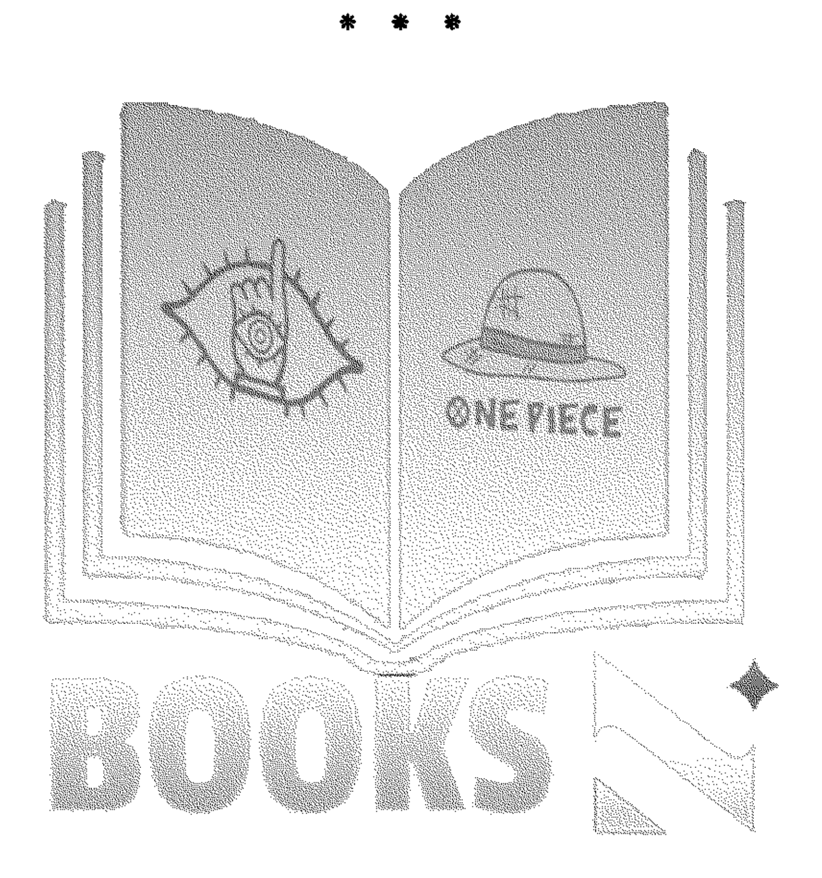
قال (ابن لحي) ساخرًا:

ـ وهل يروم البيت معتدون؟!

ثم قام من جلسته مُنهيًا الحديث وقال:

قد قبلنا بشروطكم يا شيخ (عابر)، ويا شيخ (غوث)، وهذا هو شرطنا الوحيد، تنزع «جرهم» سلاحها، نرتد إلى «بطن مر»، ونحقن الدماء، وإلا فالغلبة لمن غلب.

* * *



الورقة الثالثة والأربعون

مرت الأيام حثيثة الخطى تتلاحق أحداثها في سرعة حتى صِرْنا نصبح على حال ونمسي على حال آخر، لم يقبل (عمرو بن الحارث) في بادئ الأمر بشرط «خزاعة»، ولكنه أذعن في نهايته بالقبول على أن يُنفَّذ في موسم الحج المقبل، ولم يوافق (عمرو بن لحي) بالخروج إلا بعد أن كتبت شروط الصلح في صحيفة، شهد عليها رؤساء القبائل وشهد عليها (عمرو بن الحارث) بنفسه.

وبعد أن جرى الصلح، استعدت القبائل للرحيل عن «بكة»، وودع (الغوث) سيد قبيلة «طيئ» الشيخ (عابر) في منزله، وقال له:

ـ بارك الله فيك يا (أبا ثابت)، حقنت دماء العرب وحفظت للبيت هيبته وشرفه.

قبَّله الشيخ (عابر) في كتفه وقال:

ـ الشكر لك يا سيد «طيئ»، لولاك لتمادت «خزاعة» في غيها!

قال (الغوث) وهو يهز رأسه:

ـ أرجو أن يصدق (ابن لحي) في عهده.

قال الشيخ (عابر):

ـ نسأل الله له ولنا السلامة.

وقبل غروب ذلك اليوم خرجت آخر قبائل العرب من «بكة» ولم يبقَ سوى

«خزاعة» التي جمعت أغراضها، وشدَّت رحالها، وأعلن حاديها أن الرحيل سوف يكون مع شروق شمس اليوم التالي، فودع أنصارها (عمرو بن لحي)، وبدا أن سحابة الفتنة التي قد أظلت البيت سوف تنقشع ولو إلى حين.

في تلك الليلة جلست في الدار على سرير (أروى)، أدوِّن أوراقي على ضوء قنديل من الزيت، وخطر لي أن أسأل نفسي: لماذا أدوِّنها؟ ومن سيقرؤها؟ ولكني لم أجد حقًّا إجابة إلا أن هذه الأوراق هي الشاهد الوحيد على حياتي؛ فكل ما يمر في حياتي متغير، إلا هذه الأوراق، فهي الشيء الثابت الوحيد الذي يربط بين حياتي الماضية وحياتي الحالية. مرَّ وقت طويل حتى اقترب الليل من منتصفه وأنا ما زلت منهمكًا في الكتابة، شعرت بالإجهاد فتمطعت متثائبًا، وبينما كانت ذؤابة القنديل تتراقص وهنًا أمام تثاؤبي، بعد أن كاد زيتُها أن يجف، سمعت صوتًا كحفيف الأرجل خارج البيت، أطفأت ذؤابة القنديل وقد خطر لي أنه ربما يكون (دعس) قد عاد، أنصت قليلًا وألصقت أذني بالجدار، ثم نظرت من فرجة النافذة مستترًا بجسدي خلف الحائط، رأيت بعض الرجال الملثمين، يتهامسون ويحملون في أيديهم المشاعل التي انعكست أنوارها وصنعت ظلًّا داخل حجرتي، انطلقوا جميعًا إلا واحد، انتظر حتى اختفى حاملوا المشاعل ثم رأيته عائدًا، رغم الظلام شعرت أني أعرفه، طوله وصوت أنفاسه يوحيانِ لي بأنه الشيخ (دومة).

جلستُ على الأرض مستندًا بظهري إلى الحائط، فأيًّا ما جمع هؤلاء الرجال في تلك الساعة من الليل، فهو بلا شك ليس بالأمر الذي يستبشر به!

عدتُ إلى فراشي وألقيت ظهري على السرير وقد طار من عيني النوم، ظللتُ أتقلب من جنب إلى جنب، وكلما حف صوت بجانبي انتصبت أذناي ككلب يستشعر الخطر. فجأة شقَّ سماء «بكة» صراخٌ ملأ جنبات الوادي، وأخرج الناس من صياصيهم، خرجت أهرول من باب الدار، وكدت أصطدم في الظلام بـ(ليث) الذي أيقظته أصوات الصراخ مثلي، خرجنا من باب الدار

فوجدنا سماء «بكة» وقد أضاءتها ألسنة اللهب المتصاعدة من جهة «المروة» حيث توجد أخبية «خزاعة» وخيامها.

انطلقت أنا و(ليث) تجاه الجبل الذي امتلأ سفحه بالبشر، بعضهم هرب من الحريق وبعضهم تجمع كي يتعاون في إطفائه وطقطقات النيران تبدو في أذني كاصطكاك فكي ذئب تنسحق بينهما عظام شاة رضيعة، تنقلت جرار الماء بين جِسْر الأيادي الذي امتد بين القمة والسفح، وأسرعت أنا و(ليث) في معاونة الرجال في نقْل الماء من زمزم إلى «المروة»، قبل أن تنتقل ألسنة النيران إلى سقيفة (عمرو بن لحي).

كم قضينا من الوقت؟ لا أدري، ولكن عتمة الليل كانت قد انجلت وحلَّ محلَّها سِداف الفجر حين توقفت النيران، وانطفأت آخر ألسنتها، جلس الرجال المتعبون إلى الأرض، وانطلق بعضهم خلف الإبل التي شردت خوفًا من النيران، كلمات مثل الغدر، ونقض الصُّلح، والانتقام، ترددت بكثرة بين الناس، سمعت اسم (دعس) يتردد أيضًا، وقيل إنه شُوهِد مع بعض الرجال حول «المروة» قبل اندلاع الحريق مباشرة. مع تباشير الصباح، ظهر (عمرو بن الحارث) ومعه سادة «جرهم» والشيخ (دومة)، زيارته المتأخرة أثبتت شكوكًا حاكتْ صدور الناس ولم تبرئ ساحته أمام عيون الاتهام رغم براءة عينيه، رفض (عمرو بن لحي) مقابلته، وأرسل له على لسان رسوله عبارة واحدة:

ـ براءة من العهد بيننا وبينكم.

عاد (عمرو بن الحارث) ورجاله إلى سقيفته في أعالي «أجياد»، وهو لا يعلم، ما الذي حدث ومن فعلها، أرسل فرسانه للبحث عن (دعس) فلم يجدوه، انضم مَنْ بَقِيَ من أنصاره إليه في السقيفة لا لينصروه، ولكن ليبرِّئوا ساحتهم من الاعتداء ولينظروا فيما ستؤول إليه الأمور. حذره شيخ قبيلة «كندة» من انتقام «خزاعة» وحلفائها قائلًا:

ـ لا يزال (ثعلبة بن عمرو بن لحي) رابضًا في (بطن مُرّ) ومعه فرسانه وسلاحه وأنصار له من قبائل العرب، ولا يفصل بيننا وبينهم إلا بضعة أيام.

الشيخ (دومة) كان يؤكد أن ما حدث خيانة، وأن (دعس) قد فعلها باتفاق مع «خزاعة» كي تتخذها ذريعة لنقض الصلح بعد أن قفل الحجيج من «بكة» وغادرها حلفاء «جرهم».

لم يهتم الحاضرون بصراخ الشيخ (دومة)، ولا بالأعذار التي يسوقها، اهتموا بأمر واحد؛ ألَّا تقع حرب في «بكة» تأتي على الأخضر واليابس، والحل أن تترك «جرهم» ولاية البيت كاملة لـ«خزاعة»، وانساب هذا الرأي كالماء بين الشقوق حتى غمر الجميع وجعل «جرهم» تبدو وحدها كجزيرة منعزلة لا يقف عليها إلا (عمرو بن الحارث) وبجواره الشيخ (دومة).

وحمل الرجال ما وصلوا إليه من رأي إلى (عمرو بن لحي)، وصعدوا به إلى سقيفته في القعيقعان. ارتقى الرجل على ذل الرجال الذين جاءوا إليه مُحمَّلين بالخوف والرجاء، فقال في كِبْرٍ وصلف:

ـ الولاية لنا شاءت «جرهم» أم أبَتْ.

قال بعضهم في خنوع:

ـ جئنا إليك لنحقن الدماء، ونربأ الصدع، وكلنا أبناء عمومة يا سيد «خزاعة»!

ازداد في صلفه أكثر فقال:

ـ بل سبق السيف وأهدرت الدماء يا أهل «بكة»! لا مقام لـ«جرهم» في «بكة» أو ما حولها من القرى.

قال أحدهم بين الاستعطاف والاستنكار:

ـ يغادرون «بكة» وهم سدنة البيت وأخوال (بني إسماعيل).

قال في غضب أرعبهم:

ـ البيت بيت العرب وما كانوا أولياءه! وحق هذا البيت، لو بقي منهم أحد في «بكة» لأهدرت دمه ولأبحثُ ماله ونساءه، ولأجعلن العرب تتحدث عما فعلته «خزاعة» بـ«جرهم».

ثم أردف متوعدًا:

ـ اسمعوا وعوا يا (بني قيدار) و(بني يطور)، ما أتينا لننزع عنكم شرفكم ولا لنخرجكم من مساكنكم، ولكنا قُوتلنا في حرم البيت وأُحرقت ديارنا، فلئن ناصرتم ظالمًا فأنتم على ظلمه، ولتبؤوا بإثمه، ولئن لزمتم مساكنكم حفظنا لكم فضلكم، وما نال من مكانتكم أحد.

ثم قال في حسم منهيًا النقاش:

ـ وغدًا تعلم «خزاعة» من يجاورها حول البيت، ومن يرحل عنه!

وعاد الوسطاء إلى (عمرو بن الحارث) منكسي الرأس، عاجزي النطق. استشاط (دومة) غضبًا، وبهت (عمرو بن الحارث) حينها رأى التخاذل في عيون أنصاره من (بني إسماعيل)، فلم تفلح كلمات (دومة) الموجهه للعصبية وحقوق الخئولة في رفع الرءوس المنكسة، وإظهار بريق أمل في العيون التي ملأها التخاذل، بات واضحًا أن أنصار الأمس قد تراجعوا، وأن «جرهم» قد فقدت داعميها من السادة والبسطاء على السواء، وكأنما حق على (عمرو بن الحارث)، أن يجني ثمار ما زرعه آباؤه من قبل، وحينما سألوه عما ينتوي فعله قال:

ـ كتب على «جرهم» أن تذود عن البيت كافِرَهُ وفاجِرَهُ، ولئن تخطفتني جوارح الجبال، ونهشتني سباع الصحراء ما تركت ملكًا ملكنيه الله، وما خُنت عهدًا قطعه آبائي وأجدادي، فوالله لتعلمن «خزاعة» أن بالعرب رجالًا صدقوا وعدهم، وأن الشرف أحب لديهم من الدنيا وما فيها.

ثم هتف على حراسه قائلًا:

ـ يا حراس، نادوا في الناس بالحرب، وليتأهب الفرسان بالسلاح، وليلجأ الرعاة إلى الجبال، وليلزم من يخشى الحرب بيته، فإنا والله نحمي البيت بصدورنا ونجير الضعيف فينا.

وعند الظهيرة، رأيت المنادي يتسور جدران البيت ثم يقف على سطحه،

قبل أن يمسك بوقًا ذكرني ببوق (بني إسرائيل) نفخ فيه ثلاثًا، ثم قال كلمة واحدة كررها أيضًا ثلاثًا:

ـ الحرب! الحرب! الحرب!

وحملت الأيام التالية في رَحِمِها نذر شر، وتأهب الناس لميلاد حرب كبرى قد تغير مجرى تاريخ البيت لقرون قادمة؛ الكثير من الناس لم يكن يعنيهم أمر المتحاربين قدْر ما كانت تعنيهم حياتهم التي قد تحترق في أتون المعركة، نزع البسطاء أعمدة أخبيتهم وحملوا أغطيتها من الصوف والوبر، ثم صعدوا بها إلى أعالي الجبال يدفعون أمامهم أغنامًا هي كل ما يملكون من حطام الدنيا، احتمى أكثرهم بجبل الرحمة، فقد وقر في قلوبهم أن أذًى لن يطولهم فوق الجبل المقدس، تحصَّنت بيوت الأشراف في «أجياد» و«أبي قبيس» بالحجارة والمتاريس، ولجأ (بنو إسماعيل) إلى منازلهم في البطحاء فخلا الوادي إلا من البيت الذي صار مهجورًا لا يشرف عليه إلا تمثالان قبيحان على هيئة بشر.

جاءت الأنباء أن (عمرو بن لحي) قد التقى بولده (ثعلبة) في «بطن مر»، وأن حلفاءهم من القبائل قد انضموا إليهم، وأنهم في الطريق إلى «بكة». ومما أثار الخوف بين الناس في «بكة»، ما تردد من أن (ابن لحي) كان يحمل العرافة (طريفة) على هودج في مقدمة الصفوف فلا يقطع واديًا ولا ينزل منزلًا إلا بأمرها، و(طريفة) عرافة يخشى الناس سحرها وصِدْق نبوءاتها.

دونًا عن باقي أحياء (بني إسماعيل)، كان حي «يطور» في البطحاء يعج بالجدل والانقسام. لم يفلح الشيخ (دومة) في جمع الناس للحرب معه، لم يثق فيه الناس، وعيَّره بعضهم بعقوقه لوالده الذي انقطعت الصلة بينهما منذ حادثة سقيفة (عمرو بن الحارث)، شعر (دومة) باليأس والحزن وبالغضب أيضًا، ذهب إلى والده مرتديًا زي الحرب، حين طرق الباب كنا أنا و(ليث) بالداخل، دخل منكس الرأس، وقف أمام والده وقال:

ـ خذلني قومي يا أبتاه!

أشاح الشيخ (عابر) بوجهه بعيدًا، فقال (دومة) مكسورًا:

ـ أريدك أن تنصرني!

قال الشيخ (عابر) في غضب ضعضعته شفقته على انكسار ولده:

ـ أنصرك على غدرك! ظننتك أحمقَ غضوبًا، ولكني أراك الآن خائنًا للعهد غادرًا.

لم يدفع عن نفسه اتهامًا بل قال وكأنه يلقي بأمنية تمناها ولم تتحقق:

ـ لو نجح (دعس) لقضينا على شر «خزاعة»!

قال أبوه:

ـ بل اقضِ على الشر بداخلك أولًا! أعماك غضبك عن رؤية الخير من الشر، ووثقت في قاطع طريق!! أتظن أنك كنت قادرًا على شرائه بالمال؟ من يبيع نفسه بالمال، يبحث دائمًا عمن يدفع أكثر، وها هو قد باع نفسه وباعك لـ(ابن لحي)!

ثم أردف مؤنبًا:

ـ تخون العهد يا ابن (عابر)! وتريد أن تسفك الدماء الآمنة في الأشهر الحرم!

قال (دومة) مدافعًا:

ـ كنت أدافع عن البيت! وعن ملك أبينا (إسماعيل)، وعن ملك أخوالي!

صرخ الشيخ (عابر) غاضبًا:

ـ ما كان (إسماعيل) ملكًا وما كانت سقاية البيت ملكًا.

ثم قال ناصحًا:

ـ اذهب يا بني فقل لصاحبك أن يترك أمر البيت، وليحقن دماء قومه.

قال (دومة) معاندًا:

ـ وتعيرنا العرب ما حيينا؟!

قال الشيخ (عابر):

ـ صدِّقني يا بني، لئن بقيت «جرهم» شوكة في ظهر «خزاعة»، خير من أن

تنكسر شوكتها في حرب تستبد بعدها «خزاعة» بالأمر وحدها!

قال (دومة) متنهدًا:

ـ سبق السيف كما قال (ابن الحي) يا أبتاه.

قال الشيخ (عابر):

ـ بل لا يزال السيف في غمده.

ثم أردف فيما يشبه الرجاء:

ـ ارحلْ مع أخوالك يا بني، ودع الأيام تربأ ما وقع من صدع.

وقبل أن يجيب أباه، علا صوت النفير من فوق جبل أبي قبيس، وحملت الرياح أصوات طبول تقرع، فتنهد الشيخ (دومة) ثم قال:

ـ أستودعكم الله يا أبي، لو عاد (عمرو) ولدي فلم يجدني، فقل له: إن أباك قد مات عزيزًا. ثم خرج وصفق الباب خلفه.

* * *

الورقة الرابعة والأربعون

«انتهت الحرب بأسرع مما كنا نظن؛ انسحقت المتاريس التي أقمناها في سفح «أجياد» تحت سنابك خيل «خزاعة»، لم تحتمل المتاريس وطأة جحافل الجيش الذي فاق عددنا بخمس مرات، رجال «جرهم» كالأسود ولكن الأسد إذا تكاثرت عليه الضباع أنهكته.

كانت هذه كلمات (عمرو بن الحارث)، كنا أنا وهو فوق جبل «الحجون» بعد أيام من المعركة، نتطلع إلى جبل «أجياد» الذي تصاعدت منها أعمدة الدخان في الجهة المقابلة بعد أن أتت النيران على كل منازل «جرهم». لم يرضَ رجال «خزاعة» إلا أن يحرقوا منازل «جرهم» عن آخرها، لا يريدون أن يتركوا لهم أثرًا؛ فالأثر يثير الحنين والشوق والرغبة في الرجوع! أبادوها وكأنها لم تكن، قبل أن يحرقوا البيوت، أخرجوا النساء والأطفال والشيوخ من المنازل، جمعوهم مع الأسرى في مخيم بـ«البطحاء»، وأبقوا على حياتهم في انتظار ما يأمر به سيد «بكة» الجديد (عمرو بن لحي)، أهدروا دماء (عمرو بن الحارث) بعد أن طمر «بئر زمزم» بالحجارة والتراب وسواه بالأرض، ارتكب (ابن الحارث) الإثم الأعظم، وأتى بأحط ما يمكن أن يفعله رجل شريف بالبيت المعظم، لن تنسى له العرب أنه طمر بئر (إسماعيل) حين شعر بدنو الهزيمة، وحين سمع المنادي يقول في الطرقات: من يأتي به قتيلًا فله مائة رأس بعير، ومن يأتي به أسيرًا فله ألف، أدرك أنهم يريدون الإبقاء على حياته، التي لا لشيء إلا لمعرفة السر الذي

يحمله، هم يريدون أن يعرفوا أين أخفى غزالتي الذهب وأين وضع سيف (المضاض بن جرهم)؟ وإذا عرفوا السر سيُقضى عليه لا محالة.

بعد أن رأى الهزيمة وشيكة، تسلل هاربًا من فوق جبل «أجياد»، خلع ملابسه وارتدى جلبابًا مرقَّعًا، وألقى على رأسه خمارًا، تلثم بطرفه ثم هبط إلى البطحاء وسار بين الجموع التي خرجت من بيوتها تهلل بنصر «خزاعة». رأى جماعة من الناس يهرولون خلف ناقة مفقوءة العين من نوقه الخمسة، انتحى جانبًا بعيدًا عن الناقة المذعورة التي لا ترى شيئًا، سقط لثامه ومع ذلك لم يعرفه أحد، أمسك أحد الرجال بذيل الناقة وقطع آخر عراقيبها من خلاف، فسقطت الناقة العمياء كالطود. ارتقى أحدهم فوق ظهرها ثم عقرها وهي تنتفض من الذعر والألم، شعر بالألم يعتصر قلبه، أيبكي على ماله المستباح أم على ناقته التي لو لم تفقأ عيناها لأتيحت لها فرصة للهروب. ألقى خماره أرضًا، فقد أدرك أنه مجهول بين الناس، سار مكشوف الوجه، حتى وجد نفسه في أطراف البطحاء، خشي أن يخرج إلى الصحراء فيلمحه الكشافة من فوق الجبل فيشتبهون بأمره، قرر أن ينتظر حتى يجن الليل الذي تفصله عنه سُويعات قليلة، نظر حوله فوجد عريشًا أُقيم وحده في أطراف البطحاء، ويبدو أنه غير مسكون، دخل في حذر فوجد دقماقًا وصناديق غير مكتملة وعربة بلا حصان تستند إلى قائميها، أدرك أنه عريش لنجار، وأن النجار غير موجود، اختبأ في العريش جامعًا ركبتيه إلى صدره، ويده تتحسس جرحًا غير نافذ في جانبه. بعد قليل مدد ساقيه واسترخى بظهره، اطمأن للسكون من حوله، فأغمض عينيه وانتظر مجيء الليل، ولكن الليل حين زاره وجده نائمًا، فأرخى عليه سكونه وتركه، فلم يفق إلا في الصباح حين دخلت أنا عليه العريش.

حين رأيته نائمًا خدعتني هيئته وظننته عابر سبيل، ولكنه حين فتح عينيه عرفته، فأنا لا أنسى العيون أبدًا، ذُعر لرؤيتي، ولكنه تماسك بعد وهلة، تظاهر بأنه عابر سبيل، فأحنى ظهره وأطرق برأسه إلى الأرض وهو يقول:

ـ معذرة يا سيدي، قد داهمني الليل فبت في العريش الخالي خشية الذئاب.

تجاوزني في سرعة واصطدم كتفه بكتفي وهو يخرج من الباب، استدرت إليه بعد أن خرج من باب العريش، وقلت محذرًا:

ـ الطريق ليس آمنًا! يبحثون عنك في كل مكان.

تجمد في موضعه لحظات، ثم فرد ظهره، واستدار إليَّ وهو يقول في عزة الملوك:

ـ عرفتني إذن! من أي البطون أنت؟!

قلت:

ـ لست من أهل «بكة»!

قال متعجبًا:

ـ ولماذا تحذرني؟! كان بإمكانك قتلي وأنا نائم وتأخذ المائة رأس بعير، أم تريد أن تسلمني إليهم حيًّا كي تظفر بالألف رأس؟! هيا أيها الشاب اصرخ، واستدع الكشافة فلو كنت مكانك لفعلت.

أشرت إلى يدي الخاويتين من أي سلاح وقلت وأنا أنظر إلى بقعة الدماء التي كبرت وطفحت على ملابسه:

ـ لا أريد هذا ولا ذاك! فقط أريد أن أساعدك على النجاة.

قال متشككًا:

ـ لماذا؟

قلت في بساطة:

ـ لأن كل إنسان يستحق فرصة للنجاة.

رأيت في عينيه تصديقًا وبريقًا للأمل، فقال:

ـ وهل تملك أن تساعدني؟

قلت في تأكيد:

ـ أجل، فقط انتظرني لبعض الوقت وسأعود إليك.

عاد الشك إلى نظرته، فقلت مطمئنًا:

ـ سوف آتي ببغلة تحملنا إلى خارج «بكة».

لا أدري لماذا وثق في كلماتي، ربما لأن الكلمات الصادقة تجد طريقها إلى القلب دون المرور على العقل، وربما لأنه لا يملك خيارًا آخر. عدت بعد سويعات قليلة، أركب بغلة، وأحمل معي صرتين من القماش، وجدته متلهفًا قلقًا، قال:

ـ تأخرت طويلًا!

قلت:

ـ معذرة، توقفت أكثر من مرة خشية أن يتبعني أحد.

ألقيت إليه بصُرّتي القماش وقلت:

ـ هذا طعامٌ، وذاك ملبس بدل جلبابك الملطخ بالدماء بعد أن تفرغ من الطعام.

فتح صُرَّة الملابس أولًا وهو يقول:

ـ لا وقت للطعام.

فرد الزي أمامه فوجده جلباب امرأة، ومعه خمار رأس. قال مندهشًا:

ـ ما هذا؟!

قلت:

ـ هذا أفضل شيء للخروج من هنا، ارتده الآن ثم أردفت مبتسمًا:

ـ أرجو أن يتسع ثوب (أم السعد) لك!

علقت العربة على سرج البغلة، ثم وضعت فوقها بقايا أخشاب وبعض الصناديق غير المكتملة. خرج عمرو مرتديًا جلباب (أم السعد) الذي وصل إلى أسفل ركبتيه بقليل، واضعًا على رأسه خمارها. كدت أضحك، ولكني تراجعت! قلت له:

ـ هيا اقفز.

قفز فوق العربة ثم استلقى على ظهره وأسند رأسه إلى أحد الصناديق وستر ساقيه بغطاء من الخيش ووجهه بالخمار الأسود. قال من خلف الخمار:

ـ اتجه إلى «الحجون»!

انطلقت بالعربة من «البطحاء» ودرت حول جبل أبي قبيس دورة كاملة، وحين اقتربت العربة من سفح «أجياد»، حدث ما كنت أتوقعه. استوقفني بعض فرسان «خزاعة» حين رأوا العربة، سألني أحدهم:

ـ من أين تأتي ومن أي البطون أنت؟

قلت في هدوء:

ـ أعمل نجارًا في «البطحاء» وأنا مولى الشيخ (عابر) من «بني يطور».

دار الحارس حول العربة وكأنه يتعجب من صنعتها، ثم نظر إلى (عمرو) المستتر بزيه متعجبًا، فقلت مختصرًا الحديث قبل أن يسألني:

ـ هذه أمي، وهي مريضة، وسأذهب بها إلى أخوالي في «الحجون».

اقترب من أحد الصناديق فجذبها، فسقط قلبي بين أضلعي وتمنيت أن يحفظ (عمرو) هدوءه.. قلَّب الرجل الصندوق بين يديه وقال:

ـ تبدو ماهرًا أيها الشاب، أفلا تركت لي هذا الصندوق؟

خشيت إن وافقت، أن يحذو الآخرون حذوه فقلت متذمرًا:

ـ ألم يرفع سيد «خزاعة» العشور عنا؟! أجاء إلينا بالعدل أم أن الظلم قد بدل ثيابه فحسب؟!

شعر الرجل بالحرج، فألقى الصندوق فوق العربة وقال ناهرًا:

ـ هيا أيها الشاب، تبدو مشاكسًا ولا تخجل من الجهر بالشكوى.

تنفست الصعداء حين أفسح الطريق أمامنا، فصفعت مؤخرة البغلة بيدي كي تسرع الخطى، فانطلقت في سرعة تقطع الطريق إلى جبال «الحجون» التي لاحت قمتها في الأفق. اعتدل (عمرو) قليلًا من رقدته، بعد أن اطمأن قليلًا

لخلو الصحراء، فتح صرة الطعام، وبدأ يقضم قطعًا من الخبز، سألته عما سيفعله بعد أن يصل إلى «الحجون»، فأجاب:

ـ تنتظرني فرقة من الحراس مع زوجتي وأبنائي، أرسلتهم إلى هناك قبل الحرب بأيام تحسبًا لما قد يحدث.

قلت:

ـ إذا كنت تتوقع الهزيمة، فلماذا لم تحقن الدماء وتترك الأمر لـ«خزاعة»؟

صمت قليلًا.. فشعرت أني قد تجاوزت في سؤالي، ولكنه قال بعد صمته:

ـ المُلكُ لا يُترك أيها الشاب ولكنه يُنتزع انتزاعًا.

ثم عاد إلى صمته مرة أخرى قبل أن يقول:

ـ يمكنك تركه قبل أن تستويَ على عرشه، فإن استويت على العرش فالأمر ليس لك!

ثم شعرت بصوته يتهدج وهو يقول:

ـ حين مات أبي (الحارث)، رجوت أعمامي بأن يعهدوا بالأمر لأخي الأصغر (الوليد بن الحارث)، ولكنهم أبوا ذلك؛ لأنه لا يزال صغيرًا، لم يكن قلبي معلقًا بالحكم بقدْر ما تعلق بالشعر، حتى أمور البيت لم أكن على عِلْم بها قبل أن أتولى أمر «جرهم»، البيت الوحيد الذي تعلق به قلبي منذ الصغر كان بيت الشعر، عشت فيه وعاش فيَّ وودت ألا أفارقه.

أشفقت عليه وشعرت بصِدْق حديثه، ولكن هذا لم يمنعني من أن أعود لأسأله مرة أخرى:

ـ وماذا ستفعل بعد أن تصل إلى «الحجون»؟

قال:

ـ سأعود بأهلي إلى الجنوب، هناك سأبدأ من جديد ويومًا ما سأعود لأسترد ملكي وملك آبائي!

قلت متحسسًا كلماتي حتى لا أغضبه:

ـ وهل سيغفر لك الناس طمر «زمزم» وسرقة غزالتي الكعبة؟!

صمت قليلًا ثم قال:

ـ يوم نعود سيعلم الناس أن «جرهم» لا تدنس شرفها بالسرقة!

كنا قد اقتربنا من جبال «الحجون»، أشرف إليها بناظريه وكأنه لا يصدق أنه سيلتقي أهله فوق الجبل، ربت على ظهري وهو يقول:

ـ أشكرك أيها الشاب، لك في عنقي دين لن أنساه ما حييت!

ثم قال متعجبًا:

ـ أنا لم أعرف اسمك! ما هو اسمك؟!

وقبل أن أجيبه، سمعنا صيحة عالية أفزعتنا، ورأيت فارسًا يخرج علينا من جانب الطريق وكأنما انشق عنه بطن الجبل، يلوح بسيفه في الهواء وينحدر تجاهنا في سرعة، وحين اقترب منا، وتبينت ملامحه مادت بي الأرض وكأني أراه يبعث من جديد، فقد كان (دعس) يحمل سيفه، الذي تلألأ نصله في الهواء فبدا كليث تلمع أنيابه قبل أن ينقض على فريسته الثمينة.

ضرب بسيفه سرج البغلة فانقطع، ومالت العربة على جانبها فسقط الجميع، أنا و(عمرو) والبغلة وحمولة الأخشاب والصناديق، قفز من فوق فرسه في رشاقة وفي لحظة كان نصل سيفه يقف على نحر (عمرو بن الحارث)، وقف يلهث وعيناه تنظران في ظفر غير مصدق أنه وقع على الصيد الثمين، فك من نطاقه حبلًا ملفوفًا تدلى من جانبه، ألقى به إليَّ وهو يقول لي في أمر نافذ:

ـ اربط قدميه إلى يديه.

تقاعست في القيام رغم نظرة الشر التي رمقني بها، فركل (عمرو بن الحارث) بقدمه بقوة في جانبه ففتق له جرحه وصرخ (عمرو) عاليًا قبل أن يسقط على جانبه وقد جحظت عيناه من الألم. صرخ في جنون أرعبني:

ـ هيا وإلا قتلتك!

أمسكت بالحبل وعقدته حول يدي عمرو وقدميه كمن يربط بعيرًا يوشك على نحره، لم تطاوعني نفسي أن أعقد العقدة الأخيرة فترددت وأنا أنظر إلى عيني (عمرو) التي تفيض بالألم، فإذا بركلة أخرى تطيح بي بعيدًا، قبل أن يقوم هو بعقدها في قوة صرخ لها (عمرو) من الألم، لهث وهو يلف باقي الحبل حول رقبة (عمرو) وقال وهو ينظر إليَّ في احتقار وشماتة:

ـ ألم أقل لك إنك غرٌّ تافه، تحمل في صدرك قلب طفل! أضعت من يديك صيدًا ثمينًا، يفوق أموال (شهبور) التي أضعتها من قبل!

ثم قال وهو يضع سيفه في غمده:

ـ منحتك الحياة فرصًا كثيرة لا تستحقها.

ثم انحنى وحمل (عمرو) على كتفه كمن يحمل جوالًا من الطحين، ووضعه مكبلًا فوق ظهر فرسه.

وقف يلهث كخيل تضبح في عدوها للحظات، أتبعها بزفرة طويلة كنفرة فرس ثم التفت إليَّ وهو يقول مستكملًا حديثه:

ـ أما أنا فلا أمنح الأغبياء إلا فرصة واحدة، وقد أضعتها أنت.

أخرج سيفه، ورأيت في عينيه عزمًا على قتلي، انتفضت واقفًا وأمسكت بقطعة خشب ووقفت مباعدًا بين ساقي متأهبًا للقتال بسيف من خشب، كنت أعلم أنه لن يؤخر قتلي سوى للحظات، ولكن نفسي أبت أن أُذبح بلا مقاومة كالبعير، طوحت الخشبة تجاهه مرات ولكنه تفاداها قبل أن يحيلها نصفين بضربة واحدة من سيفه. صرخ ورفع يده بالسيف عاليًا في الهواء وانتظرت أن تهبط على رأسي ولكنها لم تهبط، تراشقت سهام عدة في صدره وكتفه فجحظت عيناه في ذهول وألم، ترنح قليلًا ونظر إلى مصدرها فرأى ثلاثة من الأحباش من فرسان (عمرو بن الحارث) ينسلون من فوق الجبل. شد أحدهم قوسه عن آخره ثم أفلت السهم الأخير الذي اخترق عنقه قبل أن يسقط على ركبتيه أرضًا، فتح عينيه بصعوبه، ثم نظر إليَّ وابتسم ساخرًا غير مصدق أن نهايته قد

جاءت بتلك السهولة، وقال بصوت متحشرج:

ـ فليمت (دعس)، ولتحيا (غرندل).

ثم سقط على وجهه بلا حراك.

* * *

فوق «الحجون» اختلطت دموع الفرح بدموع الشوق، احتضن (عمرو بن الحارث) زوجته وأولاده وشقيقه (الوليد بن الحارث) وانهال عليهم جميعًا بالقبلات، لم يصدق أنه لا يزال حيًّا، وأن الحياة قد منحته فرصة أخرى، لا شيء للإنسان يعدل فرصة ثانية بعد أن تنغلق أمامه السُّبل ويضيق به الحال، وبعد أن أفرغ دموع أشواقه تجاه أهله، نظر إليَّ ممتنًّا، تقدم مني خطوات ثم احتضنني بلا كلمات، ربت على ظهري في قوة ثم قال:

ـ أنا مَدِين لك بحياتي.

لم أجد ما أقوله، ولم أعرف ما يمكن أن يقال في تلك اللحظات، مسح دمعه ثم أشار إلى حارس من حراسه، كان يحمل بين يديه صندوقًا، فتح الصندوق وأخرج منه كيسًا من المال بدا من ثقله أنه يحوي مئات الدنانير، وضع كيس المال في يدي وهو يقول:

ـ هذا لا يوفيك حقك، ولكننا نكرم من أكرمنا!

لم أطبق يدي على كيس المال، نظرت إليه ثم إلى الصندوق وقد خطر لي أنه قد سلب أموال البيت معه.. أحسَّ بما يدور في رأسي فقال وهو يطبق يدي على كيس المال:

ـ المال مالي من التجارة، لم يكن لـ«جرهم» أن تسلب أموال بيت الرب.

ثم مال على أذني وقال:

ـ سيأتي يوم نعود فيه إلى «بكة» ويسترد كل ذي حق حقه.

وضعت يدي التي تحمل الكيس جانبًا وقلت في هدوء:

ـ وإن لم تعد؟!

قال:

ـ حينها سيصل المال لمن يستحق، والله كفيل بهذا!

قلت:

ـ وددت لو لم تطمر البئر وتُخفي الغزالتين!

قال:

ـ لن يهتم لأمر البئر إلا ولد (إسماعيل)، والغزالتان سيشهدان على من يُعَظِّم أمر البيت.

قلت مبتسمًا:

ـ حزين لفراقك ولكني أتوق إلى لقاء آخر بمشيئة الرب.

تنهد ثم استدار وسار حتى وصل إلى الحافة، سرت خلفه ثم وقفت إلى جواره، تطلعنا إلى أعمدة الدخان التي تتصاعد من فوق جبال «أجياد»، زفر وكأنه يزيح همًّا كالجبال ثم قال:

وَقَائِلَةٍ وَالدَّمْعُ سَكْبٌ مُبَادِر ... وَقَدْ شَرِقَتْ بِالدَّمْعِ مِنْهَا الْمَحَاجِرُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحْجُونِ إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

لم يستطع أن يكمل.. صمت قليلًا ثم استدار قائلًا:

ـ يا حراس، احملوا المتاع فقد آنَ وقت الرحيل.

وقبل أن يتحرك الركب التفت إليَّ وأنا جالس على عربتي أيمِّم وجهي شطر البيت الحرام، وقال:

ـ نسيت أن تخبرني ما اسمك؟

قلت مبتسمًا:

ـ (شمعون بن زخاري) وإن شئت ناديتني (شمعون المصري).

* * *

الورقة الخامسة والأربعون

استند بساعده الأيسر إلى ساعدي الأيمن وتوكأ على عصاه بيده اليمنى. كان يسير واهنًا مرتجفًا، حتى ظننت أن عشرة أعوام قد أضيفت إلى عمره في ذلك اليوم! دخلنا إلى المخيم الفسيح الذي أقيم في صحراء البطحاء لأسرى «جرهم»، سمح لنا الحراس بالدخول بعد أن أذن لنا (عمرو بن لحي) بذلك وأرسل معنا خادمه، أكرم (عمرو بن لحي) مقام الشيخ (عابر) فعفا عن الشيخ (دومة) وأبقى على حياته بلا فدية، ولكنه لم يسمح له بالبقاء في «بكة»، أمر بطرده مع نساء «جرهم» وشيوخهم خارج «بكة»، قال في حسم:

ـ لو كنت قاتلًا رجلًا من (بني إسماعيل)، لكان ولدك يا شيخ (عابر)، ولكني أعفو عنه إكرامًا لقَدْرك شريطة ألا يجاورني في «بكة» أبدًا ما حييت.

سرنا في المكان الذي يشبه مربط الدواب في قذارته ورائحته، كانت الخيمة التي بها محبسه في طرف المخيم من جهة الغرب، دخلنا عليه فوجدناه مُكبَّلًا من قدميه في سلسلة من حديد، وقد عقدت يداه خلف ظهره، شعره صار أشعثَ وتناثرت لحيته حتى بدت كطلح نخلةٍ التصق بوجهه المتسخ الذي لم يخلُ من جروح جفت دماؤها وبقيت آثارها عليه.. حين رآه والده ارتعش جسده وانتفض وأخذ يتمتم ببعض الذكر، أجلسته على حجر إلى جوار ولده في رفق، أمر الخادم الحارس بأن يفك قيده، ثم تركنا وانصرف، ما أن انفكت

يداه حتى انحنى على قدم أبيه يُقبِّلها وهو يجهش بالبكاء الحار، ربت أبوه على ظهره وهو يقول:

ـ حمدًا لله أنك ما زلت حيًّا يا ولدي.

قال وهو لا يزال يبكي:

ـ ليتني مت ولم أرَ ذلك الذُّل الذي حاق بنا يا أبتاه!

قال أبوه مُهوِّنًا:

ـ الحرب كرٌّ وفرٌّ يا بني. لا ذُل يبقي ولا عز يدوم، استغفر الله، واجعل ذُلّك لله وحده.

قال في كرب:

ـ لم ينصرنا أحد يا أبتاه، كيف هان أمر «جرهم» على الناس هكذا؟! أغلق الناس بيوتهم في وجوه الفارين من جيشنا، أسلموهم إلى عدوهم وكأن لم يكن بيننا وبينهم ود في يوم من الأيام!

قال أبوه:

ـ لم تقدم «جرهم» ليوم كهذا يا بني! جنى (عمرو بن الحارث) ما زرعه آباؤه.

قال في حزن:

ـ لهفي عليك يا (بن الحارث)! لا أدري إن كنت قتيلًا أم أسيرًا أم شريدًا في الصحراء.

نظرت حولي لأتأكد أن أحدًا لا يستمع إلينا، ثم قلت هامسًا:

ـ هو بخير! ينتظرك في «سبأ»!

اتسعت عيناه من الفرحة، وقال:

ـ حقًّا يا (شمعون)، كيف عرفت؟!

قال الشيخ (عابر) في خفوت وهو يرمقني بحنوٍ وتقدير:

ـ أخرجه (شمعون) من «البطحاء» إلى «الحجون»، وأنقذه من القتل على يد (دعس) الخائن! ولقي الخائن جزاءه.

نظر الشيخ (دومة) إليَّ في ذهول وقال:

ـ أنت يا (شمعون) فعلتها؟!

أطرقت برأسي خجلًا رغم لمعة الزهو في عيني، فاغرورقت عيناه بالدموع، وقال:

ـ كم أسأت الظن بك يا بني وأغلظت إليك في القول!

ربت الشيخ (عابر) على كتفه وقال:

ـ لا تثريب يا (دومة)! هيا لنعد إلى البيت.

سأله في انكسار:

ـ هل دفعت فدية لـ(ابن لحي) يا أبتاه؟

تنهد الشيخ (عابر) ثم قال:

ـ ليته قبلَ الفدية وأبقاك! بل أمر بخروجك مع «جرهم» من «بكة»!

تنهد هو في ارتياح وقال:

ـ خيرًا فعل، والله ما كنت لأجاوره في «بكة»، وهو سيد عليها.

لم يعد إلى داره، ففضَّل أن يذهب إلى دار أبيه أولًا ليغتسل وليبدل ثيابه حتى لا تراه زوجته وبناته على هذا الحال، وصلنا إلى دار الشيخ (عابر) بعد مرورنا بأحياء (بني إسماعيل)، نظرات الشماتة في أعين الناس من (بني إسماعيل) لها لسعٌ شعرت به وأنا الغريب، فما بال وقعها على الشيخ (عابر) وولده.. حتى الناس من (بني يطور)، لم تخلُ كلماتهم المرحبة ودعوات الحمد بالسلامة له من غبار حقد فضحته العيون والخلجات وخائنة النظرات، البشر هم البشر في كل مكان، لا فرق بين الحقد هنا في برية «فاران» والحقد هناك في برية «سين».

حين دخلنا البيت كان (ليث) في استقبالنا، انحنى ليُقَبِّل يد عمه ولكنه سحبها وأحاط بها رأسه ثم قبَّلها، ربما لأول مرة منذ مات الشيخ (نابت).

تعجب (ليث)، فقال الشيخ (دومة):

ـ أنت الآن رفيق جدك وسيد (بني يطور) المقبل يا (ليث)!

قال (ليث):

ـ حفظك الله يا عمي وأعاد إلينا (عمروًا) سالمًا.

وكأنما أثار ذكر (عمرو) الشجن في نفسه، فقال:

ـ اذهب إلى داري يا (ليث)، وقل لـ(أم عمرو) أن تستعد وبناتها للرحيل فالليلة نرحل عن «بكة».

ثم ذهب فاغتسل، واستبدل ثيابه بأخرى، ووضعت له (أم السعد) طعامًا، أكل منه قليلًا ثم عافه، قال لأبيه:

ـ متى تعود إلى «رسّة» يا أبتاه؟!

صمت الشيخ (عابر) قليلًا ثم قال:

ـ لن أبرح «بكة» حتى يعود (عمرو) و(شهبور)، أو تعود أنت، أو يتغمدني الله برحمته فألحق بـ(ثابت)!

تألم (دومة) لكلمات أبيه فقال:

ـ اغفر لي يا أبي!

قال الشيخ (عابر):

ـ يغفر الله لنا يا بني! هذه أقداره ولا حيلة لنا في القدر.

قال الشيخ (دومة):

ـ وماذا عن (أروى) وأمها؟

اضطرب قلبي عند ذكر (أروى)، لا أدري لماذا شعرت أني قد شهدت تلك اللحظة من قبل، هل لأنني توقعت أن يسأل عنها، أم لأنني لم أنقطع عن التفكير فيها منذ انتهت الحرب، كنت أشرع في كل يوم في سؤال الشيخ (عابر) عنها ثم أتراجع عن ذلك، وحين سأله الشيخ (دومة) ظننت أني قد سبقته إلى تلك اللحظة في خيالي.

قال الشيخ (عابر):

ـ سأرسل إلى الشيخ (أواس) من يعيدهما.

ثم صمت لحظات قبل أن يقول للشيخ (دومة):

ـ اسمع يا (دومة)، إن (أروى) في حِلٍّ من خِطبة (عمرو)!

رأيت على وجهه مزيجًا من الحزن والألم، وتعكر صوته ببعض الغضب وهو يقول لأبيه:

ـ هل جزمت بهلاك (عمرو) يا أبتاه؟

أردف مسرعًا:

ـ معاذ الله يا بني! بل أدعو له بالنجاة في ليلي ونهاري.

قال (دومة):

ـ فلم الحِلُّ من العقد ما دام الأمل معقودًا؟

قال الشيخ (عابر):

ـ ولماذا نذر الفتاة كالمعلقة، وقد يرغب في خطبتها أحد"!

قال في غضب صريح هذه المرة:

ـ ومن يجرؤ أن يخطبها على خطبة (عمرو)؟

لا أدري ما الذي دفعني كي أتكلم في تلك اللحظة! شعرت أنه إما أن أتكلم الآن أو لأصمت إلى الأبد، قلت له:

ـ أنا يا شيخ (دومة)!

بهت الرجل وتلون وجهه بألوان شتى، وهو يكظم غيظه وغضبه قبل أن يقول:

ـ كيف تخطبها على خطبة (عمرو)؟ تعتدي على حق ولدي وهو من اتخذك صديقًا له!

قلت مسرعًا:

ـ بل كان ولا يزال أخي وصديقي، ولكني لم أخطبها على خطبته يا شيخ

(دومة)، بل خطبتها قبله! والشيخ (عابر) يشهد أني طلبتها لنفسي، قبل أن يعلم أحد بأمر تلك الخطبة! حتى (أروى) نفسها لم تكن تعلم بخِطبة عمرو لها!

هبَّ واقفًا وقال في غضب هادر:

ـ هل حدَّثتها في أمر الخطبة دون إذن وليها؟! والله لقد أتيت كبيرة تسيل لها الدماء! ثم التفت إلى أبيه وقال في كِبره المعهود، كأنما عاد لقبحه مرة أخرى ونسي ما كان فيه:

ـ هذا هو عابر السبيل الذي عطفنا عليه وآويناه يا أبتاه!

همَّ الشيخ (عابر) أن يتحدث ولكني أسرعت بالحديث عنه وكأنما انحلت عقدة لساني فقلت:

ـ والله ما كنت عبدًا ولا أجيرًا ولا عابر سبيل! بل تبعتكم طوعًا وطمعًا في علم هذا الشيخ الجليل، الذي أدين له بالفضل والنعمة. فقد خرجت من داري مشتت الفكر، حيران الفؤاد، فأنار هذا الشيخ عقلي بحكمته، وهدى قلبي بيقينه، وما كنت لأعدو على حُرمة بيته غدرًا، وإني والله لأبذل الدماء فداءً لها، وما دفعني للحديث إلى (أروى) إلا خوفي من أن أكون قد أسأت تأويل كرمها وفضلها، فأردت أن أستبين رأيها قبل الحديث إلى جدها.

صمت الشيخ (دومة)، وكأنما ألجمته كلماتي، وطال الصمت إلا من صوت أنفاسي المتلاحقة، ألقى إلى الشيخ (عابر) بنظرة استحسان ثم قال بكلمات رقص لها قلبي:

ـ (أروى) في حلٍّ من خطبة (عمرو) يا (دومة) ولها أن تتخير من يخطبها، فإن شاءت قبلت بـ(شمعون)، وإن شاءت انتظرت عودة (عمرو).

بهت الشيخ (دومة) وقال غير مصدق:

ـ ترفض ابن عمها، فارس قبيلته وتتزوج غريبًا معدمًا! بأي عقل تتزوجه إلا إذا كان بينهما عشق؟!

غضب الشيخ (عابر) هذه المرة وقال لائمًا:

ـ كُفَّ عن هذا يا (دومة)! فوالله لا تنقص منزلة (شمعون) عندي خردلةً عن منزلة (عمرو) و(أروى)! وما عاد (شمعون) غريبًا بعد أن امتد فضله عليك، وعلى ولدك منذ عرفناه! ولو كان الفقر معرَّة، ما تزوج أبونا (إسماعيل) من «جرهم» من قبل، وقد كان غريبًا وحيدًا في هذا البلد.

حين انتهى من كلامه، شعرت بالدموع تكاد تطفو إلى مقلتي، لا أدري هل أثارتها كلمات الشيخ (عابر)، أم أني أشفقت على نفسي من إهانات الشيخ (دومة) المتكررة. أخرجت كيس النقود الذي أعطانيه (عمرو بن الحارث) من نطاقي، فتحته وألقيت بدنانير الذهب في حجر الشيخ (دومة) وأنا أقول:

ـ هذا كل ما أملك من مال يا شيخ (دومة). قد وهبه لي (عمرو بن الحارث) حين كنا فوق «الحجون»، لا حاجة لي به، وأعطيه كله مهرًا لـ(أروى)! ووالله لو كنت أملك أكثر منه لقدَّمته لها عن طيب خاطر.

أطرق الشيخ (دومة) صامتًا وهو ينظر إلى دنانير الذهب في حجره، نكس رأسه وكأنه عاد إلى (دومة) الكسير الأسير المقيد بالسلال في خيمة الأسرى، مدَّ يده فأخذ الكيس وجمع به الدنانير مرة أخرى ثم قام بوضعه في يدي وهو يقول في حزن:

ـ خُذْ مالك يا بني! فوالله ما قصدت معرَّة، ولتعذر أبًا يتشبث بالأمل في عودة ولده الوحيد!

ثم نظر إلى أبيه وقال:

ـ الأمر متروك لك ولـ(أروى) يا أبتاه! فلم يعد لي من الأمر شيء.

حينئذٍ دخل (ليث) ومعه زوجة عمه (هند) وبناتها، انطلق (دومة) إلى زوجته وأولاده يجمعهم في حضنه كطائر يحيط بجناحيه فراخه. ولما هدأت المشاعر، قبَّل يد والده ورأس (ليث) وشدَّ على يدي، ثم أخذ أهل بيته وخرج.

* * *

الورقة السادسة والأربعون

وجَلَتْ «جرهم» عن «بكة»، ووطنَت «خزاعة» وحلفاؤها الأرض المقدسة في برية «فاران»، انزوى الشيخ (عابر) في داره، وقد هزلت صحته، ووهن جسده، وكأنما انسلخت منه قطعة أخرى برحيل (دومة)، بعدما انسلخ معظمه من قبل برحيل (نابت)؛ لم يعد يغادر الدار إلا لقضاء حاجة، رافقته طيلة الوقت، كنت أطعمه بيدي أحيانًا وأبيت تحت قدميه، كي أعينه على صلاة الليل، استمتعت بالقُرب منه في تلك الأيام لا سيما وأنني قد شعرت بغربة في «بكة» بعدما تبدلت وجوه الناس التي ألفتها، وأصبح للكلمات لحن مختلف تعذر عليَّ فهمه في بعض الأحيان، أحياء (بني إسماعيل) أيضًا تبدَّلت بها الأحوال، وعمَّ الشقاق، وكثرة الشجار فيما بينهم بسبب نقص الماء، لم ينسَ الناس أن الشيخ (دومة) كان عونًا لـ(عمرو بن الحارث) الذي طمر بئرهم، فزاد ذلك من الغضب على (بني يطور) رغم حب الناس للشيخ (عابر) وتقديرهم له، وفي يوم من الأيام أراد (بنو إسماعيل) الذهاب إلى السيد الجديد، كي يستأذنوه في إعادة حفر البئر المعظم، وأرسل الشيخ (عابر) (ليثًا) بدلًا منه فسار بين الناس أن الشيخ قد أصابه الكبر، وأنه يعد حفيده كي يصبح سيدًا لقبيلته.

حين عاد (ليث) كنت أجلس إلى جوار الشيخ (عابر) في داره، بدا وجه (ليث) غائمًا، فسأله الشيخ (عابر):

ـ بماذا أجبتم؟

قال (ليث):

ـ رفض (عمرو بن لحي) أن تحفر البئر، وقال: «لن نمحو إثم جرهم».

سألته مندهشًا:

ـ ومن أين يشرب الناس والدواب؟! الآبار حول «بكة» قليلة ولن تكفي تلك القبائل التي جاءت مع «خزاعة» فما باله إذا وفد الحجيج العام المقبل!

أجاب حانقًا:

ـ حدثناه في ذلك، فقال: «ستحفر «خزاعة» آبارها، وسيرد الحجيج من آبار بني عامر».

قلت ساخرًا:

ـ أراه يتحدث وكأنما أسرّت إليه (طريفة) بأماكن الماء!

قال (ليث) متعجبًا:

ـ العجيب أن (بني إسماعيل) انصرفوا وقد سلَّموا بحديثه، وهمس بعضهم، بأن «خزاعة» وأهل الجنوب بارعون في حفر الآبار وحتمًا سيجدون الماء!

ثم نظر إلى جده الذي كان صامتًا يتطلع إلى العريش في وجوم. وقال:

ـ لم أشعر بخير في حديثه يا جدي!

قال الشيخ (عابر) باقتضاب بعد برهة؛ فقد صارت كلماته قليله واستجابته للحديث بطيئة:

ـ يريد أن يطمر شأن (بني إسماعيل) كما طُمِرت بئرهم، وأن يرفع من شأن (بني عامر) ببئر جديد!

قال (ليث) مؤكدًا:

ـ هذا ما شعرت به أيضًا يا جدي.

وفي الأيام التالية تحقق ما قاله (عمرو بن لحي)، وصدق ما تنبأ به الشيخ (عابر)؛ حفرت «خزاعة» بئرًا ضخمًا جهة الشرق من البيت على سفح جبل

«خندمة»، وتفجر ماؤه عذبًا رقراقًا، فهلل الناس فرحًا بالخير الذي حل على يدي (عمرو بن لحي) ولم تنسَ أن تلعن (عمرو بن الحارث) الذي طمر بئر زمزم قبل رحيله، وسبقت «خزاعة» الجميع فضربت أخبيتها حول البئر، حتى لا ينازعها فيه أحد، وتردد أن (عمرو بن لحي) سيبني سقيفة لم يشهد العرب مثلها إلى جوار البئر الجديد، حتى إذا جاء موسم الحج أشرف على سقاية الحجيج بنفسه من سقيفته، وتحوَّلت أنظار الناس إلى المكان الجديد الذي أطلق عليه «شعب بني عامر»، فأُقيمت حوله الأسواق، وعمر بالمنازل الحجرية، وبدا أن أيام (بني إسماعيل) قد دالت برحيل «جرهم»، وأن أيام «خزاعة» قد دانت، ولا يعلم أحد ما الذي ستسفر عنه تلك الأيام إلا الله.

ولم أنشغل بملاحقة أحداث «بكة» وأخبارها بقدر ما انشغلتُ بحال الشيخ (عابر) وحالي، أرسل الشيخ (عابر) (ليثًا) ومعه دليلان إلى «يثرب» كي يعيدوا (أروى) وأمها إلى «بكة»، شعرت بالفراغ لغياب (ليث)، وقرض الانتظار صبري فشغلت نفسي بتوسعة العريش الذي أقمته في طرف البطحاء، وأحلته إلى منزل بديع من الحجر والخشب، تمثلت ما كانت تحكيه أمي عن بيوت المصريين، وشرعت أُحيله إلى واقع تراه العين، أعانتني دنانير (عمرو بن الحارث) في اكتراء بعض الأحباش الذين أعانوني في بناء الجدران، وكسوتها بالطين والرمل المذاب، لونت حوائط البيت بنقوش زرقاء وصفراء وأحطت فناءه بسور يناهز قامتي طولًا، ثم غرست في أركان الفناء الأربعة فسائلَ نخلٍ تحيطها أحواض الرياحين، جعلت في منتصف الجدار الشرقي للسور بابًا من الخشب له مزلاج، وعلى جانبي الباب نقشت على الحجر أربع كلمات بحروف مصرية قديمة، اثنان على كل جانب، لم يعلم أحد معناها سواي.

وذات ظهيرة وبينما كنت أجلس فوق السور أنقش حرفه بمطرقتي وإزميلي، رأيت (أم السعد) تقترب وهي تناديني، انتفضتُ لرؤيتها وظننتُ أن مكروهًا أصاب الشيخ (عابر)، فقفزت من فوق السور منتصبا وقلت متلهفًا:

ـ خيرًا يا خالة!

قالت مُطمئِنة:

ـ خيرًا يا (شمعون)، لقد جاء البشير.

رقص قلبي فرحًا وقلت:

ـ حقًّا!

قالت:

ـ نعم، وأخبرنا أن الشيخ (أواس) وعائلته قد رافقوا القافلة، يريد الشيخ (أواس) أن يعتمر وأن يرى الشيخ (عابر).

قلت في غبطة:

ـ ومتى يصلون؟

قالت:

ـ غدًا، وقد أمرني الشيخ (عابر) بأن نعد منزل الشيخ (دومة) لاستقبال الضيف وعائلته!

تنهدت وتطلعت إلى الأفق الذي سيتزين غدًا بأحب قافلة إلى قلبي، تمنيت لو تأذَّن الليل بأن يأتي الصباح مكانه، على أن أردَّ الدين عنه أيامًا من عمري بعد ذلك، فيكفيني عامًا من الانتظار فاق بشجونه وأحزانه عمرًا بأكمله، ما زلت أذكر وجهها وهي ترنو إليَّ خائفة يوم خروجنا من «يثرب»، كنت أنظر إليها بثقة في اللقاء مرة أخرى، حينها لم أدرِ ما مصدر تلك الثقة، أما الآن وبعدما رأيت الموت مرات ومرات، أدركت أن مصدرها هو «يقين المُحِبِّ». فالأقدار لم تضعها في طريقي عبثًا ولم تختبرنا بالفراق مرات ومرات عبثًا، وإنما ليستيقن المحب من حبه، والعاشق من عشقه.

لكزتني (أم السعد) في كتفي، فأخرجتني من شرودي وهي تقول:

ـ هيا يا (شمعون)، فلا طاقة لي بتنظيف بيت الشيخ (نابت) وبيت الشيخ (دومة) وحدي، سترافقني حتى ننتهي منهما.

سرت وراءها وأنا أقول متنهدًا:

ـ أرافقك يا خالة حتى المنتهى.

وجاد الصباح بشمس أخرى أشرقت جهة الشمال فسطع نورها من خلف جبل الرحمة، رأيت القافلة الصغيرة تهبط من فوق جبل النور، فوودت لو أهرول إليها كي أستقبل رواحلها بالضم والقبلات، أناخ الحادي ناقة الشيخ (أواس)، ثم الهودجين الآخرين اللذين حجبا عن عيني قلبًا سمعت دقاته قبل أن أراه، علت كلمات الترحيب بالشيخ الكريم واستقبله (بنو يطور) بالعناق والقُبلات، وحينما وصل إليَّ ضممته إلى صدري وقبَّلت كتفيه، وعيني معلقة على الهودج الذي انطوت ستائره واستعد لكشف خبيئته التي انتظرتها قرابة العام. هبطت وهي تستر شعرها ونصف وجهها بخمارها ولحظاها يبحثان عني بين الرجال، حين التقى اللحظان طفَت في المآقي دموع فرح، واختلجت الشفاه همسًا، وتحدثت العيون حديثًا صاخبًا ظننت أن كلماته قد وصلت إلى كل الواقفين من حولي.

دفعني (ليث) أمامه حين تسمرت قدمي لفترة طويلة في طريق الشيخ (أواس) وقال للشيخ:

ـ جدي في البيت! قد توعكت صحته وأصبح غير قادر على الخروج.

توجهنا إلى البيت، تسير خلفنا الأُمَّان وبنات الخال، رائحة طعام (أم السعد) كان أول ما استقبلنا في فناء البيت، وحين دخلنا وجدنا الشيخ (عابر) يجلس على أريكة في صحن المنزل متكئًا على عصاه، هرولت (أروى) إليه فقبَّلت رأسه وخديه وجلست إلى جواره.. راعها أن تراه ذابلًا واهنًا تتحرك يداه في اهتزاز وصعوبة، أصبحت ملامح وجهه جامدة، حتى حديثه صار بطيئًا جامدًا لا حزن فيه ولا فرح، جلس الشيخ (أواس) على أريكة أخرى إلى جوار الشيخ (عابر) بينما دخلت زوجته وبناته مع أم (ليث) إلى الحجرة الداخلية وبقيت أنا و(ليث) واقفين إلى جوار الباب، هو يتطلع إلى الحجرة التي دلفت منها (لامار)، وأنا أتطلع إلى (أروى) التي جلست إلى جوار جدها تُدلِّك يده بين كفيها، لم يثقل الشيخ (أواس) على الشيخ (عابر) في الحديث، كان يعلم أن

لا يزال جريحًا حزينًا على فقدان ولديه، فاكتفى بأحاديث المجالس التي لا تعدو عن الترحيب وحكايات السفر والطريق، وحين دخلت (أم السعد) بالطعام، توقف الحديث، وهمت (أروى) بالقيام كي تلحق بالنساء في الحجرة الداخلية، ولكن الشيخ (عابر) رفع يده المهتزة وقال في بطء:

ـ (أروى)..!

عادت إليه مُسرعة وجلستْ إلى جواره قائلة:

ـ لبيك جدي!

وضع يده على كتفها ثم قال:

ـ (عمرو بن عمك دومة).

نظرت إليه في وجل وانتظرت في قلق حتى يستجمع كلماته التالية، فتابع بعد برهة:

ـ أنتِ في حِلٍّ من خطبته.

أطرقت إلى الأرض ولكنها لم تستطع أن تخفي ابتهاج ملامحها. رفع يده التي تحمل العصا وأشار إليَّ وهو يقول:

ـ و(شمعون) هذا قد طلبك لنفسه فماذا ترين؟!

شعرتُ بالخجل لي ولها، بعد أن تجمَّعت علينا العيون، ووددت لو انطلقت خارجًا. قالت وقد ذهبت أنفاسها مع ضربات قلبها المتسارعة فخرج صوتها خفيضًا مبحوحًا:

ـ الأمر لك يا جدي، عمرو أخي وشمعون زينة الرجال.

هز رأسه واجتهد كي يبتسم، ولكن ابتسامته لم تنفرج عن أسنانه التي كنت أغبطه على كمالها ثم قال:

ـ فليحفظ الرب أخاك (عمروًا)، وليبارك لك في زوجك (شمعون).

أفلتت (أروى) منه ثم أسرعت إلى داخل الحجرة خجلى، وسمعنا تهليل

النسوة بالداخل وزغردة خفيضة أطلقتها (أم السعد).. ربت (ليث) على كتفي في قوة وقال:

ـ نِعْمَ الصديق ونِعْمَ الصِّهْر!

خطوت مسرعًا إلى الشيخ (عابر)، ثم جثوت على ركبتي أقبل يده. قلت وقد طفرت الدموع من عيني:

ـ لن أنسى فضلك ما حييت!

ربت على كتفي في وهن وقال:

ـ عوضني الله بك وبـ(ليث) عن فقدان (عمرو) و(نابت).

صمت لحظات ثم قال في صوت مرتعش كارتعاش يديه:

ـ ولو كان (نابت) حيًّا لتركها تتخير زوجها الذي ترضيه!

حينئذٍ تحدث (ليث) وقال:

ـ وأنا يا جدي!

نظرنا إليه فوجدنا صدره يعلو ويهبط من الاضطراب. فقال الشيخ (عابر):

ـ أنت ماذا يا ولدي؟

قال وقد تعرق جبينه خجلًا:

ـ أريد أن أخطب (لامار) ابنة خالي لنفسي!

صمت الجميع دهشة، ونظر الشيخ (عابر) إلى الشيخ (أواس) الذي فاجأته العبارة، فصمت قليلًا ثم قال:

ـ نعم الشاب (ليث)، ولكني أسألها وأسأل أمها أولا...

وقبل أن يكمل عبارته، انطلقت زغردة أقوى من سابقتها من داخل الحجرة ملأت البيت بهجة وميزنا فيها صوت (أم لامار)!

ضحك الشيخ (أواس) وقال:

ـ مبارك يا بني، لو علمنا أن الأفراح تنتظرنا في «بكة» لعجلنا بالزيارة من قبل.

* * *

الورقة السابعة والأربعون

وحين عزمت على الكتابة عن الليلة التي بنيت فيها بـ(أروى)، تملكني الخجل، وجف المِداد في قلمي حياءً، والحق أن الخجل كان رفيقي في هذا اليوم منذ بدايته وحتى نهايته.. في الصباح طلبني الشيخ (أواس) في مَضْيفتِه بدار الشيخ (دومة)، سألني عن أشياء تحدث في ليلة البِناء لم أجد إجابة عنها سوى الصمت، فأنا لم يكن لي أقران من الصبية أتحدث معهم عما يجيش في صدري من نزق وميل للإناث، وحين كبرت قليلًا، لم تكن لي خبرات مع النساء سوى خيالات جامحة أراها في منامي، كلما استثارتني نظرة خائنة أو كلمة عابثة من إحداهن، المرة الوحيدة التي تحدثت فيها مع أبي عن النكاح كان عن نعجة وكبشها الذكر، رأيت الكبش يمتطيها ويحكم ساقيه على ظهرها وهي أسفله تئن دون أن تهرول مبتعدة، حين هممت بأن أضربه كي أبعده عنها حتى لا يؤذيها، نهرني أبي وقال: «دعها لعلها تصير عشراء». أدركت حينها أن النكاح يؤدي للإنجاب، ولكني لم أرهق تفكيري في معرفة طريقة إنجابي، ومنعني الحياء من أن أسأل أبي عن ذلك، وحين ضممت (أروى) إلى صدري لأول مرة وتنسمت عبير شعرها اشتعل قلبي بالنبض، وحين تكرر ذلك اشتعل جسدي كله بالنبض، وشعرت بثورة ظلت تلاحقني في صحوي ومنامي لم يخمدها سوى ألاعيب الوهم ومجون الأحلام.

في ذلك الصباح، وجد الشيخ (أواس) الصمت رفيقي عند كل سؤال،

فاستفاض هو في الحديث، هتَكَ أستارًا كنت أستشرف بعضًا مما وراءها بفطرتي، ويغمُّ علي بعض منها، فلما مزقتها كلماته، جَفلْتُ وقد رأيت أمامي الحقيقة عارية. لا أدري لماذا لم يدعني الشيخ (أواس) أتكشف الأمر وحدي؟! الشعور بأن من حولك يعلمون ما أنت مُقدِم عليه يفقدك بهجة المغامرة، ولذة الاكتشاف، ويجعلك تحمل عبء نظرات العيون من حولك، كيف تستباح أولى لحظاتنا سويًّا بهذا القدْر من السفور؟! وخطر في بالي سؤال عما إذا كانت (أروى) على علم بذلك! وأباح لي هو بأن زوجته وأم السعد يمكثان عندها منذ ليلة أمس، يُخضِّبانها بالحناء ويعدَّانها للزفاف، لم أتشكك لحظة في أن حديثًا قد جرى بينهما وبين (أروى) يشبه حديث الشيخ (أواس) لي، وشعرت حينها بأن حال الكبش الذي وطئ نعجته أمامي كان أكثر سترًا من حالي، وتمنيت لو أرزق قدرًا من بلادته في تلك الليلة!

عُدتُ إلى منزل الشيخ (عابر) كي أتجهز للزفاف، فقد جرى العرف عندهم أن يتجهز الزوج في بيت والعروس في بيت آخر، ثم يزفَّا سويًّا إلى دار البناء، تحممت وأزلت أدران جسدي، وتعطرت بالطيب ثم ارتديت قميصًا أبيض ناصع البياض، وانتعلت حذائي المصري الذي ادخرته ليوم كهذا، وبعد أن انتصف النهار خرجت في موكب من الفتيان يتقدمهم (ليث)، أمتطي ناقة يتدلى من جانبيها أنماط الحرير وتتزين رأسها بإكليل من الزهر، ويسير أمامها حبشيان يتلاعبان بشعلتي لهب، ويدق آخرون الدفوف من حولهما، وصلنا إلى موضع الوليمة التي أقامها الشيخ (عابر) والشيخ (أواس) إلى جوار «الصفا»، فأُنيخت الناقة ونزلت عنها ثم اتجهت إلى الشيخ (عابر)، الذي كان جالسًا، فقبَّلت يده ووقفت إلى جواره. توافد إلينا الرجال من بطون (بني إسماعيل) وأيضًا من «خزاعة»، فقد كان هذا هو أول زفاف في «بكة» بعدما انتهت الحرب ووضعت أوزارها، وجاء (عمرو بن لحي) وولده (ثعلبة) تتقدمهما جلبة وجمع من الناس وتسير خلفهما ناقة أهداها لوليمة الزفاف، تناول القصابون الناقة، وداروا بها إلى المذبح المقام خلف «الصفا»، وهي تجر وراءها جمع من الأطفال

يهللون في بهجة، وكأن اليوم يوم عيد، مدت صحاف الطعام المملوءة باللحم والمرق والثريد، ودارت كئوس الخمر في ركن حوى كبراء القوم من «خزاعة» وبعض المقربين إليهم من (بني إسماعيل)، ولكن لم يشاركهم الشراب أحد من (بني يطور)!

وتعاقبت زُمَرُ الوافدين على المأدبة، وكلما رحل فوجٌ تلاه فوج آخر حتى اقترب النهار من الزوال، ومالت الشمس إلى المغيب، حينئذٍ علت جلبة من جهة البطحاء، ورأينا موكب النساء قادمًا تسبقهن نقرات الدفوف، وتنطلق من ألسنتهن الزغاريد التي تُصدر صوتًا كالسهام يدفع عيون الحاسدين عن أبهى عروس.. جلست (أروى) على «مزفّة» من الخشب وكأنها هودج مكشوف فوق ناقة مزينة الجوانب بأنماط الحرير، وقد ارتدت ثوبًا زاهيًا، يكشف عن يديها وكعبيها اللذين تخضبا بالحناء ويفوح من راحلتها عبير عطرها الذي سبقها إلينا، وحين وصل الركب إلينا أنيخت ناقتها، ثم هبطت من فوق (مزفّتها)، وجلست أمامي على سنام ناقتي المناخة وأنا أحيط ظهرها بذراعي، وحين ناءت بنا الناقة على قائميها، علت الزغاريد مرة أخرى، وسار بنا الركب إلى داري الجديدة في طرف البطحاء.

وصلنا إلى البيت، وقد غابت الشمس أو تكاد، دخلت أنا وهي و(أم السعد) و(أم لامار) إلى الدار، تعجبت من بقاء بعض النساء والرجال من بينهم أمها و(ليث) والشيخ (أواس) خارج الدار! جلست (أم لامار) على أريكة في صحن الدار، بينما وضعت (أم السعد) الطعام الذي تحمله والفاكهة في الخزانة، ثم دخلت إلى حجرتنا، فنفضت السرير بيدها، وأشعلت قنديل الزيت ثم خرجت. احتضنت (أروى) التي امتقع لونها وقالت لها وهي تضع في يدها خرقة بيضاء:

ـ هيا يا بنت السعد والشرف!

ثم جلست إلى جوار (أم لامار) على الأريكة في انتظار خروجي من الحجرة، استعدت كلمات الشيخ (أواس) التي حكاها لي في هذا الصباح، فشعرت

ببرودة أطرافي ثم نظرت إلى المرأتين متحرجًا. أمسكت بيد (أروى) وهممت بالدخول إلى الحجرة فوجدت يدها أشد برودة مني وكأنها غابت عنها الحياة، وتسمَّرت قدماها فلم تستطع أن تدلف من بابها.

سمعت صوت (أم السعد) يأتي من خلفي مؤنبًا لها:

ـ هيا يا (أروى)، الناس في انتظارنا.

فركت يدي بيدها وهممت بالدخول مرة أخرى ولكنها تسمَّرت مرة أخرى، وسمعتها تنتحب، لم أستطع أن أتحمل هذا القدر من القهر لي ولها، فالتفت إليهما وقلت حاسمًا:

ـ اخرجي فأخبريهم أن العروس بنت سعد!

شهقت (أم السعد) وقالت:

ـ كيف؟

أدميت أصبعي في برغي الباب، ولطخت به الخرقة البيضاء وقلت لها:

ـ هكذا!

أرادت أن تتحدث، ولكن (أم لامار) التي كانت تشعر بالحرج هي الأخرى، التقطت الخرقة من يدي وقالت لـ(أم السعد):

ـ أطلقي زغردة يا (أم السعد).

فأطلقت زغردتها، وسمعنا جلبة الناس بالخارج، حينما خرجت إليهم المرأتان بالبشرى، وبعد قليل هدأت الأصوات ورحل الجميع ولم يبقَ إلا أنا و(أروى) وسكون الليل، رأيت وجهها عن قُرْب لأول مرة في ضوء القنديل، استردت لونها بعد أن خمدت الأصوات واطمأنت لرحيل الجميع، أمسكت إبهامي المجروح فقبَّلته وهي خجلى مما حدث، ضممتها إلى صدري وشعرت بنعومة خدها على وجهي لأول مرة، استكانت رأسها مطمئنة وأحاطت كتفي بيديها، وكأنها تستجير بحضني، حرك خضوعها وضعفها شوقي إليها، فضممتها أكثر حتى لامست دقات قلبي قلبها، لا شيء يثير الشوق في قلب الرجل قدْر

خضوع امرأة مُحِبَّة، ولا شيء يحرك صلابته قدر ذوبانها بين يديه.. وحين تلامست الشفاه عفوًا، مسَّ القلب متعة لم أختبرها من قبل حتى في أشد أحلامي مجونًا، جذبتنا تلك المتعة إلى عالم من السحر لا يرضى إلا بالمزيد، وكلما ارتقينا فيه منزلة كلما انفصلنا عن عالمنا أكثر، وكأنما خلعت أرواحنا رداء الجسد، وأبت إلا أن تُحلِّق في سماء النشوة حتى تصل إلى منتهاها.. أفلتنا عقال الخجل وأغلقنا باب الحجرة دونه، حَمَلْتُها إلى مخدعنا، وقضينا الليلة ننهل من كئوس الحب، ونرمح في بساتين العشق، ونترنح من سكراته مرات ومرات حتى أنهكنا التعب وغبنا في النوم على فرش مخملي يهدهد الروح ويسمو بنا بعيدًا عن عالم الأنعام الذي أراده لنا الشيخ (أواس) و(أم السعد).

واستيقظنا من نوم طويل خلا من الأحلام، على طرقات متقطعة على باب البيت، ارتديت ثيابي وخرجت إلى الفناء فسطع عيني ضوء الشمس التي ارتفعت في السماء، فتحت الباب فوجدت (أم السعد) تضع يدها على فمها وعيناها تذرف الدموع، قالت وهي تكتم صرخة تريد أن تمزق صدرها:

ـ مات الشيخ (عابر) يا (شمعون)!

* * *

«ويكأنه أسلم الروح بعد أن أتم فضله عليَّ! ويكأن الرب قد أرسله رسولًا من أجلي أنا فقط!».. هكذا كنت أبكيه وأرثيه وأنا أسير في جنازته التي امتدت صفوفها ما بين «المَعلاة» و«الصفا».. صعدنا إلى الربوة التي أقيمت عليها مقابر أهل «بكة»، نحمل المحفَّة الخشبية التي رُبِطَ إليها جسده الملتف بأكمله في لفائف بيضاء إلا من وجهه الذي تُركت صفحته البيضاء مكشوفة لنراه ونلقي عليه النظرة الأخيرة قبل أن يطويه التراب، ظنِّي أن أحدًا في «بكة» لم يخرج كي يودعه إلى مثواه، لم أتخيل ذلك القدْر من المحبة في القلوب لهذا الرجل، كانت الأقدار كريمة معي؛ إذ منحتتني تلك الفرصة كي أقترب منه، وبالأخص في أيامه الأخيرة، فأي خير قد فعلته في حياتي حتى يكون هذا الرجل هو معلمي ودليلي في الحياة؟ حين نظرت خلفي ورأيت الصفوف الممتدة إلى

السفح تتراص للدعاء له، شعرت بأن السماء قد تفتحت وتهيأت لاستقباله، وحين تعالى تسبيحهم باسم الرب (القدوس، القدوس، القدوس) شعرت بأن أرواح الأبرار، قد أتت لاستقباله، هكذا أخبرني ذات مرة عن أرواح الملائكة المُسبِّحين حول العرش، الذين يصنعون مشيئة الرب، ويرفعون المُسبِّحين معهم إلى أعلى منزلة، عُدنا إلى الدار التي خلت من المعزين وفي حلقي مرارة الفقد مرة أخرى، أشفقت على (أروى) و(ليث) اللذين فقدا أباهما، وها هما يفقدان جدهما، حتى عمهما (دومة)، قد ذهب بلا رجعة، قد يكون حالي أسوأ من حالهما، ولكن ألم الانكسار يكون دائمًا أشد على من اعتاد السند!

أخَّر الشيخ (أواس) عودته إلى «يثرب» عدة أسابيع. أراد أن يطمئن على أخته وأولادها، وأراد أكثر أن يؤمِّن انتقال سيادة القبيلة إلى ابن أخته (ليث)، شعر بأن أبناء أخي الشيخ (عابر) قد يطمحون إلى السيادة بعدما مات (نابت) ورحل عنهم (دومة)، السيادة في القبيلة تكون للحكمة أو المال أو القوة، و(ليث) ـ وإن كان واعدًا ـ لا يملك أيًّا من هذا.. تحدث الناس في (بني يطور) عن مصير تجارتهم بعد الشيخين (نابت) و(دومة)، لاسيما وأن سِلَعهم قد بارت في موسم الحج الماضي بسبب النزاع بين «جرهم» و«خزاعة». فضلًا عن الشقاق الواقع بينهم وبين بقية (بني إسماعيل) في تلك الأيام، أثار بعضهم الشكوك في القدرة على العودة إلى «رسَّة» أو التجارة بينها وبين «بكة» وهم لا يملكون مؤن السفر من الأساس، وأثاروا شكوكًا أكثر حول مستقبل القبيلة مع زعيمها الصغير.. وحينما اجتمع بهم الشيخ (أواس) اقترح عليهم أن يقوموا برحلات قصيرة للتجارة بين «بكة» و«يثرب»؛ فذلك أقل كلفة وأيسر مئونة، وشجعهم على تجارة الكرم وعصيرها، فالخمر قد أصبحت شراب السادة في «بكة»، وسيلقى بيعها رواجًا، وكان مما قاله لهم مشجعًا:

ـ قِدرٌ من الخمر يعدل ثمن جوالٍ من الطحين!

ثم زين لهم الأمر بأن وعد بأن يهب (بني يطور) قافلة من كرم بساتينه كي تُباع في «بكة». وقال مؤكدًا على مراده من هذا الحديث:

ـ إذا أهلَّ عليكم الصيف خرجتم بقافلتكم إلى «يثرب» فوهبنا لولدنا (ليث) قافلة من الكرم لم ترَ «بكة» مثلها من قبل!

شعرت باستنكار لما قاله، ووجدت في كلامه خرقًا لما كان يسير عليه الشيخ (عابر)، ولكني فوجئت باستحسان العيون من حولي للفكرة، بل رأيت في عيني (ليث) فرحًا بها، فقلت مستنكرًا:

ـ نبيع الخمر في القرية المقدسة؟!

قال الشيخ (أواس):

ـ سبقنا إلى ذلك الكثير، والخمر ليست مهجورة في «بكة» يا بني!

قلت:

ـ ولكن الشيخ (عابر) كان يكرهها ويذم شاربها.

قال الشيخ (أواس):

ـ أنا أيضًا لا أشربها ولكني أبيعها لمن يرغب.

قال ابن أخي الشيخ (عابر) الذي سنحت له الفرصة بعد كلامي للهجوم على رأي الشيخ (أواس):

ـ لو كان الشيخ حيًّا لنهركم عن هذا! نبيع الخمر في «بكة» ونعين الفاجر على فُجْرِه! أما يكفي ما فعله (إيساف) و(نائلة) في حرم الكعبة بسبب الخمر؟!

قال الشيخ (أواس):

ـ الخطيئة على مَنْ أخطأ، وإن صحَّت الرواية فقد تحمَّلا وزرهما!

وجدتني أقول منفعلًا:

ـ والخطيئة أيضًا على من أعان عليها!

نظر إليَّ مندهشًا ورأيت استنكارًا في عيني (ليث) وبعض الجلوس. فقلت وقد شعرت بالحرج من العيون المتفحصة:

ـ يا شيخ (أواس)، أنتم قوم على الفطرة، ولم تروا غضب الرب وعقابه،

قد أتيت من قوم يمسخون على مكانتهم إذا أخطئوا، ولو أخطأ فيهم الفاجر لعُوقب الصالح على عدم ردعه له!

قال أحدهم ساخرًا:

ـ وماذا ترى يا صهر الشيخ (عابر)؟!

قلت متحمسًا:

ـ نبيع التمر والعجوة كما كنا نفعل، وإن شئتم نبيع الصناديق أيضًا، وأنا كفيل بصنعها!

علت الضحكة بينهم، ورأيت بعض الحرج والغضب في عيني (ليث) وانبرى أحدهم قائلًا:

ـ نِعْمَ الرأي ما قاله الشيخ (أواس)، ولو كان الشيخ (دومة) بيننا لذهب إلى ما ذهب إليه الشيخ (أواس).

ثم قام من مقامه وصافح (ليثًا) قائلًا:

ـ بارك الله فيك وفي خالك يا (ليث)، سِرْ على بركة الله ونحن معك.

فإذا بالناس يحذون حذوه ويقومون الواحد تلو الآخر، يصافحون (ليثًا) وكأنهم يمنحونه البيعة، حتى أولئك الذين أضمروا في نفوسهم بغضًا لـ(ليث) أو استنكارًا لما ذهب إليه قاموا فمنحوه البركة. ووجدتني وحدي في جانب، والآخرون في جانب آخر، فقُمْت من مجلسي وذهبت إلى (ليث)، وضعت يدي على كتفه وقلت له:

ـ فليُرْشدك الرب لما فيه الخير لنا ولك أخي الحبيب.

ثم تركته وانصرفت.

* * *

الورقة الثامنة والأربعون

اقتربت أشهر الصيف، واشتد قيظ «بكة» مبكرًا رغم أننا كنا لا نزال في نهايات شهر نيسان، استعدت قافلة (بني يطور) للخروج إلى «يثرب» للعودة بقافلة الكرم أو» قافلة الخمر» كما أحببت أن أدعوها! كنت في العريش الذي أقمته بجوار المنزل أُنهي صُنع بعض الصناديق المتأخرة على أصحابها ومعي غلام حبشي يعاونني في كشط ما أقوم بتجميعه حينما دخلت علينا (أروى) العريش ببطنها المنتفخة بحملها والتي جعلت أنفاسها تتهدج مع كل خطوة تخطوها. أسرعت إليها ووضعت لها صندوقًا كي تجلس عليه، جلستْ صامتةً وفي عينيها حديث تبوح به بالنظرات بعد أن عجزت كلماتها عن إقناعي به خلال الأيام الماضية.

قلت لها:

ـ لماذا لم تُرسلي (أم السعد) في طلبي بدلًا من أن تخرجي من الدار في هذا القيظ؟

اتجهت ببصرها إلى الغلام، وكأنها لا تريد أن تتحدث أمامه.. أمرتُ الغلام بأن يذهب للطعام، والراحة وجلست على صندوق آخر قبالتها ثم قلت لها:

ـ هاتِ ما عندك؟

قالت:

ـ ستخرج قافلة (بني يطور) بعد أيام إلى «يثرب».

قلت:

ـ وما شأننا؟

قالت ثائرة:

ـ (ليث) أخي، و(أواس) خالي يا (شمعون). وأنت تثير الناس ضدهما.

قلت صادقًا ولائمًا في ذات الوقت:

ـ معاذ الله يا (أروى) أن أُثِر الناس عليهما، فـ(ليث) أخي أيضًا، والشيخ (أواس) بمثابة الخال لي.

أمسكت بيدي وكأنها تعتذر، ثم قالت متوسلة:

ـ إذن فلماذا امتنعت عن الخروج معهم؟! لماذا جعلته يبدو صغيرًا في أعين الناس، حتى قال عنه الحاقدون: «قد اعتزلته أخته وزوجها»؟!

قلت لها صارمًا:

ـ خير له أن يقولوا ذلك بدلًا من أن يقولوا حاد أحفاد الشيخ (عابر) عن مسار جدهم!

قالت حزينة:

ـ أحزن لذلك أيضًا يا (شمعون)، ولكنه ضيق الحال وعوز الحاجة! أما ترى أن (بني يطور) قد صاروا أفقر بطون (بني إسماعيل)، وأهون الأحياء في «بكة»! لم ينسَ الناس ما فعله عمي (دومة)! قد امتد حقد (بني إسماعيل) على (بني يطور) وحقد (بني يطور) على أحفاد الشيخ (عابر)! وإن لم يَسْعَ (ليث) إلى جلب المال لانفرط عقد القبيلة من يده!

قلت لها متعجبًا:

ـ وهل كان الشيخ (عابر) يركن إلى المال حين قاد (بني يطور)؟ وهل لو عاد الشيخ (نابت) حيًّا هل كان سيسلك نفس الطريق؟! صدِّقيني يا (أروى)

المال وحده لا يساوي شيئًا إن لم يزينه الشرف! والقوة وحدها لا تساوي شيئًا إن لم تزينها الحكمة!

ثم أردفت:

ـ أما يتعظ هؤلاء بما وقع لـ(عمرو بن الحارث) الذي ركن إلى ماله؟ أما يتعظون بما وقع للشيخ (دومة) الذي اغترَّ بقوته؟!

نظرت إلى عيني وكأنها ترى شخصًا آخر لا تعرفه ثم قالت:

ـ من أين جاءتك تلك القسوة؟

قلت مبهوتًا:

ـ قسوة؟!

قالت باكية:

ـ نعم! خذلت أخي وخذلتني!

قُمتُ من جلستي ووضعتُ يدي على كتفها فجفلت عني وأشاحت بكتفها بعيدًا، قلت لها:

ـ ليست قسوة يا (أروى) ولكنه اليقين! يقين من رأى بعينيه كيف تغزل شراك الفتن فيتعثر بها أكثر الناس ثباتًا! رأيت أبي يا (أروى) وهو يفرُّ من نار الفتنة إلى «رسَّة»، حين رآها توشك أن تلتهم الجميع وكان زوج أخته هو الذي ينفخ في نارها!! رأيت أيضًا كيف يكون عقاب الرب على أناس تحايلوا على شرعه واعتدوا على حُرْمة السبت فنالوا العذاب مع الذين بخلوا عليهم بالنصيحة، صدِّقيني يا (أروى) قد رأيت أكثر مما رأى قومك، وتعلَّمت من جدك الشيخ (عابر) أكثر مما تعلموا!

مسحت دموعها وقالت وهي تقوم من مكانها وكأنها لم تسمع ما قلت أو لم تفهمه:

ـ اعتزل الفتنة، واعتزل أخي، واعتزلني أنا أيضًا يا (شمعون)، وحسبي من الخذلان ما رأيته منك اليوم!

ثم انصرفت عائدةً إلى الدار.

(رومانا) و(أروى) امرأتان عاشتا في حياتي وكلتاهما على طرفي نقيض! كنت أرى أمي كإلهة المصريين (حتحور) التي رأيناها من قبل في برية «سين»، امرأة فاتنة لها قرنان، ويبرز من جسدها أغصان ترسل الفيء وتسقي الظمآنين، هي الأم البارة التي تعطي الحنان بلا حدود، وتمنح بلا مقابل، أما (أروى) فكانت ظبية صحراوية جامحة، يقولون هنا: إن الظبي يكره المكوث في مكان واحد، ويضربون به المثل فيقولون عن الشخص الذي يغادر حاله أنه «كالظبي يغادر ظلّه»، وكذلك كانت هي، كان جموحها يقودها في كل شيء؛ إذا أحبت، وإذا كرهت، وإذا غضبت، وإذا رضيت.. حتى في الفراش، كانت تجمح جموح فرسة ترمح في البيداء إذا كنا على وفاق، وإذا غضبت انطوت على نفسها كمحار رخو انكمش على نفسه في قوقعته، كنت أقارن بين تقلُّبها وبين رسوخ (رومانا) الدائم فأتعجب من أن كلتيهما امرأة، وأتعجب أكثر من عشقي لكلتيهما رغم وقوفهما على طرفي نقيض.

اعتزلتني (أروى) أيامًا بعد أن غادرت قافلة (بني يطور) «بكة» من دوننا، اتخذت لنفسها مخدعًا آخر ونقلت أغراضها في حجرة أخرى. أغضبني ذلك ولكني تفهمت حزنها، اشتريت لها زجاجة عطر وتركتها على دولاب أغراضها فلم تفتحها وتركتها على حالها لأيام، ما أزعجني حقًّا أنها كانت تعتزل الطعام أيضًا، وكنت أخشى وهن الصيام مع وهن الحمل عليها وكنت أوصي (أم السعد) بأن تقوم بإطعامها، فقد كانت (أم السعد) تعيش معنا منذ مات الشيخ (عابر)، وكانت تقوم على شئون البيت وتُعِدُّ لنا الطعام وتُعوِّض (أروى) ولو قليلًا عن غياب أمها التي رحلت مع أخيها (ليث) إلى «يثرب».. جاءتني (أم السعد) ذات ظهيرة بطعام الغداء في عريش النجارة، وقالت:

ـ (أروى) لم تأكل الزاد منذ أمس!

تنهدت يائسًا وأنا أقول:

ـ وماذا عساي أن أفعل يا خالة؟! لا تقبل لي كلمة ولا نصحًا.

قالت بلهجة شعرت فيها ببعض العتاب:

ـ مسكينة تلك البُنية! مات جدها وأبوها، ورحل عنها أمها وأخوها، وزادها الحمل وهنًا على وهن!

قلت زافرًا:

ـ لا ينقصني تقريعك يا (أم السعد)، أم تريدين أن تزيدي من غمِّي؟!

قالت:

ـ معاذ الله يا (شمعون)، ولكني أشفق عليها وأخشى عليها الهلكة، أفلا وعَدْتها ولو كذبًا بأن تلحقوا بقافلة (بني يطور) بعدما تضع حمْلها!

لم أجد ما أقوله.. فقالت حانقة:

ـ عنيد أنت يا (شمعون)! حتى الوعد تبخل به عليها!

زفرت في يأس وأنا أقول:

ـ مالي حيلة أخرى يا (أم السعد)، ما دام في هذا نجاتها فإني فاعله، ولن أعدها كذبًا! بل أفكر بالأمر بعد أن تضع حملها.

ابتهجت فرحًا وقالت:

ـ حسنًا اذهب لتخبرها بذلك.. قلت لها:

ـ ليس الآن! لديَّ أعمال وسأعود إليها قبيل الغروب.

انصرفت مبتهجة وقالت:

ـ حسنًا ولعلها تستجيب لي فتأكل شيئًا ولو يسيرًا.

قبل الغروب، كنت قد فرغت من أعمالي، أحضر لي الغلام الحبشي من المنزل إناء به ماء وثوبًا نظيفًا وزجاجة الطيب والدهن والمشط، فأخذتها وتركته ينصرف على أن يعود مبكرًا في الصباح، ذهبت إلى الخلاء خلف الدار فخلعت ملابسي وتحممت، أجتهد في أن أزيل عَرَق الصيف اللزج من شعري وجسدي، وبعد أن تجففت بثوبي القديم، لبست ثيابي البيضاء النظيفة، ثم مسحت شعري

بالدهن ومشطته إلى فرقين انسدلا على أذني وطيَّبت مفرقه ببعض الطيب.

كنت أُمنِّي نفسي بأن تُسرَّ (أروى) بما سأخبرها به، وأن يصل ذلك ما انقطع بيننا من الشوق طيلة الأسابيع الماضية، حين دخلت إلى صحن الدار وجدتها تجلس على الأريكة إلى جوار امرأة غريبة فأربكتني المفاجأة رغم أن المرأة لم ترتبك، فلا هي سترت رأسها ونحرها بخمارها المنسدل على كتفيها، ولا فردت ساقها التي طوتها أسفل عجيزتها فكشفت عن ركبتها وجزءًا من فخذها!

أطرقت بصري حياءً وغمغمت قائلًا:

ـ عمتم مساءً.

ثم دلفت إلى الحجرة الداخلية دون أن أنتبه إن كانت إحداهن قد ردت التحية أم لا! تبعتني (أم السعد) إلى الداخل، قلت لها متأففًا:

ـ من الضيفة؟!

قالت وكأنها تزف إليَّ خبرًا:

ـ صديقة قديمة لـ(أروى)، أتت لتزورها وتمكث معنا بضعة أيام.

قلت مستنكرًا:

ـ تمكث معنا وتترك قومها! ألا يستحي رجال قبيلتها؟!

قالت وهي تشير إليَّ كي أخفض صوتي:

ـ هي فتاة يتيمة من (بني قيدار) كانت في عمر (أروى) حين ربَّاها الشيخ (نابت) في بيته لسنوات وصارت مع الأيام صديقة (أروى) المُقرَّبة، فلما بلغت سن العاشرة طلبتها خالتها وألحَّت في طلبها، فتركها الشيخ (نابت) لها.

ثم خفضت صوتها وهي تقول وكأنها تفضي إليَّ بِسِرٍّ:

ـ كانت خالتها تُزيِّن الفتيات، وتُغنِّي في ليالي الزفاف، فلما رأت ابنة أختها وقد نضجت وأشرفت على البلوغ آوتها إليها كي تساعدها في عملها وتتكسب من ورائها!

قلت ساخرًا وأنا أهمس مثلها:

ـ وأين خالتها الآن؟

قالت وكأنها تشمت بها:

ـ ماتت نَّماصة النساء، بعد سنوات قليلة ولم تهنأ بتدبيرها!

قلت لها في مرارة:

ـ وكم من الوقت ستمكث معنا ربيبة النَّماصة تلك التي لا تحتجب عن الرجال!

قالت مؤنبة:

ـ لا أدري! ليتها لا تغادرنا! فقد أكلت (أروى) معها وشربت، ولم ينقطع الضحك بينهما حتى عُدْتَ أنت!

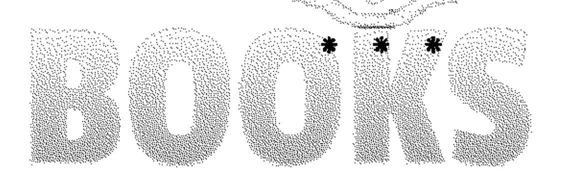
قلت مبهوتًا:

ـ حقًّا!! حتى عدتُ أنا؟!

ثم أردفتُ:

ـ حسنًا يا (أم السعد)، فلتدعيني أنا مع حزني وغمي فيكفيني شقاء اليوم وتعبه! وبعد أن انصرفت خلعت ثيابي وألقيت بجسدي على السرير وقد أدركت أن أمنياتي في تلك الليلة قد أفسدتها تلك الفتاة.

* * *



الورقة التاسعة والأربعون

الأيام التالية كانت شديدة الصخب في «بكة»، فهو موسم الخروج إلى الشمال في رحلة الصيف، أعد كل حي رواحله، وعلَتْ أصوات الحُداة في الطرقات تدعو الناس للإسراع في الخروج، الكثير من هذه القوافل تتجه إلى أرض «كنعان» والقليل منها إلى «آشور» و«بابل» و«مصر». أحزنتني مشاهد الرحيل، فالرحيل عندي له شجن، وذكرى لا تنمحي ليوم خروجي من «قادش برنيع». لو كانت الأمور سارت كما دُبِّر لها لكنت اليوم أرافق إحدى هذه القوافل إلى أرض «كنعان»! ولكن الأمور سارت كما اختارها القدَر لي ولم تكن لي حيلة في ذلك، اختيار القدَر ألطف بلا شك، ولكنها النفس تتوق للاستئثار بكل شيء، فماذا لو كنت اليوم خارجًا إلى الأرض المقدسة ومعي أمي و(أروى) وباقي عائلتي؟!

قافلة «خزاعة»، كانت هي الأكبر والأعظم، تضاربت الأنباء حول مرافقة (عمرو بن لحي) لها من عدمه، وسرى بين الناس أنه قد أُصيب بمرض في بطنه قد يمنعه الخروج، ولكنني رأيته في يوم الخروج على رأس القافلة، وإلى جواره (طريفة) العرافة التي أنبأته بأن علاجَ ما ألمَّ به من مرض موجود في أرض «كنعان»، وسمعت من يهمس بأن الجن قد أخبرها بذلك! وتعجبت من أن الجن قد عجزت عن علاجه في «بكة»، فأرسلته إلى أرض «كنعان» كي

يُعالَج! ظني أن (عمرو بن لحي) يجيد نشر هذه الأخبار التي تزيد من رهبته بين الناس وتضمن خضوعهم له!

حين رحلت آخر قافلة، هدأ الصخب في «بكة» وخلَت القرية إلا من النساء وبعض الشيوخ ورجال لا يملكون تجارة، وصنف ثالث من الشباب لم أشعر بوجودهم في الشهور السابقة، ولكنهم ظهروا في الطرقات وكأنهم خرجوا من الجحور بعد أن خلت القرية من رجالها. كانوا شبابًا في مثل عمري أو أصغر قليلًا من أبناء الأثرياء في «بكة»، يعقصون شعورهم في جدائل، ويسير الواحد منهم وقد تدلى من نطاقه زِقُّ الخمر، يشربون في الطرقات ويتجمعون مساءً في موضع يقال له «الدكة» يعاقرون فيه الخمر وترافقهم القيان والفتيات الماجنات من بني جلدتهم.. العجيب أنهم أطلقوا على أنفسهم اسم (الأندرون)، وكأن الواحد منهم هو الأندر في قومه!

كنت عائدًا إلى الدار قرب المساء أحمل في يدي لفافة ورق ودواة حبر فارغة، فقد كنت قد فرغت من عملي مبكرًا، وخرجت إلى خلوة ألفتها في تلك الأيام، تحت صخرة في جبل «المروة»، فأخذت أُدوّن كلماتي وأسطر أوراقي حتى فرغ مني الحبر، فجمعت اللفائف وعُدْت إلى الدار لا سيما وأن الشمس قد مالت إلى المغيب، كدتُ أدلف من باب السور حين خرجت صديقة (أروى) منه، اصطدمت بها فسقطت مني الأوراق والدواة، اعتذرت إليها، وجثوت ألملم أشيائي فجثت على ركبتيها أمامي تجمع الأوراق وقد ارتبكت مثلي، انفتحت إحدى اللفائف أمامها فقالت مندهشة:

ـ أتجيد الكتابة؟

قلت لها مرتبكًا:

ـ نعم.

تمَعَّنت في الكلمات ثم قالت في تعجب:

ـ أي نقوش هذه؟

قلت وأنا أتناول اللفافة من يدها وأطويها:

ـ هي حروف مصرية.

نظرت إلى عيني في جرأة أربكتني أكثر وقالت:

ـ أأنت مصري؟!

قلت وأنا أحيد ببصري عنها:

ـ أمي مصرية.. تحولت نظرتها الجريئة إلى نظرة إعجاب، زاد من ارتباكي.

ثم قالت:

ـ هذا رائع! حين رأيتك تدخل علينا أول مرة، أدركت أنك مختلف، كم أنتِ محظوظة يا (أروى) لأنك لم تتزوجي من هذه القرية البائسة.

قمت واقفًا، تظاهرت بطي الأوراق وأنا أنظر إليها بطرف عيني ثم قلت:

ـ أشكرك.

وهممت أن أنصرف.

فنادت عليَّ قائلة:

ـ ألا تحب اللهو يا ...؟! ما اسمك؟

التفتُّ إليها وقلت:

ـ (شمعون)!

وحينها وقع بصري عليها بالتفصيل لأول مرة، كانت بيضاء ممتلئة الوجه والشفتين، كحيلة العين وطويلة الأهداب، تجدل شعرها في ضفيرتين أرختهما أمام كتفيها فوصلتا لأسفل صدرها، وترتدي ثوبًا فضفاضًا طويلًا يكشف عن نحرها وأعلى الفاصل بين نهديها.

قلت وقد ارتبكت وتعرَّق جبيني:

ـ ماذا تقصدين؟

قالت:

ـ يخرج الشباب إلى (الدكة) فيستمتعون بالشراب وغناء الإماء ورقص الجواري.

تعجبت من أن تأتي أمرأة حُرَّة بفعل كهذا، فقلت لها مستنكرًا:

ـ ولكنك لستِ بجارية حتى تفعلي ذلك!

ضحكت ضحكة قصيرة شعرت بمرارتها وقالت:

ـ اليتامى أحطُّ قدرًا من الجواري في هذه القرية يا (شمعون).

ثم أردفت في مرارة أكثر قائلة:

ـ الجارية لها سيد يُنفق عليها، وقد يعتقها سيدها فتتزوج من عبد مثلها، أو ينجب منها فتصير أم ولد وتفتح لها أبواب الجنان، أما اليتيمة فلا هي حرة ولا هي عبدة! لا يرغب فيها أحد، ولا سبيل لها كي تعيش سوى أن تتسول الناس، أو أن تعاشر الرجال تحت الرايات الحمر!

ألحَّ عليَّ سؤال شعرت بوقاحته بعد أن سألته وقلت لها:

ـ وأنت بأي طريق تعيشين؟!

قالت في شيء من الفخر وقليل من التحدي ردًّا على وقاحتي:

ـ أغناني الغناء عن ذل السؤال وعار الزنا!

ثم قالت وقد انفتح قلبها وتطايرت منه الذكريات:

ـ أتدري؟ لعلي كرهتُ خالتي حين انتزعتني من دار الشيخ (نابت)! ولكني الآن أتذكرها بكل خير، وأدين لها بالفضل أن علمتني الغناء. أحيانًا أتفكر كيف يمكن أن يكون حالي لو بقيت في دار الشيخ (نابت) حتى الآن؟ أفضل الظن أني كنت سأكبر وأصير خادمة، مثلي مثل (أم السعد)، لا زوج ولا ابن ولا مال، أعمل يوميًّا مقابل الطعام مثلي مثل البعير في مربط الدواب! أتعلم يا (شمعون)؟ أنا الآن حُرَّة! بل أكثر حرية من حرائر تطوي مخادعهن أنَّات ذُلِّهن.

قلت وقد لانت كلماتي أمام منطقها وشعرت بمزيج من الشفقة عليها والإعجاب بها:

ـ ألا تكرهين الغناء بين السكارى؟!

قالت في صدق:

ـ أبغضه، ولكني لا أظهر عليهم إلا حين يستبد بهم السُّكر! حينها أبدأ بالغناء من وراء حجاب! أشعر حينها بأني أغني لنفسي وليس لهم، لا أظن أن أحدًا منهم يعرف شكلي، وأنا أيضًا لا أعرف أيًّا منهم فأنا لا أنظر إليهم، كل ما يعنيني بعد أن أفرغ من غنائي هو تلك الدراهم التي يعطيني إياها أصحاب الدكة.

صمتت، فجمعنا الصمت لحظات ولم أجد ما أقوله، فتنهدت ثم قالت:

ـ لا أدري لماذا تحدثت إليك أيها المصري!

ثم ضحكت وقالت:

ـ ولكني سعيدة بذلك، ولا زلتُ أغبط (أروى) على حظها! أليس لك إخوة؟!

ضحكت قائلًا:

ـ لا.

قالت وهي تستدير منصرفة:

ـ أعلم حظي! دعني الآن حتى لا تضيع عليَّ دراهم الليلة!

كدتُ أنصرف ولكن خطرت لي خاطرة فناديتها وقلت:

ـ انتظري!

فالتفتت وعادت تنظر إليَّ مستفسرة. فقلت:

ـ هلا امتنعت عن الذهاب إلى الدكة الليلة، وأعطيتك بعض الدارهم؟!

قطبت حاجبيها وقالت:

ـ لماذا؟

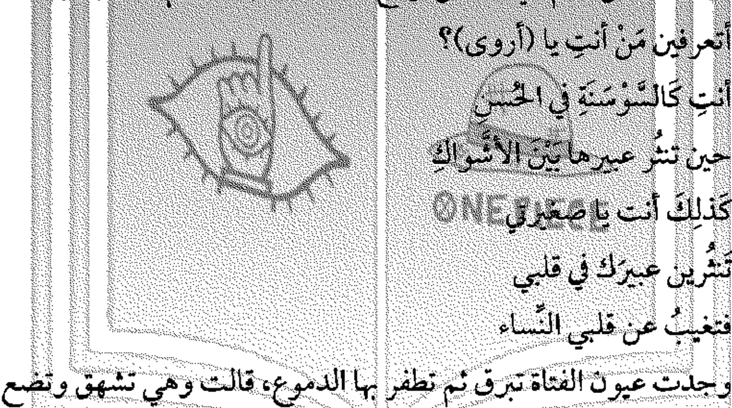
قلت لها:

ـ أريدك أن تغني لـ(أروى) فهي حزينة بعض الشيء.

انفرج فمها عن ابتسامة واسعة وقالت:

ـ حقًّا!

قلت لها:



ـ نعم، وهاك الأغنية التي ستغنيها.. ثم أمليت عليها كلمات الأغنية التي كنت أسمعها من (رام) في «قادش برنيع». وأضفت إليها اسم (أروى) وقلت:

أتعرفين مَنْ أنتِ يا (أروى)؟

أنتِ كَالسَّوْسَنَةِ في الحُسْنِ

حين تنثُر عبيرها بَيْنَ الأَشْواكِ

كَذلِكَ أنت يا صغيرتي

تَنثُرين عبيرَكِ في قلبي

فتغيبُ عن قلبي النِّساء

وجدت عيون الفتاة تبرق ثم تطفر بها الدموع، قالت وهي تشهق وتضع كفها على قلبها:

ـ ما أرق هذه الكلمات وما أعذبها أيها الشاب! كم أنت حنون يا (شمعون)!

ثم مسحت دموعها التي سَحَّت على وجنتيها وأنفها التي سالت، وقالت:

ـ لا حاجة لي بدراهمك، سآتي بالمعازف وفتاتين من صديقاتي، اترك لنا باب الدار مفتوحًا.

ثم استدارت وهمَّت بالانصراف فقلت لها:

ـ أشكرك يا... ما اسمك؟ نظرت إليَّ وقالت:

ـ اسمي (هوى)!

فابتسمت، وأدركت أنَّ لكل امرئ من اسمه نصيبًا!

* * *

دخلت إلى الدار، فوجدت (أم السعد) تغط في نومها في حجرتها، ورأيت نور القنديل يطفأ في حجرة (أروى)، وكأنها تريد أن تخبرني بأنها ستخلد إلى النوم، لم أفتح باب حجرتها كما كنت أفعل كل يوم، دخلت إلى حجرتي فأشعلت فتيل القنديل، وتركت بابها مفتوحًا، جلست أتفكر فيما دار بيني وبين (هوى) وأتعجب، هي نفس الفتاة التي رأيتها منذ يومين ولم أشعر تجاهها بالود حتى بعد ما حكته لي (أم السعد)، الآن أشعر تجاهها بالشفقة وأرى فيها قلبًا ينبض بالتفاصيل، لكل إنسان حكايته التي لا يستطيع أحد أن يرويها عنه.

بعد قليل تسللت (هوى) من الباب ومعها الفتاتان، تحمل إحداهما عودًا مزهرًا وتحمل الأخرى صنجًا نحاسيًّا، جلسن على الأرض متقابلات، وجلست أنا على الأريكة، أمليت عليها الكلمات مرة أخرى فحفظتها، أشارت إلى إحدى الفتاتين فداعبت أناملها العود، ثم أشارت إلى الثانية فنقرت على الصنج، وكأنهن قد اتفقن على ذلك مُسبقًا. تناغمت الألحان وملأت البيت برنينها وأيقظت البهجة في الدار، خرجت (أروى) من باب حجرتها، ففوجئت بنا، ووقفت مندهشة خجلى أمام الباب، حينئذٍ خرج صوت (هوى) شجيًّا قويًّا، يطرق القلب ويعصف بالروح شجنًا، وحين قالت:

◆ مَا أَجْمَلَ خَدَّيْكِ بالجواهر!
وَعُنُقكِ بِالقَلائِد!

أشارت إلى (أروى) بإصبعها في دلال، ثم قامت من جلستها وأمسكت بيدها وأجلستها إلى جانبي وقالت:

«أتعرفين من أنت يا (أروى)؟
أنت كَالسَّوْسَنَةِ فِي الحُسنِ
حين تنثر عبيرها بَيْنَ الأَشْواكِ

كَذلِكَ أنت يا صغيرتي

تنثرين عبيرك في قلبي

فتغيب عن قلبي النساء».

بكت (أروى) وهي تحتضن صديقتها، وتوقفت المعازف و(أروى) لا تتمالك نفسها، قالت باكية:

ـ كم أحبك يا (هوى)!

ضمتها (هوى) وقالت:

ـ وكم يحبك هذا الشاب.

التفتت إليَّ (أروى) وهي تنظر إليَّ نظرة جمعت كل الحب والاعتذار، وخرجت (أم السعد)، في تلك اللحظة تتثاءب، فاندهشت وقالت:

ـ ما هذه الجلبة؟!

ضحكت (هوى) وقالت:

ـ لا شيء يا (أم السعد)، أكملي نومك، ولكن أفسحي مكانًا للفتاتين في حجرتك وسأبيت أنا مع (أروى) في حجرتها!

وحين اقترب الليل من منتصفه سمعت طرقًا خفيفًا على باب حجرتي، فتحت الباب فدلفت منه (أروى) مسرعةً وألقت نفسها في حضني، أغلقت الباب وضممتها إلى صدري في قوة رغم بطنها المنتفخة، ملأ عبير عطرها الجديد أنفي فأيقظ كل حواسي، قبَّلتها في شوق، وحملتها إلى فراشنا وقضينا ليلة ذكَّرتني بليالينا الخالية.

* * *

الورقة الخمسون

واستيقظت ذات صباح على (أروى) وهي تتألم وكأنما أطبق على بطنها مارد، دفعتني بيدها فاستيقظت فزعًا، رأيت وجهها ممتقعًا، وهي تحيط بطنها بيديها وكأنما ترجوها ألا تنشق، قالت في إعياء:

ـ قد جاءنِي المخاض يا (شمعون).

هرولت إلى حجرة (أم السعد) فأيقظتها واستيقظت معها (هوى). أخبرتها بحال (أروى) فأمرتني بأن أضع جولقًا من القش في الفناء الخلفي للدار وأن أحضر لها صندوقًا من صناديقي الخشبية، ثم أمرت (هوى) بأن تذهب إلى دار (ميمونة) قابلة الحي وأكدت عليها أن تأتي بها وألا تتركها دون أن تصحبها إلى الدار.

لم أجد الكثير من القش، فملأت الجولق بكُشاط الخشب من عريش النجارة، ثم أخذت صندوقًا وضعته في الفناء، رأيتها تأتي مستندة إلى كتف (أم السعد) بيد، وتسند بطنها بيدها الأخرى وهي تعض على شفتيها من الألم، فجأة سال منها الماء فصرخت فزعة ومتألمة، طمأنتها (أم السعد) وقالت بفرح:

ـ قد جاءت البشرى، فتماسكي حتى يأتي البشير!

أجلسَتْها على الصندوق، ثم طلبت مني أن أحضر لها حجرين أملسين، تناولت الحجرين فوضعتهما متباعدين أسفل الصندوق ثم فرجت بين ساقي

(أروى) ووضعت قدمًا على كل حجر، ثم أمسكت بجولق القش فأفرغته بين الحجرين أسفل (أروى) وسوت القش بيديها.. كنت لا أفهم ما تفعله، ولكني وثقت بها وقد شعرت بأنها تعي ما تفعل، وخطر لي أنها لا بد وقد مارست القبالة من قبل مرات ومرات.

حين رأتني أقف مذهولًا، قالت لي:

ـ اذهب يا (شمعون) فلا ينبغي لك أن تطلع على ما هو آتٍ.

انصرفت من فوري، خاصة بعدما علت صرخات (أروى) المتألمة، خرجت من الفناء، فرأيت القابلة (ميمونة) تهرول خلف (هوى) تكاد تتعثر في جلبابها، وهي تحمل في يدها سكينًا وقماطًا من القماش.. فارتجفت مما سيفعلنه بها ووقفت غير بعيد أستمع إلى صرخات (أروى) التي تمزقت معها أحشائي، تخيلت انفصال الجنين عن جسدها كثمرة تنشق إلى نصفين بسكين القابلة (ميمونة)، أي ألم هذا الذي تتحمله المرأة كي تهب الحياة إلى جنينها؟! وأي معاناة تلك التي تبدأ بها حياة الإنسان؟! ربما كانت مشاركة الألم بين الأم ووليدها هي السبب في ارتباط روحيهما بعد ذلك، فلا شيء يُقرِّب النفوس أكثر من مشاركة الألم.

بعد لحظات كفَّت (أروى) عن الصراخ، وبدأت صرخات الطفل، كلاهما صراخ ولكن شتان بين صراخ (أروى) الذي يفطر القلب، وصراخ الطفل الذي يُلمْلم الروح، ويبهج النفس، ويقرع الأذن كنغمات (هوى) وصديقاتها!

نادت عليَّ (أم السعد)، فهرولت إليها، رأيت (أروى) جالسةً على الصندوق، تنظر إليَّ في سعادة، رغم إعيائها الشديد، بينما كانت (ميمونة) القابلة تقمط الطفل بلفائف القماش و(هوى) تهيم ببصرها في وجه الطفل الذي كفَّ عن البكاء وقد لمعت عيناها بوهج الأنثى التي تشتاق إلى الأمومة.

قالت (أم السعد) وهي تنظف فخذي (أروى) اللتين تلطختا بالدماء:

ـ مبارك يا (شمعون)! أنجبت سيدة البنات ذكرًا!

نظرت إلى الطفل الذي بادلني النظر، دون أن ألمسه، فقالت (ميمونة):

ـ بورك هذا الطفل! لم أرَ طفلًا يُولد من قبل مفتوح العينين!

قالت (أم السعد):

ـ رزقه الله عيني جده الشيخ (عابر)، ليته يُرزق بصيرته.

قالت (هوى):

ـ بماذا تسمونه؟ أنا أحب اسم (جندب)!

صرخت فيها (أم السعد) وقالت:

ـ خيبة الله عليك، حفيد الشيخ (عابر) يسمى جندبًا؟!

كنت أعلم أن الجندب اسم حشرة تشبه الجرادة ولكني لم أرَها. قلت ضاحكًا:

ـ نترك الاسم لك كي تطلقيه على ولدك يا (أم جندب)!

ضحكن، فنظرت إلى (أروى) وقلت:

ـ نسميه (إبرام)، جمع جدنا (إبرام) بين (بني إسماعيل) و(بني إسرائيل) من قبل، وهاهو ولدي يجمع بينهما الآن!

قالت (أم السعد):

ـ بورك الاسم يا (أبا إبرام)!

وضعته ميمونة بين يدي (أروى) وقالت:

ـ دعيه يشتمّ عرقك ليعرفك، ثم ألقميه ثديك حتى وإن لم يُدِرَّ لبنًا كي لا يزهد في الرضاع.

حملته (أروى) وسعادة وجهها تمحو كل أثر لألم أو إجهاد، قلت:

ـ وأنا؟ ألن يشتم رائحتي ليعرفني؟!

ضحكت (أم السعد) وقالت:

ـ لا حاجة له فيك ليعرفك، الولد لأمه ٣٠ شهرًا.

ثم قالت لي آمِرةً:

ـ هيا يا (شمعون)، ضع الخلاص في الجولق، وادفنه في الصحراء وحذارِ أن تتبعك الكلاب، فلو أكلت الكلاب الخلاص لمات الولد.

لم أفهم ما هو الخلاص، ولا لماذا يسمونه هكذا ولكني حملت جولق القش الذي تعطنت رائحته بالدماء المُخثَّرة على ظهري وأمسكت في يدي فأسًا، وخرجت به إلى الصحراء، حفرت حفرة عميقة تأكدت من أن الكلاب لن تستطيع نبشها، وألقيت الجولق بها، ثم أهلت عليه التراب، أثار المشهد أفكاري وتذكرتُ يوم أهلنا التراب على جسد أبي بعد موته، نبدأ الحياة بدفن وننهيها بدفن، وكأننا من تلك الأرض أتينا وإليها نعود!

حين عدت إلى البيت وجدتُ (أروى) نائمة تحتضن الطفل النائم بينما وقفت (أم السعد) في الفناء أمام الموقد تعد لها لحمًا ومرقًا كي تستعيد قوتها، أما (هوى) فكانت تجلس على عتبة حجرتها تحك كعبيها بحجر مبتل وقد وضعت قدميها في إناء. قالت (أم السعد) حين رأتني أدخل إلى حجرة (أروى):

ـ لا تدخل عليها واعتزلها حتى تبرأ من نِفاسها!

قلت متعجبًا:

ـ أعتزلها!! إلى متى؟!

قالت:

ـ أربعين يومًا وليلة.

فغرت فاهي دهشة وقلت:

ـ أربعين يومًا وليلة؟! تضيع أيام العمر ما بين حيض ونفاس!!

ضحكت (هوى) وقالت:

ـ تزوج عليها أخرى! إن حاضت إحداهما، برئت الأخرى!

نهرتها (أم السعد) وقالت:

ـ ومن أدراه ألا يوافق قمر الأولى قمر الثانية!

ضحكت (هوى) مرة أخرى وقالت:

ـ إذن فليتزوج الثالثة!

قالت (أم السعد) مُحَذِّرة:

ـ لا تطعها! أما سمعت عن الذي قال لصاحبه أتزوج الثانية فأصير خروفًا ينعم بين نعجتين، فلما رآه صاحبه سأله: كيف حالك يا خروف؟! قال صرت نعجة ترعى بين ذئبتين!

انفجرت ضاحكًا وقلت:

ـ هوِّني عليك يا (أم السعد)! لا أريد أن أكون خروفًا ولا نعجة. فقط أريد أن أنام في مخدعي!

قالت وكأنها تستعذب عقابي:

ـ نقلت أغراضك في حجرة أخرى! وحين تبرأ من نفاسها تعد إلى مخدعك..

هززت رأسي يائسًا من عنادها، وهممت بأن أدخل إلى الحجرة الأخرى، ولكن الغلام الحبشي طرق الباب وقال لي:

ـ هناك ضيف بالعريش يريد الحديث إليك يا سيدي!

تنهدت وأنا أنظر إلى (أم السعد) في غيظ ثم قلت:

ـ لا أمل لي في القيلولة اليوم!

ثم قلت:

ـ حسنًا يا غلام، سآتيك في العريش!

* * *

دخلت إلى العريش فوجدت رجلًا مهيبًا يقف في وسطها، يُقلِّب الصناديق بين يديه وينظر إلى صنعتها بعينين خبيرتين، يرافقه غلام حبشي، بينما وقف غلام آخر إلى جوار الناقة التي ناخت خارج العريش، ألقيت عليهما التحية ثم أردفت:

ـ يبدو أن السيد الكريم تعجبه صناديقنا!

استدار الرجل وقال في لكنة غريبة عن أهل «بكة» ولكني فهمتها:

ـ لا حاجة لي بالصناديق ولكني أنظر إلى دِقَّة الصنعة.

قلت مبتسمًا:

ـ وفيمَ يحتاج السيد الكريم صنعتي؟

قال الرجل في جدية:

ـ اسمي (جُديس) وقد أتيتك من «الشُّعيبة». أتدري ما «الشعيبة»؟

هززت رأسي نفيًا، فقال بلكنته الغريبة:

ـ «الشُّعيبة» هي مرفأ على شاطئ البحر تبعد مسيرة يومين عن «بكة».

لم أكن أعلم أن «بكة» قريبة من البحر إلى هذا الحد، كنت أظن أن العمر قد ينقضي في السير في وديان «بكة» وجبالها دون أن يصل المرء إلى منتهاها، هززت رأسي متفهمًا ولم أقاطعه كي يدخل في مضمون الحديث، فتابع:

ـ ترسو عندنا السفن القادمة من الشمال من «صيدون» و«كنعان»، والسفن القادمة من الجنوب من سبأ ومن الحبشة، البعض يرسو للتزود بالمؤن، والبعض يرسو لإصلاح ما لحق به من عطب في البحار، أيام الصيف الأخيرة هي موسم العمل من كل عام، يخشى البحارة ثورة البحر في الشتاء، ولا تتحمل سفنهم لطمات الأمواج. نجمع النجارين من كل الأحياء للعمل في المرفأ، ويقولون: إنك أفضل النجارين في هذا الحي! فما رأيك في أن تعمل معنا هذا الصيف وسنجزل لك العطاء؟

قلت له شاكرًا ومعتذرًا:

ـ أشكرك، ولكن لا خِبرة لي بصنع السفن، كما أن زوجتي قد أنجبت اليوم ولدها!

رأيت على وجهه عدم التصديق، نظر إلى الصندوق الذي كان يقلب فيه

منذ قليل وإلى عربتي الخشبية التي ارتكنت على جانبها وقال:

ـ من يجيد هذا العمل الدقيق، لا يعجزه إصلاح مركب تجمعت ألواحها بالدروع والدُّسُر.

شعرت بالامتنان لكلماته، وظننت أنه سينصرف حين قام من جلسته، ولكنه أخرج من نطاقه كيسًا من النقود، وضعه في يدي وقال بطريقة تاجر اعتاد أن ينهي أي تفاوض بزيادة السعر:

ـ هاك ٥٠ فضية ولك مثلها بعد كل مركب تقوم بإصلاحه!

الحق أن النقود في اليد تُغري المرء وتعيد نظم كلماته. قلت في لهجة مترددة عن ذي قبل:

ـ الأمر ليس له علاقة بالمال، فزوجتي قد أنجبت اليوم كما أخبرتك ولا أستطيع تركها.

وضع في يدي كيسًا آخر مثل سابقه وقال:

ـ تستطيع أن تكفيها مؤنتها حتى تعود، وإن شئت أتيت بأهلك.

ثم ابتسم لأول مرة وقال:

ـ على الأقل تهرب من قيظ الصحراء في «بكة» إلى نسمات البحر في «الشُّعيبة».

كانت نقود الرجل وكلماته كفيلة بأن أحسم أمري فقلت:

ـ ومتى السفر؟ قال:

سأمكث في «بكة» عشرة أيام، أطوف على ما بقي من أحيائها ثم يتحرك الركب من البطحاء إلى «الشعيبة». صافحته وأنا أقول:

ـ نعد الرحال وأرافقك مع أهلي إلى «الشعيبة» بإذن الله.

* * *

الورقة الحادية والخمسون

انحدرت العربة بين التلال الوعرة التي فصلت بين «بكة»، و«الشعبية»، ارتجَّ جسدا (أروى) و(هوى) اللتان تشبثتا بجانب صندوق العربة بيد وأمسكتا بقفصٍ مبطنٍ بالقماش وُضِع فيه (إبرام) بيد أخرى، بينما حافظت (أم السعد) بالكاد على اتزانها بأن أسندت ظهرها إلى زاوية العربة، وتشبثت في حرف الصندوق بكلتا يديها. انتفخت مظلة القماش التي ظللت العربة بالهواء كخباء أوشك أن تعصف به الرياح، وشعرت لوهلة أن عجلات العربة ستتحطم وهي تنحدر في سرعة فوق الصخر الناتئ.

وصلنا إلى السفح، فأوقفتُ العربة، ودرتُ حولها كي أطمئن على (أروى) وعلى الطفل (إبرام)، فوجدتهما بخير، قامت (هوى) من جلستها على العربة ومدَّت لي يدها كي أساعدها على النزول وهي تشعر بالإعياء، وما أن نزلت حتى أفرغت ما في جوفها على الرمال، ثم جلست على الأرض وهي تستند بظهرها إلى عجلات العربة في إعياء.

قالت (أم السعد) مُوبِّخة وهي تمسك ظهرها متأوهة:

ـ ألم يكن من الأفضل أن تكتري لنا ناقتين بدلًا من تلك العربة التي كادت أن تحطم عظامنا؟

اغتظت منها ولم أشأ أن أقول: إنها أصرت أن تركب العربة بدلًا من أن تركب الناقة مع الغلام الحبشي.

فقلت:

ـ هذا أفضل بكثير! كُفينا قلقلة النوق وجمعنا ركاب واحد!

كان (جُديس) وقافلة النجاريين لا تزال أعلى المنحدر تهبط على مهل، بكى الطفل (إبرام)، فألقمته (أروى) ثديها، نظرَت إليه في حب وهو يمتص حلمتها مغمض العينين، غير عابئ بما يحدث حوله! نظرة الأم التي تشع من عينيها، كانت لا تتناسب مع وجهها الذي يحمل ملامح طفلة، ولكن يبدو أن الفتيات يولدن وفي قلوبهن حنان الأمومة.. حينما أخبرتها بأمر الانتقال إلى «الشعيبة»، قالت سعيدة: «ذلك رزق (إبرام) قد ساقه الله إلينا!». تؤمن مثل قومها بأن الذكور يأتون بسعة في الرزق، وأن البنات يجلبن ضيق الرزق، رغم كونها أنثى! النساء هنا لا يخفين سعادتهن بأبنائهن الذكور ويرضعنهم ذلك الشعور في المهد، ثم يشكين ظلم الرجال بعد ذلك!

أما (هوى)، فحين علمت بأمر السفر إلى «الشعيبة» فغرت فاها وقالت مذهولة:

ـ حقًّا!!

ثم شعرت بقلبها يخفق، وصوتها يتهدج لا أدري إن كان فرحًا أو قلقًا وقالت:

ـ سوف أرافقكم إلى هناك وإن شئتم اتركوني هناك وحدي!

لم تفوت (أم السعد) عليها فرصة التأنيب فقالت:

ـ نتركك؟ إلى متى ستظلين هائمة على وجهك يا فتاة؟

فردت عليها (هوى) حينها في حِدَّة أخرستها:

ـ دعيني وشأني يا (أم السعد)!

وزَّعتُ كسرات الخبز والجبن على النساء الثلاثة، وجلست مستندًا إلى صخرة، أنظر إليهن وأنتظر وصول (جُدَيس) وباقي الرجال. تفكرت في حالي متبسمًا! فللنساء في حياتي نصيب كبير؛ أمي و(سولاف) و(باتشيفا) في

برية «سين»، و(أروى) و(هوى) و(أم السعد) في برية «فاران»، ثلاثة اجتمعن مع أبي، وثلاثة اجتمعن معي، يبدو أن النساء لا يجمعهن إلا قلب يشعرن معه بالعطف والأمان.

مع قدوم الليل، وصل (جديس) وباقي الرجال إلى أسفل السفح، أُنِيخت الإبل وضُربت الأخبية، واستعد الناس للمبيت، أخلدت النساء للنوم في الخباء، بينما جلست أنا خارجه وقد أشعلت النار في شجيرة تحطبت أغصانها، فقد كانت نسمات الصيف الأخيرة تزيد من برودة الليل.. طقطقات الحطب في النيران جعلتني لا أشعر بأقدام (هوى) حينما جاءت وجلست بجانبي أو ربما انسلَّت هي من الخباء في رفق حتى لا تُوقِظ من به. جلسَتْ وقد ضمت فخذيها إلى صدرها وأحاطت ساقيها بساعديها.

سألتها وأنا أتطلع إلى صفحة وجهها في ضوء النيران.

ـ كيف حالك؟ أما زلتِ تشعرين بالإعياء؟!

هزت رأسها وقالت:

ـ أشعر به قليلًا.. لمحت في وجهها مسحة حزن فقلت:

ـ أرى في وجهك حزنًا يا (هوى)؟

ظلت تتطلع إلى ألسنة النيران المشتعلة ثم قالت بدون أن تنظر إليَّ:

ـ هل تجيد سبر الأغوار؟

قلت:

ـ لا يحتاج الأمر لذلك، فحزنك قد غادر أغوارك، وانعكس على صفحة وجهك!

نظرت إليَّ وقالت وهي تجاهد الابتسام:

ـ تجيد الكلام أيها المصري!

ثم أردفت:

ـ أظن أن جميع الرجال يجيدون الكلام!

ثم طفرت في عينيها دمعة وهي تقول:

ـ ويجيدون الوعود والكذب والخداع كذلك!

أدركت أن أحدهم قد أصابها بخيبة أمل، وشعرت بأنها تحمل همومًا على كتفيها، فمددت كلماتي كي أعينها على حملها، قلت:

ـ ما بك يا (هوى)؟

مسحت الدمعة التي فرت وقالت:

ـ لا شيء يا (شمعون)، هل لي في أن أطلب منك أمرًا؟

قلت لها مشجعًا:

ـ بالطبع! اطلبي!

قالت في رجاء:

ـ لا أريد العودة إلى «بكة»! اتركني في «الشعيبة».

قلت لها مباشرة:

ـ أهو شاب من «بكة»؟!

ترددت في الحديث قليلًا، ثم قالت:

ـ كان في «بكة»!

قلت:

ـ هل خذلكِ؟

نظرت بعيدًا عن النيران وكأنها تستر عينيها بالظلام، ثم بدأت في السرد وكأنها تتحدث إلى نفسها قائلة:

ـ رأيته في «الدكة» الصيف قبل الماضي، الوحيد الذي كان يذهب إلى «الدكة» فيجلس وحده دون صحبه، كنت حين أصدح بالغناء أراه يتطلع إليَّ بشغف، لا يصرف عينيه عني ولا ينشغل بشُرْب ولا طعام، أحسست بأنه يريد أن

يبقى عقله متيقظًا حتى يراني، وأوحت إليَّ نفسي بأنه يأتي من أجلي أنا، وليس من أجل السَّمَر.

مرة بعد مرة أصبحت أغني له وحده، أصدح بصوتي لأجله، وإذا غاب، غاب عني صوتي، ووقعت في هواهُ حتى قبل أن أعرفه، ثم كانت صدمتي حين علمت أني قد وقعت في غرام (الوليد بن الحارث)، أخو (عمرو بن الحارث) الجرهمي.

فغرت فاهي دهشةً وأنا أتذكر الفتى الذي كان بانتظارنا فوق الحجون، وأدركت نهاية قصتها التي ذكرت بدايتها للتوِّ، ولكني انتظرت أن تقص عليَّ ما بين البداية والنهاية!

قالت وقد عادت إليها المرارة في الحديث:

ـ لم يكن لـ«الهوى» أن يربط بين سيد من سادة «جرهم»، وفتاة يتيمة من (بني قيدار) إلا تحت أستار الكتمان، فخادنته وصرت جاريته التي لم يشترِها، أقبل بالسر من الهوى، وأقبل بالعزل من النشوة، وأقتنص من حياته سُويعات هي الحياة بالنسبة لي.

ثم صمتت قليلًا وقالت:

ـ وحين أشرفت الحرب مع «خزاعة»، عز لقاؤنا، كان مهمومًا من أمر الحرب ويخشى أن يصل الأمر إلى الناس فيزداد غضبهم على «جرهم»، وحين وقعت الحرب وانهزمت «جرهم»، لم أره بعدها.. بحثت عنه بين الأسرى فلم أجده، وبحثت عنه بين القتلى فلم أجده، دفعت أموالًا للإدلاء كي يأتوني بخبره، فجاءني أحدهم بالخبر وقال إنه هرب من «بكة» مع أخيه آخذًا معه أمواله وجواريه.

لم أشأ أن أؤكد صِدْق الدليل، وما كانت هي بحاجة إلى ذلك، فقد بكَتْ وهي تقول:

ـ لم أتخيل أن يتركني وكأنني أهون ما ملك! ولم أتخيل أن يرحل عني بدون كلمة وداع.

مسحت دموعها، ثم تابعت:

ـ تمنيت حينها لو أغادر «بكة» كلها، ولكنني كنت أخشى الهلاك.. انتظرت أن تأتي أشهر الصيف بفارغ الصبر فلعل عودتي إلى ليالي السَّمَر تخفف عني الحزن والعناء، إلى أن رأيت (أروى) في منامي!

رفعت حاجبي دهشة وقد استحوذت كلماتها على مسامعي فلم أقاطعها، فتابعت:

ـ كنت قد انقطعت عن (أروى) لأكثر من سبع سنوات، ولم أعرف أخبارها، وفي ليلة حلمت بها تزورني ثم تأخذ بيدي إلى مكان رأيت فيه بيتًا من الخوص، وحين دخلت وجدت رجلًا يشبه (الوليد) يجلس في هذا البيت في انتظاري! أتدري أين كان ذلك المكان؟

لم أجب، فتابعت:

كان مكانًا على شاطئ البحر! وأنا التي لم ترَ بحرًا في حياتها من قبل! ولهذا حين أخبرتني أنت بأمر «الشعيبة» أدركت أنه لم يكن حلمًا بل طائف من الرب، وشعرت بأن الله قد استجاب لدعائي الذي لم ينقطع منذ رحل عني (الوليد)!

تعجبت من كلامها وتفكَّرت فيه، عجيب أمر هذه الأحلام! أحيانًا تأتينا بالبشرى، وأحيانًا تأتينا بالتحذير، أهي حقًّا أطياف من السماء، أم أنها آلام النفس ورغباتها، تفر من ثكناتها في الليل فتعبث بنا ونحن نيام ثم تغادرنا وقد ألقت في نفوسنا بعضًا من بذور الأمل.

قلت لها وأنا أتحسس كلماتي كي لا أفسد عليها أملها:

ـ أيًّا ما سنجده في «الشعيبة»، فهو بشرى لكِ يا (هوى)!

ابتسمت وقد فطنت بذكائها إلى معنى كلامي وقالت:

ـ رقيق القلب أنت يا (شمعون)!

ثم أردفت:

ـ على أية حال أنا لن أعود إلى «بكة» حتى أعود إلى نفسي!

وحينئذٍ علا بكاء الطفل (إبرام)، فقامت هي من جلستها وعادت إلى الخباء. وحين التفت ورائي رأيت ظل (أروى) خلف الخباء وهي تُرضِع الطفل الذي قرصه الجوع في جوف الليل، ولم أدرِ هل أيقظها صوت الطفل، أم أنها كانت مستيقظة قبل ذلك؟

* * *

وصلنا إلى شاطئ «الشعبية»، علمت حين رأيت البحر لماذا أطلق الناس على المرفأ ذلك الاسم؛ فعشبات البحر كانت تنمو أسفل الماء وكأنها غابات من الشجر التفت وريقاتها الصغيرة الملونة، فبدا البحر اللجي وكأنه بيت ممرد من الزجاج حوى بداخله بستانًا بديعًا من الزهر.. أوقفت العربة ونزلنا نتطلع إلى البحر، شهقت (أروى) من الجمال، وضعت يدي على كتفها في حنان، وأنا أرى في عينيها نظرة السعادة، بينما سارت (هوى) حالمة، وهي تملأ صدرها من نسمات البحر الرطبة، وأذنيها بأصوات الأمواج التي غمرت سمعنا. سارت حتى وصلت إلى حد الماء الذي كان يزيد وينحسر مع كل اندفاع موجة، أو انحسارها، فخلعت نعليها ووقفت تُبلِّل قدميها بسعادة طفل يرى الماء لأول مرة.

هتفت بها (أم السعد) التي كانت تشعر بالرهبة وقالت:

ـ ارجعي يا (هوى)، حتى لا يجذبك الجن إلى قاعه!

أهل «بكة» كانوا يخشون البحر ويعتقدون أن الجن يسكنون في جوفه، وأن نساء الجن يخطفن رجال الإنس، بينما يخطف رجال الجن نساءهم، لم ترد (هوى)، وظلت تسير بمحاذاة الماء غير واعية وكأنما جذبها جمال البحر قبل أن يجذبها الجن إليه! أما أنا فلم يكن البحر غريبًا بالنسبة لي، فلا زلت أذكر يوم الخروج بتفاصيله حتى الآن، بل أشعر برذاذ البحر على وجهي، كلما استدعيت مشهد انفلاق البحر بعصا نبينا (موسى) إلى عقلي!

بعد قليل جاءنا (جديس) فأخذنا إلى مساكن الصيادين المجاورة للمرفأ، البيوت هنا من طابق واحد، لا تزيد عن حجرتين، معظمها قد بُني من الخشب، والقليل منها بالحجر. رائحة السمك كانت تملأ البيوت والشوارع، ذكرتني تلك الرائحة بقرية «عصيون جابر»، وعائلة الشيخ (بنحاس) والد (عامير) التي هلكت بعد أن عصى أبناؤه أمر الرب وقاموا بالصيد في يوم السبت!

لحقنا الغلام الحبشي بعد قليل بالناقة، وضعنا متاعنا في البيت الذي اختاره لنا (جديس) ثم أخذ الغلام الناقة والعربة وذهب بهما إلى مربط الدواب بعد قليل جاءنا غلام الشيخ (جديس)، يحمل صحيفة بها وليمة من الأسماك مختلفة الأنواع، تفوح منها رائحة شهية جذبت خلفها سربًا من القطط، فقد كانت القطط تملأ شوارع القرية، قذفت بقطعة سمك بعيدًا عن الباب فهرولت نحوها الهررة وتنازعت عليها، ثم أغلقت الباب وجلسنا جميعًا لنأكل طعامنا الأول في «الشعيبة».

ما أن بدأت في الطعام، حتى ارتفع صوت النفير، وبدا أن مركبًا قد وصلت إلى المرفأ، بعدها علا صوت أقدام الصيادين وجلبتهم خارج الباب، شعرت بالإثارة وأردتُ أن أخرج إلى المرفأ كي أرى المركب التي وصلت، فرغت من الطعام في سُرْعة، ثم قمت من مجلسي، قالت (هوى) وهي تقوم مُسْرِعة:

ـ آتي معك؟!

قالت (أم السعد) مستنكرة:

ـ تخرجين بين الرجال؟ ألا تستحين؟!

كنت أعرف ما تريده، وما تتوق إليه نفسها قلت لها:

ـ ألقي الخمار على رأسك واتبعيني.

نظرت (أم السعد) إليَّ ثم إلى (أروى)، ورأيت الضِّيق على وجه (أروى) رغم أنها لم تُفْصح عنه ولو بنظرة، ناديت على الغلام الحبشي ثم خرجت إلى الطريق، تبعت خطوات الناس بين الأزقَّة الضيقة، فوصلنا إلى المرفأ بسهولة،

كانت أول مرة أرى فيها سفينة كبيرة تحمل ما يزيد عن مائة بحار، تعجبت كيف تطفو تلك السفينة بحمولتها فوق البحر، سحب الرجال الواقفين على الشاطئ حبل المرساة فتبعتهم السفينة في بُطْء وكأنها ناقة عصيَّة قبل أن تستوي بجانبها بمحاذاة الشاطئ، ربط الرجال حبل المرساة من الأمام والخلف إلى عمودين كبيرين دقًّا على الشاطئ كوتدي خيمة، ثم ألقى رجال السطح سُلَّمًا من الحبال على جانب السفينة هبط منه البحارة الواحد تلو الآخر.. ما هي إلا دقائق حتى اكتظ المكان بالعمال والحمَّالين والبحارة الذين تعالت صيحاتهم بلهجات شتى حتى إنني لم أميِّز صوت (جديس) وهو ينادي عليَّ:

ـ (شمعون)!

التفت إليه حينما مست يده كتفي، قال في صوت عالٍ:

ـ غدًا سيبدأ النجارون العمل في تلك السفينة، بعد أن يفرغ العمال من نقل حمولتها.

أومأت له برأسي وقلت له وأنا أرفع صوتي كي يطغى على الجلبة:

ـ أنا مستعد.

أشار إلى عدد من الصوامع وقال:

ـ هنا يخزن البحارة بضائعهم.

ثم أشار إلى بيت آخر وقال:

ـ وهنا تخزن ألواح الأخشاب ودروع النخل والحبال، إذا شئت أن تحصل على نصيبك من الأخشاب المكشوطة فعليك أن تُبكِّر وإلا ستنفد وتضطر إلى الانتظار.

قلت للغلام الحبشي وأنا أشير إلى مخزن الأخشاب:

ـ غدًا تُبكِّر إلى هنا، وتحجز نصيبنا من الأخشاب.

أومأ الغلام متفهمًا، وهزَّ (جديس) رأسه مستحسنًا، ثم قال للغلام:

ـ وحين تأتي إلى هنا، أَخْبِرْهم أنك من رجال (جديس)، فلكل مجموعة من النجارين رئيسهم، وأنا رئيسكم.

ثم قال وهو ينصرف:

ـ حسنًا أراكم غدًا على خير.

عدتُ أتطلع إلى السفينة التي امتدت من جانبها محفة كبيرة وصلت إلى الشاطئ، وعلى تلك المحفة كان العمال يحملون الجوالق والبضائع فينقلونها إلى الصوامع، مهارة العمال، وسرعتهم جعلتني أدرك أن كل شيء في هذا المرفأ كان منظمًا وأن (جديس) كان محقًا في جمْع كل هذا العدد من النجارين، فسفينة واحدة قد تحتاج إلى عشرة نجارين على الأقل للعمل بها.

أفقت من تركيزي، والتفت إلى (هوى) التي كنت أظنها لا تزال واقفة خلفي كي أقول لها إننا سنعود أدراجنا، ولكنني لم أجدها! تلفت يمينًا ويسارًا ثم مسحت بعيني الزحام لعلي أجد امرأةً ترتدي خمارًا أسودَ ولكني لم أجدها وكأنها ذابت بين الجموع، قلت للغلام في ضِيق:

ـ أين ذهبت السيدة (هوى)؟

هز كتفيه وقال:

ـ لا أدري يا سيدي!

زفرت وأنا ألعن غبائي الذي جعلني أصحبها إلى هنا ونحن لا نزال في يومنا الأول! كيف لم أفطن إلى لعنة اليوم الأول التي تطاردني في كل مدينة أذهب إليها؟! قلت للغلام:

ـ هل تستطيع العودة إلى الدار وحدك؟

قال:

ـ نعم.

قلت مستحسنًا:

ـ حسنًا! اذهب إلى هناك، ولو وجدت السيدة (هوى) بالمنزل، فعُدْ وأخبرني، وإن لم تجدها فلا تُخبر أحدًا بغيابها حتى أعود.

هز الغلام رأسه متفهمًا، ثم انسلَّ بين الزحام واختفى في لحظات.. تلفتُّ حولي وأنا أحدِّث نفسي وأتساءل: من أين أبدأ البحث عنها؟!

هداني بصري إلى ربوة عالية وضع عليها سارٍ مرتفع وراية حمراء كي تراها السفن القادمة من البحر، أدركت أن هذه هي النقطة المثلى لرؤية المرفأ كاملًا، هرولت إلى الربوة وصعدت هضبتها وأنا أتشبث في صخورها بيدي إلى أن وصلت إلى قمتها، وقفت إلى جوار الساري ألهث من التعب، أتلفت بعيني في كل الاتجاهات وأنا أقول لنفسي:

ـ أين أنتِ يا (هوى)؟

فجأة رأيت على البُعد خيالًا أسودَ يسير منفردًا بمحاذاة الشاطئ في الاتجاه الآخر من المرفأ، شعرت أنها قد تكون هي وحين حدقت عيني، وأمعنت النظر، أدركت من مشيتها وخمارها الذي طار من فوق رأسها أنها هي، خفق قلبي فناديت بأعلى صوت:

ـ (هوى)...!

ولكن ندائي لم يتجاوز أسفل الربوة من شدة الجلبة في المرفأ، وقفت أنظر إليها كي أعرف إلى أين تتجه.. خفق قلبي وشهقتُ مذهولًا حين رأيت بيتًا من الخوص يقف منفردًا على الشاطئ بعيدًا عن المرفأ و(هوى) تسير إليه كالمسحورة لا تأبه لخمارها الذي أطاح به الهواء ولا لنعلها الذي سقط من قدميها في الرمال، سارت حافيةً وكأنها تسير على خطى حلمها الذي أوشك أن يتحقق، قررت أن ألحق بها وقد علمت وجهتها، شمرت جلبابي ووضعته في سروالي، ثم نزلت الربوة في قفزات متسارعة كغزال جبلي، وما أن وصلت إلى سفحها، حتى هرولتُ مسرعًا إلى بيت الخوص وأنا أدفع الأجساد المتلاحمة في المرفأ بعيدًا عني، وأذني تتلقى الشتائم بلهجات شتى، وصلت إلى الشاطئ

وهي على بُعْد خطوات من بيت الخوص، ظللت أنادي عليها وأنا أهرول:

ـ (هوى).. (هوى)..

ولكن هيهات، فلم تكن لتلتفت عن وجهتها وهي على بُعْد خطوات من حلمها، وصلت إلى بيت الخوص، فدلفت من بابه واختفت بداخله، ضاعفتُ سرعتي، وصدري يتمزق من خفقات قلبي، وصلت إلى الخوص، فأمسكت بحافة الباب وأطحت بجسدي داخله، وأنا أقول لها في صوت يتهدج من التعب:

ـ (هوى)... لماذا لا تردي عليَّ؟

رأيتها تقف في منتصف البيت، أمام رجل عريض المنكبين يقف أمامها وقد أولى ظهره للباب وعيناها مُعلَّقة به في صمت، أذهلتني المفاجأة. وأنا لا أُصدِّق أن يكون كل هذا العبث حقيقي، استدار الرجل في بُطْء والتفت إليَّ، لم يكن الرجل الواقف أمامها هو (الوليد بن الحارث) بل كان رجلًا آخر، رجلًا لم تُخْفِ الأيام بريق عينيه، ولا ملامح وجهه رغم اللحية السمراء التي نبتت عليه وعلامات الشقاء التي ظللت جفنيه، نظر الرجل إليَّ في ذهول وكأنما يتيقن مما تراه عيناه، ثم هتف:

ـ (شمعون)!

وهتفت أنا:

ـ (عمرو بن دومة)!

* * *

الورقة الثانية والخمسون

اندفع كل منا تجاه الآخر يحتضنه في مشاعر هادرة صادقة، ودموع الفرح تبلل أعيننا، بينما وقفت (هوى) ذاهلة مما يحدث أمامها، وبينما نحن كذلك إذا بصوت يأتي من خلفنا وهو ينادي على (عمرو). التفتُّ لأجده التاجر (شهبور) وقد بدا أكثر نحافة وأكبر عمرًا عن ذي قبل بعد أن طالت لحيته وأصابها بعض الشيب. فقذف بنفسه هو الآخر بيننا وجمعنا عناق طويل وكأنما حملتنا أجنحة القدر جميعًا، وألقت بنا إلى تلك البقعة من الأرض كي نلتقي فيها بعد الفراق.

لم أدرِ كم من الوقت قد مرَّ ونحن جلوس في ذلك البيت الخوصي، نتحدث فيما وقع من أحداث خلال الأعوام الثلاثة الماضية، كانت أخبار الحرب قد وصلت إلى المرافئ التي توقفوا بها وعلموا نتفًا من أخبار «جرهم» و«خزاعة»، ولكن لم يصلهم أمر الشيخ (عابر) و(دومة)، بكيا حين علما بوفاة الشيخ (عابر) ورحيل الشيخ (دومة). وسألني (عمرو) السؤال الذي كنت أراه في عينيه منذ جلسنا:

ـ وماذا عن (ليث) و(أروى) هل رافقا أبي إلى سبأ؟

قلت:

ـ كلا، خرج (ليث) و(بنو يطور) إلى «يثرب» مع الشيخ (أواس) لأجل التجارة.

ثم أردفت بعد لحظة من صمت:

ـ أما (أروى) فقد مكثت في «بكة» حتى تضع مولودها.

رأيت خيبة الأمل والحزن على وجهه، تنفس في عمق ثم قال في أسى:

ـ تزوَّجَتْ (أروى)؟!

قلت:

ـ نعم.

قال متألمًا:

ـ ممن؟

قلت:

ـ مني أنا.

قال ذاهلاً:

ـ أنت يا (شمعون)؟!

قلت في حسم:

ـ نعم، وأنجبت لي (إبرام).

قام من مجلسه واستدار ليخفي وجهه عني، سار خطوات ثم وقف إلى نافذة البيت الخوصي التي تطل على البحر وأشرف منها برأسه وكأنه يتلقف منها الهواء، ظل صامتًا إلا من صوت أنفاسه التي سمعتها تتلاحق مع صوت أمواج البحر، لاذ (شهبور) بالصمت وكأنه على عِلْم بمعاناة رفيقه، بينما أخذت (هوى) تنقِّل بصرها بيننا في تعجب وقد ساورها الشك فيما يحدث.

كنت أشعر بالإشفاق تجاهه، فما أقسى أن يعود الإنسان بعد الغربة، ليجد الشمل وقد تفرق، والحبيبة وقد غادرت، كنت أتوقع منه الغضب أيضًا، ولكني سمعته يقول في رفق وهو ينظر جهة البحر:

ـ أتدري يا (شمعون) ما هو أكثر شيء أحزنني طيلة تلك السنوات؟

لم ينتظر مني الجواب، بل أردف قائلًا:

ـ إني كنت أشعر بأنني قد ظلمت (أروى)! فلا أظلم من أن نرهن حياة من نحب على تصاريف الأيام.

ثم تابع:

ـ كنت ألوم نفسي أني خطبتها من أبيها، ثم تركتها وأنا لا أدري هل سأعود إليها أم لا.. يوم ركبنا السفينة أنا و(شهبور) من «غرندل» بعد وفاة عمي الشيخ (نابت)، تمنيت أن أعود إلى أبي وأقول له: (أروى) في حلٍّ من خطبتي! طيلة تلك الأيام كنت أتمنى ألا يحرمها أبي أو جدي من أن تتزوج فيكفيها ما عانته بعد فقدان أبيها.

ثم التفت وهو يحجز دمعة في عيونه ويقول:

ـ مباركٌ لك يا (شمعون)! لو كان لي أخت لزوجتك إيَّاها.

قمتُ من مجلسي فاحتضنته وربتُّ على ظهره في قوة وأنا أقول:

ـ نِعْمَ الأخ أنت يا (عمرو)، حمدًا للرب أن عُدت إلينا سالمًا.

ثم قلت مازحًا كي أخفف من حِدَّة المشاعر:

ـ شكرًا لكِ يا (هوى) أنكِ قد أتيتِ بنا إلى هنا.

كانت (هوى) تسح دموعًا، بعد كل ما سمعته، فقال (عمرو) وكأنه تنبه لوجودها:

ـ مَنِ الفتاة؟ وما قصتها؟

قلت ضاحكًا:

ـ هذه هي (هوى) ربيبة الشيخ (نابت)، وصديقة (أروى) في الصغر.

قال (عمرو) وكأنه قد تذكرها:

ـ أنتِ (هوى) الطفلة المشاكسة التي كانت تُطارد صبيان الحي بالحجارة في صغرنا؟

مسحت (هوى) دمعتها وقالت وهي تلقي إليه بنظرة حنين لم تخف علينا:

ـ وأنت (عمرو) أنبل أطفال الحي، الذي كان يدفع عني وعن (أروى) غباء الصبيان!

ضحكنا ثم قلت لهم، وأنا أدعوهم للتحرك:

ـ هيا بنا نعد إلى البيت، ستفرح (أروى) و(أم السعد) بمجيئكما.

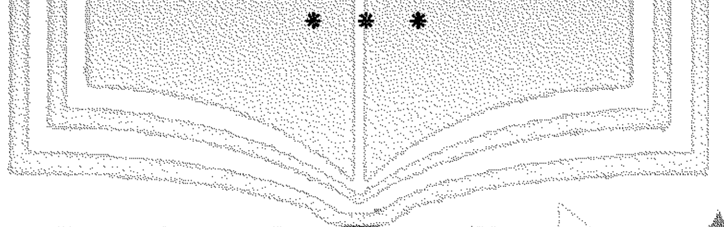
ثم أردفت:

ـ كما أنني أريد أن أعرف منكما كيف وصل بكما الحال إلى «الشعبية».

وبينما كان (عمرو) يتجاذب أطراف الذكريات مع (هوى)، همست في أذن (شهبور) السائر إلى جواري:

ـ الأمانة لا تزال معي، سوف أردها إليك حين نعود إلى «بكة».

فانتفخ وجهه بالسعادة وأسرع الخطى حتى ظننته سيسقط متدحرجًا من الفرح.



* * *

الورقة الثالثة والخمسون

كانت هذه هي أفضل ليلة أولى لي، منذ خروجي من «قادش برنيع»، شعرت بدفء الذكريات واستعدتُ أيام اللقاء الأولى مع قبيلة الشيخ (عابر) في تل العراد.. فرحت (أروى) و(أم السعد) بشدة لعودة (عمرو)، أصرَّت (أم السعد) أن تعد له عشاءً يُذكِّره بـ«بكة». لم تجد لحمًا، فأعدت خبزًا شهيًّا طازجًا، وأضافت إليه السمن والعسل. فأكلنا وشربنا، ثم أوتِ النساء إلى فراشهن وجلسنا أنا و(عمرو) و(شهبور) خارج المنزل، أشعلنا الحطب وجلستُ أستمع إلى ما رواه (عمرو) و(شهبور)، فاكتمل في عقلي ما بدأه (دعس) من قبل، وقررت أن أكتب عن تلك الرحلة فصلًا في كتابي يكون فيه خبر ما وقع من أحداث لـ(عمرو بن دومة) والتاجر (شهبور)، منذ خروجهما من «غرندل» وحتى وصولهما إلى «الشعيبة»، وهذا ما ورد على لسان (شهبور):

«انطلقت بنا السفينة من خليج «لحيان» في فجر تلك الليلة التي هربنا فيها من «غرندل»، كان (جندار) وجنوده قد وصلوا إلى الشاطئ فوجدوا السفينة تشق عباب البحر ولا يبدو منها إلا ساريها، فعادوا أدراجهم وقد يئسوا من الوصول إلينا، ورغم أننا كنا في أمان، لم أدع الحذر يفارقني، وأمرت البحارة بألا يكفوا عن الدفع بالمجاديف ليل نهار، وقسمتهم إلى فرقتين؛ فرقة تجدف بالنهار والأخرى تجدف بالليل، إلى أن لاح لنا في الأفق شاطئ مجمع البحرين.

صمت قليلًا ليزدرد لعابه، ثم قال:

ـ تركنا السفينة التي أتينا بها من غرندل ومكثنا في «مجمع البحرين» عدة أيام، اشتريت خلالها بضائع بكل ما تبقى معي من نقود وقمنا بنقلها إلى السفينة التي ستقلنا إلى «كوش»، وكانت تلك السفينة ضخمة، يعمل بها قرابة المائة بحار، فضلًا عن العمال والتجار.

وفي صبيحة يوم السفر، علا بوق السفينة، استعدادًا للرحيل، وصعد الناس إلى سطحها، وصعدت أنا و(عمرو) ورجالي، وتحركت بنا السفينة فوق الموج الهادئ تحيط بنا سفن أصغر ومراكب صيد خرجت كلها تبغي الرزق من البحر وقد استبشرنا خيرًا برحلة لا يعكر صفوها شيء، وما أن استقبلنا الأفق وابتعدنا عن الشاطئ حتى وجدنا البحر وقد انتثرت به عشرات السفن التي تحمل الرايات الإدومية، تتقدم تجاهنا من ناحية الشرق، هرولت إلى رئيس البحارة الكوشي وأنا أطلب منه أن يستدير عائدًا، وحذرته من أن السفن الإدومية تقطع الطريق، وتغتصب السفن، ولكن الرجل لم يتخيل أن أحدًا قد يقطع طريق البحر على أناس يبغون الرزق، فاستمر في الإبحار قدمًا وكأنما ظن بي الجنون. حينئذٍ أبحرت إحدى السفن الإدومية تجاهنا ورأيت (جندار) يقف على منحاها وهو يلوح بيده في الهواء تجاه قائد السفينة الكوشية يأمره بالوقوف، لم يأبه قائد السفينة لإشارات (جندار) أو لعله لم يفهمها، فارتفع صوت البوق من فوق سفينة (جندار) ثلاث مرات قبل أن يشتعل البحر فجأة، انطلقت عشرات السهام المشتعلة من فوق سفن الإدوميين نحو السفينة الكوشية، شقت السهام طريقها ورشقت بين الألواح فأمسكت النيران في جانب السفينة، أدرك قائد السفينة الكوشي خطأه، فحاول أن ينقذ حمولته فأدار الدفة في قوة وأمر رجاله بالتجديف في سرعة، ولكن جانب السفينة المائل تلقى دفقة أخرى من عشرات السهام المشتعلة. وأمسكت النيران هذه المرة في بعض البحارة، فعلا الصراخ وعم الذعر، وقذف بعض الناس بأنفسهم في المياه هربًا من النيران المحيطة بهم، ولم تحتمل السفينة دورتها فمالت إلى جانبها وأوشكت على الغرق.

صمت مرة أخرى وكأنما أرهقه التذكر أو أثار أحزانه، ثم عاد إلى حكايته فقال:

ـ وما أن رأى (جندار) صيده وقد أوشك على السقوط، حتى أسرع بسفنه نحونا، كي يجمع ما يستطيع من الغنائم، ولم يكن أمامي أنا و(عمرو) سوى القفز في المياه رغم أننا لا نجيد السباحة ولكننا فضلنا الموت غرقًا، على الموت حرقًا أو الموت في سجون الإدوميين، ولم تمر سوى لحظات بعد أن قذفت بنفسي في الماء حتى كلَّت يدي من التطويح، وشعرت بجسدي كله يتصلب، وكأنما استسلم للغوص إلى قاع البحر وشعرت بأنها النهاية، ولكن فجأة أمسكت يدي بحبل لم أدرِ من أين أتى، تشبثت به في قوة، وقد أدركت أنه حبل النجاة وفرصتي الأخيرة للحياة، وجدت نفسي منجذبًا به وقد غمر الماء وجهي وعيني وأنفي، فلم أرَ إلى أين يقودني، ولكنني بعد قليل وجدتني محمولًا بأيادٍ متعددة ووجدت نفسي مستلقيًا على سطح سفينة صيد صغيرة وإلى جواري (عمرو) وحولنا عدد من الصيادين.

سكت قليلًا ثم قال في أسى:

ـ أعادتنا السفينة التي كان يمتلكها شاب في مثل عمرك إلى مرفأ «مجمع البحرين»، فعدنا كما بدأنا، وقد فقدنا أموالنا وتجارتنا والكثير من رجالنا، ومكثنا أيامًا في مجمع البحرين ضيوفًا على هذا الشاب وأهله، نتقاسم طعامهم على قلته، فقد أصبح البحر محذورًا، لا يخوض غماره أحد خشية الرعب القابع في خليج «الحيان».

صمت قليلًا ثم أردف:

ـ كادت الحسرة أن تقتلني، وشعرت بأنني سأظل حبيسًا في ذلك المرفأ، وتمنيت أن نصل إلى «بكة» بأي طريقة كانت، وكنت أخرج في كل نهار إلى صخرة عالية كالهضبة عند ملتقى البحرين، أشرف من فوقها نحو الأفق، وأتمنى لو أجد مركبًا ـ ولو صغيرًا ـ يأخذني إلى أي مرفأ بعيدًا عن خليج «الحيان».

وفي يوم من الأيام، بينما كنت آوي إلى الصخرة وكان (عمرو) يعاون الصيادين في بعض أعمالهم، إذا برجلين يأويان إلى الصخرة في موضع قريب مني، أحدهما شيخ كبير ولكنه قوي البنية، جهوري الصوت، والآخر شاب فتيٌّ يحمل على كتفه زنبيلًا به طعام، علمت من رائحته أنه سمك، كان الإرهاق يبدو على الرجلين، وكأنهما قد أتيا من سفر بعيد، ترك الرجلان متاعهما واستلقيا إلى الصخرة ثم ذهبا في نوم عميق.

لا أدري كمْ من الوقت قد مرَّ وأنا فوق الصخرة، أتأمل شاطئ البحر وأتفكر في حالي، حتى أحسست بريح لطيفة تمر إلى جوار أذني، شعرت معها بأن أحدًا قد مرَّ إلى جواري، ولكني حين التفتُّ لم أجد شيئًا. نظرت إلى النائميْن فوق الصخرة، فوجدتهما على حالهما، ولكني رأيت شيئًا جعلني أشعر بالرهبة والخوف.

تابع وقد ارتعش صوته وكأن الرهبة لا تزال ترافقه:

ـ رأيت زنبيل الطعام يتحرك، وكأنما دبَّت به الحياة، وفجأة انفتح الزنبيل عن فُرجة صغيرة خرجت منها سمكة، ظلت تتلوى فوق الرمال وكأنها تبحث عن قطرة ماء تعينها على استعادة الحياة، انكمشت في مجلسي، وقد ظننت أن جنيًّا يعبث بي فوق تلك الصخرة، ويمارس بعض ألاعيبه أمامي، ولكن الموج ارتفع فجأة وطالت مياهه السمكة، فتلوت بشدة ثم قفزت قفزة طويلة إلى البحر.

أيقظ رذاذ الموج الفتى النائم، فقام متثائبًا، وحين نظر إلى الزنبيل وجده مفتوحًا ولم يجد سمكته، لعله ظن أن طائرًا قد التقطها، فقام إلى حافة الصخرة ونظر إلى البحر فلم يجد أثرًا لطائر، لكنه وجد السمكة تدور في الماء أسفل الصخرة، أردت أن أقول له إن تلك السمكة هي سمكته، ولكني خشيت أن يتهمني بالجنون، أو أن يظن بي السرقة.

عاد الشاب، فأيقظ سيده في رفق، ثم حمل زنبيله وانصرفا.

وشعرت بالخوف من البقاء فوق تلك الصخرة التي تعبث بها الشياطين،

فقمت من مجلسي وقررت العودة إلى النزل، ولكن الفضول دفعني؛ لأن ألقي نظرة أخرى على السمكة، فوقفت على الحافة ونظرت إلى البحر، فإذا بي أراه.

صمت وقد علت أنفاسه، ثم لمعت عيناه وهو يقول:

ـ رأيت شيخًا لم ترَ عيني مثله قط في البهاء والرهبة، يحيط النور بوجهه وكأنما أشرقت الشمس على صفحة وجهه وحده، يتكئ على عصاه ويقف على صفحة الماء دون أن تبتلَّ قدماه، تدور السمكة حوله وتتقافز لتمس راحة يده، وكأنها كلب يقفز ليُقَبِّل يد سيده.

ارتجفت خوفًا وعدت إلى الدار، وحين عاد (عمرو) لم أحدثه في الأمر، وكتمت الأمر عن الجميع، واستقر في نفسي بأني كنت متوهمًا، وأنه ربما دفعني الجوع والشمس والوحدة فوق الصخرة، إلى ذلك الوهم.

وذات صباح أراد الشاب الذي أنقذنا الخروج إلى ميناء «عصيون جابر» مع بضعة مراكب أخرى للصيد، فقد كان هذا الجزء من البحر هو الأكثر أمانًا في الخليج، واقترح (عمرو) أن نرافقه، لعلنا نجد سفينة أخرى أو وسيلة تحملنا إلى مكان يقربنا من «بكة»، واتفق (عمرو) مع صاحب السفينة أن نعمل بها، وأن نعين البحارة في التجديف حتى نصل إلى هناك، مقابل أن يحملنا معه في رحلته.

وفي يوم السفر، عج المرفأ بمراكب الصيد التي سترحل إلى «عصيون جابر». ووقفت أنا فوق السطح أتطلع إلى الشاطئ. وأرقب الناس وهم يصعدون إلى السفن والمراكب، فجأة رأيتهما مرة أخرى، الشيخ الأبيض وخلفه الرجل القوي، ارتجف قلبي حين رأيتهما، وبقدر دهشتي كانت سعادتي! فقد أيقنت حينئذٍ أنني لم أكن واهمًا حين رأيتهما عند الصخرة! ولكنني تساءلت: ما الذي جمعهما مرة أخرى؟

نادى الشيخ على الشاب صاحب السفينة بصوت نافذ، يصل إلى القلب وقال:

ـ انتظروا! نريد أن نرافقكم.

ورغم أن السطح كان مكتظًا بالناس، استجاب الشاب بغير جدال وأفسح لهما الطريق، فصعد الشيخ ورفيقه، دون أن يسألهم أحد عن قيض أو مال، ولأنني كنت أقف إلى جوار السلم، مددت يدي فأمسكت بيد الشيخ كي أعينه على الصعود إلى السطح، والتقت عيني بعينه، إن قلت لكم إني قد شعرت بأن السكينة قد غمرتني، وكأنني مسست يد ملك من السماء فسأكون مُقَصِّرًا في الوصف، فيا لحلاوة اللمسة، ويا لطيب النظرة! وقفت غير بعيد أترقب كل حركة يقوم بها وكل كلمة يهمس بها في أذن الرجل القوي الذي وقف إلى جواره مطأطئ الرأس، خاشع الصوت، وكأنه صبي في حضرة معلم.

صمت لحظات، ثم تابع:

ـ غابت عيني عنهما للحظات، ثم استدرت ثانية، فلم أجدهما على السطح، بحثت عنهما بين الوجوه التي ملأت السفينة فلم أجدهما، خطر لي أنهما قد يكونان قد نزلا الدرج إلى أسفل السفينة، تلصصت في سيري ثم هبطت الدرج، فرأيتهما دون أن يشعرا بي في القاع.. كان الشيخ يجلس القرفصاء وقد وقف خلفه الرجل القوي، سمعت طرقًا ولكني لم أعرف ما الذي يفعلانه إلى أن سمعت صوت الرجل القوي يقول في حِدَّة بصوته الجهوري:

ـ أخرقتها! ستغرق أهلها بسوء فعلتك!

قام الشيخ من جلسته، وقال في تحذير غاضب:

ـ ألم أقل لك لا تتبعني؟

صمت الشيخ الآخر وانطفأ وهج غضبه، وعاد كالصبي المطيع وهو يقول:

ـ معذرة على ما قلت.

لم يلتفت إليه الشيخ، وقال:

ـ هيا بنا.

حينها صعدت أنا الدرج مسرعًا ووقفت على السطح وأنا ألهج من الانفعال، ماذا أفعل؟ هل أخبر صاحب السفينة بما حدث أم أصمت؟ حدسي يقول:

إن هذا الشيخ الجليل لا يمكن أن يأتي بفعل شنيع كهذا إلا لسبب أجهله.

فجأة عاد الشيخ ومعه رفيقه، قال الشيخ لصاحب السفينة الذي كان يأمر رجاله برفع السلم استعدادًا للرحيل:

ـ المعذرة أيها الفتى! تلك ليست وجهتنا.

أرخى الشاب السلم مرة أخرى، فهبط الشيخ وتبعه رفيقه، وما هي إلا لحظات حتى غابا وسط الجموع الواقفة على الشاطئ، كدت أصرخ وأقول للناس: لا تتركوهما، لقد خرقا السفينة، ولكن لساني خرس، ولزمت الصمت وكأنني حجر أصم، وانطلق النفير الأخير وتحركت السفينة، تشق العباب في اتجاه الشمال.

سكت لحظات ثم قال:

ـ ورآني (عمرو) مرتجفًا، وممتقع الوجه، فقال لي:

ـ ما بك؟ هل أصابك البحر بالدوار؟

لم أجد ما أقوله، فأومأت له برأسي وقلت في صعوبة:

ـ ربما.

ابتعدنا عن الشاطئ وكنا في منتصف المسافة بين «مجمع البحرين» و«عصيون جابر»، حين علا صوت البوق فوق الساري وأشار الدليل المعلق فوقه تجاه الأفق وهو يقول صارخًا:

ـ سفن إدومية!

اشتد الهرج والمرج، وتجمع الناس عند مقدمة السفينة ينظرون في وجل إلى سفن الإدوميين التي كانت تبحر تجاهنا في سرعة.. اضطرب الشاب صاحب السفينة وأسقط في يده وهو لا يدري ماذا يفعل؛ إن حاول الدوران ستتساقط عليه سهام الإدوميين المشتعلة، وإن انتظر سيسطون على سفينته، فجأة علا صراخ آخر ورأيت رجلًا يقف على الدرج وهو يقول:

ـ الماء يتجمع في قاع السفينة، سنغرق جميعًا!

أسرع قائد السفينة إلى القاع الذي امتلأ إلى منتصفه بالمياه، تسي أمر السفن الإدومية، فقد كان الوضع داخل السفينة في تلك اللحظة أخطر من خارجها، أمر الجميع بأن يقوموا بنزح المياه من القاع حتى لا تغرق السفينة.. تراص الرجال في صفوف امتدت من القاع إلى السطح، وتنقلت الأواني المملوءة بالمياه المنزوحة من القاع من يد إلى يد إلى أن أفرغتها اليد الأخيرة في البحر، أما أنا فكنت أعاونهم في نقل الماء، ولكن عيني لم تغب عن سفن الإدوميين التي اقتربت منا بشدة.

وفجأة ارتفع بوق السفن الإدومية تأمرنا بالوقوف، فتوقف البحارة عن التجديف، اقتربت منا إحدى السفن ووقفت بمحاذاتنا، كان عليها ضابط وثلة من الجنود تأهبوا جميعًا بالأسلحة وهم ينظرون تجاهنا في حذَر.

لاحظوا ما نقوم به من نزح المياه فتمعن الضابط قليلًا ومال على أذن أحد الجنود وتحدث إليه بكلمات، اعتدل الجندي ثم تقدم نحونا وقال:

ـ ما الذي يحدث عندكم؟

لم أنتظر أن يرد صاحب السفينة أو أحد من البحارة، فقلت بصوت عالٍ:

ـ تحطم قاع السفينة وتوشك السفينة على الغرق!

همس الجندي في أذن الضابط بما قلته، فأومأ برأسه ثم علا صوت الجندي وهو يشير بيده لباقي السفن:

ـ أفسحوا الطريق لتلك السفينة!

فصرخت أنا بصوت عالٍ قائلًا للبحارة:

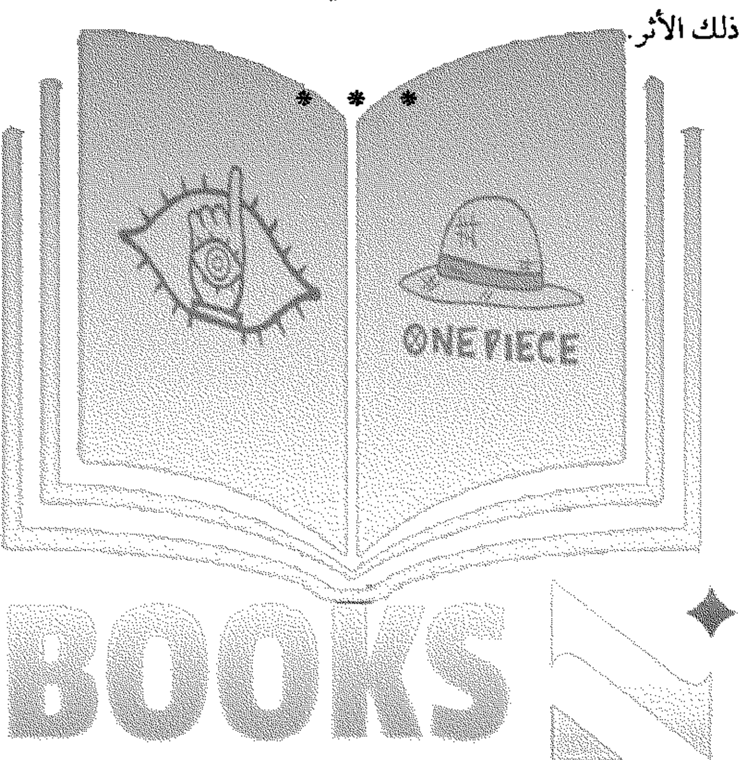
ـ استأنفوا التجديف، الطريق مفتوح.

واتسعت فُرْجة بين السفن الإدومية، مررنا من خلالها قبل أن تطبق طرفيها مرة أخرى، لتحجز باقي السفن عن المرور، وكأنما كان الخرق الذي صنعه ذلك الشيخ في قاع السفينة هو السبب في فرجة النجاة التي عبرنا منها من بين السفن الإدومية.

وحين هبطنا في ميناء «عصيون جابر»، تلاشت رغبتي، في السفر إلى «كوش» أو إلى مكان. وقررت العودة مرة أخرى إلى «مجمع البحرين»، كي أعرف سر ذلك الرجل حتى وإن مكثت عمري كله هناك.

وتوقف (شهبور) عن الحديث، بعد أن اشتد به التعب، فاستأذن في النوم على أن يستكمل حكايته في اليوم التالي، فأطفأنا نيران الحطب، وقمت وعندي شغف بأن أعرف سر ذلك الرجل الذي غير من حياة (شهبور) وترك فيه ذلك الأثر.

* * *



الورقة الرابعة والخمسون

استيقظت مبكرًا في الصباح، وكان الجميع لا يزال نائمًا، خرجت إلى صومعة الخشب، فوجدت غلامي الحبشي قد سبقني إلى هناك، وقد أعدَّ الألواح المكشوطة، التي حملناها، وصعدنا بها إلى السفينة. وزَّع (جديس) العمل على النجارين، وأمرني بأن أنزل إلى القاع مع اثنين آخرين كي نتحقق مما يكون قد لحق بقاع السفينة من أضرار، حين دخلت إلى القاع، تذكرت قصة (شهبور) التي حكاها لي في الليلة السابقة، أدركت أن قاع السفينة هو أخطر جزء فيها، تتحمل أخشابه لطمات الأمواج، وصدمات الصخور، وتبدو علامات الاصطدام بالقاع كندبات الجروح، لكل منها ذكرى ومغامرة في ذلك البحر المخيف المتلاطم الأمواج.

لم يكن حال تلك السفينة سيئًا، فرغنا من العمل بها بعد الظهيرة بقليل، وحين صعدت إلى السطح نقدني (جديس) كيسًا من المال به خمسون فضية، اشتريت سمكًا مطبوخًا وخبزًا من السوق، وعُدْت إلى المنزل. فوجدت (أروى) وحدها وقد بدا عليها القلق حين رأتني. سألتها وجِلًا:

ـ ما بكِ؟ وأين (إبرام)؟

قالت في تردد:

ـ أخذته (أم السعد) إلى خوص (عمرو) ابن عمي.

قلت في لهفة:

ـ لماذا؟

قالت في تردد:

ـ كي ... يختنه!

قلت لائمًا فعلها:

ـ يختنه؟! ولماذا لم تنتظرا عودتي؟

قالت وهي تشيح بوجهها في خجل إلى (أم السعد):

ـ إنك سترفض ختانه لأنك لست من قومنا!

لم أتمالك نفسي من الضحك، فقلت:

ـ ولماذا أرفض ختانه وأنا أيضًا مختون؟!

نظرت نحوي في دهشة وقالت:

ـ حقًّا يا (شمعون)!

قلت لها وأنا أخبط على رأسي غير مصدق:

ـ تزوجنا منذ عام، ولا تدرين إن كان زوجك مختونًا أم لا؟!

قذفتني بثمرة بصل وقالت في خجل:

ـ وما أدراني أنا بأشياء الرجال يا (شمعون)؟!

ثم كتمت ضحكتها أكثر من مرة وهي تتردد في البوح بشيء ما. فقلت لها:

ـ قولي ما عندكِ ولا تكتمي شيئًا.

قالت وهي تكتم ضحكتها:

ـ أتدري أن (أم السعد) كانت تتندر عليك قبل ليلة زفافنا. قالت لي: كيف تتزوجين رجلًا غير مختون؟! ولكن زوجة خالي قالت لها: وما الضير في ذلك؟ خالها (أواس) لم يختتن، وكل (بني عبيل) لا يختتنون، ثم قالت لـ(أم السعد): «الزيادة خير من النقصان في هذه الأشياء يا أم السعد»!

أفلتت منها الضحكة التي كتمتها طويلًا ثم قالت:

ـ والآن أدركت أن بك نقصًا يا (شمعون).

وضعت السمك جانبًا، ثم قذفتها بثمرة البصل وأنا أندفع نحوها بجسدي، حاولت أن تفر ولكني أمسكتها وقيدت ذراعيها بيدي خلف ظهرها وهي تحاول أن تتملص منها، قبَّلتها في شفتيها رغمًا عنها وأنا أقول:

ـ حسنًا! سأريك نقصي الآن!

ظلت تشيح بوجهها حتى لا أُقَبِّلها وهي تضحك قائلة:

ـ كلا يا (شمعون) لم تمر أربعون ليلة!

تذكرت شريعة (أم السعد)، فأفلت يدها وأنا أقول:

ـ سحقًا! ألن تنتهي تلك الأيام؟! لا أدري من وضع تلك الشريعة!

قالت وهي تمط شفتيها:

ـ شرعها من شرع الختان علينا وعليكم.

ثم قالت متفكرة:

ـ أظن يا (شمعون) أن الرب قد شرعها؛ لأن المرأة لا تشتهي الوصال في تلك الأيام، فقلبها يكون مُعلَّقًا بوليدها أكثر من زوجها.

قلت مازحًا:

ـ كرهت (أم السعد) من قبل، وبكلامك هذا سأكره (إبرام) أيضًا!

قالت معاتبةً وهي تعقص حاجبيها وتشير بإبهامها للخلف كي تذكرني بما قيل:

ـ تزوج الثانية كما نصحتك (هوى)!

قلت باسمًا:

ـ أخبرتك (أم السعد) إذن؟!

ضيقت عينيها وقالت لتثير غيظي:

ـ تخبرني (أم السعد) بكل شيء!

ثم قالت مهددة:

ـ عمومًا افعلها يابن (رومانا)، حتى أجعلك نُصبًا إلى جوار (إيساف) و(نائلة).

انفجرت ضاحكًا، وقلت:

ـ كيف تجرُئين؟

قالت جادة:

ـ بدعائي! فالرب لم يخيب دعائي في يوم من الأيام.

ثم قالت في حنان:

ـ دعوته وأنا طفلة كي أراك مرة أخرى، فرأيتك، ودعوته وأنا فتاة كي أتزوجك فتزوجتك، ودعوته وأنا زوجتك كي يرزقني منك بالولد فرزقني.

أثار حنانها مشاعري، فضممتها إلى صدري وتنهدت وأنا أقول:

ـ أفلا دعوتيه أن يجمع شملي بأمي؟!

قالت مسرعة في صِدْق:

ـ أدعوه! أدعوه يا (شمعون) كل يوم، ولن يخيب الرب رجائي.

حينئذٍ سمعنا صوت بكاء الطفل خارج الباب، ثم دخلت (أم السعد) تحمله وقد تلطخ قماطه ببعض الدماء، أسرعت (أروى) نحوه تحمله في لهفة، وألقمته ثديها ليكف عن البكاء ثم دخلت به إلى الحجرة كي ينام.

سألت (أم السعد):

ـ أين (شهبور) و(عمرو) و(هوى)؟ قد اشتريت سمكًا مطبوخًا من السوق لنأكله.

قالت في حدة:

ـ ذهب (شهبور) للقيلولة، وتتجول (هوى) مع (عمرو) في المرفأ.

ثم أردفت في غيظ:

ـ اسمع يا (شمعون)! أنت من أحضر (هوى) إلى هنا، والفتاة لا ولي لها ولا رادع، فإما أن تسير بالعُرفِ بيننا وإما أن تفارقنا بالمعروف.

أدركت أنها لا ترضى بقرب (هوى) من (عمرو)! هي لا تنسى أن (هوى) يتيمة وربيبة خالتها النباصة، وأن (عمروًا) هو سيد (بني يطور) المرتقب، قلت لها هادئًا:

ـ كنت سعيدة بها من قبل!

قالت منفعلة:

ـ سعدتُ بها لأجل (أروى)، ولكني أراها اليوم تحوم حول سيدها، وما يحق لها أن ترتقي ذلك المرتقى.

ثم قالت باكية:

ـ عشتُ عمري كله في خدمة الشيخ (عابر) وتربية أبنائه وأحفاده بعد وفاة زوجته، فما حدثتني نفسي يومًا بأن أطمع فيما ليس لي بحق، أو أن أتعلق بأحبال كرمه كي أرتقي منزلة فوق منزلتي، واكتفيت بخدمة أحفاده حتى بعد مماته!

أدركت أن المرأة تبكي على حالها وتأسى على ماضيها، وما غضبها على (هوى) إلا لأنها قد أتت بما لم تستطع هي فعله، لم تستسلم (هوى) لأقدارها كما استسلمت هي من قبل، اقتربتُ منها وربت على كتفها، وقلت لها مواسيًا:

ـ كلنا عبيد الرب يا خالة، وقد علمني الشيخ (عابر) أننا جميعًا سواسية، لم ينطق ذلك بلسانه ولكني رأيته في فعله، فلم يبخل عليَّ بعلم ولا بصحبة، بل وزوَّجني حفيدته، وأنا الغريب الفقير!

قالت وهي تمسح دموعها:

ـ أنت رجل يا (شمعون)، ولا يضير الرجل يُتْم ولا غربة.

قلت لها:

ـ لو كان الشيخ (عابر) حيًّا، لكره كلامك هذا، فما رأيت أحدًا أحب إلى قلبه من (أروى) وهي فتاة.

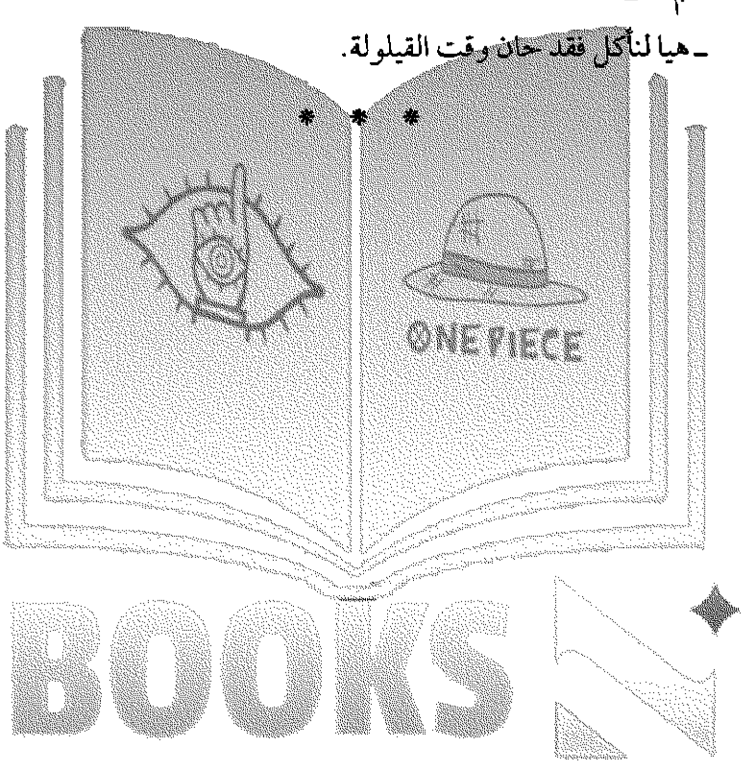
ثم ربتت على كتفها مرة أخرى وأنا أقول:

ـ هوِّني عليك يا (أم السعد)، ودعي أمر (عمرو) لـ(عمرو)، وما كان لـ(هوى) أن ترتقي منزلة لم يكتبها الله لها!

ثم قلت:

ـ هيا لنأكل فقد حان وقت القيلولة.

* * *



الورقة الخامسة والخمسون

في المساء، جلسنا أنا و(شهبور) وحدنا تفصلنا كومة الحطب المشتعلة، فقد شعر (عمرو) بالتعب من التجوال في المرفأ طيلة النهار فآثر النوم على السمر.. استأنف (شهبور) ما بدأه في الليلة السابقة فقال:

ـ لم نمكث في «عصيون جابر» سوى بضعة أيام، فقد كان المرفأ صغيرًا والصيد أيضًا كان قليلًا، فقرر صاحب السفينة العودة إلى «مجمع البحرين»، أبحرنا بمحاذاة الشاطئ، وحمدنا الله أن السفن الإدومية لم تكن تجول في خليج لحيان أثناء عودتنا، حين وصلت إلى «مجمع البحرين»، قررت أن أقتفي أثر ذلك الرجل، وخرجت أسأل عنه في كل مكان، كان وصفه سهلًا، فليس من المألوف أن ترى رجلًا يرتدي زيًّا أبيض ناصع البياض لا يطوله دنس الطريق في تلك الصحراء، وصلت إلى أول منازله، أخبرني بعض الناس أنهم رأوه في قرية غير بعيدة تقع بالقرب من الساحل، تركت (عمرو) في «مجمع البحرين»، وحملت معي متاعًا خفيفًا وركوة ماء، وخرجت أتحسس أخباره في تلك القرية، سألت صيادًا من أهل القرية عنه، فنظر الرجل نحوي متفحصًا ثم قال:

ـ هل أنت من أهل الغلام القتيل؟

اندهشت من كلامه فقلت:

ـ أي غلام قتيل؟

قال الرجل وقد بدا أنني أثرت شكوكه:

ـ الذي قتله ذلك الشيخ!

قلت له وأنا أفغر فاهي دهشة:

ـ قتله الشيخ؟!

قال الرجل:

ـ نعم، والقرية كلها تبحث عنه لتقتص منه، بعد أن قتل (ابن سلاس) و(رحمة).

قلت وقد رأيت الشر في عينيه:

ـ نعم، أنا قريب لـ(سلاس) و(رحمة)! أرجوك أرشدني إلى بيتهما، فقد غبتُ عن القرية لزمن طويل.

لا أدري لماذا أردت أن أرى أهل القتيل؟ هل لأتأكد من صدق الرجل، أم لأمر آخر حاك في صدري! وهو أن الرجل لم يفعل فعلته إلا لحكمة لا يعلمها غيره.

وصلت إلى دار (سلاس)، طرقت الباب ففتحت لي امرأة تقدمت في العمر، تلفتت بأذنها يمينًا ويسارًا وهي تقول:

ـ من الطارق؟

أدركت أنها قد كُفَّ بصرها أو كاد، فقلت:

ـ غريب يا خالة! جئت لأرى الشيخ (سلاس)!

أفسحت المرأة الطريق ودعتني للدخول وهي تقول:

ـ يرقد عاجزًا على أريكة في الصحن! ادخل يا بني.

يا الله! أي بؤس يعيش فيه هذان الهرمان حتى يموت غلامهما الذي يعولهما! وأي شيء دفع ذلك الشيخ إلى قتله كما يقولون؟!

جلست إلى الرجل العاجز فقلت:

ـ عوَّضك الله خيرًا في مصابك يا شيخ (سلاس)!

قال الرجل بصوتٍ مرتعشٍ وهو يهز يدًا مرتعشة:

ـ أعزك الله أيها الغريب، من أنت؟

قلت:

ـ غريب، جئت من مكان بعيد كي أقتفي أثر قاتل ولدك؟!

صمت الرجل لحظات ثم قال وكأنما ثقلت الكلمات على لسانه:

ـ وهل وجدته؟!

قلت:

ـ لو كنت وجدته ما كنت أتيتك!

صمت الرجل مرة أخرى، ثم قال بجهد:

ـ ولن تجده! وهل يجد الإنسان ملك الموت؟!

شعرت برعدة في جسدي وقلت:

ـ ملك الموت؟!!

قالت المرأة التي كانت تستمع إلى حديثنا:

ـ جاء فقبض روحه ثم انصرف! فمن يفعل ذلك سوى ملَكٌ أرسله الله إلينا استجابة لدعائي!

قلت مشدوهًا:

ـ دعوتي على ولدك بالموت واسمك (رحمة)!

قالت المرأة في حسرة:

ـ حين تصير النعمة نِقمة، يدعو المرء ربه بأن يسترد نعمته، ويتعلم أن ليس كل ما يتمناه الإنسان لنفسه خيرًا.

ثم أردفت بصوت باكٍ:

ـ كنت عاقرًا وكان زوجي هذا قد بلغ من الكبر ولم ننجب ولدًا يعيننا في شيبتنا، ظللت أدعو الله في كل وقت أنا وزوجي أن يرزقنا بالولد، ولم أدع يومًا إلا وقدمت فيه قربانًا للرب كي يهب لي غلامًا تقر به عيني، وحملت بالولد قبل أن ينقطع حيضي بعام، وزوجي هذا شيخ قد وهن منه العزم والعظم!

صمتت قليلًا ثم تابعت في حسرة أخرى:

ـ وكبر الفتى، فإذا بالنعمة التي كنا نرجوها تنقلب نقمة، وإذا بالعون الذي رجوناه في شيبتنا، يصير عوزًا لنا وذلًّا، أضاع الفتى أموال أبيه، ثم بخل عليه بالبر والطعام، ولم يرحم عجزه وضعفه، ثم صرنا نُعيَّر به بعد أن هجرنا وسار مع الغُيَّار وقطاع الطريق! يتكسب بالسرقة ويقطع الطريق على عابري السبيل.

ثم بكت وهي تقول:

ـ أبكاني حتى جفَّ ماء عيني، فدعوت الله أن يرده إليه، وأن يبدلني خيرًا منه.

مسحت دمعتها ثم قالت:

ـ وذات صباح سمعت طرقًا على الباب والناس تقول، قُتِل ابنك يا (رحمة)، قُتِل ابنك يا (سلاس)، ظننت في بادئ الأمر أنه قد قُتل في عراك مع الأشقياء، ولكن حين علمت بمن قتله تعجبت! قالوا: إن شيخًا كبيرًا غريبًا قد جاء إلى القرية، فلقمه بحجرٍ فمات! ضربه هو وحده بالحجر من بين الأشقياء ثم انصرف! أيعقل أن تكون تلك الحادثة مصادفة؟! كلا والله! إنما هو قدَر الله قد أرسله في هيئة هذا الشيخ كي ينفذ دعوتي!»

حينها صمت (شهبور) قليلًا وقد أصابته رعدة، شعرت بها في جسدي أيضًا، ثم استأنف حديثه قائلًا:

ـ فقلت للمرأة:

ـ وهل استجاب الرب لدعائك، وأبدلك خيرًا منه؟

أدارت رأسها ونادت قائلة:

ـ يا (تمار)!

خرج صبي صغير من حجرة في البيت، شديد الرقة والجمال، وقال:

ـ نعم يا أماه!

ثم قالت:

ـ أبدلني الله بطفل يتيم من أبناء القرية، وجدته أذكى نفسًا وأرحم علينا من ولد أنجبه رحمي!

تنهدتُ ثم قبّلت الفتى وانصرفت وأنا أستعيد كلماتها، وتردد في نفسي سؤال ارتجف له جسدي، مَنْ هذا الرجل الذي مست يدي يديه فوق المركب؟ أتراني مسست يد ملك من السماء، أم مست يدي يد القدر؟

* * *

بعد يوم لم أستطع أن أنتظر حتى قدوم الليل، كي أستمع إلى (شهبور)، عدتُ من المرفأ وقت القيلولة، فذهبت إلى بيته الخوصي على الشاطئ مباشرةً ولم أعد إلى منزلي في قرية الصيادين، وجدته وحده، فقد كان (عمرو) لا يزال في عمله مع البحارة، أدرك من شغف عيني أني قد أتيت لسماع باقي القصة، جلست على الرمل، فترك أريكته الخشب وجلس إلى جواري، أسندنا ظهرينا إلى حائط الخوص، ونظرنا من فتحة الباب إلى البحر الذي عانقت زُرقته زُرقة السماء وقال وهو يغيب ببصره في الأفق:

ـ «خرجت من القرية، أتتبع كل طريق سار به، وكل شجرة استظل بظلها، وكل حائط جلس إليه، ولكنني لم أجده.. انتهى بي المطاف إلى قرية بعيدة عن الساحل، يسكنها قوم لا هم من أهل الرعي، ولا هم من أهل الصيد، يسم وجوههم الجفاء والغلظة، سألت أهل القرية عن الشيخ فلم يعرفه أحد إلى أن رأيت عابر سبيل فسألته، قال:

ـ رأيت رجلًا منذ أيام عند الحصن القديم يشبه ذلك الوصف.

انطلقت إلى مكان الحصن الذي كان يقع على أطراف القرية، لم يكن حصنًا حقيقيًّا، بل كان بقايا بناء قديم مهدَّم، يبدو كحامية أقامها أحد الملوك قديمًا ثم

تهدمت مع مرور الأيام، المكان يبدو مهجورًا رغم أن مساكن القرية تبعد عنه مسافة غير بعيدة، تلفتُّ حولي فلم أرَ أحدًا في المكان، ظننت أن عابر السبيل قد غُمَّ عليه الأمر، وشعرت باليأس من العثور على الشيخ، وكان التعب قد بلغ بي مبلغه وقد اشتدَّ قيظ الشمس في السماء، فسرت نحو جدار الحصن وجلستُ أسفله، أخرجت ركوة الماء ورشفت منها رشفات، فإذا بي أرى طفلًا بديعَ الشكل ينظر إليَّ مترقبًا من خلف الجدار.. ابتسمت له، ولكنه اختفى فجأة، هممت بأن أقوم لأرى أهله، ولكنه ظهر لي فجأة من الطرف الآخر وهو يبتسم مرتديًا زيًّا آخر! ناديت عليه فاختفى مرة أخرى، ثم ظهر من الجهة المقابلة بزيه الأول ضاحكًا، أدركت أن الطفل يلاعبني، فأشرت إليه بقطعة خبز كي يأتي، تردد قليلًا، ثم نظر خلف الجدار، وكأنَّ معه شخصًا آخر، ثم خرج طفلان توءمان كل منهما كفلقة البدر، وكأنما انقسم القمر شطرين فمنح كلًّا منهما شطرًا! اقتربا مني في حذر فوضعت في يد كل واحد منهما قطعة خبز، فتناولها بفرح ثم أخذا يقضمان منها، حينئذٍ خرجت امرأة شابة من خلف الجدار، أدركت من جمالها أنها هي التي منحت الحسن لولديها، فنادت عليهما:

ـ (سارم)، (سريم)! تعالا إلى هنا.

عاد الطفلان إلى أمهما عدوًا واختفيا داخل الحصن، ثم نظرت إليَّ وقالت في حذر:

ـ هل تبحث عن شيء أيها الغريب؟!

قلت في تردد:

ـ نعم، هل رأيت شيخًا كبيرًا يرافقه رجل في هذا المكان؟!

قالت في لهفة، جعلتني أستبشر خيرًا:

ـ هل أنت معهما؟!

قلت متلهفًا:

ـ بل أبحث عنهما! هل هما عندك بالداخل؟!

قالت وهي تهز رأسها في أسف:

ـ رحلا كما يرحل الحلم الجميل!

شعرت بالحزن، وقد بانت خيبة الأمل على وجهي، فقلت لها:

ـ ألم تعرفي إلى أين كانت وجهتهما؟

قالت:

ـ لا أدري، ولكنهما افترقا!

قلت في حزن:

ـ افترقا؟!

قالت:

ـ نعم، سار الشيخ من طريق، وسار الرجل من طريق آخر.

أدركت أن مهمتي قد ازدادت صعوبة؛ فالعثور على اثنين أيسر من العثور على واحد، سألتني:

ـ لماذا تبحث عنهما؟

قلت وكأنني أتحدث إلى نفسي:

ـ لأتبعهما!

ثم قلت لها وأنا أنظر إلى الأفق في شرود:

ـ منذ أن رأيت ذلك الشيخ، وهو لا يفارق عقلي وخيالي، وكلما تبعته ازددت عجبًا، أراه يحمل في يده وعاء يمتلئ بالرحمات، ولا يحل في مكان، إلا ويقع أمر، يبدو في ظاهره الشر ولكن في باطنه الرحمة.

صمتت المرأة وكأنها تتفكر فيما أقول ثم قالت:

ـ لم نرَ منه سوى الرحمة، ومثله لا يأتِ إلا بخير!

قلت وقد أدركت أن أمرًا قد وقع لها:

ـ صدقتِ! ولكن كيف عرفتِ؟!

قالت وقد اطمأنت لي:

ـ حين جاءا إلى هنا، كان يبدو عليهما الإرهاق والجوع، لم يستضفهما أحدٌ من أهل القرية، وخرجا منها بلا كسرة خبز ولا شربة ماء وقد اشتد بهما التعب، ثم وصلا إلى هنا فجلسا إلى جوار ذلك الجدار ليستريحا.

نظرت إلى الجدار الذي لاحظت أنه حديث البناء عن باقي جدران الحصن فتعجبتُ، وشعرت هي بما يدور في عقلي، فتابعت:

ـ لم يكن الجدار على هذا الحال، كان الجدار يوشك على السقوط، وكنت أرتعد خوفًا من ذلك، فلو سقط الجدار الذي يحمل السقف الذي يؤوينا لصرت أنا وأبنائي في العراء، فنحن لا نملك لنا مأوى غيره بعد أن مات زوجي. ولن يرفق بحالنا أحد من أهل تلك القرية، التي لا تأبه لعابر سبيل، ولا تمسح على رأس يتيم.

صمتت لحظة ثم أردفت:

ـ وحين جاءا إلى هنا، خرج (سارم) و(سريم) وقد اعتادا حينما يسمعان أصوات الغرباء على ذلك، فخرجت وراءهما لأرى الشيخ يجلس على ركبتيه ويحويهما بين ذراعيه، وكأنه يشتاق إليهما فتعجبت من ذلك وشعرت بالخوف منه، ناديت على الطفلين فعادا في سرعة، فقام وقال:

ـ لا تخشي عليهما شيئًا، ثم نظر إلى الجدار، وقال:

ـ آنَ لهذا الجدار الذي يوشك أن ينقض أن يُقام.

ورغم فرحي بذلك، إلا أنني قلت له:

ـ لا أملك نقودًا لذلك.

فابتسم قائلًا وقد أضاء وجهه:

ـ نقدني أبوهما أجره من قبل.

ودون أن ينتظر مني ردًّا شمَّر عن ساعديه، ثم جمع الحجارة وحملها بين ذراعيه كشاب فتيٍّ، وسط دهشتي ودهشة رفيقه أيضًا، ثم صنع الملاط، وأخذ

يعلو بالجدار، حتى أصبح كما تراه الآن.

صمتت لحظات ثم أردفت في حزن:

ـ وبعد أن أقامه جلس ليتحدث إلى الرجل الذي يرافقه، زال عن وجهه التعب وزال عن ثوبه غبار البناء، فأشرق وجهه بالضياء ونصع ثوبه بالبياض.. تحدث طويلًا وأنصت إليه الرجل بلا همس ثم تركه وانصرف، انصرف وحده من هذا الطريق، وكأنه طيفٌ جميلٌ حلَّ على النفس للحظات ثم رحل كي يترك فيها ذلك الفراغ العامر والسكون الصاخب!

قلت:

ـ وهل كان زوجك يعرف هذا الرجل؟!

نظرتْ نحو الأفق وقالت شاردة:

ـ زوجي!

ثم أردفت وقد أشرفت من مقلتيها دموع لكنها لم تنسلَّ منها:

ـ كان زوجي صيادًا فقيرًا ولكنه كان غنيًا بأعماله! كان كريمًا عفيفًا، يجود بما يملك على قِلَّتِه، لا يرد سائلًا، ولا يمنع محرومًا، وحين مات وجدت أعماله تسعى إلينا! فتارة يأتينا صياد بطعام، وتارة يرد لنا رجل قرضًا أقرضه أياه، وتارة يجود علينا عابر سبيل ببعض الحديث مثلك أيها الغريب!

تهدج صوتها وهي تقول:

ـ تزيدني تلك الحوادث شوقًا إليه، وتجعلني أشعر بأن روحه لا تزال حية بيننا تتردد علينا في صور شتى لترعانا.

ثم قالت باكية:

ـ حين رأيت الشوق في عيني الشيخ وهو يجثو على ركبتيه ويحتضن (سارم) و(سريم)، ظننت أنه هو! فلم يكن أحد يحتضنهما سويًّا بتلك الطريقة سواه! تمنيت لو بقي الشيخ إلى جوارنا فترة أكبر، فقد كنت أجد فيه ريح زوجي! ولكنه كما قلت لك، جاء كطيف جميل ثم رحل كأن لم يكن!

وصمتت المرأة، فالتزمت الصمت أيضًا.. تركت لها ولأولادها بعض الخبز ثم قمت منصرفًا وقد أيقنت أن هذا الرجل ليس ببشر، هو لُطْف من القَدَر أرسله الرب برسائل ليرفع الكرب عن بعض المكروبين، وأنه لا سبيل لرُفقة القدر، إلا بأمر صاحب القدر، تركت البحث عنه وصِرْتُ أبحث عن رفيقه، وألحَّ على نفسي شوق كي أعرف هذا الرجل الذي أكرم برفقته! سرت في الطريق الذي أشارت إليه المرأة أتحسس من أخباره، قطعت طريق الساحل سيرًا على قدمي، لا أجلس إلا حين يستبد بي التعب، ولا آكل إلا القليل مما يجود به أهل القرى على تاجرٍ، خرج ذات يوم ليزيد من تجارته، فانتهى به الحال إلى عابر سبيل يسير مجذوبًا بعد أن مست يداه يد القدر!

وصلت إلى مكان بين «مجمع البحرين»، وجبل «حوريب»، جلست كي أستريح فإذا بي أستمع إلى جلبة قريبًا من مجلسي، درت خلف كثيب الرمل، فإذا بي أرى ذلك الشاب الذي رأيته عند الصخرة، يقف وحوله حلقة من الفتيان يلاعبهم بسيوف من الخشب وكأنما يدربهم على القتال، حين رآني توقف عن المبارزة، جفل الأطفال قليلًا بينما ظل هو متماسكًا مع بعض الحذر وقال:

ـ هل تريد شيئًا أيها الشيخ؟!

تقدمت نحوه، تحسست كتفيه بيدي وأنا أتطلع إلى وجهه وكأنني أتأكد من أنني غير واهم، قلت له:

ـ أريد الشيخ الأبيض الذي كان يرافق سيدك عند «مجمع البحرين».

تراجع الرجل خطوة إلى الوراء وقد أخذ حذره أكثر وقال:

ـ من أنت؟

قلت بعيون تبكي بغير دموع وأنا أبتلع ريقًا وجد طريقه إلى حلقي الذي جف:

ـ أنا عابر سبيل، وضعني الرب على سبيله أيها الشاب، دُلَّني عليه أرجوك!

صمت قليلًا ثم تنهد وقال بعد أن شعر بصدقي:

ـ رحل أيها الشيخ! رحل إلى الأبد وقد ترك فينا ما تركه فيك وعلَّمنا الرب به ما لم نكن نعلم!

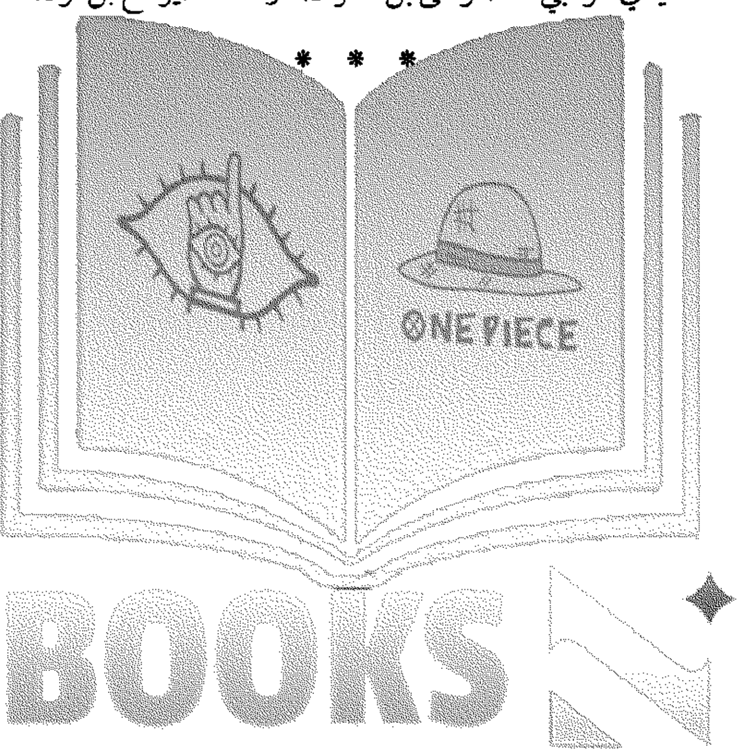
قلت له متلهفًا:

ـ من أنتما؟! ومن سيدك؟! ولماذا اختصه الرب برفقته؟

ضم الغلام يده إلى صدره وهو يقول:

ـ سيدي هو نبي الله (موسى بن عمران)، وأنا فتاه (يوشع بن نون)..

* * *



الورقة السادسة والخمسون

بكيتُ..

وحق على النفس أن تبكي حين تثور عليها الذكريات..

وحق على الذكريات أن تثور إذا عاركتها الكلمات..

فتح (شهبون) بكلماته الجرح غائرًا، وترك المشاعر تنزف بلا انقطاع، مشاعر الشوق واللهفة، والفرح والشجن.

أدركت من كلامه أن الرب لا يزال يرعى قومي، وأنه قد أرسل إلى نبيه من يعلمه حكمة القَدَر وأن يريه قبسًا من ألطافه الخفية التي كنا نراها عقابًا وزواجر.

تعلم (موسى) من الشيخ الأبيض أن كل ما حلَّ على (بني إسرائيل) من مصائب هو أمر في ظاهره العذاب وفي باطنه الرحمة.

وأدرك المؤمنون من بني إسرائيل أن التيه كان حقًّا عليهم كي ينشأ جيل جديد؛ جيل يرى الله في صورته التي يحبها.

صورة الرب الذي يربي، لا الإله الذي يقهر.

تعلموا أن الرب غني عنا، أما نحن فبحاجة إليه وبدون رعايته يتوه المرء ويحيد عن الطريق.

اشتقت إلى أن أرى ذلك الجيل الجديد الذي يربيه (موسى) و(يوشع بن

نون) بعد أن تعلما الدرس من الشيخ الأبيض.

ولم أشعر بالأسف والغيرة على حالي، فقد كان الرب لطيفًا بي إذ لم يفوت عليَّ الدرس! فوضع في طريقي الشيخ (عابر) كي يعلمني بعضًا مما علمه (موسى) لأقراني وأنا عنهم بعيد.

أتى (شهبور) من بلاد بعيدة ليخبرني أن جذوري لا تزال حية باقية، وأنني لست بشجرة غاب منقطعة الأصل، غرس في قلبي الأمل بأن أرى أمي مرة أخرى. آه، يا (رومانا)! أنتِ القلب المؤمن الوحيد الذي لا يفقد اليقين مهما انهالت عليه الضربات، (شهبور) أيضًا لم يعد (شهبور) التاجر الذي يؤمن بما تقبض عليه يداه، بل صار يثق في حدسه، وأيقن أن القلب يرى قبل العين أحيانًا.

وعصف الشوق بنفسي، وقررت أن أعود إلى قومي في برية «سين» في أقرب وقت أنهيت أعمالي في «الشعيبة»، وقفلنا عائدين إلى «بكة»، في الطريق جادلتني (أروى) في توقيت العودة رغم سعادتها بوصول الأخبار عن أمي:

قالت في رجاء:

ـ ننتظر حتى يعود (ليث) وأمي! قد يكون ذلك آخر لقاء لي بها يا (شمعون)!

وأيد (شهبور) و(عمرو) رأيها، وقال (شهبور):

ـ ننتظر الحج أيضًا يا (شمعون)، فقد يكون هذا آخر حج لي.

قلت له مندهشًا:

ـ هل ستخرج معنا إلى برية «سين»؟!

قال مؤكدًا:

ـ نعم، قد وجدت ضالتي هناك ولن أتركها حتى أموت!

تساءلت متعجبًا:

ـ تتبع بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة؟!

قال:

ـ بل أتبع نبي الله (موسى) إلى أي مكان يذهب إليه!

قلت مستغربًا أمره:

ـ ولماذا عُدتَ إذن؟!

قال:

ـ عدتُ كي أخبرك بالأمر، ثم ابتسم وقال:

ـ وكي أسترد أموالي منك أيضًا، فلا ضير أن يكون المرء غنيًّا ومؤمنًا!

* * *

حين وصلنا إلى «بكة» كانت الحياة أكثر صخبًا مما تركناها بعد أن بدأت القوافل في العودة من الشمال، تركنا (أروى) و(أم السعد) و(هوى) في منزلي، ثم عرجت مع (عمرو) و(شهبور) إلى منزل الشيخ (ثابت)، فتحنا الباب الذي ظل موصدًا طيلة الأشهر السابقة، رأيت (عمروًا) يجول ببصره في البيت، وسمعت خفقات قلبه وكأنه تذكر الشيخ (ثابت)، وجده الشيخ (عابر)، وأيامًا كان يضج فيها ذلك البيت بالحياة، قال مؤكدًا ظني وقد اختنق صوته:

ـ ما أوحش الدار بلا سكنى والوطن بلا أهل!

ربتّ على كتفه وأنا أقول:

ـ ستعمر بك الدار ويحلو الوطن برجوعك يا (عمرو)!

وقفنا في منتصف الدار حول جذيل النخل المبتور، رأيت عيدان الريحان وقد جفَّت من الإهمال، فجثوت على ركبتي وفركتها بيدي آسفًا وأنا أقول:

ـ رغم جفافها لا تزال الرائحة الطيبة تعلق بها.

قال (عمرو):

ـ لم أرَ ذلك الحوض من قبل، هل زرعته أنت؟!

ابتسمت وقلت:

ـ نعم.

حكيت لهما ما وقع من (دعس)، وتعجب (شهبور) من خيانته، ومن طمعه في ماله، ولم يخفِ على قلقه حين سألني:

ـ وأين أخفيت الذهب؟!

ابتسمت وأنا أقول:

ـ هنا تحت جذيل النخل!

تناولت القدوم، وأخذت أحفر حوض الريحان، حتى وصلت إلى كوة بين جذور النخلة المبتورة، أخرجت منها لفافة من الخيش وضعتها على الأرض ثم فتحتها فتلألأت سبائك الذهب التي لا ينطفئ بريقها مهما طال الزمان، نظرت إلى (شهبور) وقلت:

ـ تلك أمانتك يا شيخ (شهبور).

ثم ابتسمت قائلًا:

ـ ألا زلت لا تثق في العبرانيين؟!

طفرت الدموع إلى عينيه ثم قال:

ـ أثق بك يا (شمعون)، منذ رأيت الشيخ (عابر) يقربك إليه، ولو ساورني الشك فيك لحظة ما عهدت إليك بتلك الأمانة.

ثم ابتسم قائلًا:

ـ حككت أنف كِبرك كي تبذل قصارى جهدك في حفظها!

ثم جثى على ركبتيه، وقام بعدِّ السبائك، ثم قسمها إلى ثلاثة أقسام وقال وهو يقرِّب قسم إلى (عمرو بن دومة):

ـ هذا حق الشيخ (نابت)، وحقك يا (عمرو)! ولو كان المال يفتدي من نحب لبذلته كله فداء للشيخ (نابت)!

ثم قرب قسمًا آخر إليَّ وقال:

ـ وهذا حقك يا (شمعون)!

قلت صادقًا:

ـ هذا أكثر مما وعدتني به!

قال ممتنًّا:

ـ ولكنه أقل مما تستحق!

نظرت إلى الذهب فأضاء بريقه في عقلي ذكريات مظلمة، يوم خرجت من «قادش برنيع» فردًا يرافقني الخوف والجوع والفقر، ما كان يجول ببالي أن يأتي يوم أصير فيه آمنًا، مطمئنًّا، غنيًّا، لي زوجة وابن وعشيرة، ولي صنعة أحبها وأتكسب منها ما يغنيني عن ذُلِّ السؤال.

ولم يمنعني بريق الذهب من أن أدفع به نحو (عمرو) وأنا أقول:

ـ اسمع يا (عمرو)، لو كان لأحد حق في هذا المال فهو الشيخ (عابر)!

تعجب (عمرو)، وفغر (شهبور) فاه دهشة، فقلت في صِدْق:

ـ خذ يا (عمرو) هذا المال، وعُدْ إلى تجارة آبائك، واحفظ (بني عابر) من التجارة في الخمر، فما كان أحفاد الشيخ (عابر) أن يأتوا بنقيصة يكرهها جدهم.

وقبل أن يعقب دفع (شهبور) بنصف ماله إليه أيضًا وقال:

ـ نِعْم الرأي رأي (شمعون) يا (عمرو)! وأنا شريك لك بنصف مالي في تجارتك، أما النصف الآخر فهو دَيْن لشخص أؤديه إليه عما قريب.

اغرورقت عينا (عمرو) بالدموع وهو يقول:

ـ نِعْم الصُّحبة، ونِعْمَ الشركاء.

* * *

الورقة السابعة والخمسون

وذاع خبر عودة (عمرو بن دومة) في «بكة»، لم يكن أحد ليلتفت إلى عودته، لولا أن لاحظ الناس أن الشاب الذي اختفى لسنوات وخرج أبوه من قبل مطرودًا من «بكة» قد عاد إليها وقد تزايد ثراؤه. كان (عمرو) يطوف بالأسواق كل يوم فيشتري عشرات النوق حتى امتلك ما يقرب من الخمسمائة ناقة، وكان يطلقها لترعى في شعاب «بكة» ويشرف على رعيها (شهبور) مع رجال آخرين، وفي يوم من الأيام عاد (شهبور) و(عمرو) ومعهما بقرة صفراء اللون، اشترياها من السوق ولم يخرجا بها إلى المرعى، بل أتيا بها إلى مربط الدواب في منزل الشيخ (دومة). وحين رأت (أروى) و(هوى) البقرة، فرحتا بها، وقالت (هوى):

ـ يا الله! ما رأيت بقرة في جمالها، من أين اشتريتها يا (عمرو)؟

قال (عمرو) سعيدًا:

ـ باعها لنا تاجر حبشي، قال: إن هذه الأبقار ترعى فقط على ضفاف النيل، وإن المصريين يقدسونها، ويرسمونها على جدران المعابد!

قلت له متعجبًا وقد انقبض وجهي قليلًا:

ـ وماذا نفعل بها في الصحراء يا (عمرو) إن عدنا إلى برية «سين»؟!

قال:

ـ ترعى مع الإبل، وتحمل أغراضنا، ولعلنا نشتري لها من السوق ثورًا، فنطعم لبنها وولدها!

قلت:

ـ وإن لم نجد؟!

قال (عمرو) ضاحكًا:

ـ نذبحها فنأكلها!

لم أشأ أن أعارضه، وحين نظرت إلى البقرة الصفراء، التي لا يشوب صفارها شائبة، ويتلألأ لونها الفاقع في ضوء النهار وكأنها قد طُليت بماء الذهب، شعرت بالرهبة، وطاف بعقلي ذلك العجل الذهبي الذي عبده بنو إسرائيل من قبل! ووجدتني رغمًا عني أشعر بنفور من تلك البقرة، التي وقفت في سكون دابةٍ، لم تذق ذُلّ الحرث، ولا عناء الرعي من قبل، وكأنها عاشت عمرها تقتات على قرابين العشب والماء التي قدمها لها المصريون على ضفاف النيل!

وبعد أيام، عادت قافلة (بني يطور) من «يثرب»، حطت الرواحل التي تحمل قدور الخمر في الحي وخرجنا جميعًا في استقبالهم، كان العناق حارًّا باكيًا بين (عمرو) و(ليث)، وبين (أروى) وأمها، فرحت الأم بحفيدها (إبرام) فرحة عظيمة، حملته إلى صدرها وظلت تُقبّله، ورأيت الفتاة (لامار) إلى جوارها، ترنو بسعادة إلى الطفل، وحين جمعتنا دار الشيخ (نابت) علمنا أن (ليثًا) قد بنى بالفتاة (لامار) في «يثرب»! فأطلقت (أم السعد) (زغردة) عالية، وقالت في فرحة أحزنت (هوى):

ـ نِعْمَ النسب يا (ليث)!

ثم أردفت:

ـ بارك الله لك ولابنة خالك! والعقبى لك يا (عمرو).

امتقع وجه (هوى) ثم غادرت مجلسنا، وتبعتها عين (عمرو) وهي تمشي منكسرة إلى خارج الدار، وبعد قليل خلا صحن الدار ولم يبقَ سوايَ أنا و(عمرو)

و(ليث)، كنت أشعر أن نفس (ليث) لا تزال يعلق بها بعض الكدر مما حدث بيننا قبل خروجه إلى «يثرب»، كدَر تفصح عنه عينه التي يزوغ بصرها كلما التقت بها عيني، كان يرتدي ثيابًا تعلوه بردة من وبر الإبل، وعمامة تمنحه هيئة أكبر من عمره، أردت أن أمد إليه يد الود فقلت:

ـ حمدًا للرب على السلامة يا (ليث)، ومبارك لك الزواج من (لامار).

فردَّ في صوت محايد:

ـ أشكرك!

قال (عمرو) الذي شعر بذلك، وكان على علم بما وقع بيني وبين (ليث):

ـ كيف كانت رحلتكم يا (ليث)؟ وكيف حال أخوالك في «يثرب»؟

قال (ليث):

ـ بخير حال! قضينا أشهر الصيف في جمع الكرم وعصره، وتخزينه في القدور.

ثم تنهد قائلًا:

ـ عمل شاق ولكنه يستحق العناء ويُدِرُّ الربح.

ثم أردف في شيء من الفخر لم نعتد عليه في حديثه:

ـ الحق أن الشيخ (أواس) قد أكرم (بني يطور)، وأعانهم في محنتهم ولولاه لأتت أيام الحج علينا بغير تجارة!

ابتسم (عمرو) وقال:

ـ وهل سنبيع الخمر للحجيج يا (ليث)؟

شعر (ليث) بالسخرية في حديث (عمرو)، فقال في قليل من الحذر:

ـ نبيعها للتجار الأغنياء في الأسواق يا (عمرو)، كفانا بيعًا للتمور والفخار، وتجارة مع الفقراء!

قال (عمرو) متعجبًا:

ـ تلك تجارة جدك وأبيك!

قال (ليث) في تبرم:

ـ تجارة لم نرث منها إلا الفقر يا (عمرو)، حتى صرنا أفقر أحياء (بني إسماعيل) وأحط بطونها!

شعرت بأن الفتى الذي خرج من «بكة»، ليس هو الفتى الذي عاد من «يثرب»، خلع (ليث) ثوب الصبا وارتدى عمامة السلطة، وأذهبت الخمر التي يحملها عقله دون أن يشربها.

رغم عبارته المؤلمة التي رأيت أثرها في عيني (عمرو)، لم يرد (عمرو) عليه بلسانه. قام (عمرو) من مجلسه، وأحضر صُرَّة من القماش كان قد وضعها إلى جوار الباب عند دخوله، ألقاها على الأرض بيننا في قوة، وهو يقول في حسم:

ـ أتيت إليك بإرث الفقر الذي ورثته عن آبائك.

نظرنا إلى الصرة التي انحنى (عمرو) عليها يفتحها، ثم أخرج سيفًا من الصرة، قدمه إلى (ليث) وهو يقول:

ـ ذلك سيف أبيك الشيخ (ثابت)، الذي سقط ساعده وهو يمسك به! ما زلت محتفظًا به وأشعر بدفء قبضته عليه كلما لمسته.

ثم انحنى مرة أخرى وأخرج من الصرة عمامة الشيخ (ثابت)، وقال في حسم أكثر:

ـ وتلك عمامة أبيك، احتفظت بها لأجلك، وأرى أنها تلائمك أكثر من عمامة الأحباش تلك التي ترتديها.

اهتز (ليث) أمام كلمات (عمرو)، ولكنه لم ينطق، ولم يكتفِ (عمرو) بذلك، بل انحنى ثالثة، وأخرج من الصرة نعلين وقال في صوت أقرب إلى الغضب منه إلى الحسم:

ـ أما هذان فهما نعلا أبيك! ووالله لو لم ترث غيرهما لكفياك! فما انتعلهما أبوك وسار بهما إلا في الخير!

ثم قال في تأنيب جعل (ليث) يذوب خجلًا:

ـ لم يتاجر الشيخ (عابر) وولداه مع الفقراء يا (ليث)! بل تاجروا مع الله!

أتريد أن تعرف ماذا ربحوا من التجارة مع الله؟! ربحوا بركة لم تنقطع في أحفادهم، وربحوا شابًّا مثل (شمعون)، حفظ أموالهم وعِرْضَهم، جزاءً لكرمهم وفضلهم عليهم.

ثم قام وقال في صوت هادر أخرج النساء من حجراتهن:

ـ اسمع يا (ليث)، لا حاجة لنا بالكرْم ولا بالخمر، ولن يتاجر (بنو يطور) في شيء حرمه الشيخ (عابر) على نفسه وجعله على أولاده محرمًا.

سقطت كلمات (عمرو) على (ليث) كضربات السياط على ظهر بعير غفل عن الطريق، فأعادته الضربات إلى يقظته؛ ضربات لا تؤذي، ولكنها تثير الحمية والانتباه.

تحولت كلماته إلى دفاع وقال:

ـ ومن أين يعيش (بنو يطور) وقد بارت تجارتهم؟

قال (عمرو):

ـ لا تخشَ الفقر على (بني يطور) يا (ليث)، فقد صار لدينا من العير والمال ما لا يملكه (بنو إسماعيل) مجتمعين!

ثم أردف:

ـ أتدري من صاحب الفضل في ذلك المال يا (ليث)؟ إنه أبوك! أبوك الذي فقد حياته فداءً للشرف!

قام (ليث) من جلسته، وتقدم نحو (عمرو)، أمسك كتفي ابن عمه، ونظر في عينيه طويلًا، خلع عمامة (عمرو)، ووضع على رأسه عمامة الشيخ (نابت) وهو يقول:

ـ أنت أحق بهذه العمامة يا سيد (بني يطور).

ثم أمسك سيف الشيخ (نابت) ووضعه في يد (عمرو) وقال:

ـ وأنت أحق بهذا السيف يا فارس (بني يطور).

ثم انحنى ورفع نعلي أبيه من الأرض، وقبَّلهما وهو يحتضنهما إلى صدره وقال:

ـ أما هذان النعلان، فهما لي! لن أخلعهما من قدمي ما حييت حتى لا أضل مرة أخرى عن الطريق.

احتضنه (عمرو) في قوة وربت على كتفه وقال:

ـ لن يضل أحد من (بني عابر)، ما دُمنا سويًّا كما كنا في السابق يا (ليث).

ثم قال مبتسمًا كي ينهي تلك اللحظات العصيبة:

ـ هيا يا (ليث)! أحضر زوجتك! وأنت يا (شمعون)، أحضر (أروى) والنساء، ودعونا ننطلق إلى منزلي، فقد أقام لكم الشيخ (شهبور) مأدبة ستحاكى العرب بها!

قال (ليث) متعجبًا:

ـ هل عاد معك الشيخ (شهبور) إلى هنا؟!

ضحك (عمرو) وقال:

ـ تلك قصة طويلة يا (ليث)، يحكيها لك (شمعون) بعد الطعام!

* * *

وانقضت أشهر الصيف، ولم يعد (عمرو بن لحي) من تجارة الشمال، وشعر الناس بالقلق من غياب سيد «خزاعة» الذي كان مريضًا، قبل خروجه، وسرت شائعات بين الناس عن موته في بلاد الشام، وتساءل الناس عمن سيقوم بسقاية الحجيج وضيافتهم في هذا العام إن لم يعد (ابن لحي)، واتجهت أنظار الناس نحو فارس (بني يطور) (عمرو بن دومة)، الثري الناشئ الذي عاد فجأة ليملأ فراغًا تركه سادة «بكة» بعد رحيل «جرهم»، وغياب «خزاعة».

تناسوا ما فعلوه بأبيه قبل ذلك بعامين، وذهب إليه وفد من قبائل (بني إسماعيل)، يستحثونه على القيام بذلك الشرف.. كان يجلس على الأرض في

خباء أُقيم خلف البيت، وكنت أنا و(شهبور) نجلس إلى يساره، بينما جلس (ليث) إلى يمينه وحولنا مشايخ (بني إسماعيل).

قال أحدهم:

ـ ما قولك يا (عمرو) في أن تنال هذا الشرف؟ والله لو كان الشيخ (عابر) حيًّا لفرح بعودة السقاية والوفادة إلى (بني إسماعيل).

صمت (عمرو) قليلًا ثم قال:

ـ وهل إذا قمت أنا بالسقاية والوفادة تكون عادت إلى (بني إسماعيل)؟

لم يفهم الرجل مقصده، فتابع (عمرو):

ـ تكون ذهبت إلى رجل واحد من (بني إسماعيل)! رجل يتسيد على الناس بما أنفقه، وبعد أن تنفد أمواله، تمتد يده على قرابين البيت وصدقاته، ثم يفرض العشور على التجار والحجيج، حتى يعوض ما أنفقه!

ثم أردف في صِدْق:

ـ والله يا عماه، إنكم تخلقون في كل مرة ظالمًا جديدًا، يظلم نفسه أولًا، ثم يظلم الناس من بعده!

شعرت بالسعادة من كلمات (عمرو) ورأيت الاستحسان في عيني (شهبور)، بينما بهت الرجل من كلامه، فقال:

ـ هذا ما وجدنا عليه آباءنا يا (عمرو)! فإن كان لك رأي آخر هات به!

قال (عمرو) في صِدْق:

ـ لا تجعلوا السقاية والوفادة حكرًا على رجل واحد ولا على قبيلة واحدة، الكل يشارك بما يستطيع أن يجود به! وقرابين البيت يقوم عليها حلف من قبائل العرب!

تعجبت من كلامه، وكأنني أستمع إلى كلمات جده الشيخ (عابر) من قبل!

أشاح الرجل بيده وكأنما ملَّ من سماع هذا الكلام وقال:

ـ أفقْ يا بُنيَّ! العرب لا يتفقون! ولو عُهِد بالسيادة إلى حلف منهم لتنازعوها بينهم ولأفنى بعضهم بعضًا.

ثم قال في حسم:

ـ السيادة هنا في تلك الأرض تكون لرجل واحد! يفرض سلطانه إما بالمال، وإما بالسلاح، وإما بالعشيرة، وأنت معك المال والعشيرة.

قال (عمرو):

ـ ولو قاتلني (ابن لحي)؟!

صمت الرجل ولم ينطق، فأردف (عمرو):

ـ تتركوني أقاتله وحدي! فلو انتصرت نكون شركاء في النصر، وإن انهزمت أطرد من الأرض كما طُرد أبي من قبل! أليس كذلك؟

صمت الرجل ونكس الآخرون رءوسهم. فقال (عمرو) في مرارة:

ـ أتدري يا عماه ما آفة (بني إسماعيل)! إنهم كُثُر ولكنهم كغثاء السيل! فحقَّ عليهم أن يلي أمرهم كل ظالم ومغتصب!

ثم قام من مجلسه مُنهيًا الحديث وهو يقول:

ـ مني الصدقة وإكرام الحجيج في أيام الحج! أما أمر السيادة فلا حاجة لي بها، ولتبحثوا لأنفسكم عن ظالم غيري!

وبعد أن خرجنا، ذهب (ليث) و(شهبور) إلى السوق بينما عدت أنا و(عمرو) إلى بيته، حين جلسنا رأيت على وجهه الكدر، فقلت:

ـ لا تبتئس!

تنهَّد قائلًا:

ـ يحزنني أمر (بني إسماعيل) ولكن أمر العرب يحزنني أكثر، انظر يا (شمعون) إلى الممالك من حولنا، في «آشور» و«بابل» و«إدوم» و«كنعان» و«مصر». يبنون

الحواضر، وتصل صروحهم وأسوارهم إلى عنان السماء، ولا يزال العرب قبائل متناحرة تتقاتل على الكلأ والعير!

ثم تنهد في أسفٍ وقال:

ـ أمر الرب أبانا (إبراهيم) ببناء ذلك البيت في تلك البقعة، كي يجمع العرب حول بيت واحد، على دِينٍ واحد، فإذا بالبيت يصير سببًا للفرقة والتنازع من أجل ولايته.

قلت:

ـ صدقت يا (عمرو)! وقد أجرى الرب على لسانك الحق! ولعل غياب (ابن لحي) عن الحج هذا العام يدفعهم للتعاون فيما بينهم.

سألني مستفسرًا:

ـ هل تظن حقًّا أنه قد مات؟!

قلت:

ـ لا أدري! كان مريضًا قبل خروجه! ولكنهم قالوا: إن (طريفة) وجدت له العلاج لدى الجن!

ثم أردفت:

ـ الحق يا (عمرو) أني لا أشعر بالخير نحو هذا الرجل.

قال (عمرو):

ـ ولا أنا.

ثم أردف:

ـ ولكن لا شأن لنا به يا (أبا إبرام)، نقضي حجَّنا أولًا ثم نرحل!

ضحكت، فقد كانت المرة الأولى التي يناديني فيها (عمرو) بكنية ولدي، قلت:

ـ لم أعرف لك كُنية تحب أن تنادى بها يا (عمرو)!

ابتسم وقال:

ـ كانت أمي تنادي «عُميرَة »، ولكنني حين بلغت الصبا نهرتها عن ذلك حتى لا يعيرني أطفال الحي!

وكأنما أهاج الحديث عن أمه أشواقه إلى عائلته فقال:

ـ ما رأيك يا (شمعون) في أن يلحق بنا أبي بعد أن نخرج من «بكة»؟

قلت صادقًا:

ـ نِعْم الرأي، ولكن هل تعلم مكانه؟

تنهد وقال:

ـ أرسلت إلى الجنوب من يبحث عنه، ويخبره بأنني قد عدتُ إلى «بكة».

صمتٌ قليلًا ثم قال:

ـ قضيت أعوامًا في وحدة، وكنت أتمنى أن أعود كي يجتمع الشمل، فإذا بي أعود لأجد نفسي وحيدًا مرة أخرى.

ثم أردف وهو يتنهد:

ـ آنَ لهذه الوحدة أن تنتهي!

ظننت أنه يقصد أن تنتهي بعودة أبيه وأمه، ولكنه قال:

ـ لقد عزمت الزواج يا (شمعون)!

ابتهجت وقلت في فرح:

ـ حقًّا!! يا له من خبر سعيد يا (عمرو)! نِعْمَ العزم يا (أبا عميرة)!

ضحك وقال:

ـ لو أنجبت ولدًا سأسميه (عابر) وليس (عميرة)!

سألته متخابثًا:

ـ ومن العروس؟!

تنهد ثم قال:

ـ اقترح عليَّ (ليث) أن أتزوج ابنة عمنا (قيدار بن يطور) كي لا يحقد أبناؤه على (بني عابر)!

صعقتني المفاجأة، ووجدتني أقول له:

ـ وهل خطبتها؟

قال:

ـ كلا، لم أحسم أمري بعد!

قلت في تعجب ولوم:

ـ ظننتك ستتزوج (هوى)!

ارتبك وقال:

ـ (هوى)!

قلت له:

ـ نعم! لا تخفي نظرات الود بينكما على أحد! فما يمنعك عن الزواج بها؟!

قال وقد ازداد ارتباكه:

ـ (هوى) فتاة طيبة، وقد تربت في بيت الشيخ (نابت)، ولكنها ...

صمت، فأكملت عبارته:

ـ ولكنها لا تصلح لأن تكون زوجة!

ثم أردفت في شيء من الحِدَّة.

ـ لأنها يتيمة! واليتيمة تصلح للمخادنة ولا تصلح للزواج! أليس كذلك؟!

آلمته كلماتي المجردة من الزيف أو التزيين، فصمتَ ونظر إليَّ في لوم ولم يُعقِّب، فقلت:

ـ اسمع يا (عمرو)! إياكَ وظلم القلوب! ومثلك لا يسير على عرفٍ ظالم! بل يصنع هو العرف! ولو تزوج سيد (بني يطور) من فتاة يتيمة لأدرك الجميع ألا فرق بين اليتيمة والحُرَّة، وأننا أمام الرب سواسية.

قال (عمرو) مترددًا وكأنها تنازعه نفسه:

ـ كانت تأتي الغناء!

قلت:

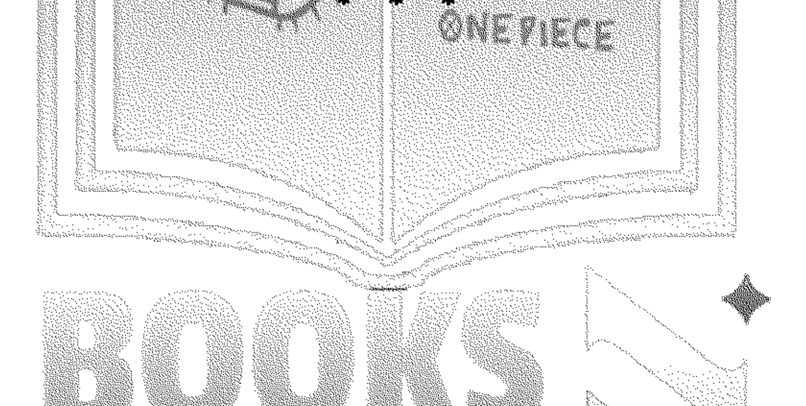
ـ لو وجدت سبيلًا غيره لتُطعم نفسها لأتته! ذاك أهون السبل!

ظل صامتًا يتفكر، فقلت وأنا أقوم:

ـ زِنها بميزان العدل يا (عمرو) ولا تزنها بميزان النفع! ولعل عدلًا تصيبه يكن خيرًا من نفْع ترجوه.

وبعد عدة أيام انطلقت زغرودة من حجرة (أروى) ميزت فيها صوت (هوى)، بعد أن أرسل (عمرو بن دومة) يخطبها لنفسه! ثم تلتها زغرودة أخرى قصيرة تلوَّنت بطعم النواح قليلًا ميزت فيها صوت (أم السعد).

* * *



الورقة الثامنة والخمسون

وكانت ليلة عرس (عمرو) و(هوى) ليلة فرح، سكنت فيها النفوس المرهقة وربتت على أكتافها يد السعادة بعد أيام من الشقاء، نال كل منهما عوضًا عن فقده، وبقدر النقص الذي كان يشعر به كل واحد منهما منفردًا، كان الكمال الذي بدا عليهما حين اجتمعا سويًا، حتى ظننت أنهما قد خُلِقا زوجين من قبل أن يلتقيا، الفتاة الجامحة (هوى)، هدأ جموحها وأتاح فرصة لذكائها والخير الذي يملأ قلبها أن يشرقا، ظهر ذلك منذ الأيام الأولى لزواجهما، فكانت تزور نساء الحي، وتجود عليهن بالمودة والعطاء، وكان صدقها كفيلًا بأن يشق لها طريقًا في قلوب النساء اللائي كن ينظرن إليها نظرة استعلاء في بادئ الأمر، وثبّت ذلك من مكانة (عمرو) أيضًا بين الرجال في (بني يطور)، فلا شيء يرفع قدر الرجال مثل نميمة النساء في الليل، كان النساء يستفضن في الحديث مع أزواجهن عن كرم (عمرو) وزوجته، ويثنون على برهما بالضعفاء حتى شاع حبهما بين الناس.

واستيقظنا ذات صباح على جلبة شديدة وضربات الطبول تقرع في الطرقات، خرجنا من الدار فرأينا جوقة من الأحباش تسير في الطريق، تتعلق على بطونهم طبول، ربطت بأحبال إلى رقابهم وفي أيديهم مطارق كبيرة من جلد البقر، تقرع الطبول فترتج لها جدران المنازل، وتسير خلفهم ناقة يعلوها رجل يرتدي زيًّا مزركشًا وينادي بصوتٍ عالٍ:

ـ أبشروا يا أهل «بكة».. عاد (عمرو بن لحي).. عاد سيد «خزاعة»

لم نرَ نداءً بتلك الطريقة من قبل، وكأنما أراد (عمرو بن لحي) أن يرسل البشارة بعودته ومعها تهديد لمن ظنوا به الهلاك!

عند منتصف النهار كان أهل «بكة» جميعًا يقفون عند سفح جبل «خندمة»، ينتظرون قدوم القافلة التي لاح غبارها في الأفق عند جهة الشمال، خرجنا أنا و(ليث) و(عمرو) و(شهبور) أيضًا لرؤية القافلة بعد أن سرت شائعات بأن (عمرو بن لحي) قد عاد بشيء من «كنعان» سيذهل قبائل العرب، ولأول مرة يتوقف الطائفون عن طوافهم حول الكعبة، تركوا أماكنهم وصعدوا إلى الجبل، بعد أن حملت الرياح أصوات الطبول الآتية من جهة الشمال، وكأنما عاد (عمرو بن لحي) بجيش وليس بقافلة للتجارة!

انقشع غبار الرمال رويدًا رويدًا، واتضحت معالم الصورة التي أزاغتها أشعة الشمس، فبدت جلية واضحة كضربات الطبول التي ملأت جنبات الوادي، كانت القافلة تسير وأمامها تمثال هائل وضع على محفة من الخشب لها عجلات، ويجرها عشرة ثيران، وعشرات الأحباش، ومع كل خطوة يزحفونها، كان يعلو صياح الأحباش وهم يقولون:

ـ هو بِل ... هو بِل ... هو بِل.

سألت (عمرو) مستنكرًا:

ـ بماذا يهتفون، وما (هو بِل) تلك التي يقولونها؟

قال (عمرو):

ـ لا أدري! أسمعهم يقولون (هُبَل)!

رأيت الوجل على وجه (شهبور) وقال:

ـ إنهم يهتفون لـ(بعل)!

نطقنا في صوت واحد:

ـ بعل!!

قال بصوت مرتعش وهو يشير بيده إلى التمثال الذي يجره الأحباش:

ـ نعم لقد عاد (عمرو بن لحي) بتمثال (بعل) إله الكنعانيين!!

أفسحت جموع الناس الطريق أمام التمثال الراقد على ظهره، مرَّ من أمامنا، فخفقت قلوبنا رهبة للونه الأحمر الذي جعله يبدو كشيطان نحت من العقيق، رغم أنه كان على هيئة إنسان، وزادت صيحات الأحباش ودقات الطبول من الرهبة في قلوبنا، نظرت بعيني إلى (عمرو بن لحي) الذي كان يعلو هودجه، وهو ينظر بعينيه يمينًا ويسارًا في شموخ إلى الجموع الواجفة، وقد بدا أصغر عمرًا وأكثر قوة مما خرج من «بكة»، عن يساره كان هودج (طريفة) العرافة، التي كانت عيناها تقدحان كجمرتي نار، وعن يمينه وليده ثعلبة.. توقف الأحباش أمام الكعبة، فتوقفت صيحاتهم، وقرعت الطبول ثلاثًا ثم توقفت إيذانًا ببدء (عمرو بن لحي) في الكلام.

لم ينخ (عمرو بن لحي) الناقة، بل ظل فوق ناقته ينظر إلى الناس الذين أشرأبت أعناقهم نحوه، ويجول ببصره في وجوه سادة «بكة» بنظرة جمعت بين الشماتة والبغض، وخيم الصمت والسكون على الجميع وكأنهم قد صاروا أصنامًا كذلك الصنم الراقد على ظهره. شعرت برعدة في جسدي نفضتني عن ذلك العالم، وتلونت أمام عيني السماء بألوان شتى، زادت من رجفتي، أشرت بأصبعي إلى السماء، لعل أحدًا يؤكد ما أراه، ولكن لم يلتفت أحد إلى إشارتي، أردت أن أتكلم، ولكن صوتي كان مخنوقًا، فصرخت فلم يغادر صراخي حلقي، شممت رائحته التي سطعت أنفي يوم «قادش برنيع»، وسمعت وقع خطواته كضربات طبول الأحباش، تلفتُّ حولي أتلمس النجدة من (عمرو) و(شهبور) و(ليث) ولكنهم كانوا جميعًا كالأحجار الجامدة.. سمعت نغماته التي تغنى بها من قبل وكأنها ترانيم تستدعي القرابين من دماء البشر، تداخلت ترانيمه مع كلمات (عمرو بن لحي) في أذني.

* أطفِئوا النُّورَ بظلامِ القلوب...

ـ أنا (عمرو بن لحي)

* أحرِقوا الأرضَ بحقدِ النفوس..

ـ وهذا هو صنم الرب قد تجلي عليه الرب بقدرته فأشفاني.

* الْعنوا مُحبِّيكم...

ـ من دعي إلى غيره فقد آذنَّاه بحرب.

* ومجِّدوا لاعنيكم...

ـ ومن تقرب إليه فقد تقرب إلى الله زلفى.

* انْثرُوا بذورَ الكُرْهِ حتَّى أراها تُثْمِر...

ـ من لم تسعه «بكة» و(هُبَل) فليرحل عنها.

* انثُروا عبيرَ الدَّمِ حتَّى أراني أثْمَل...

ـ ومن منع الحجيج عنه فقد أهدر دمه.

* أروني دموع الندم بلا توبة...

ـ ومن ظن أنه أعز على العرب من «جرهم» فليحذ حذوها.

* أرونِي صُراخ اليأسِ بِلا رجَاء...

ـ أما من خضع لأمرنا فقد نال من عِزِّ «خزاعة».

وإذا بـ(عمرو بن دومة) يصرخ بصوت عالٍ صرخة أعادت الحياة إلى الأصنام الجامدة من (بني إسماعيل):

ـ كفى..!! لن يدنس بيت الرب بأصنام الكنعانيين!

أشار (عمرو بن لحي) بعصا قصيرة في يده نحو (عمرو بن دومة) وقال في كبرياء:

ـ من أنت؟!

قال (عمرو):

ـ أنا (عمرو بن دومة بن عابر)!

وكأنها تذكر (عمرو بن لحي) اسم أبيه، فقطب حاجبيه وقال:

ـ ألم يُطرد أبوك من «بكة» ذليلًا؟!

قال (عمرو) وقد احمرَّ وجهه من الإهانة:

ـ بل خرج منها عزيزًا بعد أن دافع عن الحق! واليوم أثبت أنه كان على حق!

ثم أولاه ظهره والتفت نحو (بني إسماعيل) وسار بينهم وهو يضع يده على صدورهم وكأنه يريد أن يطمئن أن في صدورهم قلوبًا تنبض وقال في صوت يخنقه الرجاء:

ـ يا (بني إسماعيل)، يا (بني قيدار) و(يطور) و(نابت)، يا حجيج بيت الله! هذا دين آبائنا يبدل أمام أعيننا! ها هي الأصنام التي حطمها أبونا (إبراهيم) في «أور» يحملها الشيطان إلينا في «بكة»، فماذا أنتم فاعلون؟!

لم يجد (عمرو) إجابة منهم، رغم دموع الحزن التي انسابت على وجوه بعضهم. قال (عمرو) ملهوفًا:

ـ أجيبوني! قولوا إنكم لن تسمحوا بأن نتقرب إلى صنم من دون الله! انطقوها بأفواهكم وامنعوها بأيديكم! قولوا إن أولادنا لن يزدرونا، ولن يقولوا هؤلاء الذين أضاعوا دين آبائهم!

أجهش بعضهم بالبكاء، بكاء العاجز الذي لا يملك من أمره شيئًا، فصرخ (عمرو) وهو يضرب بإيديه على صدورهم:

ـ لماذا تبكون كالنساء؟! مالذي تخشونه؟ أتخشون الموت أم الجوع أم الفقر؟

ثم التقط حجرًا صلدًا من الأرض وقذف به تجاه التمثال في قوة وهو يصرخ في جنون:

ـ أم تخشون تمثالًا أصم لا ينطق ولا يسمع؟!

ارتطم الحجر بيد التمثال المصنوع من العقيق فتحطمت بددًا، وخيم الذهول فوق الجميع بمن فيهم (عمرو) نفسه، وحين أفاق (عمرو بن لحي) من الصدمة، صرخ في صوت فاق صوت الشيطان في الجحيم وقال للأحباش:

ـ اقتلوا ذلك الآبق واجعلوه عِبْرةً لمن يعتبر!

فانقضَّ الأحباش عليه يمزقون جسده بالسياط والعصي.

* * *

لقول الحق مهابة تهتز لها يد الباطش، وهذا ما شعر به (عمرو بن لحي)، حين رأى جمعًا من (بني يطور) من بينهم (ليث) و(شهبور) وأنا يشتبكون مع الحراس للدفاع عن (عمرو)، خشي (ابن لحي) أن تجد كلمة الحق صداها في الرءوس المنكسة، أو أن يثير مقتل (عمرو) الحمية والرغبة في الانتقام، فنادى في الأحباش:

ـ يكفي هذا! لن نسفك الدماء في حرم الكعبة!

ثم أرعد في وعيد:

ـ ولكن حرمة هذا النصب من حرمة الكعبة! ومن يمسه بسوء فقد أهدر دمه!

ثم نادى في الناس وقال:

ـ أيها الناس، ما دعونا لعبادة (هبل) من دون الله وما ينبغي! وما أجرى الله شفائي بشفاعته إلا بأمره، فمقدرة الله في يده يضعها حيث شاء، حتى وإن كانت في حجر أصم!

رأى الاستنكار في العيون الكسيرة، فقال:

ـ لو لم يكرِّم الله الحجر لما أمرنا بالطواف بالبيت ولا بتشريف الحجر الأسود!

ثم قال:

ـ أرأيتم إن نزع رجل من بينكم الحجر الأسود وألقى به في البحر، ماذا يكون من أمركم؟!

طال الصمت لحظات ثم قال رجل على استيحاء:

ـ ما يكون لنا من منسك بعده!

ثم قال آخر:

ـ والله نكون كمن نزع الشرف عنه!

لمعت عينا (ابن لحي) وقال:

ـ وهذا والله ما أبغيه! أن أزيدكم شرفًا إلى شرفكم! ولو لم يكن لهذا النصب من شأن في أرض الله، ما عبده أقوام في مشارق الأرض ومغاربها!

ثم هتف في الأحباش بصوت جهوري:

ـ ارفعوا النصب بين الركن والمقام وادعوه كي يقربكم إلى الله زلفى!

ثم التفت إلى (عمرو) وقال:

ـ أما أنت يا ابن الطريد، فقسمًا برب هذا البيت، لو رأيتك في «بكة» أو ما حولها لأحرقتك حيًا ولأقدمنك قُربانًا لهذا التمثال!

وبينما كنا نحمل (عمرًا) عائدين به إلى المنزل، ارتفع صوت الأحباش مرة أخرى وهم يقولون:

ـ (هوبل).. (هوبل)!

والتفتُّ خلفي لأجد رأس التمثال الأحمر تعلو من رقدتها حتى جاوزت بيت الرب!

وصوت (ابن لحي) يرتفع في السماء قائلًا:

ـ لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، ملكته وما ملك!

* * *

الورقة التاسعة والخمسون

استقبلتنا (هوى) بالصراخ حين رأت (عمروًا) مضرجًا في دمائه، فنهرها (عمرو) عن ذلك بصوت واهن، وضعناه على أريكة في صحن الدار، وصرف (ليث) الجموع من (بني يطور) التي تجمعت أمام الدار برفق ثم أغلق الباب. عاونني (شهبور) في إجلاسه كي ننزع قميصه الذي التصق بجروحه في رفق، وحين مسحت الدماء بخرقة مبللة عن جسده انفجرت الدموع من مقلتيه، لا من الألم وإنما من القهر، قال في حرقة ألهبت عيوننا بالبكاء:

ـ ليتني مت قبل أن أرى بيت الرب مُدنَّسًا بآلهة الكنعانيين!

ربت (شهبور) على كتفه قائلًا:

ـ هوِّن عليك يا (عمرو)، لن يجدي موتك شيئًا ولن يغير من الأمر شيئًا!

قال (ليث) وقد امتزج خوفه بقلقه:

ـ لن يتركنا (عمرو بن لحي)! ولن ينصرنا (بنو إسماعيل)!

قال (شهبور) مؤكدًا كلامه:

ـ نعم، أظن أنه لا مقام لنا في «بكة»!

قال (عمرو) وقد أوجعته الكلمه وأفجعته:

ـ أهرب من «بكة»! أترك الأمانة التي أحملها وأهرب؟!

قال (ليث) مترددًا:

ـ نبتعد قليلًا يا (عمرو)، لا قِبَل لنا بجيش «خزاعة»! وقد كنت تنوي السفر بعد الحج على أية حال!

جثمت الحقيقة على صدره حتى كادت أن تزهق أنفاسه، فقال بصوت واهنٍ:

ـ الحج! أي حج والبيت قد جاوره صنم، والنداء قد صار يدعو لشريك!

ثم أجهش في البكاء، وقال:

ـ أين أنت يا شيخ (عابر)؟ أين أنت يا شيخ (نابت)؟ أين أنت يا أبي؟! لماذا تركتموني أحمل ذلك العبء وحدي!

قلت مُهونًا عليه:

ـ ذلك يوم لا يحمل فيه إنسان عن إنسان يا (عمرو)، بل يحمل كل إنسان تبعة اختياره.

نظر إليَّ مستنجدًا، فقلت:

ـ لن يستنطقَ (ابن لحي) ألسنةَ الناس بالنداء، ولن يلقِ في قلوبهم التوسل إلى صنم، صدِّقني يا (عمرو) إذا أنكرت قلوبهم، ستخرس ألسنتهم!

قال:

ـ سيتبعه الجائع والمعتر!

قلت:

ـ لو كان إيمانهم لأجل الطعام والكساء فلا خير فيهم!

قال:

ـ سيغدق بالأموال على قبائل العرب وسادتها كي يتبعوه!

قلت:

ـ لو تبعوه فلا خير فيهم أيضًا، وأولى لك أن تغادرهم فارًّا بدينك!

قال حزينًا:

ـ أأترك «بكة»؟!

قلت:

ـ خيرًا من أن تُقتل فيها.

قال:

ـ وبيت الرب؟!

قلت:

ـ الرب لا يسكن البيوت! الرب يسكن القلوب!

قال:

ـ ودعوة أبينا (إبراهيم)!

قلت:

ـ تحملها في قلبك وتبلغها لمن لم تصل إليه!

قال مشدوهًا:

ـ أهكذا تكون شمس «بكة» قد أفلت؟!

قلت:

ـ تغرب الشمس من مكان وتشرق في مكان آخر، ولكن نورها يسطع على الأرض كلها.

قال:

ـ وأين أجد شمس الإيمان الآن؟!

أسرع (شهبور) قائلًا:

ـ هي الآن في برية «سين»!

قال (عمرو) مشدوهًا:

ـ نتبع نبي العبرانيين (موسى)؟!

قال (شهبور):

ـ هو من يحمل شعلة الإيمان!

قال (عمرو):

ـ لم يرسله الرب لـ(بني إسماعيل).

قال (شهبور):

ـ يهتدي المرء بالنور أينما وجده!

قال:

ـ وشريعتنا؟!

قال (شهبور):

ـ لا شيء يعدل السير على هدي نبي.

قال (عمرو):

ـ قلبي ينفطر على «بكة»!

قلت:

ـ لعل الرب يرسل إليها من يحمل شعلة الإيمان من جديد!

عاد يقول:

ـ وبيت الرب، من يعمره؟

قلت مرة أخرى:

ـ الرب لا يسكن البيوت والقلوب العامرة خير من البيوت الخاوية.

صمتُّ قليلًا، وقبل أن تثور نفسه بسؤال آخر، سمعنا رعدة اهتزت معها الأريكة التي نجلس عليها، ولم تمضِ لحظات حتى سمعنا صوت زخات المطر يهطل فوق عريش البيت.. فتح (ليث) الباب وأسرعت أنا و(شهبور) خلفه، رأينا مطرًا غزيرًا، وبعض الأطفال تلهو تحت المطر، خرجت من الباب وأنا أقي وجهي من زخات المطر اللاسعة، نظرت إلى السماء الغائمة فرأيت سحابًا متراكبًا يزحف من جهة الغرب إلى سماء «بكة» حتى حجب الشمس

التي مالت إلى الغروب! قلت متعجبًا:

ـ كل هذا المطر ولا تزال المزن حُبْلى بالماء، كيف تبدلت السماء هكذا؟!

قبل أن يجيبني أحد أومضت السماء ببريق برق خطف أبصارنا، ثم تبع ذلك رعدة أخرى انخلعت لها قلوبنا، واشتد معها المطر أكثر، هرول الأطفال مذعورين لرؤية الصاعقة، واختبأوا في حمى دورهم وقال (شهبور) بصوتٍ مرتعش:

ـ السماء غضبى على «بكة»! رحماك يا رب العالمين!

ذكرني ذلك المطر بسيل كاد يقتلني أنا و(أروى) صغارًا في «رسة». وتذكرت في تلك اللحظة (أروى). شعرت بالخوف عليها وعلى (إبرام)، فمنزلنا يقع في سفح البطحاء ولو انهمر السيل لأطاح به. أخذت شالًا من فوق كتف (شهبور)، ألقيت به فوق رأسي، وخرجت مسرعًا إلى الطريق، ناداني (ليث):

ـ إلى أين يا (شمعون)؟ المطر يزداد!

قلت وأنا أمسح وجهي بطرف الشال:

ـ أشعر بالخوف على (أروى)، منزلنا أسفل السفح! وقد يغمره السيل!

قال (ليث) وقد شعر بالوجل:

ـ انتظر سآتي معك!

قلت:

ـ كلا، اذهب أنت إلى دارك! وخذ معك (عمرو) و(هوى) و(شهبور)! فدار الشيخ (نابت) أبعد ما تكون عن مجرى السيل!

انطلقت في سرعة، فقد شعرت أن هذا الصيب لن يأتي بخير! رأيت الناس تحتمي بدورهم، ومن لم يملك منهم سقفًا يؤويه، صعد إلى أعالي الجبال كي يحتمي بالكهوف والمغارات، نظرت إلى الوادي فرأيت البيت مهجورًا لأول مرة! لا يقف إلى جواره إلا ذلك التمثال الأحمر القبيح، وعلى مقربة منه تمثالي (إيساف) و(نائلة). دعوت الرب أن يُزيل السيل تلك الأصنام التي أحاطت

ببيته، ثم انطلقت مهرولًا نحو السفح المنحدر، سقطت مرات ومرات ولكني كنت أقوم في كل مرة وأستأنف العدو غير عابئ بثيابي المتسخة، وبين لحظة وأخرى كنت أنظر إلى تلك السحب التي تخطو كالجبال نحو سماء «بكة».

وصلت إلى البيت، دفعت بابه بقوة، فوجدت (أروى) تقف مذعورة في الفناء الذي غمره الماء حتى وصل إلى منتصف ساقيها، وهي تحتضن ولدنا (إبرام). صرخت حين رأتني وقالت:

ـ الماء يغمر البيت يا (شمعون)!

قلت لها مسرعًا وأنا أمسك يدها:

ـ لا تخافي! هيا بنا!

ثم سألتها:

ـ أين (أم السعد)؟!

قالت:

ـ ذهبت عند أمي في دار (ليث) منذ الصباح.

قلت لها:

ـ حسنًا فعلت! هم في أمان الآن.

خرجنا إلى مربط الدواب الذي غمره الماء أيضًا، فاستقبلنا قطرات البَرَد التي ارتطمت بوجوهنا كحبات الحصى، صرخت (أروى) وهي تحمي وجه (إبرام) بيدها، خلعتُ الشال عن رأسي وحميت به رأسها ووجه (إبرام)، ففككت عقال البغلة التي كان تدور في قلق وأخذت أربط سرجها إلى العربة، وقد اشتدت حدة المطر وصار الماء يتدفق من جدران المربط.

انتهيت من ربط السرج فوضعت (أروى) والطفل في العربة وقلت لها: تشبثي جيدًا، قفزت فوق العربة وجذبت لجام البغلة وأنا أصفع ظهرها بقوة كي تنطلق، وكأن البغلة كانت تشعر بالخطر هي الأخرى فأطلقت لساقيها العنان وانطلقت بعيدًا عن السفح الذي أخذت حوافه تنجرف بالماء رويدًا رويدًا.

وبدا أن السيل سينهمر في أية لحظة، وصلت إلى جبل «الحجون»، فضربت البغلة كي تصعد، ولكن عجلات العربة تعلقت بالصخور، نزلت من فوقها كي أخفف حولتها وجذبت العربة مع البغلة ولكن العربة علقت وأبت أن تتحرك، لاح لي أن أتخلص من العربة حتى لا تعيق البغلة، أنزلت (أروى) والطفل، وأخذت أفك السرج في سرعة، فجأة جاءتني صرخة (أروى) في رعب وقالت:

- السيل!

نظرت فإذا بي أرى سفح البطحاء ينهار وقد علاه موج كالجبال، غمر في طريقه كل شيء وسحق منزلنا، ثم هبط نحو الوادي في سرعة محملًا بالصخور وبقايا دور صارت أثرًا بعد عين، ألقيت سرج البغلة وحملت (أروى) ووضعتها فوق ظهر البغلة مع (إبرام)، لففت اللجام على يديها وقلت لها:

- تشبثي جيدًا.

ثم ضربت ظهر البغلة بيدي في قوة فانطلقت تصعد الجبل وكأنها تفر من الموت، صرخت (أروى):

- وأنت يا (شمعون)!

قلت لها وأنا أصرخ:

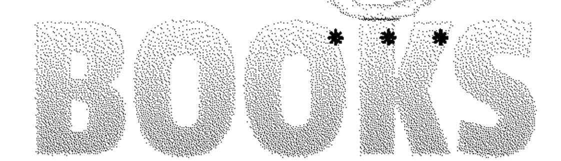
- لن تحملنا البغلة جميعًا! لا تنظري خلفك ولا تتوقفي إلا فوق «الحجون».

ونظرت خلفي فوجدت السيل يقترب وقد فتحت أمواجه فكيها وأخذت تلتهم في طريقها كل ما يعترضها، دارت في رأسي ذكريات عدة متلاحقة، تذكرت يوم انشق البحر بعصا (موسى)، تذكرت أمي وهي تعصب عيني كي لا أراها تغرق، تذكرت قبعة الفارس المصري وهي تطفو فوق الماء، تذكرت (دعس) وهو يحاول قتلي، تذكرت كل ما مرَّ بحياتي من مخاطر، في ذات اللحظة التي رأيت فيها الماء يرتفع فوق رأسي كطود عظيم يصل إلى عنان السماء.. حينها قفزت فوق العربة الخشبية وأمسكت جانبيها بيدي وأنا أغمض عيني

بقوة، شعرت بالماء يرتطم بظهري ورأسي في قوة ولكنه لم يفقدني وعيي، غمر الماء أنفي وأذني، فتوقف الزمن وانقطع صخب السماء الغاضبة من حولي، مضت لحظات لا أدري مقدارها وأنا تحت الماء، أغلقت صدري على ما بقي به من هواء حتى لا أفقده، فجأة اهتزت العربة، فتشبثت يدي بجانبيها أكثر، وفي اللحظة التالية تحركت العربة وبدأت تطفو، استسلمت لحركتها وتجمد جسدي فوقها حتى صرت قطعة منها، أفلتت زفرات من الهواء من فمي رغمًا عني، فوجدت صدري يخلو من الهواء رويدًا رويدًا، شعرت بأنفاسي تزهق وودت لو أشهق، ولكني كنت أدرك أن الموت حينها سيكون حليفي، شعرت بقبضتي ترتخي فوق العربة، وفتحت عيني رغمًا عني.. فجأة شعرت بالعربة تسرع في طفوها حتى خرجت إلى السطح، سعلت في قوة وأنا أطرد الماء من أنفي وفمي، شعرت ببرودة شديدة، ولكنني كنت ممتنًا لأنني ما زلت حيًا، طفت بي العربة مع مجرى السيل إلى أن توقفت في موضع ضحل فيه الماء، فقفزت من فوقها وصعدت بجهد بالغ إلى ربوة آمنة، ثم ألقيت ظهري إلى الأرض وقد بلغ بي الإعياء مبلغه.. نظرت بعين زائغة إلى السماء التي انقشع غمامها رويدًا، وكأن جيوشها تنسحب بعد أن أفنت أعداءها، ثم صرخت بأعلى صوت قبل أن أفقد وعيي:

ـ (أروى)...!

* * *



الورقة الستون

استيقظت على لسان رطب يلعقني، وأنف تتشممني، فشعرت بقشعريرة في جسدي، أعادت إلى عقلي وعيه سريعًا، فانكمش جسدي ذُعرًا ودفعته بيدي رغمًا عني وقد ظننته ذئبًا من ذئاب الصحراء، حين انتبهت وجدته كلبًا، جفل لحركتي المفاجئة، ثم جرى مسرعًا إلى أعلى الربوة قبل أن يقف عليه وينبح وكأنه ينادي شخصًا قادمًا من أسفل التل، ما هي إلا لحظات حتى ظهرت امرأة تمتطي أتانًا هزيلة، ترتدي السواد وتحمل في يدها غصن زيتون. أشارت به إلى الكلب فسار إلى جوارها، تذكرت (أروى)، فقمت من مكاني وأنا أرتعش من ملابسي التي ظلت مبتلة، رغم أن النهار قد انبلج وعادت الشمس إلى السطوع، نظرت حولي فوجدت آثار مجرى السيل الذي شق أخدودًا طويلًا من الوحل حول الربوة التي نقف عليها، قلت لها:

ـ هل رأيتِ امرأة تحمل طفلًا وتمتطي بغلة؟!

لم تجاوبني بل لكزت الأتان بكعبيها وتقدمت نحوي، هبطت من فوق الأتان واقتربت متكأة على غصن الزيتون، ذكرتني أخاديد وجهها بوجه رأيته من قبل، أخفي الظلام تفاصيله في المرة الأولى فبدا أبشع هذه المرة في ضوء النهار، حين اقتربت وفتحت فمها المظلم الخالي من الأسنان تذكرت اسمها، قلت لها:

ـ أنتِ (أم إياس) العرافة؟!

قالت وهي تتمعن في وجهي:

ـ تعرفني؟!

لم أجبها، بل قلت:

ـ كيف أتيت إلى هنا؟!

قالت:

ـ سمعت النداء!

قلت:

ـ أي نداء؟!

قالت:

ـ نداء السيد الجديد!

قلت:

ـ لن يسود! السماء قد غضبت عليه وظني أنها قتلته!

قالت:

ـ السماء غضبت على أهل «بكة»! وأخذت وديعتها!

قلت:

ـ أي وديعة؟

قالت:

ـ البيت!

قلت:

ـ ماذا تقولين؟!

قالت:

ـ انهدم البيت في السيل!

قلت:

ـ بيت الرب؟!

قالت وكأنها سمعتني من قبل:

ـ الرب لا يسكن البيوت!

قلت:

ـ كنت تعلمين؟!

قالت:

ـ أخبرتك من قبل!

قلت لها:

ـ أين زوجتي؟!

قالت ساخرة:

ـ أنا لا أرجم بالغيب!

قلت:

ـ أعطيك ذهبًا حين أعود إلى بيتي!

قالت ساخرة:

ـ صِرْتَ تملك الذهب والفضة إذن!

قلت:

ـ أين زوجتي؟

استدارت وأشارت بغصن الزيتون إلى صخرة على تل بعيد، تعجبت من أن بصرها يحدوها، وقالت:

ـ تختبئ أسفل تلك الصخرة مع وليدها وبغلتها!

ثم قالت وهي تعود إلى أتانها:

ـ لا حاجة لي بمالك أيها الطائر الغريب! خذ وليفتك وارحل إلى أرضك،

واستمع إلى (أم إياس)، فلا خير في أرض سكنتها (طريفة) العرافة!

* * *

أفرخ الحزن تعاسة، وأنجبت الخطوب حسرة لم نرَ مثلها في «بكة» طيلة الأعوام السابقة.

لم تعد الأرض مثل الأرض، ولا النفوس كسابقتها؛ تهدمت البيوت والأسواق، وتشردت أحياء كاملة، ومات خلق كثير، ومع ذلك كان سقوط البيت هو المصيبة الأكبر التي فاقت كل الخطوب مجتمعة. أفاق الناس بعد السيل على تهدم جدران البيت واختفاء الحجر الأسود، بحثوا عنه في كل مكان ولكنهم لم يجدوه! ظنوا أن السيل قد جرفه إلى مكان مجهول، وادعى بعضهم أن صاعقة رفعته إلى السماء، وترددت على الألسنة أحاديث عن اللعنة التي حلت على «بكة» بصنم (ابن لحي). ولم تفلح وعود (ابن لحي) بإعادة بناء البيت في الحد من تلك الأحاديث! فما قيمة البيت بغير الحجر الأسود!

أيقن (عمرو بن دومة) أن الرحيل قد آنَ أوانُه، قال له (ليث):

ـ هيا بنا يا (عمرو)، فلن تكون تلك آخر الخطوب!

قال (عمرو) آسفًا:

ـ لو أخبرني أحدهم ونحن في «إدوم» أن «جرهم» ستطرد، وأن «زمزم» ستطمر، وأن البيت سيهدم، وأن الحجر سيفقد، لحكمت عليه بالجنون!

قال (ليث) حزينًا:

ـ ولو أخبرني أحدهم حينها أني سأفقد أبي وجدي، ما تركتها!

قلت باسمًا:

ـ ولو أخبرني أحدهم أنني سأواجه السيل مرتين في حياتي لتعلمت السباحة صغيرًا!

قال (شهبور) باسمًا:

ـ ولو أخبرني أحدهم أنني سأترك تجارتي وأتبعك يا (شمعون) لأزهقت روحه.

خففت مزحته من وطأة الهم، فتنهد (عمرو) وقال:

ـ أتدرون ما هي أكثر النِّعَم التي أحمد الله عليها؟!

وقبل أن نجيب، أردف قائلًا:

ـ أن الله قد جمعنا سويًّا، فما كانت الحياة لتحلو بدونكم!

قلت له مستفسرًا:

ـ ألديك أخبار عن الشيخ (دومة)؟!

تنهد في حزن ثم قال:

ـ نعم! لا يريد الرحيل! يقول إنه لا يقوى على السفر والترحال!

شعرت بحزنه، فالتزمت الصمت ولكنه أردف في شيء من التهكم:

ـ ما دام أبي في رفقة أخوالي من «جرهم»، فلا شيء ينقصه!

ثم قال لـ(ليث):

ـ مُرِ الرِّجالَ يا (ليث) بأن يعدُّوا العُدَّة للرحيل.

قبل أن ينصرف (ليث) قلت له:

ـ هل لي في طلب يا (ليث)؟!

قال:

ـ مُرْنِي يا (شمعون).

قلت:

ـ هناك شيء يخصني في منزل الشيخ (عابر)!

قال مستفسرًا:

ـ ما هو؟

قلت:

ـ صندوق العروس! فبه أوراقي التي كتبتها طيلة السنوات السابقة.

ضحك (شهبور) وقال:

ـ أما زلت تكتب تلك الأوراق حتى الآن!

قلت:

ـ لم أكتب الكثير في «بكة»، كما أنني قد فقدتُ بعض اللفائف حين أطاح السيل بداري، ولكني أحمد الرب أن حفظت باقي الأوراق في صندوق العروس في دار الشيخ (عابر)!

قال (ليث) ضاحكًا:

ـ لن أعطيك الصندوق حتى أقرأ ما كتبته عني!

قال (شهبور):

ـ لن تفهمها! فقد كتبها ذلك الماكر بلغته المصرية حتى لا يطَّلع عليها أحد.

ضحكنا وانصرف (ليث)، وبعد أن خرج قال (عمرو):

ـ أتدري يا (شمعون) أني أتعجب لأمرك، فأمك مصرية وأبوك عبراني وزوجتك عربية، أتدري أنه لم يجمع أحد تلك الخصال سوى أبينا (إسماعيل)!

تعجبت من الملاحظة فقلت:

ـ أحمد الرب أن منحني خصلة من خصاله!

قال (شهبور) جادًّا:

ـ ولكن لأي شعب يميل قلبك يا (شمعون)؟

لم يسألني أحد من قبل ذلك السؤال وما تفكرت به، فقلت بعد تفكير:

ـ يميل قلبي إليهم جميعًا! ويسعهم جنبًا إلى جنبًا!

ثم أردفت بعد قليل من الصمت:

ـ أتدري يا (شهبور) أن أبي قد مات ولم يكن قلبه معلقًا بشيء سوى الأرض

المقدسة؟ أشعر أحيانًا أنه قد قسا على نفسه حين علّق كل بهجة في حياته على تحقيق ذلك الحلم فمات ولم يهنأ بشيء، أما أنا فأشعر أنني كنت أسعد حالًا منه رغم ما مرَّ بي من مِحَن، منحتني الحياة فرصة كي أقترب وأعرف، فعلمت أن الأرض تتقدس حين تسود فيها عدالة السماء، فإذا عمَّ فيها الظلم والجور فهي أرض ملعونة ولن يشفع لها بيت ولا حجر، وعلمت أن الإنسان هو أسمى ما على الأرض وأن الرب يَسُرُّه أن تُعمَّر القلوب بالإيمان على أن تُعمَّر بيوته بقلوب خاوية. أدركت أن الوطن هو أرض تشعر فيها بالطمأنينة، وأن الأهل هم صحبة تشعر بينهم بالأمان! صدِّقني يا شيخ (شهبور) إن قلت لك: إن قلبي معلق بمصر التي حكت لي أمي عنها، وبرية «سين» التي عشت فيها مع أبي، و«إدوم» التي رأيت فيها الشيخ (نابت)، والحجر التي اقتربت فيها أكثر من الشيخ (عابر)، و«يثرب» التي جمعتني بـ(أروى)، و«بكة» التي عرفت فيها الله، تعلق قلبي بكل هذه الأماكن قبل أن يكون مُعلقًا بالأرض المقدسة.

وكأنما مست كلماتي شغاف قلب (شهبور)، فتنهد وهو يقول:

ـ بارك الله فيك يا (شمعون)، ورزقك الحكمة يا بني.

* * *

بعد عدة إيام كانت عير (بني يطور) تستعد للرحيل، انضمت إليها النوق التي كانت ترعى في الشعب، فامتلأت الساحة بين تل «أجياد» وجبل «أبي قبيس»، بقافلة ضخمة لم يمتلك بـ(بنو يطور) مثلها من قبل، أدرك (عمرو) أن شمس «بكة» قد غابت، وأن الرحيل قد أصبح حتميًا، ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدم يد العون إلى أهل بلدته في أيامه الأخيرة بها، فتصدَّق على الفقراء الذين أصابهم السيل من أهل «بكة» بعشرات النوق، وأهدى أبناء عمومته من (بني قيدار) مثلها وعاونهم في بناء دورهم التي حطمها السيل، الشيء الوحيد الذي لم يشارك به (عمرو)، ولم ينفق فيه درهمًا هو إعادة بناء البيت، كان يؤمن أن هذا البيت ليس بيت أبويه (إبرام) و(إسماعيل) حتى وإن أقيم على نفس القواعد، فرح حين وجد الناس الحجر الأسود في بيت امرأة من «خزاعة»، حمل

السيل الحجر إلى دارها، لكن الحجر لا قيمة له إن زيَّن جدرانًا لطخها الشرك، ويكفيها إثمًا أن بناها رجال من «خزاعة» وهم يرددون نداءهم الممقوت.

وقبيل رحيلنا بيومين، استيقظ أهل «بكة» على نبأ ارتجت له قلوب «خزاعة» واطمأنت له قلوبنا، فقد ماتت (طريفة) العرافة في فراشها! ماتت دون أن يتربص بها أحد ودون أن يدفع رئيسها من الجن عنها ملك الموت! كانت بساطة موتها عبرة لمن كان يرهبها! ولم يفجع لموتها أحد سوى (عمرو بن لحي)، وحين كانت جيفتها محمولة على بغلة تصعد بها نحو قبور (المعلاة)، رأيت على طرف الآخر من الوادي امرأة عجوزًا تمتطي أتانًا ويهرول خلفها كلب، تيمم شطر الشمال، فأدركت أنها (أم إياس) التي أتت إلى «بكة» بعدما سمعت النداء الجديد، ثم رحلت عنها بعد ما قضت غايتها بطريقتها! ولعل موت (طريفة) كان الغاية التي جاءت من أجلها!

وفي ليلتنا الأخيرة كانت (أروى) إلى جواري في الفراش في حجرتها بمنزل الشيخ (ثابت)، نظرت إلى السقف ثم قالت:

ـ لم تجمعنا تلك الحجرة سويًا من قبل.

قلت وأنا أعقد يدي خلف رأسي:

ـ بِتُّ فيها أول ليلة لي في «بكة»، وها أنذا أبيت فيها الليلة الأخيرة قبل رحيلي!

مالت برأسها إليَّ ثم قالت:

ـ سأفتقد «بكة» يا (شمعون)!

قبَّلت شعرها وقلت:

ـ وأنا أيضًا سأفتقدها، رزقني الرب فيها بالمال والزوجة والولد!

ابتسمت قائلة:

ـ ولولا تعجلك الرحيل لرزقك الرب فيها بولد آخر!

انتفضت جالسًا، وقلت في سعادة:

ـ حقًّا؟ هل أنت حُبلى؟

قالت في خجل:

ـ نعم، و(هوى) أيضًا حُبلى!

ضحكت قائلًا:

ـ وكيف عرفتما؟

قالت:

ـ انقطع عنا الطمث شهرين متتابعين، ورأت (أم السعد)، علامة الحمل علينا!

قلت متعجبًا:

ـ أي علامة؟!

قرصتني في كتفي قائلة:

ـ لا شأن لك بأمور النساء، ثم قالت:

ـ أتدري أن (أم السعد) قد أخبرتني أنني سألد ذكرًا وأن (هوى) ستلد أنثى؟

انفجرت ضاحكًا وقلت:

ـ لا تكف (أم السعد) عن إفساد فرحة (هوى) بأي طريقة كانت، ثم سألتها:

ـ وكيف عرفت (أم السعد)؟ هل سألت (طريفة) العرافة قبل موتها؟

قالت في جدية:

ـ كلا! لقد ميزت بيننا بالحنطة والشعير.

رفعت حاجبي دهشة، ولكنها تابعت في نفس الجدية بدون أن تأبه لدهشتي:

ـ أمرتنا أن نتبول على كيسين من الحنطة والشعير، فنبتت الحنطة مع بولي، ونبت الشعير مع بول (هوى).

شعرت بالغثيان وقلت:

ـ يالخسارة الحنطة والشعير! أما كان أطهر لها أن تأتي (طريفة) العرافة؟

قالت لائمة:

ـ لقد قالت لي إنها طريقة مجربة يا (شمعون) وأن جارية كوشية قد علمتها تلك الطريقة منذ عشرين عامًا!

قلت:

ـ وماذا لو نبتت الحنطة والشعير سويًّا؟!

قالت متفكرة:

ـ أظن أن المرأة حينها تكن حبلى في طفلين، ذكر وأنثى!

قلت ساخرًا:

ـ وإن لم ينبت أي منهما تكن حبلى في قرد! أليس كذلك؟!

تصنعت الغضب وأولتني ظهرها وهي تقول:

ـ أنت تسخر مني يا (شمعون).

أحطت خصرها بذراعي وأنا أقول:

ـ أنا لا أسخر منكِ، ولكني أرفع عنك عبء التفكير!

استدارت قائلة:

ـ أريد أن أُسعد قلبك بإنجاب ذكر آخر!

قلت وأنا أمسك ذقنها بأناملي:

ـ لا يحزنني إن أنجبت لي فتاة فاتنة مثلك.

قالت في دلال:

ـ لن أنجب لك فتاة تشاركني تدليلك!

اقتربت بشفتي من أذنها ثم همست في رِقَّة:

ـ لن تشاركك فتاة قلبي حتى وإن كانت ابنتنا!

هممت أن أُقبِّلها، فابتعدت بوجهها قليلًا، وهي تضع أصبعها على فمي،

سألتها وقد ساورتني الشكوك:

ـ هل أدلت (أم السعد) إليكِ بنصائح الحمل؟

أغمضت عينيها حتى لا ترى ردة فعلي وهزت رأسها بالإيجاب!

زفرت في قوة وقلت:

ـ كنت أدري أن حديثك معها لن ينتهي إلى خير!

ثم قلت في غضب وأنا أوليها ظهري:

ـ لا أدري لماذا ترك السيل (أم السعد) وراءه!

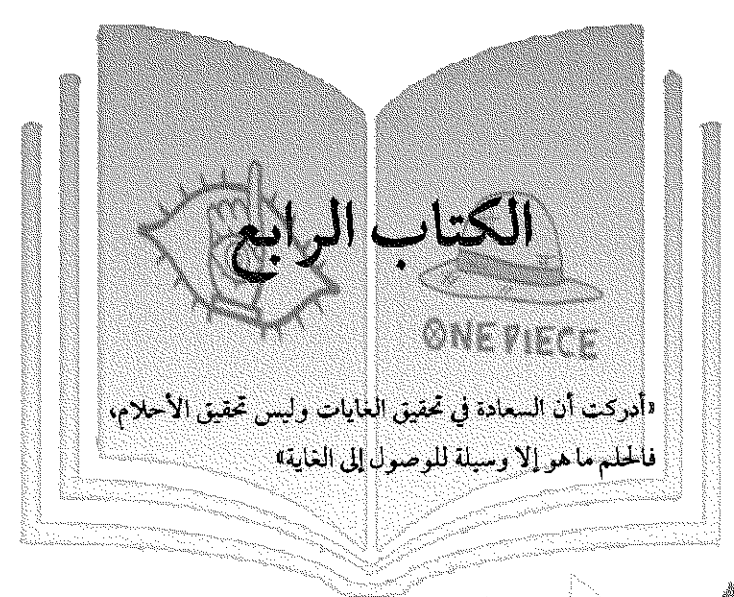
* * *

وأطلق الحادي صفيره، فنادت الإبل بعضها بعضًا حتى امتلأت السماء بصوت رغائها، وسارت بنا نحو الشمال حاملة قبيلة الشيخ (عابر)، إلى مستقرها الأخير، حين وصلنا إلى «الحجون»، تأخرنا أنا و(عمرو) و(ليث) و(شهبور) عن المسير، وقفنا فوق التلة التي وقف عليها (عمرو بن الحارث) من قبل ملقيًا رثاءه الأخير، لنلقِ النظرة الأخيرة على «بكة» التي لا نعلم متى سنعود إليها، ودَّعنا «الصفا» و«المروة» و«عرفة»، وبيتًا كان عامرًا بالإيمان في يوم من الأيام، ثم صار أثرًا مهدمًا، يقف أمامه تمثال أحمر مبتور الساعد كي يشهد أن الشيطان الذي هزمه أبونا (إبرام) في «أور» و«كنعان» و«مصر» و«فاران» قد ظل يقتفي أثره في كل مكان حتى أفسد الوصية التي أوصى بها أبناءه. لم يوصِ (إبرام) أبناءه بأرض ولا بملك، فقط أوصاهم بأن يسلموا قلوبهم لرب واحد، فطمس الشيطان الوصية المقدسة، وجعلها وعْدًا باللبن والعسل تارة، وعهدًا بالسقاية والوفادة تارة أخرى.

نظر (عمرو) نحو المعلاة، ودعا لجده الشيخ (عابر)، ثم نظر نحو سماء «بكة» ونادى بصوت عالٍ، وردَّدْناه خلفه:

ـ «لبيك اللهمَّ لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك».

* * *



الكتاب الرابع

«أدركت أن السعادة في تحقيق الغايات وليس تحقيق الأحلام،
فالحلم ما هو إلا وسيلة للوصول إلى الغاية»

الورقة الحادية والستون

كثيرة هي المنازل التي يمر بها الإنسان في حياته، ولكن تبقى في الوجدان الأماكن ذوات الذكريات، مررنا في طريق عودتنا على طريق البخور بكل الأماكن التي رأيناها في رحلة ذهابنا ولكن شتان بين الرؤية الأولى والثانية، ففي المرة الثانية، اختفت الدهشة وغاب الترقب، وحل محلهما التأمل واستدعاء الذكريات، تداعت الصور والمشاهد إلى رأسي بحلوها ومرها، وكأن الأرض تهمس في أذني بالذكريات، مررنا في طريق العودة بـ«يثرب»، مكثنا هناك أيامًا، ودَّعنا فيها عائلة الشيخ (أواس).

استعدتُ مع (أروى) ذكريات «سقيفة العنب»، وتحينت فرصة اختليت بها فوق الأريكة التي جلسنا عليها من قبل، وهممت بأن أُقبِّلها، ولكنها دفعتني في صدري وقالت:

ـ احذر يا (شمعون) فقد يرانا أحد.

قلت ضاحكًا:

ـ أصبحت أكثر خوفًا بعد أن تزوجنا!

قالت في خجل:

ـ لنا بيت نستتر به.

جذبتها وأنا أقترب منها بوجهي قائلًا في حنان:

ـ كم راودتني نفسي من قبل أن أُقَبِّلك فوق تلك الأريكة، وأريد أن أحقق رغبتها الآن، فلعلنا لا نجلس عليها مرة أخرى.

لانت ملامحها وقالت:

ـ هل ما زلتَ تحبني بنفس القدر؟

أحطت خديها بيدي ثم ضممتها إلى صدري قائلًا:

ـ بل أكثر من ذي قبل.

قالت:

ـ وهل ستظل كذلك حتى بعد أن نعود إلى قومك؟!

قلت:

ـ ولماذا يقل حبي لك بعد أن نعود؟

قالت:

ـ لا أدري ولكني أترقب كيف سيتقبلني قومك، وأخشى أن أكون سببًا للشقاق بينك وبينهم!

ضممتها أكثر بذراعي وقلت:

ـ لا شأن لنا بهم، فأنا وأنت لا نحتاج إليهم، ويكفيني من الدنيا أنني كنت وحيدًا فصارت لي عائلة!

ثم قلت في فخر:

ـ عائلة (شمعون بن زخاري)! يا لها من عائلة!

ثم أمسكت أصابعها وأخذت أعدد:

ـ أنا وأنت وأمي و(باتيا) و(إبرام).

ثم مسحت على بطنها بيدي وقلت:

ـ وهذا الذي يختبئ في جوفك الآن!

ضحكت وقالت:

ـ ونسيت (أم السعد) وعمتك (باتشيفا)!

قلت وأنا أشيح بوجهي عنها:

ـ أفسدتِ اللحظة كعادتك.

ضحكت، وقالت معتذرة:

ـ حسنًا لا تبتئس!

ثم أمسكت ذقني وأعادت وجهي إليها، أطالت النظر إلى عيني وقد انفرجت شفتاها، فأعادت إليَّ الرغبة التي تاهت وسط الكلام، فأمسكت وجهها وهممت بأن أُقبِّلها مرة أخرى، ولكننا سمعنا صوتي (لامار) و(ليث) يقتربان، فأبعدَت رأسها عني في سرعة، وانزوت في طرف الأريكة وهي تكتم ضحكتها، ولم تمرَّ اللحظة حتى رأينا (ليث) و(لامار) وهما عائدان يترنحان من الضحك من جهة معصرة الخمر، ويبدو أنهما قد قررا أن يستعيدا سويًّا بعض الذكريات هناك!

وقبل أن نرحل أعاد (عمرو) و(ليث) إلى الشيخ (أواس) قدور الخمر التي أهداها لـ(بني يطور)، شكراه على نجدته لهم في أوقات الضيق، وأهداه (عمرو) عشر نوق إكرامًا له.. قبّلت يد الشيخ (أواس) أثناء رحيلنا لأمحو أي أثر قد يكون علق في قلبه تجاهي، كنت أحمل محبة كبيرة في قلبي للشيخ (أواس) رغم الخلاف الذي وقع معه، فيكفي كرمه ولين طبعه ولسانه العف الذي كان يغمر به كل من حوله.

وحين جاوزنا «وادي الجيف»، واقتربنا من الحجر، طلب منا (شهبور) أن نتوقف في الحجر لبضعة أيام، تعجّبنا من طلبه، ولكنه قال لي:

ـ لي دين أريد أن أسدده.

واختفى (شهبور) لأيام ثم عاد ومعه جماعة من الفرسان، تربو على المائة فارس، سأله (عمرو):

ـ من هؤلاء يا (شهبور)؟

قال (شهبور):

ـ هؤلاء من بقوا من فرسان «غرندل».

لم نعرف كيف عثر عليهم، ولا الغرض من جمعهم، ولكنه أفصح عن ذلك حينما التفت إليهم وقال بصوت عالٍ:

ـ يا فرسان «غرندل»، قد كان لـ(دعس) دَيْن عندي، ولكن أهلكه طمعه قبل أن أسدده إليه، وإني قد جمعتكم لأُسدِّد ديني، وليشهد (بنو يطور) ورجال «غرندل» أن (شهبور) قد قضى دَيْنَه وأبرأ ذمته.

ثم اتجه إلى راحلته ففك حزام تدلى من جانبها الراحلة والتفَّ حول صُرَّة من القماش، حمل الصُّرَّة، وفتحها، فإذا بسبائك الذهب التي بقيت من أمواله تتلألأ أمام أعيننا، حمل الذهب إلى قائد الفرسان ومدَّ يده به وهو يقول:

ـ هذا حق ما بذلتموه من دماء لنصرتي ونصرة «إدوم»، وليغفر الرب لأخيكم (دعس).

ثم أردف:

ـ عودوا إلى سابق كفاحكم ضد (هدد بن بدد)، وحرروا «غرندل» من قبضته، فأنتم أنقى من أنجبت أرض «إدوم».

ترجَّل قائد الفرسان ثم وقف أمامه وقال باحترام:

ـ ستظل «غرندل» ورجالها شوكة في ظهر الإدوميين، ولن نهدأ حتى يرحل (هدد) برجاله عن «إدوم»، ويسعدنا أن تكون قائدنا يا شيخ (شهبور).

تنهد (شهبور) ثم قال:

ـ فات أوان ذلك أيها الفارس، ولكنني أعلم أن لي أُسودًا في «غرندل»، وسأحتمي بهم كلما دارت عليَّ الأيام.

ودَّعنا الفرسان وقطعنا طريق الحجر، وطافت بعقلي ذكرى (دعس)، لم أرَ رجلًا في جسارته وقوته، وما زلت أرتجف كلما تذكرت لحظاته الأخيرة،

تعجل (دعس) أقداره، فسحقته عجلة القدر، لو صبر حتى يعود (شهبور) لتحققت كل أمانيه.

قلت لـ(شهبور) حين جاورني بفرسه في الطريق ورأيت على وجهه الطمأنينة:

ـ تخففت من كل أحمالك!

ابتسم ابتسامة الرضا وقال:

ـ ما أجمل السفر بلا أحمال!

قلت وقد انتبهت لأمر لم أسأله عنه من قبل:

ـ قُل لي يا (شهبور) لماذا لم تتزوج حتى الآن، وقد وخط الشيب رأسك؟!

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ شغلني جمع المال في شبابي، وشغلتني أحوال «إدوم» بعد ذلك.

ثم تنهد قائلًا:

ـ كنت أشعر بأنني لن أعيش طويلًا! ولم أرغب في ترك أبناء يُعذَّبون من بعدي في بلد ظالم!

قلت ضاحكًا:

ـ وكيف تطيق الصبر على اعتزال النساء؟

قال مبتسمًا:

ـ كانت لي جوارٍ في «إدوم»، وحين بلغت الأربعين بعتهن كلهن! فلم تعد نفسي تطيق أحاديث النساء ولا ميوعتهن!

ثم قال جادًا:

ـ إن كنت أرغب في شيء الآن فهو أن أنجب ولدًا مثلك أو مثل (عمرو)، فلا شيء أفضل من أن ترى بضعة منك تكبر أمام عينيك! أليس كذلك يا (أبا إبرام)؟

قلت:

ـ صدقت.

ثم قال لي:

ـ لماذا أسميت ولدك (إبرام)، ولم تسمه (إبراهيم) بلسان العرب؟!

قلت آسفًا:

ـ لي قوم لا تزال في قلوب البعض منهم بغضًا نحو (بني إسماعيل)، تزوج أبي مصرية فظل منبوذًا بينهم، ثم تزوجت أنا عربية من (بني إسماعيل)، ولا أدري كيف سيكون حالي معهم حين يعرفون!

قال:

ـ ظني أن الأيام قد بدلتهم.

قلت:

ـ أرجو ذلك!

وحين اقتربنا من «إدوم»، لم ندخل أرضها، انعطفنا غربًا في الطريق إلى «عصيون جابر»، ورغم وحشة هذا الطريق، وقلة القوافل به إلا أننا آثرنا ذلك تحسبًا للقاء غير محمود مع (جندار) وجنوده، ولعلنا أشفقنا على أنفسنا من أن نستعيد ذكريات حزينة عشناها هناك، فيكفي أن نتذكر ما حدث للشيخ (نابت) على أبواب بصرى كي نكره المرور بتلك الأبواب مرة أخرى. سارت القافلة ببُطْء لوعورة الطريق، ومرت أيام لا أدري عددها، قبل أن تلوح لنا مياه البحر في الأفق، انتبهت حواسي، وخفق قلبي، وتداعت الذكريات إلى رأسي تترًا ونحن نجتاز أول موضع أشتم فيه رائحة أهلي منذ خرجت من «قادش برنيع». هنا كانت قرية الصيادين، التي عاش فيها (ينحاس) وأولاده، وتعرفت فيها على (عامير) صديق الصبا، وهناك على ذلك الشاطئ كنت أصطاد الأسماك مع صبية «عصيون»، ويومها صفعني أبي على وجهي حين عُدت إلى النزل بسبب كذبي، وخلف ذلك التل كانت القردة تفر خائفة من هجمات بني إسرائيل عليها، بعد حادثة السبت التي أوجعت قلبي مكثنا في «عصيون

جابر» بضعة أيام، تزودنا فيها بالماء، وطعمنا من أسماك البحر، ثم استعدت القافلة للرحيل إلى «رسَّة»، أرض (بني يطور) في برية «سين».

* * *

دخلنا إلى القرية التي صارت أطلالًا بعد أن غادرها (بنو يطور) لسنوات، لا شيء يثير الأحزان في النفس أكثر من منازل كانت عامرة ثم استحالت خرابًا، قضينا أيامًا أخرى من الشقاء في إعادة إعمار المنازل، أعيد تسقيف المنازل بالجريد والخشب، واستكملت الجدران التي تهدمت بفعل السيول، والأمطار، ونظفت الحجرات من الزواحف والقوارض التي سكنتها بعد أن اطمأنت لغياب ساكنيها، ثم هدأ كل شيء وكأنما أخلد الجميع للراحة بعد طول السفر والإجهاد، ومرّت أيام قبل أن تعود الحياة في البلدة الساكنة، فاستعاد الناس نشاطهم، وأقاموا سوقهم، وخرج الرعاة إلى المراعي.

ورأتني (أروى) بعد أن جعلنا دارنا في «رسة» في حال من الوجوم، سألتني:

ـ ما بكَ يا (شمعون)؟

قلت:

ـ أنتظر عودة الدليل الذي أرسله (عمرو) إلى مجمع البحرين.

ربتت على كتفي قائلة:

ـ لا تقلق! قريبًا سيعود إليك بالبشرى.

تنهدت وأنا أقول:

ـ ليتني رافقته، فأنا لا أطيق صبرًا.

قالت معاتبة:

ـ ترافقه وتتركنا؟

قلت وأنا أزفر في ضيق:

ـ أشق ما في الرحلة آخرها، ويكاد الجزع يقتلني وقد اقتربت الرحلة من نهايتها.

أحاطت رأسي بيدها ثم ضمتني إلى صدرها وقالت في حنو:

ـ لا تجزع، واشغل نفسك بالتفكر في حلاوة اللقاء.

ثم قالت مغيرة دفة الحديث:

ـ قل لي يا (شمعون)، كيف تبدو (رومانا)؟ هل هي جميلة؟

رفعت رأسي وقلت:

ـ لا توجد أم غير جميلة، ولكن أمي هي أجمل النساء!

قالت باسمة:

ـ حذارِ يا (شمعون)! سأغار منها هكذا!

لم ألتفت إلى مقاطعتها، وقلت متابعًا:

ـ يصف المرء الشيء بالجمال إذا رأى منه جميلًا، فكيف لا تكون (رومانا) هي أجمل النساء وكل شيء بها جميل!

ثم أردفت في حزن:

ـ حين ترينها يا (أروى) ستدركين ما أقول.

قالت في تأثر:

ـ أتمنى أن يحبني (إبرام) كما تحبها أنت!

قلت وأنا أجاهد حزني:

ـ وأتمنى أن يكون هو أرفق بكِ مني، فما جدوى الحب إذا فطر الإنسان قلب من يحب!

ثم أفلتت الدموع رغمًا عني وقلت:

ـ أرجو أن تسامحني أمي.

قالت وهي تضمني أكثر:

ـ ستسامحك، وستفرح بعودتك وبأسرتنا يا (شمعون)!

وقضيت الأسابيع التالية، أحاول أن أتغلب على قلق الانتظار، بالخروج مع الرعاة إلى المراعي لرعي الأغنام والإبل، أحمل معي دواتي وأقلامي وأوراقي، وأقضي النهار في المرعى، أكتب في أوراقي أخبار الأيام الأخيرة؛ من سنين الغربة التي قضيتها وحدي بعيدًا عن أمي وعن بني إسرائيل، وبينما كنت كذلك، رأيت (عمروًا) و«شهبور»، يقتربان تجاهي، أدركت من ملامح وجهيهما أنهما يحملان أنباء غير سارة، طويت الأوراق وسألتهما في لهفة:

ـ هل عاد الدليل؟!

قال (عمرو) وهو يتنهد:

ـ نعم، ولا أثر لهم في «مجمع البحرين» ولا في «حوريب»!

قذفتني خيبة الأمل إلى قاع اليأس، فقلت متشبثًا بالاستنكار:

ـ كيف لا يعثر الدليل على شعب من عشرات الآلاف في الصحراء؟

قال (عمرو):

ـ للبرية وديان ودروب لا تحصى يا (شمعون)، وقد اقتفى الدليل أثرهم حتى انقطع.

قلت في غضب:

ـ بل انقطع عزمه، قبل أن ينقطع الأثر، لو كنت رافقته، لما عدت بدونهم!

قال (عمرو) مهدئًا:

ـ لا تستهين بعمله يا (شمعون)، فهو خير الأدِلَّاء في تلك الصحراء، ولو كانوا في تلك الناحية لوجدهم لا محالة!

قال (شهبور):

ـ أليس من الممكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى الشمال مرة أخرى؟!

قلت متحيرًا ورأسي تتخبط من الحزن:

ـ قد كانت «قادش» آخر منازلنا!

قال (شهبور):

ـ أرى يا (عمرو) أن نرسل دليلًا آخر إلى الشمال، فلعلهم توجهوا إلى «قادش»!

قال (عمرو):

ـ لا بأس!

قلت في حسم:

ـ أريد أن أرافق الدليل!

قال (عمرو):

ـ أرجوك لا تفعل! قد يقتلك العدو وراء الأمل في الصحراء.

قلت منهيًا أي جدال:

ـ لن أطيق البقاء هنا! سأذهب معه إلى «قادش»!

قال (عمرو) في استسلام:

ـ حسنًا سأرافقك.

قال (شهبور):

ـ كلا، بل انتظر أنت يا (عمرو)، وسأرافقه أنا!

نظرت إليهما بامتنان، ثم قمت واقفًا وقلت:

ـ غدًا أرحل إلى «قادش».

* * *

الورقة الثانية والستون

ودَّعتني (أروى) باكيةً وقالت:

ـ أخشى عليك الذهاب يا (شمعون)، دع الدليل يذهب وانتظر هنا حتى يعود!

ـ سيقتلني الانتظار إن بقيت.

ـ وماذا لو لم تجدهم هناك؟

ـ حينها ستقتلني خيبة الأمل!

ـ لا تفعل بي هذا يا (شمعون).

ـ الأيام هي من تفعل!

ـ عدني أن تعود سريعًا مهما حدث.

تنهدت.

قالت مرة أخرى:

ـ عدني!

ـ أعدك أن أبقى على عقلي سليمًا وأن أعود!

وقبل أن أتحرك سألتها:

ـ أين (إبرام)؟!

ـ أخذته (تيماء) لتلهو معه!

ـ قبّليه لأجلي! فلا وقت لديَّ، الدليل بانتظاري وسيتحرك الركب!

ـ ألن تُقبِّلني أنا أيضًا؟

قبَّلتها، وأنا أهرب من عينيها، ثم انصرفت.

وخرجنا من (رسَّة) نقصد الشمال، كان الطريق إلى «قادش» مطروقًا من البدو والرحالة، تمر به القوافل ويقطعه الرعاة في نهايات الشتاء من أجل الوصول إلى الواحة الغناء قبل قدوم الربيع؛ فالربيع هو أفضل مواسم الرعي بتلك الأرض، ما زلت أذكر أشجار الواحة وعيون الماء الدافقة بها، كما ما زلت أذكر كوخنا الذي أقامه أبي بجوار «عين جديرات».. المسافة بين «رسة» و«قادش» تستغرق عشرة أيام، ولكننا داومنا على السفر بدون راحة لعلنا نصل إليها قبل ذلك، كنا نتحرك مع أول شعاع للشمس ونتوقف مع آخر ضوء للشفق، وفي الليل، نريح النوق، وننام إلى جوارها بعد أن نشعل نارًا لتزود عنا برودة الليل.

في صبيحة اليوم السابع، خفق قلبي لمرأى سحابة من الغمام تظلل واديًا على مقربة منا، ذكرتني تلك السحابة بسحابة الغمام التي كانت تظلل نزلنا، صِحْت على الدليل و(شهبور) وأنا أشير جهة الوادي:

ـ (شهبور) هناك!

نظرا طويلًا نحو الوادي فلم يجدا شيئًا، قال الدليل:

ـ لا أرى شيئًا!

قلت:

ـ انظرا إلى سحابة الغمام.

قال الدليل:

ـ هذا وادي «رَثْمة»! السحاب يتكاثف فوقه أواخر الشتاء!

قلت:

ـ كانت سحابة الغمام تظللنا كلما نزلنا منزلًا في برية «سين»!

لم يبدُ عليهما التصديق، فأردفت:

ـ لن تخطئ عيني سحابة ظللتني لعشر سنوات أو يزيد، أشعر أنهم هناك، وظني أن الدليل لم يرهم في وادي «حوريب»؛ لأن السحابة كانت تحجبهم!

ولعل (شهبور) لم يشأ أن يطفأ في قلبي بريق الأمل فأدار راحلته وقال للدليل:

ـ هيا بنا.

خرجنا من طريق القوافل وانحدرنا إلى الطريق الوعر جهة الوادي، وكنا كلما اقتربنا من الوادي، بانت الرؤية من أسفل الغمام المتراكب أكثر فأكثر، حتى ظهر المشهد جليًا واضحًا، شهقت حين رأيت عشرات المئات من الخيام وقد انتثرت بطول الوادي، وصرخ (شهبور) في فرح، وانهارت دموعنا في غبطة.

قلت:

ـ ذلك هو نزلنا وهؤلاء هم قومي.

اقتربنا حتى أصبحت قادرًا على تمييز رايات كل سبط، ورأيت من فوق السفح خيمة الاجتماع وهي تتوسط الوادي وأمامها المبخرة العظيمة التي يتصاعد منها البخور المقدس ليملأ سماء النزل.. جال بصري في سماء النزل تبحث عن راية (سبط رأوبين) في شوق، رأيت الراية كما هي وكأن السنين لم تمر عليها، أنخت الراحلة ونزلت من فوقها، ففعل (شهبور) مثلي، قلت للدليل وأنا أرتجف:

ـ أعقل الناقة هنا! فلن أدخل النزل راكبًا.

هبطت أواخر السفح بأقدام مرتعشة، ويد (شهبور) تمسك بمرفقي لتشد من أزري، تعلق بصري براية (سبط رأوبين)، فسرت نحو خيام الحي كأنني مسحور، أسير بين الدروب وكأني أحفظها عن ظهر قلب، ويقودني فؤادي نحو بيت رأيته في أحلامي مئات المرات، بيت من الحصير والخوص، ينزوي في ركن الحي كما كان ينزوي طيلة عمره.

اقتربت من باب البيت وقلبي يرتجف ارتجافة شاة مذبوحة، لم أشعر بوطأة أقدامي على الأرض فتشبثت بذراع (شهبور) كي لا أسقط كحفنة من الرمال على أعتاب بابها.

ورأيتها..

رأيتها تجلس في صحن البيت على أريكة الآراك.

تدنو برأسها من طبق البُرِّ، وتبحث بعين مجهدة عن الحصى بين حباته.

شعرها الأسود الفاحم كما هو، وأصابعها الطويلة التي طالما عزفت الناي تدور في طبق البُرِّ بوداعة.

راقية أنت يا سيدة الدنيا، ويا ربيبة القصور، حتى وأنت تنتقين الحصى بعين أجهدها البكاء!

قلت بحروف تساقطت فرادى من الحزن والحنين، فخرجت هامسة لا تتجاوز حلقي:

ـ (ر و م ا ن ا)!

ورغم ذلك وصلتها حروفي، وكأنما شعر بها قلبها قبل أذنها، رفعت رأسها ثم نظرت نحوي، فالتقت الأعين في عناق يفترش الشوق ويمحو الزمن، وكأنما كنت أنام في حجرها أمس، ألقيت بنفسي على قدمها أقبِّلها وصرخة فؤادها تعلو على صوتها وهي تقول:

ـ (شمعون) ولدي!

ألقيت برأسي في صدرها وأنا أجهش بالبكاء وصوتي يخرج من الأعماق كغريق عاد إلى الحياة:

ـ سامحيني يا أغلى ما ملكت.

اعتصرت رأسي في صدرها وتخللت أصابعها شعري وهي تقبض عليه في قوة وكأنها تريد أن تتيقن أن ما تراه ليس طيفًا من الوهم سيرحل عنها، تشممتني ثم تحسست وجهي وكأنها تملأ حواسها كلها بوجودي ولسانها يردد:

ـ (شمعون).. أنت (شمعون)!

قلت وعيني تذرف بلا انقطاع:

ـ نعم، أنا (شمعون)، (شمعون) التائه منذ فارق حضنك، (شمعون) الذي أتى بخطيئة لا غفران لها يوم تركك وحيدة، (شمعون)...

وضعت يدها على فمي، ثم قالت في حنان باكٍ أذاب اضطرابي:

ـ بل (شمعون) ولدي الذي لم آيس يومًا من عودته، (شمعون) الذي حدثني عنه (زخاري) في أحلامي وقال إنه فخوريه، (شمعون) الذي بشرني الرب بقرب عودته على لسان كاهن خيمته!

(شمعون) الذي خرج وأنا على يقين بأنه سيعود.

أحطتها بذراعي وحملتها باكيًا وأنا لا أدري هل أحتويها أم أستجير بحضنها! وسعني حضنها الضئيل ووجدت فيه عالمًا فسيحًا من الطمأنينة، أذهب قلق العمر ومنحني السلام الذي كنت أنشده طيلة سنوات الارتحال.

انتبهنا لوجود (شهبور) حين علا صوتُ بكائه، فوضعت أمي خمارها فوق رأسها، مسحت دمعي وأنا أقول لها:

ـ هذا رفيقي التاجر (شهبور)، لم أقوَ على دخول الحي بدونه!

قال (شهبور) وهو يمسح دمعه:

ـ معذرة يا سيدة الدار على اقتحامي لقاءكم.

قالت:

ـ مرحبًا بك أيها الشيخ! تفضل!

ثم قالت لي:

ـ أكرم ضيفك يا (شمعون).

قال (شهبور):

ـ أشكرك يا سيدة الدار، سأترككم وألحق بالدليل، ولكن لي طلب وددت

أن أعرفه! أين أجد نبي الله (موسى)؟

قالت:

ـ ستجده في خيمته، بجوار خيمة الاجتماع.

قلت له:

ـ آتي معك؟!

قال: كلا ابقَ إلى جوار أمك، فلكل منا شوق يناديه.

ثم استأذن وانصرف.

* * *

جلست قبالتها أملأ عيني بها، ومدت هي أناملها تتحسس وجهي ولحيتي الصغيرة الناعمة، ضممت يدها في راحتي ثم قبلتها كعاشق وقلت لها:

ـ تزوجت وأنجبت ولدًا أسميته (إبرام) وزوجتي حُبلى بآخر.

قالت في فرح، رغم لوم عينيها:

ـ كنت دائمًا أتمنى أنا أراك زوجًا وأبًا، سعيدة لأنك لم تُضِعْ سنين الغياب هباءً.

قلت معتذرًا:

ـ سامحيني لهروبي، أفجعني ضياع حلم أبي، وأردت أن أبحث عن الرب بعيدًا عن بني إسرائيل.

مسحَت على رأسي ثم ضمتني إلى صدرها وقالت:

ـ كان الرب بيننا طيلة الوقت، ولكنك لم تبحث عنه بداخلك.

قلت:

ـ في القرب يتوه المرء في التفاصيل، أردت الابتعاد كي أرى الصورة كاملة.

قالت وهي تربت على ظهري:

ـ لا بأس، المهم أنك رأيتها!

قلت:

ـ تزوجت حفيدة الشيخ (عابر) الذي استضافنا في «رسَّة»، أتذكرينه؟!

قالت وقد قطبت حاجبيها وكأنها تتذكر الاسم:

ـ (أروى)؟!

قلت مندهشًا:

ـ كيف تذكرين اسمها؟!

قالت:

ـ أستعيد أيام أبيك يومًا بيوم! كانت ذكراه هي أنيستي في وحدتي!

قلت وقد انتبهت إلى أنها وحيدة في المنزل:

ـ أين (باتيا) وعمتي (باتشيفا)!

أجابت عن الأولى وأغفلت الثانية، فقالت:

ـ قد تزوجت (باتيا)!

قلت مندهشًا:

ـ (باتيا) الصغيرة تزوجت!

ضحكت ثم قالت:

ـ لم تعد صغيرة يا (شمعون)! جاوزت الحيض بأعوام!

قلت:

ـ ما زالت في نظري (باتيا) الصغيرة التي تجلس على صدري، مَنْ زوجها؟

ابتسمت وقالت في هدوء:

ـ تزوجها أخوك.

نظرت إليها متعجبًا، فأردفت:

ـ (عامير)!

أفرغ نطق اسمه في قلبي بهجة لا توصف، قلت وأنا أردد اسمه:

ـ (عامير)!!

قالت:

ـ نعم، عهدت إليه برعايتنا فأتم عهده إليك بزواج أختك!

تذكرت رسالتي التي تركتها له، وكأنها قرأت ما في رأسي فقالت:

ـ ما زلت أحتفظ برسالتك!

قلت ممتنًا:

ـ سأظل مدينًا له بالفضل، أين هما؟

قالت:

ـ يرعى أغنام القرابين، وتخرج (باتيا) لتعليم أطفال بني إسرائيل القراءة والكتابة!

رأت الدهشة في عيني فأردفت:

ـ يربِّي (موسى) و(يوشع) جيلًا جديدًا من أبناء بني إسرائيل.

شعرت بالسعادة لتلك الأنباء، وتذكرت كم عانى جيل أبي بسبب شيوخ بني إسرائيل، قلت لها:

ـ وأين عمتي (باتشيفا)؟

لم تجب.. وعلا وجهها الأسف، فقلت حزينًا:

ـ ماتت؟

قالت في أسف:

ـ نعم، ادعُ لها بالرحمة.

ثم تنهَّدت قائلة:

ـ فجعتنا نهايتها وهلكت أثناء الثورة.

شعرت بالألم، فقلت:

ـ ماذا حدث لها؟ وأي ثورة؟!

تنهَّدت ثم قالت:

ـ كان ذلك بعد رحيلك بعام، حين قام (قورح) بثورة عارمة على (موسى) و(هارون).

تذكرت اسم (قورح) قلت، لها:

ـ (قورح بن اليصهار)!

أومأت برأسها وقالت:

ـ نعم.

قلت:

ـ ما زلت أذكر نقمته على (موسى)، هو والشقيقان (داثان) و(إبيرام)!

قالت:

ـ نعم، وكانا أعوانه في الثورة!

قلت:

ـ وكيف وقع الأمر؟

قالت:

ـ عهد إليهم بتعليم الناس أمور الشريعة، فامتنعوا إلا إذا صارت لهم الكهانة بدلًا من الكاهن (هارون).

قلت متعجبًا من كبرهم:

ـ يا لصلفهم! وماذا حدث؟

قالت:

ـ رفض (موسى) طلبهم، فدعوا سبط رأوبين إلى الانفصال عن (موسى) وأقاموا لهم خيمة كبيرة كخيمة الاجتماع.

قلت مذهولًا:

ـ وهل استجاب لهم سبط رأوبين؟!

تنهدت، ثم أومأت آسفة وقالت:

ـ استجاب له الكثير، ومنهم عمتك (باتشيفا)!

ثم قالت وهي تشعر بآلام الذكرى:

ـ ما زلت أتذكر يوم خروجها، قلت لها: لا تتبعيهم يا (باتشيفا)، لو كان (زخاري) حيًّا لقاتلهم على ذلك! فقالت غاضبة:

«هؤلاء قومي! ولن أخذلهم! أضاع (زخاري) عمره ولم يشعر بمعنى الأهل ولا العشيرة».

صمتت قليلًا ثم قالت:

ـ يومها اجتمع مائتان وخمسون من كبراء سبط رأوبين في خيمة (قورح)، أعلنوا العصيان على (موسى) ونصبوا (قورح بن اليصهار) كاهنًا أكبر لهم وأقاموا مبخرة عظيمة فاق دخانها دخان مبخرة خيمة الاجتماع! وفجأة انهارت بهم أرض الخيمة، وسقطوا جميعًا في حفرة واحدة، أمسكت نيران المبخرة في الخيمة وملأ صراخهم سماء النزل ولكن لم يستطع أحد من بني إسرائيل أن يمد لهم يد العون، فماتوا محترقين!

أغمضت عيني وأنا أشعر بالألم!

شعرت بالأسف على العمة (باتشيفا) التي لم تغيرها كل المِحَن التي مرت بها، فاختارت أن تختم حياتها تلك الخاتمة المؤلمة، أدركت أن السنوات التي غبتها، كانت سنوات فرز وتمحيص، كان (موسى) ـ فيما سبق ـ يدعو جمهور الشعب العاصي للدخول في حظيرة الإيمان، أما الآن فهو ينتقي العصاة من بين جمهور الشعب ثم يلقي بهم بعيدًا عن الجيل الذي يُعدُّه لدخول الأرض المقدسة، تمامًا مثلما كانت أمي تنتقي الحصى من طبق البُر.

أمسكت أمي بيدي حينما رأتني واجمًا وقالت:

ـ دعْ عنك تلك الأخبار الحزينة، واحكِ لي عن أخبارك طيلة تلك السنوات!

ضحكت وقلت:

- بعضها أكثر حزنًا! ولكني تعلمت أن الحزن لا يدوم.

ضحكت هي الأخرى وقالت:

- يكفيك من غربتك أن تتعلم ذلك الدرس!

ثم قامت وهي تجذب يدي وقالت:

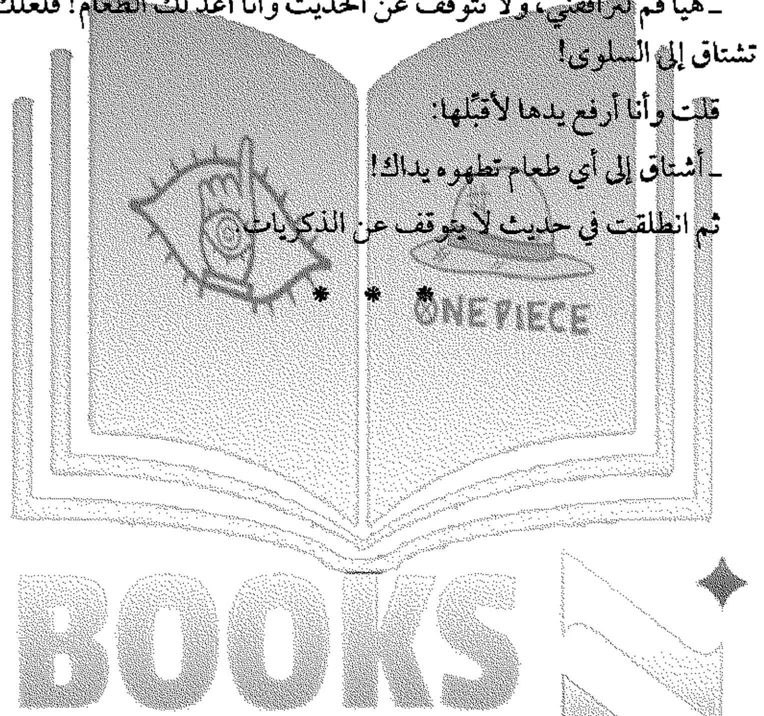
- هيا قُمْ لترافقني، ولا تتوقف عن الحديث وأنا أعد لك الطعام! فلعلك تشتاق إلى السلوى!

قلت وأنا أرفع يدها لأقبِّلها:

- أشتاق إلى أي طعام تطهوه يداك!

ثم انطلقت في حديث لا يتوقف عن الذكريات.

* * *



الورقة الثالثة والستون

حين جلسنا جميعًا للطعام في المساء شعرت بأن السعادة تغمرني، (باتيا) الصغيرة أصبحت شابة فاتنة، وجهها المشرق شديد البياض وعيناها الزرقاوان، يذكراني بجمال العمة (سولاف)، أما (عامير) فقد صار عملاقًا أسمر بدينًا، تضاعف وزنه مرات ومرات، ربما لقلة الحركة في المراعي أو لكثرة الأكل من لحوم القرابين، المفارقة بين ضخامته وضآلة (باتيا) كانت تزداد حينما تأمره (باتيا) بشيء ما، فيسرع إلى إجابة طلبها، الأمر الذي جعلني أشعر أن (عامير) الأسمر الطيب يذوب عشقًا في الفتاة الصغيرة الفاتنة. انضم إلينا (شهبور) في الطعام، ولكنه انصرف بعده مباشرةً، شكر أمي على طهيها ثم غادرنا حتى يترك لنا فسحة للسمر وحدنا، وحين جمعنا البيت الدافئ شعرت بأن روح أبي بيننا، تضحك لضحكتنا وتتطلع إلى الأسرة التي اجتمع شملها في حنان، سألتهم عن أصدقاء أبي القدامى، فقالت أمي في أسف:

ـ مات (بصلئيل بن حور)!

قلت في حزن:

ـ رحمة الله عليه، كنت أشتاق إلى الحديث إليه.

سألت (عامير):

ـ وماذا عن النقباء الاثني عشر؟!

قال:

ـ هلكوا جميعًا وكان آخرهم (شموع بن ذكور)، ثم قام واقفًا وقال:

ـ قد ترك لك (شموع بن ذكور) شيئًا.

ذهب إلى صندوق كبير ارتكن على الحائط ففتحه، وغابت رأسه بداخله لحظات قبل أن يخرج حاملًا بعض لفائف البردي المرتبة، وقدمها إليّ، أمسكتها بيدي فقرأت صفحتها الأولى لأجد مكتوبًا بها:

«شهادة شموع بن ذكور على رحلة النقباء الاثني عشر إلى الأرض المقدسة».

تنهّدت وأنا أكتم بكائي بعدما تذكرت تلك الرحلة المشئومة، واحتفظت بتلك الأوراق لإضافة ما بها إلى أوراقي لاحقًا. سألت أمي وأنا أشير إلى الصندوق:

ـ هل ما زلت تحتفظين بقبعة الفارس؟

ضحكت وقالت:

ـ بالطبع!

قلت في فرح:

ـ حقًا!

قالت:

ـ نعم، هذا الصندوق يحوي كل ذكرياتنا، ملابسك وملابس أبيك، والناي وأيضًا أدوات النجارة التي كان يعمل بها، يتشبث الإنسان بمقتنيات من يحب حتى يشعر بوجوده حوله!

سألت (عامير):

ـ لماذا لم تعمل في النجارة يا (عامير) كما كنا نعمل؟

ضحك وقال:

ـ لم أكن أجيد الصنعة مثلك! كما أن الشيخ (بصلئيل) دعاني كي ألتحق بالخدمة في بيت الرب بعدما رحلت أنت.

سألته:

ـ إلى متي ستمكثون في وادي «رثمة»؟

قال:

ـ أصبح البقاء في النزل يطول، وظني أننا سنمكث هنا شهورًا!

قلت:

ـ ظننتكم ستصعدون قريبًا إلى «قادش».

صمت قليلًا ثم قال:

ـ أتدري يا (شمعون) أن شعب إسرائيل لم يطأ «قادش» منذ أن مات أبونا (زخاري)، اقتربنا منها مرات ومرات، ولكننا لم ندخلها.

قلت:

ـ إذن ما دام البقاء سيطول في «رثمة»، لماذا لا تأتون معي إلى «رسة» كي أحضر (أروى) و(إبرام)؟!

قالت (باتيا) في فرح:

ـ حقًّا، أشتاق إلى رؤية بيتك وزوجتك يا (شمعون)!

رأيت الرفض على وجه (عامير) ولكنه لم يعارضها، فقلت مشجعًا:

ـ ستفرحين هناك يا (باتيا)، لي بيت من الحجر، وماشية ترعى، وتجارة و...

قاطعتني أمي قائلة:

ـ كلا يا (شمعون)! لن نغادر نزلًا فيه بيت الرب ونبيه.

قلت مستعطفًا:

ـ أشفق عليكم يا أمي من كثرة الترحال، والعيش في الخوص والخيام طيلة هذه السنوات، ولا بأس من أن تنعموا ببعض الراحة قبل أن نعود إلى هنا.

قالت (باتيا) مستحثة إياها:

ـ أما تشعرين بالسأم يا أمي من حي «رأوبين»؟

ثم أردفت في ضيق:

ـ يكفي ما نراه من أبناء (عزرا) كي نهجره إلى الأبد.

قلت:

ـ من أبناء (عزرا)؟

قال (عامير):

ـ هم جيران لنا في حي «رأوبين» ينفثون حقدًا على كل ذي فضل، نالنا شذرات من بغضهم بعدما أكرمنا الرب وأغنانا من فضله عنهم.

قلت باسمًا:

ـ هذا أدعى بأن تتركوا لهم الحي لبعض الوقت يا أمي.

قالت أمي في حسم:

ـ لن نفارق النزل يا ولدي، إن شئت ذهبت فأحضرت أهلك، وإن شئت أتى بهم الدليل، أما أنا فلن أفارق صحبة نبي الله (موسى) حتى يتوفاني الرب.

استسلمت لرأيها ولم أشأ أن أغضبها، فقلت وأنا أُقَبِّل يدها:

ـ سأرسل إليهم الدليل، فأنا لا أستطيع فراقك مرة أخرى.

وقام (عامير) و(باتيا) ليبيتوا في دارهم، بينما قضيتُ أنا الليلة في فراش أمي، بعد سنوات وسنوات من الشوق إلى ليلة كهذه.

* * *

ذهبت أنا و(شهبور) إلى خيمة الاجتماع في ساعة مبكرة من الصباح، أخذ (شهبور) ناقته وقد عزم أن يقدمها قربانًا للرب، نظرت إلى وجهه الذي اكتسى بالسكينة وسألته:

ـ وكأنك قد عزمت ألا تعود ثانية إلى «رسَّة».

عقل (شهبور) الناقة في عمود الخيمة الخارجي بجوار المذبح، ثم نظر إليَّ وقال في صفاء:

ـ لن أفارق هذا النبي ما حييت يا (شمعون)! رأيته أمس يجمع أطفال بني إسرائيل ويحكي لهم عن أبينا (إبراهيم) و(إسماعيل)، فانهارت الدموع من عيني، ما أحلى كلامه وما أصدقه!

مررنا من باب الخيمة فغمرنا البخور المقدس برائحة أعادت إلى قلبي ذكريات مضت، وقفنا أمام كاهن صغير السن بدا لي أنه من أحفاد (هارون)، كان الكاهن الصغير يرش الماء المقدس الذي تُلِيَت عليه الصلوات في أركان الخيمة، حين رآنا سألنا:

ـ فيم تقدمانِ الذبيحة؟ هل هي للخطيئة؟

قلت:

ـ بل هي ذبيحة السلامة، نقدمها شكرًا للرب!

كان (شهبور) يتلفت حوله وهو يتطلع إلى سقف الخيمة، والمذبح ومرحضة الماء المقدس، ثم نظر إلى قدس الأقداس نظرة طويلة، وهمس في أذني:

ـ ما هذا؟

شعر الكاهن الصغير بما يدور في ذهنه، فقال:

ـ هذا قدس الأقداس!

قال (شهبور):

ـ أهذا المكان الذي يتجلى فيه وحي الرب؟!

قال الكاهن مبتسمًا:

ـ نعم.

شعرت برعدة جسد (شهبور) حينما أمسك بيدي، وأراد أن يتحرك نحو قدس الأقداس، ولكن الكاهن استوقفه وقال:

ـ لا يدخله إلا نبي أو كاهن!

ثم وضع إصبعه على صدر (شهبور):

ـ يتجلى الرب على كل شيء ويسكن في قلوب عبيده، ادعه وسيسمعك، وإن شئت دعوت لك.

جلس (شهبور) على ركبته وقال:

ـ ادعُ لي!

وضع الكاهن يده على رأسه، ومسح رأسه بالماء المقدس، ثم طاف بمجمرة يفوح منها رائحة البخور والعنبر فوق رأسه وهو يتلو عليه بعض الصلوات، وبعد أن فرغ سألني الكاهن:

ـ أترغب في أن أصليِ لأجلك أيها الشاب؟

قلت شاكرًا:

ـ سأصلي أنا بنفسي!

غسلت يدي من الماء المقدس ووقفت معتدلًا وقد أدرت وجهي جهة المقدس، كانت أول صلاة لي في خيمة الاجتماع منذ سنوات، لم أحفظ الكثير من الترانيم في حياتي، ولكني أدركت أن خير الصلاة ما ينبع من القلب، وكان قلبي حينها مفعمًا بالشكر، شكرته أن حفظ لي أمي حتى أراها، وشكرته أن أعادني إلى قومي، وشكرته على كل ما حدث لي في حياتي، شكرته لأنه الحافظ والمُدبِّر والمعزي، وأن أقداره كانت ألطف بي مما تمنيته لنفسي.

فرغنا من الصلاة ثم سِرْنا في النزل نلتقط قطعًا من المَنِّ، وضع (شهبور) إحداها في فمه فذابت حلاوتها في فيه وامتلأت نفسه بالبهجة فقال:

ـ أتدري يا (شمعون) ما أكثر ما فضلكم به الرب!

قلت مبتسمًا:

ـ لعله ذلك المَنّ الذي يذوب في فمك حلاوة!

ابتسم قائلًا:

ـ كلا، ولكنه ذلك الوحي الذي لا ينقطع عندكم، ما أجمل أن يحيا الإنسان في مكان تتجلى فيه كلمات الرب!

قلت:

ـ صدقت.

تنهد ثم قال في حزن:

ـ أتظن أنه سيأتي يوم يرسل فيه الرب إلى (بني إسماعيل) من يجمعهم ويعيدهم إلى ملة أبينا (إبراهيم) كما فعل (موسى)؟!

قلت في يقين:

ـ أجل وذلك ليس ببعيد، طالما من (بني إسماعيل) رجال مثلك ومثل (عمرو).

ودعنا الدليل الذي رافقنا في رحلتنا من «رسة»، بعد أن أمددته بالمال والطعام، وطويت له رسالة أرسلتها إلى (عمرو بن دومة)، طلبت من (عمرو) في الرسالة أن يعيد (أروى) و(إبرام)، وأن يمنحني بضع نوق أجعلها لأخي (عامير)، حتى يكف عن الرعي في أموال الصدقة، وقضيت الأيام التالية كمن يروي عطشه بعد طول الظمأ، كنت أمكث ساعات طويلة في المساء إلى جوار أمي وأختي و(عامير) أروي لهم ما مرَّ بي من أحداث في بقعة أخرى من تلك الأرض لا يعلم عنها بنو إسرائيل أي شيء، رأيت الشغف في أعينهم ورأيت الفخر في عيني أمي، وكانت نظرة الفخر تلك كفيلة بأن تمحو من نفسي إحساس الندم الذي رافقني طيلة السنوات الماضية، فلا شيء أكثر برًّا من أن تجعل أهلك يفتخرون بك!

وفي كل صباح، كنت أنا و(شهبور) نلازم مجلس نبي الله (موسى)، نستمع إلى أحاديثه وتعاليمه التي يلقيها على الرجال في خيمة الاجتماع، فتمتلئ نفوسنا ثقة بأن الرب يرعانا ما دام نبي الله بيننا، ورأيت حماس بعض الشبان في تدوين

وصايا النبي (موسى) في رقاع من الجلد، يتداولونها فيما بينهم بعد انتهاء الدرس، ففعلت مثلهم، وكنت أمكث ساعات بعد انتهاء الدرس، أكتب ما أستطيع كتابته في أوراق البردي وأطلع على ما يكتبه الشبان الآخرون، فتراودني رغبة في أن أجمع كل هذه التعاليم في سفر كبير يحفظها من الضياع، حتى جاء يوم اختلف فيه بعض الشبان على مسألة ذكرها (موسى) في درس سبق، فكتبها أحدهم بطريقة، وكتبها الآخر بطريقة أخرى، فوقع خلاف بين التلميذين، ووجد كل واحد منهما فريقًا ينصره، فخرج إليهم الكاهن (هارون) وقال لهم: إن الرب قد أمر نبيه (موسى) بأن يخبر الشعب بألا يختلفوا، وأنهم يوم يعبرون نهر الأردن سوف يقومون بنقش وصاياه الأخيرة على حجر كبير يشيدونه وينقشون عليه كلمات الناموس نقشًا جميلًا. ورغم أن بعض التلاميذ قد استمروا في تدوين الوصايا، إلا أنني توقفت عن كتابتها ووجدت أنه من الخير ألا أكتب شيئًا يظنه الناس من بعدي من وصايا النبي وهي مما فهمته أنا.

وفي صبيحة يوم أفسحت فيه الشمس لنفسها طريقًا بين الغمام، فأشرقت على نزلنا وأثارت فيه الدفء، وصلت قافلة (أروى) إلى «رثمة»، وكانت مفاجأة عظيمة بالنسبة لي أن جاء الدليل، ومعه بضعة فرسان من (بني يطور) ترافقهم عشرات النوق المحملة بالبر والتمور والبخور. أثارت القافلة التي اخترقت خيام النزل وأناخت رواحلها في حي «رأوبين» فضول الناس، وتساءلوا عن صاحب تلك القافلة القاطن في حي «رأوبين»، هرولت إلى (أروى) و(إبرام) احتضنتهما، وخرجت (رومانا) وعيناها تفيض بالبكاء والفرحة، وهي لا تصدق أن ولدها اليتيم قد صار له هذا الشأن العظيم، احتضنتها (أروى) وقالت وهي تبكي:

ـ اشتقت لرؤيتك كثيرًا يا أماه، أنتِ أجمل مما حكاه (شمعون) عنك بكثير!

احتضنتها أمي وهي تقول:

ـ وأنتِ أجمل من رأت عيني يا (أروى)، بارك الرب فيك يا قرة العين.

ثم هبطت على ركبتيها فحملت (إبرام) الذي كان يمسك جلباب أمه

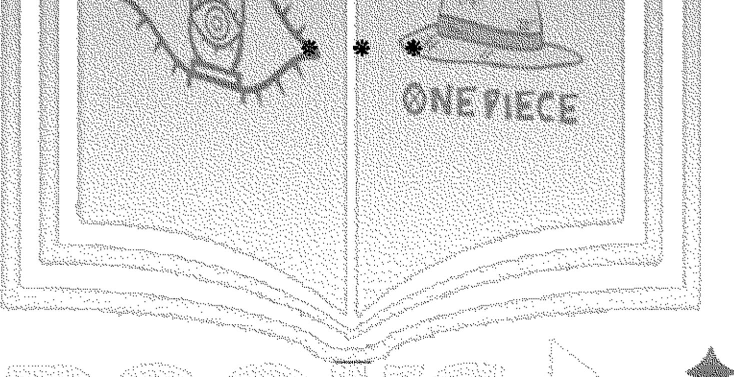
خائفًا، ولكنه استكان حين ضمته أمي إلى صدرها، وفاضت عين أمي بالبكاء وهي تقول:

ـ ابن ولدي الحبيب (إبرام)، حمدًا للرب، حمدًا للرب، ليتك حي يا (زخاري) لتقر عينك كما قرت عيني.

وجمعني الرب بأهلي أجمعين بعد سنوات من التيه والشقاء، ما كنت أظن في أحلامي أن أنال ذلك الفضل، وما ظننت أن تتلطف بي الأقدار إلى هذا القدر حتى تجمعني بكل من أحب في مكان واحد، أمي وزوجتي وأختي وأصدقائي وفوق كل ذلك صحبة نبيي ومعلمي.

ولم أدرِ وأنا أتمطع في نشوة الفأل أن الأقدار لا تزال تحمل لنا في جعبتها ابتلاء، زلزل سكينتنا، وكاد أن يعصف بحياتنا للأبد.

* * *



الورقة الرابعة والستون

أثارت القافلة في حي «رأوبين» أقاويل الناس، وأعادت إلى الأذهان ذكرى (زخاري) النجار الذي مات في «قادش برنيع»، تداول الناس حكاية الصبي الذي غادر بني إسرائيل صغيرًا، ثم غاب لسنوات ليعود بزوجة عربية وثروة طائلة، لم تشعر أمي بالراحة من تودد النساء في حي «رأوبين إليها». طُرِق الباب للمرة العاشرة في ذلك النهار ففتحته لتجد إحداهن تسألها أن تقرضها صاعًا من البُر، أعطتها أمي الصاع وهي تعلم أنها لن ترده، ثم أغلقت الباب وقالت متبرمة:

ـ تركونا لسنوات بعد وفاة (زخاري) دون سؤال، وهاهم يتوددون إلينا الآن!

قلت باسمًا:

ـ الحمد لله الذي جعلهم بحاجة إلينا ولم يجعلنا بحاجة إليهم.

قالت باسمة:

ـ تتحدث مثل أبيك!

كانت (أروى) تجلس على الأريكة، وقد انتفخت بطنها وبان حملها فقالت ضاحكة:

ـ لو ظل الباب يطرق على هذا المنوال لنفدت أجولة البر قبل الصباح.

قلت غير مكترث:

ـ ومن يبقيها للصباح! سأنتظر حتى يعود (عامير) و(شهبور) في المساء وسنهديها قربانًا لبيت الرب!

رفعت (أروى) حاجبيها دهشة، وقالت:

ـ ألن تترك لنا منه شيئًا؟!

قلت:

ـ وما حاجتنا به يا (أروى)؟! وهل هناك طعام أحلى من المن والسلوى؟!

ضحكت أمي وهي تقول:

ـ ألم أقل أنك تتحدث مثل أبيك؟!

ثم التفتت إلى (أروى) وقالت:

ـ لا تبتئسي يا (أروى) كتب علينا أنا وأنت أن نذوق شظف العيش بسبب قلوبنا!

قالت (أروى) ضاحكة:

ـ لعلي أرحم حالًا منك يا (رومانا)، فأهلي لا يزالون في «رسة»، أما أنتِ فقد غادرت جنات مصر بلا رجعة!

قلت لـ(أروى) مؤنبًا:

ـ أراك تنسجين خيوط الحديث معها، وقد وجدت من يعوضك عن غياب (أم السعد)!

قالت أمي ضاحكة:

ـ انتظر حتى يجن الليل وسأعلمها كل أسرارك.

انطلقت الضحكات صافية من القلب، وشعرت بالسعادة لأن جسرًا من الود قد امتد بين (رومانا) و(أروى) حتى وإن اتفقا عليَّ، وقبل أن أتكلم، طرق الباب طرقًا عنيفًا، ظننا أن إحداهن ستطلب قدحًا من البر، ذهبت أمي لتفتح الباب فإذا بـ(باتيا) تدخل صارخة وهي تقول:

ـ أدرك (عامير) يا (شمعون)، فقد تشاجر في المرعى، وتكاثر عليه الرجال هناك.

* * *

هرولت خارج المنزل ورآني (شهبور) الذي كان يقف بناصية الحي مع بعض فرسان (بني يطور) أهرول، فناداني قائلًا:

ـ ماذا حدث يا (شمعون)؟

قلت دون أن ألتفت إليه:

ـ اتبعني إلى المرعى مع الرجال!

وصلت إلى المرعى فوجدت صياحًا شديدًا، وقد بدا أن عراكًا قد حدث وبلغ ذروته، نظرت فرأيت جسد (عامير) الضخم قد تمدد أرضًا وبضعة رجال ينهالون على جسده ورأسه بالعصي. صرخت فيهم:

ـ كفى!

ثم ألقيت بنفسي بينهم، أحول بين عصيهم وبين جسد (عامير) الذي تخضب بالدماء، نال جسدي ضربة من إحدى العصي، وحينما همَّ أحدهم بأن يهوي بعصاه على رأسي تلقفت عصاه يد أحد الفرسان من (بني يطور)، دفع الفارس الرجل المعتدي بقدمه في بطنه فأسقطه أرضًا، ثم انضم إليه (شهبور) وباقي الفرسان وصنعوا حلقة حولي وحول (عامير)، همَّ الرجال بالاشتباك معهم، فنزع الفرسان سيوفهم من غمدها، تلألأت النصال في أعين الخصوم فأدركوا أن الأمر جاد، تراجعوا وقد أسقط في إيديهم، فمن يجرؤ على رفع السيوف في محلة الرب! وقفوا مذهولين للحظات ثم قال كبيرهم في صوت أجش:

ـ أيرفع رجالك السيوف علينا يا بن النجار؟! وحق الرب (إيل) لنقتصن منك عند (موسى).

ثم نظر إلى (عامير) الممدد في إعياء وقال:

ـ أما أنت يا بن الكوشية، يا شقيق القردة والخنازير، فبحق الرب إيل لتدفعن

ثمن ما فعلته ولتخرجن من حينا الذي أصابه الفقر منذ أتيته!

لم ألتفت إلى حديثه، فقد شغلني أمر (عامير) الذي كان يلهث وقد تخضب وجهه بالدماء، قال بصوت واهن:

ـ «تكاثروا عليَّ يا (شمعون)، ولو قابلوني رجل لرجل لصرعتهم الواحد تلو الآخر»!

مسحت الدماء عن وجهه بيدي وقلت في لهفة:

ـ لا تتحدث يا (عامير)، لا تتحدث يا صديقي.

همَّ أن يتحدث ولكنه لم يستطع، تهدلت جفونه، ثم غاب عن الوعي، ناديت الرجال كي نتعاون على حمله، حملناه بجهد بالغ ثم عدنا به إلى الدار.

صرخت النساء حين رأينه، وبكي (إبرام) خوفًا من الصراخ، فحملته (أروى) وانزوت به رعبًا في ركن البيت، نهرت النساء عن الصراخ ومدَّدت جسد (عامير) على الأرض، ثم قمت بمسح الدماء عن وجهه بخرقة مبللة، كانت جروحه غير غائرة ولكن وجهه وجسده كانا قد تورما من كثرة اللكمات والضربات، تأوَّه من الألم حين كبست جروحه بالخرقة، فاطمأن قلبي أنه لا يزال حيًّا، فتح عينيه بصعوبة ثم نظر حوله، وحين رأى النساء، اعتدل جالسًا وكأنما شق عليه أن تراه زوجته ونساء الدار وهو على هذا الحال من الضعف.

خرج (شهبور) والفرسان من البيت الذي ضاق بهم بعد أن اطمأنوا على سلامة (عامير)، قدمت قدحًا من الماء إليه كي يشرب، تناوله وقرَّبه إلى فمه، ثم لم يلبث أن وضعه جانبًا دون أن يشرب وقد اختنقت عيناه بالدموع، ربَّت على كتفه وسألته:

ـ ماذا حدث يا (عامير)؟!

قال:

ـ هؤلاء أبناء (عزرا)!

قلت:

ـ وما الذي جعلهم يتعاركون معك؟!

قال:

ـ خرجت بنوق القافلة وأغنام القرابين إلى المرعى، فوجدتهم يرعون ماشية خالٍ لهم من سبط «يساكر»، رغم أن اليوم هو يوم «رأوبين» في الرعي والسقيا!

قالت (باتيا) مقاطعة:

ـ ليتك تركتهم يرعون!

ابتلع ريقه وقال:

هذا ما فعلت، فقد وجدت المرعى قد ازدحم، وشعرت أن الكلأ لن يكفي كل هذه الأنعام، فتركت أنعام القرابين ترعى وانصرفت قائلًا: لا بأس أن ترعى الأغنام اليوم ثم ترعى الأبل غدًا، وأخذت الإبل إلى مسقى الدواب، حتى تصدر بعد سفرها الطويل، وما أن وصلت إلى مسقى الدواب، حتى تبعني اثنان منهم، ومعهم بعض الماشية.

قال لي أحدهما:

ـ ما ينبغي لك أن تسقي تلك الإبل من مسقى دوابنا؟!

سألته:

ـ لماذا؟

قال الآخر:

ـ لأن هذا المسقى لحي «رأوبين»!

قلت:

ـ هي إبل (شمعون بن زخاري بن رأوبين)!

قال الأول في سخرية:

ـ وما لابن المصرية وحي رأوبين! أما تكفينا أمه المصرية حتى يأتينا بإبل امرأته العربية؟!

نهرته قائلًا:

ـ احذر يا هذا، حتى لا يثور غضبي عليك.

اقترب مني وقال:

ـ غضبك! ومن أنت حتى يثور غضبك على يا بن الكوشية؟!

فلم أشعر إلا بجسدي ينحني إلى الأرض، ثم التقطت يداي حجرًا كبيرًا، حملته في الهواء ثم قذفته نحوهما، لم يصبهما الحجر، ولكن الرعب أصابهما من صوتي الذي زلزل الأرض من تحت أقدامهما، ففرًا كالجبناء تاركين ماشيتهما.

سكت قليلًا ليلتقط أنفاسه اللاهثة، ثم قال:

ـ وبقيت مكاني حتى ارتوت الإبل، ثم عُدت إلى المرعى كي أعود بأغنام القرابين، فوجدتهما وقد وقفا في انتظاري يحملان العصي في إيديهما، رأيت الشر في أعينهما، فشمرت عن ساعدي وتجهزت للقائهما، صرعت الأول ثم الثاني ولكن فجأة رأيت (باتيا) قادمة، خفت عليها، وصرخت فيها كي تعود، فغفلت عيني عن أحدهم، فسقطت عصاه على عاتقي وأسقطني أرضًا.

سكت وقد اختنق صوته بالانكسار، ثم قال:

ـ والله لولا هذا لجعلتهم خبزًا تلوكه أفواه نساء الحي الليلة!

هرولت (باتيا) نحوه تحتضنه وتُقبِّل رأسه وقالت باكية:

ـ فداك نفسي يا (عامير)!

أما (رومانا) فقد جلست تنتحب في خفوت وقد غطت فمها وأنفها بكفها.

التفتت (باتيا) إليَّ وقالت متحدية وهي لا تأبه لـ(رومانا) الباكية:

ـ لم يعد لنا حياة هنا يا (شمعون)! أريد أن أرحل! أريد أن أغادر هؤلاء الناس الذين يكرهوننا.

نظرت بطرف عيني إلى (أروى) التي انكمشت في رعب، بينما كان جسد

(رومانا) يهتز مع لحن نحيبها الخافت، قلت: وأنا أشعر بهموم الدنيا تطبق على صدري:

ـ لن يرضى نبي الله (موسى) بما حدث!

قالت (باتيا) في حدة:

ـ كم من مرة شكونا لـ(بصلئيل بن حور) فكان يأمرنا بالصبر.

ثم قالت في جنون:

ـ إلى متى نذوق المذلة ونُعيَّر بأمهاتنا، فهذه مصرية، وهذا أمه كوشية، واليوم يقولون عن زوجتك إنها عربية، هل كتبت علينا المعرَّة إلى الأبد؟!

كانت كلماتها حادة كضربات البرَد في ليلة ممطرة، فصرخت فيها غضبًا:

ـ اصمتي يا (باتيا)! وكفي عن هذا!

بهتت حين صرخت فيها، شهقت، ثم انهالت دموعها وقالت في حزن فطر قلبي:

ـ سأكف يا (شمعون)! سأكف كما كففت من قبل! ولكني قديمًا كنت أتوعدهم وأقول لهم: سيأتي أخي في يوم من الأيام ليرد عنا أذاكم، أما الآن، فلن أقولها، فقد عاد أخي ولا زلنا لا نملك إلا الصبر على أذاهم.

ثم وضعت يد (عامير) على كتفها وقالت:

ـ هيا بنا يا (عامير)! فلنا بيت نرتاح فيه!

وقبل أن يتحرك، سمعنا طرقًا شديدًا على الباب، قمت ففتحت الباب، فإذا بحارس من سبط «لاوي» يقول لي:

ـ هل أنت (شمعون بن زخاري)؟!

قلت له:

ـ نعم.

قال:

ـ يدعوك القائد (يوشع بن نون) إلى خيمته.

* * *

رافقني (شهبور) إلى الخيمة، أراد رجال «بني يطور» أن يصحبونا ولكني منعتهم حتى لا يثير وجودهم المشكلات، وصلنا إلى خيمة القائد، فوجدت أبناء (عزرا) الستة بانتظارنا أمام الخيمة، وقد بدا على وجوههم الغضب، وقد جلس من بينهم اثنان على الأرض أمسك أحدهما بعينه وهو يصرخ من الألم، بينما تورمت عين الآخر وشجت رأسه، فأدركت أنه مما فعله (عامير) بهما! أمرنا الحارس بأن نقف خارج الخيمة، بينما دلف هو إلى داخلها ليُعلِم (يوشع) بوصولنا، سمعت زمجرة أبناء (عزرا)، والتقطت أذني بضع كلمات مثل: القردة، الخنازير، ولم يتورع أحدهم عن تقبيل وجهه بشكل قرد حتى يثير غيظنا!

سألني (شهبور) هامسًا في أذني:

ـ ما قصة القردة والخنازير؟

قلت وأنا أنحّي رأسي بعيدًا عنهم:

ـ عقوبةٌ عاقب بها الرب بعض العصاة، فكانت كفارة لهم عن خطيئتهم!

قال:

ـ ولماذا يعيرونكم بها؟

قلت:

ـ كان إخوة (عامير) ممن شملهم العقاب!

خرج الحارس ودعاني أنا و(شهبور) للدخول.

دخلت لأجد الفارس الذي فتن عقلي طيلة أيام الصبا، يجلس غاضبًا على أريكة من الخشب موسدة بفراء الغنم، ذكرتني بصنعة أبي أيام كنا في «حضيروت».

قلت:

ـ سلام عليك أيها القائد.

قال في صرامة:

ـ سلام، أيها الشاب.

ثم قال:

ـ هل أنت (شمعون بن زخاري) من سبط «رأوبين»؟

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ أتدري أنك قد أتيت بكبيرة، حين رفعت السيوف على إخوانك! أتدري أنكم قد فقأتم عين أحدهم وأن الناموس يقول العين بالعين! وحق له أن يفقأ عين من فعل به ذلك!

قلت في ثبات:

ـ أدري أيها القائد.

قال في غضب:

ـ إذن فأنت تعلم بالناموس ومع ذلك خرقته!

قلت وأنا لا أزال على ثباتي:

ـ أعلم بالناموس يا سيدي القائد ولكني لم أخرقه.

قال:

ـ ومن فعل هذا بالرجل الذي يصرخ خارج الخيمة!

قلت:

ـ فعله رجل لا يقوى على الصراخ؛ لأن روحه كادت أن تزهق، ولكن الناموس لا ينظر إلا لعينٍ مفقوءة أو سن مكسورة.

نظر إليَّ في دهشة، فأردفت غير هياب:

ـ ليت الناموس يا سيدي ينظر إلى آلام الجسد حين انهال هؤلاء بالعصي على جسد رجل أعزل، ليته ينظر إلى آلام النفس حينما عيره هؤلاء القوم بأمه الكوشية، ووصفوه بشقيق القردة والخنازير، رغم أن الرب قد غفر لإخوته بعقابهم! ليته ينظر إلى آلام زوجته التي تُعيَّر بأهلها رغم إيمانهم بالرب (إيل)، ليت الناموس يا سيدي ينظر إلى القلوب قبل أن ينظر إلى الأجساد.

صمت قليلاً وأخذ يفكر في حديثي، ثم قام من جلسته واقترب مني فشعرت بطوله الفارع، وضع يده على كتفي ثم قال في ابتسام:

ـ تعجبني جرأتك في الحق أيها الشاب! أنت ابن زخاري النجار، أليس كذلك؟

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ لا يزال لأبيك محبة في قلبي.

ثم أشار إلى الأريكة وقال:

ـ هذه الأريكة صنعها لي!

ثم أشار إلى جراب للأسهم معلق في عمود الخيمة وقال:

ـ وتلك السهام هو من شذبها!

ثم اكتسى وجهه بالحسم مرة أخرى وقال:

ـ ولكني لن أسمح بأن يرفع أحد السيوف على شعبي، أو أن يُهدِّد أحد في نزلٍ أنا قائده!

ثم نظر إليَّ وإلى (شهبور) وقال:

ـ مُرا الفرسان بأن يرحلوا، ومن شاء منهم أن يمكث معنا فليمكث بلا سلاح.

ثم نادى على الحراس قائلًا:

ـ أدخِلوا أبناء (عزرا).

دخل الأخوان الكبيران وفي عينيهما شماتة، جلس (يوشع) على الأريكة، ثم قال في صرامة:

ـ قد استمعنا إليكم وإليهما، ووجدنا أنكم من بدأتم بالعداء.

بهت الاثنان، فتابع (يوشع):

ـ ولكننا سنحكم لذلك الذي فقد عينه بديةٍ مقدارها رأسين من الغنم.

قال الأخ الكبير مستنكرًا:

ـ رأسان من الغنم! ليس هذا بحكم الرب يا قائد بني إسرائيل؟! أليست العين بالعين والسن بالسن!

قال (يوشع):

ـ بلى، والجروح أيضًا قصاص! فإن شئت جمعت عصبة من الرجال فانهالوا على رأس كل واحد منكم وجسده بالعصي حتى توشك روحه أن تزهق!

صمت الرجل، وهو يكظم غيظه، فقال (يوشع) في حسم:

ـ تلك الدية كفارة لمن فقد عينه، وحذارِ أن تعودوا لمثلها!

ثم أشار إلينا جميعًا وهو يقول:

ـ هيا انصرفوا جميعًا!

وبعد أن خرجنا من الخيمة، صرخ الرجل الذي فقد عينه قائلًا:

ـ واعيناه!

فقال أخوه الأكبر بصوتٍ تعمَّد أن يصل إلى مسامعي:

ـ لا تصرخ! فقسمًا بالرب إيل لترين بعينك الثانية القصاص ممن فقأ الأولى!

* * *

الورقة الخامسة والستون

في المساء كنت أنام إلى جوار (أروى)، أوليتها ظهري، وأغمضت عيني ولكن عقلي لم ينم، شعرتْ هي بأنفاسي المؤرقة في غسق الليل، فأحاطت جسدي بيدها في الظلام وقالت بصوت خافت حتى لا توقظ (إبرام):

ـ (شمعون)! هل ما زلت متيقظًا؟!

قلت:

ـ نعم.

قالت وهي تربت على صدري:

ـ لا تحزن، فقد انتهى الأمر!

قلت:

ـ لم ينتهِ بعد!

اعتدلت قليلًا، ثم قالت في وجل:

ـ هل تخشَ شيئًا؟

ـ قلبي يحدثني أن أبناء (عزرا) لن يكفوا عن الأذى.

قالت هي في وجل:

ـ (عامير) أيضًا يريد الثأر لكرامته.

استدرت لها وأضأت مصباح الزيت، سألتها في قلق:

ـ ماذا سمعت؟

قالت:

ـ أقسَم أن يرد لهم الصاع صاعين! فقد شق عليه انكساره أمام (باتيا) وأمامنا!

تنهدت وقلت في وجوم:

ـ (باتيا) كانت محقة، يجب أن نغادر هذا الحي!

قالت متعجبة:

ـ نعود إلى «رسة»؟!

قلت:

ـ كلا، ولكننا سنغادر حي «رأوبين»، غدًا أستأذن القائد (يوشع) في أن أبني لي دارًا خارج النزل على غير الترتيب الذي فرضه علينا (موسى).

قالت لي:

ـ افعل ما يرتاح له قلبك.

وفي الصباح ذهبت مع (شهبور) إلى خيمة القائد، قدمت له جوالق البر والتمور كي يقسمها على بني إسرائيل، وأهديت إلى خيمة الاجتماع حمولة البخور كاملة، شكرني القائد ودعا لي الكاهن بالخير والبركة، ثم استأذنت (يوشع) في بناء بيت خارج النزل، على أن ترعى أغنام القرابين وإبلنا مع سبط «لاوي»، تفهَّم (يوشع) غرضي وأدرك أني أريد أن أبتعد عن المشكلات، ولكنه لم يمنحني الإذن مباشرة، قال:

ـ أستأذن لك نبي الله (موسى) أولًا، ثم أجيبك في المساء.

عرجت إلى دار (عامير) و(باتيا) كي أجبر كسريهما، وأخبرهما بما عزمت عليه، وجدت (عامير) أفضل حالًا من أمس، ولكن نظرة عينيه كانت لا تزال منكسرة، قلت له مازحًا كي أخفف عنه:

ـ رأيت رءوسًا محطمة بين أولاد (عزرا) أمس، حمدًا لله أن جعل (باتيا) تأتي إليك قبل أن تقضي عليهم جميعًا.

نجحت حيلتي في أن تجعله يبتسم قليلًا، فأردفت ضاحكًا:

ـ كلفتنا عين واحدة رأسين من الغنم، فما بالك لو استمر العراك لأكثر من ذلك.

ربت على كتفي شاكرًا وقال:

ـ شكرًا لك يا (شمعون)، لولاك لقضوا عليَّ في المرعى!

كانت (باتيا) تجلس في ركن الدار تفتل كومة من صوف الغنم بين يديها ولا تلتفت إلينا. قلت لها في عطف:

ـ كنت محقة يا (باتيا)، ينبغي أن نغادر ذلك الحي.

توقفت عن برم الصوف، ثم نظرت إليّ مستبشرة وقالت:

ـ حقًّا! هل سترافقك إلى «رِسّة»؟

قلت لها:

ـ كلا، ولكني استأذنت القائد (يوشع) في أن نبني دارًا خارج النزل بعيدًا عن حي «رأوبين».

شعرت بخيبة أمل وقالت:

ـ وما الفائدة يا (شمعون)؟ ستقابلهم في الأسواق، وسيقابلهم (عامير) في المرعى.

قلت لها:

ـ لا بأس أن نحتمل بغض بعض الناس لنا ما دام هناك الكثيرون ممن يحبوننا في هذا النزل، كما أني استأذنت نبي الله في أن يرعى (عامير) مع سبط «لاوي» بعيدًا عنهم.

ثم قلت لها في حنان:

ـ صدقيني يا (باتيا)، هناك الكثير من الخير في هذا النزل، ربما لا تشعرين بقدره الآن لأنك ما زلت صغيرة، ولكنك إذا غادرتيه ستندمين عليها طيلة حياتك!

قال (عامير) موافقًا رأيي:

ـ هذا ما أقوله لها دائمًا.

قالت حزينة مستسلمة:

ـ اكتملت صحبتي بعودتك يا (شمعون)، وسأبقى في أي مكان تكون أنت فيه.

قمت فقبَّلتها ثم قلت لـ(عامير):

ـ استرح لبضعة أيام، وسأتولى أنا ورجال (بني يطور) أمر الرعي حتى تستعيد قواك.

* * *

في المساء جاءني الإذن من (يوشع) بأن أبني لي بناءً خارج النزل، نقيم فيه حتى يحين موعد الرحيل، عاونني رجال (بني يطور) في بناء بيت فسيح أقمناه فوق السفح، واستغرق بناؤه قرابة الشهر، كان المنزل يشرف من ارتفاع على النزل، ويرى الجالس أمامه عمود الدخان الذي يصعد من محرقة خيمة الاجتماع بلا انقطاع، بنينا البيت بالحجر، وجعلت به ثلاث حجرات فسيحه وفناءً ومربطًا للدواب، كما ألحقنا به بيتًا من الخوص والخشب حتى يقيم به (شهبور). والحق أن (شهبور) في تلك الأيام كان لا يقيم بيننا إلا نادرًا، فقد كان يقضي يومه كاملًا في خيمة الاجتماع أو في خيمة نبي الله (موسى)، يستمع إلى أحاديث النبي ووصاياه فيحفظها عن ظهْر قلب، ثم يجلس إلى الكهان في المساء فيناقشهم فيها ويبدي فهمًا يفوق فهم البعض منهم أحيانًا، حتى ظننت أنه لو امتد به العمر بيننا ستصير له مكانة تفوق مكانة (بصلئيل بن حور).

وفرحت (باتيا) بالبيت الجديد؛ لأنها ابتعدت عن أبناء (عزرا)، وفرحت

أمي به؛ لأنها أصبحت قادرة على رؤية خيمة الاجتماع ودخانها من نافذة حجرتها، أما (أروى) فقد فرحت به لأنه ذكرها ببيوت «بكة» في اتساع فنائه وحجراته ومربط الدواب الملحق به. ودَّعنا رجال (بني يطور) بعد أن سكنا البيت الجديد، وأرسلت معهم رسالة شكر لـ(عمرو بن دومة)، وأصبحنا نقضي نهار اليوم في النزل ثم نعود مساء إلى مسكننا بأعلى السفح، لننعم بدفء الاجتماع وأحاديث السمر.

واقترب شهر (نيسان) من منتصفه، واستعد الناس في النُّزل للاحتفال بعيد الخروج، فامتلأت رائحة النزل بالخبز، خاصة بعدما وزع (يوشع) حبوب البر على بيوت النزل جميعًا، كانت أمي و(باتيا) يعدان فطيرًا غير مخمر لنأكله في الأيام السبعة التي تسبق يوم العيد، بينما جلست (أروى) ممدة وقد فرجت ساقيها اللتين أحاطتا بـ(إيرام) الصغير، ووضعت طبقًا من العوسج فوق بطنها التي انتفخت أمامها حتى صارت كالمائدة، التقطت ثمرة عوسج من طبقها، أكلتها ثم سألت أمي:

ـ لماذا تخبزين العجين بغير خمير؟!

لتت أمي العجين بالماء ثم قالت:

ـ هكذا أمرنا الرب قبل الخروج من مصر!

حينئذٍ ترنمت (باتيا) بأنشودة الخروج التي غنتها (مريم) أخت (موسى) من قبل:

ـ رَنِّموا للربِّ فإنه قد تعظَّم.. الفرَس وراكبه قد تحطَّم.. الرب قوِّتي ونشيدي، وقد صار غايتي وخلاصي.

قلت لها وأنا سعيد:

ـ ما زلت أذكر (مريم) وهي تتغنى بها! كيف تحفظينها؟!

قالت (باتيا):

ـ أمرنا الكاهن (هارون) أن نحفظها، وأن نرددها على الأطفال في خيمة

الاجتماع، حتى يتذكروا معجزة الخروج!

شعرت بغبطة شديدة؛ لأنني كنت ممن شهدوا تلك المعجزة! فقلت:

ـ مهما رددتم من ترانيم فلن تشعروا بها كمن شاهدها بعينه!

ضحكت (أروى) وقالت:

ـ تتحدث وكأنك كنت تعقل ما حدث؟

قلت:

ـ بالطبع، ويكفي أني كتبتها في أوراقي!

قالت (باتيا):

ـ أريد أن أقرأ تلك الأوراق يا (شمعون)!

ثم صمتت قليلًا وقالت في صوت به مسحة حزن:

ـ كما أريد أن أعرف ماذا كتبت عن أمي (سولاف)!

قالت أمي وكأنها توحي إليَّ بالإجابة:

ـ كتب ما حكيته لك! كانت أمك أجمل بنات بني إسرائيل، وماتت بعد أن أصابتها حمى في «حوريب».

قالت (باتيا) حزينة:

ـ كنت أتمنى أن أتذكرها أو أعي ملامح وجهها!

قلت لها:

ـ انظري في المرآة وستجدين صورة منها!

ابتسمت وقالت:

ـ حقًّا!

قلت مؤكدًا:

ـ نعم، لم يكن (زخاري) النجار ليفتتن إلا بجمال مثل هذا الجمال!

لتت أمي العجين في قوة وكأنها أغاظها حديثي وقالت:

ـ أفلا كففت عن الثرثرة وخرجت لتحضر لنا حطبًا.

قلت باسمًا:

ـ الحطب خلف الفناء!

قالت:

ـ إذن فلتشعله حتى تحمي النار في الموقد.

غمزت لي (أروى) بعينها كي أقوم، فقمت مبتسمًا وأنا أتعجب من أمي، ماتت (سولاف) ومات (زخاري) ولم تمت الغيرة في قلبها بعد!

درت حول المنزل وذهبت إلى الفناء الخلفي، جمعت كومة من الحطب ووضعتها أسفل الموقد، أشعلت النار في كرة صوف مشبعة بالزيت، وألقيتها في كومة الحطب، وأخذت أنفخ فيها حتى اشتعلت الكومة، وقفت قليلًا أقلبها بعصا طويلة حتى علا صوت طقطقاتها. فجأة طرق أذني من بين طقطقات الحطب صوت وكأنه ارتطام شيء يصدر من مربط الدواب، ظننت أن (عامير) قد عاد، فناديت عليه ولكني لم أجد إجابة، ذهبت إلى مربط الدواب الخالي من الأنعام فلم أجد أحدًا، ولكني وجدت طاولة القش وقد سقطت أرضًا، ظننت أن الهواء قد أسقطها وكدت أعود أدراجي، لولا أن سمعت صوتًا أسفل السفح كحفيف الأقدام، وقفت على الحافة، فرأيت رجلًا يهرول أسفل السفح، وحين أجهدت بصري، خُيِّل إليَّ أن الرجل كان يرتدي عصابة على إحدى عينيه!

* * *

اليوم هو يوم السبت الذي يسبق العيد، خيم السكون على النزل وامتد حتى بلغ الفضاء، سكنت الريح فتوقفت أوراق الشجر عن الحفيف، وخرست العصافير وكأنها خلدت إلى الراحة في ذلك اليوم المقدس، ألقي ذلك السكون في قلبي بالسكينة، فتمتمت قائلًا: يا قدوس، يا مالك الكون، يا من قدستنا بوصاياك، قدس أعمالنا وطهرها من كل شر.. الشيء الوحيد الذي عارض

ذلك السكون هو رائحة الخبز الندي، الذي فرغت أمي من طهيه أمس، ورصته في صفوف فوق مائدة العيد، أثارت الرائحة شهيتي، فتناولت رغيفًا منه، وأكلته وأنا أقف على حافة السفح، أترقب عمود الدخان الصاعد من خيمة الاجتماع، وأشاهد خدام بيت الرب وهم يزينون الخيمة بسعف النخيل استعدادًا لاستقبال المصلين، ورغم بُعْد المسافة، استطعت أن أميز جسد (شهبور) من بين خدام الخيمة، فجأة اخترق السكون صوت صراخ ملأ الفضاء، صراخ امرأة لم يحجب صوتها شيء حتى وصل إلى كل ركن من أركان النزل وفاق صوت النفير، استيقظ النائمون، وانزعج المستيقظون، ورأيت (عامير) يخرج من المنزل والنوم لا يزال يداعب أجفانه!

لحظات وكنت أقف أنا و(عامير) وسط حشد غفير من الناس عند مصدر الصوت في حي «يساكر»، الأحاديث المتناثرة أثارت الرعب بين الناس، في البداية قيل: إن رجلًا من سبط «يساكر» قد وجد مقتولًا في داره، ثم قيل: إن رأس الرجل قد وجدت مفصولة عن جسده، وأن الرأس غير موجودة، ثم تردد أن الرجل قد قتل منذ أيام، وأن امرأة قد استدلت على جثته حينما فاحت رائحتها من داره التي تجاورها، والحق أن الواقعة كانت بشعة بكل تفاصيلها التي كانت تتكشف لحظة بلحظة، ولكن الأبشع منها أن قد وقعت في أيام هي الأقدس عند الرب؛ مما جعل الناس تتساءل عمن أقدم على قتل هذا الرجل، وهل هو من بني إسرائيل أم أنه لص قد جاء إلى النزل من خارجه؟!

وجاء (يوشع) ومعه حراس من سبط «لاوي»، أمر الناس بالابتعاد عن المكان الذي تدنس بجثة القتيل، وحذر الناس من أن تمس أيديهم أي شيء حتى لا تنالهم نجاسة! ثم دعا المرأة التي اكتشفت الأمر وسألها عن الرجل:

ـ من يعيش معه؟!

قالت:

ـ لا أحد، هو عجوز وحيد، ماتت زوجته ولم ينجب!

قال (يوشع):

ـ ومن يقوم على أمره؟!

قالت:

ـ لا أحد؟

قال متعجبًا:

ـ ومن أين يأكل؟

قالت:

ـ كانت له ماشية يرعاها له رجل فقير من سبط «جاد»، ثم طرده وترك الماشية لأبناء أخته.

سألها:

ـ وأين هم؟!

قالت:

ـ لا أدري، فأنا لم أرهم من قبل! ولكني أظن أنهم من سبط «رأوبين»!

سألها:

ـ هل تعرفين من أي البيوت هم؟

صمتت قليلًا ثم نطقت باسم عصف بآخر ما تبقى من سكوني وهي تقول:

ـ أظنهم أبناء (عزرا بن رأوبين)!

فنادى (يوشع) في الحراس قائلًا:

ـ أحضروا لي أولياء الدم، فأنا لا أدري كيف لم يعرفوا بمقتل وليهم حتى الآن!

* * *

الورقة السادسة والستون

وجاء أبناء (عزرا) يصرخون

بكاؤهم الذي كان يشبه نباح كلبة ثكلى على جروها، جعل الناس يُشفقون على فجيعتهم، رأيت كبيرهم يحثو على رأسه التراب! وذرفت العين المفقوءة لأصغرهم دموعًا لم أدرِ ما مصدرها! حتى (يوشع) نفسه، أشفق عليهم وترفق بهم وهو يقول:

ـ يا أولياء الدم! هذا خالكم قد غدر به أحدهم! ولكم الحق في القصاص ممن قتله، فإن كان عندكم بينة على قاتله فأتوا بها!

قال كبيرهم:

ـ ومن أين نأتي بالبينة ونحن لم نعلم بمقتله إلا الآن؟!

قال (يوشع):

ـ إذن، فقد أرجأتم القصاص للآخرة!

قال أحدهم بعد أن جفت دموعه فجأة:

ـ نرجئه إلى الآخرة!! ثم أردف في غضب:

ـ هل كتب علينا ظلمك في كل مرة أيها القائد؟

قال (يوشع) في صرامة:

ـ ماذا تقصد أيها الرجل؟ أفصح عما تريد!

قال الرجل في صوت مسموم:

ـ الأمر لا يحتاج إلى بينة أيها القائد، فالقرينة وحدها تكفي! فمن قتله قد أخفى رأسه حتى يحرق قلوبنا عليه!

فغر الناس أفواههم، واقشعر جسدي، في حين قال (يوشع):

ـ ومن يفعل ذلك؟!

قال كبيرهم وهو ينظر نحو (عامير) نظرة خفق لها قلبي:

ـ يفعلها رجل يكره أبناء (عزرا)، ويتمنى لهم الفجيعة!

قال (يوشع) وقد نفد صبره:

ـ مثل من؟

اقترب كبيرهم منَّا فأشار بإصبعه إليَّ وقال:

ـ مثل هذا.

ثم اقترب أكثر من (عامير) وضغط بإصبعه في غل وقوة على صدره وهو يقول:

ـ أو هذا!

لم يحتمل (عامير) بهتانه فدفعه بيده وهو يقول:

ـ كذبت!

سقط الرجل أرضًا، فصرخ أخوه وهو يقول:

ـ أرأيت أيها القائد؟! أرأيت كم يكرهنا هؤلاء الناس؟!

ثم استدار نحو الجمع الواقف من بني إسرائيل وهو يقول:

ـ اشهدوا يا بني إسرائيل! اشهدوا أن هؤلاء الناس قد اعتدوا علينا ثانية!

ثم قال الصغير أعور العين:

ـ بحق الرب إن لم يكن هؤلاء هم قتلته، فمن يكون قاتِلوه؟!

اشتعل الغضب في العيون، ورأيت نظرة مقيته في عيون الناس، لم أفهم سببها، وقال أحد الواقفين:

ـ ماذا تنتظر أيها القائد؟ الأمر جليّ ولا يحتاج إلى بينة!

وقال آخر ساخرًا من بين الصفوف:

ـ أم أن البخور والبر يشفعان لهما عندك!

فرد عليه آخر بسخرية أشد:

ـ أظن أن من يتزوج عربيّة يكون خارج الناموس!

شعرت بالمقت في حلقي ووددت أن أتقيأه، يا ربّاه! لماذا تفتنني في قومي؟ لماذا تجعلني أسير على الدرب الذي سار عليه أبي حتى أوشك أن أهلك كمدًا من أفعالهم!

قام (يوشع) من جلسته وصرخ في الناس:

ـ كفى! إياكم وقذف الأبرياء! فوالله لا نأخذن الناس بغير بينة!

فإذا بأعور العين يقول:

ـ أرسلوا من يبحث في دارهم عن البينة! فلعلهم أخفوا شيئًا هناك.

أيد الناس كلامه فصمت القائد (يوشع) قليلًا، ثم تنهد قائلًا:

ـ حسنًا! يا حراس! اذهبوا إلى دارهم أعلى السفح وفتشوا بها عن أي شيء مُريب.

ثم التفت إلى إخوة (عزرا) وقال:

ـ ولكن أقسم بالرب إيل لتكفرنَّ عن قذفكم لهما إذا لم يجد الحراس عندهما ما يريب.

وبينما كنا نصعد نحو السفح، ألقيت نظرة على أعور العين، فرأيت عينه

الوحيدة ترقص في شماتة، وتذكرت ليلة توهمت فيها أني رأيته يحوم حول البيت فانخلع قلبي حينئذٍ أو كاد!

* * *

حين وصلنا إلى الدار أُصِيبت النسوة بالذعر، وخرجت أمي بغير خمار وسط الرجال ثم صرخت قائلة:

ـ ماذا حدث يا (شمعون)؟

قلت لها مطمئنًا:

ـ لا شيء يا أمي، اطمئني!

صرخت (باتيا) في (بني عزرا) حين رأتهم وقالت:

ـ ماذا تريدون منا؟ تركنا لكم النزل وصعدنا إلى الجبل، فلماذا تتبعوننا؟!

قال (يوشع):

ـ اصمتي يا امرأة!

ثم نظر إليَّ وقال:

ـ مُرِ النساء أن يخرجن من الدار.

قلت:

ـ هؤلاء هن كل نساء الدار.

أشار إلى الحراس وقال:

ـ فتِّشوا الدار!

قال أخوهم الأكبر في غلظة:

ـ وأنا سأذهب معهم.

همَّت أمي بأن تتحدث ولكني أشرت إليها بأن تصمت.

مكث الحراس و(بنو عزرا) في الدار لبعض الوقت، بحثوا في الفناء وفي

صناديق الملابس، وقلبوا مائدة الخبز، فلم يجدوا شيئًا، خرجوا وقالوا لـ(يوشع):

ـ لم نجد شيئًا.

أشار أحدهم إلى بيت الخوص الذي أقمته لـ(شهبور) ثم إلى مربط الدواب وقال:

ـ ابحثوا هنا، وهناك!

لم يتحرك الحراس لأمره، ولكن (يوشع) أشار إليهم أن يفعلوا، فساروا إلى حجرة (شهبور) أولًا ففتشوها ولم يجدوا بها شيئًا، ثم توجهوا إلى مربط الدواب الذي امتلأ بالبعير، فاليوم يوم سبت ولم تخرج البعير للرعي، قال (يوشع):

ـ أخرجوا الخيل والبعير.

ساعدتهم أنا و(عامير) و(شهبور)، في إخراج الدواب، ثم دخل (يوشع) و(بنو عزرا)، وتبعهم حشد من الناس حتى اكتظ المربط بالجميع، نظر الناس في المربط الخالي إلا من روث الخيل والإبل وبعض القش والكلأ الجاف، فلم يجدوا شيئًا، كاد (يوشع) أن يأمر الجميع بالانصراف لولا أن صرخ أحد الناس وقال:

ـ انظروا!

نظرنا إلى حيث أشار فإذا بنا نرى مقبضًا لسكين يبرز من داخل كومة الروث، توجه (يوشع) نحو مقبض السكين، فأمسكه بحرص حتى لا يدنس يده، جذب السكين برفق فلم تخرج، وكأنها قد غرزت في شيء صلد، جذبها بقوة أكبر فإذا بالسكين يخرج وقد غرز نصله بين عيني رأس مقطوعة جحظت عيناها في رعب.

جفل (يوشع)، وجفل الحراس معه وصرخ الناس في رعب:

ـ يا قدوس، ارحمنا.. يا قدوس، ارحمنا!

وصرخ أحد أبناء (عزرا) وقال:

ـ واخالاه! لقد قتله السفلة ودنَّسوا رأسه في روث البهائم.

ثم استل سيفًا من جانب أحد الحراس واندفع به إليَّ أنا و(عامير) قائلًا في جنون:

ـ والله لأقتصن لدمه منكما!

أمسك (يوشع) بيده، وأحاطه أحد الحراس من وسطه بينما سقطت أنا على الأرض خائر القوى، أتقيأ خبز العيد الذي أكلته في الصباح.

صرخ أبناء (عزرا)، ومعهم العشرات من بني إسرائيل:

ـ القصاص! القصاص من القتلة! القتل لمن قتلوا العجوز المسكين.

وانطلق حجر لم أدرِ مصدره، فأصاب كتفي، وشعرت به وكأنه قد انخلع من موضعه، دفع الحراس الناس بعيدًا عني وعن (عامير) وصرخ (يوشع) في حراسه:

ـ قيدوا القاتلين وادفعوهما إلى خيمة الاجتماع، فوالله لا يحكم في أمرهما إلا نبي الله (موسى).

لم أشعر بما يدور حولي، لم تشعر يدي بحبال الحراس التي قيدتها خلف ظهري، ولم تشعر عنقي بالجرح الذي دمي بعد أن جذب الحارس الحبل الخشن الملتف حوله، غامت عيني عن الرؤية حتى استحال من حولي أشباحًا تتراقص ظلالها بين غمام كثيف، خُيِّل إليَّ أنني أرى (أروى) تسقط على الأرض و(إبرام) ابني يمسك صدرها ويبكي في هلع، أمي تجلس على ركبتيها وتدفن وجهها بين يديها، و(شهبور) يحجز (باتيا) بذراعه حتى لا تلقي بنفسها بين الرجال، رائحة الروث ملأت أنفي وأحسست بطعمه في فمي بعد أن سقطت على وجهي عشرات المرات، ضربات الحجارة المصحوبة باللعنات والتي أصابت وجهي وجسدي، لم تؤلمني رغم الدماء التي سالت، وكأنما أصاب جسدي الخدر، أو انفصلت روحي عنه، فجأة امتلأت أذني بقرع الطبول مرة أخرى، وددت لو فككت يدي كي أصم أذنيَّ عنها، تلوِّي عنقي ودارت رأسي التي كادت

أن تنسحق تحت وطأة الصوت الرهيب، سمعت وقع خطواته مرة أخرى، وشممت رائحته التي فاقت رائحة الروث قذارة، صفيره الحاد المنغَّم، شعرت به كشفرة سكين حادة تمر فوق عنقي، ولكنه حين بدأ في ترنيمته الأثيرة رددتها معه بعد أن حفظتها عن ظهر قلب.

أطفِئوا النُّورَ بظلام القلوب

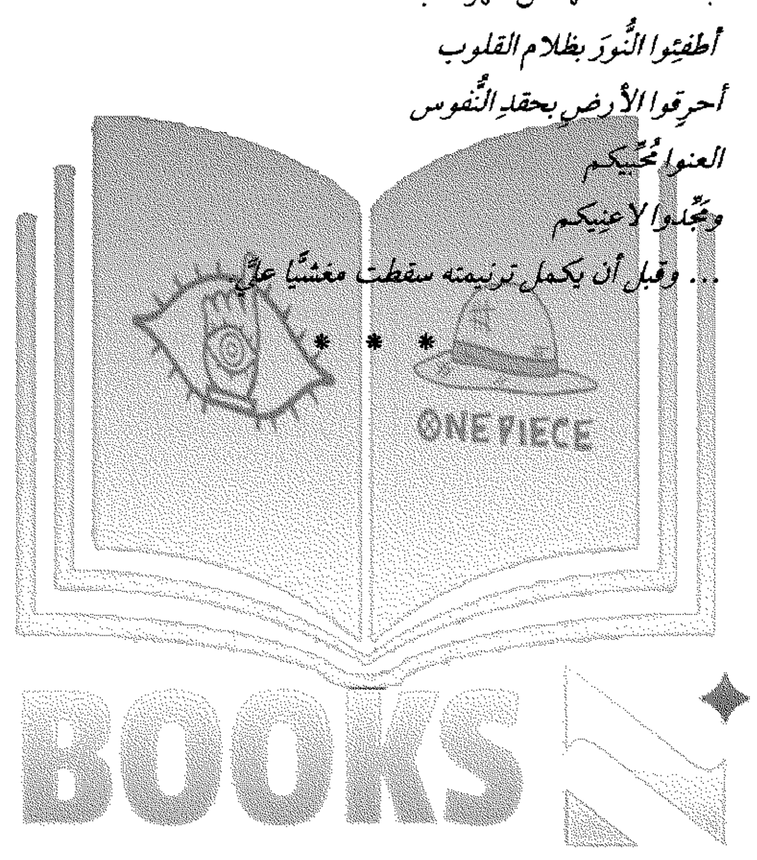
أحرِقوا الأرضِ بحقدِ النُّفوس

العنوا مُحبِّيكم

ومَجِّدوا لاعنِيكم

... وقبل أن يكمل ترنيمته سقطت مغشيًا عليَّ.

* * *



الورقة السابعة والستون

أفقت لأجد نفسي في خيمة صغيرة، مُقيدًا ومُلقًى على وجهي على الأرض، وإلى جواري يجلس (عامر) منكس الرأس وقد تلطخ وجهه بالدماء، تأوهت وأنا أعتدل، ثم سألته بجهد بالغ:

ـ (عامر)، هل أنت بخير؟

رفع رأسه المنكسة وقال في جهد:

ـ لست بحالٍ أفضل منك!

ثم بكى قهرًا وقال:

ـ لم أقتله يا (شمعون).

قلت:

ـ أعلم يا (عامر).

ثم قلت في جهد بالغ:

ـ لن يضيعنا الرب!

سمعنا جلبة شديدة خارج الباب، نظرت إلى فرجة الخيمة، فوجدت الحراس وقد وقفوا أمامها يمنعون الناس الذين تعالت صيحاتهم من الدخول إليها، قلت وأنا أجتهد حتى لا ينفطر قلبي من الحزن:

ـ لماذا يكرهنا هؤلاء؟!

حينئذٍ سمعنا صوت القائد (يوشع) يهتف في الحراس:

ـ أحضروا القاتلين وأولياء الدم إلى خيمة الاجتماع، فقد نزل الوحي بحكم الرب فيهما.

سمعت هتاف الناس وهم يقولون:

ـ تبارك مجد الرب، تبارك مجد الرب!

دخل الحراس فأعانونا على النهوض، ثم خرجوا بنا لتستقبلنا البصقات والشتائم، رأيت أقدام (عامير) ترتجف ونظر إليَّ في خوف، قلت له بشفتاي وأنا أحاول أن أربط على قلبي وقلبه:

ـ لن يضيعنا الرب!

وصلنا إلى خيمة الاجتماع، وجدت (شهبور) يقف إلى جوار خدام البيت ينظر إلينا في إشفاق وعينه تنفطر بالبكاء، أغلق الحراس مدخل الخيمة وجعلونا في صفين متقابلين، أنا و(عامير) في جهة، وأبناء (عزرا) في الجهة المقابلة، كان (يوشع) يقف إلى جوار الكاهن (هارون) أمام قدس الأقداس بينما كان نبي الله (موسى) بداخله، قال الكاهن (هارون) لأبناء (عزرا):

ـ يا أولياء الدم! أتدرون أن ملاك الرب في وسطكم الآن؟

شعرت بالطمأنينة حين قال (هارون) ذلك، بينما ارتعش صوت أخيهم الأكبر وهو يقول:

ـ نعم، وننتظر حكم الرب.

قال (هارون):

ـ أتدرون أيضًا أن الرب لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟!

ازدادت رعشة صوت الرجل، رغم تظاهره بالثبات وهو يقول:

ـ نعم، ولهذا أتيناه!

هزَّ (هارون) رأسه ثم التفت إليَّ أنا و(عامير) وقال:

ـ هل ارتكبتم تلك الخطيئة؟!

قلنا في صِدْق وفي صوت واحد:

ـ كلا.

هتف أحد أبناء (عزرا) في غضب وقال:

ـ وهل يسأل الجاني عن فعلته بعد أن وجدنا رأس القتيل عنده أيها الكاهن؟!

أشار (يوشع) نحو الرجل في صرامة وقال:

ـ يا هذا! حذارِ أن يعلو صوتك هنا!

ابتلع الرجل لسانه، ولم يجبه (هارون)، بل دخل (هارون) إلى قدس الأقداس للحظات ثم عاد ونظر إلى أبناء (عزرا) قائلًا:

ـ إن السيد الرب يأمركم أن تذبحوا بقرة!

قالوا في صوت واحد:

ـ بقرة!!

ثم ارتفع صوت كبيرهم مرة أخرى وهو يقول:

ـ بقرة! أيسخر منا (موسى)؟! نطالبه بالقصاص فيأمرنا بقربان!

رفع (يوشع) إصبعه نحو الرجل وكأنه يحذره من ارتفاع صوته مرة أخرى. فقال الرجل في صوت حانق ولكنه أخفض:

ـ بقرة!! أي بقرة؟!

قال (هارون):

ـ بقرة تحبونها أكثر مما تحبون أنفسكم! بقرة سجد لها أبوكم ولا تزال تسكن في قلوبكم.

صمت الجميع، وطافت بعقلي ذكرى أبيهم (عزرا) الذي كان يجادل (هارون)

في أمر العجل أيام فتنة (السامري)، فأدركت أن هذه النبتة الفاسدة لا يمكن أن تأتي إلا من أصل فاسد، وتعجبت من أن أبناء (عزرا) كانوا يعيرون (عامير) بمعصية إخوته، بينما كان أبوهم أحد الذين سجدوا للعجل!

قال أحدهم في تبرم:

ـ لا نفهم ما تقول أيها الكاهن، قل لنا أي بقرة تريد؟! صفها لنا فإن البقر كثير!

نظر (هارون) في عيني الرجل وقال:

ـ بقرة صفراء لامعة، تثير البهجة في النفس والنشوة في القلب!

شعر الرجل باضطراب ولم يعجبه كلام الكاهن (هارون) الذي يحمل أكثر من معنى. فقال في ضيق:

ـ أهذا ما أمر به السيد الرب؟

قال الكاهن (هارون):

ـ نعم، هذا ما أمر به السيد الرب! تذبحون بقرة صفراء لامعة، بقرة يُعَظِّمها أهلها، فلا تسقي الحرث، ولا تثير الأرض، وحينئذٍ يخبركم الرب بمن قتل خالكم!

فاضَ الكيل بالرجل فقال في غضب، غير مبالٍ بتحذيرات (يوشع) السابقة:

ـ ما لهذا أتينا أيها الكاهن! نحن نعلم القتلة! وما أتينا إلا لطلب القصاص! فإما أن يقتص لنا نبيك منها أو نقتلها بأيدينا!

استل (يوشع) سيفه وتأهب به، بينما قال (هارون) ناهرًا:

ـ أتعصي أمر الرب يا (بن عزرا)؟!

أسرع أوسطهم في تهدئة الأمر، فقال مدافعًا عن أخيه:

ـ معاذ الله أن نعصي أمر الرب أيها الكاهن، وما جئتَ به هو الحقّ!

ثم أردف:

ـ ولكننا لا ندري من أين نأتي ببقرة كهذه في برية «سين» حتى نحقق أمر الرب!

حينئذٍ قال (شهبور) الذي يقف بين خدام الخيمة بصوت عالٍ:

ـ أنا آتيكم بها أيها الكاهن!

بهت أبناء (عزرا) ونظر الجميع نحو (شهبور) الذي تلألأت الفرحة في عينيه، قال الكاهن (هارون):

ـ أين هي أيها الخادم؟

قال (شهبور):

ـ آتيكم بها من «رسة»!

تذكرت البقرة الصفراء التي كانت ترعى في «رسة»، والتي اشتراها (عمرو) و(شهبور) من أسواق «بكة»، تعجبت حينها من شراء (عمرو) لها، ولكن يبدو أن نجاتي اليوم مُعلَّقة بها، وتمنيت من قلبي ألا يكون (عمرو) قد ذبحها!

قال أبناء (عزرا):

ـ إنهم يماطلون في القصاص أيها الكاهن! لا توجد بقرة كهذه في برية «سين» كلها!

قال الكاهن لـ(شهبور):

ـ هل أنت قادر على ذلك أيها الخادم؟!

قال (شهبور):

ـ نعم يا سيدي.

قال (هارون):

ـ حسنًا! اذهب أيها الخادم فأتِ بها قبل أن ينقضي الأربعون يومًا على وفاة القتيل!

قال (شهبور):

- بل آتيكم بها قبلها ذلك أيها الكاهن.

أشار الكاهن (هارون) إلى أبناء (عزرا) وقال:

- انصرفوا.

ثم أشار إليَّ أنا و(عامير) وقال للحراس:

- ضعوا هذين في محبسيهما واعزلوا بينهما.

فتمتمت وأنا أسير بجوار (عامير) بالحمد وقلت:

- ألم أقل لك إن الرب لن يضيعنا؟!

* * *

مكثت في محبسي في الخيمة أيامًا، أنتظر عودة (شهبور)، فصل (يوشع) بيني وبين (عامير) ووضع كلًّا منا في خيمة، ورغم ذلك لم أشعر بالجزع، فقد كان أكثر شيء أتمناه في تلك الأيام هو العزلة، وضعت (أروى) طفلنا الثاني بعد أيام من تلك الحادثة.. مكثت أمي إلى جوارها بينما أخذت (باتيا) الطفل في قماط من القماش، وأتت به إلى محبسي، أذِن لها الحارس بالدخول، بعد أن تذكرها، فقد كانت هي من علَّمَت ابنته القراءة والكتابة، بكيت في فرح حين رأيت الطفل وقلت لـ(باتيا):

- صدقت (أم السعد) في نبوءتها وأنجبت (أروى) ذكرًا.

قالت (باتيا):

- تريد (أروى) أن تسميه (ثابت)!

قلت لها:

- بل أسميه (إسماعيل)!

نظرت إليَّ متشككة وقالت:

- (إبرام) و(إسماعيل)؟ أتريد أن تثير بني إسرائيل أكثر؟!

قلت:
ـ لا يوجد أكثر مما حدث! كيف حال (أروى)؟
قالت:
ـ بخير
قلت لها باسمًا:
ـ قولي لها أن تبرأ سريعًا، فأنا أريد أن أنجب اثني عشر طفلًا!
قالت في خجل:
ـ أصابك الحبس بالجنون!
قلت ضاحكًا:
ـ بل أصابني بالعقل! هل رأيت (عامر)؟
قالت في حزن:
ـ نعم! لا يزال يشعر بالانكسار أمامي!
قلت:
ـ إذا نجونا من تلك المحنة فسنعود إلى «رسة».
قالت سعيدة:
ـ حقًا! ليتك طاوعتني من قبل!
قلت:
ـ أخطأت التقدير وكنتِ أنتِ المحقة!
قالت:
ـ وأمي (رومانا)؟!
قلت:
ـ لن أتركها، وأظنها لن تتمسك بالبقاء بعد الآن!
قالت:
ـ وبيت الرب؟
قلت:

ـ الرب يحيا في قلبي.

قالت:

ـ ونبي الله (موسى)؟ والشريعة؟

قلت:

ـ سأروي وصاياه وأعلمها لأولادي.

قالت:

ـ والأرض المقدسة، وحلم أبي!

قلت:

ـ كل أرض تخلو من الشرور هي أرضي المقدسة!

قالت وهي تربت على كتفي:

ـ بدلتك تلك المحنة كثيرًا!

قلت:

ـ لم أعد تائهًا، أصبحت أختار طريقي!

قبل أن تنصرف ناديتها قائلًا:

ـ أحضري لي دواتي وقلمي وأوراقي، فأنا أشتاق للكتابة!

* * *

انطلقت الأبواق في النزل في وقت غير وقت الارتحال، فعلم الناس أن أمرًا جللًا سيقع، دخل الحارس الذي رافقني طيلة الأيام الماضية ونشأت بيني وبينه صداقة ومودة ثم قال في فرح:

ـ لقد عاد (شهبور) يا (شمعون)، عاد ومعه البقرة الصفراء!

أسرعت إلى باب الخيمة ونظرت منها نحو الجبل الذي يطل على الوادي، رأيت القافلة الصغيرة القادمة من «رسة» تهبط من فوق الجبل وتقترب من ساحة النزل وفي وسطها تسير بقرة صفراء يتلألأ جسدها في ضوء الشمس، شهقت حين رأيت القافلة يتقدمها ثلاث نوق عليها (شهبور)

و(عمرو بن دومة) و(ليث بن نابت)، بكيت وأنا أرى أصدقاء العمر قد هبّوا لنجدتي حين علموا بالمحنة التي لحقت بي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أهرول نحوهم بعدما أناخوا رحالهم في ساحة النزل، نادى على الحارس، فلم ألتفت إليه، التقينا أنا و(عمرو) و(ليث) و(شهبور) في عناق باكٍ وسط دهشة الجموع التي ملأت الساحة من بني إسرائيل، نفخ حارس خيمة الاجتماع في البوق مرة أخرى، فخرج النبي (موسى) والكاهن (هارون) و(يوشع بن نون) من الخيمة، وصمت الجميع احترامًا لهم، حمل بعض الرجال صندوقًا من الخشب به رأس القتيل وجثته التي فاحت منها رائحة مقيتة لم تستطع أن تخفيها رائحة الصندل والبخور ثم وضعوا الصندوق في منتصف الساحة، نادى (يوشع) على أولياء الدم فوقفوا عن يمين الساحة، ثم نادى عليَّ وعلى (عامير) فوقفنا عن يسارها.

أشار الكاهن (هارون) إلى (شهبور) وخدام المعبد كي يصعدوا بالبقرة إلى المذبح، طاوعت البقرة ساحبيها وكأنها تعلم أنها قد جاءت لأجل تلك المهمة فحسب، وعلا بعض الهمس من حولي، فطرقت أذني عبارات منه، قال أحد الحراس لزميل له:

ـ أليست هذه هي بقرة المصريين المقدسة؟!

قال الرجل:

ـ بلى، لا أدري كيف أتوا بها إلى هنا وكيف يجرءون على ذبحها؟!

وقفت البقرة شامخة فوق المذبح تتطلع في هدوء إلى بني إسرائيل الذين خفقت قلوبهم في رعب، بينما وقف إلى جوارها (شهبور) وهو يحمل في يده سكينًا عظيمة.

قال (موسى):

ـ يا بني إسرائيل، ما قولكم في هذه البقرة؟

جاء صوت مرتجف من بين الجموع يقول:

ـ تلك هي بقرة المصريين المقدسة!

قال (موسى):

ـ بل هي البقرة التي سجد آباؤكم لتمثالها في يوم من الأيام، أليس كذلك؟

لم ينطق أحد.. فأردف متهكمًا:

ـ ما لي أرى قلوبكم لا تزال تخفق لها! أتظنون أنها تضر أو تنفع؟

لم يجرؤ أحد على الرد، وإن أفصحت العيون بخوفهم منها.

صمت ثم قال في أسف وهو ينظر إلى الرءوس المنكسة:

ـ أتدرون لماذا لم يرفع الرب التيه عنكم؟

تعلقت العيون به.. فتابع:

ـ لأن العجل لم يرحل من قلوبكم!

ثم أردف:

ـ ولكنه اليوم قد آنَ له أن يرحل!

ثم صاح في الخدام:

ـ اذبحوا البقرة، وقدموها قربانًا للرب حتى يعلم بنو إسرائيل أن الرب إله بني إسرائيل هو من يأتي بالمعجزات.

ولم يضيع (شهبور) لحظة. قال بصوت عالٍ:

ـ تقدس اسمك يا ربنا في الأرض والسماء.

ثم مرَّ بسكينه على رقبة البقرة فانبجث منها الدم فوق المذبح، وسقطت البقرة على جانبها في استسلام وهي تصدر خوارًا ذكَّرهم بخوار عجل (السامري).

أشار (موسى) إلى (شهبور) كي يفصل ذيل البقرة، ففصله، ثم التفت إلى بني (عزرا) وقال:

ـ أما أنتم يا أولياء الدم، يا من تطلبون القصاص، فلتعلموا أن الرب لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه قادر على أن يحيي الموتى.

ثم قال للابن الأكبر:

ـ اضربه بذيلها.

أمسك الرجل بالذيل وهو يرتجف.. تقدم نحو جثة خاله ثم ضربها بذيل البقرة، فإذا بالجسد ينتفض، وإذا به يجلس في صندوقه الخشبي وكأنما بُعِثَ بعد موته.

صرخ الناس في رعب، وأغشي على أعور العين من الخوف.

تقدم الكاهن (هارون) من القتيل وسأله:

ـ من قتلك أيها الرجل؟

خفقت القلوب إلا قلبي، وارتعدت الفرائص إلا فرائصي، فقد كنت على يقين بأن الرب ما أجرى تلك المعجزة إلا لينصرني.. أشار الرجل القتيل إلى أبناء (عزرا) وقال:

ـ طعنني هذا، ثم أجهز عليَّ هذا، ثم قطع رأسي هذا.

ثم سقط الرجل ميتًا مرة أخرى.

جثا الناس على الأرض ونكسوا رءوسهم أمام معجزة الرب، بينما صرخ أبناء (عزرا) في رعب، وقالوا:

ـ الرحمة أيها النبي، الرحمة أيها الكاهن، ادعوا الرب أن يغفر لنا!

ولكن (موسى) أشار إلى (يوشع) وقال:

ـ اقتلوا هؤلاء قصاصًا لفعلتهم، وليعلم بنو إسرائيل منذ اليوم أن من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا.

* * *

الورقة الثامنة والستون

اليوم سأترك بني إسرائيل، ولكني أعرف وجهتي هذه المرة، لن أخرج بليلٍ ولن أخرج وحيدًا هاربًا كما خرجت في أول مرة، بل سأخرج آمنًا مطمئنًا في وضح النهار ومعي أهلي وكل أحبائي، ففككت أسري من كل الأغلال التي كبلتني بين بني إسرائيل، ووضعت عن كاهلي حلمًا سحق أبي من قبل وكاد أن يسحقني وراءه، أدركت أن السعادة في تحقيق الغايات وليس تحقيق الأحلام، فالحلم ما هو إلا وسيلة للوصول إلى الغاية! هلك أبي من أجل الوصول إلى الأرض المقدسة، ولكنه لم يسأل نفسه وماذا بعد؟ ماذا لو بلغ الأرض التي حلم بها، ولم يجد السلام الذي ينشده؟! الحب والسلام لا ينبتان من الأرض وحدهما! ولكن يزرعهما الإنسان ويرعاهما حتى يثمرا، وتلك القلوب التي أراها بين بني إسرائيل لا تملك بذور الخير حتى تزرعه.. قلت لأمي: لن أنتظر أربعين عامًا لأحقق غايتي، فغايتي أعرفها وسأحققها وحدي، سأنشر السلام والخير في كل أرض أحط بها، وسأدعو الناس إلى عبادة الرب الواحد وسأعلم أبنائي وصايا النبي الأعظم، الذي تحمَّل في حياته ما لم يتحمله بشر!

صليت آخر صلاة لي في خيمة الاجتماع، إلى جوار (شهبور)، وبعد أن فرغنا من الصلاة احتضنني طويلًا، ثم بكى قائلا:

ـ أهذه نهاية الرفقة؟

قلت له:

ـ الغاية واحدة ولكن الطريق المختلف!

قال:

ـ ألا تخشى من أن تسير في الطريق وحدك!

قلت:

ـ لم أعد وحدي! معي كل ما أحتاجه إليه في الدنيا!

قال:

ـ سأشتاق إليك!

قلت:

ـ وأنا أيضًا.. لن أكف عن تتبع أخباركم.

ثم أشرت إلى صندوق كبير إلى جواري وقلت:

ـ أريد أن أعطيك شيئًا.

قال:

ـ ما هذا؟

قلت له:

ـ هذه أوراقي، اجعلها معك، فتلك شهادتي على بني إسرائيل.

نظر إليَّ في دهشة، ثم قال في جزع:

ـ أذلك فراق بلا رجعة يا (شمعون)؟!

قلت له:

ـ كلا، ولكن احفظها معك حتى تدخلوا الأرض المقدسة!

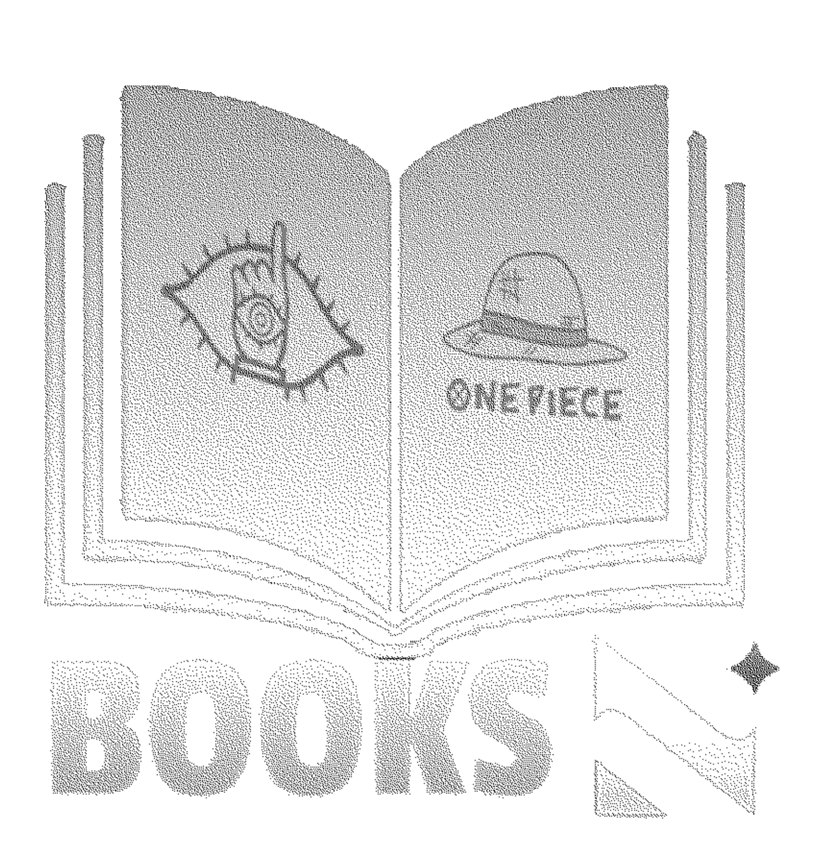
قال:

ـ وبعد ذلك؟!

قلت وأنا أمسح دمعة فرَّت من عيني:

ـ ادفنها في ثراها! فيكفيني أن تكون ذكرى (بني زخاري) حاضرة في الأرض المقدسة، حتى وإن لم يدخلوها!

* * *



تتمة أوراق (شمعون المصري)

كتبها (زخاري بن شمعون بن رأوبين)

في الشهر الثامن لسنة ستين بعد الخروج.

وصلت القافلة الصغيرة القادمة من «رسّة» إلى جبل «نبو»، أناخ أخي (إسماعيل) الناقة ثم جذب يد أبي حتى يعاونه على النزول، استند أبي إلى عصاه ووقف يتطلع إلى الجبل الأحمر الذي انتثرت فوقه خيام بني إسرائيل، ثم نادى عليَّ قائلًا:

ـ (زخاري)!

قلت له:

ـ نعم يا أبتاه!

قال:

ـ تعالَ لأستند إليك!

استند إلى كتفي بيد واتكأ بالأخرى على عصاه كعادته التي يداوم عليها أثناء سيره حتى يشعر بقربي منه. أسرع أخي (إسماعيل) ليخبر باقي إخوتي بوصولنا، حين اقتربنا من خيمة الاجتماع رأينا أخي الأكبر (إبرام) يهرول تجاهنا فرحًا ومعه باقي إخوتي، انحنى (إبرام) ليُقَبِّل يد أبي، وهو يقول:

ـ حمدًا للرب على الوصول سالمًا يا أبتاه!

ثم تبعه إخوتي الواحد يتبع الآخر:

نظر أبي إليهم معاتبًا، ثم قال لأخي الأكبر:

ـ ألم أقل لكم لا تجتمعوا في مكان واحد يا (إبرام)!

قال (إبرام) معتذرًا:

ـ جمعنا نبي الله (موسى) ليلقي وصيته على شعب إسرائيل!

جاء صوت من خلفنا يقول:

ـ أتخشى الحسد على أبنائك منا يا (شمعون)!

التفت لأجد شيخًا طاعنًا في السن يقف متكأً على عصاه وقد امتدت لحيته البيضاء حتى دنت من ركبته، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة.

العجيب أن أبي قد ميز الصوت قبل أن يستدير إليه، ابتسم وهو يستدير في بُطْء ثم قال:

ـ يا الله! (شهبور) العجوز لا يزال حيًا.

ضحك خادم الخيمة وقال:

ـ عجوز! انظر إلى نفسك أيها الشيخ الهرم.

ثم خطا في سرعة لا تتناسب مع عمره واحتضن أبي في قوة وهو يقول:

ـ مرحبًا بك يا (أبا إبرام).

تشابك مرفقاهما وسارا جنبًا إلى جنب، قال الشيخ:

ـ يئست من أن أراك ثانية! كم من مرة أرسلت إليك رسولًا كي تعود وكنت تأبى!

قال أبي في حزن:

ـ لم أستطع فراق أرض بها رفات (أروى)!

قال الشيخ:

ـ رحمة الله عليها! كانت زوجة صالحة وأحسنت تربية أبنائها!

ثم أشار إلى إخوتي الذين ساروا خلفنا وقال:

ـ حفظ الله أبناءك يا (شمعون)، قد أكثر الله في نسلك وبارك لك فيه! ورزقك اثني عشر ابنًا مثل (إسماعيل) و(يعقوب).

قال أبي:

ـ وهذا هو (زخاري)، أصغر أبنائي وأحبهم إلى قلبي.. ثم همس في حزن:

ـ ماتت (أروى) وهي تنجبه.

مسح الشيخ (شهبور) على رأسي في رفق وقال:

ـ ألهذا السبب لا تفارقه؟!

قال أبي:

ـ ربما.

لمح الشيخ (شهبور) لفافة ورق تتدلى من نطاقي، أمسك بها وفتحها وقال في دهشة:

ـ إنه يهوى الكتابة مثلك!

قال أبي:

ـ نعم.

ابتسم الشيخ (شهبور) ثم ربت على كتفي وقال:

ـ ما زلت أحتفظ بأمانة أعطاها لي أبوك منذ أكثر من ثلاثين عامًا

قلت مشدوهًا:

ـ حقًّا!

قال:

ـ نعم، وفي المساء سنجلس سويًا وأخبرك بالكثير من الحكايات عنها.

سأله أبي في شوق:

ـ كيف حال نبي الله؟

قال في أسف:

ـ ليس بخير، اشتد به الحزن بعد وفاة (مريم) و(هارون). وجاءه ملاك الرب أمس!

ثم تقدم نحوه وهمس قائلًا:

ـ أراه الرب الأرض المقدسة من فوق الجبل الأحمر أمس، وبعدها أخبره ملاك الرب بأنه لن يدخلها!

رأيت الألم على وجه أبي الذي صمت قليلًا ثم قال:

ـ أريد أن أراه! هل هو في خيمة الاجتماع؟

قال الشيخ (شهبور):

ـ كلا، ألقى وصيته الأخيرة على الشعب ثم صعد إلى الجبل مع (يوشع بن نون)، وسيمكث هناك في الغار في انتظار ما يأمر به السيد الرب.

تنهد أبي في حزن وقال:

ـ يبدو أن نهاية الرحلة قد أوشكت!

هزَّ (شهبور) رأسه ثم قال في أسف:

ـ نعم.

ثم قال مغيرًا الحديث:

ـ هيا يا (شمعون)! فلعلك تشتاق إلى السلوى.

قال (شمعون):

ـ بل أشتاق إلى صلاة معك في خيمة الاجتماع.

* * *

ارتفع صوت البوق ورأيت حركة دائبة عند خيمة الاجتماع، توافد الناس أمام الساحة الواسعة، ثم وقف رجل فارع الطول، أشيب الشعر يرتدي زي الفرسان، وتبدو عليه علامات القوة رغم سنوات عمره التي تفوق عمر أبي بكثير، وعلمت من أبي أن اسمه (يوشع بن نون)، كان (يوشع) يقف أمام خيمة الاجتماع، وخلفه يقف عدد كبير من الكهنة وخدام المعبد يبكون وكان من بينهم الشيخ العجوز (شهبور)، تحدث (يوشع) في حزن وقال:

ـ لقد مات نبي الله!

ارتفع صراخ الناس، حتى شعرت بالأرض ترتجف تحتي ورأيت أبي يترنح وقد خارت ساقاه، فاستند إلى كتفي وقال:

ـ أجلسني على الأرض يا (زخاري).

أجلسته وأنا أبعد عنه دهسات الناس الغافلة التي كانت تتساقط باكية، وهي لا تصدق أنها ستفارق معلمها ومربيها إلى الأبد.

قال أحد الشبان:

ـ نريد أن نلقي النظرة الأخيرة على معلمنا أيها القائد.

قال (يوشع):

ـ لقد أمرنا بألا يعرف مكان قبره أحد، وألا يوضع على قبره شاهد!

قال شاب آخر وهو يبكي في حرقة:

ـ لماذا تركنا وحدنا بعد أن اقتربت الرحلة من نهايتها؟

قال (يوشع):

ـ هكذا أراد السيد الرب! أن تقوموا أنتم يا تلاميذ (موسى) بما لم يقم به آباؤكم! أن تدخلوا الأرض المقدسة، فتعملوا بها بوصية آبائكم (إبراهيم) و(إسماعيل) و(إسحاق) و(يعقوب)، أن تحفظوا الناموس كما أتاكم به (موسى)، وأن تنشروا السلام وعبادة الرب الواحد الأحد في كل الممالك، تلك هي الغاية،

وتلك هي الوصية يا بني إسرائيل.

ثم قال:

ـ غدًا يتحرك الركب فتعبرون نهر الأردن، وتنقشون وصاياه على حجر نقشًا جميلًا، ثم تصعدون إلى الأرض المقدسة.

وبعد أن انصرف الناس قال أبي:

ـ خُذْنِي إلى الجبل الأحمر يا (زخاري).

قلت له:

ـ لماذا يا أبي؟ لا يوجد أحد هناك!

قال:

ـ سأمكث في الغار الذي مكث فيه (موسى) حتى يحين موعد الرحيل!

* * *

رددت جنبات الوادي أصوات الأبواق التي انطلقت من خيمة الاجتماع فوق جبل «نبو»، تدعو الناس لاستئناف الرحيل، تحركت جموع الشعب لتقطع الشوط الأخير في الرحلة إلى الأرض المقدسة، الرحلة التي استغرقت ما يقرب من خمسين عامًا ولم يتبقَّ منها سوى بضعة أيام يعبرون بعدها النهر إلى أرض المعاد، حمل زعيم كل سبط من الأسباط رايته وساروا في ترتيبهم المعهود، تقدم بنو «هارون» الركب يحملون تابوت العهد على الأكتاف وينفخون الأبواق بين الفينة والفينة، وقد انسل من ورائهم مئات الألوف من شعب بني إسرائيل، يثيرون خلفهم سحابة من الرمال هي كل ما تبقى من ذكريات عاشوها فوق جبل الأحزان، اختلط حنين النوق وخوار الأبقار ببكاء الرجال والنساء، فلأول مرة يتحرك الركب بدون المعلم والمخلص، بعد أن مات نبي الله (موسى).

ذابت سحابة الرمال تحت طيات الغمام المتراكية أسفل السفح، وتبددت أصوات الجموع أمام صفير الرياح المتسارعة فوق الجبل الموحش، ولم تمضِ

دقائق حتى مالت الشمس إلى الغروب، توكأ على عصاه ثم قام من جلسته واتجه إلى باب الغار الذي آوى إليه طوال الأيام الماضية، سار في وهن بظهرٍ أحنته السنون إلى خارج الغار، حاملًا بيديه المعرقتين كومة من الحطب، أردت أن أساعده في حملها ولكنه أبي، أشعل كومة الحطب بصعوبة، ثم جلس يستضيء بنورها ويستدفئ بنارها، امتدت يده إلى صُرَّة من القماش، فتحها ليخرج منها أنيسيه في عمره الذي مضى: الدواة والقلم.. تناول لفائفه المصنوعة من أوراق البردي بجهد يشي بحجمها الضخم، تحسستْ يداه السجل الذي أفنى عقودًا من عمره في كتابته في حنان، ثم فتحه برفق على صفحته الأخيرة، غمس قلمه في الدواة وشرع يكتب بيد أرعشتها سنوات العمر وبرودة الجو:

ـ «وبعد، فهذا ختام ما كتبه (شمعون بن زخاري)، والملقب بـ(شمعون المصري)، عن أخبار بني إسرائيل في أرض «سين»، وما كان من أمرهم منذ عبور البحر وحتى وفاة نبي الله (موسى بن عمران)، وأعلم أني ما كتبت في هذا الرقاع إلا أحد أمرين؛ أمرٍ شهدته بعيني أو أمرٍ سمعته من رجل من الرجال الثقات، وأشهد الرب (إيل) أني ما بغيت بهذا الكتاب مجدًا ولا شرفًا، وإنما إظهار شهادتي على جيل من شعب بني إسرائيل، اصطفاه الله وأنجاه بمعجزة من عدوه، ثم غضب عليه وأهلكه في تلك البرية القفراء بعد أن أذاقه شقاء الارتحال ومرارة التيه.. هذا كتاب لا أدري من سيكون قارئه، فأيًّا من تكون أرجو أن تتذكر كاتب هذه الأبواب بالرحمة وأن تدعو له بالغفران».

ثم ذيلها باسمه: (شمعون بن زخاري بن رأوبين) الملقب بـ(شمعون المصري)، طوى السجل وهو يلهث، وكأنما أرهقته الكتابة، ثم أعطاه لي وقال:

ـ احفظ هذا يا (زخاري)، وانقله لأبنائك واجعلهم يورثونه لأبنائهم جيلًا بعد جيل!

قلت له:

ـ أمرك يا أبي! ثم قلت وقد شعرت ببرودة الجو تزداد.

ـ ألن نلحق ببني إسرائيل أسفل الجبل.. لقد أطبق الليل؟

قال:

ـ نلحق بهم في الصباح، فلن يسيروا بليل!

ثم تنهد قائلًا:

ـ أريد أن أقضي ليلة أخيرة في غار به ريح (موسى).

ثم تمدد فوق الحصير على الأرض، فدثرته بغطاء من وبر الإبل. جذبني إليه ثم قبّلني في رأسي وهو يقول باسمًا:

ـ أتدري أن أمك قد وضعت فيك كل حنانها ثم رحلت!

قلت له:

ـ أتمنى أن أراها!

أغمض عينيه وقال:

ـ وأنا أيضًا.

تمت في القاهرة ٥ يناير ٢٠٢١

